

تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان

تأليف
العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

وتدبره

فضيلة الشيخ
عبد الله بن عبد العزيز بن عفيصل
فضيلة الشيخ
محمد الصالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة
عبد الرحمن بن محمد اللوح

طبعة جديدة مطبقة منه نسخ خطية مع زيادات
طبع لأول مرة

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



الطبعة والنشر والتوزيع

مركز النشر والتوزيع
شارع عين شمس الجديدة
القاهرة - مصر
تلفون: ٢٠٣٠٠٠٠٠
فاكس: ٢٠٣٠٠٠٠٠٠
عنوان البريد الإلكتروني
resalah@resalah.com

Resalah
Publishers

Tel: 20300000 - 20300001
Fax: 20300000 - 20300001
P.O. Box: 117060
Heliopolis - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web Location:

http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٠ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

٤

تفسير الكبرياء الحزب

في تفسير كلام المثنان

تأليف

العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٣٠٧ هـ - ١٣٧٦ هـ بحمد الله تعالى

قدم له

فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة

عبد الرحمن بن عقيل التويحي

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنجد ما كنا نعبد
أدبار الخلق ولا نؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنجد ما كنا نعبد
أدبار الخلق ولا نؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنجد ما كنا نعبد
أدبار الخلق ولا نؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنجد ما كنا نعبد
أدبار الخلق ولا نؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنجد ما كنا نعبد
أدبار الخلق ولا نؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنجد ما كنا نعبد
أدبار الخلق ولا نؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
أما بعد :
فإن من نعم الله عز وجل ما يفيض به على والدنا الشيخ : عبد الرحمن بن ناصر
السعدي من تأليف تفسيره المعروف بتفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام
المنان) فقد كنت الله لهذا التفسير القبول فانتفع به الجسم الفقير من القاصي
خطيب مرات عديدة أولاها : طبعة المكتبة السلفية وطبعتها لمحمد الدين
الطيب - رحمة الله - أعقبها طبعة المؤسسة السعودية بمراجعة وتصحيح
محمد هريش البخاري ، ولكن كثيرا من العلماء وطلبة العلم لاحظوا
على هاتين الطبعتين - خاصة طبعة البخاري - ملاحظات عديدة ، حوت
على المطبوعات اللاحقة جميعها ، وقد تبين صدق هذه الملاحظات
وظهرت أضعافها عند مراجعة التفسير على نسخته المتداولتين ، فإن
ما في المطبوع من الأخطاء والنقص والزيادة .

ولقد علمنا جهده : عبد الرحمن بن معلا اللويحه - الأستاذ المساعد في كلية الشريعة
بالمدينة - من تصحيح تفسير والدنا ، ومقابله على نسختين الخطيتين مع
إخراجه في مجلد واحد على هامش المصحف ، فرأينا أن هذا العمل
قد سلم من عوار الأعمال السابقة فتبين عنها طباعة التفسير على
النسخة التي نطباعها والحمد لله - ومراجعة على نسخة الطبعة التي اعتمدا
المطبوعة السلفية ، فصار التفسير بهذا أكثر مما يكون لما أراده مؤلفه
رحمة الله - فأنهذه الاتثمارات فإننا نعتقد هذه الطبعة بتفصيل ومقابلة
عبد الرحمن بن معلا اللويحه ، ونعددها الطبعة التي يجب أن تكون أصلا
لغيرها من الطباعات اللاحقة ، ونأمل أن تكف المطابع ودور النشر عن
إعادة طباعة الطباعات السابقة لما فيها من أخطاء تبين براءة صحة
هذا العمل المبارك

صعد عاتقا الله عز وجل أن يفضر للوالد الشيخ : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، وأن
يجزل له الأجر والثمرة وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

عبد الرحمن بن معلا اللويحه
محمد الفيصل السعدي
محمد الفيصل السعدي
عبد الحميد السعدي

القدماء

مقدمة فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل.

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

مقدمة المحقق.

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقيض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارة قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيلييات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بتريخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منَّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهاً في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقيته، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضياً في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله النامس بالقراءة والتدريس، ودرسه لإخواننا وأبنائنا الطلاب وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مؤاخذه.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابنتنا الشيخة الفاضلة: عبد الرحمن بن معلل اللويحي الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة مراعيًا في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبني، وسررت بها جداً مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظاً وفهماً، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة

التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ١٩/٧/١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

Handwritten text at the top of the page, possibly a header or title, which is mostly illegible due to fading and bleed-through.

Second line of handwritten text, continuing the document's content.

Third line of handwritten text, showing some structural elements like a colon.

Fourth line of handwritten text, appearing to be a list or series of items.

Fifth line of handwritten text, possibly a continuation of the list or a separate point.

Sixth line of handwritten text, showing a colon and some indistinct characters.

Seventh line of handwritten text, continuing the flow of the document.

Eighth line of handwritten text, possibly a concluding sentence or a new section.

Ninth line of handwritten text, showing some faint markings and possibly a signature area.

Tenth line of handwritten text at the bottom of the page, which is very faint and difficult to read.

مقدمة المحقق

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغوياة: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً، وفهماً: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ومن سبل ذلك التدبر، والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن فيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ فألفوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكليات، ودفعوا التعارضات المتوهمه، وبيّنوا مراجع الضمائر، وعينوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعددة وكانوا طرائق قدداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جلّ عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانته على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفية، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد منّ الله عليّ بالعناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه رحمه الله وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومنّ الله عليّ بالعناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعاته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما ومقابلة للشيخ: عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير وينسخه المخطوطة، وطبعاته فتبين أن في الطبعات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طبعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتبيون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنهاه في عام ١٣٤٤هـ.

وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه إذ يمثل كتابة عالمٍ ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

وقد كتب نسخة واحدة ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم يُنسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي)^(١) و فوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقوله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر ()»^(٢) سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته.

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعكم تفلحون﴾ وآخره: آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين. أمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي).

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطرأ تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف وآخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارى.

وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطرأ تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطرأ تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره: آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطرأ، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطرأ تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:

المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها، ولا أكتفي بذكرى ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنى» تشني فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط معاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي البريكان، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ

عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة في كل صفحة (٣١) سطرأ تقريباً.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل التأمي فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسما الناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة كل صفحة (٣١) سطرأ. وبداية المجلد ونهايته كمثيله في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد السام وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله ويقع في (١٠٣) صفحات في كل صفحة (٢٨) سطرأ وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر.

وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصول من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وقد أרך في ٣١/٢/١٣٧٤هـ ونص الخطاب تجده في هذه المقدمة وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطرأ، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطرأ وبدايته ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبد الله السام رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢). صفحة في كل صفحة (٢٢) سطرأ، وبداية الجزء ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة.

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ١٣٧٤هـ / ٢/٣٠. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الأمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاقتصار على طبعه فجعلنا له مقدمة وخمنا بأصول وكميات من أصول وكميات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب أو الشيخ حامد أو من ترجح وتحته على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيكم الثواب الجزيل، ويشكر مساعيك ويجزيك عنا أفضل الجزاء فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام.

محبتك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكميات التفسير للحاجة الشديدة إليها

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: وقد تكرر علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فآتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خير)^(٣) وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازها، يسر الله ذلك وسهله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطبعات، وهي أصل جميع الطبعات السابقة فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط

(٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦).

(٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨).

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعتمد الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إن الخ قصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويعتبرون كلامه ونشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ إلى قوله: ﴿قال رب انصرنى على القوم المفسدين﴾ فأتموا الآيات إلى قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ووليّه المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(١) وليس الأمر كما قالوا بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القارئ على هذه الطبعة في التفسير زيادات وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(٢) وكذا عند الجزء الرابع وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يشيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسملة^(٣).

٣- زيادة قوله من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة من ديارهم فصار النص

(١) (١/٢٨٨).

(٢) (١/١٤٩).

(٣) المخطوطة ب (٢/٢٣) وطبعة السلفية (٢/٣).

هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي (و) أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة (شعياً) فأمرهم).
فعدل النص حتى صار بزيادته هكذا: (أي: (و): أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعياً الذي أمرهم).

وبعدها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(١).

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما يعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما بتقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحیح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾: ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجيباً من العجب حيث غيرت عنه إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٢).

وقد تابعت كل الطبعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فاتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة زعم إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٣).

الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين وجاء في طبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٤) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تابعت الطبعات^(٥).

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ

(١) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦).

(٢) المخطوطة ب (٨٢)، طبعة السلفية (١١٧/١).

(٣) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١).

(٤) (١٣٨/١).

(٥) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظ تظهر عوار تلك الطبعة أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبيا فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة وهي قول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارى للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥ - ١٠٧) من سورة الأنعام حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من

الجزء الثاني، ولم يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم﴾، ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير وزيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبه إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢).

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامش لتلك التعقيبات فتعدى مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعدت عن الصواب، وجانبت الحق في أجلى معانيه مما شوه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة كما أنه اعترض على المؤلف، وزد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف للكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم)^(٥).

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)^(٦)، (العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح)^(٧)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٨)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٩).

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة.

(٢) ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥).

(٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١).

(٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

(٥) المصدر السابق (٩).

(٦) (١٠٤/١).

(٧) (١٥٩/١).

(٨) (٢٤٠/١).

(٩) (٣٤٦/١).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقيبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنونها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكتفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار وأشير هنا إلى ثلاث تعقيبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقيبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١ - وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به:

قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢ - إقحام تعليقات لا محل لها فمن ذلك. قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربيه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه»

٣ - الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم. الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(١) فكانه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ وليس هذا بخطأ بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إن هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجممل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطباعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل

سأداً للثلثة ومبرئاً للذمة .

العمل الذي قمت به :

لقد من الله علي بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعيت إليه جاهداً هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي :

أولاً: نسخ التفسير كما هو ويتضمن ذلك: إثبات الآيات المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، أو ردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول: إلخ القصة، أثبتتها على هذا الوجه، وحين تفتقر النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي :

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانية، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبدأ تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات :

الأولى: أن يكون الخطأ في الآيات فهنا أثبت الصواب ولا ألفتت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأثبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية: أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة: أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول: (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله - (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة^(١)) وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة).^(٢)

ثانياً - المقابلة :

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط :

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمر:

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - .

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته .

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل: الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب اللذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب) فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصنف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمشها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوق فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الاشكالات الآتية:

(أ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب وكان الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة (أ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة وجعلت جل اعتمادي عليها إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين

[] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها فقد جعلتها بين قوسين مركنين وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ إنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً يمكن الاستغناء عنها بقراءة الكتاب لمزيد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والاعلام أو القبائل . . ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتكثُر لا حاجة له .

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه - قدر الإمكان - وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل . وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملحوظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهبدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والاخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأَمْضوا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتي الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادوا، والأخ فيصل بن طلع المطيري فللجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد .

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، وأستمد منه العون فهو وحده المستعان .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه .

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩هـ

Handwritten header or title at the top of the page, possibly including a date or page number.

First main paragraph of handwritten text, starting with a capital letter and containing several lines of cursive script.

Second main paragraph of handwritten text, continuing the narrative or list.

Third main paragraph of handwritten text, appearing to be a longer section or a separate entry.

Fourth main paragraph of handwritten text, possibly a concluding sentence or a separate note.

Large area of the page that is mostly blank or contains very faint, illegible handwriting, possibly representing a signature or a large block of text that has faded.

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها، ولا أكتفي بذكرى ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنى) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

1.4

$\text{rank}(A) = \text{rank}(A^T) = \text{rank}(AA^T) = \text{rank}(A^T A)$
 where A is an $m \times n$ matrix.

This property is useful in many applications, particularly in the context of least squares problems and data analysis.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدىً للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاءً للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاءً للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١). وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبيِّن لطريق الوصول إليها، وحاثٌّ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْأَقْسَامُ أَنْ تُقْرَأُوا وَتُصَلُّوا وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَتُرْجُوا رِجْلَكُمْ فِي الْغِلَاظِ وَالْغُلَقَاتِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ الْوَسِيلَ الْوَسِيلَ﴾، فبيِّن آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكراً، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [بقطع النظر عن المراد]^(٤).

(١) في ب: وأسقامها.

(٢) في ب: وأنزله.

(٣) في ب: بتميز.

(٤) زيادة من هاشم ب، مشطوبة من أ.

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدوهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيدة خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتد، أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العظيم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من
بدائع الفوائد
لابن القيم رحمه الله تعالى^(١)

[قال: فصل] التَّكْرَةُ في سياق النفي تَعْمُ، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رِبْكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَرِيَهُنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾. وإذا أُضِيفَ إِلَيْهَا «كُلٌّ» نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلَّى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتٍ رِيهَا وَكُتِبَ﴾ (وكتابه)^(٢).

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلَّى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ أَمْنٍ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتِبَ وَرَسُولِهِ﴾.

وعنوم أدوات الشَّرْطِ من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ﴾، وقوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلَوْا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾.

وإن كان مستقبلاً، فالترموماً ردَّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

(١) جاءت هذه الفوائد في: أ بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تقدم على الفاتحة).

(٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالافراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحفص - وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالمعجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله. ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة «على»، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً.

ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» و«لم يكن لهم»، وترتيب الحدّ على الفعل، ولفظة «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يركي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والجرم والإثم والمؤاخذه، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنتكار على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه.

فإن اقرن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل

وكل فعل عظّمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحُسن، أو نصبه سبباً لمحبة أو لثواب عاجل أو آجل^(١)، أو نصبه سبباً لذكره لعده، أو لشكره له، أو لهديته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٢) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحُزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قرية، أو أقم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٣)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعته المشتركة بين الوجوب والتدب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبعضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لدم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث^(٤)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثمياً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربهته، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبة إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظملاً أو بغياً، أو عدواناً أو إثمياً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً.

(٢) في ب: وإثارتها.

(٢) في ب: فاعله.

(٤) في ب: بالخبيث.

إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبيّة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بخرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعله في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله «هل أنت ممنه» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة «قتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكّيه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قبض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاعة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آياته، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: «لم تصدون عن سبيل الله من آمن»، «لم تلتسون الحق بالباطل»، «ما منعك أن تسجد»، «لم تقولون ما لا تفعلون» ما لم يقترن به جواب من المسؤول^(٢) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمحقق^(٣) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل متكئاً». وأما لفظة «ما يكون لك» و «ما يكون لنا» فاطرده استعمالها في المحرّم، نحو «ما يكون لك أن تكبر فيها»، «ما يكون لنا أن نعود فيها»، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاناً ومتاعاً إلى حين» ونحو «وبالنجم هم يبهتون». ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: «وإن تعجب فعجب قولهم» وقوله: «بل عجب ويسخرون». وقوله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله». وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله». ويدل على حسن المنع منه قدرأ، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

(١) في ب: فاعله.

(٢) في ب: عنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعد.

(٤) في ب: من السؤال.

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقدير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المفضل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئةً وتقدمةً لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظةً وتذكرةً.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

(١) في ب: نظر إلى.

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عاملها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن مَنْ فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حثَّ تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(١) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فلاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبده ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فلاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبدل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(٢) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٣) عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة

(١) في ب: أن يثبت.

(٢) في ب: ويتزهد.

بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.
فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيزاً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(١) مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيّه ومزكّيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!؟

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن^(٢) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان^(٣) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(٤)، وغير

(١) كذا في ب، وفي أ: المؤمن.

(٢) في ب: للمؤمنين.

(٣) في ب: الإنسان.

(٤) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفاسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الغلط الكثير).

ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك.

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها،^(١)] إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٢) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.

فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعوه، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٣).

ومنها: أن العلم بذلك^(٤) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفضعة.

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والفواطم البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: إيمان العبد به.

(٤) في ب: أن معرفة ذلك.

المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنفرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعيينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم وتعليق أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(٢) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٣) على المفساد.

وإن شرع في الحجج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجج على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباءً منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] مواردنا، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

(٢) في ب: مشتملة.

(٢) في ب: مشتملة.

تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ * وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: أبتدئ بكل اسم الله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعُمُّ جميع الأسماء [الحسنى]، «الله»: هو المألوه المعبود، المستحق لإفراجه بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، «الرحمن الرحيم»: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم [به] كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿الحمد لله﴾: [هرا] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. «رب العالمين»: الرب: هو الرببي جميع العالمين - وهم من سوى الله - بخلقه لهم، وإغداذه لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى. وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقه لهم، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخله تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله: «رب العالمين» على إفراجه بالخلق والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

«مالك يوم الدين»: المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يذان الناس فيه بأعمالهم خيرا وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعذله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلاق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم العمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدم^(٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده،

و«العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و«الاستعانة»: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة مقصوداً بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم» أي: دلنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: «صراط الذين أنعمت عليهم» من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، «غير» صراط «المغضوب عليهم» الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط «الضالين» الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد

(٢) في ب: وتقديم.

(١) في ب: فله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ۝ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

وَالَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

الهاديات، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانتقاد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحواس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم تره ولم تشاهده، وإنما تؤمن به بخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُمَيِّزُ به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسوله، فال مؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يتهد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذِّبين للأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومَرَجَتْ أحوالهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيةها، [وما أخبرت به الرسل من

وقوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، ف ﴿لا رب فيه﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الرب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿هدى للمتقين﴾، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: ﴿هدى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: ﴿هدى للناس﴾ فعلم، وفي هذا الموضع وغيره ﴿هدى للمتقين﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى، التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه بامتنال أوامرهم واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم

احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فنضممت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رب العالمين﴾، وتوحيد الإلهية، وهو أفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿الله﴾ ومن قوله: ﴿إياك نعبد﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتنا لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الحمد﴾ كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأن ذلك تمتع بدون الرسالة.

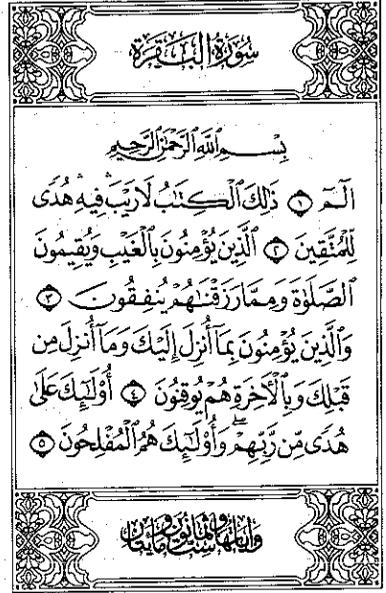
وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾، وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرة والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة البقرة وهي مدنية

١-٥ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ذلك الكتاب لا رب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ تقدم الكلام على السملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها، [من غير مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ نَكْتُبْ لَكَ رَبِّهِ هُدًى
 لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾
 وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ
 قَبْلِكَ وَيَآخِزُونَ هُمْ بِوَفْوَىٰ ﴿٣﴾ وَأُولَٰئِكَ عَلَىٰ
 هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

ذلك [فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتقونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنياً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(١) من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ «من» الدالة على التبعية، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزء يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به

(١) كذا في ب، وفي أ: وياؤها.

(٢) في ب: للعبد.

إخوانهم. وفي قوله: ﴿ورزقناهم﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي حوّل لكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعديين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى:

﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فالتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بحجده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾، و «الآخرة»: اسم لما يكون بعد الموت، وخصّه بالذكر [بالذكر] بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان

الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل، و «القيين»: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل. ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿على هدى من ربهم﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [عما خالفها]، فهو^(٥) ضلالة.

وأتى بـ «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: ﴿وإننا أو إياكم لعل هدى أو في ضلال مبين﴾ لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محقر.

ثم قال: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حضر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبيل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال:

﴿٦٦-٧﴾ ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾، يخبر تعالى أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يزدعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهو لاء الكفار لا تفيدهم

(٥) في ب: فهي ضلالة.

(٣) في ب: بجميع الكتب.

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها.

الدعوة إلا إقامة الحجّة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأسّ عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يُعون ما يتفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي يتفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطعم فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدّت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨ - ١٠﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ وأعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإذا

خاصم ففجر».

وأما النفاق الاعتقادي المُخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة «بدر»^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذلّ^(٢) من في المدينة عن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً ومخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلاً أحوالهم ووصفهم بأوصاف يميّزون بها، لئلا يعتز بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: ﴿يخدر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة الله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يُظهر المُخادع لمن يخادعه شيئاً ويُبطن خلافه، لكي يتمكن من مقصوده عن مخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم لأنه ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكانهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم، [شيئاً] وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحمقتهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن^(٦) القلب يعرض له مرضان يُخرجه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المرذبة، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة [الفواحش و] المعاصي وفعالها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعاني من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فُرِّق في آثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

(٦) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم

فكانهم.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت

وقعة بدر.

(٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: وهذا.

﴿١١ - ١٢﴾ **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾** ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴿أي: إذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين﴾ **﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾** فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية من يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية^(١)، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: **﴿إنما نحن مصلحون﴾** حصر للإصلاح في جانبهم. وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلت الله عليهم دعواهم بقوله: **﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾** فإنه لا أعظم فساداً^(٢) ممن كفر بآيات الله، وصَدَّ عن سبيل الله، وخرَّج داع الله وأوليائه، ووالى المحارِبين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً^(٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، بما^(٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمَّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدَّر لهم^(٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بفساد، كان سعيًا بالفساد فيها،

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد

تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.

(٥) في ب: التي سببها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

وإخراياً لها عما خلقت له.

﴿١٣﴾ **﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾** أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم^(٧) أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبهم إلى السفه؛ وفي ضمنه^(٨) أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى.

فردَّ الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(٩): جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجاء، مُعرِّفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه [وفي] دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة] والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤ - ١٥﴾ **﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾** الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿هذا من قولهم بألستهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يبيح المكر السيئ إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسُلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفيء نور المنافقين، وبُعثوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، **﴿ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم، وتربصتم وارتبتم﴾** الآية.

قوله: **﴿ويمدهم﴾** أي: يزيدهم **﴿في طغيانهم﴾** أي: فجورهم وكفرهم، **﴿يعمهون﴾** أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ **﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾** أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات **﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾** أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(١٠) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبةً عنه بالضلالة، رغبةً فيها، فهذه تجارتهم، فينس التجارة، وبش الصفقة صفقتهم^(١١).

(٩) كذا في ب، وفي أ: النسفة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فينس الصفقة.

وإذا كان من بذل^(١) ديناراً في مقابلة درهم خاسراً، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهماً؟ فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن أعاليها^(٢)؟ فما ربحت تجارتها، بل خسر فيها أعظم خسارة. ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين﴾. وقوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة. ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً، أي: كان في ظلمة عظيمة وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من

الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذاك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فانتفخوا بها^(٣) وحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك^(٤) إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وعم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر وظلمة الكفر وظلمة النفاق، وظلم^(٥) المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار [وبئس القرار] فلماذا قال تعالى [عنهم]: ﴿صم﴾ أي: عن سماع الخير، ﴿بكم﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿عمي﴾ عن رؤية الحق، ﴿فهم لا يرجعون﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم.

ثم قال تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾ يعني: أو مثلهم كصيب، أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فيه ظلمات﴾: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، ﴿ورعد﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وبرق﴾ وهو الضوء [اللامع] المشاهد مع^(٦) السحاب، ﴿كلما أضاء لهم﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: وقفوا. فهكذا حال^(٧) المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعبه، جعلوا أصابهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعبه، فيروعهم وعيده وترزعجهم

(١) في ب: يذل.
(٢) في ب: وترك أعاليها.
(٣) في ب: ما استضاءوا بها مؤقتاً وانتفخوا فحقت.
(٤) في ب: يذل.
(٥) في ب: وظلمة.
(٦) في ب: من.
(٧) في ب: حالة.



وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكبرونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل^(٨) أصابعه في أذنيه^(٩) خشية الموت، فهذا تمكن له^(١٠) السلامة. وأما المنافقون فأنتى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرةً وعلماً، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويمجزهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي: الحسية، ففيه تحذير لهم وتحذير بالعقوبة الدنيوية ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير مناع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القدرة القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿يا أيها الناس اعبدوا

(٨) في ب: فيجعل.
(٩) كذا في ب، وفي أ: أذنه.
(١٠) في ب: ربما حصلت له.

صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى :

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال:

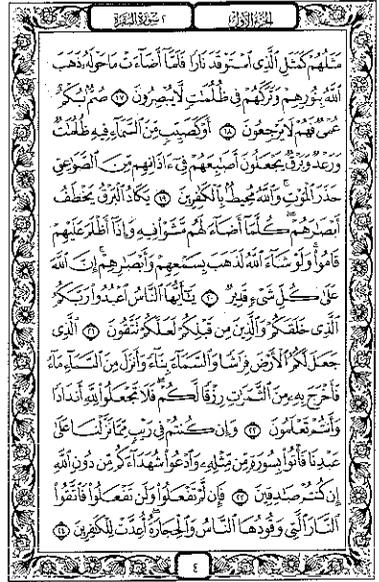
﴿وإن كنتم﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهناها أمر نَصَفَ، فيه الفيصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم^(٤)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوله واقتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرتون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٥) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كبنار الدنيا التي إنما تنقد

﴿ وأنزل من السماء ماء﴾ والسماء [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿ فأخرج به من الثمرات﴾ كالخوب والثمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿ رزقاً لكم﴾ به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكحون.

﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضررون، ﴿ وأنتم تعلمون﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٦)، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفة.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿ لعلمكم تتقون﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سنخه وعذابه، لأنكم أنتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين



ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ هذا أمر عام لكل^(١) الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتتفجعون بالأبنية والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٢) الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب: لجميع.

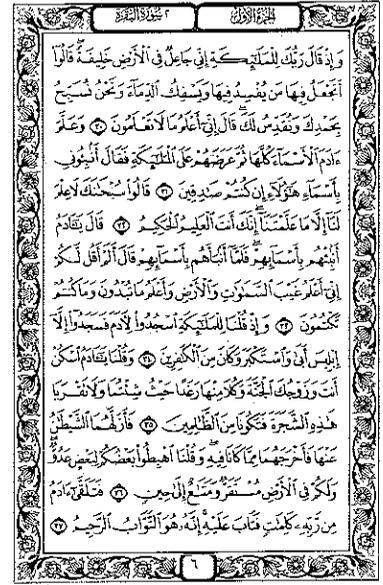
(٢) في ب: وجوه.

(٣) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

(٤) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله [بأفصحكم ولا بأعلمكم] وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون

الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.



العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرب متحبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل والأدب القولي والفعل، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمنى، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألتستنهن عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المَبَشَّر والمَبَشَّرَة، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمَبَشَّر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمَبَشَّرَة: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمَبَشَّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق،

(١) في ب: نسال الله من فضله.

(٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في إضلال من يضل.

بأفضل الأسباب.

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشـرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسال الله أن يجعلنا منهم (١)

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُمْ فَوْقَ مَّا أُخْرَىٰ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا بِيضٌ بِهَذَا كَثِيرًا وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أَي: أَيُّ مَثَلٍ كَانَ ﴿بِعَوْضَةٍ مَّا فَوْقَهَا﴾ لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكان في هذا جواباً لمن أنكـر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيقية، واعترض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فَيَتَفَهَمُونَهَا وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا﴾

فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضرها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابقة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون

ويتحiron، فيزدادون كـفراً إلى كـفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يَضِلُّ بِهَذَا كَثِيرًا وَهُدًى بِهَذَا كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة [ووضلالة] وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة [ورحمة] وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فـاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى (٢) فقال: ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهَذَا الْفَاسِقِينَ﴾ أَي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسـل الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا يغفون به بدلاً، فاقتضت حكمته تعالـ إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع يخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير يخرج عن الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الآية].

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه (٣)؛ والذي بينهم وبين عباده (٤)؛ الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويتركون نواهيـه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

(٣) في ب: وبين ربهم.

(٤) في ب: الخلق.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبه وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(١) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوا ما بيننا وبينهم وراء ظهورهم معترضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد يصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال أجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون،

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدييره وبزه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحقاقة؟^(٢) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتحافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي: خلق لكم برأ بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٣) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾

﴿استوى﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عدت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾^(٤)، «لستوا على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عدت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ فـ «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها»، و «يعلم ما تسرون وما تعلنون» يعلم السرّ

وأخفى.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه للمخلوق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠-٣٤﴾ ﴿وإذ قال ربك

للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتعمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان

من الكافرين﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر^(٥)، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿اتعمل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿وسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعل في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ﴿ونقدس لك﴾ يحتمل أن معناها: وتقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(١) في ب: يحقوهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.

نظيرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظيرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إني أعلم﴾ من هذا الخليفة ﴿ما لا تعلمون﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته لخلقه، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(١) من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه وانصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف ﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصبة.

﴿ثم عرضهم﴾ أي: عرض المسميات ﴿على الملائكة﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ في قولكم وظننكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قالوا سبحانك﴾ أي: نُبِّهْنا عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿لا علم لنا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿إلا ما علمتنا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا تخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحيث قال الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها. ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ تبيين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي: تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إلا إبليس أبى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أسجد لمن خلقت طيئراً﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيثنذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكليماً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

جهلوا، وتبيهم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عزّهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلامنا فيها رعداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرها بسكنى الجنة والأكل منها ﴿ورعداً﴾ أي: واسعاً هينئاً، ﴿حيث شئتما﴾ أي: من أي أضافت الشمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾، وأنت لا نظماً فيها ولا تصحى﴾.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء [أو حكمة غير معلومة لنا]^(٢)، ﴿فتكونا من الظالمين﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهيأ عنه، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، ﴿وقاسمهما﴾ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فاغترأ به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: المكلفين.

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهدكم﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة [وأوتيتهم الزكاة وأمنتم برسلي] إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أو حبت له خشية امتثال أمره واجتتاب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون، فأنتم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذبتكم له تكذيباً ما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتكم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدتهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدتهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه فكفر به وكذب بآياته.

ف ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفترون عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠ - ٤٣﴾ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرينه ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ * يا بني إسرائيل المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجذ ويجهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ * أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء أجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿من ربه كلمات﴾ وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ ورحمه ﴿إنه هو التواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توبيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ * كرر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويهديكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر

بعض ما أنزل إليه فقد كذب بجمعهم، كما أن من كفر برسولٍ، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أُولَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أبلغ من قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وأثروها.

﴿وإيساي﴾ أي: لا غييري ﴿فانتقون﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْبَسُوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وتكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحججة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وتكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاخترناو لأنفسكم إحدى الخاليتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرأ وباطناً ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأسمى العقل^(١) عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحججة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون * أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهاى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وإنها﴾ أي: الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الخاشعين﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحاً صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له بدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه.

(١) في ب: وسمي.

ولهذا قال: ﴿الذين يظنون﴾ أي: يستيقنون ﴿أنهم ملاقو ربهم﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونقّس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهولاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن ببقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

ثم كرّر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظا لهم وتحذيراً وحثاً. وخوفهم بيوم القيامة الذي ﴿لا تجزي﴾ فيه، أي: لا تغني ﴿نفس﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿عن نفس﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شيئاً﴾ لا كبيراً ولا صغيراً، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه، ﴿ولا يقبل منها﴾ أي: النفس، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنة، ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي: فداء ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقله: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿ولا هم ينصرون﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل^(١) به النافع.

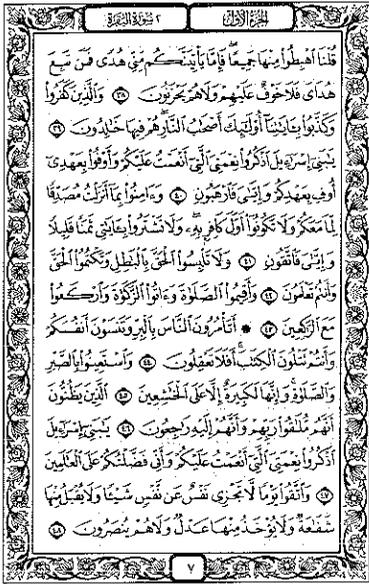
﴿ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل﴾ هذا نفي للنعف الذي يطلب من يملكه يعوض كالعدل، أو غيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلهم أنهم لا يملكون له مقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار، فيعبده وحده

لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

﴿٤٩ - ٥٧﴾ ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ ﴿وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومنا يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ ﴿وإذ قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل، فقال: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يسومونكم﴾ أي: يولونهم ويستعملونهم، ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشدّه بأن كانوا يذبحون أبناءكم وخشية نموكم ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي: فلا يقتلونها، فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة، مستحيين على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم.

﴿وفي ذلكم﴾ أي: الإنجاء ﴿بلاء﴾ أي: إحسان ﴿من ربكم عظيم﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

ثم ذكر منته عليهم بوعدته لموسى أربعين ليلة لينزل عليه التوراة المتضمنة



للنعم العظيمة والمصالح العظيمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده، أي: ذهابه.

﴿وأنتم ظالمون﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً وأكبر إنمأ.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً، فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله.

﴿وإذ قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ وهذا غاية الظلم والجرأة على الله وعلى رسوله، ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾: إما الموت، أو الغشية العظيمة، ﴿وأنتم تنظرون﴾ وقوع ذلك، كل ينظر إلى صاحبه ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾

ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق، فقال: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك، ﴿والسلوى﴾ طائر صغير يقال له السماني، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم

فلنا ما تنبت الأرض من بقلها ﴿٥١﴾ أي : نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ، ﴿وقثائها﴾ وهو الخيار ﴿وفومها﴾ أي : ثومها ، والعدس والبصل معروف ، قال لهم موسى ﴿أستبدلون الذي هو أدنى﴾ وهو الأطمعة المذكورة ، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم ، فإن هذه الأطمعة التي طلبتم ، أي مصر هبطتموه وجدتموها ، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم ، فهو خير الأطمعة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلاً ؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم ، فقال : ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿والمسكنة﴾ بقلوبهم ، فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهمهم أردأ الهمم ، ﴿وبأواؤا بغضب من الله﴾ أي : لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم ، فبئست الغنيمة غنيمتهم ، وبئست الحالة حالتهم .

﴿ذلك﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم ، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا ﴿يقتلون النبيين بغير الحق﴾

وقوله : ﴿بغير الحق﴾ زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق ، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

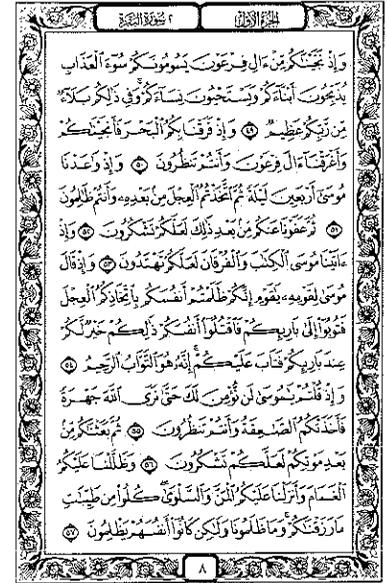
﴿ذلك بما عصوا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وكانوا يمتدنون﴾ على عباد الله ، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً ، فالعقلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قولا غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل حطة : حبة في حنطة ، استهانة بأمر الله واستهزاء ، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى ، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم ، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم ، قال : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ منهم ﴿رجزاً﴾ أي : عذاباً ﴿من السماء﴾ بسبب فسقهم وبغيهم .

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ استسقى أي : طلب لهم ماء يشربون منه ، ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده ، وإما اسم جنس ، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ قبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة ، ﴿قد علم كل أناس﴾ منهم ﴿مشربهم﴾ أي : معلمهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين ، فلا يزاحم بعضهم بعضاً ، بل يشربونه متعئين لا متكدرين ، ولهذا قال : ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أي : الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ، ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ أي : تخربوا على وجه الإفساد .

﴿٦١﴾ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك فخرج لنا ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأواؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي : واذكروا ، إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها : ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي : جنس من الطعام ، وإن كان كما تقدم أنواعاً ، لكنها لا تتغير ، ﴿فادع لنا ربك فخرج



ويقينتهم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي : رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين ، فلم يشكروا هذه النعم ، واستحسروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب .

﴿وما ظلمونا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين ، كما لا تنفع طاعات الظالمين ، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فيعود ضرره عليهم .

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم وستنزيد المحسنين﴾ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه ، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً ، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد ، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ، وهو دخول الباب ﴿سجداً﴾ أي : خاضعين ذليلاً ، وبالقول وهو أن يقولوا : ﴿حطة﴾ أي : أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته .

﴿تغفر لكم خطاياكم﴾ بسؤالكم المغفرة ، ﴿وستنزيد المحسنين﴾ بأعمالهم ، أي : جزاء عاجلاً وأجلاً ، ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ منهم ، ولم يقل



الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقياساتهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يومهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزل الوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يُوبِّخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾** ثم تولى من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴿٦٥﴾ **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾** وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم^(١)، وقيل لهم: **﴿خذوا ما آتيناكم﴾** من التوراة **﴿بقوة﴾** أي: بجهد واجتهاد، وصبر على أوامر الله، **﴿واذكروا ما فيه﴾** أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتعلموه، **﴿لعلكم تتقون﴾** عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من

المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تفرزت عندهم، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالى الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة عن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين!!!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحتها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمل بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم يتكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

﴿٦٢﴾ ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسوله، فإن لهم

أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البليغ **﴿توليتهم﴾** وأعرضتم، وكان ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن **﴿لولا﴾** فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ **﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** فجعلناهم نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين. أي: ولقد تقرر عندكم حالة **﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾** وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله: **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت﴾** الآيات.

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم وجعلهم **﴿قردة خاسئين﴾** حقيرين ذليلين.

وجعل الله هذه العقوبة **﴿نكالاً﴾** لما بين يديها. أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها من هوفي وقتهم، **﴿وما خلفها﴾** أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا يتفنعون بالآيات.

(١) كذا في ب، وفي أ: برفع الطور



القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما معين أو أي: عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضره ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتتجزون عن ما يضركم.

﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعدة، ﴿من بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما أعمم عليكم بالنعمة العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب واتقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كالحجارة﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والبرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وإن من الحجاره لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها، وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً للكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أتخذنا هزواً﴾ فقال نبي الله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاء بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فنفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي: ما سنها؟ ﴿قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض﴾ أي: كبيرة ﴿ولا بكر﴾ أي: صغيرة ﴿عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ واركوا التشديد والتعنت.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي: شديد التسر الناظرين من حسنها.

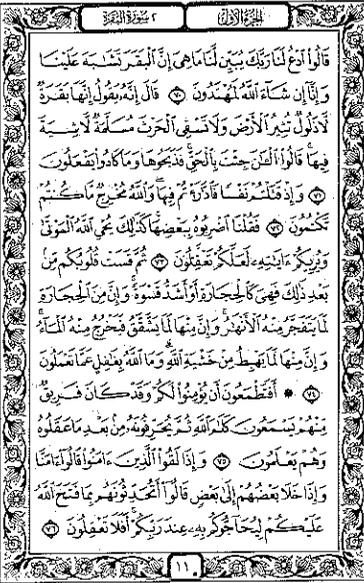
﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ فلم تهتد إلى ما تريد ﴿وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول ﴿أي: مذلة بالعمل، تشير الأرض بالحرثة، ولا تسقي الحرث﴾ أي: ليست بساقية، مسلمة من العيوب أو من العمل لا شية فيها﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فذبحوها﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وما كادوا يفعلون﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا

﴿٦٧ - ٧٤﴾ واذ قال موسى

لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإننا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون * واذ قلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون * أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: ادبحوا بقرة،



بغير حق، بل بأبطل الباطل، أعظم من يأخذها غصبا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ أي: من التحريف والباطل، ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أفتطمعون﴾ إلى ﴿يكسبون﴾: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.

وَذَمَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتابا بيده مخالفاً لكتاب الله لئلا به دنيا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتبه ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتاج به مخالفه في الحق الذي يقوله.

ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقرروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض.

﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم، فيظهر لعباده ما أتم عليه.

﴿ومنهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أميون﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل العلم، ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماء هم وعوامهم، ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم، فلا طمع لكم في الطائفتين.

﴿٧٩﴾ ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ توعد تعالى المخرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هذا من عند الله﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم

ولا تكذبوهم، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بالفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها ولا يستريب هذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿٧٥-٧٨﴾ ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ وإذا لقوا

الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون * أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون * ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون * هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم^(١) لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهوا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يروونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالستهم، ما ليس في قلوبهم، ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم، فيكون

(١) في ب: وأخلاقهم.



وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأواء جملة كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء.

﴿٨٠ - ٨٢﴾ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهداً أم تقولون على الله ما لا تعلمون** * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعدد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم، فقال: **﴿قل﴾** لهم يا أيها الرسول **﴿اتخذتم عند الله عهداً﴾** أي: بالإيمان به وبرسله ويطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل، **﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾** فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون

كاذبة، فيكون أبلغ لحزيمهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولشكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلفون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع القبيحات.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانيتهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين، فقال: **﴿بلى﴾** أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن **﴿من كسب سيئة﴾** وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به هنا الشرك، بدليل قوله: **﴿وأحاطت به خطيئته﴾** أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل يبطل بمتج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿والذين آمنوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، **﴿وعملوا الصالحات﴾** ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله.

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

﴿٨٣﴾ **﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة**

وآتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾** إلى آخر الآية.

فقوله: **﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾** هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالإيمان الغليظة والعهود الموثقة **﴿لا تعبدون إلا الله﴾** هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي بما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: **﴿وقولوا للناس حسناً﴾** ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾**

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به

يدفع عنهم مكروهه .

﴿٨٧﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي: قواه الله بروح القدس

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ عن الإيمان بهم، ﴿ففريقاً﴾ منهم ﴿كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وأترتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ ﴿وقالوا قلوبنا غُلْفٌ يل لمنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غُلْفٌ، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، قليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ بما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا

يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١) الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ وهو فداء الأسير، ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجل من أجل.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي: أعظمه ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي:

عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم، ولا خصام، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاء لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثم﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواثيق عليكم ﴿توليتم﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فتعوذ بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إلا قليلاً منكم﴾ هذا استثناء لثلاث يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ ثم أنتم هؤلاء تقتلون

أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن البوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

(١) كذا في ب، وفي أ: يعينونهم.

واستجابة، ﴿قالوا: سمعنا وعصينا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(٢) بسبب كفرهم.

﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتمسحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول وتقصتُم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤-٩٦﴾ ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ يعني الجنة ﴿خالصة من دون الناس﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

ورغم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً﴾.

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وهو الحق﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مصدقاً لما معهم﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيماً عليه.

فلم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيئته، ثم يأتي هو لبنته وحجته فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفرة بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي: بعد مجيئه ﴿وأنتم ظالمون﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه، حتى إنهم كانوا إذا وقع^(١) بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا كفروا به، بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجه، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وكتبه وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿٩١-٩٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا لو كنا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب،

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع. (٢) في ب: وشربها.

عليهم، وهو تمنى الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك.

فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادة لله ولرسوله، مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ولن يتموه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالمرتبة أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب.

ثم ذكر شدة محبتهم للديار، فقال: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المجالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور، لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿٩٧ - ٩٨﴾ ﴿قل من كان عدواً

لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا، إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدقاً لما تقدمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف

بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة لله ولرسوله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله.

فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿٩٩﴾ ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات

بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ يقول لنبيه ﷺ: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحججة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

﴿١٠٠﴾ ﴿أوكلما عاهدوا عهداً

نبذوه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وهذا فيه التعجب^(١) من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها.

ف «كَلِمًا» تفيد التكرار، فكلمًا وجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿ولما جاءهم

رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون متهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد

وإذ أخذنا ميثاقكم لا تقولون ومانعكم ولا تقولون
أنتم من وكبركم أنفسكم وأنتم لفتوتهم
ثم أنزلنا هؤلاء نقلاً عن أنفسكم ومخبرين
بينكم بين يديهم فظهورت عليهم بالآية والمدون
وإن يؤمنكم أسرى أشد منهم وهو خسر عليكم
إخراجهم أفترى من يتبع أسرى الكتاب وكفرين
فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا آية في الحياة الدنيا
ويوم القيمة يردون إنا أنزلنا العذاب وما الله بقول
عنه أنصرت ﴿١٠٢﴾ أولئك الذين أشركوا الحياة الدنيا
بالآخرة فلا ينفك عنهم العذاب ولا هم يضررون ﴿١٠٣﴾
ولقد آتينا موسى الحكمة وقضينا له عباده وأرسلنا
وآلنا عيسى ابن مريم الأنبياء وأيدناه بروح القدس
آفكنا آياتنا على رسلنا بما لا يؤمنون أنفسكم أسرى
فريقاً كذبتم وفبوا فأقولون ﴿١٠٤﴾ وقالوا قلنا
علفنا بل لعنهم الله ككفرهم فقلنا لا مأتون ﴿١٠٥﴾

علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق وليش ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم أمتوا واتقوا لمشوية من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله﴾ الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وراء ظهورهم﴾ وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين، وهم يعلمون صدقه، وحقية^(٢) ما جاء به.

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابهم من حيث لا يشعرون.

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم يتفق ماله في طاعة الله، أنفق في طاعة الشيطان، ومن ترك الدل لربه، ابتلي

(١) في ب: التعجب.

(٢) في ب: وحقية.

حجة .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿وليس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا زاعنا وقولوا انظرننا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يتختم برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿راعنا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فتهدى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، فقيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وقولوا انظرننا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع ليعلم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة، فقيه الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أن ينزل عليكم من خير﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً منهم، وبغضاً لكم أن يحتصمكم بفضله، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾ . ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة .

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها لم

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

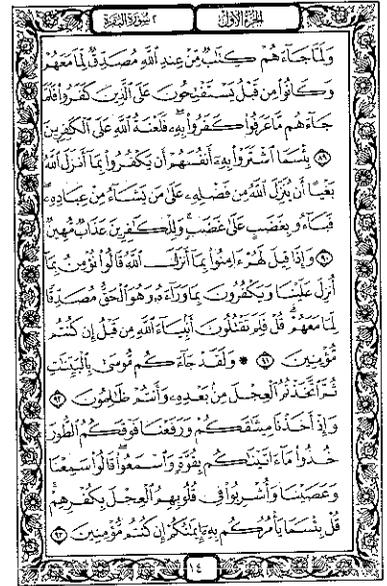
ثم ذكر مفساد السحر، فقال: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ ومع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرها، لأن الله قال في حقهما: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضره محضه، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الحمر والميسر: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فهذا السحر مضره محضه، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضره محضه، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضه، أو خيرها أكثر من شرها .

﴿ولقد علموا﴾ أي: اليهود ﴿لأن اشتراه﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم



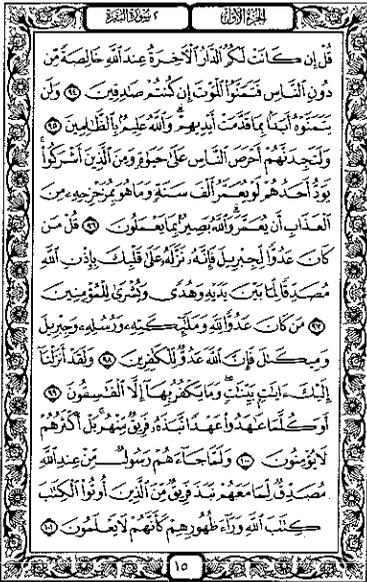
بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نسبوا كتاب الله اتبعوا ما تلو الشياطين وتخلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

﴿وما يعلمان من أحدٍ حتى ينصحا، و يقولوا إنا نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهائه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التديليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم



١٥

قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل * ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير * ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم * كما سئل موسى من قبل * والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾، فقد سألو موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة *.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. ويقرهم^(١) عليه، كما في قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن اليتامى﴾ ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أخرج عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ وسعوا في ذلك، وأعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح

تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية ﴿أو نُنسها﴾ أي: ننسها للعباد، فنزيلها من قلوبهم، ﴿نات بخير منها﴾ وأنفع لكم ﴿أو مثلها﴾.

قد دل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض﴾ فإذا كان مالِكاً لكم، متصرفاً فيكم تصرف المالك الجير الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيها، فكما أنه لا حرج عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشعه لعباده من الأحكام. فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟

وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلفظه.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ ﴿ألم تر يدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من

(١) في ب: وقرهم.

حتى يأتي الله بأمره. ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

ثم أمرهم [الله] بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجوده عنده وافرأ موفراً قد حفظه ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾.

﴿١١١ - ١١٢﴾ ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدعى عكس ما ادعى بلا برهان

فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿١١٥﴾ ﴿و الله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ أي: ﴿و الله المشرق والمغرب﴾، خصهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغارها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فثم وجهه الله إن الله واسع عليم﴾، فيه

بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم.

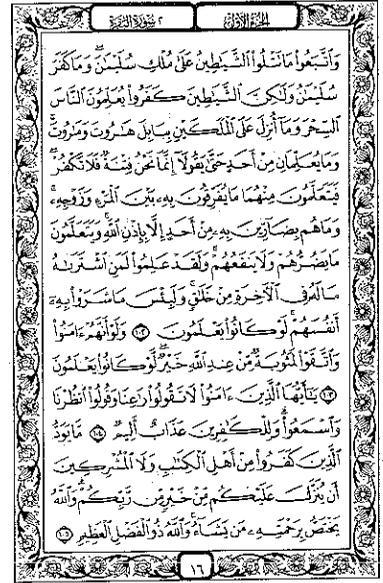
فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويعكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتلأ أوامر ربه واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿١١٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمياً، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وسعى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿في خرابها﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة. فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرأ، إلا خائفين ذليين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً، حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه.

وهكذا كل من اتصف بوصفهم،



لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق دعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الخلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس بأمانكم ودعاويكم، ولكن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾ مع إخلاصه ﴿محسن﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم.

فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿١١٣﴾ ﴿وقالت اليهود ليست النصرارى على شيء وقالت النصرارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنه.

إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن الله وجهاً لا تشببه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، علمهم بسرتركهم ونياتكم .

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر .

﴿ ١١٦ - ١١٧ ﴾ **﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون * يدب السحاب والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾**، **﴿وقالوا﴾** أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: **﴿اتخذ الله ولداً﴾**، فسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم .

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه .

﴿سبحانه﴾، أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله . فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه .

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: **﴿بل له ما في السموات والأرض﴾**، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه .

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولداً؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه .

والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة .

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:

﴿وقوموا لله قانتين﴾

ثم قال: **﴿يدب السحاب والأرض﴾**، أي: خالقهما على وجه قد أتقنتهما وأحسنهما على غير مثال سبق .

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يتمتع منه .

﴿ ١١٨ - ١١٩ ﴾ **﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾**، أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل . **﴿أو تأتينا آية﴾**، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: **﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**، **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾** الآية وقالوا: **﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾**، الآيات وقوله: **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾**، الآيات .

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: **﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾** .

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب .

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه **﴿﴾**، وصحة ما جاء به، فقال: **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾**، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة .

فالأول والثاني قد دخلا في قوله: **﴿إنا أرسلناك﴾**، والثالث دخل في قوله: **﴿بالحق﴾** .

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته **﴿﴾**، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للآديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقضوا قبيل البعثة .

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي **﴿﴾** معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبب أحواله، عرّف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم .

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به **﴿﴾** من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة .

قوله: **﴿بشيراً﴾** أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، **﴿نذيراً﴾** لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي .

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

﴿ ١٢٠ ﴾ **﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾**

جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قيصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدنيوية والدينية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَ﴾ جعله ﴿أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويحذرونهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيحه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مِصْبًا﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتنا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف والسعي، والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿مِصْبًا﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعار الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهْدًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات

إبراهيم ربه بكلمات فأمتهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليبتين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره ويزكو عمله، ويخلص ذممه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشناء الدائم والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى نبيه.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابته الرحيم اللطيف، وأخبر بالمنافع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آله الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على

ولا النصرارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير * يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصرارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاء إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِن هُدَى اللَّهُ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ هُوَ الْهُدَى﴾

وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿وَلئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصرارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون *

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به منة مطلقه، أنهم ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون خلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وأمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ ابْتَلَى﴾

والأقذار، ليكون ﴿للطائفين﴾ فيه
 ﴿والعاكفين والركع السجود﴾ أي:
 المصلين، قدم الطواف لاختصاصه
 بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف لأن
 من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة
 مع أنها أفضل، لهذا المعنى.
 وأضاف الباري البيت إليه لفوائد،
 منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام
 إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه
 بيت الله، فيبذلان جهدهما،
 ويستفرغان وسعهما في ذلك.
 ومنها: أن الإضافة تقتضي
 التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر
 عباده بتعظيمه وتكريمه.
 ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب
 الجاذب للقلوب إليه.

﴿١٢٦﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب
 اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من
 الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر
 قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره
 إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أي: وإذ
 دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله
 بلداً آمناً، ويرزق أهله من أنواع
 الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا
 الدعاء للمؤمنين تاديباً مع الله، إذ كان
 دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء
 الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق وقيد
 بالمومن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمنين
 والكافرين والعاصي والطائع، قال تعالى:
 ﴿ومن كفر﴾ أي: أرزقهم كلهم،
 مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين
 بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى
 نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها
 قليلاً ﴿ثم أضطره﴾ أي: أخذه
 وأخرجه مكرهاً ﴿إلى عذاب النار
 وبئس المصير﴾.

﴿١٢٧ - ١٢٩﴾ ﴿وإذ يرفع
 إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل
 ربنا تقبل منا إنك أنت السميع
 العليم﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك
 ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا
 مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب

الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا
 منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم
 الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت
 العزيز الحكيم﴾ أي: واذكر إبراهيم
 وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من
 البيت الأناس، واستمرارهما على هذا
 العمل العظيم، وكيف كانت حالهما
 من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع
 هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما
 عملهما، حتى يحصل^(١) فيه النفع
 العميم: ودعوا لأنفسهما، وذريتهما
 بالإسلام، الذي حقيقته خضوع
 القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد
 الجوارح. ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أي:
 علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة،

ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد
 بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل
 عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون
 المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين
 كله والعبادات كلها، كما يدل عليه
 عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد،
 ولكن غلب على متعبدات الحج تلبياً
 عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع
 إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل
 الصالح، ولما كان العبد - مهما كان -
 لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى
 التوبة، قال: ﴿وتب علينا إنك أنت
 التواب الرحيم﴾.

﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أي: في ذريتنا
 ﴿رسولا منهم﴾ ليكون أرفع
 لدرجتها، وليقادوا له، وليعرفوه
 حقيقة المعرفة. ﴿يتلو عليهم آياتك﴾
 لفظاً وحفظاً وتحفيظاً، ﴿ويعلمهم
 الكتاب والحكمة﴾ معنى.

﴿ويزكيهم﴾ بالتربية على الأعمال
 الصالحة، والتبيري من الأعمال الرديئة
 التي لا تزكو النفوس^(٢) معها ﴿إنك
 أنت العزيز﴾ أي: القاهر لكل شيء،
 الذي لا يمتنع على قوته شيء
 ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء
 مواضعها، فيعزتك وحكمتك ابعث
 فيهم هذا الرسول، فاستجاب الله لهما
 فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي

﴿ما نسخ من آية أو نسخها تأبى بحرفتها أو غيرها
 الرافعة إلى الله على كل شيء قدير﴾ ﴿أنت تعلم أن
 الله له ملك السموات والأرضين وما لكم من دون
 الله من ولي ولا نصير﴾ أم زيدون أن كنتوا أضل
 كما سئل مؤمنين من قبل ومن بعد أن يسألوا المؤمنين
 فقد صدقوا النبي ﴿وذكر من أهل الكتاب
 لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاً ما حسبنا من بعد
 أنفسنا من بعد ما نبت لهم الحق فأعفوا وأصفحوا
 حتى تلقوا الله يومئذ وإن الله على كل شيء قدير﴾
 وأيضاً الصلوة وأما الركوع وما فاتوا لأضيق
 من تحريمه فلو عذبوا لكان الله يفتنهم بغير
 ﴿وقال إن يدخل الجنة آمن كان هوياً فخصرت
 تلك أمية ثم قلها أو أربها نكران كثر صدوق
 ﴿من كل من أسلم وجهه لله وهو محسن لله أجران
 عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر
 الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة
 والسلام: «أنا دعوة أي إبراهيم».
 ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم،
 وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:
 ﴿١٣٠ - ١٣٤﴾ ﴿ومن يرغب عن
 ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد
 اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن
 الصالحين﴾ إذ قال له ربه أسلم قال
 أسلمت لرب العالمين * ووصى بها
 إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله
 اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم
 مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر
 يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون
 من بعدي قالوا تعبد إلهك وإله آبائك
 إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً
 ونحن له مسلمون * تلك أمة قد خلت
 لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا
 تسألون عما كانوا يعملون﴾.

أي: ما يرغب عن ملة إبراهيم
 بعدما عرف من فضله ﴿إلا من سفه
 نفسه﴾ أي: جهلها وامتنعها ورضي
 لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون،
 كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن يرغب
 في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حاله في
 الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ولقد
 اصطفيناه في الدنيا﴾ أي: اخترناه
 ووقفناه للأعمال، التي صار بها من

(١) في ب: حتى يجعل.

(٢) في ب: النفس.



المصطفين الأخيار.

﴿وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾
الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إذ قال له ربه أسلم قال﴾ اعتسلاً
لربه ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ إخلاصاً
وتوحيداً، ومحبة وإنابة، فكان
التوحيد لله نعتة.

ثم ورثه في ذريته ووصاهم به،
وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثت
فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى
بها بنيه، بأنتم - يا بني يعقوب - قد
وصاكم أبوك بالخصوص، فيجب
عليكم كمال الانقياد واتباع خاتم
الأنبياء، قال: ﴿يا بني إن الله اصطفى
لكم الدين﴾ أي: اختاره وتخييره لكم
رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به
واتصفا بسرائعه، وانصبغوا بأخلاقه،
حتى تستمروا على ذلك فلا يأتكم
الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش
على شيء مات عليه، ومن مات على
شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على
ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال
تعالى منكرًا عليهم: ﴿أم كنتم شهداء﴾
أي: حضوراً ﴿إذ حضر يعقوب
الموت﴾ أي: مقدماته وأسبابه، فقال
لبنيه على وجه الاختيار، ولتقر عينه في
حياته بأنمثالهم ما وصاهم به: ﴿ما

(١) في ب: لا يؤخذ.

تعبدون من بعدي)؟ فأجابوه بما قرأت
به عينه، فقالوا: ﴿نعبد إلهك وإله
آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً
واحداً﴾ فلا نشرك به شيئاً، ولا نعدل
به أحداً، ﴿ونحن له مسلمون﴾
فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا
يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم
يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى
بنه بالحنيفية لا باليهودية.

ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد
خلت﴾ أي: مضت ﴿لها ما كسبت
ولكم ما كسبتم﴾ أي: كل له عمله،
وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ^(١)
أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحداً إلا
إيمانه وتقواه فاشغالكم بهم وإدعائكم
أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد
القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل
الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي
أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿١٣٥﴾ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو
نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً
وما كان من المشركين﴾ أي: دعا كل
من اليهود والنصارى المسلمين إلى
الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم
المهتدون وغيرهم ضال.
قل له^(٢) مجيباً جواباً شافياً: ﴿بل﴾
نُشِعَ ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مقبلاً
على الله، معرضاً عما سواه، قائماً
بالتوحيد، تاركاً للشرك والتنديد.

فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي
الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿١٣٦﴾ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل
إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي
موسى وعيسى وما أوتي النبيون من
ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له
مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة قد
اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق
القلب التام بهذه الأصول، وإقراره
المتضمن لأعمال القلوب والجوارح،
وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

(٢) في ب: قال له.

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها،
فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث
أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر،
وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه
الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان
اسماً لما في القلب من الإقرار
والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال
الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان
والأعمال الصالحة. فقوله تعالى:
﴿قولوا﴾ أي: بالستكم متواطئة عليها
قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب
عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق
باللسان بدون اعتقاد القلب، نفاق
وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل
القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن
كان العبد يوجر عليه، إذا كان خيراً
ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين
القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قولوا﴾ إشارة إلى
الإعلان بالاعتقيدة، والصدع بها
والدعوة لها، إذ هي أصل الدين
وأساسه.

وفي قوله: ﴿آمناً﴾ ونحوه مما فيه
صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة
إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام
بجبل الله جميعاً والحث على الائتلاف،
حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم
متحداً، وفي ضمنه النهي عن
الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد
الواحد.

وفي قوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ الخ،
دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه
الإيمان على وجه التقييد، بل على
وجوب ذلك، بخلاف قوله: ﴿أنا
مؤمن﴾ ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً
بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية
النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿آمنا بالله﴾ أي: بأنه
موجود، واحداً أحد، متصف بكل
صفة كمال، منزه عن كل نقص
وعيب، مستحق لإفراجه بالعبادة كلها،
وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه
من الوجوه.

شقاق فيسكفيهم الله وهو السميع العليم ﴿أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به﴾ - يا معشر

المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا الله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فقد اهتدوا﴾ للصرط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «لكنوا هوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، و«الهدى» هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلal عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاققة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، فكفك الله شرهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجل بعضهم، وشردهم كل مشرد. فيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ أي: الزواصبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً وعمية، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدئ ولا هملأ.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سير أحوال الجنيع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿وتحن له مسلمون﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿له﴾ على العامل، وهو ﴿مسلمون﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

﴿وما أنزل إلينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنته كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم، ولإتيانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي: بل يؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿من ربهم﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

الثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلماذا قال - على سبيل التعجب المنقرد للعقول الزكية -: ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بصدده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فَرَضَهُ: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القوي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبده، فقسه بعيد كفر بربه وشرذ عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فانصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخذاع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقيح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والتابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقسم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتينا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متمثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة

وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الإخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتمثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل

أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أنتم أعلم أم الله﴾ فانه يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الرضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلاته لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحمر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتسبوا هذا العلم وهذه الشهادة، فلماذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتسبوا وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بل والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلماذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها وأذخر لهم جزاءها، فيبس أجزاء جزاؤهم، وبسنت النار مشوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد،

(١) كذا في ب، وفي أ: من صبغة.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾
أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط
فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله
هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين،
وسطاً في الأثنياء، بين من غلا فيهم
كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود،
بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق
بذلك، ووسطاً في الشريعة
لا تشديدات اليهود وآصارهم،
ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم،
لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة
إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهرهم
الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم
طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى
الذين لا ينحسون شيئاً، ولا يجرمون
شيئاً، بل أباحوا ما دبر ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأئمتها،
وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم
والمشارب والملابس والمناخ، وحرّم
عليهم الخبائث من ذلك، فهذه الأمة
من الدين أكملته، ومن الأخلاق
أجلها، ومن الأعمال أفضلها.

ورهبهم الله من العلم والحلم
والعدل والإحسان، ما لم يهيه لأمة
سواهم، فلذلك كانوا ﴿أمة وسطاً﴾
[كاملين] ليكنوا ﴿شهداء على
الناس﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم
بالقسط، يحكمون على الناس من سائر
أهل الأديان، ولا يحكم عليهم
غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة
بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له
بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل
حكمهم على غيرهم، والحال أن كل
مختصم غير مقبول قول بعضهم على
بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد
المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا
انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة
كما في هذه الأمة، فإنما المقصود
الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك
العلم والعدل، وهما موجودان في هذه
الأمة، فقبل قولها.

فإن شكك في فضلها، وطلب
مركزياً لها فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ،
فلهذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي
باعتراض السفية، ولا يلقي له ذهنه.
ودلت الآية على أنه لا يعترض على
أحكام الله إلا سفية جاهل معاند، وأما
الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام
ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما
قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة
إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون
لهم الخيرة من أمرهم﴾ ﴿فلا وربك
لا يؤتون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم﴾ الآية، ﴿إنما كان قول المؤمنين
إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم
أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ وقد كان في
قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم
وعدم المبالاة به.

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه
الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما
سيعرض لبعض القلوب من
الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم
مجيباً: ﴿الله المشرق والمغرب يهدي من
يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: فإذا
كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس
جهة من الجهات خارجة عن ملكه،
ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط
مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة
التي هي من ملة أبيكم إبراهيم،
فلائي: شيء يعترض المعترض
بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم
تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا
يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك،
فكيف وهو من فضل الله عليكم،
وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك،
فالمعترض عليكم، معترض على
فضل الله حسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يهدي من يشاء إلى
صراط مستقيم﴾ والمطلق يحمل على
المقيد، فإن الهداية والضلال لهما
أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله،
وقد أخبر في غير موضع من كتابه
بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد
حصل له الهدى، كما قال تعالى:
﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل
السلام﴾ ذكر في هذه الآية السبب
الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع
أنواع الهداية، ومنه الله عليها، فقال:

والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر
الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن
الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها،
وموجب من موجباتها، وهي مقتضية
له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة
قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم
ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تقدم
تفسيرها، وكثرها لقطع التعلق
بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف
به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه،
فالنفع الحقيقي بالأعمال،
لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿سيقول السفهاء
من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي
كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب
يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾
وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً﴾ قد اشتملت الآية
الأولى على: معجزة، وتسليية، وتطمين
قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه
من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض،
وصفة المسلم لحكم الله ودينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء
من الناس وهم الذين لا يعرفون
مصالح أنفسهم، بل يضيعونها
ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود
والنصارى، ومن أشبههم من
المعترضين على أحكام الله وشرائعه،
وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين
باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم
بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو
سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من
الحكم التي يشير إلى بعضها، وكانت
حكيمته تقتضي أمرهم باستقبال
الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول
السفهاء من الناس: ﴿وما ولاهم عن
قبلتهم التي كانوا عليها﴾ وهي استقبال
بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم
عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على
حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه،
فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع
من اتصف بالسفه قليل العقل والحلم
والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم

عليكم شهيداً

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأسم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿ولتكونوا شهداء على الناس﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كتبت عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إلا لنعلم﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور منديب، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيد ذلك إيماناً وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وإن كانت﴾ أي: صرفك عنها

﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن آمن بالله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسبحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكان في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

﴿١٤٤﴾ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شرقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهلكم﴾ ولم يقل: «بضرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فلنولينك﴾ أي: نوجهك لولابتنا إياك، ﴿قبلة ترضاها﴾ أي: تحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضا، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، وحيثما كنتم﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي: جهته.

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها ونقلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوارهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجودونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبعياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إما يعنه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب.

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عازف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخرية، فلهذا قال تعالى: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

﴿١٤٥﴾ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم يتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴿كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدياتهم، ويجزن إذا لم يتقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمدا وعدوانا، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية﴾ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك، وبين ما تدعو إليه، ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تنفذ وينفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البيّنات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء حقيقة الخسدة، وقوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ أبلغ من قوله: ﴿ولا تتبع﴾ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع

ذلك منه، ولم يقل: ﴿ولو أتوا بكل آية﴾ لأنهم لا دليل لهم على قولهم. وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ إنما قال: ﴿أهواءهم﴾ ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾

﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إنك إذا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لئلا تفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لمن الظالمين﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخلة في ذلك، وأيضاً فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

﴿١٤٦ - ١٤٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين ﴿

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفةهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنهم، وهم يعلمون ﴿ومن أظلم ممن



كتم شهادة عنده من الله﴾ وفي ضمن ذلك تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتنوا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به] ومنهم من كفر [به] جهلاً، فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه وتقبيحه للنفس، بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

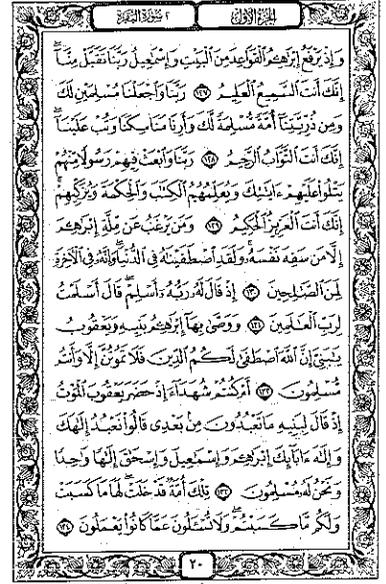
﴿الحق من ربك﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فلا تكونن من الممتريين﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

﴿١٤٨﴾ ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت

(٢) في ب: إحسانه.

(١) في ب: أهواء.



احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركون، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس لترجعت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجحدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم وأنه من ملة إبراهيم وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟

فباستقبال الكعبة^(٢) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركون، وانقطعت حججهم عليه.

إلا من ظلم منهم، أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلماذا قال تعالى: ﴿فلا تحشوهم﴾ لأن حججتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٣) كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنه كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلماذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فول وجهكم﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿فولوا وجوهكم﴾

المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتب الله عليها من الشواب، قال: ﴿أينما تكونوا يات بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ويستدل هذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وأدائها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

﴿١٤٩ - ١٥٠﴾ «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون» * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تتقون» أي: «ومن حيث خرجت» في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم «فول وجهك شطر المسجد الحرام» أي: جهته.

ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ أكده بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشبي لا الامتثال.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقال هنا: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم

بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير» أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على

(٣) في ب: رأس.

(٢) في ب: القبلة.

(١) في ب: وزكاة.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردتها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

فله الحمد على فضله، الذي لا نبلغ له عدأ، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿وَلَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تبيين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فله الحمد على ذلك.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك بيدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم وتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكمالته ونصحه.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكمالته، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من العباد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتركيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الحيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادة، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخل في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين،

لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعل يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعتراضاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالحوارج طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهي عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿١٥٤﴾

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار^(٣)، وزيوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكُل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي قتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: «أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون» ﴿١٥٥﴾

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً نفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكيّثت بذلك النصوص.

﴿١٥٥ - ١٥٧﴾ ﴿ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك

في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وهذه عامة للمخلوق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً، وداعياً يدعو به إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿١٥٤﴾ ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٥)، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقتها في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمتها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفتت الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء «أحياء عند ربهم

الصابرين» أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية «بالصبر والصلاة» فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فلها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرح المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه «مع الصابرين» أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي عيته ومعونته ونصرته وقربه، وهذه «معية عظيمة»^(٦) للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

(٣) في ب: وهو الاستبشار.

(٤) في ب: طير.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.

من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بصد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

﴿١٥٨﴾ ﴿إن الصفا المروءة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاکر عليم﴾ يخبر تعالى أن الصفا والمروءة وهما معروفان ﴿من شعائر الله﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم».

﴿فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

وإد تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو

التسخط قولاً وفعلًا، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وبشّر الصابرين﴾ أي: بشّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما بما تقدم ذكره.

﴿قالوا إنا لله﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمصائبنا وأموالنا، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم عبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدييره، لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه من أقوى أسباب الصبر.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عليهم صلوات من ربهم﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿ورحمة﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

وَدَلَّتْ هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الدم

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يبني عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده ﴿بشيء من الخوف﴾ من الأعداء ﴿والجوع﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿ونقص من الأموال﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق وضياع، وأخذ الظلمة للأموال، من الملوكة الظلمة وقطاع الطريق، وغير ذلك.

﴿والأنفس﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿والشمرات﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر؛ ببرد أو بَرَد، أو حرق، أو آفة سماوية من جزاء ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبة، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحerman، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة نقصان].

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحسب نفسه عن

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي

عمرة، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خيراً﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده السير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الأجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شيئاً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٥٩ - ١٦٢﴾ ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ * إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتوبوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدون فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ * هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾ * الدلالات على الحق المظاهرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه، فمن نبذ ذلك وجع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحته.

﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسيئهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها^(١)، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزموا على عدم المعاودة، ﴿وأصلحوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبائح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيدي ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محبوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجوع على عباده بالعتو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعيم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرماً، هذا حكم التائب من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، ﴿خالدون فيها﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعنات^(٢) متلازمان.

﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون.

﴿١٦٣﴾ ﴿واللهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ بخير تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

(١) في ب: وهذا يسمى في طمسها وإخفائها.

(٢) في ب: وهما متلازمان.

شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه **«الرحمن الرحيم»** المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عزف عباده نفسه بصفاته وآلته، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(١) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري والهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

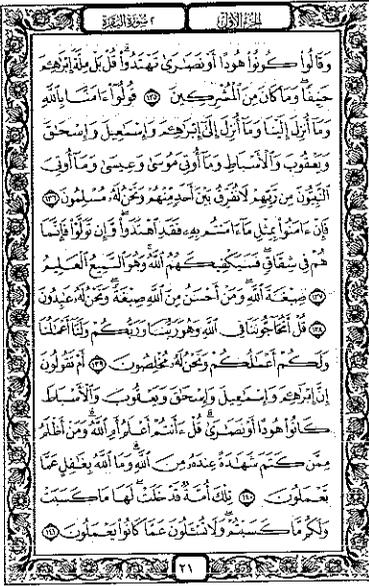
﴿١٦٤﴾ ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: **«إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب**

المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون».

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري والهيته، وعظيم سلطانه ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها **«لقوم يعقلون»** أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي **«خلق السموات»** في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق **«الأرض»** مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار. ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروورياتهم وحاجاتهم. وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده، **«و»** في **«اختلاف الليل والنهار»** وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت. كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفة الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم،

(١) في ب: المخلوقين.



والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

«و» في **«الفلك التي تجري في البحر»** وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها.

ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنتم معاشهم.

فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته،

هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ ثم قال تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من اتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبتأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبزاهيتها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿من الناس﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان هذه الحالة - بعد إقامة الحجّة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحرستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي ﴿تصريف الرياح﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تشير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلتفحه، وتارة تدبره، وتارة تمزقه، وتيزل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوابت، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإنابة وعبادة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعطفاً، فما أعظم سلطانه وأعززر إحسانه، وألطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببه، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه، وعميم لطفه؟

فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في



وحضعت لجبروته. وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء وهو المطر النازل من السحاب﴾.

﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿وبث فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي: نشر في أطوار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

(١) في ب: ومنها أنه بث فيها.

يتمنونها، حنقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَوَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمَا اتَّبَعْتُمْ﴾

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلِ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا خطبات للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وخيوانات، حالة كونها ﴿حلالاً﴾ أي: محللاً لكم تناوله، ليس بغضب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طيباً﴾ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم والخم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خطوات الشيطان﴾ أي: طريقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السواحب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقر بهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الرُضُل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحت أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال بطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، فجاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربّه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾

وحيث يمتنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيه، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيئات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأما

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدهم ليقرّبوهم إليه، وفي قوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾ دليل على أنه ليس الله تد وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول﴾

﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن﴾ فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذلل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ باتخاذ الأنداد والانتقاد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إذ يرون العذاب﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أن القوة﴾ جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ أي: تعلموا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيتبين لهم في ذلك اليوم

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فحصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبد الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم. هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم. فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويوجب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينقر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ

وَالْأَخْرُوعَةَ، وَالَّذِي كُلُّ الْفَلَّاحِ بَطَاعَتُهُ، وَكُلُّ الْفُوزِ فِي خِدْمَتِهِ، وَجَمِيعَ الْأَرْبَاحِ فِي مَعَامَلَتِهِ الْمُنْعَمِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّذِي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ الشَّرِّ، أَمْ تَتَّبِعِ دَاعِيَ الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ عَدُوُّ الْإِنْسَانِ، الَّذِي يَرِيدُ لَكَ الشَّرَّ، وَيَسْعَى بِجَهْدِهِ عَلَى إِهْلَاكِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ الَّذِي كُلُّ الشَّرِّ فِي طَاعَتِهِ، وَكُلُّ الْخُسْرَانِ فِي وِلَايَتِهِ، الَّذِي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِشَرِّ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ خَيْرٍ. ثُمَّ أُخْبِرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذَا أَمُرُوا بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ - مِمَّا تَقَدَّمَ وَصَفَهُ - رَغِبُوا عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا:

﴿بَلِ تَتَّبِعِ مَا أَفْلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فافتكروا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأبأؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان متصفاً.

ثم قال [تعالى]: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَتَّبِعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنِدَاءٍ، صَمٌّ بِكُمْ عَمِّي فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاء به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخير تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينطق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً يتفهمهم، فلماذا كانوا صمّاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتب ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوتة الداعية للحذر منه، ثم لم يكتب بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أفتح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تنهى قبحة، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبت لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نداء، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلّة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معان اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلينظر العبد نفسه مع أي: الداعيين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية

والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟! **﴿ذلك﴾** المذكور، وهو مجازته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، من أباه واختار سواها.

﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ ومن الحق مجازة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً ففي قوله: **﴿نزل الكتاب بالحق﴾** ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم **﴿لفي شقاق﴾** أي: محادة، **﴿بعيد﴾** عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرح أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يظهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق المرجح للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن [قله الحمد والشكر أولاً وآخرأ، وظاهراً وباطناً].

﴿١٧٤ - ١٧٦﴾ **﴿إن الذين يكتبون ما أنزل الله من الكتاب ويشترتون به ثمناً قليلاً أولئك ما ياكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار * ذلك بأن الله نزل الكتاب لفي شقاق بعيد وهذا وعيد شديد لمن كتب ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتمونه، فمن تموض عنه بالحطام الدنيوي ونبذ أمر الله، فأولئك: **﴿ما ياكلون في بطونهم إلا النار﴾** لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، **﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾** بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، **﴿ولا يزكيهم﴾** أي: لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،

عليكم الميتة وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: **﴿طيبات﴾** فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: **﴿حلالاً طيباً﴾** كما تقدم.

وإنما حرّم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفأ بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا **﴿فمن اضطر﴾** أي: أُلجئ إلى الحرّم بجوع وعدم، أو إكراه، **﴿فغير باع﴾** أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، **﴿ولا عاد﴾** أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيع له اضطرراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم [أي: جناح] عليه، وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمة تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

والمخاصمة، والله أعلم.

﴿١٧٧﴾ ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك هم الثقون﴾ يقول تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص.

﴿واليوم الآخر﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

﴿والملائكة﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿والكتاب﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنته من الأخبار والأحكام، ﴿والنبيين﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وآتى المال﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال ﴿على حبه﴾ أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرج العبد.

فمن أخرج مع حبه له تقرباً إلى الله تعالى، كان هذا برهانياً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال

يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاضدون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم.

ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمة [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد أبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيم غيره رجم يتيمه.

﴿والمساكين﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، ﴿وابن السبيل﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

﴿والسائلين﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الخوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جنانية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وفي الرقاب﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة

عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو لزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجهاها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والندور، ونحو ذلك.

﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿والضراء﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح وزياخ ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].

﴿وحين البأس﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجهاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لشواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم ﴿الذين صدقوا﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، ﴿وأولئك هم المتقون﴾؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضيماً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهو لأهم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضوع.

﴿١٧٨ - ١٧٩﴾ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون * يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم ﴿القصاص في القتلى﴾ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القتال على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين،

فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القتال، حتى القاتل نفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه^(١) من القتال، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك، فقال: ﴿الحر بالحر﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، ﴿والأنثى بالأنثى﴾ والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: ﴿الأنثى بالأنثى﴾ مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: ﴿القصاص﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جداً من الولد له.

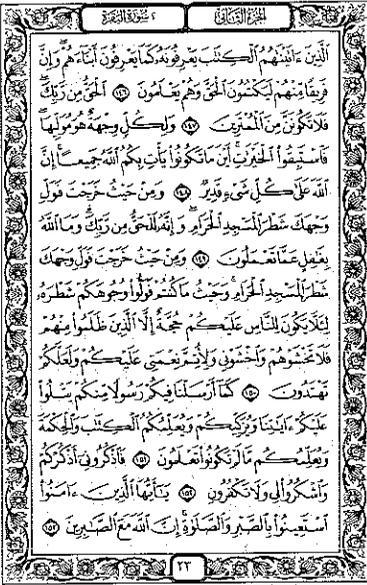
وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعذوه، والعبد بالعبد، ذكراً كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم، فلم يميز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهاذا قال: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ أي: عفا ولي المقتول عن القتال إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص ويحب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار

(٢) في ب: بالإحسان.

(١) في ب: ويمكنه.



الدية إلى الولي.

فإذا عفا عنه وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتسبع القتال ﴿بالمعروف﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يجمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرج.

وعلى القتال ﴿أداء إليه بإحسان﴾ من غير مطلق ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتساع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(٢).

وفي قوله: ﴿فمن عفي له من أخيه﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجافاً.

وفي قوله: ﴿أخيه﴾ دليل على أن القتال لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلمها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القتال، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي:

(٢) في ب: بالإحسان.

(١) في ب: ويمكنه.

وفي قولهم، في تذيير ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته ورحمته، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

فهذا الجمع يحصل بالاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه ^(١) مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يستمتع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فمن بدله﴾ أي: الإصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بعدهما سمعه﴾ [أي: بعدما عقله، وعرف طرقة وتفذيده، فإنما إثمه على الذين يبدلون له، وإلا فالوصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير.

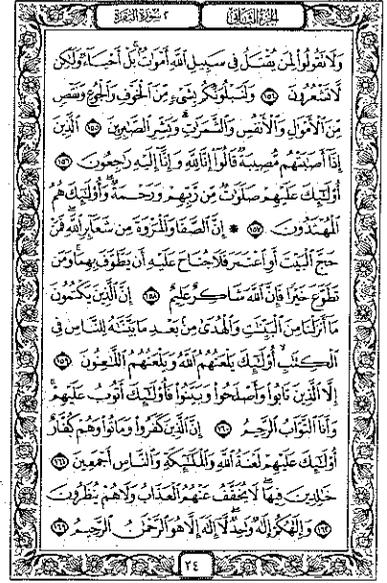
﴿إن الله سميع﴾ يستمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجور في وصيته، ﴿عليم﴾ بنيته، وعليم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي وعليم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبديل، فإن الله علیم به، مطلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنث وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهائه

بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾. أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئ له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنائبه لا تزيد على جنائيه غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي: تنقح بذلك الدماء، وتنقمع به الأشيقاء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رؤي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكايه والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، وتكره الحياة لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يجب من عباده أن يعملوا أفكارهم



بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾. أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئ له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنائبه لا تزيد على جنائيه غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي: تنقح بذلك الدماء، وتنقمع به الأشيقاء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رؤي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكايه والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، وتكره الحياة لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يجب من عباده أن يعملوا أفكارهم

عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطأ، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بترثة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غصن من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائز في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدللت هذه الآيات على الخث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿١٨٣ - ١٨٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَ لَكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ سَكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تشييط لهذه الأمة بأنه ينبغي

لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لِمَ لَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلّمة باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهياً آخر، فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾

أي: يطيقون الصيام ﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامُ سَكِينٍ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر أوقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين^(١)، وهذا هو الصحيح^(٢).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتغل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والبقاء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لثلاث يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: يريد الله تعالى أن يسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام

وتضيوعها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فانت لم تدرك.

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد.

وفيه: أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق.

﴿ثم﴾ إذا طلع الفجر ﴿أتموا الصيام﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إلى الليل﴾ وهو غروب الشمس وما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست بإباحته^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثنائه بقوله: ﴿ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي: وأنتم متصرفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد.

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.

وفيه أن الوطء ممن مفسدات الاعتكاف.

﴿تلك﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير العذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حدود الله﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فلا تقربوها﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها» لأن القرين، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾.

﴿١٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فحفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

﴿فتاب﴾ الله ﴿عليكم﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجباً للإثم ﴿وعفا عنكم﴾ ما سلف من التخون.

﴿فالآن﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروهن﴾ وطأ وقبله ولمساً وغير ذلك.

﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿ولتكملوا العدة﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاث يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الزوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿١٨٦﴾ ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي: يحصل لهم الرشد

إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليها ، وأما الأوامر فيقول الله فيها : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتوها ﴾ فينهى عن مجاوزتها .

﴿ كذلك ﴾ أي : بين [الله] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين ، وأوضحها لهم أكمل إيضاح .

﴿ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه ، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريمه لم يفعله ، فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سبباً للتقوى .

﴿ ١٨٨ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ أي : ولا تأخذوا أموالكم ، أي : أموال غيركم ، أضافها إليهم ؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما يحترم ماله ؛ ولأن أكله مال غيره مجرى غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعاً بحق ، ونوعاً بباطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده تعالى بذلك ، ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغضب والسرقة والخيانة في ودیعة أو عارية ، أو نحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح ، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ، ونحوها ، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم ، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه ، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والتقربات التي لا تصح ، حتى يقصد بها وجه الله

تعالى ، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف ، والوصايا لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة الحق ، وحكم له الحاكم بذلك . فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية ، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون أكلاً مال غيره بالباطل والإثم وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله .

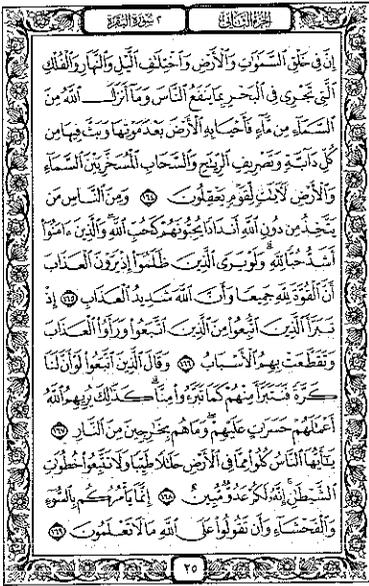
وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾

﴿ ١٨٩ ﴾ ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول (١) تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ : جمع هلال ، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها ، ﴿ قل هي مواقيت للناس ﴾ أي : جعلها الله تعالى لطفه ورحمته على هذا التدبير يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع في النقص إلى كماله ، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتاً كثيرة ، قال : ﴿ والحج ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات ، ومدة

(٢) في ب : ليس من البر .

(١) في ب : فقلوه .



الإجازات ، ومدة العدد والحمل ، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق ، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس .

﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبداً بذلك ، وظناً أنه بر ، فأخبر الله أنه ليس ببر (٢) ، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم ، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة ، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلاً ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه ، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده ، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأنها من أبوابه وثابر عليه ،



فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿واتقوا الله﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتنال أو امره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿١٩٠ - ١٩٣﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وقاتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

هذه الآيات، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال

(١) في ب: ويستدل في هذه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

﴿في سبيل الله﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتنة بين المسلمين.

﴿الذين يقاتلونكم﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم الكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتل، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغير مصلحة تعود للمسلمين.

ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمة وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يزتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يكون الدين لله﴾ تعالى فيظهر دين الله [تعالى]، على سائر الأديان،

ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال، ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿١٩٤﴾ ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ مجتملاً أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهداء، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكمالهم.

ومجتملاً أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام (٢) فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج وعلى هذا فيكون قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء محترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، ومن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالتضييق إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة، [من الإنفاق عليه] فإنه يجوز أخذه من ماله.

فقال:

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ مَقَاتِلَةٍ أَوْ سَفَرٍ خَوْفٍ أَوْ مَحَلٍّ مَسْبُوعٍ أَوْ حَيَاتٍ، أَوْ يَصْعَدُ شَجَرًا أَوْ بِنْيَانًا خَطَرًا، أَوْ يَدْخُلُ تَحْتَ شَيْءٍ فِيهِ خَطَرٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّنْ أَلْقَىٰ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. وَمِنَ الْإِلْقَاءِ بِالْيَدِ إِلَى التَّهْلُكَةِ (١) وَالْإِقَامَةَ عَلَىٰ مَعَاصِي اللَّهِ، وَالْيَأْسَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَمَنْهَا تَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَرَائِضِ، الَّتِي تَرْكُهَا هَلَاكٌ لِلرُّوحِ وَالذِّينِ.

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغزير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبوع أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ولما كان الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجناه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريغ كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره. ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خافه في وديعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التثني، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازة، فوالجهد في سبيل الله لا يقوم إلا على سبيل النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسلط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي، فليصم بدله عشرة أيام كما في التمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بحلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن التمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين^(١)، أو نسك ما يجزىء في أضحية، فهو خير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: ﴿فإذا أمتمتم﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها.

﴿فما استيسر من الهدي﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزىء في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النسكين له.

ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فمن لم يجد﴾ أي: الهدي أو ثمنه ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع، ﴿وسبعة إذا رجعتن﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذلك﴾ المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدي لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك ﴿وأتسقوا الله﴾ أي: فسي جميع أموركم، بامتثال أوامره واجتنباب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور، واجتنباب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجرأ على ترك الواجبات.

﴿١٩٧﴾ ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما فعلوا من خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ يخبر تعالى أن ﴿الحج﴾ واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً.

﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لوقيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [الحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقده.

وقوله: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتن.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام. والجدال وهو: المماارة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤ - ٢٠٦﴾ «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد».

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه «يشهد الله على ما في قلبه» بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: «وهو ألد الخصام» أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقايخ الضغائن، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيبتهم.

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك «سعى في الأرض ليفسد فيها» أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض «ويهلك» بسبب ذلك «الحرث والنسل» فالزروع والشمار والمواشي تلف وتنفص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، «والله لا يحب الفساد» وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

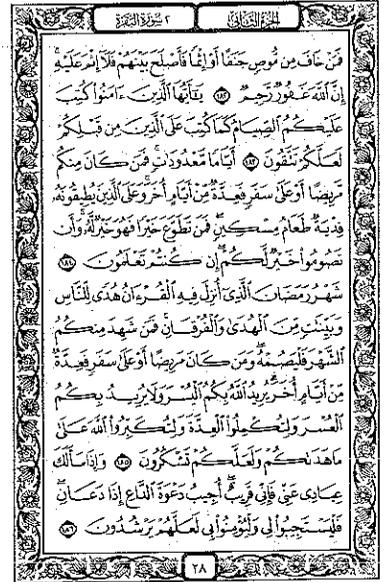
﴿٢٠٣﴾ «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد.

﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني «فلا إثم عليه، ومن تأخر» بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد «فلا إثم عليه» وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم، والتأخر فقط قيده بقوله: «لمن اتقى» أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان أجزاء من جنس العمل.

﴿واتقوا الله﴾ بامتنثال أوامره واجتناب معاصيه، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،



الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهوته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿في ظلل من الغمام﴾ ليفصل بين عبادته بالقضاء والعدل.

فتوضع الموازين، وتنتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يعرض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالأستواء والنزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدالاتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿في السلم كافة﴾ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إليه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه بيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم. ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات﴾ أي: على علم ويقين ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر^(٣) الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تتخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النايدون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيء على المفسدين،

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسير أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أخذته العزة بالإثم﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر^(١) على الناصحين.

﴿فحسبه جهنم﴾ التي هي دار العاصين والتكبريين، ﴿وليس المهاد﴾ أي: المستقر والمسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الشواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لشوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشترى أنفسهم وبذلوا، وأخير برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكرم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام التجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة التجار (١/٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز المقام.

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، صفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن ثبتت الجميع كما أثبتة الله لنفسه وأثبتة رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وما نفيتته، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيتته لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيتته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيتته.

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمقول.

﴿٢١١﴾ «سئل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب» يقول تعالى: «سئل بني إسرائيل كم آتيناكم من آية بينة» تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها. بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفرة، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

تعالى كفر النعمة تديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقيم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿٢١٢﴾ «زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب» يجيب تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم ينقادوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموها من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: هؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه، وصبره ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والفضل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور.

والكفار تحتم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمذي الذي لا ينتهي له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين: ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: «والله يرزق من يشاء بغير

حساب» فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

﴿٢١٣﴾ «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» (أي: كان الناس) [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلاق ويقىموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا] ^(١) مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم «مبشرين» من الطاعات، من الرزق والثروة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة.

﴿ومنذرين» من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق» وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

(١) زيادة في هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن هذا محلها، ولهذا وليتسق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.

أبدانهم **﴿وزلزلوا﴾** بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به.

ولكن لشدة الأمر وضيقه قال **﴿الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾**.

فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: **﴿الآن إن نصر الله قريب﴾** فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت، إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحت، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**.

وقوله [تعالى]: **﴿الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

﴿٢١٥﴾ **﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير لفلو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما فعلوا من خير فإن الله به عليم﴾** أي: يسألونك عن النفقة، وهذا نعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما، فقال: **﴿قل ما أنفقتم من خير﴾** أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب

بقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغنى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والحصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البيئات والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

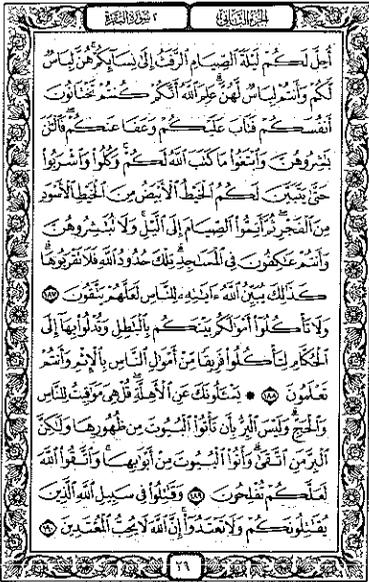
﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ من هذه الأمة **﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾** فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة **﴿بإذنه﴾** تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾. فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا: **﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾** وهدى - بفضلته ورحمته، وإعانتة ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

﴿٢١٤﴾ **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾** يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا يد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة ألتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صلبته المكاره عما هو بصدد، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني ويجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم **﴿مستهم البأساء﴾** أي: الفقر **﴿والضراء﴾** أي: الأمراض في

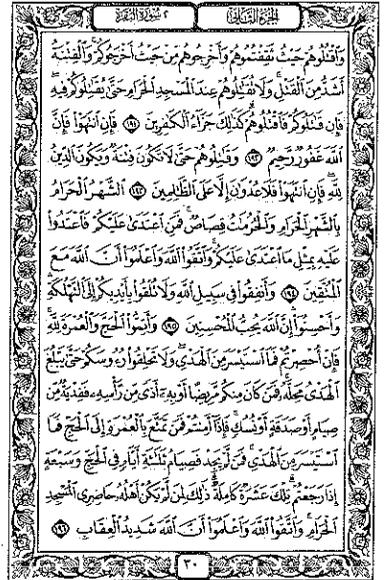


والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، **﴿واليتامى﴾** وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفاً، **﴿والسكاكين﴾** وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وابن السبيل﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى، فقال: **﴿وما فعلوا من خير﴾**: من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير، **﴿فإن الله به عليم﴾** فيجازيكم عليه ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقتلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿٢١٦﴾ **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر



مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم .
ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد
لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى
تعالى القتال في الأشهر الحرم، فقال:

﴿٢١٧﴾ ﴿يسألونك عن الشهر
الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد
عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام
 وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة
أكبر من القتال ولا يزالون يقاتلونكم
حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا
ومن يردد منكم عن دينه قيمت وهو
كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا
والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون﴾

فأخرجوهم ﴿منه﴾ ولم يمكنوهم من
الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء
العائف فيه والباد، فهذه الأمور كل
واحد منها ﴿أكبر من القتال﴾ في الشهر
الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟!
فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعبيرهم
المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون
المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم
وقتلهم، إنما غرضهم أن يرجعوهم
عن دينهم، ويكونوا كفاراً بعد
إيمانهم، حتى يكونوا من أصحاب
السيعر، فهم باذولون قدرتهم في ذلك
ساعون بما أمكنهم، ﴿ويأبى الله إلا
أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ .

وهذا الوصف عام لكل الكفار،
لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم
عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من
اليهود والنصارى، الذين بذلوا
الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا
الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم
إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم كل ما
يمكنهم من الشبه التي تشككهم في
دينهم .

ولكن المرجو من الله تعالى، الذي
من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم
دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم
عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، وأن
يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره،
ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر
دينه، ويعلي كلمته .

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء
الموجودين من الكفار، كما صدقت
على من قبلهم: ﴿إن الذين كفروا
ينفقون أموالهم ليصدوا عن
سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم
حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى
جهنم يحشرون﴾ .

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن
الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر
على ذلك حتى مات كافراً، ﴿فأولئك
حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾
لعدم وجود شرطها وهو الإسلام،
﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون﴾ .

الجمهور على أن تحريم القتال في
الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال
المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض
المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق
محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة،
لعموم الأمر بالقتال مطلقاً؛ ولأن من
جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر
مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما
هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع،
فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز
في البلد الحرام .

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما
حصل لسرية عبد الله بن جحش،
وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم
أموالهم، وكان ذلك - على ما قيل -
في شهر رجب، عيرهم المشركون
بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في
تعبيرهم ظالمين، إذ فيهم من القبايح ما
بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال
تعالى في بيان ما فيهم: ﴿واصد عن
سبيل الله﴾ أي: صد المشركين من
يريد الإيمان بالله ورسوله، وقتنتهم
من آمن به، وسعيتهم في ردهم عن
دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر
الحرام والبلد الحرام، الذي هو بمجرد
كاف في الشر، فكيف وقد كان في
شهر حرام وبلد حرام؟! ﴿ وإخراج
أهله﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم
النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من
المشركين، وهم عماره على الحقيقة،

المسلمون وقوا؛ أمرهم الله تعالى
بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس لما
فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع
المخاوف والتعرض للمتائف، ومع هذا
فهو خير محض، لما فيه من الثواب
العظيم، والتحرز من العقاب الأليم،
والنصر على الأعداء والظفر بالغيثانم،
وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من
الكرامة ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر
لكم﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد
لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب
الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام
وأهله، وحصول الذل والهوان وفوات
الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات عامة مطردة في أن
أفعال الخير التي تكرها النفوس لما فيها
من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال
الشر التي تحب النفوس لما تنوهم فيها
من الراحة واللذة فهي شر بلا شك .

وأما أحوال الدنيا فليس الأمر
مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن
أنه إذا أحب أمراً من الأمور،
فقيض الله [له] من الأسباب ما يصرفه
عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن
يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع،
لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبء من
نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه،
وأعلم بمصلحته منه، كما قال
[تعالى]: ﴿والله يمسلم وأنتم
لا تعلمون﴾ فاللائق بكم أن تتمشوا

ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل رده، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المقدمة.

﴿٢١٨﴾ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى، فترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلاته، تقرباً إلى الله، ونصرة لدينه.

وأما الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشتقتها كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتخنن وغرور، وهو دال على ضعف همه صاحبه ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾ أي: لمن تاب توبة نصوحاً ﴿رحيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقذارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخراً، وهو الذي من بالسبب والمسبب.

﴿٢١٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي: يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألتوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما، ليكون ذلك مقدمة لتجريمهما وتحتيم تركهما.

فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنون من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار، والطرب للنفوس عند تعاطيها، وكان هذا



البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويحسب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد أفروهما، وصعب التحتم بتركهما أول زهلة، قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله: ﴿منتهون﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا.

فأما الخمر: فهو كل مسكر خامز العقل وغطاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض^(١) سنوي مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.

﴿٢٢٠﴾ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** * في الدنيا والآخرة ﴿ وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو الميسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى

(١) زيادتان في ب بخط مغاير.



في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً ﴿ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والأخبار فيها، وأن خطبهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتامى، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي خرج وأثم، و «الوسائل لها أحكام المقاصد» .

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكول والمشرب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا ف «لوشاء الله لأعنتكم» أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فحرجتم، وشق عليكم وأثمت، «إن الله عزيز» أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك «حكيم» لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته.

﴿٢٢١﴾ «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشرك ولو أعجبتم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: «أولئك يدعون إلى النار» أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

﴿٢٢٠﴾ «ولا تنكحوا المشركين» دليل على اعتبار الولي [في النكاح].

﴿٢٢٠﴾ «والله يدعو إلى الجنة والمغفرة» أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿٢٢١﴾ «والله يدعو إلى الجنة والمغفرة» أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿٢٢٠﴾ «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: «أولئك يدعون إلى النار» أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

﴿٢٢٠﴾ «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: «أولئك يدعون إلى النار» أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

﴿٢٢٠﴾ «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: «أولئك يدعون إلى النار» أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

﴿٢٢٠﴾ «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: «أولئك يدعون إلى النار» أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

﴿٢٢١﴾ «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشرك ولو أعجبتم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: «أولئك يدعون إلى النار» أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق قرمة .

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا [بما يشق] ^(١)، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال: «كذلك يبين الله لكم الآيات» أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، «لعلكم تفكرون في الدنيا والآخرة» أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أمره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها، فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿٢٢٠﴾ «ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم» لما نزل قوله تعالى: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون

(١) في أ: لمع .

﴿٢٢٢ - ٢٢٣﴾ ثم قال تعالى:

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾
﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملائقوه وبشر المؤمنين﴾

يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض، وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود؟

فأخبر تعالى أن الحيض أذى وإذا كان أذى، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، فهذا قال: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾

أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا المحرم إجماعاً، وتحصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها في غير الوطء في الفرج جائز.

لكن قوله: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ يدل على أن المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة ينبغي تركه، كما كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض، أمرها أن تأتزر بفياشرها.

وحد هذا الاعتزال وعدم قربان للحيض حتى يطهرن﴾ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لعله شيطان، انقطاع الدم والاعتزال منه.

فلما انقطع الدم زال الشرط الأول، وبقي الثاني، فلهاذا قال: ﴿فإذا تطهرن﴾ أي: اغتسلن ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي: في القبيل لا في الذبر، لأنه محل الخرج.

وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض، وأن انقطاع الدم شرط لصحتها.

ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده وصيانة عن الأذى، قال تعالى:

﴿إن الله يحب التوابين﴾ أي: من ذنوبهم على الدوام، ﴿ويحب المتطهرين﴾ أي: المنتزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث.

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً لأن الله يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً، شرطاً لصحة الصلاة والطواف، وجواز من المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة.

﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ مقبلة ومدبرة، غير أنه لا يكون إلا في القبيل لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد.

وفيه دليل على تحريم الوطء في الذبر، لأن الله لم يبيح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث، وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك، ولعن فاعله.

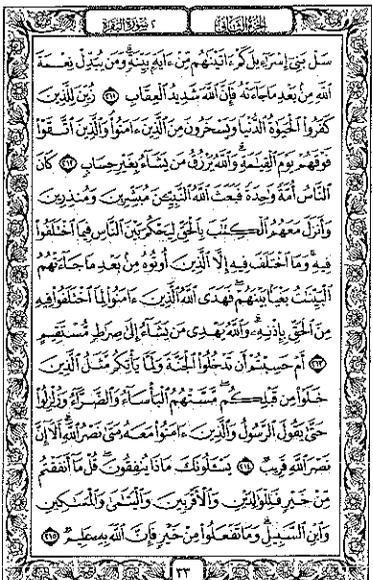
﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجمعها على وجه القرية والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين يتنع الله بهم.

﴿واتقوا الله﴾ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله، مستعينين بذلك لعلمكم، ﴿نكم ملائقوه﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها.

ثم قال: ﴿وبشر المؤمنين﴾ لم يذكر المبشر به ليدل على العموم، وأن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير وانقطاع كل ضئير رتب على الإيمان، فهو داخل في هذه البشارة.

وفيهما محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

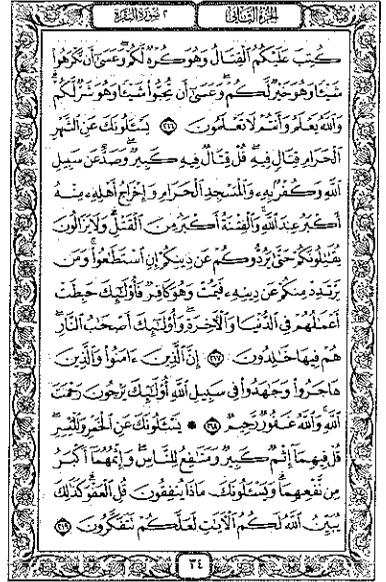
﴿٢٢٤﴾ ﴿ولا تجملوا الله حرضة﴾



لأيمانكم أن تبروا وتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به، وتأکید المقسم عليه، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين، يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة عن أن يبروا: أن يفعلوا خيراً، أو يتقوا شراً، أو يصلحوا بين الناس، فمن حلف على ترك واجب وجب حنثه، وحرّم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحب له الحنث، ومن حلف على فعل محرم، وجب الحنث، أو على فعل مكروه استحب الحنث، وأما المباح فبينيغي فيه حفظ اليمين عن الحنث.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه «إذا تراجمت المصالح، قدم أهمها» فهنا تنمم اليمين مصلحة، وامتنال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك.

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿والله سميع﴾ أي: لجميع الأصوات ﴿عليم﴾ بالمقاصد



مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴿١٠١﴾ أي:

النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿١٠٢﴾ يتربصن بأنفسهن ﴿١٠٣﴾ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿١٠٤﴾ ثلاثة قروء ﴿١٠٥﴾ أي:

حيض، أو أطهار، على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القراء الحيض، ولهذه

العدة عدة حكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة

الأقراء، علم أنه ليس في رحها حمل، فلا يفرضي إلى اختلاط الأسباب، ولهذا

أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿١٠٦﴾ ما خلق الله في أرحامهن ﴿١٠٧﴾ وحرم عليهن

كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفرضي إلى مفاسد كثيرة،

فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالاً

لانتقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث

واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة

ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبتت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل

أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب

العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه

الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا، لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من

انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره، وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم

وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين.

وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن أتى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حث كفر، وإن أتم يمينة

فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.

وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينة إذا طلقت زوجته ذلك، لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالقيضة وهو الوطء،

فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن القيسة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿١٠٨﴾ فإن

فاؤوا ﴿١٠٩﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء. ﴿١١٠﴾ فإن الله غفور ﴿١١١﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف

بسبب رجوعهم. ﴿١١٢﴾ رحيم ﴿١١٣﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم

بهم أيضاً، حيث فاؤوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحوهن.

﴿١١٤﴾ وإن عزموا الطلاق ﴿١١٥﴾ أي: امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلاً على

رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره

الحاكم عليه أو قام به. ﴿١١٦﴾ فإن الله سميع عليم ﴿١١٧﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يخلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل هذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: ﴿١١٨﴾ من نسأهم ﴿١١٩﴾ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة،

يجبر إما على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

﴿١٢٠﴾ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴿١٢١﴾ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن

يؤمن بالله واليوم الآخر ويعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن

والنسيات، ومنه سماعه لأقوال الخالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

﴿٢٢٥﴾ ثم قال تعالى:

﴿٢٢٥﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حلِيم ﴿٢٢٦﴾

أي: لا يؤاخذكم بما يجزئ على أيمانكم من الأيمان اللغوية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول

الرجل في عرض كلامه: «لا والله»، و«بلى والله»، وكحلفه على أمر ماض

يظن صدق نفسه، وإنما المواخذة على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

﴿٢٢٧﴾ والله غفور ﴿٢٢٨﴾ لمن تاب إليه، ﴿٢٢٩﴾ حلِيم ﴿٢٣٠﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

﴿٢٣١﴾ ﴿٢٣٢﴾ ﴿٢٣٣﴾ ﴿٢٣٤﴾ ﴿٢٣٥﴾ ﴿٢٣٦﴾ ﴿٢٣٧﴾ ﴿٢٣٨﴾ ﴿٢٣٩﴾ ﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ ﴿٢٤٦﴾ ﴿٢٤٧﴾ ﴿٢٤٨﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿٢٥٠﴾

من نسأهم يتربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم ﴿٢٥١﴾ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴿٢٥٢﴾ وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر

خاص، وهو حلف الزوج على ترك

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **﴿الطلاق﴾** أي: الذي تحصل به الرجعة **﴿مرتان﴾** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فيما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته فلماذا **﴿بمعروف﴾** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **﴿بإحسان﴾** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفقرة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تلك﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية **﴿حدود الله﴾** أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها، **﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾** وأي: ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربيه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

﴿٢٣ - ٢٣١﴾ **﴿فإن طلقها فلا**

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها مثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمنكح وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً. **﴿ولللرجال عليهن درجة﴾** أي: رفة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾**.

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالإيراث ونحوه. **﴿والله عزيز حكيم﴾** أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدهن حضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(٢) يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿٢٢٩﴾ **﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾** كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضاربتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه^(١).

ثم قال تعالى: **﴿وبيعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾** أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن **﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾** أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصده المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التبرص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرامته للفراق، كما قال النبي ﷺ: **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»**، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البتل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد يجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾** أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق والوفاة مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

(٢) في ب: الآية.

(١) في ب: ونحوهما.

تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعنتوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني راجباً ووطئها ثم فارقتها وانقضت عدتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة أن يتراجعا * أي: يجدداً عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أن يقيما حدود الله﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

الأمور، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم وإلا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي: شرائعه التي حددها وبيتها ووضحها.

﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ لأنهم هم المتفوضون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أونتين.

﴿فبلغن أجلهن﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن.

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي: إما أن تراجعوهن ونيتم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً﴾ أي: مضارة بهن ﴿لتعنتوا﴾ في فعلكم هذا

الحلال، إلى الحرام، فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهي عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحته جعل له واحدة بعد واحدة، وفقاً

به وسعيّاً في مصلحته. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ عموماً، باللسان ثناءً وحداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بها طرق الخير ورجبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعزفكم نفسه ووقائعته في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو الترهيب، فالحكم به يزول الجهل. والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ فلهنذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإقتان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثالث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به حنقاً عليه وغضباً، واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيأمنه يمنعه من العضل، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن

(٣) في ب: بالمعروف.

(٢) في ب: أن ينظر.

(١) في ب: ويتعين.

الولي أن عدم تزويجه هو الرأى : واللاق، وأنه يقابل بطلانه الأول بعدم التزويج له^(١)، كما هو عادة المترفعين المتكبرين.

فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مرید لها، قادر عليها، ليسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح، لأنه نهي الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق.

﴿٢٣٣﴾ ثم قال تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا

تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أزاها فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾

هذا خير بمعنى الأمر، تنزيلاً له منزلة المقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن يرضع أولادهن حولين.

ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول، قال : ﴿كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهاذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا بحرم.

ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالى : ﴿وجله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود الولد بها. وعلى المولود له^(٢) أي : الأب رزقهن وكسوتهن بالمعروف وهذا

(١) في ب : بعدم تزويجه.

في الذئب إذا أجدرة ودبت لك عن اليسر قل إصلاحهم خير وإن نقا طولهم يكفرنكم والله يعلم المقيد من الصليب ولو شاء الله لعنكم إن الله عزيز حكيم ﴿٢٣٢﴾ ولا تكفوا عنهم حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين حتى يشركوا ولو أجهنكم ولا تكفوا عنهم حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين ولو أجهنكم ﴿٢٣٣﴾ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين ولو أجهنكم ﴿٢٣٤﴾ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين ولو أجهنكم ﴿٢٣٥﴾ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين ولو أجهنكم ﴿٢٣٦﴾ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين ولو أجهنكم ﴿٢٣٧﴾ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولا تنكحوا المشركين ولو أجهنكم ﴿٢٣٨﴾

بما تعملون بصير، فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

﴿٢٣٤﴾ ﴿والذين يثوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ أي :

إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوباً، والحكمة في ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله : ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي : انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾ أي : من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بالمعروف﴾ أي : على وجه غير محرم ولا مكروه.

وفي هذا وجوب الإحدا مدة العدة على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي : عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها. وفي خطابه للأولياء بقوله : ﴿فلا

ودل قوله : ﴿مولود له﴾ أن الولد لأبيه، لأنه موهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

وقوله : ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي : على وارث النطفة إذا عدم الأب وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب

المعسرين على القريب الوارث الموسر، ﴿فإن أراها﴾ أي : الأبوان ﴿فصلاً﴾ أي : فطام الصبي قبل الحولين، ﴿عن تراض وتشاور﴾ فيما بينهما، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضياً ﴿فلا جناح عليهما﴾ في فطامه قبل الحولين.

فدل ذلك على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز فطامه. ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ أي : تطلبوا لهم المرضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة، ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف﴾ أي : للمرضعات، ﴿والله

بما تعملون بصير﴾ أي : عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها. وفي خطابه للأولياء بقوله : ﴿فلا



النكاح وغيره، فهو جائز للباين، كأن يقول لها: إني أريد الزواج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمتزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، علم الله أنكم ستذكروهن﴾ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد.

وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي: تنقضي العدة.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ أي: فانوروا الخير ولا تنوروا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

﴿واعلموا أن الله غفور﴾ لمن صدرت منه الذنوب: فتاب منها، ورجع إلى ربه ﴿حليم﴾ حيث لم يعاجل العصاة على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضا لهن فريضة ومتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ أي: ليس عليكم يا معشر الأزواج جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه يتجبر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لخواترهن. ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر﴾ أي: المعسر ﴿قدره﴾.

وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿متاعاً بالمعروف﴾ فهذا حق واجب على المحسنين ليس لهم أن يخسوهن.

فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن

جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمتنع عما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.

﴿٢٣٥﴾ ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلِيم﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم خوفاً من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها وغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل

فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة، فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارع ورحمته!! ومن أحسن من الله حكماً ليقوم يوتون!!؟، فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال:

﴿٢٣٧﴾ ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومساحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجهها، إذا كان يصح عفوها، ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وهو الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي بيده حل عقده؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل

(١) جاء في هامش ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضوع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة

النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له والمعنى كما هو ظاهر للمتدبر).

وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة).

والكرم، ولهذا قال ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ ثم قال تعالى:

﴿٢٤٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتوفون منكم

ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً

إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا

جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من

معروف والله عزيز حكيم﴾ أي:

الأزواج الذين يموتون ويتركون

خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا

﴿وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير

إخراج﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم

مدة سنة لا يخرج منها ﴿فإن خرجن﴾

من أنفسهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها

الأولياء ﴿فيما فعلن في أنفسهن من

معروف والله عزيز حكيم﴾ أي: من

مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك

وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة

بما قبلها وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتوفون

منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن

أربعة أشهر وعشراً﴾ وقيل لم تنسخها

بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر

وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي

مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق

الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على

أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح

عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل

الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم

ينف الخرج عنهم.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وَالْمطلقات

متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾

كذلك بين الله لكم آياته لعلكم

تعقلون﴾ أي: لكل مطلقة متاع

بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً

لحاطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه

المتعة واجبة على من طلقت قبل

المنيس، والفرض سنة في حق غيرها

كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها،

وقيل إن المتعة واجبة على كل مطلقة

احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن

القاعدة أن المطلق محمول على المقيد،

وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل

الفرض والمنيس خاصة، ولما بين تعالى

هذه الأحكام العظيمة المشتملة على

وَأَمَّا مَطْلِقُ النِّسَاءِ فَمَنْ أَمْلَهُ رَقَابٌ كُنْهُنَّ يَعْرِفُونَ وَسِرْحُونٌ
يَعْرِفُونَ وَأَلْسِنَهُنَّ كُنْهُنَّ رِقَابُهُنَّ وَأَمَّا مَنْ نَسِيَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُ وَكَانَ كَيْدًا وَأَمَّا أَيْتُ اللَّهِ هُنَّ وَأَمَّا كُنْهُنَّ فَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ عَلَى كُنْهُنَّ
أَنْ عَلَيْكُمُ الْكَلْبُ وَالْكَلْبُ يَعْطُرُ كُنْهُنَّ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ
أَنَّ اللَّهَ يَكْرِهُنَّ عَظِيمٌ وَأَمَّا مَطْلِقُ النِّسَاءِ فَمَنْ أَمْلَهُنَّ لَجَاهِلُنَّ
فَلَمْ يَعْلَمُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَوْلَاهَهُنَّ إِذَا تَرَكَهُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ وَالْمَعْرُوفُ
ذَلِكَ يَعْطُرُهُنَّ مَنْ كَانَ يَكْرَهُنَّ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ
أَنَّ كَلْبًا أَمْلَهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَ الْعَالَمِينَ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ
يُرْمَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَتَّى يَكْمُلْنَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَنْ يُبَيِّرَ الرِّبَاعَةَ وَعَلَى
النِّسَاءِ أَنْ يُبَيِّرَ الرِّبَاعَةَ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسَاءُ
وَمَنْعَهَا لِأَنَّهَا وَادَةٌ لِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلَا لِلَّهِ يُولَدُ وَلَا يُولَدُ إِلَّا
مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ أَرَادَ إِصْبَاحَ نِكَاحٍ مِنْهَا فَتَسْكُرُ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهَا وَإِنْ أَرَدَتْ أَنْ تَنْتَضِعَ عَمَّا أَوْلَدَتْكُمْ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ
وَأْتَيْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْمَعْرُوفِ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

الحكمة والرحمة امتن بها على عباده
فقال: ﴿كذلك بين الله لكم آياته﴾
أي: حدوده، وحلاله وحرامه
والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها
فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن
من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم
قال تعالى:

﴿٢٤٣-٢٤٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر

الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم

إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر

الناس لا يشكرون﴾ وقاتلوا في

سبيل الله واعلموا أن الله سميع

عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرصاً

حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله

يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ يقص

تعالى علينا قصة الذين خرجوا من

ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم،

بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من

وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج

السلامة من الموت، ولكن لا يغني

حذر عن قدر، ﴿فقال الله لهم موتوا﴾

فماتوا ﴿ثم﴾ ﴿إن الله تعالى ﴿أحياهم﴾

إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم

ولطفاً وحلماً، وبيانياً آياته خللقه

بأحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إن الله

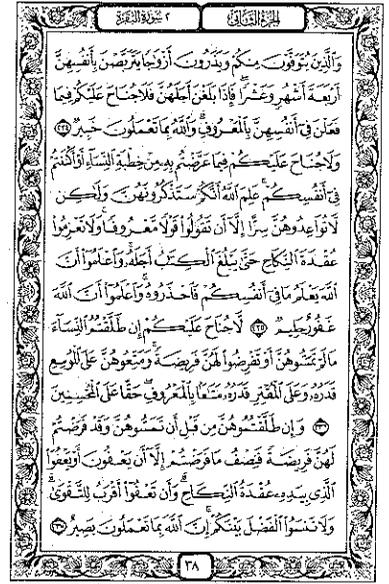
(١) من هنا بدأ الاختلاف بين السخنين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشيء من التفصيل وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قال﴾ لهم نبيهم ﴿هل عسى أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي: لعلمكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألقانا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذراريينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو توكلمهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، وأستول على أكثرهم الخور والحين ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلماذا قال: ﴿والله عليهم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم ﴿مجيئاً لطلبتهم﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أئني يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه.

الها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه ممن يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال ﴿والله يرجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تتركها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والتفقه في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحائنة عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿٢٤٦ - ٢٤٨﴾ ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسى أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليهم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آك موسى وآك هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ يقص تعالى على نبيه قصة الملا من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملا بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يروونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام



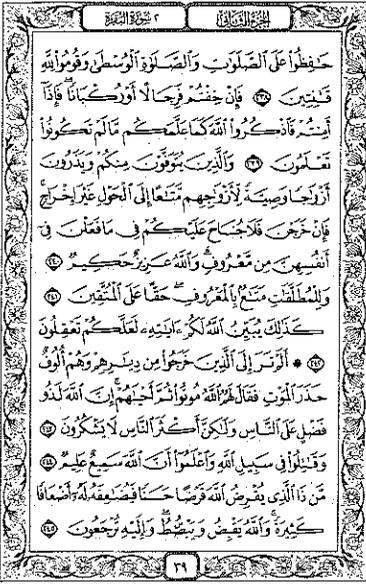
لذو فضل ﴿أي: عظيم﴾ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالتفقه وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق ونيته ونفع نفقته والحاجة

فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَرَزَاهُ اللَّهُ بَسْطَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي: والجسم اللذين هما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي: الصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفذه الرأي: الذي لا ينفذه شيئاً ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم، لا ينقص برحمته وبره العام أحداً عن أحد، ولا شريفاً عن وضع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتبه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضاً آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زماناً طويلاً وفي ذلك التابوت سكنية تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأنت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عياناً.

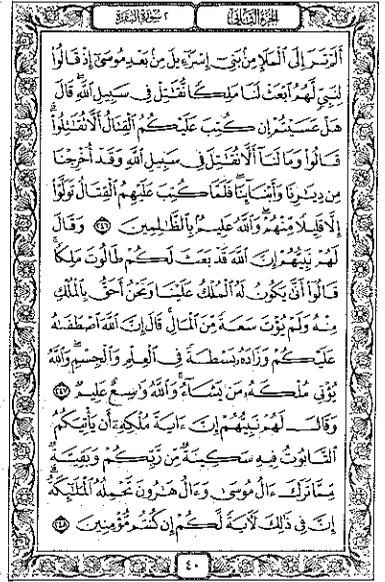
﴿٢٤٩-٢٥٢﴾

طالبوت بالجناد قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع

الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزمهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك من المرسلين * أي: لما تملك طالوت بني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عدداً كثيراً وجماً غفيراً، امتحنهم بأمر الله ليتين الثابت المطمئن عن ليس كذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولعصيته ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلوا على الله، وتضرعوا واستكاثروا وتبرأوا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم، فلماذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر هو * أي: طالبوت * والذين آمنوا معه * وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا... قتلهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم * لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده * لكثرتهم وعددهم وغدهم * قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله * أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وأمريز



لهم بالصبر * كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله * أي: بإرادته ومشيتته فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب المعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قالوا﴾ جميعهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين. من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم * فهزمهم بإذن الله، وقتل داود عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، * جالوت * أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿وآتاه الله﴾ أي: أتى الله داود ﴿الملك والحكمة﴾ أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراف المستقيم، ولهذا قال ﴿وعلمه بما يشاء﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك



وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحنهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا بينهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لبيهم ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ فكانه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿ولما برزوا للجحوش وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرتنا على القوم الكافرين﴾ فهزموهم بإذن الله.

ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمة وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البيئات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيئات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيجائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السنيذة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيئات الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ وأيدناه بروح القدس﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيئات﴾ ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ فإرادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية. فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسوله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل

لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لحدان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلهذا قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنتهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال تعالى ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيها التضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وانك لمن المرسلين﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالون من كل ما يقدر في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزريّة، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحيه، ولهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴿٢٥٥﴾ وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرأ موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بماء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه ينسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿٢٥٥﴾ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات

والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴿٢٥٦﴾ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأذبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممتثلاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الحي القيوم﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله بما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ والسنة النعاس ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض فلهذا قال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،

فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده إذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يتدبى الشافع قبل الإذن، ثم قال ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وما خلفهم﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السموات والأرض على عظمتها وعظمة من فيها، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السموات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿ولا يؤوده﴾ أي: يتقله ﴿حفظهما وهو العلي﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿العظيم﴾ الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الحسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفرداتها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات الغلّاء، ثم قال تعالى:

وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أنا أحيي وأميت﴾. ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستحي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأت بها من المغرب﴾ وهذا الإلزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدر في سبيله ﴿بهت الذي كفر﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبتل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بل يبيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً والوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أژاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الخسرة، فلماذا قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿٢٥٨﴾ ﴿لم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول تعالى: ﴿لم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي: إلى جراته وتحامله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حله على ذلك إلا ﴿أن آتاه الله الملك﴾ فطغى وبغى ورأى نفسه مترئساً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربهية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

﴿٢٥٦ - ٢٥٧﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالوفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سبيء القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس الله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكروه ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان التمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل ماله إلى الجحيم ﴿والله سميع عليم﴾ فيجازي كلا

صورتها، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للبحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربهما وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيتها، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله: «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٩﴾ «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ

وهي خاوية على عروشها قال أنى يجي هذه الله بعد موتها فأمامته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم تكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿ وهذا أيضاً دليل آخر على توحد الله بالخلق والتدبير والإمامة والإحياء، فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً ﴿ قال أنى يجي هذه الله بعد موتها ﴾ استبعاداً لذلك وجهلاً بقدرته الله تعالى، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب، ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم ﴿ استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وخواسه وكان عهد خاله قبل موته، فقبل له ﴿بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أي: لم يتغير بل بقى على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغيير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً ﴿وانظر إلى حمارك﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتثرت عظامه، وتفرقت أوصاله ﴿ولنجعلك آية

للناس﴾ على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أمودجاً محسوساً مشاهداً بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشرها﴾ أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض ﴿ثم تكسوها لحماً﴾ فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى، ﴿فلما تبين له﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس لثلاثة أوجه أحدها قوله ﴿أنى يجي هذه الله بعد موتها﴾ ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمست وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: تبين له أمر كان يحمله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿٢٦٠﴾ «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ

أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴿ وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأل أن يريه بصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلماذا قال الله له ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ وذلك أنه

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا جُنُودًا بَلَّغَهُمُ اللَّهُ بِلَا غُلُوبٍ لِمَا كَانُوا مَعَهُ فَأَنبَأَهُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٢٦٠﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا جُنُودًا بَلَّغَهُمُ اللَّهُ بِلَا غُلُوبٍ لِمَا كَانُوا مَعَهُ فَأَنبَأَهُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٢٦٠﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا جُنُودًا بَلَّغَهُمُ اللَّهُ بِلَا غُلُوبٍ لِمَا كَانُوا مَعَهُ فَأَنبَأَهُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٢٦٠﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا جُنُودًا بَلَّغَهُمُ اللَّهُ بِلَا غُلُوبٍ لِمَا كَانُوا مَعَهُ فَأَنبَأَهُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿٢٦٠﴾

بتوارد الأدلة اليقينية بما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيته أولوا العرفان، فقال له ربه ﴿فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ أي: ضمهن ليكون ذلك بمراى منك ومشاهدة وعلى يديك. ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ويكون من الموقنين﴾ ثم قال: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

﴿٢٦١﴾ «مِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ

أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبل مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿ هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في



قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ وهنا قال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شهاد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقادم النفس مدعنة للإنفاق ساعحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزئية والمئة الجلية، ﴿والله يضاعف﴾ هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها بوقوعها، ويحتمل أن يكون ﴿والله يضاعف﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿والله واسع﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يخفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهو لاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندمع عنهم الشر لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قول معروف﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ومغفرة﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنه لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿والله غني﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حليم﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم

تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تنفيذ بهم التلات أنزل بهم عقابه وحرهم جزيل ثوابه.

﴿٢٦٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلهم كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى ففيه أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ولا تجهروا به بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قبلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى، وقوله: ﴿كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فقصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراعاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وشيعه غير مشكور، فمثلهم المطابق لحاله ﴿كمثل صفوان﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عليه تراب فأصابه وابل﴾ أي: مطر غزير ﴿فتركه صلداً﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرابي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رأى الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح

لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا ﴿٢٦٥﴾ لا يقدر على شيء ﴿٢٦٥﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿والله لا يهدي الكافرين﴾

﴿٢٦٥﴾ ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير﴾ هذا مثل المتفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله﴾ أي: قصدهم بذلك رضی ربهم والفرحون بقربيه ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منسرح له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها أفتان إما أن يقصد الإنسان بها عمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمته وتردد،

فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتاً من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كمثل جنة﴾ أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتتان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة ﴿بربوة﴾ أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وأخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها ليست يمحل نازل عن الرياح والشمس، فـ ﴿أصابها﴾ أي: تلك الجنة التي بربوة ﴿وابل﴾ وهو المطر الغزير ﴿فآنت أكلها ضعفين﴾ أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فإن لم

بصبها وابل فظل﴾ أي: مطر قليل يكفيها لطيب منتبها، فهذه حالة المتفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل يسمى له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمتمنى لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، فيالله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، والحصل الاقتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتنا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرجات، ومع هذا تجرد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حتى اليقين وبياض الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

﴿٢٦٦﴾ ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالاً تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها^(١) الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن

الله في الدنيا ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾

﴿٢٦٦﴾ ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾

﴿٢٦٦﴾ ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾

العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقتهم ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الزيح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهمم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك الفسادات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه حساباً.

والله سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية خسرتة ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلهذا أمر تعالى

(١) في النسختين: فيه.



بالتفكير وحث عليه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تمسوا الخبيث منه تفنون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾
الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، وما أخرج لهم من الأرض فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فانفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقتصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمساحة ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فليكن أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحاً لكم، بل

هذا غاية الغش ﴿إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعدكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعبوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبور، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فليظن العبد نفسه إلى أي: الداعيين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من التقيدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوها إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدوراً عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجزىء في الزكاة ثم قال تعالى:

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن من عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي: خير أعظم من خيرا فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابت بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول النائمة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفظرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلماذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾

﴿٢٧٠﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبتها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف بما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق

العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾

﴿٢٧١﴾ ﴿إن تبدوا الصدقات فنمما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ أي: إن تبدوا الصدقات فظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله ﴿فنمما هي﴾ أي: فنعم الشيء ﴿هي﴾ لحصول المقصود بها ﴿وإن تخفوها﴾ أي: تسروها ﴿وتؤتوها﴾ الفقراء فهو خير لكم ﴿ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات للفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار، ودل قوله: ﴿وتؤتوها الفقراء﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجاً وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ فيه دفع العقاب ﴿والله بما تعملون خبير﴾ من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المجازاة.

﴿٢٧٢ - ٢٧٤﴾ ﴿ليس عليكم هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ الذين يتفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فليهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم

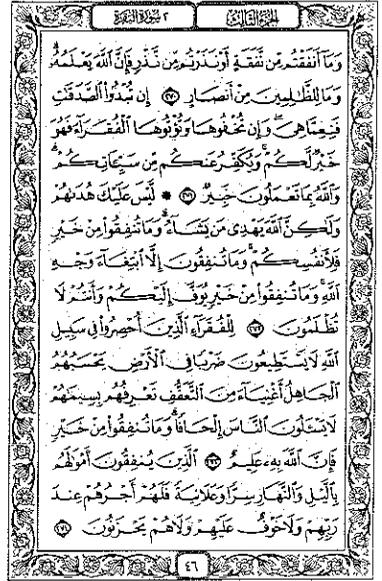
يحزنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، فيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهد، فلهذا قال: ﴿وما تنفقوا من خير﴾ أي: قليل أو كثير على أي: شخص كان من مسلم وكافر ﴿فلا أنفسكم﴾ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الرديئة ويوجب لهم الإخلاص ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً ولا منقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم، ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها الفقر، والثاني قوله: ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ أي: قصرها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبوسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: ﴿ولا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي: سافراً للتعسب، الرابع قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا يتنافى قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء﴾ فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراهم^(١) يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جيل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي: شخص



كان، فهي خير وإحسان وبر يشاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: ﴿الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشبهات أنفسهم ﴿بالليل والنهار سراً وعلانية فليهم أجرهم عند ربهم﴾ أي: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم ﴿ولا خوف عليهم﴾ إذا خاف المقصرون، ﴿ولا هم يحزنون﴾ إذا حزن المفرطون، ففازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والمهروب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

﴿٢٧٥ - ٢٨١﴾ ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ﴿يصحق الله الربا ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ إن الذين آمنوا وعملوا

(١) في النسختين: يراه.



الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأتونا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * يجبر تعالى عن أكلة الربا وسوء ما لهم وشدة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم * إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس * أي: يصزره الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الربال، فكما تقلبت عقولهم و * قالوا إنما البيع مثل الربا * وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: * لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس * أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعت أراؤهم، وصاروا في هيبتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم،

قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة * وأحل الله البيع * أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكنسية حتى يرد ما يدل على المنع * وحرم الربا * لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم، وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها * فمن جاءه موعظة من ربه * أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قيضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه * فأنتهى * عن فعله وانزجر عن تعاطيه * فله مناسلف * أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر * وأمره إلى الله * في مجازاته وفيما يستقبل من أمره * ومن عاد * إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك * فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * اختلف العلماء رحمة الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: * يمحى الله الربا * أي: يذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق

منه لم يؤجر عليه بل يكون زاداً له إلى النار * ويرى الصدقات * أي: يتميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده * والله لا يحب كل كفار * لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله * أثم * أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر خلة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يمهله حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر * وإن تبتم * عن الربا * فلكم رؤوس أموالكم * أي: أنزلوا عليها * لا تظلمون * من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا * ولا تظلمون * بنقص رؤوس أموالكم * وإن كان * المدين * ذو عسرة * لا يجد وفاء * فنظرة إلى ميسرة * وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به * وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * إما بإسقاطها أو بعضها.

* واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل

الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخطفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أو يجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

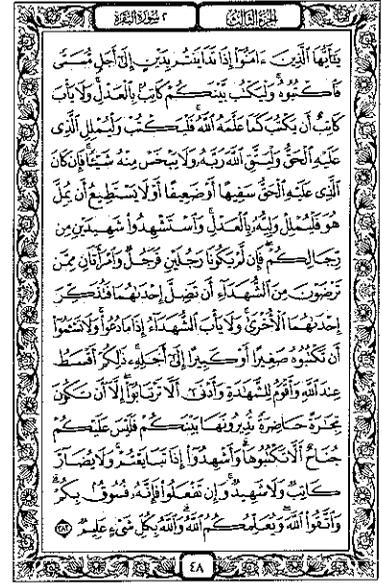
﴿٢٨٢﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سقيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسب عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تباينتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴿ هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس أن يكون عدلاً في نفسه لأجل

اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقراءة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر قوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدينين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبغض منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجب ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حقاً من الحقوق التي البينة^(١) على مقدارها وخصتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينهه عن بنحس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يجوز على من عليه حق من الحقوق أن يبغض ويتقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولو أحقه، السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه يتوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَوْمَ الَّذِي
يَسْجُطُهُ السَّيْطَانُ مِنَ الرِّبَا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَأُولَٰئِكَ الْمَالُ
مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ سَجَدُوا لِلرِّبَا فَهُمْ عِبَادٌ لَّهَا
فَإَن يَدْعُوا خَلْقًا غَيْرَ اللَّهِ فَقَدْ حَسِبُوا أَنَّ
أَصْنَانَهُمْ كَالَّذِينَ فِيهَا حُلْدَةٌ إِنَّ اللَّهَ لَبَاسُ
وَبِالْصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهَا شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَهْمٍ لِّمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٨٢﴾
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَوْمَ الَّذِي
يَسْجُطُهُ السَّيْطَانُ مِنَ الرِّبَا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَأُولَٰئِكَ الْمَالُ
مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ سَجَدُوا لِلرِّبَا فَهُمْ عِبَادٌ لَّهَا
فَإَن يَدْعُوا خَلْقًا غَيْرَ اللَّهِ فَقَدْ حَسِبُوا أَنَّ
أَصْنَانَهُمْ كَالَّذِينَ فِيهَا حُلْدَةٌ إِنَّ اللَّهَ لَبَاسُ
وَبِالْصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهَا شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَهْمٍ لِّمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٨٢﴾

يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البغض لقوله ﴿بالعدل﴾ التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والسفيه والمجنون والمعنوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لظلمهم ورحمة، خروفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت والله أعلم.



الرابع والأربعون والخامس والأربعون: السادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقلوه: ﴿وإن فعلوا فإنه فسوق بكم﴾ السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تنجزاً في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقلوه: ﴿فإنه فسوق بكم﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الشامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقلوه: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾. التاسع والأربعون أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته ولينق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ أي: إن كنتم مسافرين ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثيق ﴿فرهان مقبوضة﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثيق، ودل أيضاً على أن الزامن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنتم به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثيق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنتم به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثيق جاز حضراً وسفراً، وإنما ينص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقلوه: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السامة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لابد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقلوه: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما

المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿فاستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر شهادته مقبولة لقلوه: ﴿فتذكر إحداهما﴾ الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان

إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمتها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويحجر بضده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دينهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلهذا الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

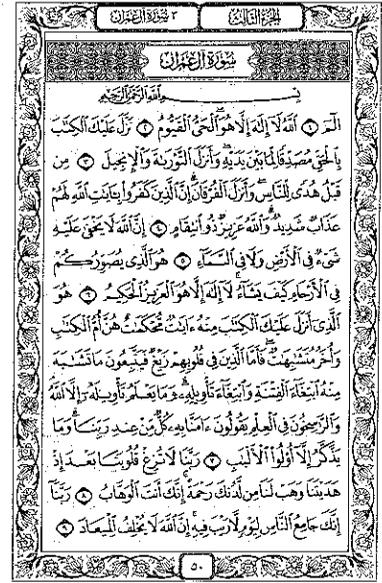
﴿٢٨٤﴾ ﴿الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا ملكاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهو بهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسبححاسبهم على ما أسروه وأعلنوه ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ وهو لمن أتى بأسباب، المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه.

﴿٢٨٥﴾ ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ يحجر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله ﴿وقالوا سمعنا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وأطعنا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿غفرانك﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحور ما اتصفنا به من العيوب ﴿وإليك المصير﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها

﴿٢٨٧﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿وإن كسرت على سفر ولا رجعة عليك فإن آمن بصرك بما في صدورنا لننزلك الوحي ولن نجعل لك قلباً يحسبنا ولا نؤتينا من يشاء الله والله عليم العزيز﴾

مؤاخذون به، فأخبرهم هذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعداء التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطبق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ



فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيها، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه «مصدقاً لما بين يديه» من الكتب السابقة، فهو المركزي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى «وأنزل التوراة» أي: على موسى «وإنجيل» على عيسى «من قبل» إنزال القرآن «هدى للناس» الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله «وأنزل الفرقان» أي: الحجج والبيّنات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلها قال «إن الذين كفروا بآيات الله» أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العليل «لهم عذاب شديد» لا يُقدَّر قدره ولا يدرك وصفه «والله عزيز» أي: قوي لا يعجزه شيء «ذو انتقام» عن عصاه «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنحة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بالطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلها قال

ربنا ومليكننا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فتعمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فسألك ياربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتحذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلّى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة التصاري وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١ - ٦﴾ «بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ اَلَمْ يَجْعَلْ لَّا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ * نَزَّلَ عَلَیْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَیْنَ يَدَیْهِ وَاَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْاِنْجِیْلَ * مِنْ عِندِكَ شَدِیْدٌ وَاللّٰهُ عَزِیْزٌ ذُو الْبِرِّ وَالْاَتَقَاتِ ۗ اِنَّ اللّٰهَ لَا یَخْفٰی عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی الْاَرْضِ وَلَا فِی السَّمٰوٰتِ * هُوَ الَّذِیْ یُصَوِّرُكُمْ فِی الْاَرْحَامِ كَیْفَ یَشَآءُ ۗ لَّا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِیْزُ الْحَكِیْمُ * افْتَتَحْنَا تَبَارَكَ وَتَعَالٰی بِالْاِخْبَارِ بِالْوَهِّیْتِ، وَاِنَّهٗ الْاِلٰهَ الَّذِیْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الَّذِیْ لَا یَنْبَغِی التَّأَلُّهُ وَالتَّعْبُدُ اِلَّا لُوْجْهٖ، فَكُلُّ مَعْبُوْدٍ سِوَاهُ فَهٗوَ بَاطِلٌ، وَاللّٰهُ هُوَ الْاِلٰهَ الْحَقُّ الْمُتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْاِلٰهِیَّةِ الَّتِیْ مَرَجَعُهَا اِلَى الْحَیَاةِ وَالْقِیُوْمِیَّةِ، فَالْحَيُّ مَنْ لَهٗ الْحَیَاةُ الْعَظِیْمَةُ الْكَامِلَةُ الْمَشْتَرِكَةُ لِجَمِیْعِ الصِّفَاتِ الَّتِیْ لَا تَنْتَمِ وَلَا تَكْمُلُ الْحَیَاةُ اِلَّا بِهَا كَالسَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَالْقُدْرَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْعِظْمَةَ وَالْبَقَاءَ وَالدَّوَامَ وَالْعِزَّ الَّذِیْ لَا یُرَامُ «الْقِیُّوْمُ» الَّذِیْ قَامَ بِنَفْسِهِ فَاسْتَغْنَى عَنْ جَمِیْعِ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَقَامَ بِغَیْرِهِ

أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال «ربنا لا تؤاخذنا إن سئنا أو أخطأنا» والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذا قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يبحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو ما لا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. «ربنا ولا تحمل علينا إصراً» أي: تكاليف مشقة «كما حملته على الذين من قبلنا» وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» وقد فعل وله الحمد «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا» فالعفو والغفرة يحصلان دفع المكروه والشروع، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور «أنت مولانا» أي:

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيةها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفون المعنى إلى الله فيؤمنون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير المشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل من المحكم والمشابه من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض^(٢)، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المشابه، علموا يقيناً أنه مزدود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المشابه قال ﴿وما يذكر﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أولوا الألباب﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخالصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالخاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسد مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المشابه ﴿ابتغاء الفتنة﴾ لمن يدعوهم لقولهم، فإن المشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصد اتباعه، وقوله ﴿وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾ للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على «إلا الله» لأن المشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيةها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(١) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من كامل الخلق ونواقسه، وحسن وقبح، وذكر وأثنى ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿٧-٩﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أئمانه كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ * ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ * ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقتها لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿منه آيات محكمات﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هن أم الكتاب﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ﴿و﴾ منه آيات ﴿آخر متشابهات﴾ أي:

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفي تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المشابه علموا يقيناً أنه مزدود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا.

والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فتنة تقتات﴾ وهذا يوم بدر ﴿فتنة تقتات في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصلدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلماذا قال ﴿يروهم مثلهم رأي: العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزموهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطلّة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والغدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ ﴿قل أولئك هم الذين اتقوا﴾

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ ﴿قد كان لكم آية في فتنة تقتات في سبيل الله وأخرى كافرة يروهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿ويدالهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملأها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا ما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعضمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرايعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لتشابهه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ ﴿كذاب أولئك هم الذين من قبلهم كذبوا﴾

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.

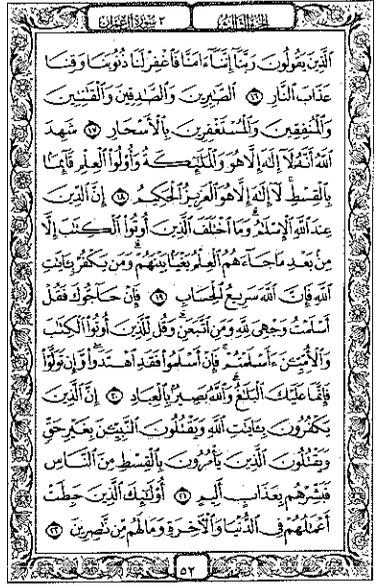
عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا إنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار * يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي الثمرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحاناً لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقاً يتروون منها لأخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبتوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ فجعلوها معبراً إلى الدار الآخرة ومتجرأ يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زاداً إلى ربهم. وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمعتزين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع

الثمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم والأزواج المطهرة من كل قدر ودنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الخفيفة، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض على قلبك المفاضلة بينهما ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي: عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة، وما هو اللائق بأحوالهم، يوفق من شاء منهم ويخذل من شاء. فالجنة التي ذكر الله وصفها ونعتها بأكمل نعت وصف أيضاً المستحقين لها وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وكان من دعائهم أن قالوا:

﴿١٦-١٧﴾ ﴿ربنا إنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقمهم شر آثارها وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التقوى. فقال ﴿الصابرين﴾ أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ﴿والصابرين﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم ﴿والمتقين﴾ مما رزقهم الله بأنواع النفقات على المحاريج من الأقارب وغيرهم ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم، حالاً ولا مقاماً، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم، ويتوقعون أوقات الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع يتقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيهاً على أنه يجب إشارتها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون، ثم فصل خصال التقوى، فهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟



﴿١٨-٢٠﴾ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بنفياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سزيع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتكم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها باخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم



المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يضل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف التعلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهادته تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم، وأنهم أمثاء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَاتِلْنَا

بالبسط﴾ أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراجه بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فاما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقديره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، ودم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصورة للأمر فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المديبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النعم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم الشيب الأكبر الموجب أن يتبعوا

الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلماذا قال تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند حجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴿أي: أنا ومن اتبعني قد أقرنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزنا بطلانه، ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيد به أهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلماذا قال ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من النصارى واليهود ﴿والأميين﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿أسلمتم فإن أسلموا﴾ أي: بمثل ما أمنتكم به ﴿فقد اهتدوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وإن تولوا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تحالفه ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلماذا قال ﴿والله بصير بالعباد﴾

﴿٢١ - ٢٢﴾ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق

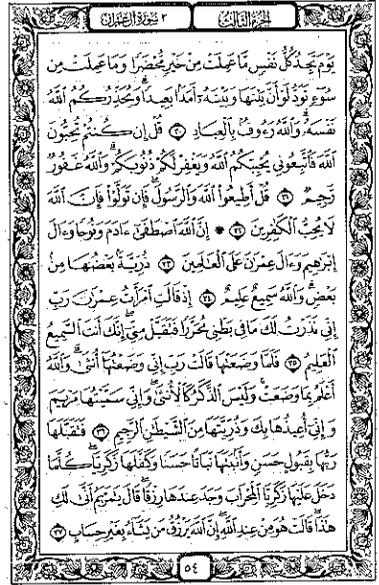
ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بمذاب اليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوثيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد يسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصيبنا



من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلماذا قال تعالى ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي: كيف يكون حالهم وخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج



وأعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مبدرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقته تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير * قل إن تحفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير * يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد * وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالة الله وموالة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فمن وإلى - الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتنوا أولياءه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدقتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وتعز من تشاء﴾ بطاعتك ﴿وتذل من تشاء﴾ بمعصيتك ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا

الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يقول الله لنبيه ﷺ ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، صفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصرف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريح التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياسرة ومن تبعهم ويؤتية أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تقوا منهم تقاة﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منك منكر» الخ، فالؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه ولا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبيحه الله إلا لمن أكره الخ.

يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَن يَمُوتَ مِن تَوَلَّاهُ فَأنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير﴾ فلهذا قال: ﴿فإِن تَوَلَّوْا فإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الّذِينَ كَفَرُوا﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفصيلاً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿٣٣ - ٣٧﴾ ﴿إِن اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعتها وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿يَجْرُ تَعَالَى بَاخْتِيَارٍ مِّنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَحِبَّاهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ اصْطَفَى آدَمَ، أَي: اخْتَارَهُ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَخَلَقَهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْعِلْمِ

الله ﴿يَوْمَئِذٍ يُودِى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسْوَى بِهِنَّ الْأَرْضُ﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ ﴿يَا وَلَيْتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ﴾ ﴿فَوَاللَّهِ لَتُرِكَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَئِن عَسَرَ تَرْكُهَا عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَيْسَرَ مِنْ مَعَانَاةِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ وَإِحْتِمَالِ تِلْكَ الْفَضَائِحِ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ مِنْ ظَلَمِهِ وَجَهْلِهِ لاَ يَنْظُرُ إِلاَّ الْأَمْرَ الْحَاضِرَ، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا وزحمة لئلا يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترتيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فنسألُه أن يمن علينا بالحذر منه على الدوام، حتى لا نفعَل ما يسخطه ويغضبه.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لابد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، منع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول

والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ (١) أي: تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية. ثم قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي: فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿والإلى الله المصير﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويميزهم، فيأياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور ويبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفى به النفوس بأعمالها فلماذا قال ﴿يوم تحمد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة خزيها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يا حسرتا على ما فرطت في جنب

والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووقفه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن^(١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيقات، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتسبناهم وهديناهم إلى صراط

مستقيم﴾ ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبههم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما نفهم، وأن لا نزال نزرى^(٢) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزايهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملة، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكراهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رب إنى نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقفاً، ففي كلامها [نوعاً]^(٣) عذر من ربه، فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ وإنى سميتها مريم ﴿فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب﴾ ﴿وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم

﴿فتقبلها ربهما بقبول حسن﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وأنتها نباتاً حسناً﴾ أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنها وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قبض لها زكريا عليه السلام ﴿وكفلها﴾ إياه، وهذا من رفقه بها ليزيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربهما وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربهما، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا ﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ فضلاً وإحساناً ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي: من غير حساب من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء المحارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاهم بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولاد، فلماذا قال تعالى:

﴿٣٨ - ٤١﴾ ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين * قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغنى الكبر وإمرأتى عاقرة قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمراً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: ظاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو

- والله أعلم - أنها كما أثبت

(١) في الأصل: ومنن.

(٢) في الأصل: نردى.

دعاه، وبينما هو قائم في غرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنْ اللهُ يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وسيداً﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وحضوراً﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالاً بخدمة ربه وطاعته ﴿ونبياً من الصالحين﴾ فأي: بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، ويكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمع، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجالاً لهذا الأمن، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة على وجود الولد قال ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رموا﴾ أي: ينحس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبه، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: أول النهار وآخره.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿وإذ قالت الملائكة يا

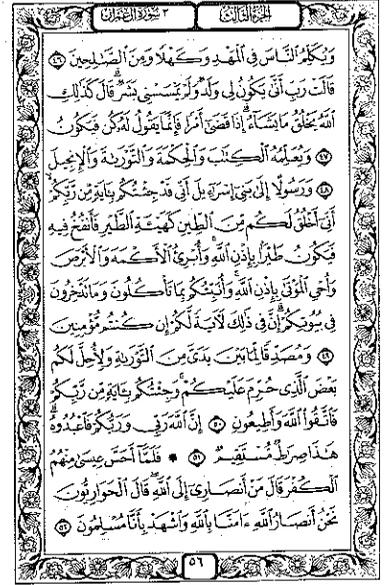
مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع

الراكعين * ذلك من آباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي: اختارك ﴿وطهرك﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسمية ما يوجب لها القيام بشكرها، فلماذا قالت لها الملائكة: ﴿يا مريم اقتني لربك﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكراً لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قبضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ذلك من آباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأبهم لم يجز قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنتك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الاتقياء لك وامتنال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

هَذَاكَ مَا كَرَّمَهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿فَأَنذَرَتْهُ لَهَا مَكْرَهُمْ وَهُوَ قَائِمٌ يَمْشِي فِي الْمِحْرَابِ أَنِ اللَّهُ يُبَشِّرُكِ بِبِئْسَ مُّصَدِّقًا لِّكَلِمَاتِكَ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّئًا وَحَصْرًا وَيَبْسُئُونَ الصَّالِحِينَ ﴿قَالَ رَبِّ أَن كُونِ لِي سُلْمًا وَمِنْ دُونِ الْعَصَا وَالسَّيْرِ وَالرَّيِّ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنَّا نَبِّئْنَاكَ بِالْحَقِّ كَمَا نَبِّئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ ذلك من آباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله ونبياً من الصالحين ﴿يا مريم ووجهك الذي نرى من ربي عظيم﴾

﴿٤٥ - ٥٨﴾ ﴿إذ قالت الملائكة يا

مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ وكلم الناس في المهدي وكهلاً ومن الصالحين﴾ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتمكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ومصداقاً لما بين يدي من التوراة ولأهل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتمكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾ إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم



فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعد لهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهدا سمي روح الله * وجيهاً في الدنيا والآخرة * أي: له الوجاهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأنبياء، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهدا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربه، بل هو عليه السلام من سادات المقربين * ويكلم الناس في المهدي كهلاً * وهذا غير

التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربه، وفي تكليمهم في المهدي آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به * ومن الصالحين * أي: يمن عليه بالصلاح، من من عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر * والولد في العادة لا يكون إلا من سس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: * قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراه: كن فيكون، فمن يقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال: * ويعلمه الكتاب * يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم الفاطمة ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله * ويعلمه الكتاب * أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال: * اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كمالاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال: * ورسولاً إلى بني إسرائيل * فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً ولهذا قال: * أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين طيراً، أي: أصوره على شكل الطير * فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله * أي: طيراله روح تطير بإذن الله * وأبرياء الأكمه * وهو الذي يولد أعمى * والأبرص * بإذن الله * وأحبي الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك آية أعظم لكم إن كنتم مؤمنين * أي: آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان * ومصدقاً لما بين يدي من التوراة * أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية في عبادته، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ. ثم إلى مرجعكم. أي: مصير الخلائق كلها ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطىء، وهذا مجرد دعوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمة بينهم بالقسط والعدل، فقال ﴿فأما الذين كفروا﴾ أي: بالله وآياته ورسله ﴿فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والنذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وأما الذين آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به ﴿وعملوا الصالحات﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم سيخه وعذابه ﴿ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم﴾ وهذا منة عظيمة على رسوله

الأنصار ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: ﴿أما بالله﴾ ﴿فاكتنبا مع الشاهدين﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه أمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلماذا قال تعالى هنا ﴿ومكروا﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره ﴿ومكر الله﴾ بهم جزاء لهم على مكروهم ﴿والله خير الماكرين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانتقلوا خاسرين ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ فرجع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقى شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإنم العظيم ينتهم أنه رسول الله، قال الله ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى ﴿وإذ كفتت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ ثم قال تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقرراً ﴿وجنتكم بأية من ربكم﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله ﴿فاتقوا الله﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرعاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مبدئ مخلوق، كما قال ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾ إلى قوله ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وقوله ﴿هذا﴾ أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، ﴿فلما أحسن عيسى منهم الكفر﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله ﴿قال الخواريون﴾ وهم

بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهذا قال تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى ﴿إِنْ هَذَا الَّذِي قَضَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١).

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا لتجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل، ثم فسرها بقوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ فينفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبياً ولا ملكاً ولا ولياً ولا صنماً ولا وثناً ولا حيواناً ولا جماًداً ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسوله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فاشهدوهم

بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورده عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بادلته ويدعو إليه.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين * أي: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ ووجاهتك * في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته * من بعد ما جاءك من العلم * بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجذاله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحثته وملاعبته، فيدعون الله ويتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعتوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجيدوا أهلاً ولا مالا وعوجلوا

محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿إِنْ مِثْلَ عَيْسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ * الحق من ربك فلا تكن من الممتريين * يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئة وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعائها في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال تعالى ﴿إِنْ مِثْلَ عَيْسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ * الحق من ربك * أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قصص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ * أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما

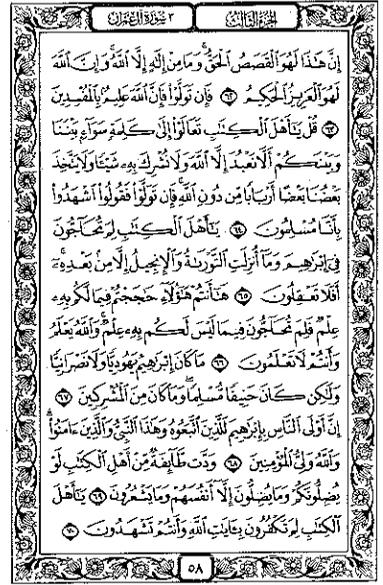
(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير فقد أخرج تفسير قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أقيمتها على ما هي عليه.

الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكنتمهم الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ وهو المال الكثير ﴿يؤده﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى، ومنهم ﴿من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأحرى، والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ﴿ليس﴾ عليهم ﴿في الأميين سبيل﴾ أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأميين حرمة، وأجازوا ذلك، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يجلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يجبر عن حكم الله ليس يجبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلماذا قال ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم إثمًا من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

﴿من أوفى بعهده وأتقى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتشوي تكوّن في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوا الله وعدم

المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الهدى هدى الله﴾ فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لحيث نيابهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلماذا قال تعالى ﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يؤتيه من يشاء﴾ من أتى بأسبابه ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عليم﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين وتمماته ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يصفه الواصفون ولا يحيط بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾ يجبر تعالى عن حال أهل الكتاب في



ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾. ثم أخبر تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجباً بأنفهمهم وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿و﴾ قال بعضهم لبعض ﴿لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي: لا تتقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالخاصل أنهم جعلوا عدم إخبار

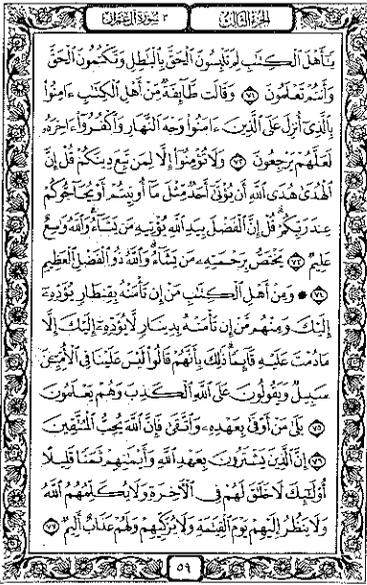
(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك .

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقلوله ﴿ما كان لبشر﴾ أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق ﴿أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ فهذا من أجل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أفصح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بمعالي الأمور القبيحة، فلهذا قال ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله ﴿وبما كنتم تعلمون﴾ الخ، باء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين﴾ ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم﴾ ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إن الذين يشتركون به عهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء ﴿لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿ولا يكلمهم الله﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿ولا يزكّيهم﴾ أي: يظهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿٧٨﴾ ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويجرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ أي: يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ



من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً .

﴿٨١-٨٢﴾ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولاً مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أعينهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن عمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى

ينظرون ﴿٩٠﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولوردوا العادوا لما نهوا عنه.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أخذهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشده والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوقفون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زغوا أزواغ الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياداً بالله من حالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى

﴿٨٥﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦ - ٨٨﴾ ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدن فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوقفون للهداية، لأن الذي يرجي أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحرى أن يسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خالدن فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم



﴿قالوا أقرنا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين ﴿قال﴾ الله لهم: ﴿فاشهدوا﴾ على أنفسكم وعلى أمكم بذلك، قال ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ * فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ فعل هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الخليط، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٢﴾ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ أي: أيا طلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: الخلق كلهم متقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربه، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويميزهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿٩٢﴾ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ أي: تدرکوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فيذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثاباً عليه العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان قوله ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعال عن هذا الوهم بقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

﴿٩٣-٩٥﴾ ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون * قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعبسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحرير فمن تمام الإنصاف في المجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني

إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحرير من الله تعالى، بل حرمة على نفسه لما أصابه عرق التسن نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم من أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل وألبانها وتبعه بنوه على ذلك وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعدا، فلهذا قال تعالى ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وتجبراً، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلهذا قال تعالى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالستتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكروها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً ويقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وترك حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ

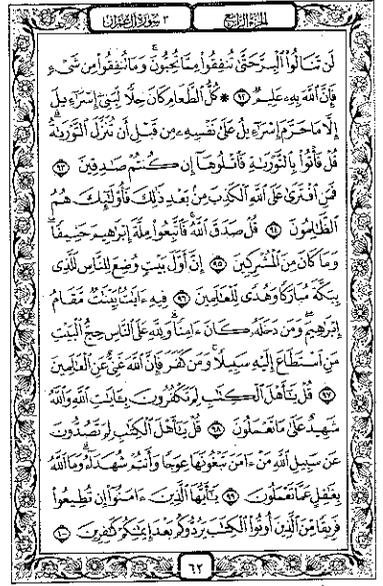
لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَهُوَ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * يُحْيِي تَعَالَى عَنْ شَرَفِ هَذَا الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ، يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ لِرَبِّهِمْ فَتُغْفَرُ أَوْزَارُهُمْ، وَيُقَالُ عَثَارُهُمْ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالقَرِيبَاتِ مَا يَنْتَالُونَ بِهِ رِضَى رَبِّهِمْ وَالْفَوْزَ بِثَوَابِهِ وَالنَّجَاةَ مِنْ عِقَابِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فِيهِ الْبُرْكَةُ الْكَثِيرَةُ فِي الْمَنَافِعِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿لِيُشْهِدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَرَكَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * وَالهُدَى نَوْعَانِ: هُدًى فِي الْمَعْرِفَةِ، وَهُدًى فِي الْعَمَلِ، فَالهُدَى فِي الْعَمَلِ ظَاهِرٌ، وَهُوَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَبُّدَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، وَأَمَّا هُدًى الْعِلْمِ فَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِسَبَبِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ بِسَبَبِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: أدلة واضحة، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيدهِ ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمته هذا الواجب الذي أوجبه، وتحويلاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفائية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذم غيرهم، لأن المعنى يؤل إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقاً بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أول من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل متقول، فلو كان من هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على

باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل هذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقيم عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرأ فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين برهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيعه، ومن جعله حرماً أن كل من أراهه بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاماً حسناً أحببت إيرادها لشدة الحاجة إليه قال فائدة: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «والله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «والله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فيبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداء، وهو الحج.



«مقام إبراهيم» يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبدل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات بينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرأ، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد

هذا الفرض العظيم . وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين ، اعتناء به وتأكيده لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده ووجهه وإن لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿ إن أول بيت ﴾ الخ ، فوصفه بخمس صفات : أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أوم ولا أنفع للخلائق ، الثالث : أنه هدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة ، حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية ، الخامس : الأمن الحاصل لداخله ، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يعث النفوس على حجة وإن شطت بالنازئين الديار وتناوت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الإعثناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿ وطهر بيتي ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرقاً ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلمت نفوسهم بحاله وشوقاً إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً ، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم ، كما قيل :

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهيلي ، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواه ، وهو الوجوب المفهوم من قوله « على الناس » ، أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها ، ففي غاية البعد فتأمل ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : لله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه ، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على يدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسرت ، من قوت أو مال ، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ ومن كفر ﴾ أي : لعدم إلتزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم « العالمين » عموماً ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه ، ثم أكد هذا المعنى بأداة « إن » الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب « يعجبني ضرب زيد عمراً » وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) ، فلا يصار إليه . وإذا ثبت أن « من » بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى « الناس » كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن « من » واقعة على من لا يعقل ، كالاسم المبدل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لفتح حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إختوتك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحاً ، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الثياب ما حسن وجمل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب .

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه ، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، وما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجزور من قوله « لله » فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قدم عليها ، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصح تعلق المجزور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجزور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني وأنتم منه الركن أطلب بردما بقلبي من شوق ومن هيمان فوالله ما ازداد إلا أصابة ولا القلب إلا كثرة الخفقان فياجنة المأوى وبإغاية المنى وبإمني من ذون كل أمان أبت غلبات الشوق لإتقربا إليك فما لي بالبعاد يدان وما كان صدى عنك صدماللة ولي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا فلبى البكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبيلى هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بل إنه يبلى والهوى على حاله^(١) لم يبسه اللنوان^(٢) وهذا عجب قادة الشوق والهوى بغير زمام قائد وعنان أتاك على بعد الزار ولورونت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى

﴿٩٨ - ١٠١﴾ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بالله والله شهيد على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله * أي : الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات التي توجب القطع بموجها والحزم بمقتضاها وعدم الشك

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فضلووات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فقد هديني إلى صراط مستقيم﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشتروا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها

(١) في الهامش كتب: أي الهوى.

(٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بل إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بل إنه يبلى التصبر والهوى

(٣) في الأصل: بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت.

على حاله لم يبسه اللنوان

على حاله لم يبسه اللنوان

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْفِلُونَ عَلَيْهِمُ الْمَالُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلَمُوا بِهِ أَمْ ذُكِرُوا بِهِ
 وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَعَدْدُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَلَا تَمُوتُوا وَأَنْتُمْ
 كَافِرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمِ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ جَاهِدُكُمْ
 وَأَكْذَرُ وَأَعْتَمِدُ اللَّهُ عَلَيْهِ كَرْيَهُ لَأَنْتُمْ أَهْلُ الْفُرْقَانِ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٤﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٨﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾

الناجون من المهروب، ثم غابهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ كَافِرُونَ﴾ * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون * تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين * يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وتسود وجوه﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة

ويستهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أمة﴾ أي: جماعة ﴿يدعون إلى الخير﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿ويستهون عن المنكر﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس والزمامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكابيل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿ولتكن منكم أمة﴾ الخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم التفرق أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاتعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب،

فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عداها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وأمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتألفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالات بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قد استحيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: يوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لعلكم تهتدون﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرياً له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمته الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

لكان خيراً لهم ﴿ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأولياء الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعبادة المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبنائهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأديار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمثون

﴿ إلا بحبل ﴾ أي: عهد ﴿ من الله وحبل من الناس ﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد ﴿ باؤوا ﴾ مع ذلك ﴿ بغضب من الله ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً ذعناًداً ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشرف مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿ ١١٠ - ١١٢ ﴾ ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في زدهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثل المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخير في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتلأت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ ولو آمن أهل الكتاب

﴿ ١١٣ - ١١٥ ﴾ ﴿ ليسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة فآثمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحد شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ والله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها.

﴿ ١١٠ - ١١٢ ﴾ ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في زدهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثل المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخير في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتلأت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ ولو آمن أهل الكتاب



والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ ولقاهم نصره وسرور ﴾ نصره في وجوههم وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كما نأما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي: كيف أترتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ فيهنؤون أكمل تهنئة وبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يمشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿ فقي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿ تلك آيات الله نتلوها ﴾ أي: نقصها ﴿ عليك بالحق ﴾ لأن أوامره ونواهيها مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل

بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخير أنهم لا يستوتون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم ﴿أمة قائمة﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما أزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر بحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فحصل عنهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمن محمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿و﴾ أنهم ﴿يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها قيتهم الزرعة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بقوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿من الصالحين﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتعمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿من خسر﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فلن يكفروه﴾ أي: لن يجرموه ويفوتوا أجره، بل يشبههم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلها قال ﴿والله عليم بالمتقين﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرَّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زاداً لهم إلى النار، وحنة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ثم ضرب مثلاً ما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلكت زرعه، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ ﴿وما ظلمهم الله﴾ بإبطال أعمالهم ﴿ولكن﴾ كانوا ﴿أنفسهم يظلمون﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلئوكم خيالاً ودوا ما غنمتم قد بدت بفسادهم من أفواههم وما تحفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ ها أنتم أولاء تحبونهم

﴿١١٦﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرَّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زاداً لهم إلى النار، وحنة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسكم حسنة تسوهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وما تحفي صدورهم أكبر﴾ مما يسمع منهم فهذا ﴿لا يآلئوكم خيالاً﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدينية ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا بتل بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، وميناً شدة عداوتهم ﴿ها أنتم

المؤمنون ﴿١﴾. هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يجيئون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأ يسيراً، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله ﴿وَأَلْمَأْصِمَاتُكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والغدد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجها من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش بمن هو على مثل طريقته، وهم طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيتهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون

والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسزون، فلما راهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما بقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن العصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، وجاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقاتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاههم الله بها وكفر بها عنهم، وأدأقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة «تبوء المؤمنين مقاعد للقتال» أي: تزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَالله سميعٌ عليمٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول ما في قلبه ﴿عليمٌ﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها ثم الجزاء، وأيضاً فإنه سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما همت طائفتان من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلماذا قال



أولاء تحببهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ﴿٢﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إن تمسكم حسنة﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تسؤمهم﴾ أي: تغمهم وتحزنهم ﴿وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتقفوا لا يضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضرركم مكروهم، بل يجعل الله مكروهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

﴿١٢١ - ١٢٢﴾ ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل

﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ثم قال ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلياء والمحن، ثم قال تعالى:

﴿١٢٣-١٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتنقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكالك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة

فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتسروا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال ﴿فاتقوا الله لعلكم تَشْكُرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مشيراً لهم بالنصر ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ بلى إن تصبروا وتنقوا ويأتوكم من فورهم هذا * أي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وإن تصبروا وتنقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ ﴿وما جعله الله﴾ أي: إمداده لكم بالملائكة ﴿إلا بشري﴾ تستشرون بها وتفرحون ﴿ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال ﴿عند الله العزيز﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مذبزون تحت تدبيره وقهره ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: ﴿ذلك ولو

﴿١٢٧﴾ ﴿وَسَارِعاً إِلَى مَعْبَرَاتٍ رِجْسٍ مِن رِجْسِهِمْ جَنَّتْ حَرَمُهَا النَّسْرُ وَالْأَرْضُ أَهْبَتَتْ لِقَائِهِمْ﴾ ﴿الَّذِينَ يُبْعَثُونَ فِي النَّارِ وَالضَّرَّةَ وَالْكَرْبَ وَالْعَطَشَ وَالْجَمَادِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا مَا تَأَمَّلُوا نَفَسًا كَانَتْ أَنفُسُهُمْ دَكْلًا وَاللَّهُ فَاسْتَعْتَبُوا لِقَائِهِمْ وَمَنْ يَخْفَ الْأَنْفُسُ إِلَهُ اللَّهِ فَالْيُسْرَى أَعْلَى مَا تَقُولُوا وَهُمْ بِحَسْرَتٍ﴾ ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ مَن قَدِرُوا مِن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَحْرِيءُ مِنَ حَسْرَتِ الْأَنْفُسِ الْخَالِدِينَ فِيهَا وَمَنْ كَفَرَ الْبَاطِلِينَ﴾ ﴿فَدَسَلْنَاكَ مِن قَدَبِكَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَأُفَّ بِكَ الْأَرْضُ فَالْيُسْرَى أَعْلَى الْكَلْبِ﴾ ﴿هَذَا بَابٌ لِّالنَّاسِ وَهَذَا مَوْعِظَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿لَا تَهْزُوا وَلَا تَخْزُوا وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ ﴿إِنْ يَسْكُرُوا مِنْ قَدَمِنَ النَّوْمِ فَسَبِّحُوا لَهُ بَنَاتِ النَّهَارِ فَكَانَ سَبْحًا﴾ ﴿وَيَجِدْكُمْ يَسْعَى وَاللَّهُ الْبَاطِلِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾

يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض.

﴿١٢٧﴾ ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فيقتلوا خائبين﴾ يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاربتهم ومخاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأمورهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهب لبعض قوتهم، الأمر الثاني أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبدلوا قواهم وأمورهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم يتالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم.

﴿١٢٨-١٢٩﴾ ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب



من يشاء والله غفور رحيم ﴿١٥٠﴾ لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت ربايعيته، قال «كيف يفلح قوم شجوا نبينهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نبياً له عن الدعاء عليهم باللعة والطرده عن رحمة الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقائهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسبوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء العيتين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أول، ففيها أعظم رد على من تعلق

بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال ﴿أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال ﴿والله ما في السماوات والأرض والانس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مديرون متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مثقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شره ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ويعذب من يشاء﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال ﴿والله غفور رحيم﴾ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختصها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تحطرب ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم

السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليه المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة الآية وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً بقللم جامعته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تيسير التكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ * واتقوا النار التي أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الفيتن والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي

في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي، وهذه الآيات الكريزمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله [بها] وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتقا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾.

ثم قال: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم﴾ الآيات.

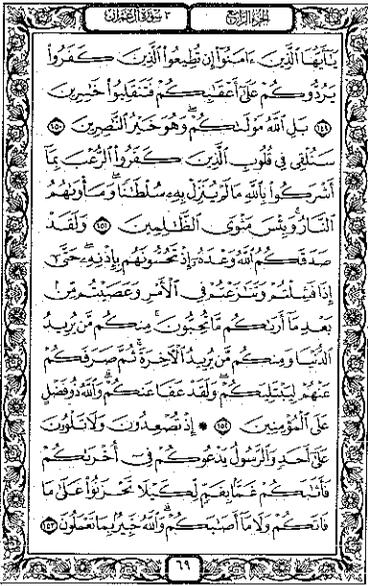
فكانت النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله:

﴿أعدت للمتقين﴾ ومرتين مفيدتين، فقال: ﴿واتقوا الله﴾ و﴿واتقوا النار﴾ فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أفعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتنال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو

الفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ و﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويقي من سنخ الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ولهذا قال: ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لعلكم ترحمون﴾

فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة﴾ الآيات.

ثم أمرهم تعالى بالمستارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي: في



حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن عسروا لم يثقلوا من المعروف شيئاً ولو قل.

﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخظة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتحلى عن الأخلاق الرذيلة، ومن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكرامة لحصول الشر عليهم، ويعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى]: ﴿والله يحب المحسنين﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق. أو الإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة

للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وأخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكتهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ لأنهم هم المتفعون بالآيات فتهديم إلى سبيل الرشاد، وتعظيمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿هذا بيان للناس﴾ للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

﴿١٣٩ - ١٤٣﴾ ﴿ولا تنسوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ يقول تعالى مشجعاً

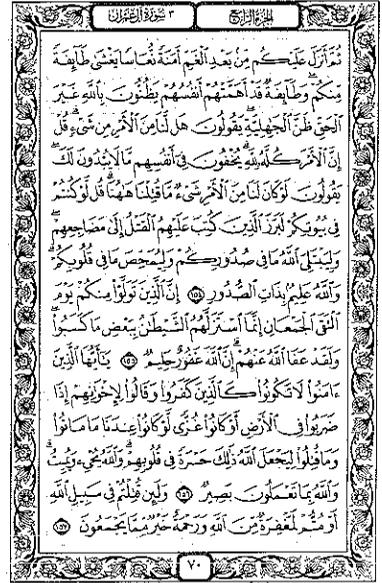
قال: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ تنزيل عنهم كل محذور، ﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، ﴿خالدين فيها﴾ لا يحولون عنها، ولا يغيون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم، ﴿ونعم أجر العاملين﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً ف «عند الصباح يحمد القوم السري»، وعند الجزاء يمجّد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله﴾ ورسله ﴿لم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أعدت للمتقين﴾. ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

﴿١٣٧ - ١٣٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴿

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة، حتى جعل الله العاقبة



الخالق (١)

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعانتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدي وكف الأذى، وإحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناباتهم وذنوبهم، فقال: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ أي: صدر منهم أعمال [سيئة] كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهاذا

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

ثم ويخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم عن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: ﴿فقد رأيتموه﴾ أي: رأيتم ما تمنيت بأعينكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ويستجزى الشاكرين﴾

يقول تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثال أمر ربه، فقال: ﴿وسيجزى الله

من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمة بعباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يجبون من المنازل العالية والنعيم المقيم، ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين، وأنهم مبعوضون لله، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾.

﴿وليمحصن الله الذين آمنوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحصن بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحصن الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقتهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يحظر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تتقلب عند أرباب البصائر منحاً يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقرباً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿ولا تمنوا ولا تحزنوا﴾ أي: ولا تنهوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليت هذه البيلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ فأنتم وإياهم قد تساوت في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يتبلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

الشاكرين ﴿ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال .

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعمهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم، وما ذلك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم .

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حُتْم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى^(١) من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى: ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم، فقال: ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ .

قال الله تعالى: ﴿ كلاً نمُدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

﴿ وستجزى الشاكرين ﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم، ولنعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسناً .

﴿ ١٤٦ - ١٤٨ ﴾ ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ * فاتأهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿ هذا تسلياً للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعالهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿ وكأين من نبي ﴾ أي: وكم من نبي قاتل معه ربيون كثير ﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد رتبهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك .

﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

ثم ذكر قولهم واستنصروهم لربهم، فقال: ﴿ وما كان قولهم ﴾ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿ فاتأهم الله ثواب الدنيا ﴾ من النصر والظفر

والغنيمة، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المتكدرات، وما ذلك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلماذا قال: ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء، كفعل هؤلاء الموصفين^(٢) .

﴿ ١٤٩ - ١٥١ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وماوأهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ .

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم [قصدهم]^(٣) ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذ حده ولياً وناصراً من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعه من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فالتقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين، ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع

(١) في ب: فلو وقع.

(٢) في ب: المؤمنين.

(٣) زيادة من هامش ب.

طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتهم فيقلبو خائبين، وهذا من الثاني ورسوله.

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ وتبوا حيث أمروا.

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث من عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعهم، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿١٥٣ - ١٥٤﴾ ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأبواكم غمًا بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾ ثم أتزل عليكم من بعد العم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أمهتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿إذ تصعدون﴾ أي: تجذون في الهرب ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن

طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتهم فيقلبو خائبين، وهذا من الثاني ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وما أوهام النار﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج، ﴿وشس مشوى الظالمين﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليتبليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً، حتى صرتم سبباً لأنفسكم، وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقتم، فمن قائل نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتهم الرسول، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما يحبون وهو اتخذال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره.

فالأوجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله



القتال

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، وياشر الهيجا، بل ﴿الرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي: مما يلي القوم يقول: «إلى عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقدمه على النفس، أعظم لوماً بتخلفكم عنها، ﴿فأبواكم﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غمًا بغم﴾ أي: غمًا يتبع غمًا، غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن عمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ من النصر والظفر، ﴿ولا ما أصابكم﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتنبتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن البليات والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لكيلا



من سلطان . قال تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه ، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم .

﴿إن الله غفور﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار ، والمصائب المكفرة ، ﴿حليم﴾ لا يعاجل من عصاه ، بل يستأني به ، ويدعوه إلى الإنابة إليه ، والإقبال عليه .

ثم إن تاب وأتاب قبل منه ، وصيره كأنه لم يجرم منه ذنب ، ولم يصدر منه عيب ، فله الحمد على إحسانه .

﴿١٥٦ - ١٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾ * ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجتمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين ، الذين لا يؤمنون بربهم ، ولا يقضائه وقدره ، من المنافقين وغيرهم .

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء ، وفي هذا الأمر الخاض وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب : ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي : سافروا للتجارة ﴿أو كانوا غزى﴾ أي : غزاة ، ثم جرى عليهم قتل أو موت ، يعارضون القدر ويقولون : ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ وهذا كذب منهم ، فقد قال تعالى : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ ولكن هذا التكذيب لم يقدّم ، إلا أن الله يجعل هذا القول ، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم ، فتزداد مصيبتهم ، وأما المؤمنون بالله فيأنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله ، فيؤمنون ويسلمون ،

يشمل الأمر القدري ، والأمر الشرعي ، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره ، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته ، وإن جرى عليهم ما جرى .

﴿يخفون﴾ يعني المنافقين ﴿في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه ، فقال : ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء﴾ أي : لو كان لنا في هذه الواقعة رأي : ومشورة ﴿ما قتلنا هاهنا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله ، وتسفيه منهم لرأي : رسول الله ﷺ ، ورأي : أصحابه ، وتركية منهم لأنفسهم ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء ، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا ، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ، ﴿وليتلى الله ما في صدوركم﴾ أي : يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ، ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان ، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة .

﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أي : بما فيها وما أكنته ، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ، ما به تظهر نجبات الصدور وسرائر الأمور .

﴿١٥٥﴾ ثم قال تعالى : ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ يخبر تعالى عن حال الذين اتهموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار ، وأنه من تسويل الشيطان ، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم . فهم الذين أدخلوه عن أنفسهم ، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي ، لأنها مركبه ومدخله ، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم

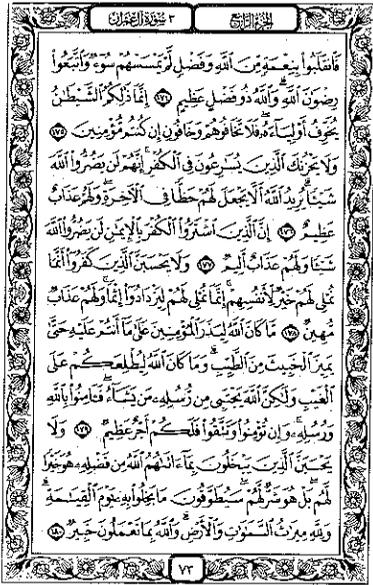
تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم يعني : أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم ، لكي تتوطن نفوسكم ، وتقرنوا على الصبر على المصائب ، ويخف عليكم تحمل المشقات : ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم﴾ الذي أصابكم ﴿أمنة ناعسا يغشى طائفة منكم﴾

ولا شك أن هذا رحمة بهم ، وإحسان وتثبيت لقلوبهم ، وزيادة طمأنينة ؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف ، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس .

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله ، ورضا الله ورسوله ، ومصالحة إخوانهم المسلمين .

وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قد أهتمتهم أنفسهم﴾ فليس لهم هم في غيرها ، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم ، فلهذا لم يصعب من النعاس ما أصاب غيرهم ، ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ وهذا استفهام إنكاري ، أي : ما لنا من الأمر - أي : النصر والظهور - شيء ، فأسأوا الظن بربهم وبدينه ونبيه ، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله ، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله ، قال الله في جوابهم : ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ الأمر

(١) في ب : وعاقبه .



ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ أَي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة﴾ فتوكل على الله ﴿أَي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك،﴾ **﴿إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** عليه، اللاجئين إليه.

﴿١٦٠﴾﴾ **﴿إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾** أَي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته **﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾** فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيرهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ ويترككم إلى أنفسكم **﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟﴾** فلا بد أن تتخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق.

وفي (٤) ضمن ذلك الأمر بالاستئصال بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** تقديم المعمول يؤذن بالحرص، أَي: على الله

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة.

كيفية غيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله.

ثم أمره تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أَي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمنشيد (٣) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فيذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس يملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزهم علماً، وأفضلهم رأياً -: **﴿وشاورهم في الأمر﴾** فكيف بغيره؟!

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة.

قال الله رداً عليهم: **﴿والله يحیی ويمیت﴾** أَي: هو المنفرد (١) بذلك، فلا يغني حذر عن قدر.

﴿والله بما تعملون بصیر﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي: حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلأ بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!!

﴿١٥٩﴾﴾ **﴿فَمَا رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** أَي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت (٢) لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك.

﴿ولو كنت فظاً﴾ أَي: سيء الخلق **﴿غليظ القلب﴾** أَي: قاسيه، **﴿لأنفضوا من حولك﴾** لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء.

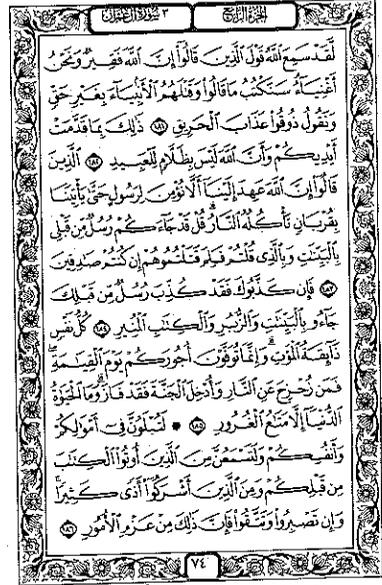
فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

(١) في ب: المنفرد.

(٢) في الأصل: (لنت).

(٣) في ب: يستبد.

(٤) في ب: وقد.



حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمانة الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿١٦٤﴾ ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أئقدهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحا لهم، مشفقا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

﴿ويزكيهم﴾ من الشرك، والمعاصي، والبرذائل، وسائر مساويء الأخلاق.

ويعلمهم الكتاب، إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، ﴿والحكمة﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففأقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزيكي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعملوه، ولو ناقض

أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وما كان لنبى أن يغفل﴾ أي: يمنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غفل، فقال: ﴿ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي: يأت به حامله على ظهره، حيوانا كان أو متاعا، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيقته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغال يوهم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿١٦٢ - ١٦٣﴾ ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن بآء بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير﴾ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك، ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله.

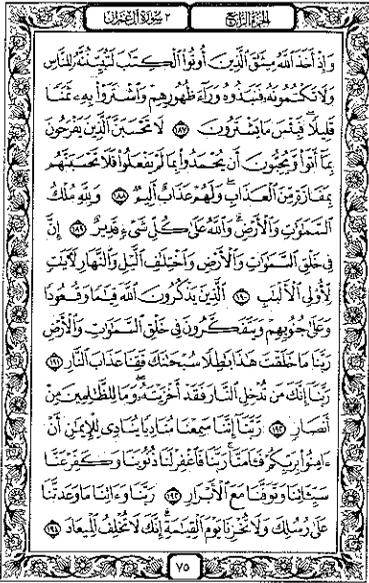
﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا، لا يستويان﴾ ولهذا قال هنا: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنزلاتهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم. فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيه الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على

توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿١٦١﴾ ﴿وما كان لنبى أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ الغلول هو: الكتمان من الخنينة، [أو الخيانة في كل مال يتولاه الإنسان] وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبى أن يغفل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا، وأظهرهم نفوسا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكيمته ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

فمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من



بالتقال، ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ أي: ذباً عن دين الله، وحماية له وطلباً لمرضاة الله، ﴿أو ادفعوا﴾ عن حماركم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا ويتقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغضب على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ﴾ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أقرب منهم للإيمان﴾ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿وهذه خاصة المنافقين، يظهرن بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم.

ومنه قولهم: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم قد علموا وقوع القتال ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعبز عن أعلاهما»؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان^(١) ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ فيبيده لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله

ذلك عقول العالمين. ﴿١٦٥-١٦٨﴾ ﴿أولاً أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴿هذا تسليية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قد أصبتم﴾ من المشركين ﴿مثليها﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستون أنتم وهم، فإن قتلكم في الجنة وقتلهم في النار.

﴿قتلتم أنى هذا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمتنا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ حين تنازعتم وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم. ﴿ذلك ولو يشاء الله، لانتصر منهم، ولكن ليبلى بعضهم ببعض﴾

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه ياذنه وفضائه وقدره، لا مرد له ولا يد من وقوعه. والأمر القدري - إذا نفذ، لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا

وقدره، قال الله رداً عليهم: ﴿قل فادروا﴾ أي: ادفعوا ﴿عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ إنهم لو أطاعوك ما قتلوا، لا تقدرن على ذلك ولا تستطيعونه.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.

﴿١٦٩-١٧١﴾ ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿هذه الآيات الكريمة﴾ فيها فضيلة^(٢) الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسليية الأحياء عن قتالهم وتغزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أمواتاً﴾ أي: لا يخطر ببالك وحسانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها،

(٣) في ب: فضل.

(٢) في ب: الكريمات.

(١) زيادة من هامش: ب.



به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميهم ويشكرهم، ويزيدهم من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾** الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين * لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة، وسمع أن أباسقيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ وَهُمْ أَدْبَارُ الْبُيُوتِ﴾ وهموا باستئصالكم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزدتهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم. ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾ وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فالقَى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،

حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه (٢) المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وخده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿١٧٦ - ١٧٧﴾ **﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم * كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يبتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالههم ولا تحفل بهم، إنما يضررون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوقفهم لما وفق له

الذي يحذر من فواته، من حين عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عند ربهم﴾ يقتضي علو درجتهم، وقرابهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿قرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: مغتبتين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنعص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم (١) النعيم والسرور، وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: يبني بعضهم بعضاً، بأعظم مهناً

(١) في السخيتين: فتم له.

(٢) في السخيتين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.

أولياءه ومن أراد به خيراً، عدلاً منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى، ولا قابلين للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدتهم.

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ورغبوا فيه رغبة من بذل ما يجب من المال، في شراء ما يجب من السلع ﴿لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكيف يضررون الله شيئاً، وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان، ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فإله غني عنهم، وقد قبض لدينه من عباده الأبرار الأذكى سواهم، وأعد له - ممن ارتضاه لنصرته - أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَتَلُوا عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلْآذِقَانِ سَجْداً﴾ الآيات.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا فِي آثَمِهِمْ وَعَذَابٌ مَّهِينٌ﴾ أي: ولا يظن الذين كفروا ببرهم ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وأملاءنا لهم خير لأنفسهم، ومحبة منا لهم.

كلا، ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريد الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا فِي آثَمِهِمْ وَعَذَابٌ مَّهِينٌ﴾: فالله تعالى يميل للظالم، حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، حتى إذا أخذه أخذه^(١) أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿١٧٩﴾ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَمَّا جَاءَهُمُ الْغَيْبُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ مَنْ رَسَلَهُ مِنْ شِئْءٍ فَأَمَّا بِلِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ خَائِدُونَ﴾

وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴿١﴾: أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز^(٢)، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ولم يكن في حكمته أيضاً أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فافتضت حكمته الباهرة أن يتلى عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والالتحاق بهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسول قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الشواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته خلقة.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فيخلوا بذلك، وأمسكوه، وضمنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وأجلهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح، «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالنك، أنا كنزك». وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك، هذه

(٢) في ب: التمييز.

(١) في ب: ثم أخذه.



الآية .

فهؤلاء حسبوا أن يخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿والله ميراث السماوات والأرض﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ وتامل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكاً للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فتمتع لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

فمن تحقق أن ما بيده، فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل يتنفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانياً: أن هذا الذي بيد

لهم: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ الدالات على صدقهم النار ﴿وبالذي قلتم﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله صادقين؟ ﴿أي: في دعواهم﴾ الإيمان برسول يأتي بقربان تأكله النار، فقد تبين هذا كذبهم، وعنادهم وتناقضهم.

ثم سلى رسوله ﷺ، فقال: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك﴾ هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، عن قصور ما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جاؤوا بالبينات﴾ أي: الحجج العقلية، والبراهين النقلية، ﴿والزبير﴾ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

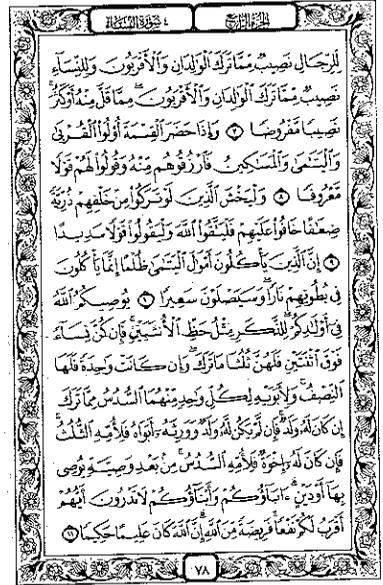
﴿والكتاب المنير﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسول، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهينك شأنهم. ﴿١٨٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

هذه الآية الكريمة فيها الترهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتحذع بغرورها، وتغرر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر. ﴿فمن زحزح﴾ أي: أخرج، ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن

ظلاماً من الله لهم، فإنه ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ فإنه منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبايح، التي أوجبت استحقاتهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا متهم «فنتحاص بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وأقرضوا الله قرضاً حسناً قال: - على وجه التكبر والتجرهم - هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شأناتهم، بل قد سبق لهم من الشنايع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ هذا القيد يراد به، أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلاً وضلالاً، بل تمرداً وعناداً.

﴿١٨٣ - ١٨٤﴾ «الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين» ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبير والكتاب المنير﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفتزين القائلين: ﴿إن الله عهد إلينا﴾ أي: تقدم إلينا وأوصى، ﴿ألا نؤمن لرسول، حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون وعهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله، يؤيده من الآيات والبراهين، ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفاكاً لم يلتزموه، وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول



العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبلخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً: السبب الجزائي، فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعاً - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر - لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإسماك الذي به العقاب.

﴿١٨١ - ١٨٢﴾ «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الخريق» ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد» يخبر تعالى، عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه، مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم - بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء - ﴿ذوقوا عذاب الخريق﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس

(٢) في ب: بأيكم.

(١) في ب: دعواكم.

النار ويدخل الجنة، فإنه لم يقز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجوزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾.

﴿١٨٦﴾ ﴿لتبلىون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أدنى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك

من عزم الأمور﴾ يخبر تعالى ويحاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يجب.

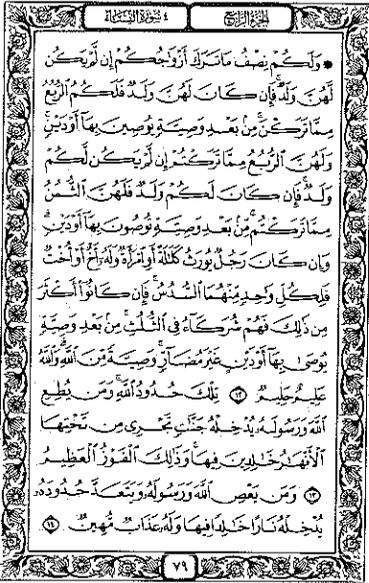
﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الذين أشركوا أدنى كثيراً﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم وكتابكم ورسولكم.

وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك، لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريد بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، ويزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبرهم فقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه



يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحاقيرة، من سقلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق، ﴿فتبئس ما يشترتون﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدينية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يجتازوا الدين الخسيس ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء حظهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

ثم قال تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ أي: من القبائح والباطل القولي والفعلي.

﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك ومجة أن يحمدا على فعل الخير الذي ما فعلوه.

﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصبرون إليه، ولهذا قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم يتقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم

﴿١٨٧ - ١٨٨﴾ ﴿وإذا أخذ الله

ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبئنن للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترتون * لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾ الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه [الله] الكتب وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتتمهم ذلك، ويخجل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس بما علمهم الله، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفاً من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعباؤها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما



يستطع فعلى جنب، وأنهم **﴿يتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾** أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾** عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

﴿فقنا عذاب النار﴾ بأن تصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخطيت﴾** أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا متخذ منها، ولهذا قال: **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

﴿فآمنا﴾ أي: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمئة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز

عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أخطيت وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد يخبر تعالى: **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار﴾** وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بأياتها، وتدبر خلقها، وأهم قوله: **﴿آيات﴾** ولم يقل: **﴿على المطلب الفلاني﴾** إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما

يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الأحكام والإتقان، وبتدبير الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضع الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للمخلوق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، فمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الأبصار، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الأبصار بأنهم **﴿يذكرون الله﴾** في جميع أحوالهم: **﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾** وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم

أنته بحق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يمدح ويشنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** وقال: **﴿سلام على نوح في العالمين، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾** وقد قال عباد الرحمن: **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾** وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

﴿١٨٩﴾ **﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾** أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف المخلوق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبتدبير الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿١٩٠ - ١٩٤﴾ **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار﴾** الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا

برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقبل تضرعهم، فلماذا قال:

﴿١٩٥﴾ ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾. أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موثقاً، ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿١٩٥﴾ ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾. أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موثقاً، ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك، فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد.

﴿١٩٦-١٩٨﴾ ﴿لا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ متاع قليل ثم ما أوهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها نزلوا من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب والذلات،

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به - فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها﴾. فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعتاء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى التعمير المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزرأً يسيراً، ومنحة في صورة عنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأتابهم البر الرحيم من بره أجراً عظيماً، وعطاءً جسيماً، وفوزاً دائماً.

﴿١٩٩-٢٠٠﴾ ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترتون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض.

ولهذا - لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً - صار نافعاً، فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للالتقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لا يشترتون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾. فلا يقدمون

وإن أردتم أن ينزل آل زوج مكات زوج وآبائكم يستطرحون فطاراً فلا تأخذوا به شيئاً إن أخذوا به مكناً فأنما مكناً ﴿وكيف تأخذونهم وقد أفقنا بعضكم إلى بعض وأتقوا ربكم﴾ ﴿عظماً﴾ ولا تضيءوا نيرانكم ما بآبائكم يريد آباءكم إلا ما قد سلف إنهم كات فحسنة ومنشأ وساءة سيلاً ﴿حوت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمككم وحالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخوة وأمهاتكم التي أزوجتكم وأخواتكم التي أزوجتكم وأمهاتكم بناتكم وبناتكم التي أزوجتكم من حور ربكم من نساءكم التي نزلت بكم إن أردتمكم ولو تأخذونهم فلا جناح عليكم وما كان منكم أن يأتاكم الذكر من أسفلكم وإن كنتم على ما كنتم منكم﴾ ﴿١٩٨﴾

الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو: أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فأثروا الحق وبنوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأتابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطؤون ما وعدهم الله، لأن ما هوأت محقق حصوله، فهو قريب.

ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة أي^(١): الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة: وهي^(٢) لزوم المحل

(١) في ب: هي.

(٢) في السختين وهو، ولعل الصواب ما أثبت.

على ذلك .

والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج ، فيبتهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال ، وأقرب علاقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حِوْبًا كَبِيرًا ﴾ ، هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة . وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين (٣٧) لهم ، وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم .

فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقرّبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن ، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا ، كاملة موفرة ، وأن لا «تبدلوا الخبيث»

الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق . ﴿ بالطيب ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة . ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي : مع أموالكم ، ففيه تنبيه لفتح أكل مالهم هذه الحالة ، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله . فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى ﴿ حِوْبًا كَبِيرًا ﴾ أي : إثماً عظيماً ، ووزراً جسيماً .

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ، ويجعل بدلته من ماله الخسيس . وفيه الولاية على اليتيم ، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ، ثبتت ولاية المؤتى على ماله .

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله حفظه ، والقيام به بما يصلحه وينميه ، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار .

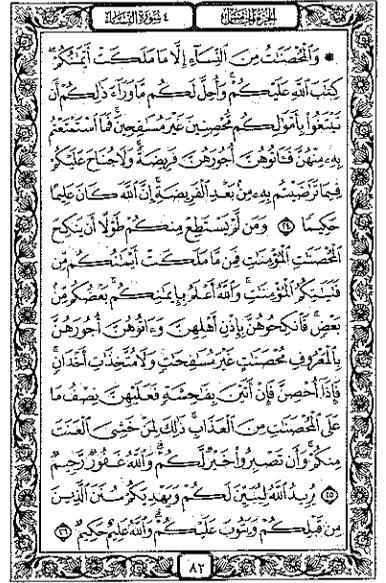
﴿ ٣٧ - ٤ ﴾ ﴿ وَإِنْ حَقَمْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا مَشَىٰ وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ فَإِنْ حَقَمْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا ﴾ * وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لِكُمْ عَنْ شَيْءٍ

وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه لأنه ﴿ ربكم الذي خلقكم ﴾ ورزقكم ، ورباكم بنعمه العظيمة ، التي من جملتها خلقكم ﴿ من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ ليناسبها ، فيسكن إليها ، وتم بذلك النعمة ، ويحصل به السرور ، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم ، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم وأمرتكم ، توصلتم لها بالسؤال بالله . فيقول من يريد ذلك لغیره : أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني ؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله ، فكما عظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أي : مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم ، وسرهم وعلنهم ، وجميع أحوالهم ، مراقباً لهم فيما يوجب مراقبته ، وشدة الحياء منه ، يلزم تقواه .

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه بثهم في أقطار الأرض ، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض ، ويرقق بعضهم على بعض . وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ، ليؤكد هذا الحق ، وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق ، خصوصاً الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به ، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموماً ، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيلاً ، من أول السورة إلى آخرها . فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مفصلة لما أجل منها ، موضحة لما أهم .

وفي قوله : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج



الذي يخاف من وصول العدو منه ، وأن يراقبوا أعداءهم ، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلمهم يفلحون ؛ يفوزون بالمحجوب الديني والدنيوي والأخروي ، وينجون من المكروه كذلك .

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرايطة المذكورات ، فلم يفلح من أفلح إلا بها ، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإحلال بها أو ببعضها .
والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

تفسير سورة النساء وهي مدنية

﴿ ١ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ، والأمر بصلة الأرحام ، والحث

(١) في ب : وأوتى .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : الذين فقدت آبائهم الكافلون .

منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ أي: وإن ختمت ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولياتكم، وختمت أن لا تقوموا بحقن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم، من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ: «تُكَّحُ المرأةُ لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك».

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي: من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجماعاً.

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه. فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين. ﴿ذلك﴾ أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين ﴿أدنى ألا تعملوا﴾ أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحشهم على إيتاء النساء ﴿صداقتهن﴾ أي: مهورهن ﴿نحلة﴾ أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تظلوهن أو تبحسوا منه شيئاً. وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

﴿فإن طبن لكم عن شيء منه﴾ أي: من الصداق ﴿نفساً﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه. ﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك، فليس لعظمتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه، كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ وقال: ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾.

﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾ السفهاء، جمع «سفيه»، وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤثروا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهْوَةَ أَنْ يَقُولُوا سِيلًا عَرِيسًا ﴿٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿٦﴾ بِهَا مَا أَلِزْتُكُمْ أَنْ تَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ تُكْفَرُوا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ مَا نُزِّلْنَا عَلَيْكُمْ فَنُزِّلْنَا عَلَيْكُمْ كِتَابًا فَافْتَحْهُ فَإِنَّ فِيهِ لِحُكْمًا ﴿٨﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿٩﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخَفِيَ عَنْكُمْ وَعَنْ عُلُقُوبِ الْإِنْسَانِ مَصِيفًا ﴿٢٠﴾

بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدينية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخوابهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار. وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾.

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿٦﴾ ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾ الابتلاء: هو الاختبار والامتحان. وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه. فإن



استمر غير محسن للتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ كاملة موفرة. ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرّمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وبنادراً أن يكبروا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادلون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال، حال فرصة، فيغتتمونها ويتعجلون ما حرّم الله عليهم، فهي الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿٧﴾ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم^(١) وقسوتهم،

لا يرثون الضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمراً جمللاً، لتوطن على ذلك النفوس.

فيأتي التفضيل بعد الإجمال، قد تشوفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿للرجال نصيب﴾ أي: قسط وحصّة ﴿مما ترك﴾ أي: خلف ﴿الوالدان﴾ أي: الأب والأم ﴿والأقربون﴾ عموم بعد خصوص ﴿ولللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾.

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهانئ توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والوالدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مما قل منه أو كثر﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿٨﴾ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال: ﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أولو القربى﴾ أي: الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله: ﴿القسمة﴾ لأن الوارثين من المقسوم عليهم. و﴿اليتامى والمساكين﴾ أي: المستحقون من الفقراء. ﴿فارزقوهم منه﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم

متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضرهم وهو نافعهم.

ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقتين» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك - فليقولوا لهم قولاً معروفاً يردوهم^(٢) رداً جميلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجنف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ أي: سداداً، موافقاً للقسط والمعروف. وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده، بما يجون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يجون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف. ﴿فليتقوا الله﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد

(٢) في ب: يردوهم.

(١) في السختين: جبريتهم.

العذاب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظلماً﴾ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم، من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى.

فَمَنْ أَكَلَهَا ظُلْمًا، فـ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوها في بطونهم. ﴿وَيَسْئَلُونَ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فذل ذلك أنها من أكبر الكبائر. نسأل الله العافية.

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْاُنثَىٰ إِنَّ كَانَ نِسَاءً فَوْقَ اُنثَيْنِ فَلِهِنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِمَّا بَعْدَ وَصِيَّةِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دِينِ آبَائِكُمْ وَآبَائِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْمَهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَلِكُم مِّنْهُمَا مَا تَرَكَ زَوْجَاكُم إِنْ لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَّهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يَوْصِينَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَلِهِنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلِهِنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاةً أَوْ إِسْرَءَةً وَوَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِمَّا بَعْدَ وَصِيَّةِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مَضَارٍ وَصِيَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ هذه الآيات، والآية التي هي آخر السورة هن آيات الموارث المتضمنة لها. فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات

فانه غير مذكور في ذلك. لكنه قد ثبت في السنن، عن المغيرة بن شعبه، ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

ف قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفسد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فالأولاد عند والدهم موصى بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم، عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْاُنثَىٰ﴾ أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فال ميراث لهم. وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب، ذكورا وإناثا، هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: أفراد الذكور، وسيأتي حكمها. وأفراد الإناث، وقد ذكره بقوله: ﴿فإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اُنثَيْنِ﴾ أي: بنات صلب أو بنات ابن، ثلاثا فأكثر ﴿فَلِهِنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي: بنتا أو بنت ابن ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل

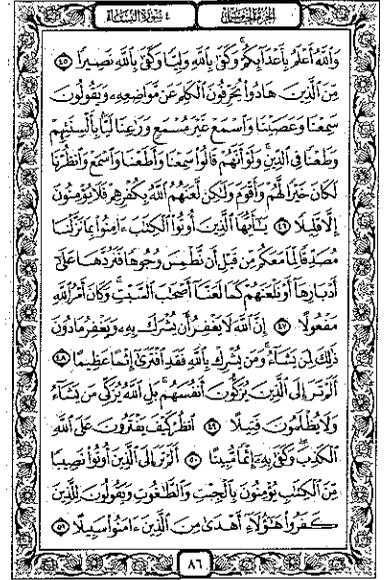
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَلَهُنَّ مِيرَاثُ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلْمَرْءِ مِيرَاثُ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان. وأيضاً فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْاُنثَىٰ﴾ إذا خلف ابناً وبناتاً، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبتين الثلثين.

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أخيها، فأخذها له مع أخيها من باب أولى وأحرى. وأيضاً فإن قوله تعالى في الأخنتين: ﴿فإِن كَانَتَا اُنثَىٰ﴾ فلمهما الثلثان مما ترك ﴿نص في الأخنتين الثلثين.

فإذا كان الأختان الثلثان - مع بعدهما - يأخذان الثلثين، فالابنتان - مع قربهما - من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ اُنثَيْنِ﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان، لا يزيد بزيادته على الثلثين، بل من الثلثين فصاعداً. ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنت ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين للذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين.



الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء - كأبوين وابنيتين - لم يبق له تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضاً، والباقي تعصبياً، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعمة، وغيرهما.

﴿فإن لم يكن له ولد، وورثه أبواه، فلأمه الثلث﴾ أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم، إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك، على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصبياً المال كله، أو ما أبقث الفروض، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: ﴿وورثه أبواه، فلأمه الثلث﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان. وهو في هاتين الصورتين، إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على إرث الأم، ثلث المال كاملاً، مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين.

ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكوراً كانوا

أو إنثاء، وارثين أو محجوبين بالأب، أو الجد [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ شاملاً لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبتهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم^(١)، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ «الإخوة» بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان. ﴿وكننا لحكمهم شاهدين﴾ وقال في الإخوة للأب: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾

فأطلق لفظ الجمع والمراد اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أم وأب وإخوة، كان للأم السدس، والباقي للأب، فحجبتهم عن الثلث، مع حجب الأب بإمام [إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب]^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ أي: هذه الفروض والأنصبة والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك، هو التركة الذي يستحقه الورثة.

وقدم الوصية مع أنها مؤخره عن الدين للاهتمام بشأنها، لتكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن، لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم. فلو لم يسقطن، لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام يجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿مما ترك﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذم^(٣).

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿ولأبويه﴾ أي: أبوه وأمه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد^(٤) أي: ولد صلب أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً. فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

وأما الأب فمع المذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان

(١) في ب: الذمة.

(٢) زيادة من هامش ب وهناك زيادة أخرى في هامش أ وإن لم يبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم] وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل.

(٣) زيادة من هامش ب.

بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله الحمد.

﴿فلكل واحد منهما﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿السدس﴾ فإن كانوا أكثر من ذلك ﴿أي: من واحد فهم شركاء في الثلث﴾ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن ذكرهم وأشاهم سواء، لأن لفظ «الشريك»^(١) يقتضي التسوية.

ودل لفظ «الكلالة» على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم، لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.

ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمارية. وهي: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرّق الله حكمه. وأيضاً فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصابات. وقد قال النبي ﷺ: «أحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر». وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ الآية. فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب، أو الأخوات، تأخذ النصف والباقي

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل، للأجنبي الذي هو غير وارث. وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿أبأؤم وأبناؤم لا تدرون أيهم أقرب لكم نعماً﴾.

فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم، لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان. فلا يدرون أي: الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فريضة من الله إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً، وأحكم ما شرعه، وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

ثم قال تعالى: ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج ﴿نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فللكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية يوصون بها أو دين﴾.

ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعاً.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾ أي: من أم، كما هي في بعض القراءات. وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلالة أي: ليس للميت والد ولا ولد أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت، ولا بنت ابن وإن نزلوا. وهذه هي الكلالة، كما فسرنا

(١) في ب: الشريك.

(٢) في النسختين أخوات الأب، والصواب: والله أعلم. ما أثبتته، وظاهر أنه سبق قلم.

(٣) في الأصل: لموروثه.



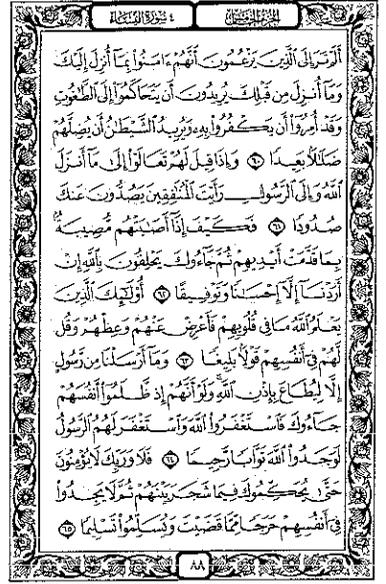
أولئك الذين آمنوا بالله وبنوا لله فكان بعد له بصيراً ﴿١﴾
 ﴿٢﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿٣﴾
 ﴿٤﴾ أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد اتينا آل إبراهيم الكتاب والحمد لله رب العالمين ﴿٥﴾
 ﴿٦﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿٧﴾
 ﴿٨﴾ إن الذين كذبوا بآياتنا سوف نحذرهم ﴿٩﴾
 ﴿١٠﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿١١﴾
 ﴿١٢﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿١٣﴾
 ﴿١٤﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿١٥﴾
 ﴿١٦﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿١٧﴾
 ﴿١٨﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿١٩﴾
 ﴿٢٠﴾ فليس لهم نصيب من تركته فإنا أنزولنا من السماء ﴿٢١﴾

من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب^(٢)، وهو السدس تكملة الثلثين. وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن. وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعمول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصابة، والأخوات لغير أم، مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات. فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نعماً﴾. وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه^(٣) بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث، أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي



تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾. إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المتضمنة للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين^(١) [انتهى].

وأما (الزبيق) فإنه لا يرث ولا يورث، أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيدته. وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيدته، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ - ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ - ﴿للكل واحد منهما السدس﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، فأما الزبيق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا يكون البعض، يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك. وأما (الختى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً. فإن كان واضحاً فالأمر فيه واضح.

إن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأم - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطفه أكثر التقديرين،

لا احتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطفه الأقل، لا احتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقتين، قال تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فاتقوا الله ما استطعتم.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿واتبعت ملة آباي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾.

فسمى الله الجد وجد الأب أباً. فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبنينهم، وسائر أحكام^(٢) الموارث، فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تشبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموارث أنصبا،

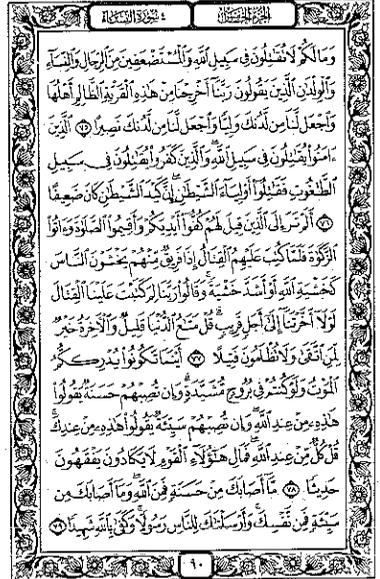
رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾. مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه».

وهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا يرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوى المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنياوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به. فيكون قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

(١) في ب: العاقلين.



على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﴿لَا وَصِيَّةَ لِرِثَاتِهِ﴾. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالتعميم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

ومن عصى الله ورسوله معصية تامة، يدخل فيها الشرك فما دونه،

دخل النار وخذل فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدن الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿١٥ - ١٦﴾ «وَاللَّاتِي يَأْتِينَ

الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهم إن الله كان تواباً رحيماً﴾ أي: النساء ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾ أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها.

﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾

أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾ أي: حبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي: هذا منتهى الحبس. ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت، وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي منجاة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿وكذلك﴾ «اللذان يأتيانها﴾ أي:

الفاحشة ﴿منكم﴾ من الرجال والنساء ﴿فآذوهما﴾ بالقول والتوبيخ والتعبير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذين.

فالحبس غاية إلى الموت، والأذية

نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فإن تابا﴾ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا ﴿وأصلحا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي: عن آذاهما ﴿إن الله كان

تواباً رحيماً﴾ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقهه للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

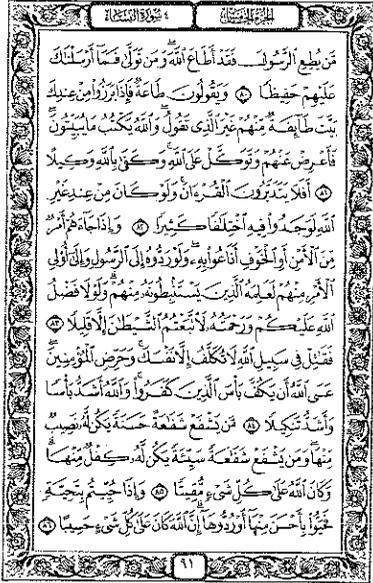
ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بيعة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن بناب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم، لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترأ لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتوسىء إليه هذه الآية لما قال: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾. لم يكف بذلك حتى قال: ﴿فإن شهدوا﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيراً لحبس المعصية الذي يحصل به الزجر.

﴿١٧ - ١٨﴾ «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعثنا لهم عذاباً أليماً﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمائه وجوداً، لمن عمل السوء، أي: المعاصي ﴿بجهالة﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم



ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويجذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم.

﴿١٩ - ٢١﴾ * يا أيها الذين آمنوا

لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً * وإن أردتم استبدال زوج

مكان زوج وآتیتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإنما مبينة * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبه كأخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت. فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها، فلا يزوجه إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها، وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي [يكون] يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فهي الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله: ﴿كرهاً﴾. وإذا أتيت بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾

يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً. وأما بعد حضور الموت، فلا يقبل من العاصين توبة، ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم، لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾.

وقال هنا: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات﴾ أي: المعاصي فيما دون الكفر.

﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار. ويحتمل^(١) أن يكون معنى قوله: «من قريب» أي: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه^(٢)، وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة.

والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام^(٣) ويقين، ومهاون^(٤) بنظر الله إليه، فإنه سد^(٥) على نفسه باب الرحمة.

نعم قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة^(٦) تامة^(٧)، [التي] يمحو بها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا

وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأدى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾. أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا بزوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً. من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة. وربما أن الكراهة تزول وتخلقها المحبة، كما هو الواقع في ذلك. وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس

(١) في هامش أ [ويؤيد هذا الاحتمال

أن الله قال: ﴿إنما التوبة على الله﴾

الحاضرة ولم يقل: إنما يتوب الله،

وبين اللفظين فرق ظاهراً.]

(٥) في ب: بسد.

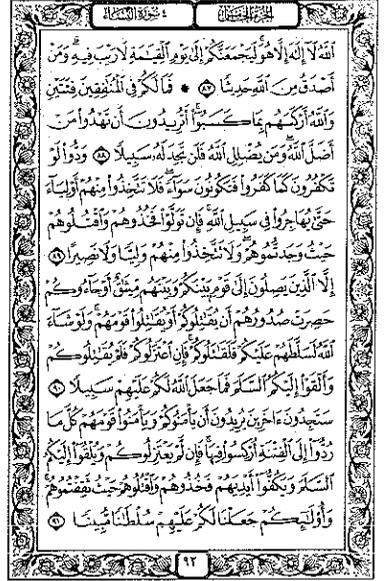
(٦) في ب: للتوبة.

(٧) في ب: النافعة.

(٢) في ب: ذنبه.

(٣) في ب: قائم.

(٤) في ب: مهاون.



في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله .

الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت . ويدخل في بنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم . والعمة : كل أخت لأبيك، أو لجدك، وإن علا . والحالة : كل أخت لأمك، أو جدتك، وإن علت، وارثة أم لا . وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي : وإن نزلت .

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله : **«وأحل لكم ما وراء ذلكم»** وذلك كبنات العمة والعم، وبنات الخال والحالة .

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم، والأخت . وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبنيها على أن صاحب اللبن، يكون أباً للمرضع فإذا ثبتت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتهما وأصولهم وفروعهم (٢)

وقال النبي ﷺ : **«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»** . فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن، كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرضع إلى ذريته فقط . لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت السنة .

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع . حلاتل الآباء وإن علوا، وحلاتل الإبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين . وأمهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد .

والرابعة : الربية، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه كما قال هنا **«وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن»** الآية .

وقد قال الجمهور : إن قوله : **«اللاتي في حجوركم»** قيد خرج محجور

ذلك، التي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى الم عوض، فثبت عليه العوض، فكيف يستوفي العوض، ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد، والقيام بحقوقها . ثم قال تعالى :

﴿٢٢﴾ «ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً» أي : لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آبؤكم، أي : الأب وإن علا . **«إنه كان فاحشة»** أي : أمراً قبيحاً يفحش ويعظم قبحه **«ومقتاً»** من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه، والأب ابنه، مع الأمر بیره .

«وساء سبيلاً» أي : بشئ الطريق طريقاً لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها .

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمّهات نساءكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائك اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلاتل أبنائك اللذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً» * والمحضات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محضنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً * هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحلات من النساء . فأما المحرمات

للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم . بل متى **«أردتم استبدال زوج مكان زوج»** أي : تطليق زوجة، وتزوج أخرى . أي : فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج . ولكن إذا **«أتيتم إحداهن»** أي : المفارقة، أو التي تزوجها **«قنطاراً»** أي : مالا كثيراً . **«فلا تأخذوا منه شيئاً»** بل وفروه لهن، ولا تطلوا بهن .

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر . ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم . فدل على عدم تحريمه لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم (١)

ثم قال : **«أناأخذونه بيماناً وإثماً ميبيناً»** فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الخيل، فإن إثمه واضح .

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله : **«وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً»** . وبيان ذلك : أن الزوجة قبل عقد النكاح عمرة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها، وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل

(٢) في ب : وأصولهما وفروعهما .

(١) زيادة من هامش ب .

أخذان فإذا أحصن فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴿٢٥﴾ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. وهذا يحسب ما يظهر، وإلا فإله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

﴿فإنكحوهن﴾ أي: المملوكات ﴿يأذن أهلهن﴾ أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

﴿وأتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحر، فكذلك يجب للإمة. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن محصنات ﴿أي: عفيفات عن الزنا﴾ ﴿غير مسافحات﴾ أي: زانيات علانية ﴿ولا متخذات أخذان﴾ أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الخرة، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا ينكحهن وجب ذلك. ولهذا قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾.

وقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء فعليهن نصف ما على المحصنات ﴿أي: الحرائر﴾ ﴿من العذاب﴾ وذلك الذي يمكن تنصيفه، وهو

﴿غير مسافحين﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾ أي: ممن تزوجتموهن ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها، ﴿فريضة﴾ أي: إتيانكم إياهن أجورهن، فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معنى قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها فوجب عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم^(١)].

﴿إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿٢٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فإنكحوهن بإذن أهلهن وأتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات

الغالب، لا مفهوم له، فإن الربية تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحدهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربية، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقيم إباحتها. والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربية، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه. وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح المحصنات من النساء ﴿أي: ذوات الأزواج﴾. فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق وتنقضي عدتها. ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين، بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة الزوجة أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريدة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي: الزموا واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب. فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: ﴿أن يتنقوا بأموالكم﴾ أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم محصنين ﴿أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم﴾.

(١) زيادة من هامش ب، وزيادة غير واضحة، وقد أتممتها من طبعة السلفية.

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك، أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته .

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «بأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم * ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً» ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالفصوب والسرقات، وأخذها بالقمطار والمكاسب الرديئة. بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق.

ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره .

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه. ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك. «إن الله كان بكم رحيماً» ومن رحمته، أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعته وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتب من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: «لا تأكلوا أموالكم» «ولا تقتلوا أنفسكم» كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخضر من قوله: «لا يأكل بعضكم مال بعض» ولا يقتل بعضكم بعضاً» مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى

بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده . ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له . فله الحمد والشكر على ذلك .

وقوله: «والله عليم حكيم» أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة .

وقوله: «والله يريد أن يتوب عليكم» أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم. «ويريد الذين يتبعون الشهوات» أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبيهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون «أن تميلوا ميلاً عظيماً» أي: [أن] تنحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين .

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعين، وتحيروا أحسن الطريقتين .

«يريد الله أن يخفف عنكم» أي: بسهولة ما أمركم به و [ما] نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وكنزوج الأمة للحز بتلك الشروط السابقة . وذلك لرحمته التامة

الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة . وأما الرجم فليس على الإماء رجم، لأنه لا يتنصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة .

وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن .

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور والرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة .

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث . وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما .

﴿٢٦ - ٢٨﴾ «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً» يخبر تعالى بمنته العظيمة، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: «يريد الله ليبين لكم» أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام، «ويهديكم سنن الذين من قبلكم» أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام . فلذلك نفذ ما أراد، ووضح لكم، وبين بياناً ما بين لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل .

«ويتوب عليكم» أي: يلطف بكم في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تمكثوا^(١) من الوقوف على ما حده الله، والاكْتِفَاء بما أحله، فنقل ذنوبكم

عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادمهم وتراحهم وتعاطفهم ومصالحهم، كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل، ومن أخذ ماله، أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارا، وأنواع الحرف والإجارات، فقال: **﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾** أي: فإنها مباحة لكم.

وشرط التراضي - مع كونها تجارة - للدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختياراً.

ومن تمام الرضا أن يكون العقود عليه معلوماً، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدوراً على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا، فلا ينفذ عقده.

وفيها أنه تعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي: طريق حصل الرضا انعقد به العقد. ثم ختم الآية بقوله: **﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** ومن رحمة أن عصم دماءكم وأموالكم وأصنامها، ونهاكم عن انتهاكها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾** أي: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس **﴿عَدُوًّا وَظُلْمًا﴾** أي: لا جهلاً ونسياناً **﴿سَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا﴾** أي: عظيمة كما يفيد التنكير **﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾**.

﴿٣١﴾ **﴿إِنْ تَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾** وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كباير المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مَدْخَلًا كَرِيمًا، كثير الخير وهو الجنة،

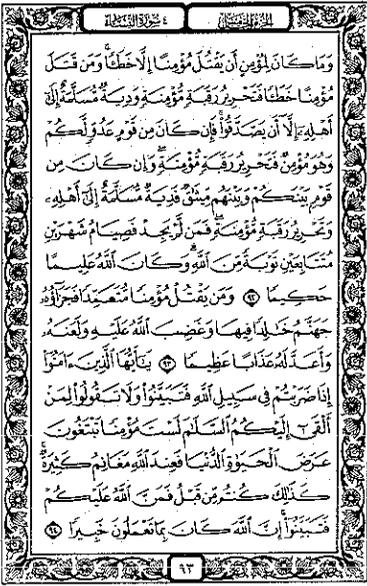
المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويدخل في اجتناب الكباير فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي **﴿صَلِّ﴾**: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهما، ما اجتنبت الكباير».

وأحسن ما حُدَّت به الكباير، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو عيذ في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

﴿٣٢﴾ **﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾** ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة وغير الممكنة. فلا يتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والفقير حالة الغنى والكمال، تمنياً مجرداً، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل والأمانى الباطلة، التي لا يقترن بها عمل ولا كسب. وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه، ولا على غير ربه. ولهذا قال تعالى: **﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾** أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب.

﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ فكل منهن لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. **﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا. فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا من يترك العمل، أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا مخذول خاسر.



وقوله: **﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾** فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿٣٣﴾ **﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مَا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾** **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾** أي: **﴿وَلِكُلِّ﴾** من الناس **﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَّ﴾** أي: يتولونه ويتولاهم، بالتعزز والنصرة، والمعاونة على الأمور. **﴿مَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ﴾** وهذا يشمل سائر الأقارب، من الأصول والفرع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة.

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال: **﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾** أي: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة، والاشترار بالأموال، وغير ذلك. وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً.

قال تعالى: **﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾** أي: أتوا الموالى نصيبهم، الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة، على غير معصية الله. والميراث للأقارب الأدين من الموالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: مطلعاً على كل شيء، يعلمه لجميع الأمور، وبصره لخرات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴿٣١﴾ أي: وإن ختم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق، ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ أي: رجلين متكلفين، مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق. وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكماً، إلا من اتصف بتلك الصفات. فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، فثمنا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلأ عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما، إلا على وجه المباعدة والمقاطعة، ومعصية الله، ورأياً أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما. ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل عليه، أن الله سماهما حكماً، والحكم يحكم، ولو لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال: ﴿إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ أي: بسبب الرأي: الميمون والكلام الذي يجذب القلوب، ويؤلف بين القرينين.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي: علماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً على خفايا الأمور وأسرارها. فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة.

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴿والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

يختص بها الرجال، ويتميزون عن النساء. ولعل هذا سر قوله: ﴿بما أنفقوا﴾ وحذف المفعول، ليدل على عموم النفقة. فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به.

ووظيفتها: القيام بطاعة ربه، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فالصالحات قانتات﴾ أي: مطيعات لله تعالى ﴿حافظات للغيب﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن، وتوقيفه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله، كفاه ما أمهه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل، ﴿فعضوهن﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت لذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاعفها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون، فتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي: له العلو المطلق، بجميع الوجوه والاعتبارات، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿٣٥﴾ ﴿وزن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من



﴿٣٤﴾ ﴿الرجال قوامون على

النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضجع واضربوهن فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليماً خبيراً﴾ يخبر تعالى: أن الرجال قوامون على النساء، أي: قوامون عليهن بالزمام بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال: ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن، ففضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع. وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله. وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مِنْ كَانَ مَخْلُوقًا﴾^(١) أي: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق. ﴿فخوراً﴾^(٢) يشني على نفسه ويمدحها، على وجه الفخر والبطر على عباد الله. فهؤلاء ما هم من الاختيال والفخر، يمنعهم من القيام بالحقوق. ولهذا ذمهم بذلك، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾^(٣) أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾^(٤) بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٥) أي: من العلم الذي يندي به الضالون ويستترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق. فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٦) أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه وتسيبوا في منع غيرهم، من البخل وعدم الاهتمام، أهانتهم بالعذاب الأليم، والحزني الدائم. فعياداً بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن النفقة الصادرة، عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾^(٧) أي: ليروهم ويمدحوهم، ويعظموهم، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ إِلَّا هُجُوعًا وَرِجَاءً تَوَابًا﴾^(٨) أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾^(٩) أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن من بخل بما آتاه الله،

خلتهم، وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه.

﴿والجار ذي القربى﴾^(١٠) أي: الجار القريب الذي له حقان، حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿الجار الجنب﴾^(١١) أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان أكد حقاً، فيبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطفة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل.

﴿والصاحب الجنب﴾^(١٢) قيل: الرفيق بالسفر، وقيل: الزوجة، وقيل: صاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل صاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

فعل الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودينه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يجب له ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وابن السبيل﴾^(١٣) وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتاج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده [ويكرامه وتأنسه]^(١٤).

﴿وما ملكت أيمانكم﴾^(١٥) أي: من الأدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه الأمور، فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقيم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا

ومن يكن الشيطان له قريناً فسواء قريناً﴾^(١٦) يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهي، محبة وذللاً وإخلاصاً له، فني جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بخقه، أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب فالأقرب. فقال: ﴿وبالوالدين﴾^(١٧) أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رجم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءة، وعدم الإحسان وكلاهما منهى عنه.

﴿وبذي القربى﴾^(١٨) أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

﴿واليتامى﴾^(١٩) أي: الذين فقدوا آباءهم^(٢٠) وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم وديانهم.

﴿والمساكين﴾^(٢١) وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمونون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد

(١) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آباؤهم.

(٢) زيادة من هامش ب.

يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالسجدة، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حذّر تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران. وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها وليها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين، والتوق لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً، إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه، ﴿حتى تغتسلوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم، فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط. ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أهمهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقربين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والثناء. وهنالك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح. ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لو تسوّى بهم الأرض﴾ أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعمداً، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ أي: بل يقولون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حيثئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿٤٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما

وكنتم ما من به الله عليه عاصي آثم مخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبّد لغير الله، فإنه آثم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وامتنال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فللهذا حثّ تعالى عليه بقوله:

﴿٣٩﴾ ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً﴾ أي: شيء عليهم، وأي: خرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله، الذي هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فكيف إذا جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزّهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيد لها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال أحر، وإعطاء البر الكثير والخير العزيز.

ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جننا من

النساء فلم تجدوا ماء فتميموا. فأباح التيمم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، والعلة المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقدته المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه، جاز له التيمم.

وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو ملامسة النساء، فإنه يُباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضراً وسفراً، كما يدل على ذلك عموم الآية. والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين:

حال عدم الماء، وهذا مطلقاً في الحضر والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: «أو لاستم النساء» هل المراد بذلك الجناع، فتكون الآية نضاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟

واستدل الفقهاء بقوله: «فلم تجدوا ماء» بوجود طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: «لا يجد» لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضاً على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: «فلم تجدوا ماء» وهذا ماء. ونوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.

وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء والله الحمد، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذبي الغبار، لأن الله قال: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه» وما لا غبار له لا يمسح به.

وقوله: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم» هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الكوعين، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة، كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب تيمم غيره، بالوجه واليدين.

فائدة

اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها. وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز.

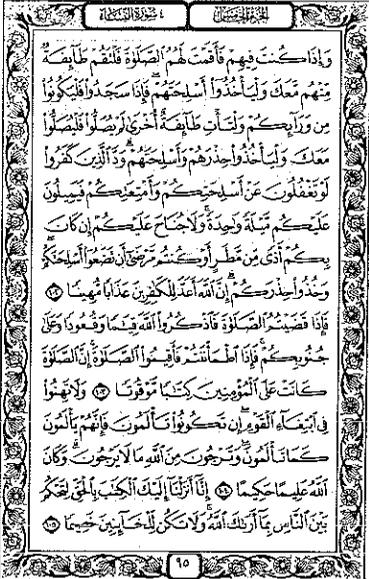
أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظاً لصحتهما، باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره.

وأما استفراغ المؤذي، فقد أباح تعالى للمحرم المتأذي برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها، من البول والغائط والقيء والمني والدم، وغير ذلك، نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم ولو لم يضح الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: «إن الله كان عفواً غفوراً» أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيحرج بذلك.

ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء، عند تعذر استعماله. ومن عفوه ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم. ومن عفوه ومغفرته، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم



لقيه لا يشرك به شيئاً، لأناه بقرابها مغفرة.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿لم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً * من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعتنا لنيا بالستتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ هذا ذم لمن «أتوا نصيباً من الكتاب» وفي ضمنه تحذير عباده عن الاعتزاز بهم، والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم، في أنفسهم «يشترون الضلالة» أي: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ومع هذا «يريدون أن تضلوا السبيل».

فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال: «وكفى بالله ولياً» أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم،

الرعونته، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال: ﴿لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكُنَّ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمُ﴾. وذلك لما تضمنته هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه. ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

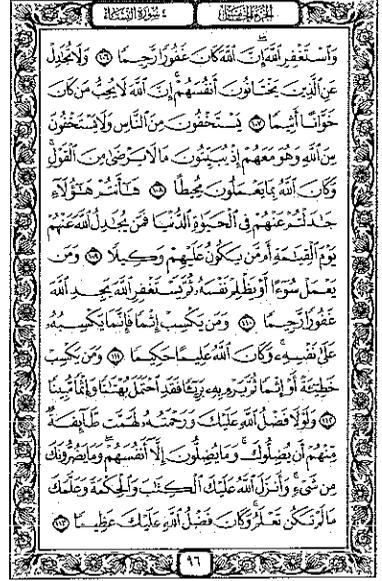
﴿٤٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنُرَدَّهَا عَلَى أَذْيَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ بِأَمْرٍ عَظِيمًا﴾ وكان أمر الله مفعولاً كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك^(١) من الذنوب، صغارها وكبارها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعاة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً وما لهم يوم القيامة ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صديق حميم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ



وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم. ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم. فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر. ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً: فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتماهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشر حال، فلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿يقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره، ﴿وَرَاعِنَا﴾ قصدهم بذلك

(١) في ب: ذلك.

فقد افتري إثماً عظيماً ﴿أي﴾ افتري لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكن نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾. وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة، أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

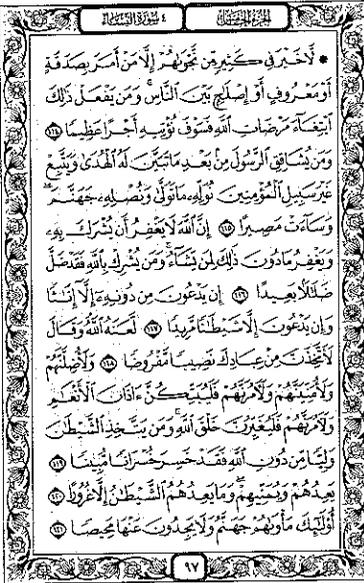
قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله. لأن مضمون تزكيتهم

لأنفسهم، الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً. وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي: ظاهراً بيناً، موجياً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

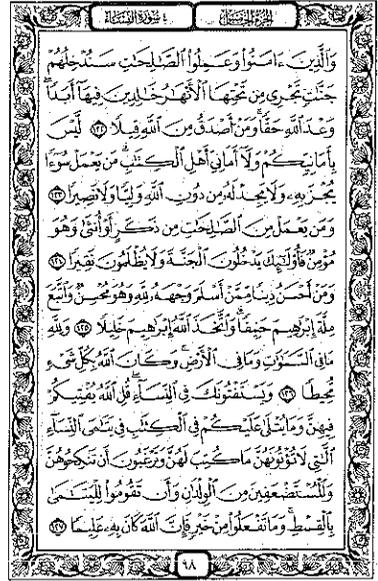
﴿٥١ - ٥٧﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾

﴿٥٠ - ٤٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴿هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحنا نحوهم، من كل من زكى نفسه، بأمر ليس فيه. وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ويقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتخلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب



وعادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين، فقال: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أي: لأجلهم، تملقاً لهم ومداهنة، وبغضاً للإيمان: ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي: طريقاً. فما أسمجهم وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!! كيف سلوكوا هذا المسلك الوخيم، والوادي الذميمة!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالخلق، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً ومراغمة للحق،



وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنْ تَعُدَّ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: يتولاه، ويقوم بمصلحته، ويحفظه عن المكار، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ﴾ أي: فيفضلون من شاؤوا على من شاؤوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء الله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئاً، ولا قليلاً. وهذا وصف لهم بشدة البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك للملك الله. وأخرج هذا مخرج الاستفهام المقرر إنكاره، عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء الله، فيفضلون من شاؤوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من

أعطاه من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان». فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين.

فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له!!!

﴿فَمَنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ، فقال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الآخروي. ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عناداً وبعياً وحسداً، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها، ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكُفِيَ بِهِمْ سَعيراً﴾ تسعراً على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى، وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ أي: عظمة الوقود، شديدة الحرارة، ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودَهُمْ﴾ أي: احترقت بدلتناهم جلوداً غيرها ليدنقوا العذاب﴾ أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفاً لهم وسجية؛ كثر عليهم العذاب جزاءً وفاقاً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميمة، وما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا﴾ بصيراً * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئء فردوه إلى الله

والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ الأمانات كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا محسوسة، ولا مطولاً بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وقد ذكر الفقهاء، على أن من أوثمن أمانة، وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربه لم يكن مؤدياً لها.

﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدرد والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به. ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا﴾ بصيراً، وهذا مدح من الله لأمره ونواهي، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تحفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتنثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والفتن، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بغيره، فإن أمرؤا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في

وَأَنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَيْعَتِكَ أَوْ لِقَائِكَ أَوْ لِقَائِكَ
عَلَيْهَا أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا سَاحِلًا وَأَصْحَابُ حَمْرٍ وَخَضِرٍ
الَّذِينَ أَلْحَقُوا وَانْتَحَبُوا وَتَسْمَعُوا بِكَ اللَّهُ كَانَ
يَمْتَعُونَ حَيْدًا ۝ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْلَمُوا بِدِينَ
النَّبِيِّ وَتَوْصِيَّتِهِ وَلَا تَسْأَلُوا كَلَّ النَّبِيِّ فَتَدْرُسُوا
كَالْمَعْلُوقِ وَإِنْ تَصَلُّوا حُرًّا وَتَسْمَعُوا بِكَ اللَّهُ كَانَ
عَفْرًا رَحِيمًا ۝ وَإِنْ تَقَرُّوا بِعَنْ اللَّهِ كَلَّ الَّذِينَ سَعَيْتُمْ
وَكَلَّ اللَّهُ رَحِيمًا حَكِيمًا ۝ وَيَوْمَ تَأْتِي السُّكْرَتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَقَدْ رَضِينَا إِلَيْكَ أَوْثَرًا أَلَكْتِ
مِنْ قَلْبِكُمْ رَبَّنَا أَنْ أَتَقْرَأَ اللَّهُ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
قَدَمَاتِي السُّكْرَتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا
حَكِيمًا ۝ وَيَوْمَ تَأْتِي السُّكْرَتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي بَالِغٌ
وَكَلَّ ۝ إِنْ شَاءَ بَيْعَتُكُمْ أَيْهَا النَّاسُ وَإِنَّ يَأْتِيكُمْ وَكَانَ
اللَّهُ سَمِيعًا حَكِيمًا ۝ مَنْ كَانَ يُرِيدُ تَوَلِّيَ الدُّنْيَا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ تَوَلَّوْا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَكَانَ اللَّهُ حَكِيمًا حَكِيمًا

رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ۝ يخبر تعالى خبراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له . وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ، يتقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه ، وأن يكونوا معظمين ، تعظيم المطيع^(١) للمطاع .

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله ، وفيما يأمرون به وينهون عنه ؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقاً ، فلولا أنهم معصومون لا يشعرون ما هو خطأ ، لما أمر بذلك مطلقاً .

وقوله : ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي : الطاعة من المطيع ، صادرة بقضاء الله وقدره . ففيه إثبات القضاء والقدر ، والحث على الاستعانة بالله ، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول .

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ، ودعوته لمن اقترب السيئات ، أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ أي : معترفين بذنوبهم ، باخعين بها .

إلى الطاغوت ۝ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت .

والحال أنهم ﴿قد أمروا أن يكفروا به﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور ، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله ، فهو كاذب في ذلك . وهذا من إضلال الشيطان إياهم ، ولهذا قال : ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق .

﴿فكيف﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من المعاصي ، ومنها تحكيم الطاغوت؟! ۝

﴿ثم جاؤوك﴾ معتردين^(١) لما صدر منهم ، ويقولون : ﴿إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي : ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم ، وهم كذبة في ذلك . فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ .

ولهذا قال : ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ أي : من النفاق والقصد السيئ . ﴿فأعرض عنهم﴾ أي : لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه . ﴿وعظهم﴾ أي : بين لهم حكم الله تعالى ، مع الترغيب في الانقياد لله ، والترهيب من تركه ، ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي : انصحهم سراً بينك وبينهم ، فإنه أنجح لحصول المقصود ، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه ، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه ، فإنه ينصح سراً ، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به .

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً﴾

معصية الخالق . ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم ، وذكره مع طاعة الرسول فإن الرسول ، لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه فقد أطاع الله ، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية .

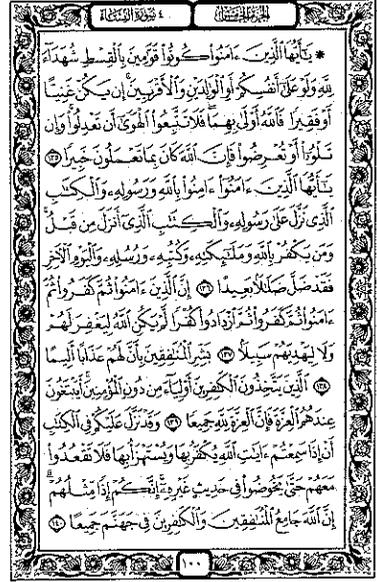
ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه ، إلى الله وإلى رسوله ، أي : إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية ، إما بصريحهما ، أو عمومهما ؛ أو إيماء ، أو تشبيه ، أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه ، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين ، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما .

فالرد إليهما شرط في الإيمان ، فلهذا قال : ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة ، بل مؤمن بالطاغوت ، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذلك﴾ أي : الرد إلى الله ورسوله ﴿خير وأحسن تأويلاً﴾ فإن حكم الله ورسوله ، أحسن الأحكام وأعدلها ، وأصلحها للناس ، في أمر دينهم وديارهم وعاقبتهم .

﴿٦٠ - ٦٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ۝ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ۝ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين . ﴿الذين يزعمون أنهم مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله ، ومع هذا يريدون أن يتحاكموا

(١) في النسختين : معتردين .

(٢) في النسختين : تعظيم المطاع للمطيع ، وهو سبق قلم ، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى تعظيم المطاع من المطيع .



﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾

أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والشواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ محتص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك^(١) حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتهاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن

تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العصاة.

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ ثبثاً﴾

﴿وإذا لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴿يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعلها إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وطف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور: (أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لكننا خيراً لهم﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير، التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول الثبوت والثبات وزيادته، فإن الله ثبت الدين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي

هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك النواهي، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرهها العبد. فيوفق للثبوت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر.

فيتزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها، ويستشاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث): قوله: ﴿وإذا لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبة وإشارته والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾

ذلك الذي أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴿ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً﴾ أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير، ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة، ﴿من النبيين﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم، بإرسالهم إلى الخلق،

(١) في ب: هذا التحكيم.

ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿والصديقين﴾ وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً، ودعوة إلى الله، ﴿والشهداء﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا، ﴿والصالحين﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم، ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأانس بقربهم في جوار رب العالمين.

﴿ذلك الفضل﴾ الذي نالوه من الله فهو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب، ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وكفى بالله علماً﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة، التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أئتم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً * فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين. وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والجنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم، ومكرهم، والغير في سبيل الله.

ولهذا قال: ﴿فانفروا ثبات﴾ أي: متفرقين بأن تفر سرية أو جيش، وقيم غيرهم ﴿أو انفروا جميعاً﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية، والراحة للمسلمين في دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وإن منكم﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿لمن ليبطئن﴾ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله، ضعفاً، وخوراً، وجبناً، هذا الصحيح.

وقيل معناه: ليبطئن غيره، أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون ولكن الأول أولى، لوجهين:

أحدهما: قوله ﴿منكم﴾ والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ فإن الكفار من المشركين، والمنافقين، قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضاً فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين:

صادقون في إيمانهم، أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام، فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد.

كما قال تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ إلى آخر الآيات. ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين، ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحظاها فقال: ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي: هزيمة، وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال، لما لله في ذلك من الحكم. ﴿قال﴾ ذلك المتخلف ﴿قد أئتم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة. ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه

الذين برصصوت وكرا إن كان كفر من الله قالوا الزك
مكر وان كان للذين صوبت قالوا الزك
عليكم وتعدون الذين قاله تكم تكم يوم القيمة
ولن يجعل الله للذين على المؤمنين سبيلاً
إن الذين يخذلون الله وهو خذ عنهم وقالوا قال
الصلوة قالوا كمال برأه من الناس ولا يفترون الله
إلا طيباً * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى
هؤلاء ومن ضل الله فلن يجد الله سبيلاً * يا أيها
الذين آمنوا لا تخذلوا أنفسكم ولا أنفسكم أولئك الذين دون المؤمنين
الذين إن يخذلوا الله عليكم سطلنا شيئاً *
إن المؤمنين في الله تركوا أنفسهم التارون تجد
لهم شهيداً * إلا الذين كانوا أصحاباً وأعواناً
بالله وألصقوا بهم والله لا يفترون الله مع المؤمنين وتوف
رؤيت الله المؤمنين أجر عظيم * ما يفعل الله بعذابكم
إن شكرتم به واسترركم الله شامراً عليكم

الطاعة الكبيرة، التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب. وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي: يتمنى أنه حاضر لينال من الغنائم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية، التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، وفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين^(١)، ويألون بفقدائها ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمة، ولا يخلق عنهم أبوابها. بل من حصل منه غير ما يليق، أمره ودعاه إلى جبر نقصه، وتكميل نفسه،

(١) في النسختين: الذي.

(٢) في النسختين: على يد غيره من أخوانه.



منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته. فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ، وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل على الله. فصاحب القوة والركن الوثيق، يطلب منه من الصبر والشبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة. فهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكروه ما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿٧٧ - ٧٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيديكم وآتُوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كنبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً * أينما تكونوا يدر ككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فواتد:

منها: أن من حكمه البارئ تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق

وجه الله. ﴿فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمته، وثناء حسناً، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧٥﴾ ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لَدُنْكَ ولياً واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً﴾ هذا حث من الله لعباده المؤمنين، وتبجيل لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم ولياً ونصيراً، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال، والذي عن عيلائكم وأولادكم ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلازم التخلف عنه أعظم لوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجراً، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

﴿٧٦﴾ ثم قال: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فواتد:

فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله، فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾. هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي: يبيعون الدنيا رغبة عنها، بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم الخطاب، لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء، لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتقاتلون، فلا يعابهم، خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ إلى آخر الآيات. وقوله:

﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾. وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه «الذين» في محل نصب على المفعولية.

﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ بأن يكون جهاداً، قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً

عليهم؛ ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال - مع قلة عددهم وعددهم، وكثرة أعدائهم - لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، وفروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها، ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تيباً﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس وضعفاً وخوراً: ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال؟﴾ وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال، التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي: هلاً أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر. ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها، هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها، فذاتها - كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه - «أن موضع

سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها». ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾. وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقتدرن بها من أنواع الآلام، والهجوم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة، فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإيثار، والسعي له، والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي: اتقى الشرك، وسائر المحرمات.

﴿ولا تظلمون قليلاً﴾ أي: فسيحكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً موفراً، غير منقوض منه شيئاً.

ثم أخبر أنه لا يعني حذر عن قدر، وأن القاعدة لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فقال: ﴿أين ما تكونوا يذر كرم الموت﴾ أي: في أي: زمان، وأي: مكان. ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي: قصور منيعة، ومنازل ربيعة، وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

﴿٧٨- ٨٠﴾ ثم قال: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

فما تصبهم سيئة وكفرهم يكذب الله وقيل لهم الآية
يخبرني وقولهم قلنا ما نكذبك بل طبع الله عليها كذبهم
فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴿وقولهم وقولهم على علم من عندنا
عظيم﴾ وقولهم إنا نكذبك المسيح عيسى بن مريم رسول
الله وما نقولك وما نصليوك ولكن شبهنا لهم وأما الذين
أختلفوا في في كذبهم ما حكم يومئذ من غير الآية الظن
وما نقولهم شيئاً بل رضى الله إليهم وكان الله عزيزاً حكيماً
﴿وإن من أهل الكتاب إلا لظنون به فقل موتوا بدينهم
التي هم على﴾ فظن من الذين هادوا
حزناً عليهم طابت ألبت لهم ويصبرهم عن سبيل الله
كثيراً ﴿وأنذروهم الزنا وقد فرغوا منه وأجمعوا إلى الناس
والليل وأعدنا لتلك الذين يظنون عذاباً أليماً﴾ لتلك الذين
في أول يومهم ولتؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
من قبلك ولتؤمنن بالسكرة ولتؤمنن الزكوة ولتؤمنن
بالله واليوم الآخر ولتكن سننهم أحسن عظاماً ﴿

سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً * من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً * يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم، أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هذه من عند الله﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة، أي: جدد، وفقر، ومرض، وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هذه من عندك﴾ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله ﷺ، كما تطير أمثالهم برسول الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى ﴿إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾.

وقال قوم صالح: ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾.

وقال قوم ياسين لرسولهم: ﴿إنا تطيرنا بكم لننظن أن لنمتنعن﴾ الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر، تشابهت أقوالهم وأعمالهم. وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخل في هذا الذم الوخيم.

قال الله في جوابهم: ﴿قل كل من أشاء من الحسنات والسيئات، والخير والشر.﴾ من عند الله * أي: بقضائه

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير، ما رتب على طاعة الله، ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغاً ومبيناً وناصحاً، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا. كما قال تعالى: ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مَذْكُورًا لِّسِتِّ عَلَيْهِمْ بِمِيسِرٍ﴾ الآية.

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً، في الحضرة والمغيب. فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه، ترك الطاعة وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿يَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك. ﴿فَإِذَا بَرِزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم. ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: بيتوا وديروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية.

وفي قوله: ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التثبيت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي، ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، فيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضرونه شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه. ولهذا قال: ﴿فَأَعْرَضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوائزم

وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإذا علم أن الله تعالى، كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصراً عظيماً، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

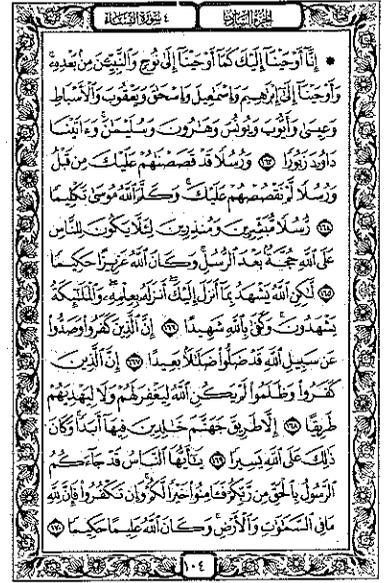
﴿٨٠ - ٨١﴾ ﴿مَنْ يَطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله، وشرعه، ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة:

حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسم يختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.

وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لَتَتَّوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزْوهُ وَتُقِرُّوهُ وَتَسْبِّحُوهُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا﴾.



وقدره وخلقته. ﴿فَمَا لَهُوَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة. ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثاً بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقها عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك.

وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جاؤوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ هو الذي من بها ورسولها بتفسير أسبابها. ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.

فإنه تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره



ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته . فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب .

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بانزاق القرآن، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ .

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً . فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا يتناقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً .

﴿٨٣﴾ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق . وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه

مصيبه عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبير، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي: والعلم والنصح، والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها .

فإن رأوا في إداعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك: وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مصلحة ولكن مضرة تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة .

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى مَنْ هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ . وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا؟ فيخرج عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي: في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر . فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم .

﴿٨٤﴾ فقتال في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرص غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما، فهذا قال

لرسوله: ﴿فقتال في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك .

﴿وحرص المؤمنين﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال .

﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً . ﴿والله أشد بأساً﴾ أي: قوة وعزة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ بالذنوب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلن شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم باقية .

ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطراب والقهر الذي لا يفيد شيئاً .

﴿٨٥﴾ من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ المراد بالشفاعة هنا:

(٢) في النسختين: ليس عليك .

(١) في ب: ما فيه مصلحة .



ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية، من وجهين: أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها، أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفضل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة مَنْ حَيًّا بِحَالٍ غَيْرِ مَأْمُورٍ بِهَا، كـ «على مشغل بقرأة، أو استماع خطبة، أو فصل ونحو ذلك» فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضته المصلحة الكبرى.

ويدخل في زد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعال وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسننها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿٨٧﴾ **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴿يخبر تعال، عن انفراد بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والتعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بتعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية. لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْزِيََكُمْ﴾ أي: أولئك

وأخركم في مقام واحد. في ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً، يموتون ثم يموتون، وأما الدليل السمعي، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعال: ﴿زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقيني، فلا يمكن أن يكون حقاً.

﴿٨٨ - ٩١﴾ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ** والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن عهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿وذو الو تكفرون كما كفروا فتكفون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا﴾ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليك السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة

المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر، كان عليه كفل من الأثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

﴿٨٦﴾ **وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا** بأحسن منها. أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقتضون بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداء ورداً. فأمر تعال المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(١) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتضحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم وبلغوا إليكم السلم﴾ أي: المسألة والموادعة ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولتكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسألة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٢﴾ ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

فرقتين أمر بتركهم وحثم [عل] ذلك، إحداهما^(٢) من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم «حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم وقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء «إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً».

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: «ستجدون آخرين» أي: من هؤلاء المنافقين. «يريدون أن يأمنوكم» أي: خوفاً منكم «ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها» أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم وبلغوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولتكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(٣) المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهوره من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم «فلا تخلوا منهم أولياء» وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها «فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم» أي: في أي: وقت، وأي: محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبيث كما تنفي النار خبيث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيقدمون.

بعضكم رقاب بعض». فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإن المخطيء الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجربى على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصد أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع؛ فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزى عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزى عتقه، مع أن في قوله: «تحرير رقبة» ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص مَنْ استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

﴿مسلمة إلى أهله﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخله فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصْدُقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعتق عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مِنْ قَوْمِ عَدُوِّكُمْ﴾ أي: من كفار حربين وهو مؤمن فتحريز رقبة مؤمنة: أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مِنْ قَوْمِ بَيْنِكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مَسْلُومَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الرِّقْبَةَ وَلَا ثَمَنَهَا، بَأَنَّ كَانَ مَعْسُراً بِذَلِكَ، لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُفْضَلُ عَنْ مِؤْتِنَتِهِ وَحَوَائِجِهِ الْأَصْلِيَّةِ شَيْءٌ يَغْيِي بِالرِّقْبَةِ، فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعِينَ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أظفر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تُؤْتِيهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عبادته، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي: وقت كان وأي: محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عدها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف الفساد [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم^(١)، ويخفف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين].

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتل عن مضيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيدا ترجف له القلوب، وتنصدح له الأفئدة، وتترزع منه أولو العقول.

فلم يزد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: عليهم.

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل
فمن الله عليكم فبينوا إن الله كان بما
تعملون خبيراً ﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده
المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله،
وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في
جميع أمورهم المشبهة.

فإن الأمور قسماً: واضحة وغير
واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت
وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة،
فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها
والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل

فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرو
عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله
ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمور في
بدايتها^(١)، قيل أن يتبين له حكمها،
فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما
جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في
الآية، لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم
عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال
غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا
عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى
إليكم السلام لست مؤمناً بتفنون عرض
الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾
أي: فلا يحملنكم العرض الفاني
القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي
فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل
الباقي، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له
إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له
فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها
ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها،
وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن
في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال
أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم
الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:
﴿كذلك كنتم من قبل فممن الله
عليكم﴾ أي: فكما هذاكم بعد
ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في
الوجود، وبه ارتباط الأسباب
ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله
سبحانه لكل ضدّاً يذافعه
ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب
منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية،
وفساد الأخلاق وبغيها مانع من عمل
الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب
منهما، وكذلك قوى الأودية
والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض
للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما
يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا
ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من
يدخل الجنة ولا يدخل النار،
وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج
منها، ويكون مكته فيها بحسب ما فيه
من مقتضى المكث في سرعة الخروج
ويطئه. ومن له بصيرة منورة يرى بها
كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر
المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده
رأى: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته
سبحانه وربوبيته، وعزته، وحكمته،
وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة
ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،
فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة
الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي
يجرق السيئات، كما تحرق النار
الخطيب، وصاحب هذا المقام من
الإيمان يستحيل إصراره على السيئات،
وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه
من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل
وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه،
وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى
كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن
الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا
ضربتم في سبيل الله فبينوا ولا تقولوا
لن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً
تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا
الذنب العظيم قد انتهض وحده أن
يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من
العذاب العظيم، والحزني المهين،
وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح،
وحصول الخيبة والخسار. فعياداً بالله
من كل سبب يبعد عن رحمة.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من
نصوص الوعيد، على بعض الكيثر
والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان
الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في
تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول
الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في
النار ولو كانوا موحدين. والصواب
في تأويلها ما قاله الإمام المحقق:
شمس الدين بن القيم رحمه الله في
«المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر
تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها
فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص
وأمثالها ما ذكر فيه المقتضى للعقوبة،
ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم
وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود
مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن
كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد
قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها
بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة
مانع بالإجماع، والتوحيد مانع
بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها
والحسنة العظيمة الماحية مانعة،
والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة
الحدود في الدنيا مانع بالنص،
ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص،
فلا بد من أعمال النصوص من
الجانين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات
والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب
ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح
الدارين ومفاسدهما. وعلى هذا بناء
الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

المؤمنين ﴿٩٧﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أَمْ يَمُنُّ أَنْ يُكْفَرَ بِكُفْرَانٍ كَذِبًا﴾. ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدِ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَاهَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقاتلات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لثلاث يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصراني خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴿٩٨﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يويخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتهم سوادهم، وربما ظاهرتهمهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مهزومين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْنِبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى النسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لثلاث يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكَلَّا وَعَدِ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَبَشِّرِ

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

فيذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، وبمجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تموداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والثبوت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فثبتت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كلاً ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدِ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا ﴿٩٦﴾ أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاثر والقعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمرضى والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجه به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في

وتوعدهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فأولئك ما أوامهم جهنم وساعات مصيراً﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه مع اجتماع شروطه، وانتفاء مواعنه، وقد يمنع من ذلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر، وفي الآية دليل على أن كل من توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذة من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفياً.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحلته.

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿ولا يمتدون سبيلاً﴾. فهو لاء قال الله فيهم: ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ و «عسى» ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه، وفي الترجية بالشواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة:

وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً فلا يستحق ذلك الثواب. والله أعلم. وفي الآية الكريمة دليل على أن من

عجز عن المأمور من واجب وغيره، فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج﴾. وقال في عموم الأوامر: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فاتوا منه ما استطعتم». ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: ﴿لا يستطيعون حيلة﴾. وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.

﴿١٠٠﴾ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده، أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة، فالمرامع مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا.

وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، ودلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية، كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم، فإن المرأغة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

حَمَتَ عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ وَإِلَهُمُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسْعٌ ذُو بَرِّحِينَ
وَمَا أَكَلِ السَّعْدُ إِذَا مَا كَسَبَتْ وَمَا دَمِيعٌ عَلَى النَّصْبِ
وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَكَرْتُمُ الْيَوْمَ بِالنَّبِيِّ هَكَذَا
مِنْ رَبِّكَ فَالْأَعْتَابُ وَمَنْ يَخْتَفِ بِالنَّبِيِّ هَكَذَا لَكَ رَيْبٌ
وَأَنْتُمْ عَلَىٰ عَيْبِكُمْ وَمَنْ يَخْتَفِ بِالنَّبِيِّ هَكَذَا لَكَ رَيْبٌ
فِي حَمِيصَةٍ عَرَبِيَّةٍ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَإِنَّمَا فَتَنَ
بَيْنَهُمْ مَا ذَا أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَمَنْ يَخْتَفِ
الْأَجْرُ مَكِينٌ مَّعْرُوفٌ بِمَا عَمِلَ اللَّهُ فَعَلَىٰ مَا كَسَبَتْ
عَلَيْكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسْعٌ ذُو بَرِّحِينَ
الْيَوْمِ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَكُنْ
لَكَ وَمَنْ يَخْتَفِ بِالنَّبِيِّ هَكَذَا لَكَ رَيْبٌ
مِنْ رَبِّكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالَّذِينَ
خَفِيَ عَنِ النَّبِيِّ هَكَذَا لَكَ رَيْبٌ
إِلَىٰ الْيَوْمِ فَخُذْ حِطَّةً لِّمَن يَخْتَفِ فِي الْأَجْرِ مِنَ الْخَبْرِينَ

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم، مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم، حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾ أي: قاصداً ربه ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصراً لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثم يدركه الموت﴾ بقتل أو غيره، ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمن الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله، أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وعفّر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعفّر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً اللاتين النبيين إلى ربهم.

مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: «من» تفيد التبعض، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضة، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرابعة من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: «إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأزمين كليهما، السفر مع الخوف.

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: «أن تقصروا» قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: «إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعل هذا يكون هذا القيد أي به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

الخوف، يقول تعالى: «وإذا ضربتم في الأرض» أي: في السفر، وظاهر الآية، [أنه] يقتضي الترخص^(١) في أي: سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى المناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفوره، لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: «فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة» أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله» إلى آخر الآية.

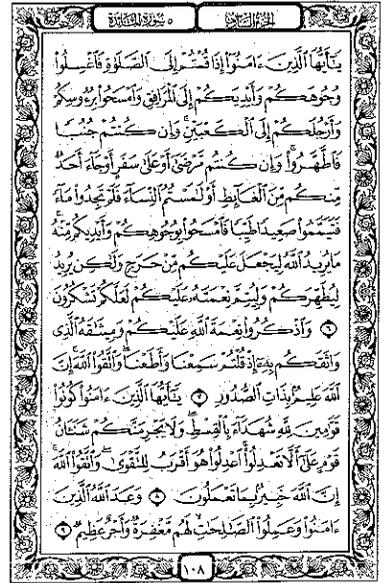
وإزالة الوهم في هذا الموضوع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما يتأنيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: «أن تقصروا من الصلاة» ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

إحدهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط يحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: «من الصلاة» يدل ذلك على أن القصر محدود



«رحيماً» بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيماً بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يجرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿١٠١-١٠٢﴾ «وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً* وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وذ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً» هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة

(٢) في ب: الترخيص.

(١) في ب: الترخيص.

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فإذا سجدوا﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فليصلوا معك﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجوهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطله في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبه في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُغْفَلْنَ عَنْهُمْ وَأَنْ أَسْلَحْتُمْ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حربه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم جيشاً تقفوه، ويأخذوهم ويحصرورهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع



وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠١﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٤﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٥﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٦﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٨﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٩﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾

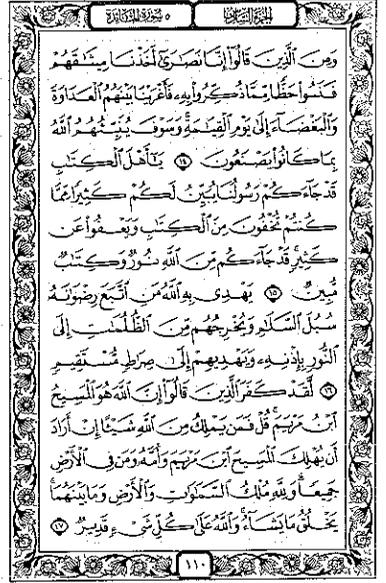
صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للشمائل.

﴿١٠٣﴾ ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائدها. منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه



من أعظم مقويات القلب .

ومنها : أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم .

وقوله : ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : إذا أمنتُم من الخوف ، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم ، فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ، ظاهراً وباطناً ، بأركانها وشروطها ، وخشوعها ، وسائر مكملاتها .

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ أي : مفروضاً في وقته ، فدل ذلك على فرضيتها ، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به ، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين ، صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

ودل قوله : ﴿ على المؤمنين ﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان ، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته ، وتم وتكمل ، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يجاطبون بفروع الدين كالصلاة ، ولا يؤمرون بها ، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم ، وإن

كانوا يعاقبون عليها ، وعلى سائر الأحكام في الآخرة .

﴿ ١٠٤ ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي : لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار ، أي : في جهادهم والمرابطة على ذلك ، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن ، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء . بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم .

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين ، فذكر شيئين :

الأول : أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك ، فإنه يصيب أعداءكم ، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك ، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالى عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام ، لا من يبدل مرة ، ويدال عليه أخرى .

الأمر الثاني : أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فترجون الفوز بشوابه والنجاة من عقابه ، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية ، وأمال رفيعة ، من نصر دين الله ، وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقمع أعداء الدين ، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة ، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة ؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله ، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته ، فسبحان من فاقوت بين العباد ، وفرق بينهم بعلمه وحكمته ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ كامل العلم ، كامل الحكمة .

﴿ ١٠٥ - ١١٣ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْغَافِقِينَ حَصِيمًا ﴾ واستغفر الله إن الله كان غفوراً

رحيماً * ولا تجادل عن الذين يخانتون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً * ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهدمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴿ يخبر تعالى ، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق ، أي : محفوظاً في إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق ، ومشتقلاً أيضاً على الحق فأخبره صدق ، وأوامره ونواهيه عدل ﴿ وعمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس ، في مسائل النزاع والاختلاف ، وتلك في تبين جميع الدين ، وأصوله وفروعه ، ويحتمل أن الآيتين كليهما ، معنهما واحد ، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد ، وفي جميع مسائل الأحكام .

وقوله : ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ أي : لا بهواك ، بل بما علمك الله وألهمك ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ . وفي هذا دليل على عظمته ﷻ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

لا بهواك ، بل بما علمك الله وألهمك ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ . وفي هذا دليل على عظمته ﷻ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفريطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحمران والخيبة والحسران؟

وكذلك إذا دعتك نفسه إلى ما تشتهييه من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتهيت، فإن لذته تنقضي، ويعقبها من التهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي^(٤) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه يجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والسندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يبتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنائيات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هيكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون^(٢) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ وَمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد^(٣) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿بِمَا أَرَأَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيانتها، من مدع ما ليس له، أو منكراً حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من جد أو تعزيز، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول» وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من

(٤) في ب: من.

(٣) في ب: الإرشاد.

(١) في أ: الحاكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والخرمان والإثم والخسران. وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: ﴿وانزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾.

ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعدى وصوله على الأولين والآخرين،

له ويوفقه للتوبة.

وإن صدر منه بتجرته على المحارم، استخفافاً بنظر ربه، وتهاوناً بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة﴾ أي: ذنباً كبيراً ﴿أو إثماً﴾ ما دون ذلك. ﴿ثم يرم به﴾ أن يتهم بذنبه ﴿بريئاً﴾ من ذلك الذنب، وإن كان مذنباً. ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بئناً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموققاتها، فإنه قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة والإثم، ثم زني من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاصد التي نسأل الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر مته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾. وذلك أن هذه الآيات الكريزمات قد ذكر المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبريء صاحبهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من وجدته السرقة بيته، وهو البريء. فهم رسول الله ﷺ أن يسبريء صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات

عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للصراف المستقيم، علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدولها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخرية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنوب أحد، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة دواعي نفسه الأتامة بالسوء، منع إجابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها لتوافق مع ما سبق من الضمان.

(٣) في النسختين: وهذا.

فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في السماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. وقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿والصلح خير﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾. فهذه الأشياء حينما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فلهذا ينبغي للمعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، ولتيم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية خصلت، واقترن بها ما يمكن من العمل.

﴿١١٥-١١٦﴾ ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضللاً بعيداً﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ بالدلائل القرآنية

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق (١)

وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به، لا يمكن استقصاؤها (٢) ولا يتيسر إحصاؤها (٣)

﴿١١٤﴾ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ من مال أو علم، أو أي: نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتسبيح والتحميد، ونحوه، كما قال النبي ﷺ: ﴿إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة﴾ الحديث.

﴿أو معروف﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرب بالنهاي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي. ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب، يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره،

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَمَاذَا يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ لَوْلَا يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدَوِّنَهُنَّ لَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ أَمْ لَهُمْ مَا تُدْرِكُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَاتٌ فَسَبَّحُوا بُرُوقًا وَسُبَّحُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ إِنَّ اللَّهَ مُضِلُّ السَّالِفِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

والزاهرين النبوية. ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نوله ما تولى﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله. كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾. ويدل مفهومها، على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها، ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبت الطباع، فإن الله لا يولي نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل

(١) في ب: الخلق.

(٢) في النسختين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في النسختين: إحصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

والرسول ﷺ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله فيح ضلال المشركين بقوله:

﴿١١٧ - ١٢١﴾ **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾** لعنة الله وقال لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك ما أوامهم جهنم لا يجدون عنها حيصلاً

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاناً، أي: أوثاناً وأصناماً، مسميات بأسماء الإنثان، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماءها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها بمن يريد لها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفتدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنی والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والافتقار بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!!

والغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾.

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكرًا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فيان تنازعتن في شيء، فردوه إلى الله



مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ونصله جهنم﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿وساءت مصيراً﴾ أي: مرجعاً له ومالاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يخصها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبيراً فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنته القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجمع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

(١) في ب: المرتب.

ومع ذلك^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنة الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على مَنْ تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاة.

وأقسم في موضع آخر ليغوينهم ﴿لأغوينهم أجمعين﴾، إلا عبادك منهم المخلصين. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿ولأضلنهم﴾ أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿ولأمنينهم﴾ أي: مع الإضلال، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم﴾ ﴿وكذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ ﴿قل

هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآية. وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾.

وقوله: ﴿ولأمرتهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنبه بعض ذلك على جميعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. ﴿ولأمرتهم فليغيرن خلق الله﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدرح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهن عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيد، وحبه ومعرفته، فافتستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرمهم^(٣)، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخرسوا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ أي: خسر أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياها!! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولي مولاة وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يعدهم ويمنيهم﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾. فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ الآية. ويخوفهم عند إثارة مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، أولئك ما أوهم جهنم﴾ أي: مَنْ انتقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. ﴿ولا يجنون عنها محيصاً﴾ أي: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسخين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطرمهم.

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم .

ومن كان عمله صالحاً، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و [بعض] الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزي به على عمله، قيضها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الخالين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص .

وقوله: ﴿ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المهرب، إلا ربه ومليكه .

﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى . ولهذا قال: ﴿من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكنباء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبني عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به .

﴿فأولئك﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يدخلون

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يجبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه .

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمان أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: ﴿ليس﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بأمانيتكم ولا أمان أهل الكتاب﴾. والأمان: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها . وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! .

فإن أمان أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى .

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي: دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه . فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي: ذنب كان^(١)، من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزء، قليل أو كثير، دنوي أو أخروي .

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً . فإذا مات من

قبلاً^(١) أي: ﴿آمنوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً . ﴿وعملوا الصالحات﴾ الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح . كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح .

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أحل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلّية، والفواكه المستغرية، والأصوات الشجية، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والخبور، فله ما أحل ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قيلاً .

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها .

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان .

(٣) زيادة من هامش: ب .

الجنة المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً بما عملوه من الخير، بل يجدره كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وهو﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿محسن﴾ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالين:

﴿١٢٦﴾ ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿١٢٧﴾ ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من ولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما فعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ، في حكم النساء المتعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهيًا، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من يتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفریط في حقوقهم، فقال: ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء.

وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تنفق به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿والمستضعفين من ولدان﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من ولدان الصغار، أن تعظوهم حقهم من الميراث

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجهه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجهه الله

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأخط لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يجابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه، وقد

أبيه. ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وما فعلوا من خير﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعبداً أو لازماً، ﴿فإن الله كان به عليماً﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العالمين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشووراً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتقتوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي: إذا خافت المرأة نشووراً زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو السكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يوماً وليلتها لزوجها أو لغيرها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفقرة، ولهذا قال: ﴿والصلح

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يعني الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سمعته﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على التكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته من إحسانه، بسبب من العيد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بناليم العذاب. ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشكروا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضررون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضررون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان

المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهرة وباطنه، فيحفظه لكم، ويمجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قنذهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالتفقه والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تمواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتوهن.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سمعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

خير ﴿ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تعرضوا على قلع هذا الخلق الذي من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حيثئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والمواقفة، لأنه لا يرضيه إلا جمع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظور. أو تحسنوا بفعل

الشامل الصادر من خزائن رحته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل [واحد] منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقتاهم، ومن عليهم بطفه وهداهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين ﴿الغني الحميد﴾!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على

تنفيذه، وتدبيره وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزه عن كل نقص.

﴿١٣٣ - ١٣٤﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ * من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً * أي:

هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ غيركم، هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعابهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويمنلي ولا يهمل.

ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبنا منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿١٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تَعَرَّضُوا فَلِإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قَتَلُوا نَفْسًا بِعَرَفٍ أَوْ فَكَاوِفِ الْأَرْضِ فَكَانَ قَتْلُ النَّاسِ جُرْمًا وَمَنْ أَكْفَرًا فَأَكْفَرًا أَعْيَا النَّاسُ جُرْمًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ تَزِدْ لِلدِّينِ عَلَىٰ الْأَرْضِ شُرُوكًا ﴿١٣٤﴾ وَإِنَّمَا كَرِهْنَا لَكُمْ أَتَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَتَّخِذَ مِنكُمْ مَثَلًا وَتَزِدْ لِجَهَنَّمَ حَبْلًا فَكُلًّا أَتَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَتَّخِذَ مِنكُمْ مَثَلًا وَأَوْصَىٰ آلَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَقُولُوا رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ حَزَبًا لِّدِينِكُمْ وَأَن أَتَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَاسْتَمِعُوا لَهُ يُحْسِنِ صَبْرًا ﴿١٣٥﴾ وَإِنَّمَا كَرِهْنَا لَكُمْ أَتَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَتَّخِذَ مِنكُمْ مَثَلًا وَتَزِدْ لِجَهَنَّمَ حَبْلًا فَكُلًّا أَتَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَتَّخِذَ مِنكُمْ مَثَلًا وَأَوْصَىٰ آلَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَقُولُوا رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ حَزَبًا لِّدِينِكُمْ وَأَن أَتَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَاسْتَمِعُوا لَهُ يُحْسِنِ صَبْرًا ﴿١٣٥﴾

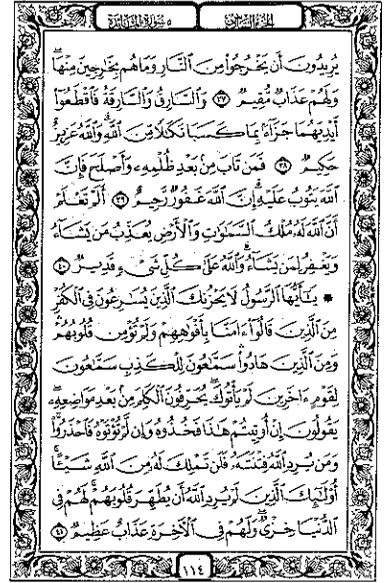
أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في

طاعته. والقسط في حقوق الآدميين، أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك^(١)، كما تطلب حقوقك. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي: وجه كان، حتى على الأحباب بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ اللَّهِ لَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق، على من كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه،

(١) في النسخين: الذي عليك.



ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نهى تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه، وفق للحق، وهدى إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط، نهى عن ما يصاد ذلك، وهو لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا، من البلي، لأنه الانحراف عن الحق.

﴿أو تعرضوا﴾ أي: تركوا القسط المنوط بكم، كتترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه، الذي يجب عليه القيام به.

﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم

خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل، أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

﴿١٣٦﴾ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً

اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمراً له بالدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم﴾ الآية.

وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات. ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.

﴿١٣٨ - ١٣٩﴾ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً

ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وأمر هنا بالإيمان به ورسوله، وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن بهذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح. ﴿ومن

وهذا هو الواقع من أحوال

بشر المنافقين

المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء، يتعززون بهم ويستنصرون.

والحال أن العزة لله جميعاً، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم. وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالات الكافرين؛ وترك موالات المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿١٤٠ - ١٤١﴾ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يترصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها﴾ أي: يستهان بها. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، ففسد الإيمان الكفر بها، وفسد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المتدعون على اختلاف

أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله، لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق، التي يستهان فيها بأمر الله ونواهيه، وتفتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

﴿إنكم إذا﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿مثلهم﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلساً يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم، مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالات ولا ينفع الكافرين مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر تحقيق موالات المنافقين للكافرين، ومعادتهم للمؤمنين فقال: ﴿الذين يترصون بكم﴾ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها، من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم. ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ليسلموا من القدر والظمن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء، وليتصروا بهم.

﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم يقل فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون، أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله. فإذا كان ذلك ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: نستولي عليكم ﴿ونمنعكم من

سَعُرَتِ لِلْكَافِرِ أَكْبَرُ لِلسُّعْتِ وَإِنْ جَاءَكَ فَاتَّخِذْهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً فَإِنْ حَكَمْتَ فَأَنْصَبْ يَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقِسْطِيَّةَ ﴿١٤٠﴾ وَكَفَّ بِحُكْمِكَ وَعَبَدَ الْتَوْبَةَ فِيهَا حُكْمٌ اللَّهُمَّ بَرِّئُوكَ مِنْ بَعْدِكَ وَمَا أَوْلَيْتَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيكَ هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمِهَا الْقُرْآنُ الَّذِيكَ أَسْمَعُ لِلَّهِ يَدْعُوا وَارْتَبِطُوكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَا اسْتَغْفِرُونَ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ شَهَادَةً فَلَا تَحْسَبَنَّ النَّاسَ أَنَّهُمْ يُفْعَلُونَ وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُتَّقُونَ إِنَّمَا تَحْسَبَنَّ أَنَّهَا حَسْبُكَ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيكَ وَمَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ فَأَلَيْتِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤٢﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ وَالنَّسْرَ وَالْعُرْفَ وَالْأَعْيُنَ وَالْأَنْفَ وَالْأَذْنَ وَاللِّسَانَ وَالْأَرْحَامَ وَمَنْ صَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمَّ يَكْفُرْ بِمَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ فَأَلَيْتِكَ هُمُ الْفٰلِقِينَ ﴿١٤٣﴾

١٤٥

المؤمنين﴾ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تنفيذهم، وتزهدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان. حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز الثام من الله، فله (٣) الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ مذبذبين

(٣) في ب: فله.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: المنافقين.



بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهره من الإيمان، وأبطنه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. وأي: خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والخرمان؟!!

ويدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إذا قاموا إلى الصلاة﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، ﴿قاموا كسالى﴾

(١) في ب: والله.

متشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، ﴿يراؤون الناس﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله فل هذا

﴿لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ لا امتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن متلى قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مابذيين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: لن تجد طريقاً لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختار أيهما أولى به، وبالله^(١) المستعان.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن

﴿تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أئذرتنا وحذرتنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفسد، فسلكوها بعد هذا موجب للعقاب. وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً. ﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً* ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً* يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من آمن بالله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وأصلحوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿واعتصموا بالله﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وأخلصوا دينهم﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لله﴾.

فقصدا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة. ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لا يعلم كنهه

إليه، فلماذا قال: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستاره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يعيننا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض وتكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً * هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمانى. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله، لأن ذلك من تمام تولى، ومن عادى أحداً من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله كما قال تعالى: ﴿من كان عدواً لله﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل الطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعتراؤه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً﴾ إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴿يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين. وقوله: ﴿إلا من ظلم﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويشتكى^(٢) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السنيء والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فأحذروا أن تتكلموا بما يبغض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عليم﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إن تبدوا خيراً أو تحفوه﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أو تعفوا عن سوء﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل: فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله

إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وأصلحوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الخرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص مناب كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال:

﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخِل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تدرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاث يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالثائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال:

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم. وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأى: شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

(١) في ب: يرتب.

(٢) في ب: ويشتكى.

عباناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالقوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصابيوه، والخال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصابيوه.

وادعاهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدورهم عن الحق، ودعورهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي. وبأخذهم السبت والربا مع نبي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقم باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً * هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والافتراء، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدين، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً».

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثله، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: «وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً» كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

«والذين آمنوا بالله ورسله» وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. «ولم يفرفروا بين أحد من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

«أولئك سوف يؤتيهم أجورهم» أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، «وكان الله غفوراً رحيماً» يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿١٥٣ - ١٦١﴾ «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرننا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فيما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بيتاً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

به، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لنبوته محمد ﷺ. ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يسبها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق بسبها.

عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فممنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم وديارهم.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا يرفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم!! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

﴿١٦٢﴾ ولكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتيتهم أجراً عظيماً﴾ لما ذكر معايب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لكن الراسخون في العلم﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنتمز لهم الإيمان التام العام ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾. وأنتمز لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وأمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد.

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟ وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

﴿أولئك سنوتيتهم أجراً عظيماً﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسول السابقة واللاحقة. ﴿١٦٣ - ١٦٥﴾ ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا

منها: أن محمداً ﷺ ليس يبدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَادٍ أَصْحَابَ الْهَدْيِ وَالصَّوْمِيُّ إِلَى اللَّهِ عَسَى أَن يَأْتِيَهُمُ الْغَيْبُ مِنْ غَيْرِ حَسَبٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتيتهم أجراً عظيماً﴾ ﴿لكن الراسخون في العلم﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنتمز لهم الإيمان التام العام ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾. وأنتمز لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وأمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد.

العدد الكثير والجم العفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد. ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً. ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بياخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكاذبين، ولا بالملوك الظالمين. ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والشناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهم، واستئناساً بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ ﴿سلام على إبراهيم﴾ ﴿سلام على موسى وهارون﴾ ﴿سلام على إيل ياسين﴾، إنا كذلك نجزي المحسنين. فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه. والرسول - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان. ولما ذكر اشتراكهم بوجبه، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، المزبور

الحمد وله الشكر . ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦٦﴾ ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ ما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أنزله بعلمه﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتقاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبية على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه وإستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويحيب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم وجلالة هذا المشهود عليه.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ وكفى بالله شهيداً.

﴿١٦٧ - ١٦٩﴾ ﴿إن الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم، ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾. وأي: ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين، ورجع بالخصارتين، وفاته الهديتان، ولهذا قال: ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراف المستقيم. ولهذا قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم﴾ وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وما ريك بظلام للعبيد﴾.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعاب، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب المرجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره



الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير﴾.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضى ربه ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله

فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، يعيسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنما الله إله واحد﴾ أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس، أن يكون له ولد، لأن ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعاً﴾ فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. فنزههم عن الاستكفاف، وتزبيهم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوا وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفع عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأموره وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهاى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل الثواب.

وأنه ﴿كلمته﴾ التي ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم وعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصرط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أديانهم وقلوبهم وأرواحهم، وديانهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، واللجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء ﴿حكيماً﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

أي: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْتَصِمْ بِهِ وَيَتَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ، مَنَعَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَحَرَمَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَخَلَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَهْتَدُوا، بَلْ ضَلُّوا ضَلَالًا لَا مَبِيئًا، عَقُوبَةُ لَهُمْ عَلَى تَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ، فَحَصَلَتْ لَهُمُ الْخِيْبَةُ وَالْحَرَمَانُ، نَسَأَهُ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمَعَافَاةَ .

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرٌؤُ هَلِكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَى بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَهُ ﷺ أَي: فِي الْكَلَالَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وَهِيَ الْمَيْتُ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ صَلْبٌ وَلَا وَلَدٌ ابْنٌ، وَلَا أَبٌ، وَلَا جَدٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ أَمْرٌؤُ هَلِكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَي: لَا ذَكَرٌ وَلَا أَنْثَى، لَا وَلَدٌ صَلْبٌ وَلَا وَلَدٌ ابْنٌ .

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وله أخت﴾ أَي: شَقِيْقَةٌ أَوْ لَأَبٌ، لَا لَأُمٍّ، فَإِنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ حُكْمُهَا. ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أَي: نِصْفُ مَمْرُوكَاتِ أَخِيهَا، مِنْ نَقُودٍ وَعَقَارٍ وَأَثَاثٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الدِّينِ وَالْوَصِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ .

﴿وهو﴾ أَي: أَخُوهَا الشَّقِيْقُ، أَوْ الَّذِي لِلْأَبِ ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض .

﴿فإن كانتا﴾ أَي: الْأَخْتَانِ ﴿اثنتين﴾ أَي: فَمَا فَوْقَ ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً أَي: اجْتَمَعَ الذُّكُورُ مِنَ الْإِخْوَةِ لِغَيْرِ أُمٍّ مَعَ الْإِنَاثِ ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فَيَسْقُطُ فَرْضُ الْإِنَاثِ وَيَعْصِبُهُنَّ إِخْوَتُهُنَّ .

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أَي:

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴿يمتن تعالی على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أَي: حُجُجٌ قَاطِعَةٌ عَلَى الْحَقِّ تَبَيَّنَتْهُ وَتَوَضَّحَتْ، وَتَبَيَّنَ ضَدُّهُ .

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ .

وفي قوله: ﴿من ربكم﴾ مَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْبِرْهَانِ وَعَظَمَتِهِ، حَيْثُ كَانَ مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي رِبَاكُمُ التَّرْبِيَّةُ الدِّينِيَّةُ وَالذَّنْبِيَّةُ، فَمَنْ تَرَبَّيْتُمْ لَكُمْ الَّتِي يَحْمَدُ عَلَيْهَا وَيَشْكُرُ، أَنْ أَوْصَلَ إِلَيْكُمْ السَّبِيْنَاتِ، لِيَهْدِيَكُمْ بِهَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْوَصُولِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الَّذِي قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ النَّافِعَةِ، وَالْأَمْرِ بِكُلِّ عَدْلٍ وَإِحْسَانٍ وَخَيْرٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ ظُلْمٍ وَشُرٍّ، فَالْنَّاسُ فِي ظِلْمَةٍ إِنْ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَنْوَارِهِ، وَفِي شِقَاءٍ عَظِيمٍ إِنْ لَمْ يَقْتَسِبُوا مِنْ خَيْرِهِ .

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ أَي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿واعتصموا به﴾ أَي: لَجَأُوا إِلَى اللَّهِ وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ، وَتَبَرَّؤُوا مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوتِهِمْ، وَاسْتَعَانُوا بِرَبِّهِمْ. ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أَي: فَسَيَتَّعَمَدُهُمْ بِالرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ، فَيُوفِّقُهُمْ لِلْخَيْرَاتِ، وَيَجْزِلُ لَهُمُ الْمُثُوبَاتِ، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْجَلْبَابَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ .

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ أَي: يُوَفِّقُهُمْ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَالْعَمَلَ بِهِ .

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار .

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أَي: فَسَيَحْشُرُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَيْهِ، الْمُسْتَكْفِرِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ، وَعِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِ الْعَدْلِ، وَجَزَائِهِ الْفُضْلِ .

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أَي: جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ وَاجِبَاتٍ وَمُسْتَحَبَاتٍ، مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ .

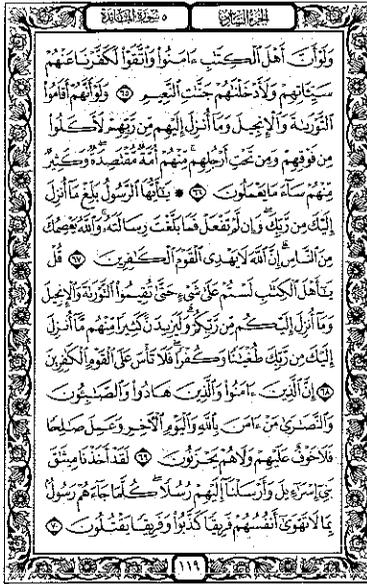
﴿فيوفئهم أجورهم﴾ أَي: الْأَجُورَ الَّتِي رَتَبَهَا عَلَى الْأَعْمَالِ، كُلَّ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ .

﴿ويؤيدهم من فضله﴾ مِنْ الثُّوَابِ الَّذِي لَمْ تَنْلِهِ أَعْمَالُهُمْ، وَلَمْ تَصَلِّ إِلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ، وَلَمْ يَحْطُرْ عَلَى قُلُوبِهِمْ . وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاسِكِ، وَالْمَنَاطِرِ، وَالسَّرُورِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، وَنَعِيمِ الْبَدَنِ، بَلْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلِّ خَيْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ رَتَبَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ أَي: عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ وَهُوَ سَخَطُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ، وَالنَّارُ الْمَوْقُودَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَقْتَدَةِ .

﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أَي: لَا يَجِدُونَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَحْصِلُ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، وَلَا مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَرْهُوبُ، بَلْ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَتَرَكَهُمْ فِي عَذَابِهِمْ خَالِدِينَ، وَمَا حَكَمَ بِهِ تَعَالَى فَلَا رَادَ لِحُكْمِهِ، وَلَا مَغْيِرَ لِقَضَائِهِ .

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ



وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها. (١)

ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أحلّت لكم﴾ أي: لأجلكم، رحمة بكم ﴿بهيمة الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحر الوحش، ونحوها من الصيود.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تدبح.

﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثني منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، أي: متجرؤون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم، فإن ذلك لا يجزئ لكم إذا كان صيداً، كالظباء ونحوه.

والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش.

﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ أي: فمهما أَرَادَهُ تَعَالَى حَكَمَ بِهِ حَكْماً مُوَاظِئاً لِحُكْمَتِهِ، كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم. وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرّم عليكم ما استثني منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صنواً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام وإعظماً.

﴿٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يحرمكم

يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبل، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء
فله الحمد والشكر

تفسير سورة المائدة وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقضها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوها، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتألف بين المسلمين وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين

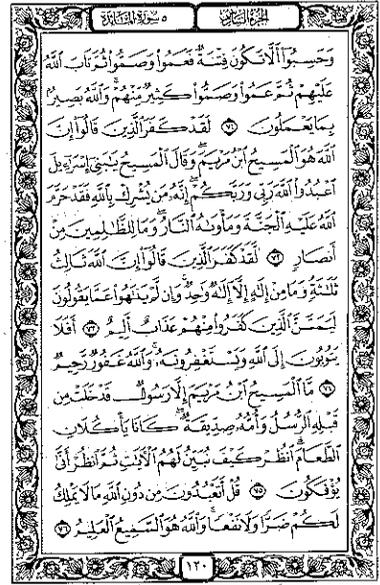
شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي، عن فعل القبيح، وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم. ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فإذا نسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقاً.

(١) في هامش أما نصه: (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تعتقد بما دل عليها من قول أو فعل

لإطلاقها) وليس هناك علامة تدل على موضع الزيادة. ويبدو أن موضعها هنا - والله أعلم -



وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحلوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدى ولا القلائد﴾ أي: ولا تحلوا الهدى الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يفتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، ويعرف أنه هدى فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة.

﴿ولا أمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له «يتفتنون فضلاً من ربهم ورضواناً» أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصدته فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصدته رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تعترضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموه، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدق من هذه حالة عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وإذا حللستم فاصطادوا﴾ أي: إذا حللستم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾

أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جنى عليه أو ظلم واعتدى عليه، فلا يحمل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يجون من خانه.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الأدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجرد على المعاصي التي ياتم صاحبها، ويخرج: ﴿والعدوان﴾ وهو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واقفوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتجراً على مجارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحمل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ الْحَمِيزُ وَالْمَيْتَةُ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ فِي حَرْفٍ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ أَلْسِنَةَ أُمَّةٍ وَمَا يَكُونُ لِيَوْمٍ مِنَ الْيَوْمِ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

في قوله: ﴿إلا ما ينزل عليكم﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يجرم ما يجرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا يبين.

فأخبر أنه حرم «الميتة» والمراد

بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضربها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بأكلها. وكثيراً ما تموت بعلّة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالأكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسّمك، فإنه حلال.

﴿والدم﴾ أي: المنفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿ولحم الخنزير﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصراني يزعمون أن الله أحله لهم.

أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

﴿والمنخنقة﴾ أي: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتمعجز عن إخراجها حتى تموت.

﴿والموقوذة﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد.

﴿والمتردية﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

﴿والمأكلة﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد.

﴿والمتردية﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

﴿والنطيحة﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

﴿وما أكل السبع﴾ من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

وقوله: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ راجع لهذه المسائل، من منخنقة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكأها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة^(١)].

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القدام المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القادحين فيعمل به.

فحرمه^(٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

﴿٣﴾ ﴿اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يسئوا كل السئ من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عربان.

ولهذا قال: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يتم النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله.

﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فمن اضطر﴾ أي: الجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم.

﴿٥﴾ ﴿٥﴾ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿٥﴾ كرر تعالى لإحلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿٥﴾ ﴿٥﴾ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴿٥﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالخبوب والشمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغضب، ولا من المسلمين.

﴿٥﴾ ﴿٥﴾ وطعامكم ﴿٥﴾ أيها المسلمون ﴿٥﴾ حل لهم ﴿٥﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿٥﴾ ﴿٥﴾ أحل لكم ﴿٥﴾ المحصنات ﴿٥﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿٥﴾ من المؤمنات ﴿٥﴾ والحرائر العفيفات ﴿٥﴾ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴿٥﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعال: ﴿٥﴾ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴿٥﴾

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿٥﴾ من الجوارح ﴿٥﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بشقله لم يباح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبيائها أو مخالبيها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكوااسب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -] ﴿٥﴾

الزابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحتها صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقتراب، فقال: ﴿٥﴾ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴿٥﴾

السابقة، في قوله: ﴿٥﴾ حرمت عليكم الميتة ﴿٥﴾ ﴿٥﴾ في حمصة ﴿٥﴾ أي: جماعة ﴿٥﴾ غير متجانف ﴿٥﴾ أي: مائل ﴿٥﴾ لأنهم بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿٥﴾ فإن الله غفور رحيم ﴿٥﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ ﴿٤﴾ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴿٤﴾ يقول تعالى لنبه محمد ﷺ: ﴿٤﴾ يسألونك ماذا أحل لهم ﴿٤﴾ من الأطعمة؟ ﴿٤﴾ قل أحل لكم الطيبات ﴿٤﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الخبوب والشمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والحيات منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الحيات، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿٥﴾ ويجعل لهم الطيبات ويحرم عليهم الحيات ﴿٥﴾.

﴿٥﴾ ﴿٥﴾ وما علمتم من الجوارح ﴿٥﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخليه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعدد في الحرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿٥﴾ تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم ﴿٥﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يباحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يبين لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ الآية.

وقوله: ﴿إذا أتيتموهن أجورهن﴾ أي: أبحنا لكم نكاحهن، إذا أعطيتموهن مهرهن، فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له. وأمر بإيئانها إذا كانت رشيدة تصلح للإيئان، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرها. ﴿محصنين غير مسافحين﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿غير مسافحين﴾ أي: زانين مع كل أحد ﴿ولا متخذين أهدان﴾. وهو: الزنا مع العشيقات لأن الزناة في الجاهلية، منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع خدنه وعبيه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ أي: ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿أي: الذين

خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم

إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي: بقصدتها ونيتها.

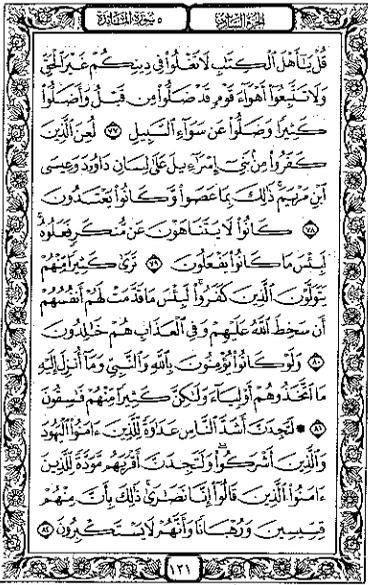
الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر بالوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند زيادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنائز، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً. ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه.



لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين و"إلى" كما قال جمهور المفسرين بمعنى "مع"، كقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجمع الرأس.

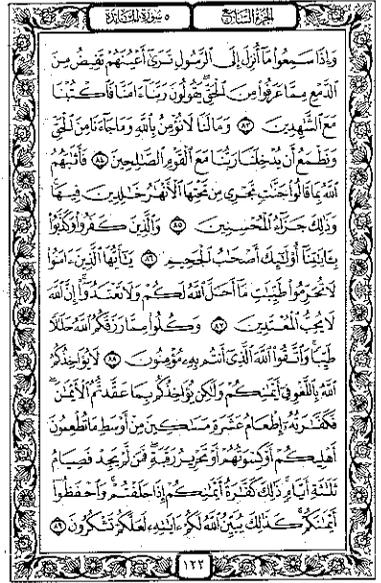
الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحدهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح ولم يقيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الراضية، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامت مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح



الخفين، على قراءة الجسر في وأرجلكم.

وتكون كل من القراءتين، محمولة على معنى، فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة. ولأنه أدخل ممسوحاً - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية.

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمين واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمين على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على من أنزل المنى يقظة أو نائماً، أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بطلاً، فإنه لا يغسل عليه، لأنه لم يتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر منة الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء، فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول الضرر به، وبقائها يجوزه العدم للماء ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السبيلين من بول وغائط، ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدلال بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عما يستقذر التلطف به^(١)، لقوله تعالى: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم

لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء. الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه، لأنه لا يقال «لم يجد» لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات، مقدم على التيمم، أي: يكون طهوراً، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾.

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم لقوله: ﴿فتيمموا﴾ أي: اقصداوا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره. فيكون على هذا، قوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾

إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيباً بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط، دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿بوجوهكم﴾ شامل لجميع الوجه وأنه يعمم^(٢) بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك.

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: يعمه.

(١) كذا في ب، وفي أ: فيه.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء] (١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر المسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، ولتيم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي وانقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿١﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه ﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي وانقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتها، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، وبحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنظوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴿٩﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا ﴿بما أمرنا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة

وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يمحلمنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرا وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴿١٠﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف الوعد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به ويكتبه ورسله اليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها، وبالآجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾. ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

إذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعيدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأدخلكم الجنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ ﴿١٣﴾ فيما نقصهم ميثاقهم لغناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴿١٤﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعوهم.

﴿وقال الله﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لمستحقيها ﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعزتموه﴾ أي: عظمتهموه، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالأمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أننا ﴿لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والندر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتفسير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتبهم [عن] من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به خطأ، لأنه هو أعظم الخطوط، وما عداه وإنما هي خطوط دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما

أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم ﴿ وقال في الحظ النافع ﴾ : ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ .

وقوله : ﴿إلا قليلاً منهم﴾ أي : فإنيهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوقتهم وهادهم للصراف المستقيم .

﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أي : لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذي يقتضي أن يعفى عنهم، واصفح، فإن ذلك من الإحسان ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ والإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك .

وفي حق المخلوقين : بذل النفع الديني والدنيوي لهم .

﴿١٤﴾ ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون﴾ أي : وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاؤوا به، فتقضوا العهد، ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾ نسياناً علمياً، ونسياناً عملياً .

﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي : سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، وهذا أمر مشاهد، فإن النصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق . ﴿وسوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون﴾ فيعاقبهم عليه .

﴿١٥-١٦﴾ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين يدي لكم كثيراً فما كنتم تحفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب

من اليهود والنصارى، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي : أنه بين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالخريف على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثفونه بينهم، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل

صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك .

﴿يعفو عن كثير﴾ أي : يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة .

﴿قد جاءكم من الله نور﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعمية الضلالة .

﴿وكتاب مبين﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم . من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية .

ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال : ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ أي : يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً - سبيل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً .

﴿ويخرجهم من الظلمات الكفر والبُعدَة والمعصية، والجهل والغفلة . إلى نور الإيمان والسُنَّة، والطاعة، والعلم، والذكر .

وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن . ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ .

﴿١٧-١٨﴾ ﴿لقد كفر الذين

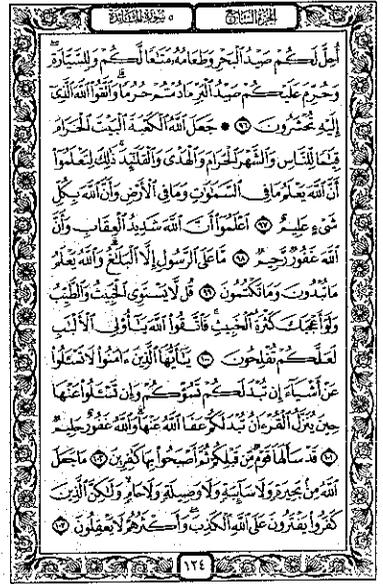


قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير * وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة .

فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل . مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم، وآدم أولى منه، خلقت بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوا في المسيح؟

فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة . فردَّ الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال : ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ .

فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم بمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم،



من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح .
قال الله ردأ عليهم حيث ادعوا بلا برهان : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ ؟ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم لالكون الله لا يجب إلا من قام بمراضيه ^(٢) .
﴿ بل أنتم بشر من خلق ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب ، ﴿ والله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ أي : فأى شيء خصكم بهذه الفضيلة ، وأنتم من جملة الممالِك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .
﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿ فترة من الرسل ﴾ وشدة حاجة إليه .
وهذا مما يدعو إلى الإيمان به ، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية .
وقد قطع الله بذلك حججهم ، لئلا يقولوا : ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ . يشر بالثواب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها . وينذر بالعقاب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها .
﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته ، فلا يستعصي عليه شيء منها ، ومن قدرته أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنه يشيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم .

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴿ إلى آخر القصة ^(٣) . لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم ، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومنساكنهم ، وهي بيت المقدس وما حواليه ، وقاربوا وصول بيت المقدس ، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم . فوعظهم موسى عليه السلام ؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ بقلوبكم وألسنتكم . فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ، ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ يدعو نكم إلى الهدى ، ويحذرونكم من الردى ، ويحثونكم على سعادتهم الأبدية ، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ تملكون أمركم ، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم ، فكنتم تملكون أمركم ، وتمتكون من إقامة دينكم .
﴿ وآتاكم ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿ ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق ، وأكرمهم على الله تعالى . وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم . فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية ، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم على الجهاد ، وإقدامهم عليه ، ولهذا قال : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ أي : المطهرة ﴿ التي كتب الله لكم ﴾ . فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم ، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله ، وأنه قد كتب الله لهم دخولها ، وانتصارهم على عدوهم .
﴿ ولا تتردوا ﴾ أي : ترجعوا ﴿ على أديباركم ، فتقلبوا خاسرين ﴾ قد

ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ، ولا في قوته شيء من الفكاك .

ومن الأدلة أن ﴿ الله ﴾ وحده ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي ، وهم مملوكون مدبرون ، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير ، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه ؟ هذا من أعظم المحال .

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب ، فإن الله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ إن شاء من أب وأم ، كسائر بني آدم ، وإن شاء من أب بلا أم ، كحواء . وإن شاء من أم بلا أب ، كعيسى . وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم] ^(١) .

فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة ، التي لا يستعصي عليها شيء ، ولهذا قال : ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ .

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة ، يزكون بها أنفسهم ، بأن قال كل منهما : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ .

والابن في لغتهم هو الحبيب ، ولم يربدوا النبوة الحقيقية ، فإن هذا ليس

(١) زيادة من هامش ب .

(٢) زيادة من هامش ب .

(٣) في ب : كتب الآيات إلى قوله : ﴿ فلا نأس على القوم الفاسقين ﴾ .

خسرتم دنياكم بما فاتكم من التصرف على الأعداء وفتح بلادكم. وأخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب، فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾ شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

﴿وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾. وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعمته الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعداً خاصاً.

﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد، فقالوا: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصراً على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينبعج فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذليين: ﴿يا موسى، إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾.

فما أشنع هذا الكلام منهم،

ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرته نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخصناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ﴿قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوة موسى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يبتدون إلى طريق ولا يفسقون مطمئتين، وهذه عقوبة دينوية، لعل الله تعالى كفرها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه

فَأَذَلَّتْ لَهُمْ مَا نَالُوا مِنَ تَأْتِيلِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَوْحَيْنَاكَ مَا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِنَا أَنْ تَأْتِيَهُمْ لَاجِلُهُمْ فَاعْلَمُوا نَسِيحَ وَالْأَجْرُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلِمُوا نَسِيحًا لَا يَبْغُونَ مِنْكَ جُنَاحَ مَا تَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا تَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا وَإِنْ حَضَرَ أَكْثَرُ فَزَيَّلُوا وَإِنْ هُجِرَ فَتَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا وَإِنْ حَضَرَ أَكْثَرُ فَزَيَّلُوا وَإِنْ هُجِرَ فَتَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا وَإِنْ حَضَرَ أَكْثَرُ فَزَيَّلُوا وَإِنْ هُجِرَ فَتَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا وَإِنْ حَضَرَ أَكْثَرُ فَزَيَّلُوا وَإِنْ هُجِرَ فَتَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا وَإِنْ حَضَرَ أَكْثَرُ فَزَيَّلُوا وَإِنْ هُجِرَ فَتَعَدَّى إِلَى آلِهِمْ كَمَا جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ فَاعْلَمُوا نَسِيحًا

المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألقت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها هم ترقبها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذلل المنع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه، وأنه ربما راق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: ﴿فلا تأسف على القوم الفاسقين﴾ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً منا.

﴿٢٧ - ٣١﴾ ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ إلى آخر القصة (١). أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقاً لا كذباً، وجداً لا لعباً، والظاهر أن ابني آدم هما إناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تربيتهما للقربان، الذي أداهما إلى الحال

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فأصبح من التادمين﴾.

معه داع يدعوه إلى التبين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأشارة بالسوء. فتجرؤه على قتله، كأنه قتل الناس جميعاً. وكذلك من أحياناً نفساً أي: استبقى أحداً، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحياناً الناس جميعاً، لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل. ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين:

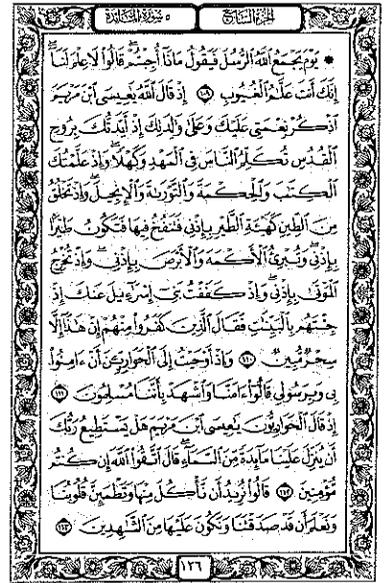
إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه محل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده أديان الناس أو أبادتهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصلون على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم. ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات التي لا يبقى معها حجة لأحد. ثم إن كثيراً منهم أي: من الناس بعد ذلك البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض لمسرفون في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ وإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم جزاء في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم. المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض

وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتحافه. ﴿إني أريد أن تبوء﴾ أي: ترجع ﴿بإثمي وإثمك﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني فإني أؤثر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين ﴿فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ دل هذا على أن القتل من كياتر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار. فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه. ﴿فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ دنياهم وأخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل. ﴿ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾.

ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمه»، لأنه أول من سن القتل. فلما قتل أخاه لم يدرك كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم فبعث الله غراباً يبحث في الأرض. أي: يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً. ﴿ليريه﴾ بذلك ﴿كيف يوارى سوء أخيه﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عبوة النادمين. وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿٣٢﴾ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون يقول تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾ الذي ذكرناه في قصة بني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة، ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض﴾ أي: بغير حق ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾؛ لأنه ليس



المذكورة.

﴿إذ قربا قرباناً﴾ أي: أخرج كل منهما شيئاً من ماله لتقصد التقرب إلى الله، ﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه. ﴿قال﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وغبياً ﴿لاقتلتك﴾. فقال له الآخر - مترفقاً له في ذلك - ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فأبى: ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وعلى كل أحد، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له غبياً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة فقال: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني، ما أنا بساط يدي إليك لأقتلك﴾ وليس ذلك جيناً مني ولا عجزاً. وإنما ذلك لأنني ﴿أخاف الله رب العالمين﴾ والخائف لا يقدم^(١) على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار. وفي هذا تحوير لمن يريد القتل،

(١) في ب: لا يقوم.

بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والسوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتقطع بذلك. فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقها لحكمة الله تعالى. وأهم إن قتلوا وأخذوا مالا لا تحتتم قتلهم واصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم.

وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا لا تحتتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا، نفوا من الأرض، فلا يتركون يأرون في بلد حتى تظهر تربتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذلك﴾ النكال ﴿لهم خزي في الدنيا﴾ أي فضيحة وعار ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ورسوله.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده

إفساد في الأرض.

﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ أي: من هؤلاء المحاربين، فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴿أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الأدمي أيضاً، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلماً فإن حق الأدمي، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليهم، تمنع من إقامة الحد في الحاربة، فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه - من باب أولى.

﴿٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴿هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يمتهد العبد، ويبدل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة. ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه.

﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة والحج. والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله. ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها] ويستجيب الله له الدعاء.

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات



المقربة إليه، الجهاد في سبيله، وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات.

ولأن من قام به، فهو على القيام بغيره أحرى وأولى ﴿لعلكم تفلحون﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله، بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته.

والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل مرهوب، فحقيقته السعادة الأبدية والتعيم المقيم.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب عظيم ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه ما تقبل منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات، ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجه للذاتم الذي لا يخرجون منه أبداً، بل هم ماكثون فيه سرمداً.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ والسارق والسارقة



منه، وذلك أن يكون المال محرزاً، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية .

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب .

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت عنه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجلاه اليسرى، فإن عاد، فقيل: تقطع يده اليسرى، ثم رجلاه اليمنى، وقيل: يجبس حتى يموت .

وقوله: ﴿جزاء بما كسبنا﴾ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس .

﴿نكالا من الله﴾ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا .

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: عز وحكم قطع السارق .

﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله (١) ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته .

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم توتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن ملئك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ سماعون

للكذب أكالون للمسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والزياتيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * كان

الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء . فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير . إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيئاً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ فإن الذين (٢) يؤسى ويحزن عليهم، من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وخاشعاً لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويزنوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يخ به بدلاً .

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: اليهود ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغنى . وهؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لم يأتوك﴾ بل الباطل وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أرادها الله . ولا قصدتها، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المنقادون للدغاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير * السارق * هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه . وهو من كباثر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة .

وجد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسنت في زيت لتتسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه :

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة . فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه .

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصيباً، وهو ربح دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه .

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز

(٢) كذا في ب، وفي أ: الذي .

(١) في ب: الله له .

وَيُؤْتِيكَ مَلَكًا لِيَمْسَكَ بِرِجْلِكَ لِئَلَّا يَتَّعَبَهُ
 مَا يَشْرِيكَ ﴿١٦٦﴾ وَقَدْ آتَيْنَاهُ فِي رِشَابٍ مِنْ قَبْلِكَ فَمَنْ
 بِالْبَيْتِ سَجُودًا ثُمَّ مَا كُنْتَ نَازِيهًا بِهِ لَتَمُوتُنَّ ﴿١٦٧﴾
 قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْفُرِينَ ﴿١٦٨﴾ قُلْ إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٦٩﴾
 كَذَّبَ عَنْ تَنْزِيلِهِ الرِّسْمَةَ أَيَسَمَلَلُ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
 لَنَدِبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٠﴾
 ﴿١٧١﴾ وَمَا مَسْكُونٌ فِي الْأَيْلِ وَالْجَبَلِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧٢﴾
 قُلْ لَقَدْ أَنذَرْتُكُمْ قَائِلًا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُؤْتِيكُمْ
 وَالْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْتُمْ
 وَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧٣﴾ قُلْ إِنِّي لَأَمْلَأُ جَهَنَّمَ
 عَصَبًا مِنْ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٤﴾ مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ
 ذُرِّيَّتَهُ فَإِنَّكَ بِهَا أَسْفَرٌ ﴿١٧٥﴾ وَلَا تَمَسَّكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ
 فَلَا كَيْفَ لِيُقَدِّمَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُؤَخِّرْهُ وَلَهُ أَجْرُ
 عِزِّهِ ﴿١٧٦﴾ وَهُوَ الْقَائِمُ يُوقِظُ الْعَادِيَّةَ وَهُوَ الْحَكِيمُ
 الْخَبِيرُ ﴿١٧٧﴾

١٦٦

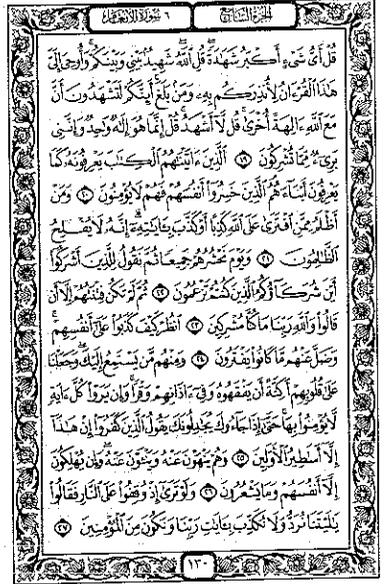
وضياء وذكرًا للمتقين ﴿ يحكم بها ﴾
 بين الذين هادوا، أي: اليهود في
 القضايا والفتاوى ﴿ النبيون الذين
 أسلموا ﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين
 إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم،
 وهم صفة الله من العباد. فإذا كان
 هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد
 اقتدوا بها واثمروا ومشوا خلفها، فما
 الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من
 الاقتداء بها؟
 وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا
 أشرف ما فيها من الإسمان
 بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل
 ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل
 لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم
 التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم
 بين الناس، والتأكل بكتمان الحق،
 وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال
 الذين يدعون إلى النار.
 وقوله: ﴿ والربانيون والأخبار ﴾
 أي: وكذلك يحكم بالثورة للذين
 هادوا أئمة الدين من الربانيين، أي:
 العلماء العاملين المعلمين الذين يربون
 الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم
 مسلك الأنبياء المشفقين.
 والأخبار أي: العلماء الكبار الذين
 يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم
 لسان الصدق بين أمهم.

ولست هذه منسوخة، فإنه - عند
 تحاكم هذا الصنف إليه - يجير بين أن
 يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم
 بينهم، بسبب أنه لا قصد لهم في
 الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقا
 لأهوائهم، وعلى هذا فكل مستفت
 ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله إن
 يحكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا
 الإفتاء لهم، فإن حكم بينهم وجب أن
 يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿ وإن
 تعرض عنهم فلن يضروك شيئا، وإن
 حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله
 يحب المقسطين ﴾. حتى ولو كانوا ظلمة
 وأعداء، فلا يمنحك ذلك من العدل
 في الحكم بينهم.

وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط
 في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى
 يحبه.
 ثم قال متعجبا لهم^(١): ﴿ وكيف
 يحكمونك وعندهم التوراة فيها
 حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك وما
 أولئك بالمؤمنين ﴾ فإنهم - لو كانوا
 مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان
 ويوجبه - لم يصدفوا عن حكم الله
 الذي في التوراة التي بين أيديهم،
 لعلهم أن يجدوا عنديك ما يوافق
 أهواءهم.
 وحين حكمت بينهم بحكم الله
 الموافق لما عندهم أيضا، لم يرضوا بذلك
 بل أعرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضا.
 قال تعالى: ﴿ وما أولئك ﴾ الذين
 هذا صنيعهم ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي: ليس
 هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين
 بالإيمان. لأنهم جعلوا آلهتهم
 أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة
 لأهوائهم.
 ﴿ إنا أنزلنا التوراة ﴾ على موسى بن
 عمران عليه الصلاة والسلام. ﴿ فيها
 هدى ﴾ يهدي إلى الإيمان والحق،
 ويعصم من الضلالة ﴿ ونور ﴾ يستضاء
 به في ظلم الجهل والخيرة والشكوك،
 والشبهات والشهوات، كما قال تعالى:
 ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان

هم. فلا تبال أيضا إذا لم يتبعوك،
 لأنهم في غاية النقص، والناقص
 لا يؤبه له ولا يبالي به.
 ﴿ يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن
 لم تؤتوه فاحذروا ﴾ أي: هذا قولهم عند
 محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع
 الهوى.
 يقول بعضهم لبعض: إن حكم
 لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق
 أهواءكم، فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم
 لكم به، فاحذروا أن تتابعوه على
 ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوى
 الأنفس.
 ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له
 من الله شيئا ﴾ كقوله تعالى: ﴿ إنك
 لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي
 من يشاء ﴾.
 ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر
 قلوبهم ﴾ أي: فلذلك صدر منهم ما
 صدر. فدل ذلك على أن من كان
 مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي
 اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي،
 وإن لم يحكم له سخط، فإن ذلك من
 عدم طهارة قلبه، كما أن من حاكم
 وتحاكم إلى الشرع ورضي به، وافق
 هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب،
 ودل على أن طهارة القلب، سبب لكل
 خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد
 وعمل سديد.
 ﴿ لهم في الدنيا جزى ﴾ أي:
 فضيحة وعار ﴿ ولهم في الآخرة عذاب
 عظيم ﴾ هو: النار وسخط الجبار.
 ﴿ سماعون للكذب ﴾ والسمع هاهنا
 سمع استجابة، أي: من قلة دينهم
 وعقلهم، أن استجابوا لمن دعاهم إلى
 القول الكذب.
 ﴿ أكالون للسحت ﴾ أي: المال
 الحرام، بما يأخذونه على سفلتهم
 وعوامهم من المعلومات والرواتب،
 التي يغير الحق، فجمعوا بين اتباع
 الكذب وأكل الحرام.
 ﴿ فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو
 أعرض عنهم ﴾ فأنت تجير في ذلك.

(١) في ب: منهم.



هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاد منها بدون حيف .

﴿والجروح قصاص﴾ والاقتصاص : أن يفعل به كما فعل . فمن جرح غيره عمداً اقتصر من الجراح جرحاً مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضِعاً ، وطولاً ، وعرضاً وعمقاً ، وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

﴿فمن تصدق به﴾ أي : بالقتل في النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عن جنى ، وثبت له الحق قبله .

﴿فهو كفارة له﴾ أي : كفارة للجاني ، لأن الأدمي عفا عن حقه . والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ، وكفارة أيضاً عن العافي ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو عفا من يتعلق به ، فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، فسق دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له .

﴿٤٦ - ٤٧﴾ وقفيينا على آثارهم يعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي : وآتينا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة بعدنا ورسولنا عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته التي أنزلنا إلى مريم .

بعثه الله مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه

الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل ، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعاده ، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم أن الله قد استحفظه ما (١) أودعه من العلم واستشهده عليه ، وأن يكون خاتماً من ربه ، ولا يمنعه خوف الناس وخشيته من القيام بما هو لازم له ، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلداً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه ، قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ودفع حظاً جسيماً ، محرماً منه غيره ، ففسالك اللهم علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من الحق المبين ، وحكم الباطل الذي يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه . وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر قد اسحق من فعله العذاب الشديد .

﴿٤٥﴾ ﴿وكتبتنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار . إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة ، والعين تفلح بالعين ، والأذن تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن . ومثل

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أسناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشتهى على الناس منه ، فالله تعالى قد حمل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، بالإخلاق إلى البطالة والكسل ، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا .

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم ، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ، ولهذا قال : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ فتكتمون الحق ، وتظهرون

(١) في ب : بما .

أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وآتيناه الإنجيل﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة: ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، وبين الحق من الباطل. ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ بتبشيرتها والشهادة لها الموافقة: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ فأنهم الذين يتصفون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿وممن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلبسوك فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بالحق﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتقاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيهِ. ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرته به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ أي: مشتقاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع. ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا يختلف متأخرها ولا المتقدمها.

﴿ولكن ليلبسوك فيما آتاكم﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرض على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزيه في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها السبق.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ خير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي: إياك والاعتراض بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فإن تولوا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فاعلم﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أن يصيبهم ببعض

ذنوبهم ﴿فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبئى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لنفسه.

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أنحكم الجاهلية يبغون﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالقون هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يباليون

بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعملون. فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة توليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا «نخشى أن تصيبنا دائرة» أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤونا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيئ - : ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فيصبحوا على ما أسروا﴾ أي: أضمرنا ﴿في أنفسهم نادمين﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبّة والموالاتة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

فيطلب كيدهم وبطلت أعمالهم﴾ في الدنيا ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن الله عبداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدياتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوام نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله ﴿يحبهم ويحبونه﴾. فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوئاد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والتوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبدي] يتقرب إلي بالتوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لآعطينه، ولئن استعاذني لآعذنه».

(١) في ب: لوازم.

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى ، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه السير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل ، ومن صفاتهم أنهم **﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾** فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم وورافتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لأياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾** وقال تعالى: **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾** فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد فيه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. **﴿ولا يخافون لومة لائم﴾** بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللاتمين، وتفترق قوته عند عذل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

(١) كذا في ب، وفي أ: ويبدون إليهم.

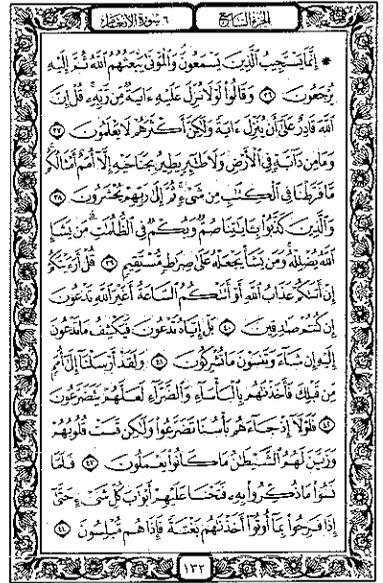
ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة والناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، ويشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾** أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليهم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾** ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون **﴿لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾**. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولى من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم. وقوله: **﴿وهم راكعون﴾** أي: خاضعون لله ذليلون. فإداة الخصر في قوله: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾** تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم. ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: **﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾**

بَلْ يَأْتِيكُمْ مَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٠﴾

فإن حزب الله هم الغالبون **﴿** أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾** وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأحر أمره، الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قبلاً.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ **﴿ويا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون **﴿** ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يجبرتهم ويتولونهم، ويبدون لهم ^(١) أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويمشهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره بما



وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه وكذلك قوله: ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ أي: وأبعد عن قفد السبيل.

﴿وإذا جاؤوكم قالوا آمنا﴾ نفاقاً ومكراً ﴿و﴾ هم ﴿قد دخلوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر - وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالاً منهم؟! ١١٩

﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ فيجازيهم بأعمالهم خيرا وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معائبهم، انتصاراً للقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وترى كثيراً منهم﴾ أي: من اليهود ﴿يسارعون في الإثم والعدوان﴾ أي: يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وأكلهم السحت﴾ الذي هو الحرام. فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم. هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية. ﴿ليئس ما كانوا يعملون﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقدح فيهم.

﴿لولا ينهاهم الزبانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لرفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيتهم، وأن بينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر ﴿ليئس ما كانوا يصنعون﴾

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل * وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الزبانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ملزمياً لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح بامر ينغي المدح عليه: ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبله وأن أكثركم فاسقون﴾ أي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وبكاتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن بهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟

فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟! ومع هذا فأكثركم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولئك - أيها الفاسقون - السكوت، فلو كان عيبكم وأنتم سالون من الفسق، وهيئات ذلك - لكان الشر أخف من قدحكم فيما مع فسقكم.

ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى:

﴿قل﴾ لهم تخبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هل أتيتكم بشر من ذلك﴾

الذي نعمتم فيه علينا، مع التنزل معكم. ﴿من لعنه الله﴾ أي: أبعده عن رحمته ﴿وغضب عليه﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت. ﴿أولئك﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شر مكاناً﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأتابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين.

تدعهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم وجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول خضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بمحو الامة من اتخذها هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحقم؟! وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿قل﴾ يا أهل الكتاب

هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبله وأن أكثركم فاسقون * قل هل أتيتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب

أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله
 ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب
 المفسدين * ولو أن أهل الكتاب آمنوا
 واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم
 ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم
 أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم
 من ربهم لأكفوا من فوقهم ومن تحت
 أرجلهم منهم أمة مقتتة وكثير منهم
 ساء ما يعملون * يخبر تعالى عن مقالة
 اليهود الشنيعة، وعقيدتهم القطعية،
 فقال: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»
 أي: عن الخير والإحسان والبر .
 «غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا»
 وهذا دعاء عليهم يجنس مقالتهم . فإن
 كلامهم متضمن لوصف الله الكريم،
 بالبخل وعدم الإحسان . فجازاهم بأن
 كان هذا الوصف منطبقاً عليهم .

فكانوا أبخل الناس وأقلهم
 إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله،
 وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت
 كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي
 والسفلي . ولهذا قال: «بل يدها
 مبسوطتان ينفق كيف يشاء» لا حجر
 عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فإنه
 تعالى قد بسط فضله وإحسانه اللدني
 والديني، وأمر العباد أن يتعرضوا
 لتنفحات جوده، وأن لا يسدوا على
 أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم .

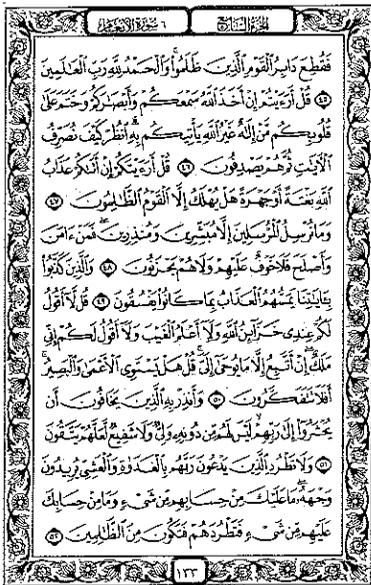
فيدها^(١) سبحانه الليل والنهار،
 وخيره في جميع الأوقات مدارر، يفرج
 كرباً، ويزيل غمماً، ويغني فقيراً،
 ويفك أسيراً ويجبر كسيراً، ويجب
 سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويجب
 المضطرب، ويستجيب للسائلين .
 وينعم على من لم يسأله، ويعافي من
 طلب العافية، ولا يحرم من خيره
 عاصياً، بل خيره يرتع فيه البر
 والفاجر، ويجود على أوليائه بالتوفيق
 لصالح الأعمال ثم يمجدهم عليها،
 ويضيفها إليهم، وهي من جوده
 ويثيبهم عليها من الثواب العاجل
 والأجل ما لا يدركه الوصف،

ولا يخاطر على بال العبد، ويلطف بهم
 في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من
 الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما
 لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من
 كل النعم التي بالعباد فمنه، وإليه
 يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من
 لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما
 أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو
 العباد من كرمه طرفة عين، بل
 لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده .

وقبح الله من استغنى بجهله عن
 ربه، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل
 لو عامل الله اليهود القائلين تلك
 المقالة، ونحوهم ممن حاله كحالهم
 ببعض قولهم، لهلكوا، وشقوا في
 دنياهم، ولكنهم يقولون تلك
 الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم،
 ويصفح، ويمهلهم ولا يحلمهم .

وقوله: «وليزيدن كثيراً منهم ما
 أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً» .
 وهذا أعظم العقوبات على العبد^(٢)، أن
 يكون الذكر الذي أنزله الله على
 رسوله، الذي فيه حياة القلب
 والروح، وسعادة الدنيا والآخرة،
 وفلاح الدارين الذي هو أكبر منة
 امتن الله بها على عباده، توجب عليهم
 المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله
 بها، وشكراً لله عليها، أن تكون مثل
 هذا زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى
 طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب
 إعراضه عنها، وردة لها، ومعاندته
 إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة .

«وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى
 يوم القيامة» فلا يتكفرون،
 ولا يتناصرون، ولا يتفقون على حالة
 فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين
 في قلوبهم، متعادين بأفعالهم إلى يوم
 القيامة «كلما أوقدوا ناراً للحرب»
 ليكيدوا بها الإسلام وأهله، وأبدوا
 وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم
 «أطفاها الله» بخذلانهم وتفرق
 جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم .



«ويسعون في الأرض فساداً» أي:
 يبحثون ويجدون، ولكن بالفساد في
 الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إلى
 دينهم الباطل، والتعويق عن الدخول
 في الإسلام «والله لا يحب المفسدين»
 بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم
 على ذلك ثم قال تعالى:

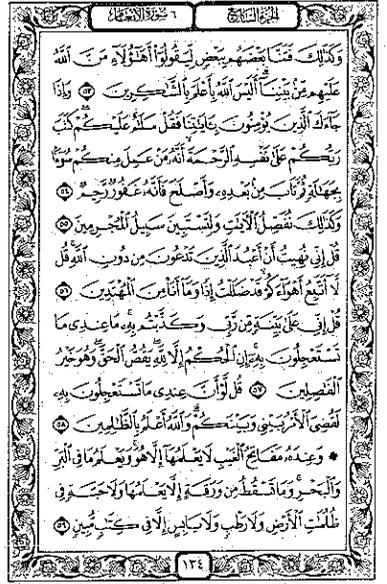
«ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا
 لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم
 جنات النعيم» وهذا من كرمه وجوده،
 حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعاييبهم
 وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة،
 وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته، وجميع
 كتبه، وجميع رسله، واتقوا المعاصي،
 لكفر عنهم سيئاتهم ولو كانت ما
 كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التي
 فيها ما تشبه الأنفس وتلد الأعين .

«ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل
 وما أنزل إليهم من ربهم» أي: قاموا
 بأوامرها ونواهيها، كما نذبهم الله
 وحثهم .

ومن إقامتها الإيمان بما دعيا إليه،
 من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلو
 قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها
 ربهم إليهم، أي: لأجلهم وللاعتناء
 بهم «لأكفوا من فوقهم ومن تحت
 أرجلهم» أي: لأدر الله عليهم

(١) في ب: فيده.

(٢) في ب: وهذا أعظم من العقوبات على العبد.



﴿وإن لم تفعل﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ريبك ﴿فما بلغت رسالته﴾ أي: فما امتثلت أمره.

﴿والله يعصمك من الناس﴾ هذه حاية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك، فانتدب إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير، بسبب كفرهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً﴾ منكم ما أنزل إليك من ريبك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴿أي: قل لأهل الكتاب، منادياً على ضلالهم، ومعلنأ باطلهم﴾: ﴿لستم على شيء﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتمم، ولا بنبيكم وكتابتكم صدقتهم، ولا بحق تمسكتهم، ولا على أصل اعتمادتم ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي: تجعلوهما قائميين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعون إلىه.

﴿وتقيموا﴾ ما أنزل إليكم من ربكم الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه، إنزال الكتب إليكم. فالواجب عليكم، أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ريبك طغياناً وكفراً، فلا تأس على القوم الكافرين﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتب^(١)، من أهل

القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر [والعمل الصالح]^(٢). فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمات.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وضموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وضموا كثيراً منهم والله بصير بما يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله، والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ إلى آخر الآيات ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجح فيهم، ولم يفد ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أفتح المعاملة ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾، وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴿أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجز عليهم عذاباً ولا عقوبة، فاستمروا على باطلهم﴾ ﴿فعموا وضموا﴾ عن الحق ﴿ثم﴾ نعشهم ﴿وتاب الله عليهم﴾ حين تابوا إليه وأتابوا ﴿ثم﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة. ﴿فعموا وضموا كثيراً منهم﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿٧٢ - ٧٥﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي

الرزق، ولا مطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أمة مقتصة﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي: والسوء منهم الكثير. وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿٦٧﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر، وبشر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خيراً إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: الكتاب.

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكتلوهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي: تقدم ضلالهم.

﴿وأضلوا كثيراً﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه. ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المرديّة، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لعمري الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذلك﴾ الكفر واللعن ﴿بما عصوا﴾ وكانوا يعتدون ﴿أي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صنار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا محارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفاصلة العظيمة: منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية. ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراب بها. ومنها: أن ذلك يجريء العصاة والفسقة على الاكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدينيّة، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك^(١) الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكرارها وصدورها من كثيراً من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي: مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرّم الله، حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً!!

ومنها: أن السكوت^(٢) على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاعتداء بأضرابه وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾ بالمحبة والموالة والنصرة.

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ هذه البيضاة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزول غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فورتها

التعظيم المقيم. ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾. فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالة ربه، وموالة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعباده، وأوضاع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالة أعداء الله.

ثم قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس

عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاتكتنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأتاهم الله بما قالوا جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم.

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم وعيبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سبياً في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعتاداً وكفراً.

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن ﴿منهم قسيسين ورباناً﴾ أي: علماء متزهدين، وعباداً في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

وشراب، وسرية أمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

﴿٨٩﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم^(١) أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك. ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فكفارته^(٢) أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم

﴿إطعام عشرة مساكين﴾ وذلك الإطعام ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم﴾ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزى في الصلاة. ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فتمت فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه. ﴿فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فصيام ثلاثة أيام﴾ ذلك المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ تكفرها وتمحوها وتمتع من الإثم.

﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فعلى العباد شكر الله تعالى على ما من به

من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين، ذكر عقاب المسيئين قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم^(١) كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿ولا تعتدوا﴾ إن الله لا يحب المعتدين ﴿بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك﴾

ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والحيث.

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومرعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك. ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه، من طعام

الصوامع متعددين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقرهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة ووصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾. فكأنهم ليموا على إيمانهم ومنازعتهم فيه، فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأبي: مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى: ﴿فأنابهم الله بما قالوا﴾ أي: بما تفرهوا به من الإيمان ونظقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾. وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالتجاشي وغيره من أممهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم

(١) كذا في ب، وفي أ: لأنه.

(٢) في ب كتب الآية كاملة.

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبينها.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويحجر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس. ﴿فاجتنبوه﴾ أي: أتركوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره والميسر، وهو: جميع الغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، بما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهي الله عنها وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها. فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التذنب بأضرارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالخمر كل الخمر البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر

والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاءه، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل ليه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي: معصية أعظم وأبغ من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشياكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟! فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟!!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾. لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد - انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يجتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿٩٢﴾ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاز عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: ﴿واحذروا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فإن توليتم﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه. ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلا أنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حل به.

﴿٩٣﴾ ﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها.

فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أي: حرج وإثم ﴿فيما طعموا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المخمر، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليلبسونكم الله بشيء من الصيد تناله



أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام * أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون * هذا من من الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرأ، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا بد أن يخبر الله إيمانكم﴾

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد، في حال الإحرام، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسل العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام.

وقوله: ﴿ومن قتل منكم متعمداً﴾ أي: قتل صيداً عمداً ﴿فد﴾ عليه جزاء مثل ما قتل من النعم﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمثالة أن يحكم به ذوا عدل منكم﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً ففيه قيمته، كما هو القاعدة في التلقات، وذلك الهدي لا بد أن يكون هدياً بالغ الكعبة﴾ أي: يذبح في الحرم.

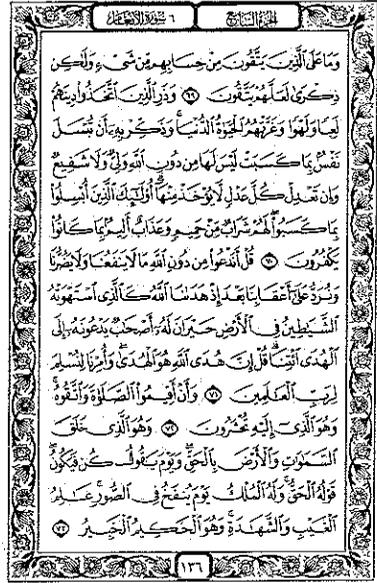
﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشتري بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مذبّر أو نصف صاع من غيره. ﴿أو عدل ذلك﴾ الطعام ﴿صياماً﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً. ﴿ليدوق﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وبال أمره﴾ ﴿ومن عاد﴾ بعد

ذلك ﴿فيستقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام﴾.

وإنما نص الله على التعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم التعمد والمخطيء، كما هو القاعدة الشرعية - أن التلطف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي: حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطيء فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمنين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه الله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الأدميين وأموالهم] (١).

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى تعالى الصيد البحري فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر، وهو الحي من حيواناته وطعامه، وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر. ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي: الفائدة في إباحته

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه).



﴿١٠٠﴾ **﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾** أي: **﴿قُلْ﴾** للناس عذراً عن الشر ومرغباً في الخير: **﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾** من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب. وهم الذين يؤبه لهم، ويترجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاته الأرباح.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن شَيْءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَنبُؤٌ مِّنَ اللَّهِ عِوَاذَ اللَّهِ عَنَّا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين **﴿يُنْهَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ سِئَالِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي إِذَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ سَاءَتَهُمْ وَأَحْزَنَتْهُمْ، وَذَلِكَ كَسْوَالِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ آبَائِهِمْ، وَعَنِ حَالِهِمْ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، فَهَذَا رُبَّمَا أَنَّهُ لَوْ بَيَّنَّ لِلسَّائِلِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ خَيْرٌ، وَكَسْوَالِهِمْ لِلْأُمُورِ غَيْرِ الْوَاقِعَةِ﴾**

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء

ويجتمع فيه من كل فج عميق جمع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾** ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة. فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: **﴿وَالْهَدْيِ وَالْقِلَافِدِ﴾** أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس، يتفقون بهما ويثابون عليهما.

﴿ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيشمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: **﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء. **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسبرون معكم. **﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمَتُهُ﴾** ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً، لأن الإنسي ليس بصيد. وماكولاً، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون. فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيشيكم الشواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿٩٧ - ٩٩﴾ **﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُمْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقِلَافِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم **﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** يخبر تعالى أنه جعل **﴿الْكُمْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾**. يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقمم ^(١) - من أجله - الأحوال.

(١) في ب: وتتقمم.

من ذلك فهذا^(١) مأمور به، كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: وإذا وافق سؤالكم عمله فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبد لكم، أي: تبين لكم وتظهر، وإلا فاستكنوا عما سكت الله عنه.

﴿عفا الله عنها﴾ أي: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه. ﴿والله غفور حلیم﴾ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً، وبالحنان والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

وهذه المسائل التي نهيت عنها ﴿قد سألتها قوم من قبلكم﴾ أي: جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد.

فلما بنت لهم وجاءتهم ﴿أصبحوا بها كافرين﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم».

﴿١٠٣-١٠٤﴾ ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسينا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرّموا ما أحله الله، فجعلوا بأرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرماً، على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ وهي: ناقة يشقون أذنبا، ثم يجرمون ركوبها ويرونها محرمة.

﴿ولا سائبة﴾ وهي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئاً اصطحلوا عليه، سببها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله يجعله سائبة.

﴿ولا حام﴾ أي: حمل بحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم.

فكل هذه ما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم، ولهذا قال: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ فلا نقل فيها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجيبوا بأرائهم التي بنيت على الجهالة والظلم.

فإذا دعوا ﴿إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أعرضوا فلم يقبلوا، و﴿قالوا حسينا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ من الدين، ولو كان غير شديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله.

ولو كان في آياتهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر. ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً، أي: ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء.

فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً.

﴿١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها والنزاهة سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا ضلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضرن أنفسكم.

ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يضرن العبد تركهما وإهمالهما، فإنه لا يتم هده إلا

وَأَذَانِ لِلَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْأُمْنَانَ وَغَدَقُوا عَلَيْهِم مِّن مَّا تُؤْتِي السَّمَاءُ كَثِيرًا مِّن دُونِهَا وَبَدَّلُوا مَوَاقِعَ الْمَسَاجِدَ وَبَدَّلُوا الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ ﴿١٠٦﴾

وَأَذَانِ لِلَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْأُمْنَانَ وَغَدَقُوا عَلَيْهِم مِّن مَّا تُؤْتِي السَّمَاءُ كَثِيرًا مِّن دُونِهَا وَبَدَّلُوا مَوَاقِعَ الْمَسَاجِدَ وَبَدَّلُوا الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ ﴿١٠٦﴾

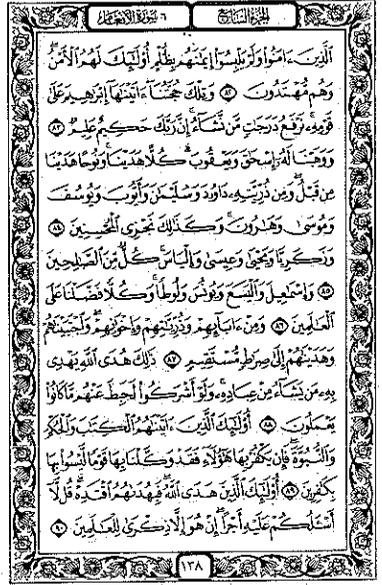
وَأَذَانِ لِلَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْأُمْنَانَ وَغَدَقُوا عَلَيْهِم مِّن مَّا تُؤْتِي السَّمَاءُ كَثِيرًا مِّن دُونِهَا وَبَدَّلُوا مَوَاقِعَ الْمَسَاجِدَ وَبَدَّلُوا الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ ﴿١٠٦﴾

بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نعم، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.

وقوله: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي: مالكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى. ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿١٠٦-١٠٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونها من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكنتم شهادة الله إننا إذا لمن الأثمين﴾ فإن عشر على أنهما استحقا إثماً فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدنا إننا إذا لمن الظالمين﴾ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ينبر تعالى خبيراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن

(١) في ب: فهو.



يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما.

﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرها من المسلمين.

﴿إن أنتم ضريتم في الأرض﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يجسبا ﴿من بعد الصلاة﴾ التي يعظموها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أنهما صدقا، وما غيرها ولا بدلا، هذا ﴿إن ارتبتم﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لا نشترى به﴾ أي: بأيماننا ﴿ثمنا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ولو كان ذا قربي﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إننا إذا﴾ أي: إن كتمناها ﴿لمن الأثمين﴾.

﴿فإن عشر على أنهما﴾ أي: الشاهدين ﴿استحقا إثما﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

خانا ﴿فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

أي: فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه. ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا. ﴿وما اعتدينا إننا إذا لمن الظالمين﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذلك أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات. ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعترين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فلأنهم يخلفونهما^(١) بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون. وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «عميم الداري» و«عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمة على

عدة أحكام: منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي. ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا. ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة. ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتيب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيذ اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون

(١) في النسخين: يخلفونهم.

القرينة - مع أيماهما - قائمة مقام
البينة .

﴿١٠٩ - ١١٠﴾ **﴿يوم يجمع الله
الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم
لنا إنك أنت علام الغيوب﴾** إذ
قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي
عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح
القدس تكلم الناس في المهدي وكهلا وإذ
علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة
والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة
الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني
وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ
تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني
إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبيئات فقال
الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر
مبين^(١) غير تعالى عن يوم القيامة وما فيه
من الأحوال العظام، وأن الله يجمع به
جميع الرسل فيسألهم: **﴿ماذا أجبتم﴾**
أي: ماذا أجابتكم به أمكم.

﴿وقالوا لا علم لنا﴾ وإنما العلم
لك يا ربنا، فانت أعلم منا. **﴿إنك
أنت علام الغيوب﴾** أي: تعلم الأمور
الغائبة والحاضرة.

**﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم
اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾**
أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم
بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم
عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك.

﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ أي: إذ
قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك
وزكأك، وصار لك قوة على القيام
بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن
المراد «بروح القدس» جبريل عليه
السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته
له، وتثبيتته في المواطن المشقة.

﴿تكلم الناس في المهدي وكهلا﴾
المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود
الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد
بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم
والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما
لإخوانه من أولي العزم من المرسلين،
من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة
والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر،
وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهدي،
فقال: **﴿إني عبد الله أتاني الكتاب
وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما
كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت
حياً﴾** الآية.

﴿وإذ علمتكم الكتاب والحكمة﴾
فالكتاب يشمل الكتب السابقة،
وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء
بني إسرائيل - بعد موسى - بها.
ويتشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه.

والحكمة هي: معرفة أسرار الشرع
وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة
والتعليم، ومرعاة ما ينبغي، على
الوجه الذي ينبغي.

﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾
أي: طيراً مصوراً لا روح فيه. فتنفخ
فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبرئ
الأكمه الذي لا يبصر له ولا عين.

**﴿والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى
بإذني﴾** فهذه آيات بيئات، ومعجزات
بأهات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم،
أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته.

**﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك، إذ
جنتهم بالبيئات فقال الذين كفروا
منهم﴾** لما جاءهم الحق مؤيداً بالبيئات
الموحية للإيمان به. **﴿إن هذا إلا سحر
مبين﴾**. وهموا بعيسى أن يقتلوه،
وسعوا في ذلك، فكف الله أيديهم
عنه، وحفظه منهم وعصمه.

فهذه ممن امتن الله بها على عبده
ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى
شكرها والقيام بها، فقام بها عليه
السلام أتم القيام، وصبر كما صبر
إخوانه من أولي العزم.

﴿١١١ - ١٢٠﴾ **﴿وإذ أوحيت إلى
الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا**



آمنوا^(١) إلى آخر الآيات^(٢) أي: واذكر
نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً
وأعواناً. فأوحيت إلى الحواريين أي:
ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي
وبرسولي، أو أوحيت إليهم على
لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي
جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك
وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد
بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام
الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة،
والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من
التفاق ومن ضعف الإيمان.

والحواريون هم: الأنصار، كما قال
تعالى كما قال عيسى ابن مريم^(٣)
للحواريين: **﴿من أنصاري إلى الله؟﴾**
قال الحواريون: نحن أنصار الله.

**﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن
مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا
مائدة من السماء﴾** أي: مائدة فيها
طعام، وهذا ليس منهم عن شك في
قدرة الله، واستطاعته على ذلك. وإنما
ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً
للانقياد للحق، وكان هذا الكلام
الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك،
وعظمتهم عيسى عليه السلام فقال:

(١) في ب أكمل الآيات إلى قوله: (وهو على كل شيء قدير).

(٢) هكذا في الأصل والمراد بين وهو كما قال الله تعالى حكاية لقول عيسى ابن مريم للحواريين.

فيقول الله هذا الكلام لعيسى . فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سبحانك﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعملاً لا يليق بك .

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿أنت علام الغيوب﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام: في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: ﴿لم أقل شيئاً من ذلك﴾، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بنو إسرائيل، فقال: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرىء على عظمتك، ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أي عبد مريب، فكما أنه ربكم فهو ربي .

﴿وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يتم به . ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالعلومات، وسمعك بالسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

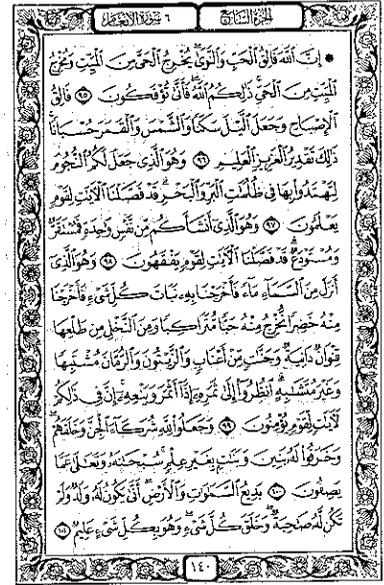
﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرفهم القويمه، وفضله وإحسانه عليهم . ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقاً .

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويبدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصاري، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متواتراً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويبدل على هذا المعنى قوله: ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ . وهذا توبيخ للنصاري الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة،



﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن يتفاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً .

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العنانية، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قال أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ . فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وتعلم أن قد صدقتنا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال:

(١) في ب: حتى يكون .

ويعلم ما تكسبون ﴿٤﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، معتدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون والشهداء والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرركم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقرّبكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ * فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم آباء ما كانوا به يستهزؤون ﴿٥﴾ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم تتمنّ لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٦﴾ هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم الملائك، فقال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أدبارهم.

﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فسوف يأتيهم آباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذّبين كذبهم وإفترائهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذّبين: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساؤوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وذلك بخلق مادتك وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلاً، تمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكركم وأجل مسمى عنده ﴿وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثم﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تمثرون﴾ أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة مرادها وتنوع طرقها. ووجد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

﴿٣﴾ ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرركم وجهركم

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمرّدون لم تعذبهم. ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وإفترائهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿الله ملك السماوات والأرض﴾ لأنه الخالق لهما والمذبر لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ * هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمثرون ﴿١﴾ هذا إخبار عن حده والثناء عليه بصفات الكمال، ونموث العظمة

ومتوعداً. ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك﴾ لما جاؤوا أعتبهم بالبينات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذبيكم، فصيبيكم ما أصابهم.

فإن شككتم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأما في المثالث تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ أي: من الخالق لذلك، الملك له المتصرف فيه؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله﴾ وهم مقررون بذلك لا يتكرونها، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!!!

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتديريته، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يخلقوا عليهم أبواباً بنوهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،

أنزل عليه ملك﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب. ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، وكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطبقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقتة قواهم الغانية.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. ﴿وللبينا عليهم ما يليسون﴾ أي: وكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿١٠-١١﴾ ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلماً لرسوله، ومصبراً ومتهدداً أعداءه

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذي يخلفون فيه وليلعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمر السالفة فقال:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن «مكناهم في الأرض ما لم نمكن» لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحته﴾ فينت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم اللذات، فجاهتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ «من بعدهم قرناً آخرين».

فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقتين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم بأنهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبينا عليهم ما يليسون﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جتتهم به، ولا جهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ وتيقنوه ﴿لقال الذين كفروا﴾ ظلماً وعلواً ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فأي: بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه!!! ﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبنياً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. ﴿لولا

بِكَلِمَةٍ يُؤْمِنُونَ إِلَّا آلَهُ الْقَوَّيْمِينَ الَّذِينَ رَحِمُوا قَوْمَهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣٠﴾
 وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ ظُلْمٍ فَسِدِّمْ لَهُ سُبُلَ الْبُغْيِ وَلَا تَتَّبِعُوا هَدْيَ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ غَيْرِ الْبُرْهَانِ وَهُمْ عَلَىٰ عَكْبِ الْأَبْطَاهِرِ ﴿١٣١﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٢﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٣﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٤﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٦﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٧﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٨﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٣٩﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِي الْعَذَابِ عَذَابٌ آخِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ ﴿١٤٠﴾

إلى إخلاص العبادة، والحب والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟! **﴿السميع﴾** لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات.

﴿العليم﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟! **﴿قل﴾** لهؤلاء المشركين بالله:

﴿أغير الله أتخذ ولياً﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة بتولاني وينصرنني؟! فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السماوات والأرض، أي:

خالقهما ومدبرهما. **﴿وهو يطعم﴾** ولا يطعمُ أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم؛ فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟! **﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾** الله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي.

﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي: وهيت أيضاً عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار، وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه من صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجاه فيه فهو الفائز حقاً، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك الشقي.

ومن أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد بكشف النضراء، وجلب الخير والسرراء، ولهسناً قال: **﴿وإن يمسسك الله بضر﴾** من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو نحوه. **﴿فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾**. فإذا كان وجهه النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج البينة والبراهين، ما يجعله حق اليقين، ولكن أبي الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضحوا في معاصيه، وتجروؤا على الكفر به، فحسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: **﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾**

﴿١٣ - ٢٠﴾ **﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾** قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعمُ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين **﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** من يصرف عنه يومئذ فقد زحمه وذلك الفوز المبين **﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾** وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير **﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ أثنتكم لتشهودن أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون﴾** الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون **﴿اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقل، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله الكذابين لرسوله﴾**

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك. فذكر أن **﴿له﴾** تعالى **﴿ما سكن في الليل والنهار﴾** وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها وجنّها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المماليك، الذي لا نفع عنده ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك، الضار النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو

والإلهية

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وهو الحكيم﴾ فيما أمر به ونهى، وأتاب وعاقب، وفيما خلق وقدر. **﴿الخبير﴾** المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿قل﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك - **﴿أي: شيء أكبر شهادة﴾** على هذا الأصل العظيم **﴿قل الله﴾** أكبر شهادة، فهو **﴿شهيد بيني وبينكم﴾** فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، كما قال تعالى: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾** فإله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دناءة من خالفه وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله، فيؤيده على ما

الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء . . . بل خالفوا بشهادة فطرهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختار لنفسك أي: الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالاعتداء به، فقال: ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون * يخير تعالى عن مال أهل الشرك يوم القيامة * وأبهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء * ثم لم تكن فتنهم أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال، إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين * انظر * متعجباً منهم ومن أحوالهم * كيف كذبوا على أنفسهم * أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر * وضل عنهم ما كانوا يفترون * من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك مجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفهمون بذلك الاستماع لعدم

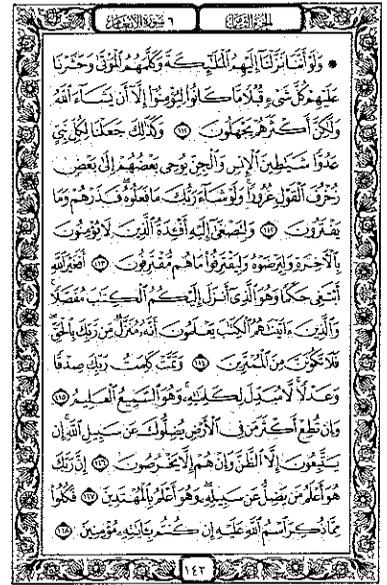
الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء . . . بل خالفوا بشهادة فطرهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختار لنفسك أي: الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالاعتداء به، فقال: ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿وإنني بريء مما تشركون﴾ به من الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى * يعرفونه * أي: يعرفون صحة التوحيد * كما يعرفون أبناءهم * أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعيان متلازمان.

قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: فوتوا ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد * فهم لا يؤمنون * فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر، الذي يحصل لهم.

﴿٢١﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يقلح الظالمون﴾ أي: لا أعظم



قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه، فأى: شهادة أكبر من هذه الشهادة!!

وقوله: ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصالحكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والتنذارة إنما تكون يذكر ما ينذرهم به من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل التنذارة، فهذا القرآن فيه التنذارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيد، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخير الله، والمكذبين لرسوله: ﴿أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد﴾ أي: إن شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أركى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك

(٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

(١) في ب على ما خالفوه.

إرادتهم للخير ﴿وجعلنا على قلوبهم أكمة﴾ أي: أعطية وأغشية، لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء. ﴿وفي آذانهم﴾ جعلنا ﴿وقراً﴾ أي: صمماً، فلا يستمعون ما يفهمهم.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات البينات الدالة على الحق، لا يتقادرون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه.

ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله ولا عن رسله. وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحايي لأبناء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والفسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟

﴿٢٦﴾ ﴿وهم ينهون عنه ويتأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ وهم: أي: المشركون بالله، المكذبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضرروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً. ﴿إن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ بذلك.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى - مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ليبوخوا ويقرعوا، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضعة. ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا. ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من

المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل. فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات. ولكن الأغراض الفاسدة صدمتهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفخوا بها عن أنفسهم العذاب.

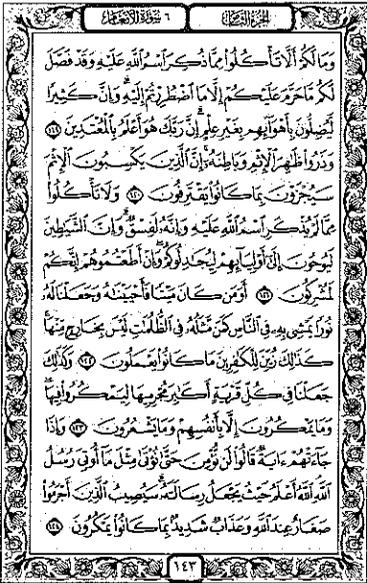
﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾

﴿وقالوا﴾ منكرين للبعث ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيماننا، إلا الحياة الدنيا وحدها. ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿٣٠﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: ﴿ولو ترى﴾ الكافرين ﴿إذ وقفوا على ربهم﴾ لرأيت أمراً عظيماً، وهولاً جسيماً، ﴿قال﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أليس هذا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بالحق؟﴾ قالوا: بلى وربنا ﴿فأقروا واعتبروا﴾ حيث لا يفهم ذلك، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣١﴾ ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حشرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزررون﴾ أي: قد خاب وخسر وجرم الخير كله، من كذب بلقاء الله، فأوجب له هذا التكذيب، الاجترار على المحرمات، واقتراف الموبقات ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة﴾ وهم على أقبح حال وأسوأه، فأظهروا غاية الندم. و ﴿قالوا يا حشرتنا على ما فرطنا فيها﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزررون﴾. فإن وزرهم وزر يتقلهم ولا يقدر على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأييد في غضب الجبار.

﴿٣٢﴾ ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون



أفلا تعقلون﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهوموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة فإنها ﴿خير للذين يتقون﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للممتقين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أي: الدارين أحق بالإشارة.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي تقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴿وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تستقي نفعاً في الأرض أو سلباً في السماء فعاتبهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسؤك، ولم

تفجر الأنهار خلالها تفيضاً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبلاً الآيات.

﴿قل﴾ جيباً لقولهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء متفاداً لعزته، مذعبة لسلطانه!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها، لعرجوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل، فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحنة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شك وأرتياب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿٣٨﴾ ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ثم إلى ربهم يحشرون ﴿أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم رزقناكم، وخلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم.﴾

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ﴿أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أجد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

١- ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من الأشياء، وهو ما لا يتغير أبداً. ٢- ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من الأشياء، وهو ما لا يتغير أبداً. ٣- ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من الأشياء، وهو ما لا يتغير أبداً. ٤- ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من الأشياء، وهو ما لا يتغير أبداً.

الهدى ﴿ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال.﴾ فلا تكونن من الجاهلين ﴿الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يتزولونها على منازلها.﴾

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنما يستجيب﴾ لدعوتك ويلبي رسالتك ويتقاد لأمرك ونهيك ﴿الذين يسمعون﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.

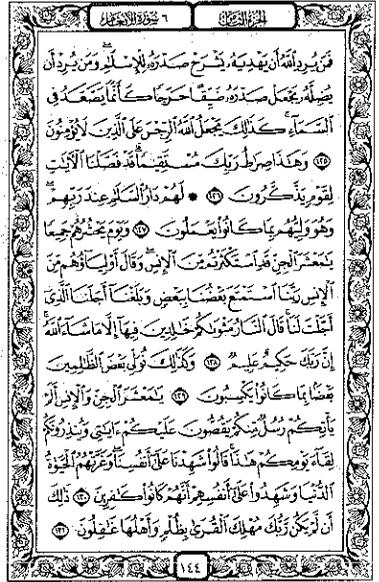
والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور. أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينثهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وقالوا﴾ ﴿أي: المكذبون بالرسول تعنتاً وعناداً: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة.

﴿كقولهم﴾: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب،



نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ لأنهم يعرفون صدق ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين. ﴿ولكن الظالمين آيات الله يجحدون﴾ أي: فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يدك^(١)

﴿ولقد كذبت. رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ ما به ثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وإن كان كبير عليك إعراضهم﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فإن استطعت أن تبغني نقفاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بآية﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿ولو شاء الله لجمعهم على

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جمود منهم لما علموه حقاً.

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾.

وقوله: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: جميع الأمم يحشرون ويجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

﴿٣٩﴾ ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿صم﴾ عن سماع الحق ﴿بكم﴾ عن النطق به، فلا يتفقون إلا بباطل^(١).

﴿في الظلمات﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي. وهذا من إضلال الله إياهم، ف﴿من يشأ الله يضلله﴾ لأن الله يضلله على صراط مستقيم، لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿قل﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره: ﴿أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير إياه تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب

التي يضطر إلى دفعها، هل تدعون ألهمتكم وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وتخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟ هل ذلكم على ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل^(٢) تفترون على الله الكذب.

﴿٤٢ - ٤٥﴾ ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ من الأمم السالفة والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا وجحدوا آياتنا ﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء﴾ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، رحمة منا بهم. ﴿لعلهم يتضرعون﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾ أي: استحجرت فلا تلبين للحق، ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾

ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك
فأخذناهم بالبأساء والضراء
لعلهم يتضرعون ﴿٤٢﴾
فلما نسوا ما ذكروا به
فتحنا عليهم أبواب كل شيء
حتى إذا فرحوا بما أوتوا
أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿٤٣﴾
ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك
فأخذناهم بالبأساء والضراء
لعلهم يتضرعون ﴿٤٤﴾
فلما نسوا ما ذكروا به
فتحنا عليهم أبواب كل شيء
حتى إذا فرحوا بما أوتوا
أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿٤٥﴾

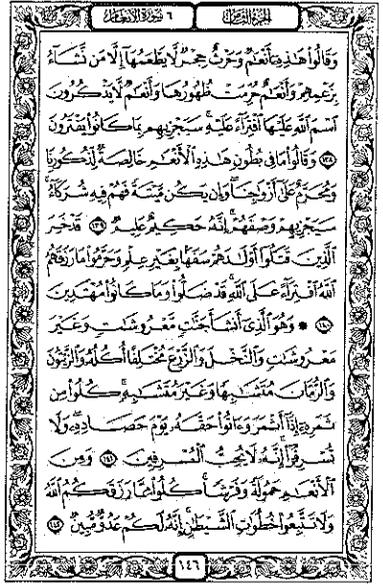
أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم.

﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي: اصطلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب. ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين. فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴿يجبر تعالى أنه كما أنه المنفرد بخلق الأشياء وتدبيرها، فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية، فقال: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾ فبقيت بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فليمتع عبدهم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله. وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿انظر كيف

(١) في ب: بالباطل.

(٢) في ب: أم.



نصرف الآيات ﴿٥١﴾ أي: أنواعها، ونأتي بها من كل فن، ولنتبين الحق، وتبين سبيل المجرمين. ﴿ثم هم﴾ مع هذا البيان التام ﴿يصدفون﴾ عن آيات الله ويعرضون عنها.

﴿قل أرايتكم﴾ أي: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم. فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ * والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴿يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والندارة، وذلك مستلزم لبيان البشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمُنذِرُ والمُنذِرُ به، والأعمال التي من عملها حقت عليه الندارة.

ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي: آمن

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبل ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى.

﴿والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب﴾ أي: ينالهم ويذوقونه ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ؛ المقترحين^(١) عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعوننا لتتخذك إلهاً مع الله:

﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿ولا أعلم الغيب﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يسلك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

﴿ولا أقول لكم إنى ملك﴾ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها. ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

فإذا عرفت منزلتي، فلاي: شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمراً لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصدده؟

ولأي: شيء إذا دعوتكم، بما أوحى إلي أن تلتزموني أن أدعي لنفسي غير مرتبتي، وهل هذا، إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلي، وبين من لم يكن كذلك ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ فتنزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار؟

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وأندب به الذين الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم * وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴿هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما يتفع به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصبحون ما يتفهم ويدعون ما يضرهم. ﴿ليس لهم من دونه﴾ أي: من دون الله ﴿ولي ولا شفيع﴾ أي: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿لعلهم يتقون﴾ الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لمواظبتهم ومحبتهم، وإدنائهم وتقريبهم، لأنهم الصفاة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأجزاء في الحقيقة وإن كانوا

(١) زاد هنا في طبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (أن يخاطب) المقترحين.

من المهتدين * قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين * قل لو أن عندي ما والله أعلم بالظالمين * يقول تعال لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم * وما أنا من المهتدين * بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿على بينة من ربي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته ويطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق. فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما قرأ الله به عليهم.

﴿و﴾ لكنكم أيها المشركون - كذبتم به * وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء * إن الحكم إلا لله * فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته. فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقصص على عباده

بشاكرك، فإن الله تعال حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف من آمن بالله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون. ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلام، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإفلاج والندم عليها، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به بما أمرهم به.

﴿وكذلك نفضل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

عند الناس أدلاء. ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ أي: كل له حساب، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فتظروهم فتكون من الظالمين﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً من قريش، أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك وتتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا نستحي أن ترائنا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحملته حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض، ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا آمن الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل عنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمتعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق.

وقالوا محتقرين لمن يروهم دونهم: ﴿هؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾. فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس

(١) كذا في ب، وفي أ: استمررتم.

العامه، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾ ﴿٤٠﴾ عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظة لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدر الله وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقدير الراتية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويشيهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿ألا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإزادة؟!﴾

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعاقبهم

عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يخصي أحدئناه عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ هذا كله تقرير لإلهيته، واحتجاج على المشركين به، وبين أن تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المنفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ونامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويعيشهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا أجلهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشئته

الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فضلاً يحمده عليه، حتى من قضي عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندي ما تستعجلون به لقصي الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقعتهم بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرؤون، وهو يعاقبهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفار، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمان والزروع، وحبوب البذور التي يبذرنا الخلق؛ وبذور النوابت البرية التي ينشي منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل

ويرزقهم، لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا للداعي الشيطان، الموجب للبخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴿أي: قل﴾ للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى، ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية ﴿من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أي: شداثدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعاً بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لئن أنجانا من هذه الشدة التي وقعنا فيها لنكونن من الشاكرين﴾ لله، أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يذلوها في معصيته.

﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة ﴿ثم أنتم تشركون﴾ لا تفنون لله بما قلتكم، وتنسون نعمه عليكم، فأبي: برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وضحة التوحيد!!!

﴿٦٥ - ٦٧﴾ ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويبدل بعضكم بأس بعض انظر كيف تصرفنا﴾ * ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكروا لعلهم يتقون﴾ * التكلّم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى

بعضكم بأس بعض ﴿أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضاً. فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمته، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف.

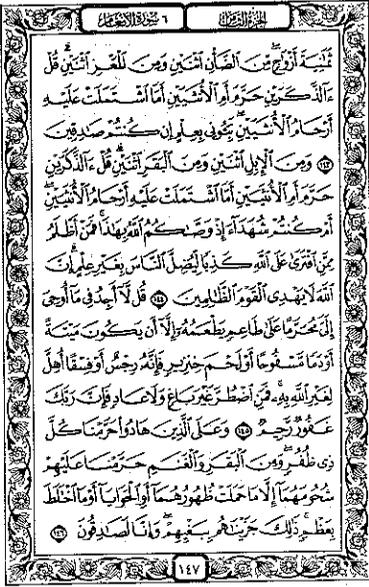
ولكن عاقب من عاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط المعتبرون، ويشعر بها العاملون (١).

﴿انظر كيف تصرفنا﴾ أي: ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق. ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

﴿وكذب به﴾ أي: بالقرآن ﴿قومك وهو الحق﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿لكل نبأ مستقر﴾ أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وسوف تعلمون﴾ ما توعدون به من العذاب.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ * وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكروا لعلهم يتقون﴾ * التكلّم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى

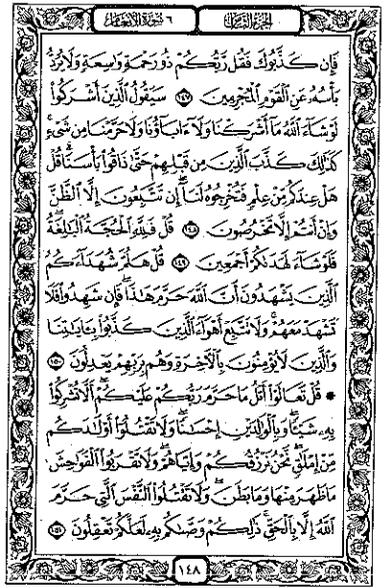


يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حتّى على البحث والنظر والمناظرة بالحق ثم قال: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة. ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه محرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكروا لعلهم يتقون﴾ أي: ولكن ليذكركم ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى.

(١) في ب: العاملون.



وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب^(١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا الله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويذلوا مقدرهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وهدى لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان

لغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويجذر، ولا يغتر به، وتنتظر حاله، ويجذر من فعاله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد تبياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجريه على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المروء، فذكرها، وعظها، لترتدع وتزجر وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً ﴿لا يؤخذ منها﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد.

﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الذين أبسلوا﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بما كسبوا﴾ لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا وترد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون * وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب

والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبيئاً وشارحاً لوصف آهتهم، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ وهذا وصف يدخل فيه، كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر

﴿ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تقضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذورشد، وصاحبها ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل له إلى مقصده. فبقي ﴿حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائراً وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي^(٢) متعارضة، ودواعي^(٣) الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستتمة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ والصعود إلى أعلى عليين.

ودواعي^(٤) الشيطان ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والتزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق

(١) في ب: كان تركه هو الواجب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: دواعي.

(٣) كذا في ب، وفي أ: داع.

(٤) كذا في ب، وفي أ: داعي.

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال ووردي وهلاك.

﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ بأن نقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت ريق عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصولها إليهم.

﴿وأن أقيموا الصلاة﴾ أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسنتها ومكملاتها. ﴿وأتقوه﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهي. ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي: تجتمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾ ليأمر العباد وينهاهم، ويشيهم ويعاقبهم، ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ الذي لا مربة فيه ولا مثوية، ولا يقول شيئاً عبثاً. ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ أي: يوم القيامة، خضه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا لله الواحد القهار.

﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبيواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿٧٤ - ٨٣﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ إلى آخر القصة. يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنياً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونبيه عن الشرك، إذ قال لأبيه ﴿أزر أتخذ أصناماً آلهة﴾ أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، ﴿إنى أراك وقومك في ضلال مبين﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من

العبادة شيئاً، وتركتكم عبادة خالقكم، ورازقكم ومدبركم.

﴿وكذلك﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾ أي: ليرى بصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وليكون من الموقنين﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام بجميع المطالب.

﴿فلما جنَّ عليه الليل﴾ أي: أظلم ﴿رأى كوكباً﴾ لعله من الكواكب المضيئة، لأن تخصصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

﴿قال هذا ربي﴾ أي: على وجه التنزل مع الخصم، أي: هذا ربي، فهل منظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعائل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

﴿فلما أفل﴾ أي: غاب ذلك الكوكب ﴿قال لا أحب الأفلين﴾ أي: الذي يغيب ويختفي عمّن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟!!

﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ أي: طالعا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قال هذا ربي﴾ تنزلاً. ﴿فلما أفل قال﴾ لئن لم يهدي ربي لأكونن من القوم الضالين ﴿فاقتصر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.

﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ من الكوكب ومن القمر. ﴿فلما أفلت﴾ تقرر حيثئذ الهدى، وازمحل الردى في ﴿قال يا

وَأَقْرَبُ مَا لِلْيَسِيرِ إِلَى اللَّهِ وَرَبِّهِ أَحْسَنُ حَقّاً وَأَشَدُّ وَأَوْفَى الْكَيْفِ وَالْيَسِيرَ بِالْقِسْرِ لَأَنْتَ كُنْتَ قَسماً لَأَدْنَسَمَهَا وَأَنَا أَقْسَمْتُ فَأَعْدِلُوا وَأَوْصِلُوا فَتُفْزَنُوا بِهِ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ذَلِكَ بِكُمْ وَمَنْ كَرِهَ لَكُمْ شَيْئاً فَدَعُوهُ وَالْحَوْلُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٤﴾ وَالْحَوْلُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٥﴾ وَتَنْقُصُوا رَبَّهُمْ جَمِيعاً إِلَّا قِسْمَ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ ذُنُوباً كَثِيراً وَلِلَّهِ الْحُكْمُ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَهُ تَوَاضِعاً وَخَشَعَةً لِقَوْلِهِ رَبِّ نَزِّلْنَاهُ مِنْ سَمَوَاتٍ مُتَعَدٍ وَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ لِتُدَّبَّرَ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٧﴾ وَتَنْقُصُوا رَبَّهُمْ جَمِيعاً إِلَّا قِسْمَ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ ذُنُوباً كَثِيراً وَلِلَّهِ الْحُكْمُ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَهُ تَوَاضِعاً وَخَشَعَةً لِقَوْلِهِ رَبِّ نَزِّلْنَاهُ مِنْ سَمَوَاتٍ مُتَعَدٍ وَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ لِتُدَّبَّرَ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٧﴾

قوم إني برى عما تشركون﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه. ﴿وما أنا من المشركين﴾ فتبرأ من الشرك، وأدعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال إنه مقام نظري حال طفولته فليس عليه دليل (١).

﴿وحاجه قومه قال﴾: أمحاجوني في الله وقد هدان﴾ أي فائداً لمحاجة من (٢) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ فإنها لن تضرنني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً. ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾ فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ وحالها حال العجز وعدم النفع، ﴿ولا

(١) زيادة من هامش: ب وهي بخط الشيخ - رحمه الله -
 (٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.



وهديته^(١) من أنواع الهدايا الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل الذي هو أحدهم.

﴿ومن ذريته﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

﴿داود وسليمان﴾ بن داود ﴿وأيوب ويوسف﴾ بن يعقوب. ﴿وموسى وهارون﴾ ابني عمران، وكذلك. كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق. كذلك نجزي المحسنين. بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وزكريا ويحيى﴾ ابنه ﴿وعيسى﴾ ابن مريم. ﴿وإلياس كل﴾ من هؤلاء ﴿من الصالحين﴾ فتي أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

﴿وإسماعيل﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، والذئب ولد آدم محمد ﷺ ﴿ويونس﴾ بن متى ﴿ولوطاً﴾ بن هاران، أخي إبراهيم. ﴿وكلاً﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فضلنا على العالمين﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله

العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتضى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره.

قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

﴿٨٤ - ٩٠﴾ ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك

نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عبادة ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكري للعالمين * لما ذكر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.

﴿كلاً﴾ منهما ﴿هدينا﴾ الصراط المستقيم في علمه وعمله. ﴿ونوحاً هدينا﴾ ﴿من قبل﴾

تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً أي: إلا بمجرد اتباع الهوى. ﴿فأي: الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أي: لمخلطوا ﴿إيمانهم بظلم أولئك لهم الأثم وهم مهتدون﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وتلك حجتنا آتيناهم إبراهيم على قومه﴾ أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿ترفع درجات من نشاء﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصاً

(١) في ب: أعلى أنواع.

في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نياهم بلا شك .

﴿ومن آباؤهم﴾ أي : آباء هؤلاء المذكورين ﴿وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي : وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم . ﴿واجتنبناهم﴾ أي : اخترناهم ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ .

﴿ذلك﴾ الهدى المذكور ﴿هدى الله﴾ الذي لا هدى إلا هده . ﴿يهدى به من يشاء من عباده﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره ، ومن شاء هديته هؤلاء المذكورون . ﴿ولو أشركوا﴾ على الفرض والتقدير ﴿لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ فإن الشرك محبط للعمل ، موجب للخلود في النار . فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم ، فغيرهم أولى .

﴿أولئك﴾ المذكورون ﴿الذين هدى الله فيبهداهم اقتده﴾ أي : امن - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار ، واتبع ملتهم وقد امثل ﷺ ، فاهتدى بهدي الرسل قبله ، وجمع كل كمال فيهم . فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم .

﴿قل﴾ للذين عرضوا عن دعوتك : ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي : لا أطلب منكم مفرماً ومالاً جزءاً عن إبلاغي إياكم ، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم ، إن أجري إلا على الله .

﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه ، وما يضرهم فيذرونه ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه . ويتذكرون به الأخلاق الحميدة ، والطرق المؤصلة

إليها ، والأخلاق الرذيلة ، والطرق المفضية إليها ، فإذا كان ذكرى للعالمين ، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم ، فعليهم قبولها والشكر عليها .

﴿٩١﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس فجعلونه قراطيس تبديونها وتحفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة ، آمن اليهود والمشركين^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء ، فمن قال هذا ، فما قدر الله حق قدره ، ولا عظمه حق عظمته ، إذ هذا قذح في حكمته ، وزعم أنه يترك عباده هملأ ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ونفى لأعظم منة امن الله بها على عباده ، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة ، والكرامة ، والفلاح ، إلا بها ، فأبي قذح في الله أعظم من هذا!!

﴿قل﴾ لهم - ملزماً بفساد قولهم وقرهم ، بما به يقرون - : ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نوراً﴾ في ظلمات الجهل ﴿وهدى﴾ من الضلالة ، وهاذياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً ، وهو الكتاب الذي شاع وداع ، وملاً ذكره القلوب والأسماع . حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ، ويتصرفون فيه بما شاؤوا ، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه ، وما خالف ذلك أخفوه وكنموه ، وذلك كثير .

﴿وعلمتم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات ، فأجب عن هذا السؤال . و ﴿قل﴾ الله الذي أنزله ، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس ، وتقوم عليهم الحجة ، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْقُرْآنِ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ فِي سَنَةِ ١٠٤٠
يَوْمَ وَكُنَّا بِالتَّوْرِينَ ﴿١٠٤٠﴾ أَيُّهَا مَا آتَى الْكُتُبَ
رَبُّكَ وَلَا تَكْفُرِينَ دُونَهُ وَأَيُّهَا لَيْلَا مَا لَمْ يَكُنْ
ذِكْرٌ قَرِيبٌ أَهْلَكَ عَنْهَا جَاهَةٌ بِأَسْمَاءِ الْبُرْجَانِ
فَأَكْبَرَ وَتَوْرِيَّتُهَا جَاهَةٌ بِأَسْمَاءِ الْبُرْجَانِ
عَنِ التَّالِيَيْنِ ﴿١٠٤١﴾ فَلَسْتَ أَنْزَلْنَا الْبُرْجَانَ
التَّالِيَيْنِ ﴿١٠٤٢﴾ فَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ بَعْدُ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ
وَأَنْزَلْنَا يَوْمَئِذٍ الْحَقَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ هُدًى
التَّالِيَيْنِ ﴿١٠٤٣﴾ وَتَمَّ حَقُّ مَوْلَانَا الْبُرْجَانِ
حَرَامِ النَّسَبِ بِمَا كُنَّا أَنْزَلْنَا بِطَلُونِ ﴿١٠٤٤﴾ وَكَفَى
مَنْكَرٌ فِي الْأَرْضِ وَكَفَى لِكُفْرِهِمْ نَذِيرٌ لَيْلَى أَنْزَلْنَا
وَكَفَى لِنَفْسِكَ نَذِيرٌ لِكُفْرِكَ وَأَنْزَلْنَا الْبُرْجَانَ
لِيَأْمُرَ سَجْدَ دَاوُدَ الْبُرْجَانِ لِيُكْفِرَ بِالشُّعْبَانِ ﴿١٠٤٥﴾

اتركهم يخوضوا في الباطل ، ويلعبوا بما لا فائدة فيه ، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون .

﴿٩٢﴾ ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي : ﴿وهذا﴾ القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾ أي : وصفه البركة ، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته . ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ أي : موافق للكتب السابقة ، وشاهد لها بالصدق . ﴿ولتنذر أم القرى﴾ و﴿من حولها﴾ أي : وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى ، وهي : مكة المكرمة ، ومن حولها من ديار العرب ، بل ومن سائر البلدان . فتحذر الناس عقوبة الله ، وأخذة الأمم ، وتحذرهم مما يوجب ذلك . ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه ، وانقاد لمراضى الله .

﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي : يداومون عليها ، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وأدابها ، ومكملاتها . جعلنا الله منهم

﴿٩٣ - ٩٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل

(١) زيادة من هامش : ب .

وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم﴾ أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وراء ظهوركم﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشركتهم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيؤبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ لقد تقطع بينكم أي: تقطعت الروصل والاسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من الربح والأمن، والسعادة والنجاة، التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنقطت بها ألسنتكم. واغترزتم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿٩٥-٩٨﴾ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنسى

أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته!!

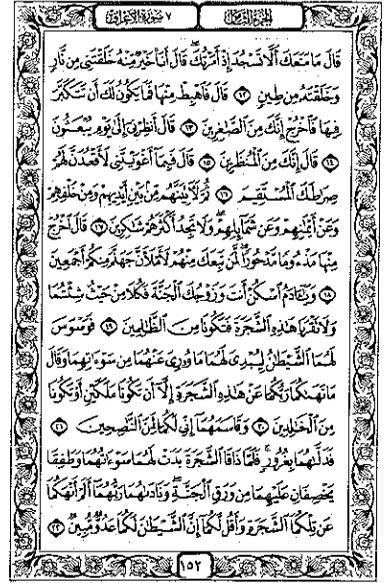
وما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيتها للخروج من الأبدان: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الشديد الذي بينكم وبذلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ من كذبكم عليه، ورددكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي: ترففون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء.

فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها،



ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون * ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴿ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدتهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيلم الكذاب والأسود العنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿ومن قال سائز مثل ما أنزل الله﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم،

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويخبر في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال تُرى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التنجيم، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجهلاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملا الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوتت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى يتجهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فالق الإصباح﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الناجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جعل﴾ الله ﴿الليل سكناً﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومتامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة ﴿وجعل تعالى الشمس والقمر حساباً﴾ هما تعرف الأوقات والأوقات، فتتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذلك﴾ التقدير المذكور ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت من ذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير ونظام بدیع، تخير العقول في حسنه وكمالها وموافقته للمصالح والحكم.

توفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إن الله فالق الحب﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباثرونها، كالحبوب التي يثبها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فيتبع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويربهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويربهم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج من المتني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿ومخرج الميت﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿من الحي﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع، النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿الله﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فأنتى توفكون﴾ أي: فأنتى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً!!؟

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وعمر ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيئاته.

﴿٩٩﴾ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً ومن النخل من طلمها قنوان دائية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير مشتباه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿ وهذا من أعظم منعه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من آدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأثبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، وفرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبنلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال: ﴿فأخرجنا منه خضراً نخرج منه﴾ أي: من ذلك النبات الأخضر، ﴿حياً متراكباً﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿ومن النخل﴾ أخرج الله ﴿من طلمها﴾ وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور القنن منه، فيخرج من ذلك الوعاء قنوان دائية ﴿أي: قربة سهلة

التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر تناولها من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرت ومراقى يسهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جنات من أعناب والزيتون والرمان﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمم جميع الأشجار والنبات.

وقوله: ﴿مشتبهاً وغير مشتباه﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهنون، ويتقننون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظروا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إلى ثمره﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل إذا أثمر.

﴿وينعه﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، وقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

﴿١٠٠ - ١٠٤﴾ ﴿وجعلوا الله شركاء الجن وحلقتهم وخزقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ بديع السماوات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

خالق كل شيء فأصوده وهو على كل شيء وكيل ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يحجر تعالى: أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خزق المشركون» أي: التفكروا وافترؤا من تلقاء أنفسهم لله، بين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وأفة وعيب.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومقتن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما شريك.

﴿أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ وفي ذكر الغلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى

ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ وكما قال تعالى: ﴿وهو الخلاق العليم﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر.

﴿الله ربكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع الخلق بالتعظيم، وصرف عنهم صنوف النقص. ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه. فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره، خلقاً وتديراً وتصريفاً. ومن العلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه. ووكانته تعالي على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالة نيابة، والوكيل فيها، تابع لموكله.

وأما الباري تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد، أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا قي تدبيره نقصاً وعبياً.

ومن وكالته أنه تعالي، توكل ببيان دينه، وحفظه عن الزيلاات والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم. ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لعظمته

كَلِمَاتٍ لَمَّا أَتَىٰ نَارَ الْعَذَابِ وَأَمْزَجَ فِيهَا زَيْتًا وَنَحْمًا فَكُنَّ حَرًّا مِّنَ الْحَرِّينَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِّنْ عِنْدِكَ يَا سُبْحَانَ رَبِّيَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٥﴾

فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقتها للمعاني الجلييلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب الذي ربي خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبيين الآيات، وتوضيح المشكلات.

﴿فمن أبصر﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فلنفسه﴾ فإن الله هو الغني الحميد.

﴿ومن عمي﴾ بأن بصر، فلم يتبصر، وزجر، فلم يتزجر، وبتين له الحق، فما اتقاه له ولا تواضع، فإنما عماء مضرت عليه.

﴿وما أنا﴾ أيها الرسول ﴿عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما عليّ البلاغ المبين وقد أدبته، وبلغت ما أنزل الله إليّ، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفاً فيه^(١).

﴿١٠٨﴾ ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً، بل مشروعاً في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثاناً وآلهة

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿ولا تسبوا...﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: (وكذلك نصرف الآيات) إلى قوله: (وما أنت عليهم بوكيل) ذات الأرقام (١٠٥ - ١٠٧) فقام التجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة التجار (٢/٤٥٠ - ٤٥٢).



مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب، وقذح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يعمون لدينهم، ويتعصبون له. لأن كل أمة زين الله لهم عملهم، فرأوه حسناً وذوبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفقار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية وهي أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر.

﴿١٠٩ - ١١١﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿١﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقلب القلوب، والخيولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلك الصراط المستقيم. وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿١﴾ أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ. ﴿بالله جهد أيمانهم﴾ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدوه. ﴿لئن جاءتهم آية﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿ليؤمنن بها﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم، دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعاً، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعنت، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته في عباده، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلي توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك فليس معلوماً، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال:

﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿١﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقلب القلوب، والخيولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلك الصراط المستقيم. وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح

﴿١﴾ في ب: وحشرنا عليهم كل شيء حتى يكلمهم.

لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيئتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم ^(١) قبلاً، ومشاهدة ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم ولكن أكثرهم يجهلون. فلذلك رتبوا إيمانهم، على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ * ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون ﴿١﴾ يقول تعالى - مسلماً لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾. فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم فإديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويتخرون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق فيلاً، وأصدق حديثاً، و ﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهتدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجرأ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿ ١١٨ - ١١٩ ﴾ ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين ﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴿ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتريين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴿ أي: قل يا أيها الرسول ﴿ أفغير الله أبغني حكماً ﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿ الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قليلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿ ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ ولهذا توأمت الأخبار ﴿ فلا ﴾ تشكن في ذلك ولا ﴿ تكونن من الممتريين ﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها] (١).

﴿ وهو السميع ﴾ لسان الأصوات، باختلاف اللغات على تفتن الحاجات. ﴿ العليم ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

﴿ ١١٦ - ١١٧ ﴾ ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ إن ربك هو أعلم من يضل

باطلاً وبالباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولتصغى إليه ﴾ أي: ولتتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿ أفئدة السدين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يجعلهم على ذلك، ﴿ وليرضوه ﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه أولاً، فإذا سالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تجلبهم تلك التصويبات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعوة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وأفية، وإن كانت باطلاً، ودوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الإبتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدلالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿ ١١٤ - ١١٥ ﴾ ﴿ أفغير الله أبغني

(١) زيادة من هامش: ب بظ الشيخ - رحمه الله -

فيان المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهاها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطمعتموهم﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بتجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، ويعتمد التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصى إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا

الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقرار الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تخفي عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ويدخل تحت هذا النهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام والتهتم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً. ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعه من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام، ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله فما لم يفعله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿مَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً يضلون بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بغير علم﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبهة، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والخرج، من

كانوا يعملون * وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴿ يقول تعالى : ﴿ أو من كان ﴾ من قبل هداية الله له ﴿ ميتاً ﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي ؛ ﴿ فأحييناه ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة ، فصار يمشي بين الناس في النور ، متبصراً في أموره مهتدياً لسيبله ، عارفاً للخير مؤثراً له ، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره ، عارفاً بالشر ، مبيغضاً له ، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره . أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات ، ظلمات الجهل والغي ، والكفر والمعاصي .

﴿ ليس بخارج منها ﴾ قد التبست عليه الطرق ، وأظلمت عليه المسالك ، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء . فنية تعالي العقول بما تدركه وتعرفه ، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار ، والضيء والظلمة ، والأحياء والأموات .

فكانه قيل : فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل ، أن يكون بهذه الحالة ، وأن يبقى في الظلمات متحيراً : فأجاب بأنه ﴿ زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ، ويزينها في قلوبهم ، حتى استحسوها ورأوها حقاً . وصار ذلك عقيدة في قلوبهم ، وصفة راسخة ملازمة لهم ، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح . وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون ، وفي باطلهم يترددون غير متساوين .

فمنهم : القادة ، والرؤساء ، والمتبعون ، ومنهم : التابعون المرؤوسون ، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال ، ولهذا قال :

﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾ أي : الرؤساء الذين قد كبر جرمهم ، واشتد طغيانهم ﴿ ليمكروا

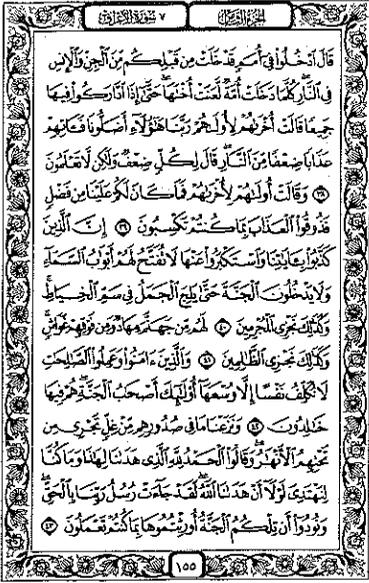
فيها ﴾ بالخدعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ، ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل ، وإنما مكروهم وكيدهم يعود على أنفسهم ، لأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله ، ويسلكون بذلك السبيل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم الله ويسدد رأيهم ويثبت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتقين .

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم ، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل ، حسداً منهم وغبياً ، فقالوا : ﴿ لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ من النبوة والرسالة . وفي هذا اعتراض منهم على الله ، وعجب بأنفسهم ، وتكبر على الحق الذي أنزله الله على أيدي رسله ، وتحجر على فضل الله وإحسانه .

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد ، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين ، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين ، فقال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فمن غلظه يصلح لها ، ويقوم بأعبائها ، وهو متصف بكل خلق جميل ، ومتبرؤ من كل خلق دنيء ، أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً ، ومن لم يكن كذلك ، لم يضع أفضل مواهبه ، عند من لا يستأهله ، ولا يزره عنده .

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالي ، لأنه وإن كان تعالي رحيماً واسع الجود كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله ، ثم توعد المجرمين ، فقال : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ﴾ أي : إهانة وذل ، كما تكبروا على الحق أذلهم الله . ﴿ وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ أي : بسبب مكروهم ، لا ظلماً منه تعالي .



﴿ ١٢٥ ﴾ ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ يقول تعالي - مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته ، وعلامة شقاوته وضلاله - : إن من انشرح صدره للإسلام ، أي : اتسع وانفسح ، فاستنار بنور الإيمان ، وحيي بضوء اليقين ، فاطمأن بذلك نفسه ، وأحب الخير ، وطوعت له نفسه فعله ، متلذذاً به غير مستثقل فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ، ومن عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق .

وإن علامة من يرد الله أن يضله ، أنه يجعل صدره ضيقاً حرجاً . أي : في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين ، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء ، أي : كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه .

وهذا سببه عدم إيمانهم هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم ، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان ، وهذا ميزان لا يحول ، وطريق لا يتغير ، فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، يسره الله لليسرى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ،

مولاه واتبع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودينه.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات وما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» يقول تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزيروا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

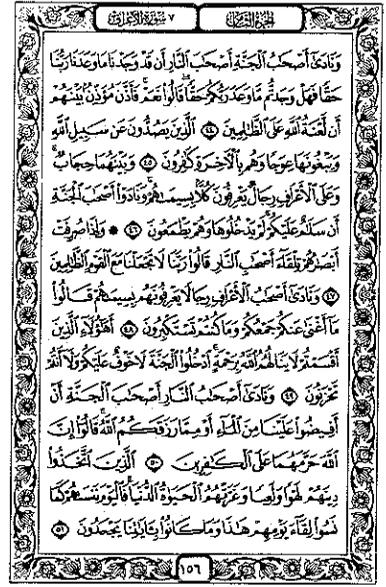
﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات وما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» يقول تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزيروا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات وما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» يقول تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزيروا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات وما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» يقول تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزيروا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات وما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» يقول تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزيروا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * لكل درجات وما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» يقول تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزيروا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟



فيسيره للعسرى

﴿١٢٦ - ١٢٧﴾ «وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون * لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون» أي: معتدلاً، موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو «لقوم يذكرون» فأنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزء الجزيل، والأجر الجميل، فلماذا قال: «لهم دار السلام عند ربهم» وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه التمتنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وهو وليهم﴾ الذي تولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن

العذاب، وبأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير ماجورين فيه ولا محتسبين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاية ظلم واعتساف، ثم ويخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده، من الجن والإنس، وبين خطأهم فاعترفوا بذلك، فقال:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي الواضحات البينات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشر، والوعد والوعيد.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه، والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، ف ﴿قالوا﴾ بل شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا ﴿بزينتها وزخرفها، ونعيمها، فاطمأنوا بها ورضوا، وألبتهم عن الآخرة، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حيثئذ كل أحد، حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم: ﴿حكما عليهم بالعذاب الأليم:﴾ ﴿ادخلوا في﴾ جملة ﴿أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس﴾ صنعوا كصنعتكم، واستمتعوا بخلافهم كما استمتعتم، وحاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين، أي: الأولون من هؤلاء والآخرون، وأي: خسران أعظم من خسران جنات النعيم، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتروا في الخسران، فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتاً عظيماً.

﴿ولكل﴾ منهم ﴿درجات مما عملوا﴾ بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرؤوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتروا في

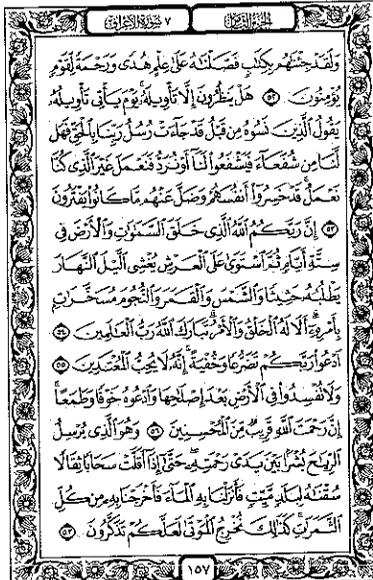
الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قدرضوا بما أتاهم مولا هم، وقنعوا بما جباهم.

فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفة من أهل واداه.

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فيجازي كلا بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم وقصداً لمصالحهم، ولأفهم الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين.

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ بالإهلاك ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴿فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم اتخذوها قراراً؟ وتوطئتم بها ونسيتم، أنها دار ممر لا دار مقر. وأن أمامكم داراً، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟

وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويرحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فتم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله، ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب، فلله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإزادة سمت إلى أعلى الدرجات!! وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون!! ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة



الوصول إلى هذه الدار، ف ﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾ الله، فارين من عقابه، فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدييره وتصرفه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله، وبيئت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه، فامتنعوا من الانقياد لأمره واتبعوا أهواءهم، واستمروا على شركهم: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، ورضيتموها لأنفسكم. ﴿إني عامل﴾ على أمر الله، ومنتبِع لمراضي الله. ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم حيث بين الأعمال وعاملها، وجعل الجزاء مقروناً بنظر البصير، ضارباً فيه صفحاً عن التصريح الذي يعني عنه التلويح. وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عن ما جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ فكل ظالم. وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته آفة الأضمحلال والتلف. إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿١٣٦ - ١٤٠﴾ ﴿وجعلوا﴾ الله تما ذراً من الحرث والأنعام تصيباً فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا شركائنا فما كان

أولادهم، وهو: الواد، الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنع ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ومنع أولادهم عن قتل الأبرين لهم، ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخليه بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي: محرم لا يطعمها إلا من نشاء﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة. وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهورها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك. ﴿سيجزيم بما كانوا يفترون﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع. ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون

محظورين، بل ثلاثة محاذير، منهم على الله في جعلهم له نصيباً، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يتموا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسماً:

قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل من أشرك به.

وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

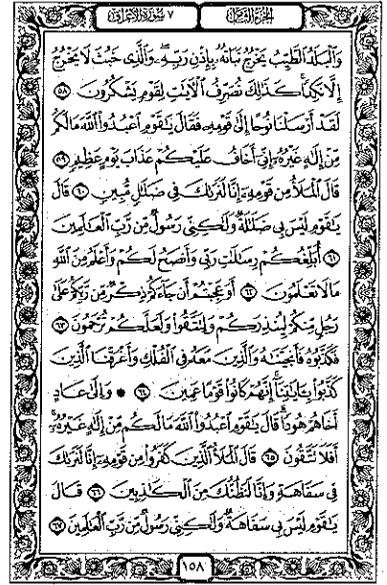
فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لألئهم إلى ما جعلوه لله، رده إلى محله، وقالوا: إنها فقاء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم، وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقرّبوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل



لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورتنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين * يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعند تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم لئنه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ولشركائهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين

بعض الأنعام ويعينوها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ما في بطن هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أي: نساتنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سيجزيهم﴾ الله ﴿وصفهم﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿إنه حكيم﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عليم﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيتهم ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بين خسراهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم، وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي والضلال.

﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿افتراء على الله﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿١٤١﴾ ﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ كما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام

فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

﴿معروشات وغير معروشات﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرش في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرضونها وينمونها.

﴿و﴾ أنشأ تعالى ﴿النخل والزرع مختلفاً أكله﴾ أي: كله في محل واحد، وشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوة لأكثر الخلق. ﴿و﴾ أنشأ تعالى ﴿الزيتون والرمان متشابهاً﴾ في شجره ﴿وغير متشابه﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي: شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كلوا من ثمره﴾ أي: النخل والزرع ﴿إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حوران الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حيثئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتمييز المخرج بمن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب

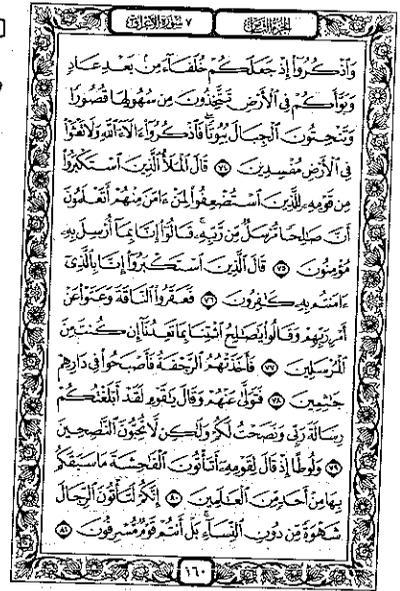
﴿١٤٢﴾ ﴿ومن الأنعام حولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعضوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين تبؤوني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افتري على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم

الزكاة في شمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزرع، وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفریط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمناها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خارصاً يحرص للناس شمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعترتها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿١٤٣ - ١٤٤﴾ ﴿ومن الأنعام حولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعضوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين تبؤوني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افتري على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم



ولا الإناث الخالص من الصنفين .
 بقي إذا كان الرحم مشتتاً على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال : ﴿أم﴾ تحرمون ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي : أنثى الضأن وأنثى المعز ، من غير فرق بين ذكر وأنثى ، فليست تقولون أيضاً بهذا القول .
 فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرنا الأقسام الممكنة في ذلك ، فيلأي أي : شيء تذهبون ؟

﴿نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ في قولكم ودعواكم ، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل ، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة . وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التي يسطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإناث دون الذكور ، أو محرمة في وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب ، والعقول المختلة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان ، ولا لهم عليه حجة ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم وفساده ، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته ، إلا في اتباع شرع الله . ﴿أم﴾ كنتم شهداء إذ وصاكم الله ﴿أي : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصدقها . وهي أن تقولوا : إن الله وصانا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله ، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب ، وهذا افتراء لا يجمله أحد ، ولهذا قال : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي : مع كذبه وافتراءه على الله ، قصده بذلك ، إضلال عباد الله عن سبيل الله ، بغير بيته منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل . ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا إرادة لهم في

الظالمين﴾ أي : ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿من الأنعام حولة وفرشاً﴾ أي : بعضها تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرهما كالفصلان ونحوها ، وهي الفرش ، فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع ، فإنها كلها تؤكل ويستفح بها . ولهذا قال : ﴿كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي : طرقه وأعماله التي من جعلتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله . ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضررتكم وشقاؤكم الأبدية .

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالاً طيباً ، فصلها بأنها : ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين﴾ ذكر وأنثى ﴿ومن المعز اثنين﴾ كذلك ، فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها ، فقل لهؤلاء المتكلمين ، الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا ﴿الذكريين﴾ من الضأن والمعز ﴿حرم﴾ الله ، فليست تقولون بذلك وتطردونه ، ﴿أم الأنثيين﴾ حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم الذكور الخالص ،

غير الظلم والجور والافتراء على الله .
 ﴿١٤٥ - ١٤٦﴾ ﴿قل لا أجد في ما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ وعلى الذين هادوا حرماً كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيرهم وإنا لصادقون﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم . أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال ، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله : ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم﴾ أي : محرماً أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .
 ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل . كما قال تعالى : ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ .
 ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم ، ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي : فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس ، أي : حيث نجس مضر ، حرمه الله لظفأ بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الحياث .
 ﴿أو﴾ إلا أن يكون ﴿فسقاً﴾ أهل لغير الله به﴾ أي : إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون ، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، أي : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمة ، من اضطر إليها ، أي : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل

وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة
لبأس الله، التي أعظمها ورأسها
تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿سيقول الذين
أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا
ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين
من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل
عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون
إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون * قل
فille الحجة البالغة فلو شاء لهداكم
أجمعين﴾ هذا إخبار من الله أن
المشركين سيحتجون على شركهم
وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء
والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة
لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم
في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم
سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى:
﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما
عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تنزل
الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة
الرسول ويحتجون بها، فلم تجد فيهم
شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم
حتى أهلكتهم الله وأذاهم بأسه.
فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت
عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم
العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن
استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة،
وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت
صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون
حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما
إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن
والخرص الذي لا يغني عن الحق
شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل
هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ فلو
كان لهم علم - وهم خصوم آداء -
لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه
لا علم عندهم. ﴿إن تتبعون إلا الظن
وإن أنتم إلا تحرصون﴾ ومن بنى
حججه على الخرص والظن، فهو مبطل

به، وما سوى ذلك فحلال.
ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على
هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد
يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من
أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة
النصارى وأشباههم، فيمنونها كما
ينمون المواشي، ويستحلونها،
ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا
المحرم على هذه الأمة كله^(١) من باب
التزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب،
فعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة
لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا
حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما
أشبهها وحرمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها،
وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم
جميع الشحوم منها، بل شحم الألية
والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال
من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت
ظهورها أو الحوايا﴾ أي: الشحم
المخالط للأعضاء ﴿أو ما اختلط
بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود
﴿جزيناهم ببغيهم﴾ أي: ظلمهم
وتعديهم في حقوق الله وحقوق
عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء
عقوبة لهم ونكالا. ﴿وإننا لصادقون﴾
في كل ما نقول ونفعل ونحكم به،
ومن أصدق من الله حديثاً، ومن
أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ ﴿فإن كذبوك فقل ربكم
ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم
المجرمين﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء
المشركون، فاستمر على دعوتهم،
بالتريغيب والترهيب، وأخبرهم
بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة
شاملة [جميع] للمخلوقات كلها،
فسارعوا إلى رحمة بأسبابها، التي رأسها
وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما
جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم
المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء
وخاف على نفسه التلف ﴿غير باغ ولا
عاد﴾ أي: ﴿غير باغ﴾ أي: مريد
لأكلها، من غير اضطرار ولا متعدي،
أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة
عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باغ ولا
عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: فالله
قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا
الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم
عمرات لم تذكر فيها، كالسباع وكل
ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال
بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم
ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا
الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد
ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في
ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه
الآية مشتملة على سائر المحرمات،
بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من
المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم
ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط:
﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل
محرم، فإن المحرمات كلها رجس
وحيث، وهي من الحيث المستقدرة
التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم
وتكرمة عن مباشرة الحيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من
السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين
المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم
من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم
لا يكون مصدره إلا شرع الله - دل
ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما
رزقهم الله مفترون على الله، متقولون
عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا
أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن
السياق في نقض أقوال المشركين
المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله
وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت
لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام
خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في
الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله

(١) في ب: كلها.

خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحججة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعملم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) الفاطعة باطل، لأن نقبض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومنتزجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضر أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم!!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الضائل، فهم يدفخونه بكل ما يحظر ببالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(٢).

﴿١٥٠﴾ ﴿قل هللم شهداءكم

الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحدًا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة -: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: يسنون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١ - ١٥٣﴾ ﴿قل تعالوا أتل

ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقيسط لا تكلف

نفساً إلا وسمها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات، من المأكّل والمشرب والأقوال والأفعال. ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرّف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

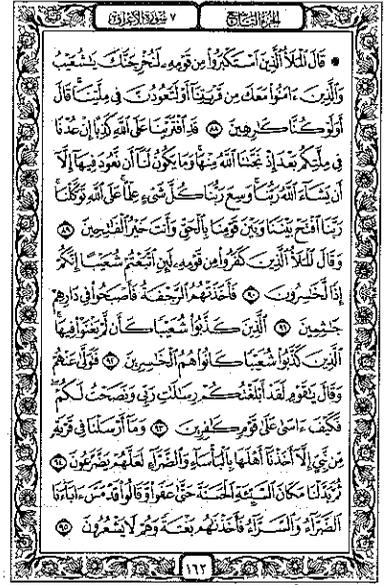
ثم بدأ يأكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منبهين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيتهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.



من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جملتها وتماها إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها. ﴿وهدى ورحمة﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع. ﴿ورحمة﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير. ﴿لعلهم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وهذا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر، إلا وقد نهى عنه وحذرت منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فاتبعوه﴾ فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿واتقوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لعلكم﴾ إن اتبعتموه ﴿ترحمون﴾

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعباداً.

﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا، [بعدم] بكمالها وتامها، فحصل لكم بكتابتكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿بما كانوا يصدفون﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيئ ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تحصر المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند

الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿١٥٨﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، ﴿إلا أن تأتيهم﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال. ﴿أو يأتي ربك﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الفريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقبل عمّا هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده،

وكفرتنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾.

أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشرىين .

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي وذبيحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي: ما أتته في حياتي، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي الجميع ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بذلك أمرت﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعة إلا بامثاله ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة.

﴿قل أغير الله﴾ من المخلوقين ﴿أبغي رباً﴾ أي: أحسن ذلك ويليقي، أن اتخذ غيره مريباً ومدبراً والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، مقادون لأمره!!!

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين . ثم رغب ورهب بذكر^(١) الجزاء فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس من خير وشر إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم

بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائل الأصولية والفروعية . وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء، فقال: ﴿ومن جاء بالحسنة﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فله عشر أمثالها﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلها﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾.

﴿١٦١ - ١٦٥﴾ ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴿لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويعلق حينئذ باب التوبة . ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قل انتظروا إننا منتظرون﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشرار الساعة طلوع الشمس من مغربها. وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه . فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتمو إذا كان مع العبد الإيمان . فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴿يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية . أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر

(١) في ب: بذلك.

القيامة ﴿فبينكم بما كنتم فيه مختلفون﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك، أوفى الجزاء.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق. ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ فتفاوتت أعمالكم. ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وإنه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والشأن وصلى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المجلد الثالث من تفسير الرحمن في تفسير القرآن لعامة الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق الكلام فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تحش لآثماً معارضاً.

﴿لتنذر به﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين. ﴿و﴾ ليكون ﴿ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألتفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق. ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة، لما أترتم الضار على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءهم به رسلهم، لئلا يشابههم (٢) فقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يحظر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم الهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾.

وقوله: ﴿فلنسالن الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسالن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ الآيات.

﴿ولنسالن المرسلين﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أعمهم.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بعلم﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

﴿٨-٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المئان: علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف غفر الله له وأتابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته نسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران بفضل وكرمه، إنه قريب مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أمين ثم أمين يا رب العالمين.

(٢) في ب: فلا يشابهونهم.

فيه ولا ظلم بوجهه ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الريح العظيم، والسعادة الدائمة.

﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها، ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ فلم يتقوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿١٠﴾ ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون﴾ يقول تعالى تمتاً على عباده بذكر السكن والمعيشة: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي: هيأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها وسخر أساليبها.

﴿قليلاً ما تشكرون﴾ الله، الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿١١- ١٥﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرنى إلى يوم يعثون * قال إنك من المنظرين * يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿ولقد خلقناكم﴾ بخلق أصلكم ومادتم التي منها خرجتم: أيكم آدم عليه السلام ﴿ثم صورناكم﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء.

ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم، إكراماً واحتراماً، وإظهاراً

لفضله، فامتثلوا أمر ربهم، ﴿فسجدوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إلا إبليس﴾ أي أن يسجد له، تكبراً عليه وإعجاباً بنفسه، فوبخه الله على ذلك وقال: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ لما خلقت بيدي، أي: شرفته وفضلته بهذه الفضيلة، التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري وتهاوت بي؟

﴿قال﴾ إبليس معارضاً لربه: ﴿أنا خير منه﴾ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين، لعلو النار على الطين وصعودها، وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنه باطل من عدة أوجه:

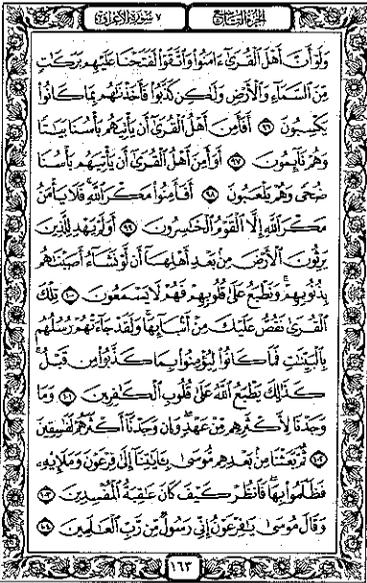
منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس، أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعاً لها.

فأما قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاء النص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أن قوله: ﴿أنا خير منه﴾ بمجرد كافي لتقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجاب نفسه وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأي: نقص أعظم من هذا!!!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخفة والطيخ والإحراق.

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السفالين، فقال الله له: ﴿فاهبط منها﴾ أي: من الجنة ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخيخ خلق الله



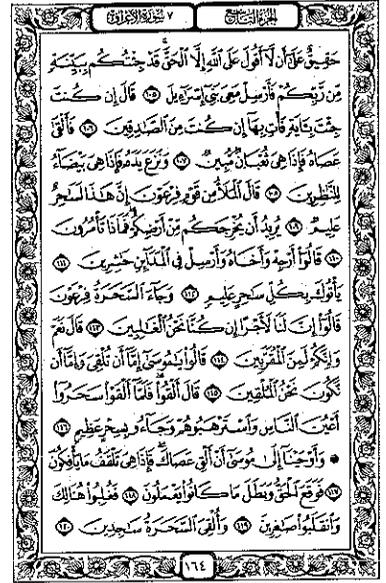
وأشرفهم.

﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ أي: المهانين الأذلين، جزاءً على كبره وعجبه بالإهانة والذل.

فلما أعلن عدو الله بعداوة الله، وعداوة آدم وذريته، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطع عن بطبع عدوه، أجابه لما سأل، فقال: ﴿إنك من المنظرين﴾

﴿١٦- ١٧﴾ ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا نجد أكثرهم شاكرين﴾ أي: قال إبليس - لما أبلس وأيس من رحمة الله - ﴿فيما أغويتني لأقعدن لهم﴾ أي: للخلق ﴿صراطك المستقيم﴾ أي: لألزم الصراط ولاسعى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

﴿ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم.



ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً يبذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فإن القيام بالشكر من سننك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لتأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومدخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴿١٨﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام بل ﴿مذموماً﴾ أي: مذموماً مدحوراً ﴿مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير﴾.

﴿لأملأن جهنم﴾ منكم ﴿أجمعين﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿١٩ - ٢٣﴾ ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرِبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿٢٣﴾ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴿٢٤﴾ فدلها بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخسفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿٢٥﴾ قلنا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴿٢٦﴾ أي:

أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أرادا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائذة لنا. وحرم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزالا متمثلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها، وموه عليهما وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا مِنَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مِنَ السَّاكِنِينَ﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَذْكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكُ لَا يَبُولُ﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاعتزرا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فدلاهما﴾ أي: نزلها عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدا على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت

عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وناداهما ربهما﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ فلم اقترفتما المنهي، وأطعتما عدوكما؟ فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: قد فعلنا الذنب، الذي نبيتنا عنه، وضرينا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى﴾.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتبه الله وهداه.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ قال فيها تمحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿٢٥﴾ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴿٢٦﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرها بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوه الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي

المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمناخ ونحوها، قد يسر الله للعباد ضروريتها، ومكمل ذلك، وإيّن لهم^(١) أن هذا ليس مقصوداً بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغاياته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالاً للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضاً فيتقدير عدم هذا اللباس، تتكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تتكشف عورته الباطنة، ويناله الخزي والفضيحة.

وقوله: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما يتفعلكم ويضركم، وتشبهون^(٢) باللباس الظاهر على الباطن.

﴿٢٧﴾ ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ يقول تعالى عذراً لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه، فتتقادون له ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتى يفتننكم إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لامة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف ﴿إنه﴾ يراقبكم على الدوام، و ﴿يراكم هو وقبيله﴾ من شياطين الجن ﴿من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿وإذا فعلوا فاحشة

قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون﴾ قريباً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يقول تعالى مبيهاً لخبخ حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها. ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ وهي: كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عرة ﴿قالوا: وجدنا عليها آباءنا﴾ وصدقوا في هذا. ﴿والله أمرنا بها﴾ وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي: افتراء أعظم من هذا!!

ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿قل أمر ربى بالقسط﴾ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور. ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً «الصلوة» أقيموا، ظاهراً وباطناً، ونقروها من كل نقص ومفسد. ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه



وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراؤا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه.

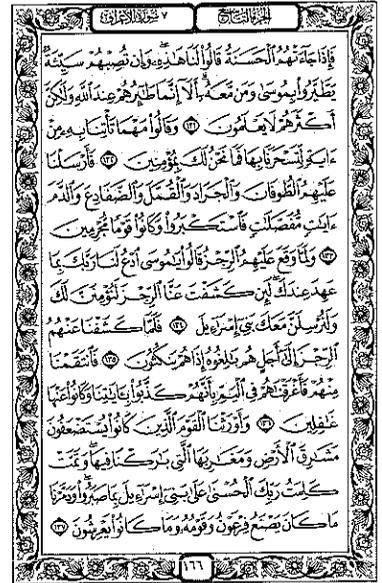
﴿كما بدأكم﴾ أول مرة ﴿تعودون﴾ للبعث، فالقادر على بدء خلقكم، قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداية.

﴿فريقاً﴾ منكم ﴿هدى﴾ الله، أي: وفقهم للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرّف عنهم موانعها. ﴿وفريقاً﴾ حق عليهم الضلالة﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية.

ف ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ ﴿ومن اتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكّلوا إلى أنفسهم فخرسوا أشد الخسران. وهم يحسبون أنهم مهتدون، لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً والحق باطلاً، وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتسكره العقول، وأنه لا يأمر إلا

(٢) هكذا في أ، وفي ب: وتستنصرون.

(١) زيادة من هامش ب.



الكبار التي تستفحش وتستقبح لشاعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والتفاني، ونحو ذلك، ﴿والإثم والبغى بغير الحق﴾ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغى على الناس في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

﴿٣٤﴾ ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم

الحلال إلى الحرام. ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضرب بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعملون﴾ يقول تعالى منكراً على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيّق عليهم ما وسعه الله!!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لقوم يعلمون﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فضله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ أي: الذنوب

بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومته، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجعله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿٣١﴾ ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلموا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواتهم وريشاً: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها، ونظافة البستر من الأذناس والأنجاس.

ثم قال: ﴿وكلموا واشربوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات ﴿ولا تسرفوا﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المأكول والمشرب واللباس، وإما بتجاوز

أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فمن اتقى﴾ ما حرم الله، من الشرك والكبائر، والصغائر، ﴿وأصلح﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فلا خوف عليهم﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدى.

﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿٣٧﴾ ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءهم رسنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو القول عليه ما لم يقل، ﴿أو كذب بآياته﴾ الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهو لاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمعنى عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً، ﴿حتى إذا جاءهم رسنا يتوفونهم﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم. ﴿قالوا﴾ لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء.

﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ مستحقين للعذاب المهيئ الدائم.

فقال لهم الملائكة ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي: في جملة أمم ﴿قد خلقت من قبلكم من الجن والإنس﴾ أي: مضوا

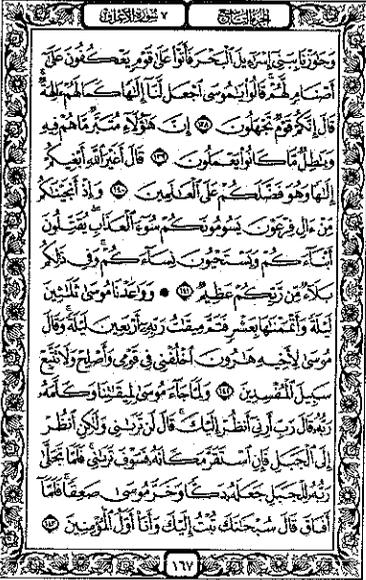
على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي واليوار، كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لعنت أختها﴾ كما قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ حتى إذا أذركوا فيها جميعاً أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين الأتباع.

﴿قالت أحرارهم﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء ﴿لأولاهم﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين أضلونا فأنهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أضلونا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

﴿٣٩﴾ ﴿وقالت أولاهم لأحرارهم﴾ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي: قد اشركنا جميعاً في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأى: فضل لكم علينا؟ ﴿قال﴾ الله ﴿لكل﴾ منكم ﴿ضعف﴾ ونصيب من العذاب.

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائهم أعظم من ثواب الأتباع، قاله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ذنابهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فهذه الآيات ونحوها، دللت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

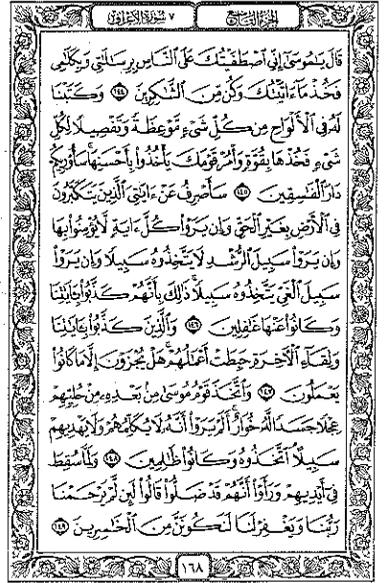
﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك



نجزي المحرمين * لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بيّنات، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن فلا يؤذن لها، كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء حتى تخرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبهج بالقرب من ربه والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ وهو البعير المعروف ﴿في سم الخياط﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً، في خرق الإبرة، الذي هو من أصيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال، أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة



الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: لا يتحولون عنها ولا يبعثون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي: يفجرونها تفجيراً، حيث شاءوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخذود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿ولها ما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به﴾ قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴿بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فأمنت به، وأنقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم

الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون، ولا يعده العادون، ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من هدايته واتباع رسله.

﴿لقد جاءت رسلنا بالحق﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم، لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين، لا مزية فيه ولا إشكال، ﴿ونودوا﴾ تهنئة لهم وإكراماً، وتحية واحتراماً، ﴿أن تلکم الجنة أورثتموها﴾ أي: كتتم الوراثة لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، وأورثتموها ﴿بما كتتم تعملون﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ ﴿وننادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً وهم بالأخرة كافرون﴾ يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حقاً قالوا نعم﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قبلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

وماواه النار﴾ وقال هنا ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسلنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبيد، قال تعالى: ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

إلى أن قال: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون﴾ واختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

والصحيح في ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿٥٠ - ٥٣﴾ ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حزمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّبهم الحياة الدنيا فاليوم تنسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون * ولقد جفناهم بكتاب فضلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا أو نردّ نعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ، وحين يمسهم الجوع المفرط والظمأ الموجه، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إن الله حزمهما﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لهواً ولعباً﴾ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرياً، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن

يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا منظرأ شنيعاً، وهو لا فظيماً ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فأهل الجنة [إذا رأهم أهل الأعراف] ^(١) يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أمة وشرف، وأموا وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا منغيث: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكارة، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أهؤلاء﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته﴾ احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم، قد حنثتم في إيمانكم، وبدل لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب، ﴿ادخلوا الجنة﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خوف عليكم﴾ فيما يستقبل من المكارة ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ على ما مضى، بل أنتم مطمئنون فرحون بكل خير.

وهذا كقولته تعالى: ﴿إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون﴾

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال ﴿أن لعنة الله﴾ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿على الظالمين﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصدوا غيرهم، فضلوا وأضلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه، ﴿و﴾ هوؤلاء يريدونها ﴿هوجاً﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿٤٦ - ٤٩﴾ ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم، أي: علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ أي: الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم

الدين القيم .

﴿وَعَزَّمْ بِحَيَاةِ الدُّنْيَا بِيْزِينَتِهَا وَزَخْرَفَهَا وَكثُرَةِ دَعَاتِهَا، فَاطْمَأْنَوْا إِلَيْهَا وَرَضُوا بِهَا وَفَرَحُوا، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآخِرَةِ وَنَسَوَهَا .

﴿فَالْيَوْمَ نُنْصَاهُمْ﴾ أي : نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء .

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيناته، بل قد ﴿جَحِثْنَاهُمْ﴾ بكتاب فصلناه ﴿أَي : بَيْنَا فِيهِ جَمِيعَ الْمَطَالِبِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْخَلْقُ﴾ على علم ﴿مِنْ اللَّهِ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَمَا يَصْلُحُ لَهُمْ وَمَا لَا يَصْلُحُ، لَيْسَ تَفْصِيلُهُ تَفْصِيلَ غَيْرِ عَالِمٍ بِالْأُمُورِ، فَتَجَهَّلَهُ بَعْضُ الْأَحْوَالِ، فَيُحْكَمُ حُكْمًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ، بَلْ تَفْصِيلٌ مِنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَوَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي : تحصيل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغنى والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي : الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فيتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا اتقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقتهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي : وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلِ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم . مفرين بما أخبرت به الرسل : ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنُصَلِّمْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لِكَاذِبُونَ﴾ .

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حين فوتوا الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مما تمنينهم أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخُورَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عظيمهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، ويديع خلقهما .

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿اسْتَوَى﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال : ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿النَّهَارَ﴾ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار .

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبدأ على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، ويتقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخُورَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي : بتسخيره وتدييره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي : له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي : عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال : ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الأبواب على أنه وحده، المعبود المقصود في الخرائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال :

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُضْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الدَّعَاءُ يَدْخُلُ فِيهِ دَعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، وَدَعَاءُ الْعِبَادَةِ، فَأَمْرٌ بِدَعَائِهِ تَضَرُّعًا﴾ أي : إلحاحاً في المسألة، ودؤوباً في العبادة، ﴿وَخُضْيَةً﴾ أي : لا جبراً وعلانية يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى .

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي : المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل

لا تصلح له، أو يتنطق في السؤال، أو يبلغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بعمل المعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدلل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الجفوية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

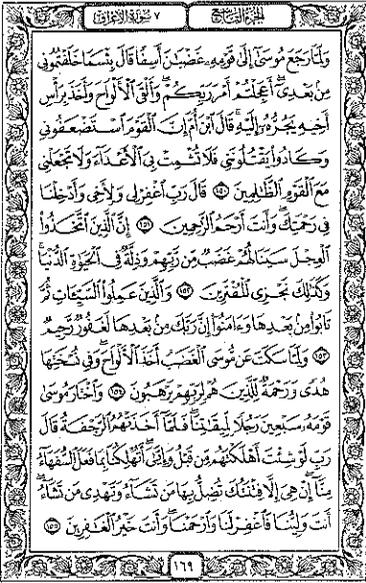
﴿٥٧-٥٨﴾ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرت الآيات لقوم يشكرون * بين تعالى أثراً من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وهو أنذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلد الطيب﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر يخرج نباته الذي هو مستعد له ﴿بإذن ربه﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك.

﴿والذي خبث﴾ من الأراضي ﴿لا يخرج إلا نكداً﴾ أي: إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كذلك نصرت الآيات لقوم يشكرون﴾ أي: تنوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمة، والإقرار بها، وصرافها في مرضاة الله،

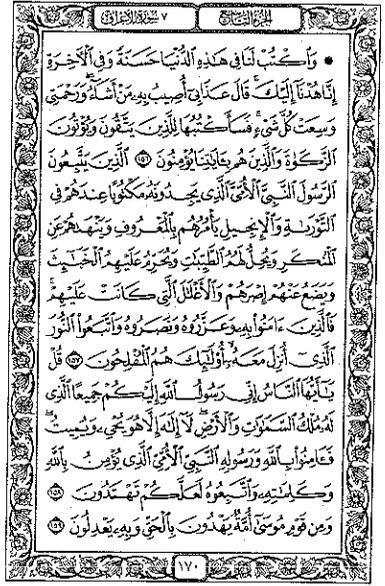
(١) في ب: ذكر الآيات كاملة.



فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربه، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحيا، فإن القلوب الطيبة حين يحييها الوحي، تقبله وتعلمه وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ الآيات.

﴿٥٩-٦٤﴾ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إلى آخر القصة (١) لما ذكر تعالى من أدلة توحيد حمله صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيدهم مع أنهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عاندهم ولم يتقدم لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد



لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تفني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربيات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلمهم ينقادون له فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأتصح لكم﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيد وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقة وصدقه وحاله!!!

﴿وأعرفنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البيّنات، ما بهم يؤمن أولوا الأبواب، فسخرها منه، واستهزؤوا به وكفروا.

﴿٦٥ - ٧٢﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض.

﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ سخطه وعذابه، إن أقمت على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إننا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: ما تراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحکم عما هم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقاً الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من

ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان﴾ فقال لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده ﴿مالكم من إله غيره﴾ لأنه الخالق الرازق المدبّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أفحج رد.

﴿٦٥﴾ ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبعون الذين جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إننا لنراك في ضلال مبين﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيناً، واضحاً لكل أحد.

وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي

(١) في ب: كتب الآيات كاملة.

لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار!!

وأني كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى!!

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ﴿ولكنني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ .

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والالتقاد وطاعة رب العباد .

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي : كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين .

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي : واحذروا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين

كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿و﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن زادكم في الخلق بسطة ﴿في القوة وكبر الأجسام، وشدة البطش﴾ ، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي : نعمه الواسعة، وآيابه المتكررة ﴿لعلكم﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها

﴿تفلقون﴾ أي : تفوزون بال مطلوب، وتنجون من المهروب، فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا .

﴿ف﴾ قالوا ﴿متعجبين من دعوته، وخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه:

﴿اجئتنا لتعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ قبحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور، من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا بنيه، وقالوا: ﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا استفحاح منهم على أنفسهم .

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي : لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك ﴿اتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي : كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة و ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه

﴿فانتظروا﴾ ما يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ وفرق بين الانتظرين، انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والشواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فأتجنبتاه﴾ أي : هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴿فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمة فأنجاهم برحمته، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾

أي : استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت

وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنذَرَتْهُمُ النَّارَ الَّتِي هُمْ فِيهَا مَكِينٌ ﴿٧٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْذِرَ الْقَوْمَ إِذَا كَفَرُوا ﴿٧٥﴾ وَاللَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُجْزِيَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾

عليهم الحجج، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي والنضيحة . ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ .

وقال هنا: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعدا، وعتهم الكبر والفساد .

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم (١) . أي : ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة

العرب، أرسل الله إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾ نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله مالم يكمن من إله غيره﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿قد جاءتكم بيضة من ربكم﴾ أي : خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي : هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها

(١) في ب: كتب الآيات كاملة .

وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم. ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها، رعى ثلاث رغيات، وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يمله تعالى ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحاً قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي: لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوعدت يوماً فيوماً على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم، واصفرارهم واسودادها من العذاب] (١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟! فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله، فعل الرأس والعين، وهو ما أمر القرآن باتباعه ﴿وما أتاكم

أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة﴾، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي: لا تحربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

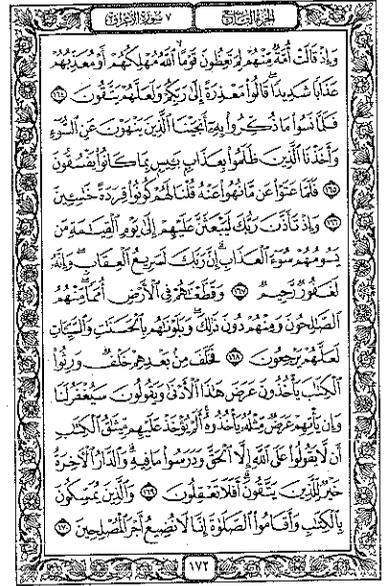
﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿للملأ استضعفوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

فقال المستضعفون: ﴿إننا بما أرسل به مؤمنون﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونبيه.

﴿قال الذين استكبروا: إننا بالذي آمنتم به كافرون﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

﴿فعمقروا الناقة﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿ووعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتاه أذاقه العذاب الشديد. لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿وقالوا﴾ مع هذه الأفعال متجربين على الله، معجزين له، غير مباليين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب، فقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم، ﴿فتولى عنهم﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب، ﴿وقال﴾ مخاطباً لهم توبيخاً وعتاباً، بعدما أهلكهم الله: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به



إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾. وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فذروها تاكل في أرض الله﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقر أو غيره، ﴿فياخذكم عذاب أليم﴾.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء في الأرض تستمعون بها وتدركون مطالبكم﴾ من بعد عاد الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿ويوأيكم في الأرض﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، ﴿وتنتحون الجبال بيوتاً﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾

(١) زيادة من هامش ب.

سلط عليكم عدواً يحتاجكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراك الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والابنتات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا وهم الجمهور منهم﴾ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهاوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لتبهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا وأتبعوا أهواءهم وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.

ذ «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى تودعه إن لم يتابعهم - بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ذ «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أننا نكرههم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنبهية عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والحزني الدائم.

﴿٨٥ - ٩٣﴾ ﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين آخاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء الكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعمد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس ﴿بكل صراط﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثُر سلوكها، تحذرون الناس منها و﴿توعدون﴾ من سلوكها و﴿تصدون﴾ عن سبيل الله﴾ من أراد الاهتداء به و﴿تبغونها عوجاً﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة الله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: نماك بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجوز بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لوطاً﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بينها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محل تخرج منه الأنتان والأخبث، التي يستحى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة. ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأتجنيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي: الباقيين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهله ليلاً، فإن العذاب مصبح قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

(٢) في ب: أورد الآيات كاملة.

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

يدعى إليها!!

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: أشهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك. ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسبهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها. ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هدامهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأحل المحال.

وحيث إن الله من عليهم يعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد وسع ربنا كل شيء علماً ﴿فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. ﴿على الله توكلنا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودينه.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وأنت خير فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصلحين، فسالوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يرهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ محذرين عن اتباع شعيب، ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يفنوا فيها﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفتنوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارج أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والندركات ولهذا قال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾،

فحين هلكوا تولى عنهم نبينهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقال﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم ﴿ونصحت لكم﴾ فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحققهم، فعياًذاً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: إلا ابتلاهم الله ﴿بالبأساء والضراء﴾ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلايا. ﴿لعلهم﴾ إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. ﴿ثم﴾ إذا لم يقد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ فأذر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حتى عفوا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء. ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة

يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب «بغتة وهم لا يشعرون» أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما أتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا متقلبين عنه.

﴿٩٦ - ٩٩﴾ «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» * أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسول يتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخضب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا: «فأخذناهم بما كانوا يكسبون» بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو واخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة. «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون».

﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي: المكذبة، بقرينة السياق «أن يأتيهم بأسنا» أي:

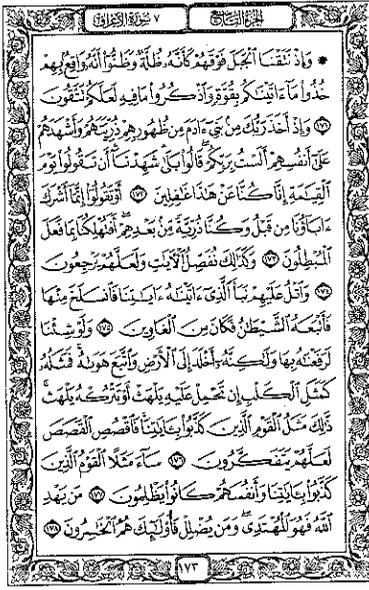
عذابنا الشديد «بياتاً وهم نائمون» أي: في غفلتهم، وغرتهم وراحتهم. «أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك؟! «فأمنوا مكر الله» حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين، «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» فإن من آمن من عذاب الله، فهو (١) لم يصدق بالجزء على الأعمال، ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان. بل لا يزال خائفاً وجللاً أن يبتهل ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

﴿١٠٠ - ١٠٢﴾ «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» * تلك القرى نقص عليك من أنبيائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين» يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين (٢): «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم» أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك

﴿١٠٢ - ١٠٤﴾ «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» * تلك القرى نقص عليك من أنبيائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين» يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين (٢): «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم» أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك

﴿١٠٤ - ١٠٦﴾ «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» * تلك القرى نقص عليك من أنبيائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين» يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين (٢): «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم» أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك



المهلكين؟

أو لم يهدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

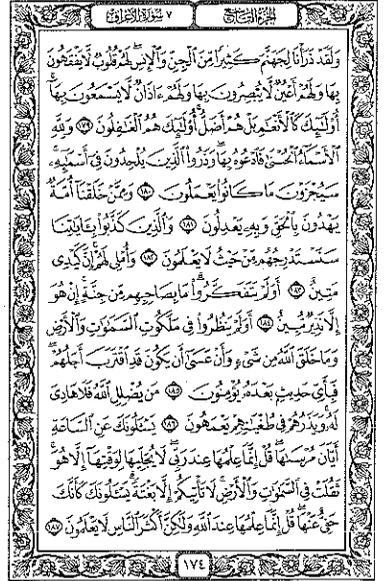
وقوله: «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» أي: إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يحتم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿تلك القرى﴾ الذين تقدم ذكرهم «نقص عليك من أنبيائها» ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

﴿ولقد جاءهم رسلهم بالبينات﴾ أي: ولقد جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبينات المبينات للحق بياناً كاملاً، ولكنهم لم يفدهم هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً، «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل» أي: بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهدبهم

(١) في ب: فإنه.

(٢) في هامش ب: بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين.



للإيمان، جزاء لهم على رددهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أُولَٰ مَرَّةً، وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. وكذلك يطبع الله على قلوب الكافرين عقوبة منه. وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فאלله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿١٠٣ - ١٧١﴾ ﴿ثم بحثنا من

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته﴾ إلى آخر قصته^(١). أي: ثم

بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبابرة، وهم فرعون وملئه، من أشرفهم وكبرائهم، فأراههم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فظلموا بها﴾ بأن لم يتقادوا لحقها الذي من لم يتقده له فهو ظالم، بل استكبروا عنها ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ كيف أهللكم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بس الرشد المرفود، وهذا يحمل فصله بقوله: ﴿وقال موسى﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿يا فرعون إني رسول من رب عظيم﴾، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جللتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

إذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.

فهذا موجب لأن يتقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ فألقى بموسى عصاه في الأرض

﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي: حية ظاهرة تسمى، وهم يشاهدونها.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقته، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لم وجاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلهذا ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: ماهر في سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه ﴿يريد﴾ موسى بفعله هذا ﴿أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي: يريد أن يجليكم^(٢) عن أوطانكم ﴿فماذا تأمرون﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يظله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا الفرعون: ﴿أرجه وأخاه﴾ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يبشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحر عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴿وقال هنا: وجاء السحرة فرعون﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا ﴿قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾؟ ﴿ف قال فرعون: نعم﴾ لكم أجر ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقاتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قالوا﴾ على وجه التآلي وعدم

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يا موسى إما أن تلقني﴾ ما معك ﴿وإما أن تكون نحن الملقين﴾ ف ﴿قال﴾ موسى: ﴿ألقوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما ألقوا﴾ حيالهم وعصبيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فألقاها ﴿فإذا هي﴾ حية تسعى، ف ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما يَأْكُوفُونَ﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ فغلبوا هنالك ﴿أي: في ذلك المقام﴾ وانشقروا صاغرين ﴿أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ قالوا آمننا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿آمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿آمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجور على.

ثم موه على قومه وقال: ﴿إن هذا لمكر مكرتوه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سير الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لأقطنن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿ثم لأصلبنكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه بأحد دون أحد، بل كلكم سيدوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إننا إلى ربنا منقلبون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن آمننا﴾ [آيات] ربنا [لما جاءتنا] ﴿١﴾ فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الشؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه،

ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للملأ، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظملاً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أتأذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ويذكر وألهتك﴾ أي: يدعك أنت وألهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا يتمون فيها، ويأمن ﴿فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿ستقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: نستبيهن فلا نقتلن، فإذا فعلنا ذلك أماناً من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومستخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرون معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيم أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿بورئها

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: آمننا برنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

من يشاء من عباده ﴿١﴾ أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، ﴿والعاقبة﴾ الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج.

﴿قالوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيته: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسوموننا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ذ ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً لهم ﴿١﴾ الفرج والخلاص من شرهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: يمكنككم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أرادته الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وسنته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون. الآيات: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾

أي: بالدهور والجذب، ﴿ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: الحصب وإدراج الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزولون، ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿والجراد﴾ فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم ﴿والقمل﴾ قيل: إنه الدبابة، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿والضفادع﴾ فمالات أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذتهم أذية شديدة ﴿والدم﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿آيات مفصلات﴾ أي: أدلة وبيانات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

عهد عندك﴾ أي: تشفوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوهم﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا أمتوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائنين.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في المداين حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ وإتهم لنا لغاظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فاتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين *.

وقال هنا: ﴿فأغرقتناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق. ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدماً لآل

بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وآله ﴿يَسْؤُونَكُمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم النجاة من عذابهم ﴿بِإِيلَاءِ مَنْ رِبِكُمْ عَظِيمٍ﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، قواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، ويتهيأ لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت تعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أي: اتبع طريق الإصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي. ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَوَكَلِمَةً رَبِّهِ﴾ بما كلمه من حبه وأمره ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودة لرؤيته.

ف ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ﴾ الله ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبثون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل

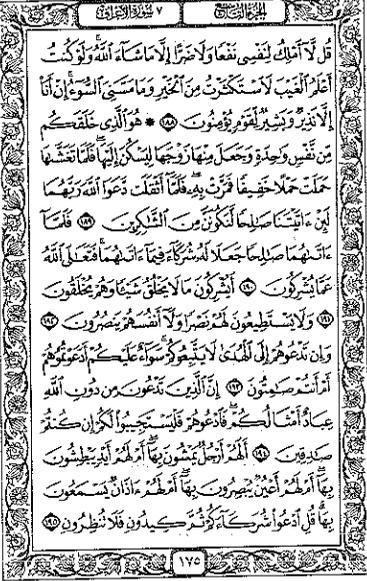
فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مِثْرَارِقَ الْأَرْضِ وَمِثْرَارِبَهَا﴾ والمراد بالأرض هاهنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين، أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

﴿وَدَرَسْنَا مَا كَانَ يُصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنَ الْأَيْتِيهِ الْعَاتِلَةِ، وَالْمَسَاكِنِ الْمَزْخَرَةِ﴾ وما كانوا يعرضون ﴿فَتَلَكَّ بِيَوْمِهِمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أجهام الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فَأَنبَأُوا﴾ أي: مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها. ف ﴿قَالُوا﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراه الله من الآيات ما أراه ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنكُمْ قَوْمٌ مَجْهَلُونَ﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالفه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا مَثْبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَتَعْبُرُ إِلَهُاتِكُمْ﴾ أي: أأطلب لكم إلهاً غير الله المألوه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر



الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقتعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجل الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَاهُ﴾.

﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ الأصم الغليظ ﴿جمعله دكاً﴾ أي: انهار مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١)، ﴿وخزر موسى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صمقاً﴾ فتبين له حيثئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً ﴿ولذلك﴾^(٢) ﴿قال سبحانه﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿تبت إليك﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك

(١) كنا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت.

(٢) زيادة من هامش ب.



وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جلييلة، **﴿برسالاتي﴾** التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

﴿ويكلامي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، **﴿نفخذ ما آتيتك﴾** من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، **﴿وكن من الشاكرين﴾** لله على ما خصك وفضلك.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد **﴿موعظة﴾** ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، **﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾** من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب **﴿فخذها بقوة﴾** أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، **﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾** وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة كاملة - عادلة حسنة.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم، فقال عنهم: **﴿سأصرف عن آياتي﴾** أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية، والفهم لآيات الكتاب **﴿الذين يتكبرون**

في الأرض بغير الحق﴾ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمة الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ لإعراضهم واعتراضهم، ومعادتهم لله ورسوله، **﴿وإن يروا سبيل الرشدة﴾** أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط **﴿لا يتخذوه﴾** أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه **﴿وإن يروا سبيل النغي﴾** أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء **﴿يتخلوه سبيلاً﴾** والسبب في انحرافهم هذا الانحراف **﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾** فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يزداد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق النغي، وترك طريق الرشاد ما أوجب.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا. **﴿ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾** لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه **﴿هل يميزون﴾** في بطلان أعمالهم وحصوراً ضد مقصودهم **﴿إلا ما كانوا يعملون﴾** فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً﴾** صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرستول فصار **﴿له خوار﴾** وصوت، فعبذوه واتخذوه إلهاً.

وقال **﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾** موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات!!

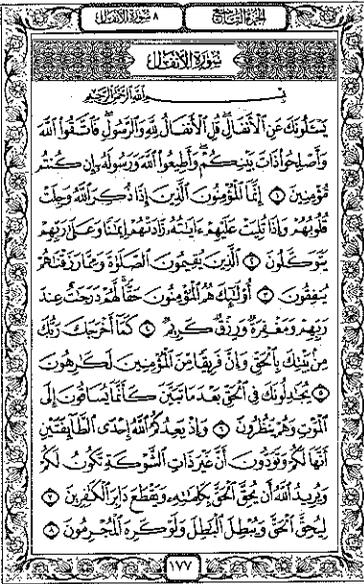
ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلهاً **﴿لم يروا أنه**

لا يكلمهم﴾ أي: وعدم الكلام ناقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمح السفه، ولهذا قال: **﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾** حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿ولما﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا و **﴿سقط في أيديهم﴾** أي: من الهم والتندم على فعلهم، **﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾** فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا و **﴿قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا﴾** فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، **﴿ويغفر لنا﴾** ما صدر منا من عبادة العجل **﴿لنكونن من الخاسرين﴾** الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ أي: ممتلاً غضباً وغيظاً عليهم، لتتمام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكمال نصحه وشفقته، **﴿قال بثمنا خلقتموني من بعدي﴾** أي: بشس الحالة التي خلقتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة **﴿والألقى الألواح﴾** أي: رامها من الغضب **﴿وأخذ برأس أخيه﴾** هارون وحيته **﴿يجره إليه﴾** وقال له: **﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لا تتبعن أفعصيت أمري﴾** لك بقولي: **﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾** ف **﴿قال يا ابن أم لا**



وكبار، وصغائر ﴿ثم تابوا من بعدها﴾ بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وآمنوا﴾ بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات، ﴿لغفور﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض ﴿رحيم﴾ بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ف ﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة ﴿وفي نسختها﴾ أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هدى ورحمة﴾ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين [هم] ﴿لربهم يرهون﴾ أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفورا، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿و﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم ﴿اختار موسى﴾ منهم ﴿سبعين رجلاً﴾ من خيارهم، ليعتدروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاناً يحضرون فيه، فلما حضروا، قالوا: يا موسى، ﴿أرنا الله جهرة﴾ فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ف ﴿أخذتهم الرجفة﴾ فصعقوا وهلكوا.

فلم يزل موسى عليه الصلاة

تأخذ بلحيتي ولا يرأسني إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي ﴿و﴾ قال ﴿هنا﴾ ابن أم ﴿هذا ترفيق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: ﴿إن القوم استضعفوني﴾ أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ ﴿وكادوا يقتلونني﴾ أي: فلا تظن بي تقصيراً ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجندوا علي عشرة، أو يطلعوا لي على زلة ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ فتعاملني معاملة من.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و ﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ هارون ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين من جميع الشرور، و ﴿ثم كل خير وسرور.

﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آباءنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا، قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ أي: إلهاً ﴿سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره.

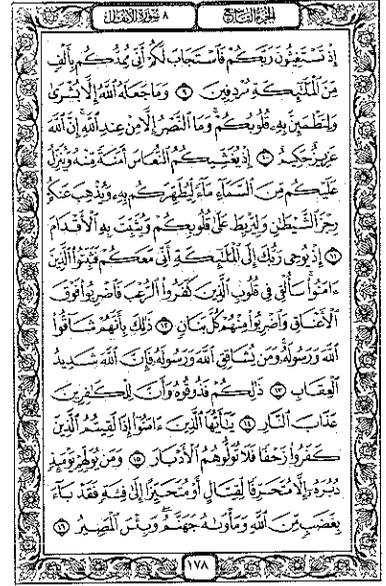
﴿وكذلك نجزي المفسرين﴾ فكل مفسر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى^(١)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: ﴿والذين عملوا السيئات﴾ من شرك

والسلام، يتضرع إلى الله ويتبتل ويقول: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين ﴿أهلكتنا بما فعل السفهاء منا﴾ أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتنصرع إلى الله واعتذر بأن المتجرين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يحظر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالمقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذيتك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

﴿١٥٦﴾ فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم

(١) في النسختين: قتل كثير.

(٢) زيادة من هامش ب.



ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

﴿وفي الآخرة﴾ حسنة وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إننا هدنا إليك﴾ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا، مبينين في جميع أمورنا ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وعمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ المعاصي، صغارها وكبارها.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ السوابة مستحقها ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ ومن تمام الإيمان آيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

﴿١٥٧﴾ ﴿الذين يتبعون الرسول﴾ النبي الأمي ﴿احترار عن سائر الأنبياء﴾ فإن القصد بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ

والسياق في أحوال بني إسرائيل

وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، وصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الذي مجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه.

﴿وينهاهم عن المنكر﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحلّه وحزّمه، فإنه ﴿يحل لهم الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب، والمناجح.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من المطاعم والمشارب والمناجح، والأفعال.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقيل.

﴿فالذين آمنوا به وعزروه﴾ أي: عظموه وبجلوه ﴿ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشرك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات، ﴿أولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة،

والتاجون من شرهما، لأنهم أتوا أكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعزره وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهّم متوهّم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي: عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويجزركم من كل ما يباحثكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله، ﴿يحيي ويميت﴾ أي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومعبراً يعبر منه إلى دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتهم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ أي: جماعة ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ وفي هذا فضيلة لامة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى

جعل منهم هداة يهدون بأمره .

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز عما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معاييب بني إسرائيل، المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية .

﴿١٦٠﴾ وقطعناهم أي : قسمناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً أي : اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة .
﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسفاه قومه﴾ أي : طلبوا منه أن يدعو الله تعالى، أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء .

فأوحى الله لموسى إجابة لطلبهم ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس، يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿فانبعثت﴾ أي : انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً جارية سارحة .

﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي : قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينا، فعلموها واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة، والخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ فكان يسترحم من حر الشمس ﴿وأنزلنا عليهم المن﴾ وهو الحلوى، ﴿والسلوى﴾ وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذها، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الحلوى واللحوم، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم : ﴿كلوا من طبيبات ما رزقناكم وما ظلمونا﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم .
﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

حيث فوتوها كل خير، وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه .

﴿١٦١﴾ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية أي : ادخلوها لتكون وطناً لكم ومسكناً، وهي «إيلياء» واكلوا منها حيث شئتم أي : قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، لذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا .

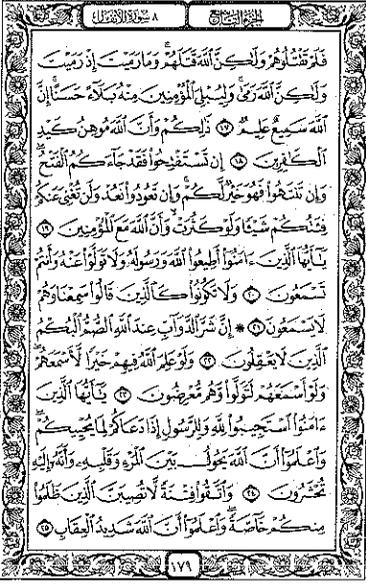
﴿وقولوا﴾ حين تدخلون الباب : ﴿حطة﴾ أي : احفظ عنا خطايانا، واعف عنا .

﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ أي : خاضعين لربكم مستكينين لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال : ﴿نغفر لكم خطيئاتكم سنوياً المحسنين﴾ من خير الدنيا والآخرة، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل ﴿بدل الذين ظلموا منهم﴾ أي : عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة، وقولهم : ﴿حطة﴾، (حجة في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدل لهم للفعل من باب أولي، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على أستاههم .

﴿فأرسلنا عليهم﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رجزاً من السماء﴾ أي : عذاباً شديداً، إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية .

وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك ﴿بما كانوا يظلمون﴾ أي : يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألحاًتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم .

﴿١٦٢﴾ ﴿واسألهم﴾ أي : أسأل بني إسرائيل ﴿عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ أي : على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم .



﴿إذ يعدون في السبت﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاههم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً أي : كثيرة طافية على وجه البحر .

﴿ويوم لا يستون﴾ أي : إذا ذهب يوم السبت ﴿لا تأتيهم﴾ أي : تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً كذلك يبلوهم بما كانوا يفسقون، ففسقهم هو الذي أوجب أن يتبليهم^(١) الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلولم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق :

﴿١٦٤﴾ معظمهم اعتدوا وتجروؤا، وأعلنوا بذلك وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم .

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيبهم لهم، وقالوا لهم : ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ كأنهم يقولون : لا فائدة في

(١) كذا في ب، وفي أ: ييلهم .

بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فافتكروا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فابدأوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعالهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿ياأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون﴾ مقربين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سيفقر لنا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جرائعهم: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم. ﴿و﴾ الحال أنهم قد «درسوا ما فيه» فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيتهم، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكول التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثارة، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي!!

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿والذين يمسكون

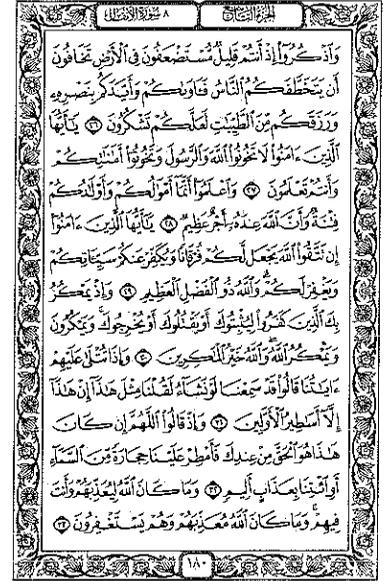
بأذن الله قدرة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي: أعلم لإعلاماً صريحاً: ﴿ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيتهم ويذلهم.

﴿١٦٦﴾ ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي: فسوا فلم يلبسوا ولا اتعظوا، ﴿فلنا لهم﴾ قولاً قديراً: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ فانتقلبوا

بإذن الله قدرة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي: أعلم لإعلاماً صريحاً: ﴿ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيتهم ويذلهم. ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع الثواب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وبيلوناهم﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بالحسنات والسليئات﴾ أي: بالسر واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من



وعظ من اقتعج محارم الله، ولم يصح للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: تعظهم ونهاهم «معدرة إلى ربكم﴾ أي: لنعذر فيهم. ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي: يتركون ما هم فيه من العصية، فلا نياس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيرهم واعتدائهم.

﴿أنجيناً﴾ من العذاب «الذين ينهون عن سوء﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت «بعذاب بثيس﴾ أي: شديد «بما كانوا يفسقون»

وأما الفرقة الأخرى التي قالت لناهين: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك

بالكتاب ﴿ أي : يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم. ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسوله عليهم الصلاة والسلام بالصالح لا بالفاسد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصالح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة.

فألزمهم الله العمل ونسق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم كآنية ظلّة وظنوا أنه واقع بهم ﴿ وقيل لهم: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد.

﴿واذكروا ما فيه﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لعلكم تتقون﴾ إذا فعلتم ذلك.

﴿١٧٢﴾ ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون

قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم ومليكنهم.

قالوا: بلى قد أقرنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الخفيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾

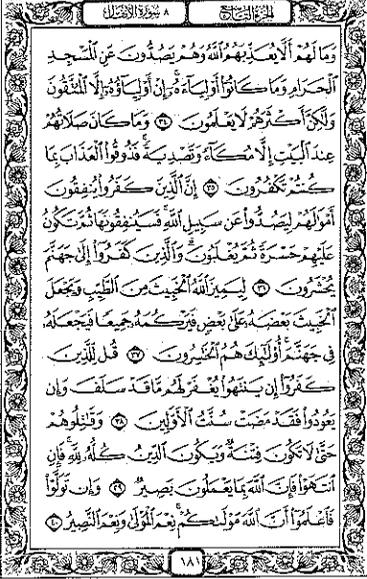
أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرز عندكم، من أن الله تعالى ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقرؤا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حججتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فحدونا حدوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ فقد أودع الله في فطركم ما يدلکم على أن ما مع آياتكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آباءه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذلك إلا لإعراضه، عن حجج الله وبيناته وآياته الأقفية والنفسية، فأعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا

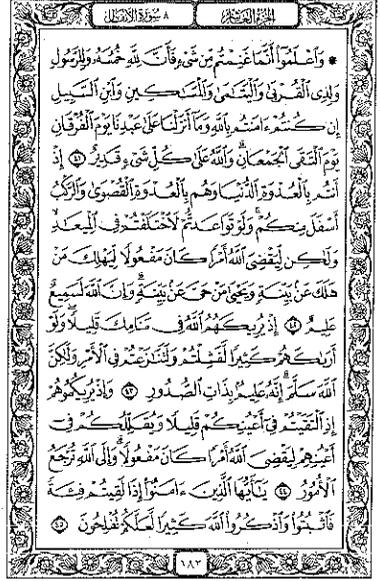


وما لهم ألا يذكروا يوم أخذ الله منهم الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا

به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق، الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟! ولهذا لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً، قال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، ولعلمهم يرجعون﴾ إلى ما أودع الله في فطرهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

﴿١٧٤ - ١٧٨﴾ وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناها بها ولكنه أخذل إلى الأرض واتبع هواه فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى لنبه ﴿وائل عليهم نبأ الذي آتيناها﴾



آياتنا ﴿أي﴾ : علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والخبر النحرير.

﴿فانسليخ منها﴾ : فأنبعه الشيطان ﴿أي﴾ : انسليخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فتترك هذا كتاب الله وراء ظهره، وينبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسليخ منها أتبعه الشيطان، أي : تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فآذته إلى المعاصي أزرأ. ﴿فكان من القواوين﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهدا قال تعالى : ﴿ولو شئنا لرفعناها﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخذل إلى الأرض، أي : إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿واتبع هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثلته﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي : لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

حرصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهواهم على الله، واتباعهم لأهواتهم، بغير هدى من الله.

﴿فانقص القصص لعلهم يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي : ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسليخ منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال : ﴿من يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضلل﴾ فيخذه ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون﴾ من الجن والإنس لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ يقول تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

المتبعين إبليس اللعين : ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي : أنشأنا وبثنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي : لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما يفقهون، بل فقدوا منفعتها وفائدتها. ﴿ولهم أذان لا يسمعون بها﴾ سمعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾ أي : البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفتدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا من ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصيح قلبه بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي : له كل اسم حسن، وضابطه : أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، ويدل ذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

أتمها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنة!! أم هو الإمام العظيم والنصاح المبين، والمجاد الكريم، والرؤوف الرحيم!! ولهذا قال: ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿ما خلق الله من شيء﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو العبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب.

وقوله: ﴿وأن حسنى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي: حديث يؤمنون به!! أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضلال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يسألونك عن الساعة﴾ أيان مرسأها قل إنما علمها عند ربى لا يحلها لوقتها إلا هو ثقلت في

﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿١٨٢﴾ ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأمل لهم إن كيدي متين أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وأمل لهم﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا، وشرًا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إن كيدي متين﴾ أي: قوي بليغ.

وقوله: ﴿وذرُوا الذين يلحدون في أسمائهم سيحزون ما كانوا يعملون﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراد الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن الله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

﴿١٨٤﴾ ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم﴾ محمد ﷺ ﴿من جنة﴾ أي: أولم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلته وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فادعوه بها﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وذرُوا الذين يلحدون في أسمائهم سيحزون ما كانوا يعملون﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراد الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن الله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

﴿١٨١﴾ ﴿وومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

(١) في ب يتحرون ويتدردون.

نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدعوتهم أم أنتم صامتون﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقتكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجملها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحيثاً] ^(١) حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحيثاً صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه ^(٢) [كذلك]، فدعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ولداً صالحاً﴾ أي: صالح

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفصاً ولا ضراً﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتييني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكرهه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تقضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أي لا علم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المقضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وبشير﴾ بالشواهد العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريزمات، مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عن من يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسي نفصاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يسألونك﴾ عن الساعة أيان مرساها﴾ أي: متى تهل بالخلق؟

﴿قل إنما علمها عند ربِّي﴾ أي: إنه تعالى مختص بعلمها، ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السموات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فليم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،

(١) زيادة من هامش ب، وفي أ: فحملت.

الخليفة تامها، لا نقص فيه ﴿لنكونن من الشاكرين﴾

﴿فلما أتاهما صالحاً﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ أي: جعلاً له شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيماه والنعمة به، وأقر به أعين والديه، فعبداه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و«عبد العزيز»^(١) و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما من الله عليهما بما من من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيراً، فلذلك قرره الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه، ويلتذبه، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتاً موقتاً، تنشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجها سوياً صحيحاً، فآتى الله عليهم النعمة وأبالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحداً، ويخلصوا له الدين، ولكن الأمراء على العكس، فأشركوا بالله من لا ﴿يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يستطيعون لهم: أي: لعابديها ﴿نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾

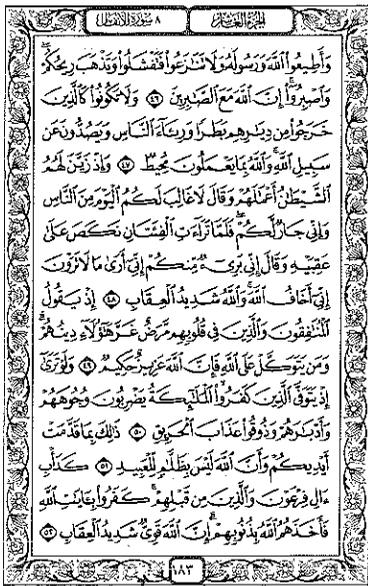
فيذا كانت لا تخلق شيئاً، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة،

ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن نفسها، فكيف تتخذ مع الله الهبة؟! إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون الله ﴿إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أذعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تهدي ولا تُهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً، جزم بطلان الهيئتها، وسفاهة من عبدها.

﴿١٩٤ - ١٩٦﴾ ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنتظرون إن ولّني الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئاً ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى التبين فيه، فإنكم إذا نظرتهم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا أذان تسمع بها، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فيذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتوها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء، فلاي:



شيء عبدتموها.

﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنتظرون﴾ أي: اجتمعوا أنتم وشركاءكم على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إمهال ولا إنظار^(٢)، فإنكم غير الغين لشيء من المكروه بي، لأن وليي الله الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار.

﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

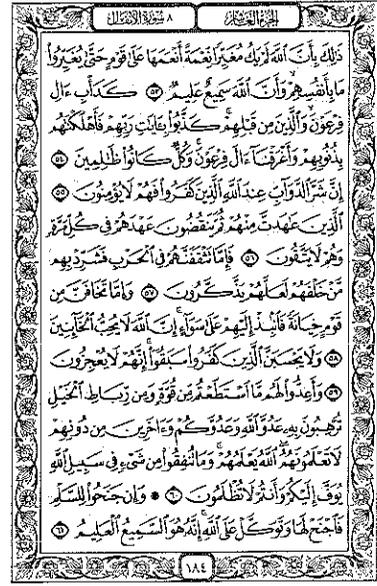
﴿وهو يتولى الصالحين﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فالؤمنون الصالحون - ما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر - تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بليمانهم كل مكروه، كما قال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾.

﴿١٩٧﴾ ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى

(٣) كذا في ب، وفي أ: انظالم.

(٢) في ب: العزى.

(١) زيادة من هامش ب.



الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون ﴿٢٠٣﴾

أي: أي وقت، وفي أي: حال ﴿ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ أي: تحس منه بوسوسة وتثييط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز إليه: ﴿فاستغذ بالله﴾ أي: التجيء واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سمع﴾ لما تقول. ﴿عليم﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجاتك له، فسيحملك من فتنته، وبيقك من وسوسته، كما قال تعالى ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القيادة لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ وإذا لم تأميم بآية قالوا لولا اجتبيبتنا قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدي ورحمة لقوم يؤمنون ﴿٢٠٤﴾ أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن أذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستمذ بالله إنه سميع عليم﴾ إن

لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿ وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صورها على صور الحيوانات من الادميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبقاراً وأعضاء، فإذا رايتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك لها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متوحي أحوال عباده الصالحين، لم يقدروا على كيدهم بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من أحتمى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذابين

ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد، فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك لم يتقادوا.

﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قالوا لولا اجتبيتها أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترتها من نفسك.

﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ فأنا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على

حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآتات، فهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بصائر من ربكم﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا فمن آمن، فهو ﴿هدى﴾ له من الضلال ﴿ورحمة﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخره.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿٢٠٥ - ٢٠٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالقدو والأصال ولا تكن من الغافلين﴾ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴿الذكر﴾ الله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه، في نفسه، أي: مخلصاً خالياً.

﴿تضرعاً﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وخيفة﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

﴿ودون الجهر من القول﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً. ﴿بالقدو﴾ أول النهار ﴿والأصال﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فاتهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمّن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة



والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرقي النهار، مخلصاً خائفاً متضرعاً، متذلاً، ساكناً، وتواطئاً عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر لعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسهم، وأن تريحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾ من الملائكة المقربين، وحمة العرش والكرابين ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿ويسبحونه﴾ الليل والنهار لا يفترون.

﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجدون﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف والله الحمد والشكر والثناء وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أولئك﴾ الذي اتصفوا بتلك الصفات ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بصددها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿٨﴾ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام

أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه، ولما كان الإيمان قسماً: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

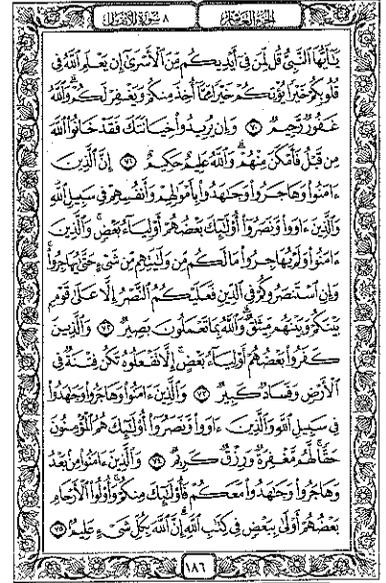
﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو جلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ من



تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون﴾ أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟

﴿قل﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ بامثال أوامره واجتنب نواهيه.

﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي:

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. ﴿حكيم﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها. ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً ﴿بغشيك﴾ [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أمنة﴾ لكم وعلامة على النصر والطمأنينة.

ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي: يشبها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن، ﴿ويثبت به الأقدام﴾ فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام.

ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أني معكم﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهمهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.

﴿سألني في قلوب الذين كفروا﴾ الرعب الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم.

﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي: على الرقاب ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي: مفصل.

وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمهم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: جاربوها وبارزوها بالعداوة. ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ ومن عقابه

بالنفير، فأحبوا العير لقله ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ فينصر أهله ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي: يستأصل أهل الباطل، ويبري عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم.

﴿ليحق الحق﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ﴿ويبطل الباطل﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿ولو كره المجرمون﴾ فلا يبالي الله بهم.

﴿٩ - ١٤﴾ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أي مذكوم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرياً ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم * إذ يغشيكم النعاس أمته منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام * إذ يوحى ربك إلى الملائكة أي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب * ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار * أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغتم بربكم، وطلبت منه أن يعينكم وينصركم ﴿فاستجاب لكم﴾ وأغاثكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أي: يردف بعضهم بعضاً، ﴿وما جعله الله﴾ أي: إنزال الملائكة ﴿إلا بشرياً﴾ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عدد.

بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه.

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال.

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، وما أمر الله به ورضيه، فهذه الحال ليس للجدال محل [فيها] ^(١)، لأن الجدال محل وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضع وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجز منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقبض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

وكان أصل خروجهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام، ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاث مئة، وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بغيراً، يعتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قریش، فخرجوا لمنع عيرهم، في عدد كثير وعدة وافرة من السلاح والخيول والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف.

فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالعير، أو

(١) زيادة من هامش ب.

تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب المذكور
﴿فَذوقوه﴾ أيها المشاققون لله ورسوله
عذاباً معجلاً، ﴿وَأَنْ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ
النَّارِ﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله
العظيمة ما يدل على أن ما جاء به
محمد ﷺ رسول الله حقاً.

منها: أن الله وعدهم وعداً،
فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ
لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّافِثَةِ تَقَاتَلَا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ
رَأَى الْعَيْنُ﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما
استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها
الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين،
وتقييض الأسباب التي بها ثبت
إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم
المكروه والوسواس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن
يسهل عليه طاعته، ويسرها بأسباب
داخلية وخارجية.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ
الْأَدْبَارَ﴾ ومن يولاهم يومئذ دبره إلا
متحرفاً للقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء
بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس
المصير ﴿يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ
بِالشُّجَاعَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، والقوة في أمره،
والسعي في جلب الأسباب المقوية
للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار
إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
زَحْفًا﴾ أي: في صف القتال،
وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم
من بعض، ﴿فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ بل
اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم،
فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة
لقلوب المؤمنين، وإرهاباً للكافرين.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحْرَفًا
لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي:
رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي:
مقره ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف

من غير عذر من أكبر الكبائر، كما
وردت بذلك الأحاديث الصحيحة
وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد
الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال،
وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى،
ليكون أمكن له في القتال، وأنكى
لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم
يول دبره فإراً، وإنما ولي دبره ليستعلي
على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه
غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك
من مقاصد المحاربين، وأن التحيز إلى
فئة عنعنه وتعيينه على قتال الكفار، فإن
ذلك جائز، فإن كانت الفئة في
العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن
كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام
المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم
إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر
آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من
آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز،
ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن
الانهزام أحد عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في
ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه
الحال - أن تكون من الأحوال المرخص
فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور
الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة،
وسأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنْ
اللَّهُ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذلكم وأن الله موهن
كيد الكافرين ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ
جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ
شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
يقول تعالى - لما انهزم الشركون يوم
بدر، وقتلهم المسلمون - ﴿فَلَمْ
تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على
ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال
دخل العريش وجعل يدعو الله،
ويناشده في نصرته، ثم خرج منه،

فأخذ حفنة من تراب، فرماها في
وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى
وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد
أصاب وجهه، وفمه وعينيه منها،
فحينئذ انكسر حديهم، وفتر زندهم،
وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.

يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك -
حين رميت التراب - أوصلته إلى
أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا
واقْتِدَارِنَا، ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ
حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على
انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون
مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن
يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى
أعلى الدرجات، وأرفع المقامات،
ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى
ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في
قلبه من النيات الصالحة وضدها،
فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه
وحكمته ومصالحة عباده، ويجزي كلا
بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ النصر من الله
لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾
أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به
الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقاً
بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها
المشركون، أي: تطلبوا من الله أن
يوقع بأسه وعذابه على المعتدين
الظالمين.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين
أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالاً
لكم وعبرة للمعتدين ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن
الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنه ربما
أمهلتهم، ولم يجعل لكم النعمة. ﴿وَإِنْ
تَعُودُوا﴾ إلى الاستفتاح وقاتل
حزب الله المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾ في نصرهم
عليكم.

﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ﴾ أي:
أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون
وتقاتلون، معتمدين عليهم، شيئاً
وأن الله مع المؤمنين.

ومن كان الله معه فهو المنتصرون وإن
كان ضعيفاً قليلاً عدده، وهذه المعية

التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان.

فإذا أدب العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا فريطاً من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما انهزم لهم راية [انهزاماً مستقراً^(١)]، ولا أدب عليهم عدوهم أبداً.

﴿٢٠-٢١﴾ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ بامتثال أمرهما واجتتاب نهيمهما.

﴿ولا تولوا عنه﴾ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، وأنتم تسمعون﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكهم في هذه الحال من أفتح الأحوال.

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاه الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدفته الأعمال.

﴿٢٢-٢٣﴾ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون * يقول تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الصم﴾ عن استماع الحق ﴿البكم﴾ عن النطق به ﴿الذين لا يعقلون﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم،

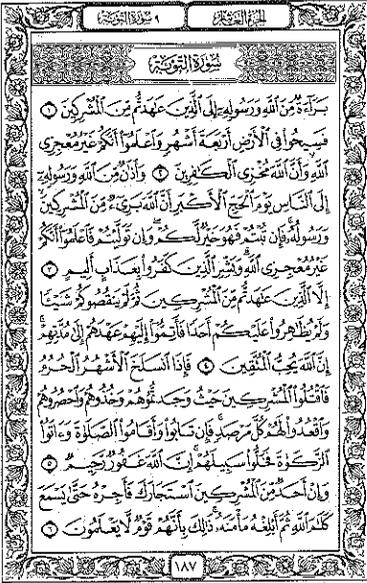
فهؤلاء شر عند الله من جميع الدواب، لأن الله أعطاهم أسمعاً وأبصاراً وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا - بذلك - الخير الكثير، فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية. فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية، والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته.

﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم﴾ على الفرض والتقدير ﴿لتولوا﴾ عن الطاعة ﴿وهم معرضون﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده. وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

﴿٢٤-٢٥﴾ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الاتقياء لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتتاب لما نهي عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائده وحكمته، فإن حياة القلب والروح، بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله



وللرسول فقال: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك.

﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي: تجتمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى^(٢) هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

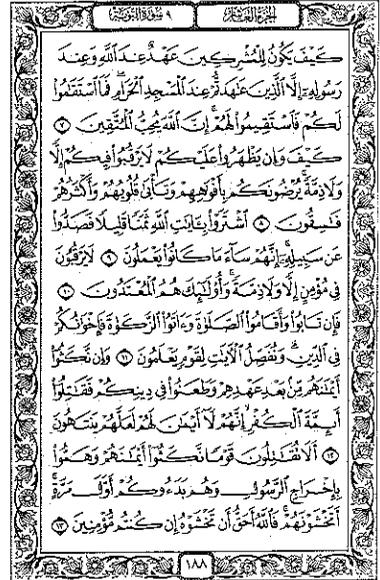
﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

﴿٢٦﴾ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من شرار.

(٣) هكذا في النسختين والمراد ظاهر وهو: أن اتقاء هذه الفتنة يكون بالنهي عن المنكر.



كَيْفَ يَكُونُ لِلشُّرِكِ عِندَ اللَّهِ مِثْلُ مَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ يُخَيِّرُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾
 وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَاطِلًا ﴿٢٩﴾
 وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُصْ لِنَفْسِهِ أَجْرَهُ كُلَّهُ إِنَّهُ يُسْجَنُ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٣٠﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٣١﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣٢﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٣٣﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣٤﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٣٥﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣٦﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣٨﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤٠﴾

الرابع: الأجر العظيم والشواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَالله ذو الفضل العظيم﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به (٢) عليك. ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا﴾ حين تشارر المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه.

﴿وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره.

﴿وإما أن يخرجوه ويحلبوه من ديارهم.

فكل أبدي من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم لثمن بديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقوموا به إذا قام من فراشه.

فجاء الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذّر على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذّر على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الشواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخص الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

﴿وما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة﴾ ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستودي لمن أعطاها، وترد لمن استودعها ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾

﴿فإن كان لكم عقل ورأي، فأثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ أمثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ووزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿يقول تعالى تمتنا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة.

﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فأواكم وأيدكم بنصره ووزقكم من الطيبات﴾ فجعل لكم بلداً تآرون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحسونوا الله والرسول تحسونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتتمهم الله عليه من أوامره ونواهيته، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محبته.
 (٢) في النسختين: ما من الله بك عليك.
 (٣) في ب: جميع.

مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه .
فسبحان اللطيف بعبد الذي لا يغالبه
مغالِب .

﴿٣١ - ٣٤﴾ وقوله: ﴿وإذا تتلى
عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء
لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير
الأوليين ﴾ وإذا قالوا اللهم إن كان هذا
هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة
من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وما
كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما
كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وما
لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن
المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن
أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم
لا يعلمون ﴿ يقول تعالى في بيان عناد
المكذبين للرسول ﷺ: ﴿وإذا تتلى
عليهم آياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء
به الرسول .

﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل
هذا إن هذا إلا أساطير الأوليين﴾ وهذا
من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد
تحداهم الله أن يتأوا بسورة من مثله،
ويدعوا من استطاعوا من دون الله،
فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم .
فهذا القول الصادر من هذا القائل
مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم
أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب،
ولا رحل ليدرس من أخبار الأوليين،
فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه،
تنزيل من حكيم حميد .

﴿وإذا قالوا اللهم إن كان هذا﴾
الذي يدعو إليه محمد ﴿هو الحق من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو
ائتنا بلذاب أليم﴾ قالوه على وجه الجزم
منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من
الخطاب .

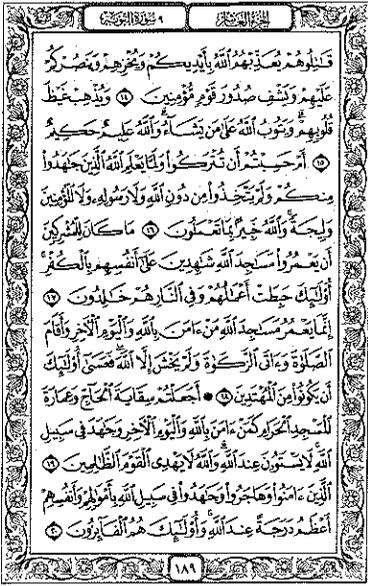
فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من
الشبه والتشويبات ما أوجب لهم أن
يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن
ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان
هذا هو الحق من عندك فاهدنا له،
لكان أولى لهم وأستر لظلمهم .

فمد قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو
الحق من عندك﴾ الآية، علم بمجرد
قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة
الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما
أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم
العذاب بسبب وجود الرسول بين
أظهرهم، فقال: ﴿وما كان الله
ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فوجوده ﷺ بين
أظهرهم أمنة لهم من العذاب .

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي
يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون
بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها
فيهم، فيستغفرون الله [تعالى فلهذا]
قال تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم
وهم يستغفرون﴾ .

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب
بهم، بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال:
﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي: أي:
شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد
فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس
عن المسجد الحرام، خصوصاً صدمهم
النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به
منهم، ولهذا قال: ﴿وما كانوا﴾ أي:
المشركون ﴿أولياءه﴾ يحتمل أن الضمير
يعود إلى الله، أي: أولياء الله .
ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام،
أي: وما كانوا أولى به من غيرهم ﴿إن
أولياؤه إلا المتقون﴾ وهم الذين آمنوا
بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد
والعبادة، وأخلصوا له الدين، ﴿ولكن
أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك ادعوا
لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به .

﴿٣٥﴾ ﴿وما كان صلاحهم عند
البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب
بما كنتم تكفرون﴾ يعني أن الله تعالى
إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه،
وتخلص له فيه العبادة، فالؤمنون هم
الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء
المشركون الذي يصدون عنه، فما كان
صلاحهم فيه التي هي أكبر أنواع
العبادات ﴿إلا مكاء وتصدية﴾ أي:
صفيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء،
الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم،
ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام

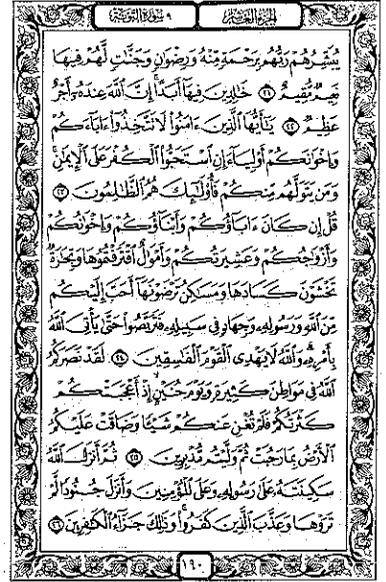


لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت
هذه صلاحهم فيه، فكيف ببقية
العبادات!!؟

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت
من المؤمنين الذين هم في
صلاحهم أشجعون، والذين هم عن
اللعو معرضون، إلى آخر ما
وصفهم الله به من الصفات الحميدة،
والأفعال السديدة .

لا جرم أورثهم الله بيته الحرام،
ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن
لهم فيه ﴿بأي أيها الذين آمنوا إنما
المشركون نجس فلا يقربوا المسجد
الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقال هنا:
﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إن الذين كفروا
ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله
فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم
يغلبون والذين كفروا إلى جهنم
يحشرون ﴾ ليميز الله الخبيث من
الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض
فيركمه جميعاً فيجعل في جهنم أولئك
هم الخاسرون ﴿ يقول تعالى مبيناً لعداوة
المشركين وكيدهم ومكرهم،
ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في
إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال
مكرهم سيعود عليهم، ولا ينجح المكر
السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إن الذين
كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن



سبيل الله ﴿٣٨﴾ أي: ليطلوا الحق وينصروا الباطل، ويطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿فسيشقونها﴾ أي: فيصيدون هذه النفقة، وتخف عليهم لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة وخزياً وذلاً، ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: يجمعون إليها، ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص. ﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، الأذلك هو الخسران المبين.

﴿٣٨- ٤٠﴾ ﴿قل للذين كفروا إن يتنخوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله

مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له.

﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من الجرائم ﴿وإن يعودوا﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندين، فسوف يأتيهم آتاء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك وصد عن سبيل الله، ويدعونا لأحكام الإسلام، ﴿ويكون الدين كله لله﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العال على سائر الأديان.

﴿فإن انتهوا﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وإن تولوا﴾ عن الطاعة أو وضعوا في الإضاعة ﴿فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى﴾ الذي يتولى عبادة المؤمنين، ويوصل إليهم مضالحهم، وييسر^(١) لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ﴿ونعم النصير﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له ولا قائمة له.

﴿٤١- ٤٢﴾ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير * إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لآخفتكم في الميعاد ولكن يقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ يقول تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فإن لله خمسة﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسة، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للرجل سهم، وللفراس سهمان لفرسه، وبسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ورسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ورسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: للذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو^(٢): الغريب المنقطع به في غير بلده، لأبعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك

(٢) في ب: وهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتيسر.

تبع للمصلحة وهذا هو الأولى^(١) وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم «بدر» الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ التَّقِيءِ الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ أي: بعودة الوادي القريبة من المدينة، وهم بعودته أي: جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم واد واحداً.

﴿وَالرَّكِبِ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره «أسفل منكم» مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال «لاختلفتم في الميعاد» أي: لا بد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم أو لهم، يصدفكم عن ميعادكم^(٢).

﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال «ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» أي: مقدراً في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنِ بَيْتِهِ﴾ أي: ليكون حجة وبينة للمعاندين، فيختار الكفر على بصيرة وجزم بطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله.

﴿وَيُحْيِي مَنْ حَيٍّ عَنِ بَيْتِهِ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقيناً، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات،

على تفنن الحاجات، عليهم بالظواهر والضمائر والسرائر، والغيب والشهادة.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿إِذْ يَرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وإذ يريكمهم في أعيونكم قليلاً ويقللكم في أعيونهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ولئى الله ترجع الأمور» وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عدداً قليلاً، فيشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وتثبتت أفئدتهم.

ولو أراكمهم الله إياهم كثيراً فأخبرت بذلك أصحابك «لفشلتُمْ ولتتنازعتُمْ في الأمر» فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك فوق من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ فلطف^(٣) بكم «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانه بكم، وصدق الله رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم، قليلاً في أعيونهم، ويقللكم - يا معشر المؤمنين - في أعيونهم، فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى.

﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتمسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفاً بالباقيين، الذين من الله عليهم بالإسلام.

﴿ولئى الله ترجع الأمور﴾ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل، الذي لا جور فيه ولا ظلم.

﴿٤٥ - ٤٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَاءُ مُنْعَمٌ عَلَيْكُمْ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لَفَسَدْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٩﴾

لعلكم تفلحون» وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ففشلوا وتذهب ربكمم واصبروا وإن الله مع الصابرين» ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط» وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾

من الكفار تقاتلكم ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقاتلها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر.

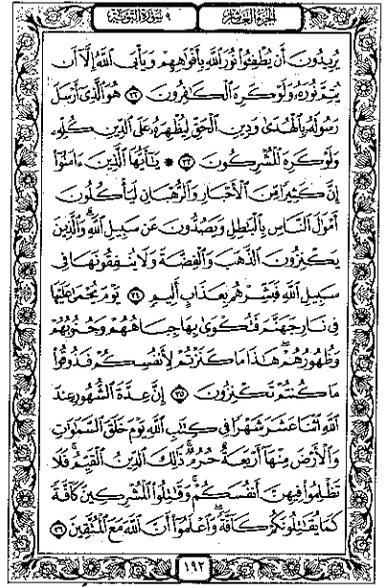
واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله «لعلكم تفلحون» أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في استعمال ما أمراه، والمشى خلف ذلك في جميع الأحوال.

(٣) في ب: أي: لطف.

(٢) في ب: عن ميعادهم.

(١) زيادة من هامش ب.



﴿ولا تنازعوا﴾ تنازعا يؤجب

تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فتفلسوا﴾

أي: تجبنوا ﴿وتذهب بحكم﴾ أي:

تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم،

ويرفع ما وعدتم به من النصر على

طاعة الله ورسوله.

﴿واصبروا﴾ نفوسكم على

طاعة الله ﴿إن الله مع الصابرين﴾

بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا

لربكم واخضعوا له.

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من

ديارهم بطرا ورتاء الناس ويصدون عن

سبيل الله﴾ أي: هذا مقصدهم الذي

خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من

ديارهم لقصد الأشر والبطر في

الأرض، وليراهم الناس ويفخروا

لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا

ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه،

﴿والله بما يعملون محيط﴾ ولذلك

أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن

تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك

أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم

وجه الله تعالى وإعلاء دين الله،

والصد عن الطرق الموصلة إلى

سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى

سبيل الله القويم الموصول لجنات

النعيم.

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾

حسنها في قلوبهم وخدعهم. ﴿وقال﴾
لا غالب لكم اليوم من الناس ﴿فإنكم﴾
في عديد وعديد وهيئة لا يقاومكم فيها
محمد ومن معه.

﴿وإني جار لكم﴾ من أن يأتيكم
أحد من تخشون غائته، لأن إبليس قد
تبدى لقريش في صورة سراقه بن
مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا
يخافون من بني مدلج لعداوة كانت
بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم،
فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد
قادرين.

﴿فلما تراءت الفئتان﴾ المسلمون

والكافرون، فرأى الشيطان جبريل

عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفاً

شديداً و ﴿نكص على عقبيه﴾ أي:

ولى مدبراً، ﴿وقال﴾ لمن خدعهم

وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما

لا ترون﴾ أي: أرى الملائكة الذين

لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿إني أخاف الله﴾ أي: أخاف أن

يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿والله

شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان،

قد سؤل لهم، ووسوس في صدورهم

أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه

جار لهم، فلما أوردتهم منازلهم،

نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال

تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان

اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك

إني أخاف الله رب العالمين﴾ فكان

عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها

وذلك جزاء الظالمين﴾.

﴿إذ يقول المنافقون والذين في

قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة، سن

ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين

أقدموا - مع قتلهم - على قتال

المشركين مع كثرتهم.

﴿غرّه هؤلاء دينهم﴾ أي: أوزدهم

الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي

لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم

بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً

لعقولهم، وهم - والله - الأخفء

عقولا، الضعفاء أحلاماً.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام
على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها
الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل
على الله، الذي يعلم أنه ما من حول
ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله
تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على
نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو
اجتمعوا على أن يضره لم يضره إلا
بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على
الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في
كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما
أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقاً
بربه، مطمئن القلب لا فرعاً ولا
جباناً، ولهذا قال: ﴿ومن يتوكل

على الله فإن الله عزيز﴾ لا يغالب قوته

قوة، ﴿حكيم﴾ فيما قضاه وأجراه.

﴿٥٠ - ٥٢﴾ ﴿ولو ترى إذ يتوفى

الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم

وأديارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ ذلك

بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام

للعبيد﴾ كذاب آل فرعون والذين من

قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله

بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب﴾

يقول تعالى: ﴿ولو ترى الذين كفروا

بآيات الله حين توفاهم الملائكة

الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم

القلق وعظم كربهم، و ﴿الملائكة

يضربون وجوههم وأديارهم﴾ يقولون

لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم

متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها

ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وذوقوا عذاب

الحريق﴾ أي: العذاب الشديد

المحرق، ذلك العذاب حصل لكم،

غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو

بما قدمت أيديكم من المعاصي التي

أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في

الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء

المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله

عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كذاب آل فرعون والذين من

قبلهم﴾ من الأمم المكذبة ﴿كفروا

بآيات الله فأخذهم الله﴾ بالعقاب

﴿بذنوبهم، إن الله قوي شديد

العقاب﴾ لا يعجزه أحد يريد أخذه

﴿ما من دابة إلا هو آخذ ناصيتها﴾

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك

مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *

كذاب آل فرعون والذين من قبلهم

كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم

وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين

﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله

بالأمم الكاذبين^(١)، وأزال عنهم ما هم

فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم

وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك

مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم

الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم

منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى

يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى

المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها

كفراً، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم

كما غيروا ما بأنفسهم.

والله الحكمة في ذلك والعدل

والإحسان إلى^(٢) عباده، حيث لم

يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب

قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من

النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع

ما نطق به الناطقون، سواء من أسر

القول ومن جهر به، ويعلم ما تطوي

عليه الضمائر، وتخفيه السرائر،

فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه

علمه وجرت به مشيئته.

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي: فرعون

وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات

ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم

بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من

المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾

لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم

يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم

اقتترفوه، فليحذر المخاطبيون أن

يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم

من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب

عند الله الذين كفروا فهم

لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم

ينقضون عهدهم في كل مرة وهم

لا يتقون * فإما تشققتهم في الحرب

فشرذ بهم من خلفهم لعلمهم يذكرون﴾

هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال

الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان،

والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد

عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر

الدواب عند الله فهم شر من الحمير

والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم

منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاب

هؤلاء ومحقتهم هو المتعين، فلا يسري

داؤهم لغيرهم، ولهذا قال:

﴿فإما تشققتهم في الحرب﴾ أي:

تجدتهم في حال المحاربة، بحيث

لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فشرذ بهم من خلفهم﴾ أي: نكل

بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما

يصيرون [به]^(٣) عبرة لمن بعدهم

﴿لعليهم﴾ أي: من خلفهم

﴿يذكرون﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما

أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات

والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب

لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل

وزجر لمن عملها أن لا يعاودها.

وإلى تقييد هذه العقوبة في الحرب

أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع

الغدر - أنه إذا أعطى عهداً لا يجوز

خيانته وعقوبته.

﴿٥٨﴾ ﴿وإنما تخافن من قوم خيانة

فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب

الخائنين﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم

عهد وميثاق على ترك القتال فخفت

عنهم خيانة، بأن ظهر من قرائن

أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير

تصريح منهم بالخيانة.

﴿فانبذ إليهم﴾ عهدهم، أي: ارمه

عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يجعل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر يبين يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة^(٤) منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم.

وإلى مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إثمهم لا يعجزون﴾ أي: لا يحسب الكافرون برهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إهمالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيا، فلماذا قال لعباده المؤمنين:

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به

عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم

لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من

شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم

لا تظلمون﴾ أي: ﴿وأعدوا﴾

لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم

وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من

قوة﴾ أي: كل ما تقدرن عليه من

القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.

(٣) زيادة يقتضيها السياق ليست في النسخين.

(٤) في ب: المنحة.

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأى: والسياسة التي يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرُّمِّي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرُّمِّي» ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

إذا كان شيء موجوداً^(١) أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وأخريين من دونهم لا تعلمونهم﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿الله يعلمهم﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يؤف إليكم﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً. ﴿وإن جنتحوا للسلم﴾

فاجتنب لها وتوكل على الله إته هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يمددوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إته عزيز حكيم * يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ يقول تعالى: ﴿وإن جنتحوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿للسلم﴾ أي: الصلح وترك القتال.

﴿فاجتنب لها وتوكل على الله﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم. ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وإن يريدوا أن يمددوك فإن حسبك الله﴾ أي: كافيك ما يؤذك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فل ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ أي: أعانك بمعونة

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة المؤمنين بأن قيصهم لنصرك.

﴿وألف بين قلوبهم﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا يسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفقة والفرقة الشديدة ﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ أي: كافيك ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

إذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ:

﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾ أي: حثهم وأنصهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

(١) في النسخين: إذا كان موجوداً شيئاً.

الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

﴿إن يكن منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾، فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف، ﴿فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلتهم من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحققتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المئة، والمئة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار، فإن زادوا على مثلهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثلهم [إذا غلب على ظنهم الضرر]^(١)، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر^(٢) لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك [فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مباشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل]^(٣).

﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴿فكفوا عما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم.

فقال تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أي:

إِنَّمَا النَّبِيُّ رَسُولٌ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَيُحْيِيكُمْ وَأَمَّا وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ
مَّا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَثْخَنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
فَكْفُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
هَذِهِ مَعَاتِبَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ «بَدْرٍ» إِذْ أُسِرُوا الْمُشْرِكِينَ وَأَبْقَوْهُمْ لِأَجْلِ الْفِدَاءِ، وَكَانَ رَأْيُ: أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، قَتْلَهُمْ وَاسْتِئْصَالَهُمْ.
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَثْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي:

ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخاد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسره وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المتضمنة لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فلا وفق أن لا يؤسروا.

فإذا أئخسوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحسبوا لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم - يقول تعالى: ﴿تريدون﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿والله يريد الآخرة﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن يتصر من الكفار من دون قتال لفضل، لكنه حكيم، يتلى بعضكم ببعض.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها الأمة - العذاب ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ وفي الحديث: «لو نزل

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: الأمر.

(٣) زيادة من هامش ب.

المال، بأن يبسر لكم من فضله، خيراً وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿ويغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم الجنة﴾
أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

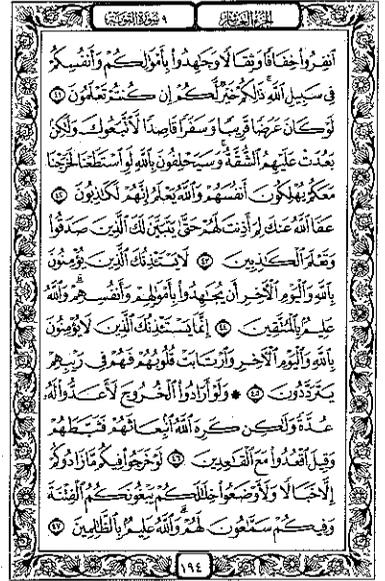
﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يجعلها لأمة قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكراً لنعم الله عليكم، ﴿إن الله غفور﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي.

﴿رحيم﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم﴾ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لحاظه ومن كان على مثل حاله.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: من

(٣) في ب: بعض.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(١) في ب: كثيراً.

تفسير سورة براءة ويقال: سورة التوبة، وهي مدنية

شيء عليهم ﴿ الآيات السابقة في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجاهدهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لهم مغفرة﴾ من الله تحمى بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، ﴿و﴿لهم ﴿رزق كريم﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقرّب به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فأولئك منكم﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم^(١).

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ أخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبية وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه وشرعه.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائع الدينونة عليكم ما يناسبها.

ثم تفسير سورة الأنفال والله الحمد

﴿١ - ٢﴾ ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾ أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر سيسحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق.

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أئذ المعاهدين في مدة عهدهم، أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركة فإن الله لا بد أن يحزبه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعيد الله له.

﴿٣﴾ ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم، مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار.

﴿٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجاهدهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

فأمر النبي^(٢) مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقرّبوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة - يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال: ﴿فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾.

أي: فاتتكم، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلب عليكم عبادة المؤمنين.

﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي: مؤلم مقطع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار. وبشر القرار.

﴿٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجاهدهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

(١) كذا في ب، وفي أ: له ما لكم وعليه ما عليكم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الله.



فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يبيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

﴿٧﴾ ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتكم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟!﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿إلا الذين عاهدتكم﴾ من المشركين ﴿عند المسجد الحرام﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفضائل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين﴾ ولهذا قال:

﴿٨-١١﴾ ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأثوانهم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ اشتروا آيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاسوا الصلاة وآتوا الزكاة

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً، لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسوله، المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادهم وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فإن تابوا﴾ من شركهم ﴿واقاموا الصلاة﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وآتوا الزكاة﴾ لمستحقها ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم مال لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿٦﴾ ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ أي: طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المنحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون،

عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين. ﴿إلا الذين عاهدتكم من المشركين﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء آتموا لهم^(١) عهدهم إلى مدتهم، قلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.

﴿إن الله يحب المتقين﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

﴿٥﴾ ﴿فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاسوا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿فاذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ في أي: مكان وزمان، ﴿وخذوهم﴾ أسرى ﴿واحصروهم﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً لعباده.

(١) في ب: إليهم.

فإخوانكم في الدين ونفضل الآيات لقوم يعلمون ﴿أي﴾ كيف يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و ﴿لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبعوضون لكم صدقاً، ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله.

﴿فصدوا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عن سبيله﴾ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة﴾ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأمله.

فالوصف الذي جعلهم ^(١) يعادونكم لأجله ويبغضونكم، هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروه واتخذوا من عاداهم عدواً ومن نصره لكم ولياً، واجعلوا الحكم يدور معه وجوداً وعدماً، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية ^(٢) تميلون بهما، حيثما مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: ﴿فإن تابوا﴾ عن شركهم، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبداً حقيقة. لما بين من أحكامه العظيمة ما بين، ووضح منها ما وضع، أحكاماً

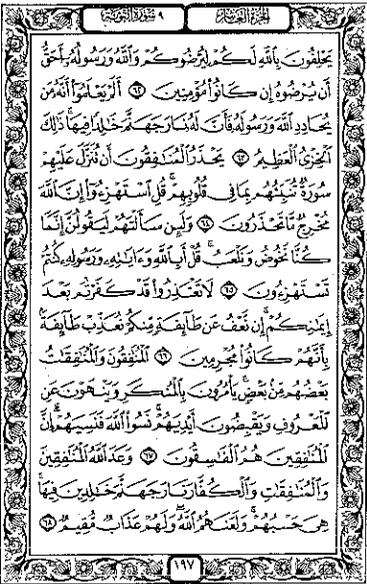
وجكماً وجكماً وحكمة قال: ﴿ونفضل الآيات﴾ أي: نوضحها ونميزها ﴿لقوم يعلمون﴾ فإليهم سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرايع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك [وإحسانك يا رب العالمين].

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ * ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخونهم بالله أحق أن تحشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي: نقضوها وحلوا، فقاتلوهم أو أعانوا على قتالكم، أو نقضوكم، ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي: عابوه وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنائتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إنهم لا إيمان لهم﴾ أي: لا عهد ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين،



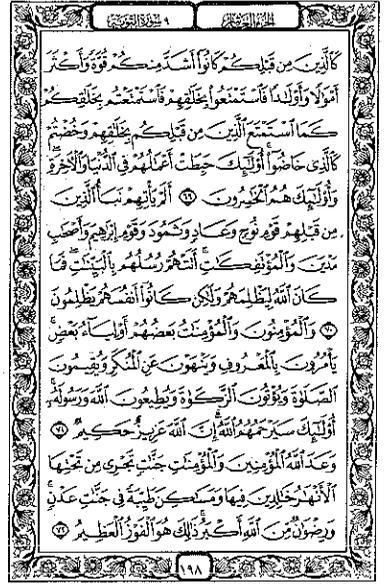
ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لعلهم﴾ في قتالكم إياهم، ﴿ينتھون﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم فقال: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يحلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وهم بدؤوكم أول مرة﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت ^(٣) قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿أتخونهم﴾ في ترك قتالهم ﴿فأله﴾ أحق أن تحشوه إن كنتم مؤمنين ﴿فإنه﴾ أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر الله، ولا تحشوهم فتركوا أمر الله، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت.
 (٢) في ب: طعية.
 (٣) في ب: أعانت.
 (٤) في ب: فأله.



الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ بالقتل ويحزهم ﴿إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، وينصركم عليهم﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فإن في قلوبهم من الحق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهَم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿ويثوب الله على من يشاء﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقه للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿والله عليم حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

﴿١٦﴾ ﴿أم حسبتم أن تركوا وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم

يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أم حسبتم أن تركوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويمجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ يقول تعالى: ﴿ما كان﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله بالعبادة والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمَّارٌ مساجد الله، والأصل منهم

مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! لهذا قال: ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وفي النار هم خالدون﴾.

ثم ذكر من هم عمَّار مساجد الله فقال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وآتى الزكاة﴾ لأهلها ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمَّها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمَّار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ و«عسى» من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمَّار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ووجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ خالدون فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وعمارة المسجد

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها من تأتية الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والآواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحرث، والأغنام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فإنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على عجة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلامه ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يقوّت عليه محبواً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما بهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتم فلم تغن عنكم شيئاً وضقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك

واحدة منها لوسعتهم. ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبعثون عنها جنوداً، ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا تعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتحادهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم﴾ في النسب ﴿وأبناؤكم وإخوانكم﴾ في النسب والعشرة^(١) ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي: قراياتكم عموماً ﴿وأموال اقترتموها﴾ أي: اكتسبتموها وتعتب

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله.

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنن الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وأنفُسهم﴾ بالخروج بالنفس ﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المهروب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتحلق بأخلاقهم.

﴿يشترهم ربه﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناءً ومحبة لهم، ﴿برحمة منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿ورضوان﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من كل ما اشتتهه الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

على من يشاء والله غفور رحيم ﴿١﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع الحروب والهيئات، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبتها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لخربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهمزوا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونساءهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمت ﴿بما رحبت﴾ أي: على رحبتها

وسعتها، ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: منهزمين.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات، مما يشتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿ وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نساءهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يأسن أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: حثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبلغ من كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً!!

وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر كثيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها.

والمسلمون ما زالوا يباثرون أيدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تقذروهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتم﴾ أيها المسلمون ﴿عيلة﴾ أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، وعمل واحد، بل لا يتغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿وإن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهاذا علته الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يقتل مما أصاب).

واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ أمر أن يجلوا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.

ولا يجرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه ما بين دين مبديل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وغنى ذلك القتال حتى يعطوا الجزية﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل

على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عن يد﴾ أي: حتى يبذلوها^(١) في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، وهم صاغرون﴾.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما ينفي عزمهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجوز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا. واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوم له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين

يَكُنِيهَا النَّبِيُّ يُعْهِدُ إِلَيْكَ وَأَلْمَنِيُونَ وَأَقْلَبْ عَدُوَّهُمْ
وَمَا وَهَبَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ النَّصِيرُ ﴿٣٠﴾ يَجِدُونَ بِاللَّهِ بِأَقْوَامًا
وَلَقَدْ قَالُوا كَبَدْنَا الْكُرْسِيُّ فَكَرَّمُوا بِهِ وَإِسْلَامِهِمْ
وَكُفْرًا بِمَا رَزَقُوا وَمَا نَكْتُمُ إِلَّا أَنْ نَشْفِيَهم وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِن قَضِيهِمْ وَإِنْ يَشَاءُ يَكْفُرْ خَلْقًا لَهُمْ وَإِنْ يَشَاءُ يُصَلِّمُهُمْ
اللَّهُ عَسَى أَنْ يَلْبَسَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَخْذَةَ وَالْخَيْرَ فِي الْأَنْفُسِ
مِنْ وَلِيِّهِ وَلَا تُعْزِزُهم إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِن قَضِيهِمْ لَيُصَلِّمَنَّ الَّذِينَ يَبْتَاعُونَ الْكُفْرَانَ مِنَ الَّذِينَ يَبْتَاعُونَ
فَلَمَّا تَلَمَّسْتَهُم مِّن قَضِيهِمْ جَحَلُوا بِيَدِهِمْ وَقَالُوا هُوَ تَعَزَّزَ بِسُلْطَانِهِ
﴿٣١﴾ نَاعَبْتَهُمْ فَكَيْفَ يَكْفُرُونَ الْيَوْمَ يَكْفُرُونَ بِمَا أَخْلَقُوا
اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُؤْتِيهِمْ مَّا يَشَاءُ وَيَكْفُرُونَ ﴿٣٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَيُخَوِّفُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ
الْعُرُوبَ ﴿٣٣﴾ الْيَوْمَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّيْدِ وَالَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُخَلَّفِينَ
فِي السَّيْرِ وَالَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُخَلَّفِينَ وَالَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُخَلَّفِينَ

كتابي وغيره.

﴿٣٠ - ٣٣﴾ وقالت اليهود عزيز

ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿تخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة، ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبيث والشرا ما وصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله، وتقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في «عزيز» أنه ابن الله، أنه لما سلط الله الملك^(٢) على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا

(١) كذا في ب، وفي أ: يبذلونها. (٢) في ب: أنه لما تسلط الملوك.



وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتقاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، وعبادة الله وإخلاص الأعمال الصالحة ومحاسن الشيم، والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان الدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤-٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعبذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

حزم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشاجهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوه إلهاً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما هو﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿سبحانه﴾ وتعالى ﴿عما يشركون﴾ أي: تنزهه وتقدس، وتعالته عظمته عن شركهم وافتراءهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أضلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه، أخير أنهم ﴿يريدون﴾ بهذا ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿ويأبئ الله إلا أن يتم نوره﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد بسوء، ولهذا قال: ﴿ويأبئ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده

عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لاكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم﴾ ابن الله﴾ قال الله تعالى ﴿ذلك﴾ القول الذي قالوه ﴿قولهم بأفواههم﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يضاهئون﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: ﴿الملائكة بنات الله﴾ تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم: ﴿اتخذوا أحبارهم﴾ وهم علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة.

﴿أرباباً من دون الله﴾ يحلون لهم ما

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تحصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن ﴿كافة﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفي على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بعونه ونصره وتأيدته، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرهم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿٣٧﴾ ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحلال ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا

الواجبات و «النهي عن الشيء، أمر بضده».

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه القدري، ﴿يوم خلق الله السماوات والأرض﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسما على هذه الشهور الاثني عشر [شهوراً].

﴿منها أربعة حرم﴾: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرماً لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منيته بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهو لاء الأحيار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصددهم الناس عن سبيل الله.

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أي: يمسكونها ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فيشرهم بعذاب اليم﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يوم يحمى عليها﴾ أي: على أموالهم، ﴿في نار جهنم﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

﴿فتكوى بها جيَاههم وجنوبيهم وظهورهم﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم تويحاً ولوماً: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كما إخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

(١) في ب: الحرم.

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المخاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مؤهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبورها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يضل به الذين كفروا يجلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوا حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾ اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ نذب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إلا قليل﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأيا أحق بالإشارة؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكمدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي: رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

عصى الله تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قف في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أراد، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فإله غني عنكم، لا تضرونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذلّه ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فأجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثاني اثنين﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(٢) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يحظر على البال.

﴿إذ يقول﴾ النبي ﷺ ﴿لصاحبه﴾ أي بكر لما حزن واشتد قلقه،

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح فيبدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ بعونه ونصره وتأييده .

﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي : الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للنفوس، ولهذا لما قتل صاحب سكنه وقال : ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ .

﴿وأيدته بجنود لم تروها﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي : الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه .

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسامين : نصر المسلمين إذا ظمعوها في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم .

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع .

وقوله : ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي : كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جهلتها قوله : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر .

﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هازب، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية .

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصه لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة

الجليلة، والصحة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكروا صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافرين، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها .

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفتدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته .

وفيها : أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة .

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجاً لهم على النفير في سبيله فقال : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي : في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال .

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي : ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك .

ثم قال : ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي : الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه .

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي : منفعة دنيوية سهلة

التناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سفراً قاصداً﴾ أي : قريباً سهلاً ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي : طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تشاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال .

﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي : سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم عذراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك .

﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعدار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال :

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستذكرك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنتك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿عفا الله عنك﴾ أي : سامحك وغفر لك ما أجريت .

﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر عن لا يستحق ذلك .

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يجنهم عليه حاث،

فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.

﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخير، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلت رغبته في الخير، وجبتوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي: لا يزالون في الشك والخيرة.

﴿٤٦ - ٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقمعدوا مع القاعدنين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدارهم التي اعتدروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فثبطهم﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وقيل اقمعدوا مع القاعدنين﴾ من النساء والمعذورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ أي: نقصاً.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سماعون لهم﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتشبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من الفساد الناشئة من مخالطتهم. ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال:

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الخيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ فيبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

﴿٤٩﴾ ﴿ومنهم من يقول أئذني لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿أئذني لي﴾ في التخلف ﴿ولا تفتني﴾ في الخروج، فإنني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس».

ومقصوده - فيحبه الله - الرياء والتفاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن

الشر.

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجريء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿إن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

﴿٥٠ - ٥١﴾ ﴿إن تصيبك حسنة تأسؤهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبغضون للدين صرفاً: ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تأسؤهم﴾ أي: تحزنهم وتغمهم.

﴿وإن تصيبك مصيبة﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يقولوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك. ﴿قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما نتجنا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها. قال تعالى راداً عليهم في ذلك ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ.

﴿هو مولانا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعليتنا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء.

﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويتقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل. ﴿٥٢﴾ ﴿قل هل تربصون بنا إلا

إحدى الحسينين ونحن نترصب بكم أن يصيبكم الله بعداذب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٥٧﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي: شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسينين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الآخروي والديوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نترصب بكم أن يصيبكم الله بعداذب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا بأن يسלטنا عليكم فقتلكم. ﴿فتربصوا﴾ بنا الخير ﴿إنا معكم متربصون﴾ بكم الشر.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون ﴿يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذاكرًا السبب في ذلك﴾ ﴿قل﴾ لهم ﴿أنفقوا طوعاً﴾ من أنفسكم ﴿أو كرهاً﴾ على ذلك، بغير اختياركم. ﴿لن يتقبل منكم﴾ شيء من أعمالكم ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿ولا يتفقون إلا وهم كارهون﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت

القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴿لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يمححون﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مرضي ربهم، وعصوا الله لأجلها ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي - لما ألتهم عن الله وذكره - صارت وبالاً عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإراداتهم لا تتعدها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن يتنقلوا من الدنيا ﴿وتزهد﴾ أنفسهم وهم كافرون.

فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة.

﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم﴾ قصدهم في خلفهم هذا أنهم ﴿قوم يفرقون﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبيتوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبرؤوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

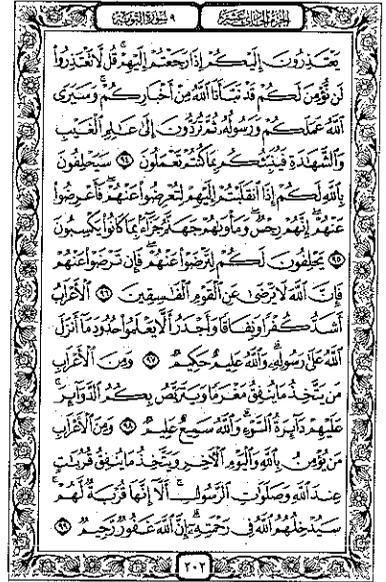
وأما حال قوتي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلغ عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

﴿٥٨﴾ ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله وبرسوله ولو أنهم يحسبوا ما آتاهم الله من فضله﴾ وقالوا حسبنا الله سؤيتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها.﴾ ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه، تابعاً لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ثم ذكر شدة جنهم فقال: ﴿لو يجدون ملجأً﴾ يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغارات﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿أو مدخلاً﴾ أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لولوا إليه وهم يمححون﴾ أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملجأ يقتدرون بها على الثبات.

﴿٥٩ - ٥٨﴾ ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله وبرسوله ولو أنهم يحسبوا ما آتاهم الله من فضله﴾ وقالوا حسبنا الله سؤيتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها.﴾ ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه، تابعاً لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وقال هنا: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وقالوا حسبنا الله﴾



أي: كافينا الله، فرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا، لسلموا من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية، ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿إنما الصدقات﴾ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا يخص بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف.

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمساكين: الذي يجد نصفها فأكثر،

ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عملاتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلف قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التآليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما لا يذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يؤتي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعِياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ

القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

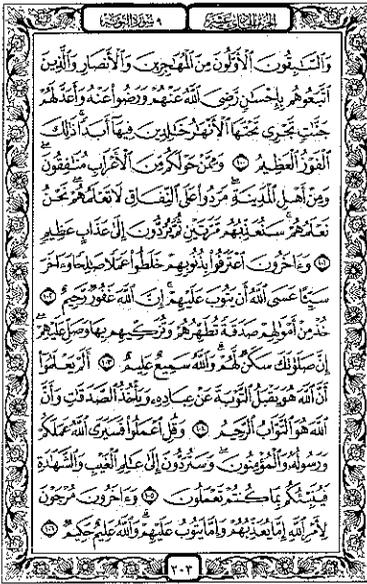
وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظراً].

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فريضة من الله﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿والله عليم حكيم﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين: أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامّة للإسلام والمسلمين، فلما أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الشغور، ويجهده به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿الذين يؤذون النبي﴾ بالأقوال الردية، والعيب له ولدينه، ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي: لا يباليون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب،



مؤمنين ﴿ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضاه ورضاه رسول الله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله .

وهذا محادة لله ومشاقفة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ أي (١) : يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجراً على حماره .

﴿ فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عباداً بالله من أحوالهم (٢)

﴿ ٦٤ - ٦٦ ﴾ ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفئاتتين:

﴿ ٦٤ - ٦٦ ﴾ ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفئاتتين:

إحدهما: أن الله سيترجى الستر على عباده .
والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف .

قال الله تعالى: ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ .

وقال هنا: ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ﴾

وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل .

فأسأوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهديتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة .

ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية .

ومنها: قدهم في عقل النبي ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتمهم إدراكاً، وأتقهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً .

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم (١)، وامتناله لأمر الله في قوله: ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون .

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها، فخرسوا دنياهم وآخرتهم، ﴿ والذين يؤذون رسول الله ﴾ بالقول أو الفعل ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاقته .

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ فيتبرؤوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغابتهم أن تعرضوا عليهم . ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا ﴾

أي: تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين .

﴿ قل استهزؤوا ﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية .

﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ وقد وفي تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم .

﴿ ولئن سألتهم ﴾ عما قاله من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرأتنا هؤلاء» - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً، أو أكذب أسناً (٤) وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك .

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب .

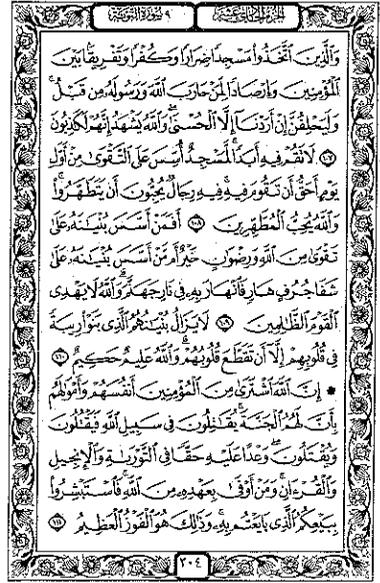
قال الله تعالى - مبيئاً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك - : ﴿ قل لهم ﴾ ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴿ فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم

(٤) زيادة من هامش ب .

(٣) في ب: حالهم .

(١) في النسختين: بشأنه .

(٢) في ب: بأن .



والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ يقول تعالى محذراً للمنافقين والمؤمنات أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم الكاذبة. ﴿قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات﴾ أي: قري قوم لوط.

فكلهم ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم، استمتعتم بخلقكم، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستمتعتم به على معاصي الله ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما حوّلتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم، وخضتم كالذي خاضوا، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتعوا بالخلق وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم من فعلوا كفعالهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما حوّلوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل.

قوله: ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث تجرّوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿والمؤمننون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴿ لما ذكر أن المنافقين

والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبيهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ يقول تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ لأنهم اشتهروا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يأمرون بالمنكر﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وينهون عن المعروف﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة. ﴿ويقبضون أيديهم﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوضفهم البخل.

﴿نساء الله﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً، ﴿فنسبيهم﴾ من رحته، فلا يوفقههم خيراً، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدون فيها مخلدين.

﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبيهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعادة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكفواً وأكثراً أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ * ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين

دينه ورسوله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول يعترضون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴿.

وقوله: ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نعذب طائفة﴾ منكم ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿كانوا مجرمين﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، أن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة في كل ذنب وإن كان عظيماً.

﴿٦٧ - ٦٨﴾ ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ * وعد الله المنافقين

بعضهم أولياء بعض^(١)، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات﴾ أي: ذكورهم وإناثهم ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في المحبة والموالة والانتماء والنصرة.

﴿يأمرون بالمعروف﴾ وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وينهاون عن المنكر﴾ وهو: كل ما خالف المعروف ونافسه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿أولئك سيرحهم الله﴾ أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للنباتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خالدين فيها﴾ لا ييغون عنها جزواً ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من

ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشواق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها.

﴿ورضوان من الله﴾ يحمله على أهل الجنة ﴿أكبر﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا ببرؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات.

﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ يخلقون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعدبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ يقول تعالى لتبيه ﷺ: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ أي: بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان.

ومن كان مدعياً للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئء الشرك والكفر، فهذا مالهم في الدنيا.

﴿و﴾ أما في الآخرة ف﴿مأواهم جهنم﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وبئس المصير﴾.

﴿يخلقون بالله ما قالوا ولقد قالوا

التي يوتون العبادات المحمودة التي تحقون الأجر
التي يوتون الأجر والنعيم والثناء عن المنكر
وتنظرون لحدود الله ويحذرون المؤمنين ما كان
التي والذين آمنوا أن يتكفروا للمشركين
ولأنك أول أولي قربى من بعد ما تبرأت لهم أنت
أصحبهم جميعاً ﴿ وما كان استغفار إبراهيم
لأبيه إلا عن ضرورة وما تكلمنا بشيء من قبله
عند الله بل كنا نعلم أن إبراهيم لأبيه كافر بل
الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى نسوا ما كان
لرب الله يعصون نهي الله عليهم ﴿ إن الله له ناكث
السكران والأخس من عبيدك وما كنت من دون
نبيك من قبل ولا نصير ﴿ لقد تاب الله على
النبي والمنافقين والآنصار الذين آمنوا وهم
سلكوا السبيل من بعد ما كانوا على شفاك كافرين
فهداهم سنتك فليعلموا أن الله يهتدي رؤسكم ﴿

كلمة الكفر﴾ أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم «ليخرجن الأعرس منها الأذل» والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين وبالرسول.

فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاؤوا إليه يخلقون بالله ما قالوا.

قال تعالى مكدباً لهم: ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ فإسلامهم السابق - وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

﴿وهو بما لم ينالوا﴾ وذلك حين هو بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصددهم عن قصدهم.

﴿و﴾ الحال أنهم ﴿ما نقموا﴾ وعبأوا من رسول الله ﷺ ﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سبباً لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنياً لهم بعد الفقر، وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه، ويؤمنوا به ويحلموه؟! فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية.

(١) في ب: من بعض.

النواب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت على نواب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير. فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

﴿٧٩ - ٨٠﴾ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجودون إلا جاهدهم فيسخرهم منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ * استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبدلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم القليل، فيلمزون الكثير منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسعة، وقالوا

الغيوب﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ من الدنيا فيسطها لنا ووسعها ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نواب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

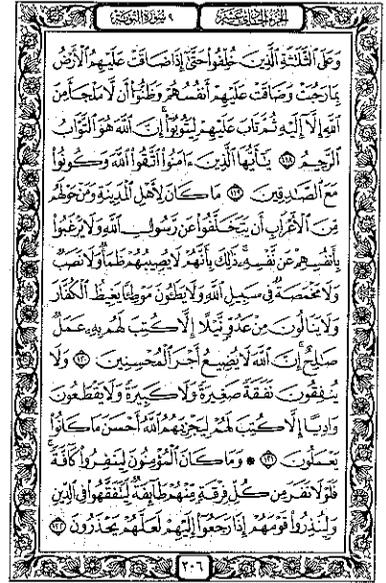
فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليعلمن كذا وكذا، ثم لا يفى بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: ﴿آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف﴾.

فهذا المنافق الذي وعند الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله علام سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليصدقن، ويصل الرحم، ويعين على



ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿ولن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهيم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فمُ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

﴿٧٥ - ٧٨﴾ ﴿ومتسهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهابذة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيثمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمنائري وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواها: معان بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة متنها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وقبض التقدير (٢٥٧/٤)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب القول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣/٣٣٨).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وقالوا﴾ أي: المنافقون ﴿لا تنفروا في الحرب﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، ويذهبه البكر^(١) والأصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حرألو كانوا يفتقون﴾ لما آثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أي: فليمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يزنوا على تخلفهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ فيسغني الله عنكم.

﴿إنكم رضيتم بالعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ونقلت أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتناقل المتخلف عن الأمور به عند انتهاز الفرصة لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضاً تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من المنعرجين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان

جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لغفرة الله لهم فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يغيثون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرألو كانوا يفتقون﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاةهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم

للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ويطنعون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فيسخرون منهم﴾.

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ فانهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين. ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي: شر أكبر من هذا!!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: ﴿الله غني عن صدقة هذا﴾، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التشييط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم وتكالاً أن يفعل أحد كفعالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ من المنافقين ﴿ولا تقم على قبره﴾ بعد الدفن لتدعوله، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعات.

﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعات الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصل على عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقراً في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾.

فيتعجبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهمون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ قد سلبهم حبيها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحركة.

﴿٨٦-٨٧﴾ ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدین﴾

الحوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله: ﴿استأذنتك أولوا الطول منهم﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدین﴾.

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالم﴾ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿٨٨-٨٩﴾ ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ غير متثقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ فتبأ لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وآخره، وهذا

نظير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾.

وقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

﴿٩٠-٩٣﴾ ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينتهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ أي: جاء الذين تبأنوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباين في الاعتذار لجفائهم وعدم حياتهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدها وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿المعذرون﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليُعذروهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾ في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿ليس على الضعفاء﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿ولا على المرضى﴾

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فبينكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو فضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قذر خبيث، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يخلفون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يجبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ولم يقل: ﴿فإن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيتهم الجازمة سعي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين^(٢) يستأذنونك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدنيوية والدنيوية، ﴿فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لنؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ سيخلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس وماواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يخلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين * لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سـ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غزائكم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لنؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي^(١) لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا جاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في [نفسه]^(٢) أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمنقرض، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأتابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قل﴾ لهم معتذراً: ﴿لا أجد ما أحملك عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون باذلول لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

(١) في النسخين: التي.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب واللوم يتأكد على الذين.

يتوب عليهم ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضى الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعداء في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حياً ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية الرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم * ومن الأعراب من يتخذ ما يتفق مغراً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله وصلوات الرسول إلا إنها قرية لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم * يقول تعالى: ﴿الأعراب﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أشد كفراً ونفاقاً﴾ من الحضارة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله * من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحضارة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، وبمجالسون أهل الإيمان، وبمجالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحضارة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحضارة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها.

﴿٩٨﴾ فمنهم من يتخذ ما يفتق * من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مغرمًا﴾ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً.

﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء. وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولههم العقبي الحسنة، ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان.

﴿ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله﴾ أي: يحتسب نفقته، ويتقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿و﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿صلوات الرسول﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول: ﴿ألا إنها قرية لهم﴾ تقر بهم إلى الله، وتنمي

أموالهم وتحمل فيها البركة. ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جملة عباده الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويمحيهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحضارة، منهم المسدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها^(١)، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشراح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرماً.

﴿١٠٠﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم

(١) في ب: إن كانت مأمورة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

ومن مغفرتة أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأتابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دلت^(١) على أن المخلط المعترف الندام، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمر له بما يظهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً وَهِيَ الزَّكَاةُ الْمَرْفُوضَةُ﴾: تطهرهم وتزكيتهم بها: أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة.

﴿وتزكيتهم﴾ أي: تنميتهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والآخروي، وتتمى أموالهم: ﴿وصل عليهم﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفون إليك زكاة أموالهم.

﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿والله سميعٌ لدعائك﴾، سمع إجابة وقبول.

﴿عليمٌ بأحوال العباد ونياتهم﴾، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، وينعت عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقة دعا له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

﴿لا تعلمهم﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿نحن نعلمهم سنعتهم مرتين﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(١)، والكرهية لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ يقول تعالى:

﴿وَأَخْرَجُوا عَمَّنَ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا، بَلْ وَمَنْ سَائِرَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرد على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿من المهاجرين﴾ الذين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يتبعون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون.

﴿و﴾ من الأنصار﴾ الذين تبوأوا الدار والإيمان، [من قبلهم] يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وخصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رضي الله عنهم﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا يبغون عنها حولا، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدر كوه، ومهما أرادوه، وجدوه.

﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

﴿١٠١﴾ ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة تعلمهم سنعتهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾ أيضاً منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: تمزنا عليه، واستمروا وازدادوا فيه ظغيباناً.

الحسنى والله يشهد إثمهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم * كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاققة بين المؤمنين، ويعدون له يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فيبن تعالى خزيم، وأظهر سرهم فقال: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وكفراً﴾ أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وإرساداً﴾ أي: إعداداً لمن حارب الله ورسوله من قبل * أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد ومثالة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعد ما بين من مقاصدهم

عباده، حتى يملواهم، ويأبوا إلا النفار والشroud عن بابهم، ومواليتهم عدوهم.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وقل﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعملوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿١٠٦﴾ ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ أي: ﴿وآخرون﴾ من المخلفين مؤخرون ﴿لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿والله عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يجذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿١٠٧ - ١١٠﴾ ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا

تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تحب فيها الزكاة، وإلا لم تحب فيها، لأنها إذا كانت للفتنة، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالاً يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالفتنة ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.

وأنة ينبغي تشييط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿١٠٤﴾ ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عباده ﴿التائبين من أي: ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر.

﴿ويأخذ الصدقات﴾ منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحداهم كما يربي الرجل فلوله، حتى تكون الثمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿وأن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية^(١)] مراراً. ولا يحمل الله من التوبة على

الفاسدة في ذلك المسجد ﴿وليلحلقن إن أردنا﴾ في بنائنا إياه ﴿إلا الحسنى﴾ أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

﴿لا تقم فيه أبدا﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضراباً أبداً، فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء»،

وهو مسجد «قباء»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا

عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ وتعبد، وتذكر الله تعالى

فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ من الذنوب، ويتطهروا

من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجهد فيما يجب، فلا بد

أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا

كانوا عن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع

رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وعن كانوا يتحرزون من مخالفة الله

ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء،

فحمدهم على صنيعهم.

﴿والله يحب المطهرين﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق

الردئية، والطمهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص

﴿ورضوان﴾ بأن كان موافقاً لأمره،

فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خير أم من أسس بنيانه على

شفا﴾ أي: على طرف ﴿جرف هار﴾ أي: بال، قد تداعي للانهدام، ﴿فانهار

به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ لما فيه مصالح دينهم

ودنياهم.

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي: شكاً وريباً ماكثاً في

قلوبهم، ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم،

وتخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً

إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

﴿والله عليم﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنه.

﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته

الحكمة وأمر به فله الحمد.

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم،

وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغييره النية، فيقلب منهاياً عنه، كما

قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي

التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل

اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه:

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة

فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع

الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبيدة لفاعلتها

عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم

والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد

النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل

المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس

على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿١١١﴾ ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به

وذلك هو الفوز العظيم﴾ يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

الله ﷻ ببيعكم أنفسكم وأموالكم بدين الله ﷻ بقتلوا في سبيل الله ﷻ بقتلوا ويقتلوا وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﷻ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﷻ يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

الله ﷻ ببيعكم أنفسكم وأموالكم بدين الله ﷻ بقتلوا في سبيل الله ﷻ بقتلوا ويقتلوا وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﷻ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﷻ يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

الله ﷻ ببيعكم أنفسكم وأموالكم بدين الله ﷻ بقتلوا في سبيل الله ﷻ بقتلوا ويقتلوا وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﷻ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﷻ يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم * يعني : ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به * أن يستغفروا للمشركين * أي : لمن كفر به وعبد معه غيره * ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من وآلاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه * عن موعدة وعدها إياه * في قوله : * سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيماً * وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير * تبرأ منه * موافقة لربه وتادباً معه.

* إن إبراهيم لأواه * أي : رجأع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.

* حليم * أي : ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له : * لأرجمتك * وهو يقول له : * سلام عليك سأستغفر لك ربى *.

فعلیکم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء * إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك * كما نهكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال :

* ١١٥ - ١١٦ * * وما كان الله

المؤمنين * كأنه قيل : من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال : هم * التائبون * أي : الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

* العابدون * أي : المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

* الحامدون * الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكرة في آناء الليل وآناء النهار.

* السائحون * فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة : السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلوة الأقارب، ونحو ذلك.

* الراكعون الساجدون * أي : المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

* الأمرون بالمعروف * ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

* والناهون عن المنكر * وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

* والحافظون لحدود الله * بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

* وبشیر المؤمنین * لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنین، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وحملاً بمقتضاه.

* ١١٣ - ١١٤ * * ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه * اشترى * بنفسه الكريمة * من المؤمنين أنفسهم وأموالهم * فهي الثمن والسلعة المبيعة.

* بأن لهم الجنة * التي فيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والخور الحسان، والمنازل الأثيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه * يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون * فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

* وعهداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن * التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

* ومن أوفى بمعهده من الله فاستبشروا * أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، * ببيعكم الذي يبيعكم به * أي : لتفروحواً بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.. * وذلك هو الفوز العظيم * الذي

لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأبي : كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

* ١١٢ * * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشیر

أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وظننوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووقفهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتتبع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الذنوب والعصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يجيها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتببتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاققة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلمة عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالى بالذنب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين. ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بنعار عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم * إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى. ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون. ﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يحل بتدبيره القُدري كيف يحل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن من عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحجوب الذي لم تجز العادة بالضيقة منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم * إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يحل بتدبيره القُدري كيف يحل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو «نصير» يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طائفة﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أول.

ثم نبه على أن إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ليتققها﴾ أي: القاعدون ﴿في الدين وليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، وليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأبي: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتبني لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، وتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبيته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ولا مخمصة في سبيل الله﴾ أي: مجاعة.

﴿ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ من الخوض لديبارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة مالم لا يكتب لهم به عمل صالح ﴿لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم﴾.

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحو فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين وليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ يقول تعالى: - منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي: جميعاً لقتال

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عذرهم أو في رده] ^(١) وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: ﴿تخلفوا﴾.

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

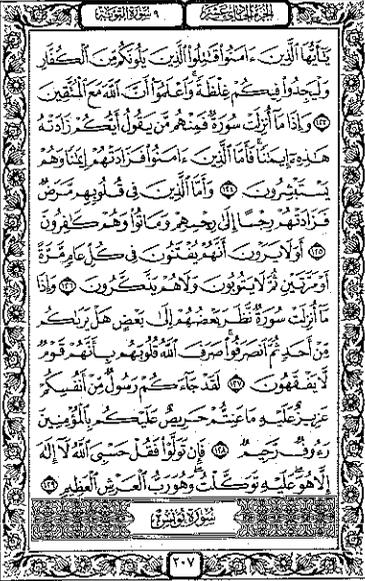
﴿١١٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، واجتناب ما نهى الله عنه واليعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفتور، سائلة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾ في بقائها



غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ وهذا

أي: شك ونفاق ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿ور﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - مويخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق :- ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلياء والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالآوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجدده وينميهِ، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يجردون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾

أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبعدون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعَنِّكُم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ بخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمَنَّهُم من يقول أَيْكُم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ يقول تعالى: مبيئاً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فمنهم من يقول أَيْكُم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيئاً الحال الواقعة :- ﴿فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانتكاف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انتشار صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فإن تولوا قتل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكثون من الأخذ عنه، ولا يأفنون عن الانقياد له، وهو ﴿صالحهم في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم﴾.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

تفسير سورة يونس مكية

ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴿١﴾ يقول تعالى مبيناً لرُبوبيته وإلهيته وعظمته : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة ، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية ، ولأنه رفيق في أفعاله .

ومن جملة حكمته فيها ، أنه خلقها بالحق وللحق ، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة .

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته .

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي ، من الإماتة والإحياء ، وإنزال الأرزاق ، ومداولة الأيام بين الناس ، وكشف الضر عن المضرورين ، وإجابة سؤال السائلين .

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه ، وجميع الخلق مذعنون لعزته (١) ، خاضعون لعظمته وسلطانه .

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة ، ولو كان أفضل الخلق ، حتى يأذن الله ولا يأذن ، إلا لمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له .

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله ربكم﴾ أي : هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال ، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال .

﴿فاعبدوه﴾ أي : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام .

فلما ذكر حكمه القدرى وهو التدبير العام ، وحكمه الدينى وهو

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آيات الكتاب الحكيم * آكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴿١﴾ يقول تعالى : ﴿آلر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو هذا القرآن ، المشتمل على الحكمة والأحكام ، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية ، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانتقاد .

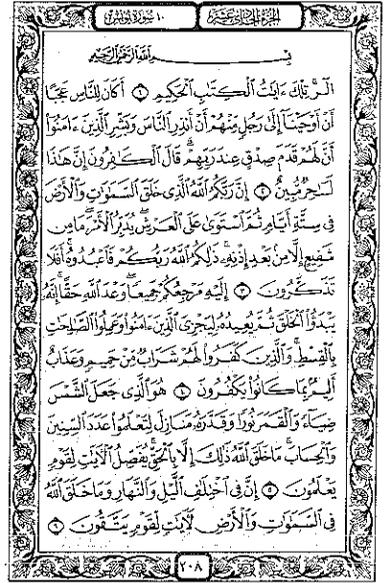
ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون ، فتعجبوا ﴿٢﴾ أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس عذاب الله ، وخوفهم نقم الله ، وذكرهم بآيات الله .

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي : لهم جزاء موفور (١) ، وثواب مذخور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة .

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به ، فـ ﴿قال الكافرون﴾ عنه : ﴿إن هذا لساحر مبين﴾ أي : بين السجر ، لا يخفى بزعمهم على أحد ، وهذا من سفههم وعنادهم ، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب ، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم .

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ، الذي بعثه الله من أنفسهم ، يعرفونه حق المعرفة ، فردوا دعوته ، وحرصوا على إبطال دينه ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

﴿٣ - ٤﴾ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ ذلكم الله



﴿حريص عليكم﴾ فيجب لكم الخير ، ويسعى جهده في إيصاله إليكم ، ويعرض على هدايتكم إلى الإيمان ، ويكره لكم الشر ، ويسعى جهده في تنفيركم عنه . ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي : شديد الرأفة والرحمة بهم ، أرحم بهم من والديهم .

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق ، وواجب على الأمة الإيمان به ، وتعظيمه ، وتعزيره ، وتوقيره ﴿فإن﴾ آمنوا ، فذلك حظهم وتوفيقيهم ، وإن ﴿تولوا﴾ عن الإيمان والعمل ، فامض على سبيلك ، ولا تنزل في دعوتك ، وقل ﴿حسبي الله﴾ أي : الله كافي في جميع ما أمسني ، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي : لا معبود بحق سواه .

﴿عليه توكلت﴾ أي : اعتمدت ووثقت به ، في جلب ما ينفع ، ودفع ما يضر ، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات . وإذا كان رب العرش العظيم ، الذي وسع المخلوقات ، ان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى .

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه
فله الحمد أولاً وآخراً
وظاهره وباطنه

(٢) في ب : لعزته .

(١) كذا في ب وفي أ : موفور .

شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم ليقام يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾

أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء.

﴿وعذاب أليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي:

بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥-٦﴾ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل

لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار

وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقون * لما قرر ربوبيته

والهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في

أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق

فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾

و﴿لقوم يتقون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال

قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الأحكام

والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة

علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء،

والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك

على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من

التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام

والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف

خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفتقرات

إلى الله في جميع شؤونها. وفي هذه الآيات الحث والترغيب

على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح

البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك،

تجاوز بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقرينة.

﴿٧-٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها

والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يقول

تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو

أكبر ما طمع فيه الظالمون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة.

﴿واطمأنوا بها﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم^(٢) ونهاية

قصدهم، فسعوا لها وأكبروا على لذاتها وشهواتها، بأي: طريق حصلت

حصلوها، ومن أي: وجه لاحت ابتذروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم

وأفكارهم وأعمالهم إليها. فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها

ليست دار عمر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل

الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية،

ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم

للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مأواهم النار﴾ أي: مقرهم

ومسكنهم التي لا يرحلون عنها. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر

والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩-١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم

تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم

وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ يقول تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام

بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب

وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يهديم ربهم بإيمانهم﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله

أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال

الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

(١) في ب: الدلائل.

(٢) في ب: أمرهم.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿ولقد أهلكتنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿نجبر تعالى أنه أهلكت الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق فلم يقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرب على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثم جعلناكم﴾ أيها المخاطبون ﴿خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾ فإن أنتم اعتبرتم واعتظمت بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعدر.

﴿١٥-١٧﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا آتت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾ يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وظلموا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: ﴿آتت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ فبحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلماً ورداً لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل ما يكون لي﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى

ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه﴾ لقضى إليهم أجلهم﴾ أي: لمحتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله: ﴿فندر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فني طغيانهم﴾ أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يممهمون﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ ﴿وإذا من الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضرر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه﴾ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى: ظلم أعظم من هذا الظلم!!؟ يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه الله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجناً مستقبحاً في العقول والقطر.

﴿كذلك زين للمسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿ما كانوا يعملون﴾.

الصرط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ الجارية على الدوام ﴿في جنات النعيم﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والخبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات الطربيات، والبنعمات المشجيات، والناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتزييه له عن النقائص، وأخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو أذ عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما ﴿مخيمهم﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والاثم، موصوف بأنه ﴿سلام﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

﴿١١﴾ ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على

(١) كذا في ب، وفي أ: عقوبة منه.

إني: أي: ليس لي غير ذلك، فإني عبد مأمور، ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامره ووحيه، فكيف هؤلاء السفهاء الضالين، الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم!!!

فإن زعموا أن قصدهم أن يثبتين لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كذبة في ذلك، فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرفها كيف يشاء، تابعاً^(١) لحكمته الربانية ورحمته بعباده.

﴿قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً طويلاً﴾ من قبله: أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً تعرفون حقيقة حالي، بأني أمني لا أفرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد!!

فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعياء العلماء، فهل يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟

فلو عملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتهم جزماً لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ^(٢) أبيت إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآياته﴾!!

فلو كنت متقولاً لكنت أظلم الناس، وفاتني الضلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكنني جئتكم

بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك. ودل قوله: ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ الآية، أن الذي هلمهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله وعدم رجائه، وأن من آمن بلقاء الله، فلا بد أن يتقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

﴿١٨﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: ﴿ويعبدون﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ

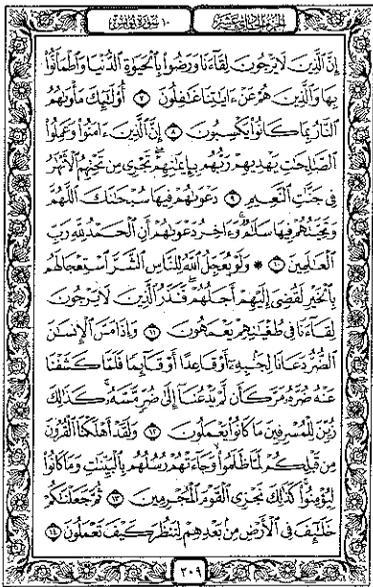
﴿من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي: لا تملك لهم متقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئاً.

﴿ويقولون﴾ قولاً خالياً من البرهان: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلاً لهذا القول -: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ أي: الله تعالى هو العالم، الذي أحاط علماً بجميع ما في السموات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم - يا معشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفتخبرونه بأمر خفي عليه، وعلمتموه؟ أنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد

(٢) في ب: إذا.

(١) في ب: تبعاً.



الذي لا إله في السموات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة.

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك لفضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لقضي بينهم﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿ففيما فيه يختلفون﴾

ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض، لئيبين الصادق من الكاذب.

أيأتانا أي: يسمعون بالباطل ليبطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فإن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصىه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعاوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنتبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفضل الآيات لقوم يتفكرون﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر البدين منها، تمتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿وما يأكل الناس﴾ كالحبوب والثمار ﴿وما تأكل﴾ الأنعام ﴿كأنواع العشب، والكلا المختلف الأصناف﴾ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ﴿أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية

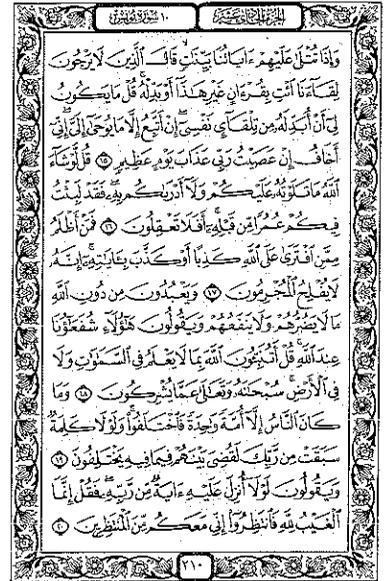
أيأتانا أي: يسمعون بالباطل ليبطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فإن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصىه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعاوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنتبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة^(١) لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي: السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهرونه من غير انزعاج ولا مشقة.

﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حيثئذ تعلقهم بالخلقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق ﴿أي:



﴿ويقولون﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ الآيات.

وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات.

﴿فقل﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تبليغ.

﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بضاحيه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿٢١﴾ ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا فكروا﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في

للمتصرين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أتاما أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾ أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿للقوم يتفكرون﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

عمّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة ﴿دار السلام﴾ لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبوده على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم «الحسنى» وهي الجنة الكاملة في حسناتها و«زيادة» وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أولئك أصحاب الجنة الملائمون لها ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:

(٢) في ب: في وجوههم.

وَأَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَدْدِ صَرَّةٍ مَسْتَهْرَجَةً إِذَا لَمْ يَكْفُرُوا فِي سُبُلِنَا نَقُلُ اللَّهُ أَسْرَعَ كَيْسًا إِنَّكَ بِكَيْدِنَا مَا تَكْرَهُونَ ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الرُّؤْيَا الْخَيْرَ وَالْأَخْرَجَ مَا كَتَبْنَا فِي الْقَلْبِ وَجَزَّ بِمَنْ يَرِيحُ طَبَقًا وَكَرَّ حَوَائِجَ مَا رِيحُ صَبْفٍ وَمَا هُوَ الرَّجْحُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحْطِ بِهِمْ ذَكَرَ اللَّهُ تُخَلِّصُكَ لَهُ الَّذِينَ كَانُوا آمَنُوا خَلِّصُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الشُّكْرِ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا أَحْمَهُمْ لِأَهْمِيَّتِهِمْ وَفِي الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا نَتْلُو عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَتَذَكَّرَ وَأَنْتَ كَاتِبٌ مُتَّبِعٌ فَاتَّخِذْ يَدَيْكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا إِنَّك مِنَ السَّاغِيَةِ إِذْ الْأَرْضُ تُرْمَى وَأَنْتَ وَمَنْ أَهْلُهَا أَهْمٌ قَدِيرٌ عَلِيمٌ أَتَيْتُمَا آيَاتِنَا أَنْتُمَا كَانْتُمَا كَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾ تَنْزِيلُ الْأَمْثَلِ فَكَيْفَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٣١﴾ وَاللَّهُ يُدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾

جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم «ذلة» في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في الوجوه^(٢).

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، وما بعد ما بينهما من الفجوات؟!.

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ربها ناظرة * ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ * تظن أن يفعل بها فاقرة * ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ * ضابحة مستبشرة * ﴿وجوه أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيتانا تعبدون﴾ * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا

(١) في ب: ذكماً.

كالإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، «ويخرج الميت من الحي» عكس هذه المذكورات، «ومن يدبر الأمر» في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك «فسيقولون الله» لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

«فقل» لهم الزموا بالحجة «أفلا تتقون» الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتحملون ما يتعبدون من دونه من الأبدان والأوثان.

«فذلكنم» الذي وصف نفسه بما وصفها به «الله ربكم» أي: المألوه المعبود المحمود، المرئى جميع الخلق بالنعمة وهو: «الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال».

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والحلال والإكرام.

«فأنى تصرفون» عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شراكة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتباً لمن أشرك به، وويحاً لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

ولهذا قال [تعالى] عنهم: «كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون» بعد ما أراهم^(١) الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الأبصار، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

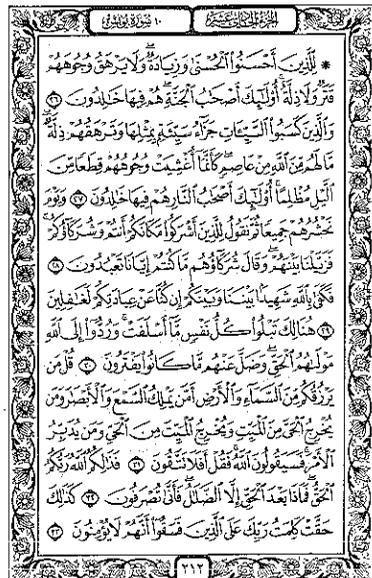
فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون عن عبادهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مقفرون على الله، قد ضلت عبادتهم، وأضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: «هنالك» أي: في ذلك اليوم «تبلى كل نفس ما أسلفت» أي: تنفد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

«٣١ - ٣٣» «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون» فذلكنم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون* كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون* أي: «قل» لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - «من يرزقكم من السماء والأرض» بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

«أم من يملك السمع والأبصار» أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟، وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما.

«ومن يخرج الحي من الميت»



يفترون» يقول تعالى: «ويوم نحشرهم جميعاً» أي: نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

«ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم» أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. «فزيلنا بينهم» أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصدق الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: «ما كنتم إيانا تعبدون» فإنا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. «فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين» ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبادتكم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين».

وقال: «ويوم نحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون» قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون.

(١) في ب: بعد أن أراهم.

العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال.

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أميين.

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

﴿لا رب فيه من رب العالمين﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿أم يقولون﴾ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿أفترأه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلاً.

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة، والذي هلمهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً.

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حتى فهمه، لادعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتيهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿وهو الهالك

الشیطان للإنسان، أبقح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء.

ولهذا قال: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبدوها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾.

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿٣٧ - ٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا رب فيه من رب العالمين﴾ أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وما يأتيهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي تكلم به ﴿رب العالمين﴾، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!!

فإن كان أحد يمانئ الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فنقول أحد على رب

﴿٣٤ - ٣٦﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأتى تؤفكون﴾ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾ يقول تعالى - مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: يتبديه ﴿ثم يعيده﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.

﴿فأتى تؤفكون﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه.

﴿قل الله﴾ وحده ﴿يهدى للحق﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿أمن لا يهدي﴾ أي: لا يهدي ﴿إلا أن يهدي﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهدي إلا أن تهدي ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص المرجبة لبطان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما نريتك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء الكاذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقرُّ به نفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبتهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعانده.

﴿٤٧ - ٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فإذا جاء﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك الكاذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر الكاذبون لك من مشاهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء الكاذبون، كذلك تمتع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيدته نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا يتقص من حسناتهم.

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، واختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا يؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

الذي لم يبق منهم أحداً. فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم الكاذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على التثبيت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمقسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فيسجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وإن كذبتك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون * إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض الكاذبين للرسول ولما جاء به، ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرمو من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي التقرري، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم

وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم فمن الله تعالى، ينزله^(١) عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية. فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولهذا قال:

﴿٥٠٠ - ٥٠٢﴾ **﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيّاتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون﴾** * أثم إذا ما وقع آمنتهم به الآن وقد كنتم به تستعجلون * ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون يقول تعالى: **﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيّاتاً﴾** وقت نومكم بالليل **﴿أو نهاراً﴾** في وقت غفلتكم **﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾** أي: أي: بشارة استعجلوا بها؟ وأي: عقاب ابتدروه؟ **﴿أثم إذا ما وقع آنتهم به﴾** فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيحاً وعتاباً في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون، **﴿الآن﴾** تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ **﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾** فإن سنة الله في عباده أنه يعتيبهم إذا استعبوه قبل وقوع العذاب.

فإذا وقع العذاب لا ينفع نفساً إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق **﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾** وأنه يقال له: **﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾**.

وقال تعالى: **﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾** وقال هنا: **﴿أثم إذا ما وقع آنتهم به، الآن﴾** تدعون الإيمان^(٢)، **﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾** فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: **﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾** أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة. **﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾** من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿٥٣ - ٥٦﴾ **﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾** * ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا والعذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون * ألا إن الله ما في السماوات والأرض إلا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون * هو يحيي ويميت وإليه ترجعون يقول تعالى لنبيه ﷺ: **﴿ويستنبئونك أحق هو﴾** أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعماد، لا على وجه التبين والرشاد^(٣).

﴿أحق هو﴾ أي: أصحح حشر العباد، ويعتهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؟ **﴿قل﴾** لهم مقسماً على صحته، مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: **﴿إي وربي إنه لحق﴾** لا مرة فيه ولا شبهة تعتربه.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ الله أن يبعثكم، فكما ابتداء خلقكم ولم تكونوا شيئاً، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿و﴾ إذا كانت القيامة ف **﴿لو أن لكل نفس ظلمت﴾** بالكفر والمعاصي **﴿جميع ما في الأرض﴾** من ذهب وفضة وغيرها، لتفتدي به من عذاب الله **﴿لافتدت به﴾** ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضرب والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وأسروا﴾ [أي] الذين ظلموا **﴿الندامة لما رأوا العذاب﴾** تدموا على ما قدموا، ولات حين مناص، **﴿وقضي**

قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مِنْ بَدَأُ السَّمْعَ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ اللَّهُ فَهُوَ يُعَذِّبُهُمْ وَيُنَادِيهِمْ اللَّهُ فَمَا أَجْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٥﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٦﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٧﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٥﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٦﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٧﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٩﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٠﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٥﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٦﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٧﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٩﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكِكُمْ مَنْ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٨٠﴾

يبنهم بالقسط﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿ألا إن الله ما في السماوات والأرض﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال: **﴿ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين الثقلية والعقلية.

﴿هو يحيي ويميت﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير^(٤)، لا شريك له في ذلك.

﴿وإليه ترجعون﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ **﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾** قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون يقول تعالى - مرغياً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم﴾** أي: تعظكم، وتذكركم عن الأعمال الموجهة

(٣) في ب: الاسترشاد.

(٤) في ب: التدابير.

(١) في ب: ينزل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: للإيمان.



لسخط الله، المقتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها.

«وشفاء لما في الصدور» وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات، القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبهة القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، «وهدى ورحمة للمؤمنين» فالله يهدي هو العلم بالحق والعمل به.

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل

والآجل، لمن اهتدى به، فالله يهدي الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والبركات، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والبرج والنجاح، والفرح والسرور.

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: «قل بفضل الله» الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده «ورحمته» الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته. «فيذلك» فليفرحوا هو خير مما يجمعون» من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضلته ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للزيادة منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له: «لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين».

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم».

«٥٩ - ٦٠» «قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون» وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون» يقول تعالى - منكرأ على المشركين الذين ابتدعوا

تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم (١) - «قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق» يعني أنواع الحيوانات المحللة، التي جعلها الله رزقاً لهم ورحمة في حقهم. قل لهم - موبخاً على هذا القول الفاسد - «الله أذن لكم أم على الله تفترون» ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فعلم أنهم مفترون.

«وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة» أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة».

«إن الله لذو فضل على الناس» كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

«٦١» «وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض وفي السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: «وما تكون في شأن» أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية. «وما تتلو من قرآن» أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

«ولا تعملون من عمل» صغير أو كبير «إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه» أي: وقت شروءكم فيه واستمراركم على العمل به.

(١) في ب: ما حرمه.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

﴿وما يعزب عن ربك﴾ أي: ما يغيب^(١) عن علمه وسمعته ويصره ومشاهدته ﴿من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيراً ما يقرن الله بينهما، وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابتها المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى: ﴿لم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

﴿٦٢ - ٦٤﴾ ﴿الآن إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴿يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم فقال: ﴿الآن إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلونه بما أمامهم من المخاوف والأهوال.

﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمناً نقيماً كان لله [تعالى] ولياً، و ﴿لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾. أما البشارة في الدنيا، فهي الشاء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين،

والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عنه مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾.

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم. وفي الآخرة تمام البشري بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قوله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشري شاملة لكل خير وثواب، رتبته الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيد.

﴿٦٥﴾ ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدر فيك وفي دينك فإن أقوالهم لا تُعزُّهم، ولا تضرك شيئاً. ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ يؤتيها من يشاء ويمنعها من يشاء.

قال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾. ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولأنبيائك من الله، ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

وَأَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ عَلِيمٌ مَا فِي الْأَرْضِ لَا تَدْرِي بِرَبِّهَا كِتَابَهُمْ تَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَأَنْ يَنْظُرُوا إِلَيْهَا فِي السَّمَوَاتِ الْأُولَىٰ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِعَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِعَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِعَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِعَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٦٨﴾

وقوله: ﴿هو السميع العليم﴾ أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو تعالى يسمع قولك، وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً، فاكف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿الآن إن الله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴿يخبر تعالى أن له ما في السماوات والأرض، خلقاً وملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بما شاء^(٢) من أحكامه، فالجميع ممالك لله، مسخرون مدبرون، لا يستحقون شيئاً من العبادة، وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ في ذلك خرص كذب

(١) في النسخين: ما يغاب.

(٢) في ب: بما يشاء.

الشديد بما كانوا يكفرون. ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرينى إلا على الله وأسرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾

يقول تعالى لبيته: ﴿واتل على قومك نبأ نوح﴾ في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزدحم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وستموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله﴾ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم^(١) ﴿بآيات الله﴾ الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شريراء بي، وبما أَدعوا إليه، فهذا جندي وعُدتي. وأنتم فاتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العُدَّة والعُدُد.

﴿فأجمعوا أمركم﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا^(٢) من يهودكم شيئاً.

﴿و﴾ أحضروا ﴿شركاءكم﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة﴾ أي: مشتبهاً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية.

﴿ثم اقضوا إلي﴾ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿ولا تنظرون﴾ أي: لا تمهلون ساعة

لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم الدنيا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقايس إليه علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعبدة براهين:

أحدها: قوله: ﴿هو الغني﴾ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى الشام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلا شيء يتخذ الولد؟

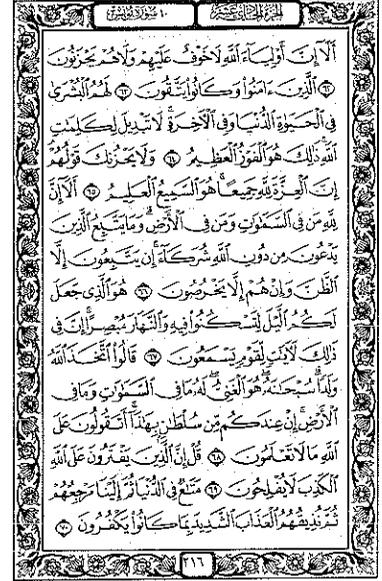
الحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لتقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مخلوكاً. فملكيته لما في السموات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تجدهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب



ورافك ويهتان.

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء الله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قيماً للناس؟

و ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغطي وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرأوا ولما سكنوا.

﴿و﴾ جعل الله ﴿النهار مبصراً﴾ أي: مضيئاً، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ * قل إن الذين يفترون على الله الكذب

(١) في النسختين: ما ينفعهم.

(٢) في النسختين: ولا تدخرون.

من نهار . فهذا برهان قاطع ، وآية عظيمة على صحة رسالته ، وصدق ما جاء به ، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ، ولا جنود تؤويه . وقد بادا^(١) قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وغيب آلهتهم . وقد حلوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي ، وهم أهل القدرة والسطوة ، وهو يقول لهم : اجتمعوا أتم وشركاؤكم ومن استطعتم ، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد ، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك ، فلم يقدروا على شيء من ذلك .

فعلم أنه الصادق حقاً ، وهم الكاذبون فيما يدعون ، ولهذا قال : ﴿فإن توليتم﴾ عن ما دعوتكم إليه ، فلا موجب لتوليكم ، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق ، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته ، إلى باطل قامت الأدلة على فساده .

ومع هذا ﴿فما سألتكم من أجر﴾ على دعوتي وعلى إجابتيكم ، فتقولوا : هذا جاءنا ليأخذ أموالنا ، فتمتنعون لأجل ذلك .

﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي : لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ، ﴿و﴾ أيضاً فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده ، بل ﴿أمرت أن أكون من المسلمين﴾ فأنا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به .

﴿فكذبوه﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً ، فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً ، ﴿فنجيناه ومن معه في الفلك﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا ، وقلنا له إذا فار التنور : ف ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن﴾ ففعل ذلك .

فأمر الله السماء بماء منهجر وفجر الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قدر : ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ تجري بأعيننا ، ﴿وجعلناهم

مخلائف﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين .

ثم بارك الله في ذريته ، وجعل ذريته هم الباقين ، ونشرهم في أقطار الأرض ، ﴿وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد ذلك البيان ، وإقامة البرهان ، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ وهو : الهلاك المخزي ، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم ، لا تسمع فيهم إلا لوما ، ولا ترى إلا قحداً وذماً .

فليحذر هؤلاء المكذوبون ، أن يحمل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزي والنكال .

﴿٧٤﴾ ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي : ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ المكذبين ، يدعونهم إلى الهدى ، ويمجدونهم من أسباب الردى .

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي : كل نبي أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به .

﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ يعني : أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول ، فبادروا بتكذيبه ، طبع الله على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه ، كما قال تعالى : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ .

ولهذا قال هنا : ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي : نختم عليها ، فلا يدخلها خير ، وما ظلمهم [الله] ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم ، وتكذيبهم الأول .

﴿٧٥﴾ ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة^(٢) . أي : ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين

المهلكين .

﴿موسى﴾ بن عمران كليم الرحمن ، أحد أولى العزم من المرسلين ، وأحد الكبار المقدي بهم ، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة .

﴿و﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هارون﴾ وزيراً بعثناهما ﴿إلى فرعون وملائته﴾ أي : كبار دولته ورؤسائهم ، لأن عامتهم تبع للرؤساء .

﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله ، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ، ﴿فاستكبروا﴾ عنها ظلماً وعلواً ، بعدما استيقنوها .

﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي : وصفهم الإجمام والتكذيب .

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعيم .

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه ، و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذي حقيقته التمجويه ، بل جعلوه سحراً مبيهاً ظاهراً ، وهو الحق

﴿٧٧﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعيم .

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه ، و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذي حقيقته التمجويه ، بل جعلوه سحراً مبيهاً ظاهراً ، وهو الحق

﴿٧٨﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعيم .

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه ، و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذي حقيقته التمجويه ، بل جعلوه سحراً مبيهاً ظاهراً ، وهو الحق

﴿٧٩﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعيم .

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه ، و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذي حقيقته التمجويه ، بل جعلوه سحراً مبيهاً ظاهراً ، وهو الحق

(١) في السخيتين : بادية .

(٢) في بأكمل الآيات إلى قوله تعالى : ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .





وهذا لا يجتج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور، فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين .

وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال هذه الأمور، فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاءه به خصمه، لأنه لو كان له حجة لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: فصدك كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه، عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم .

ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي: تكبراً وعناداً، لا لبطان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون .

﴿٧٩﴾ ﴿وقال فرعون﴾ معارضاً للحق الذي جاء به موسى ومغالطاً^(٢) لمثله وقومه: ﴿أئتوني بكل ساحر عليم﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له . فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

﴿فلما جاء السحرة﴾ للمغالبة مع موسى^(٣) ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي: أي: شيء أردتم لا أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبال بهم وبما جاؤوا به .

﴿فلما ألقوا﴾ جبالهم وعصبيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، فـ ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إن الله سيبطله﴾، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴿فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي: فساد أعظم من هذا!!﴾

وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى بمكر، فإن عمله سيئطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن ماله الاضمحلال والمحق .

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها، وينمها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فلتقف جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم .

﴿٨٢﴾ ﴿ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ فألقى السحرة سُجداً حين تبين لهم الحق . فتوعدهم فرعون بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم .

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون .

ولهذا قال: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان .

﴿على خوف من فرعون وملأه﴾ أن يفتنهم ﴿عن دينهم﴾ وإن فرعون لعال في الأرض ﴿أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه .

﴿و﴾ خصوصاً ﴿إنه﴾ كان ﴿لمن السرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد في البغي والعدوان .

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب أقبل للحق، وأسرع له انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم .

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾ موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ فقوموا بوظيفة

المين . ولهذا ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ - موبخاً لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس -: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ أي: أتقولون إنه سحر مبین .

﴿أسحر هذا﴾ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه، فيمجرد ذلك يجزم بأنه الحق. ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولن له الفلاح وعلى يديه النجاح . وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح وفاز بظفر الدنيا والآخرة .

﴿٧٨﴾ ﴿قالوا﴾ لموسى راديين لقوله بما لا يرده: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي: أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول آياتهم الضالين حجة، يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام .

وقولهم^(١): ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من أرضنا . وهذا تمويه منهم، وترويج على جهالهم، وتهييج لعواهم على معادة موسى وعدم الإيمان به .

(١) في ب: وقوله .

(٢) في ب: ومغالطاً .

(٣) في ب: للمغالبة لموسى .

الإيمان.

﴿فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾

أي: اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستصروه.

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾

﴿عمثلين لذلك﴾ على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنوننا، أو يغلبونا فيفتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

﴿٨٦﴾ ﴿ونحنا برحمتك من القوم

الكافرين﴾ لنسلم من شرهم، ولنقيم [على] ديننا على وجه تمكن به من إقامة شرائعه، وإظهاره من غير معارض ولا منازع.

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى

وأخيه﴾ حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنهم عن دينهم.

﴿أن تبوأ القومكما بمصر بيوتاً﴾

أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً يتمكنون [به] من الاستخفاف فيها.

﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي:

اجعلوها محلاً تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامة.

﴿وأقيموا الصلاة﴾ فإنها معونة على

جميع الأمور، ﴿وبشروا المؤمنين﴾ بالنصر والتأييد وإظهار دينهم، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، وحين اشتد الكرب وضاق الأمر، فرَّجه الله ووسعه، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه^(١)، دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال:

﴿٨٨﴾ ﴿ربنا إنك أتيت فرعون

وملأه زينة﴾ يتزينون بها من أنواع الخلي والثياب، والبيوت المزخرقة، والمراكب الفاخرة، والحدام، ﴿وأموالاً عظيمة﴾ في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون.

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي:

أتلغها عليهم: إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة غير متافع بها.

﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي: قسها ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب

الآليم﴾.

قال ذلك غضباً عليهم، حيث تجرؤوا على معارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد

أجيبت دعوتكما﴾ هذا دليل على أن موسى [كان] يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء.

﴿فاستقيما﴾ على دينكما، واستمرا

على دعوتكما، ﴿ولا تتبعان سبيل

الذين لا يعلمون﴾ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن

الضراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم، فأمر الله موسى أن يسري

ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم يتبعون، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون: ﴿إن هؤلاء﴾ أي: موسى وقومه: ﴿لشرذمة قليلون﴾ وإنا لجميع حادرون﴾.

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده، بغياً وعدواً، أي: خروجهم باغين على موسى وقومه، ومعتدين في الأرض، وإذا اشتد البغي واستحكمت الذنب فانظر العقوبة.

﴿٩٠﴾ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل

البحر﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه^(٢) داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو



إسرائيل ينظرون.

حتى إذا أدرك فرعون الغرق، وحزم بهلاكه ﴿قال﴾ أنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

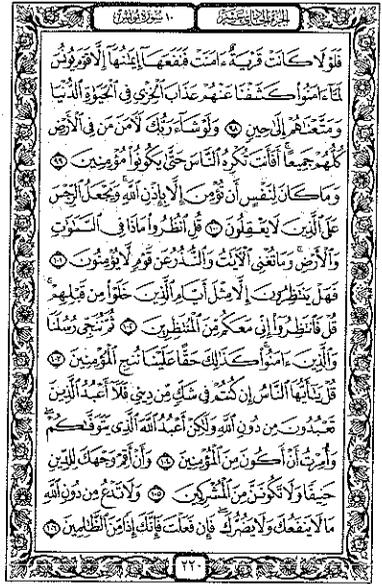
﴿٩١﴾ قال الله تعالى - مبيناً أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له -: ﴿الآن﴾ تؤمن، وتقر برسول الله ﴿وقد عصيت قبل﴾ أي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب ﴿وكنت من المفسدين﴾ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهداً كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

﴿٩٢﴾ ﴿فالיום نجيك بيدنا﴾ لتكون لمن خلفك آية﴾ قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلتقيه على نجوة مرتفعة بيده، ليكون لهم عبرة وآية.

﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا

(١) في النسختين: وملئهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في أ: وجنودهم خلفهم، وفي ب عدلت إلى: وجنوده خلفه.



لنأفلون ﴿٩٤﴾ فلذلك تم عليهم وتكرر فلا يتفعون بها لعدم إقبالهم عليها .

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل .

﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾

﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾

﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾

وهو : أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطبعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما

هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين للعين .

وإلا فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصالحهم العامة متفقة، فلا ي: شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم اللدنية والدينية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟

فنسألك اللهم لطفاً لعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام .

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾

﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا من عدة أوجه : منها : أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول

الصادقين منهم وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، ك «عبد الله بن سلام» لأصحابه وكثير من أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعده^(١) و «كعب الأحرار» وغيرهما .

ومنها : أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه .

فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم^(٢) على إنكار ذلك لم يقدح بما جاء به الرسول .

ومنها : أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلمه على رؤوس الأشهاد .

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه ويبنوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستحجب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه .

ومنها : أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب^(٣) .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقته أمرهم

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية وهي قوله (وكعب الأحرار وغيرهما).

(٢) في النسختين: وأخزهم ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في ب: أهل الكتاب .

تدركها أفهامنا .
قال الله تعالى : ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى قوله : ﴿فأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾ فآمنوا فمتعتناهم إلى حين﴾ ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، لبل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه^(١)، والله أعلم .

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويعمل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين .

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي : لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله^(٢) [على^(٣)] شيء من ذلك .

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي : بإرادته ومشئته وإذنه القدرى الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهده .

﴿ويجعل الرجس﴾ أي : الشر والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ عن الله أو امره ونواهيته، ولا يلحقون بالآل لنصاحته ومواعظه .

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ ثم نتجى رسلنا والذين

وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به . فحيثما يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق . ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿٩٨﴾ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ يقول تعالى : ﴿فلولا كانت قرية﴾ من قرى المكذبين ﴿آمنت﴾ حين رأت العذاب ﴿فنفعها إيمانها﴾ أي : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً، لما قال : ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقبل له ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين .

وكما قال تعالى : ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده .

وقال تعالى : ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا﴾ .

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران .

وقوله : ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ بعدما رأوا العذاب، ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ فهم مستنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم

أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً للكمهم، وترويحاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئية الظاهرة .

وقوله : ﴿لقد جاءك الحق﴾ أي : الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال : ﴿من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ كقوله تعالى : ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ .

﴿٩٥﴾ ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين : الشك في هذا القرآن والامتراء فيه .

وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البيئات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عذم الريح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمانينة القلب إليه، والإقبال عليه علماً وعملاً .

فيذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ يقول تعالى : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ أي : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم .

وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم

(١) زيادة من هامش ب .

(٢) في النسختين : غير الله، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة .

(٣) زيادة يقتضيه السياق .

للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذ مس بضر، كفقير ومرضى، ونحوها ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرد الله، ولهذا قال: ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جنوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده: -

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق

محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ أي: في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتهكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد ويصل له ويخضع ويسجد.

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أتم وجهك للمدين حنيفاً﴾ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

﴿فإن فعلت﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!!

﴿١٠٧﴾ ﴿وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصاب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق

أتموا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الحلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها، إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قل فانتظروا إنى معكم المنتظرون﴾ فتعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدها.

﴿كذلك حقاً علينا أوجبتنا على أنفسنا﴾ ننجي المؤمنين﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

﴿١٠٤ - ١٠٦﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أتم وجهك للمدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه

من ربكم ﴿ أي : الخبير الصادق المؤيد بالبراهين ، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم ، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء ، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية ، ما فيه أعظم تربية لكم ، وإحسان منه إليكم ، فقد تبين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة .

﴿ فمن اهتدى ﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه ، وأثره على غيره ، فلنفسه والله تعالى غني عن عبادته ، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم .

﴿ ومن ضل ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق ، أو عن العمل به ، ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ ولا يضر الله شيئاً ، فلا يضر إلا نفسه .

﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وإنما أنا لكم نذير مبين ، والله عليكم وكيل . فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال .

﴿ واتبع ﴾ أيها الرسول ﴿ ما يوحى إليك ﴾ علماً وعملاً وحالاً ، ودعوة إليه ، ﴿ واصبر ﴾ على ذلك ، فإن هذا أعل أنواع الصبر ، وإن عاقبته حميدة ، فلا تكسل ولا تضجر ، بل دم على ذلك وثابت ، ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمده عليه .

وقد امتثل ﷺ أمر ربه ، وثبت على الصراط المستقيم ، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان ، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان ، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان ، فله الحمد ، والثناء الحسن ، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه .

ثم تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام [وهي] مكية

﴿ ١ - ٤ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴿ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾ يقول تعالى : هذا ﴿ كتاب ﴾ عظيم ، ونزل كريم ، ﴿ أحكمت آياته ﴾ أي : أتقنت وأحسننت ، صادقة أخبارها ، عادلة وأمرها ونواهيها ، فصيحة ألقاظه بية معانيه .

﴿ ثم فصلت ﴾ أي : ميزت وبينت بياناً في أعل أنواع البيان ، ﴿ من لدن حكيم ﴾ يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ، ﴿ خبير ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن .

﴿ ٢ ﴾ ﴿ فإذا كان إحكامه وتفضيله من عند الله الحكيم الخبير ، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة . وإنما أنزل الله كتابه ل ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي : لأجل إخلاص الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه .

﴿ إنني لكم ﴾ أيها الناس ﴿ منه ﴾ أي : من الله ربكم ﴿ نذير ﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة ، ﴿ وبشير ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة .

﴿ ٣ ﴾ ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ ثم توبوا ﴾ إليه ﴿ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه ، بالإتابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه .

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال : ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ أي : يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به



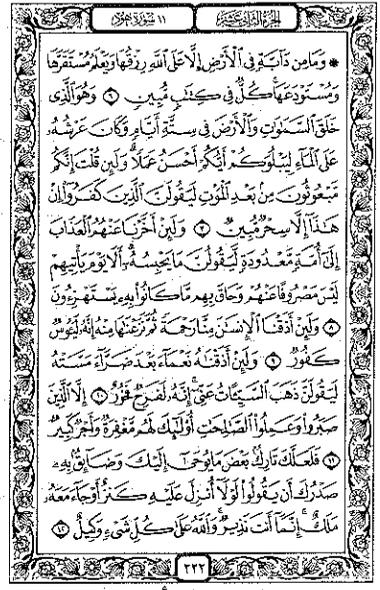
﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي : إلى وقت وفاتكم ﴿ ويؤت ﴾ منكم ﴿ فضل فضلته ﴾ أي : يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ، ما هو جزاء لإحسانهم ، من حصول ما يحبون ، ودفع ما يكرهون .

﴿ وإن تولوا ﴾ عن ما دعوتكم إليه ، بل أعرضتم عنه ، وربما كذبتم به ﴿ فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، فيجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وفي قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى ، فإنه قدير على كل شيء ^(١) ، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى ، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين ، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً .

﴿ ٥ ﴾ ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغيثون يغاثهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين ، وشدة ضلالهم ، أنهم يثنون صدورهم ﴿ أي : يميلونها ليستخفوا ﴾ من الله ، فتقع صدورهم

(١) في ب : فإنه على كل شيء قدير .



حاجة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيناً خطأهم في هذا الظن - ﴿الآحين يستغشون ثيابهم﴾ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال، التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وما يعلنون﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إنه عليهم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرا ولا جهراً، فكيف تخفى عليه خالكم، إذا نيتهم صدوركم تستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - يثنون صدورهم، أي: يحدوذبون حين يرون الرسول ﷺ لتلا يراهم ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء!!؟

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجمع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنعهم.

﴿٦﴾ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ أي:

جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها^(١) على الله.

﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتآري إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها وبجبتها، وعوارض أحوالها.

﴿كل﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿في كتاب مبين﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

﴿٧-٨﴾ ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيتكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿و﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿كان عرشه على الماء﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿ليبلوكم أيتكم أحسن عملاً﴾ أي: ليمتحننكم، إذ خلق لكم ما فتي السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيتكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

﴿أخلصه وأصوبه﴾. قيل يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟

فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزء، فقال: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾. أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب^(٢)، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ أي: إلى وقت مقدر فتباطؤوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿وما يحسه﴾ ومضمون هذا تكذبيهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!!

﴿ألا يوم يأتيهم﴾ العذاب ﴿ليس مصروفاً عنهم﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وحق بهم﴾ أي: نزل ﴿وما كانوا

(٢) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب.

(١) في ب: فرزقهم.

دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] ﴿لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة، ﴿فهل أتم مسلمون﴾ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدره اعتراض المعارضين، ولا قرح القادحين.

خصوصاً إذا كان القرح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيئ صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها. بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها

يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل * أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أتم مسلمون﴾ يقول تعالى - مسلياً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب الكاذبين -: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: لا ينبغي هذا لثلك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيئ صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفیه ولا يضيئ لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيئ صدرك لذلك؟!!

أم عليك حسابهم، ومطالب هدايتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أنه قد افتراه^(٢)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال

به يستهزؤون﴾ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يختر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ أي: فرح^(١) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يجعله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدرائهم، وأي: عيب أشد من هذا؟!!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم ينظروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿وأجر كبير﴾ وهو: الفوز بجنت النعيم، التي فيها ما تشتهي النفس، وتلد الأعين.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن

(١) في ب: يفرح.

(٢) في ب: أي: أنه قد افتراه.

(٣) في ب: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه، بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلماً ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ ليجازيم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد يقول **الشهاد** ﴿أي: الذين شهدوا عليهم كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ أي: لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف. ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار. **ويبغونها** ﴿أي: سبيل الله عوجاً﴾ أي: يجهنون في ميلها، وتشينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾. **أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾** أي: ليسوا فائزين الله، لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه. **﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾** فيدعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب. **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** أي: يغلظ ويزاد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم. **﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾** أي: من بغضهم للحق ونفروهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً ينتفعون به ﴿فما لهم من التذكرة معرضين﴾ كأنهم حرم مستنفرة ﴿فرت من قسورة﴾ ﴿وما كانوا يبصرون﴾ أي: ينظرون نظر

أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه. **﴿و﴾** ثم شاهد ثالث وهو ﴿كتاب موسى﴾ التوراة التي جعلها الله ﴿إماماً﴾ للناس ﴿ورحمة﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافق فيما جاء به من الحق.

أي: أضمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟! لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله، ﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم، ﴿يؤمنون﴾ بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿ومن يكفر به﴾ أي: القرآن ﴿من الأحزاب﴾ أي: سائر طوائف أهل الأرض، المتحزبة على رد الحق، ﴿فالنار موعده﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فلا تك في مرة منه﴾ أي: في أدنى شك ﴿إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلماً وعناداً وبعياً، وإلا فمن كان قصده حسناً وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن به، لأنه يرى ما يدعو به إلى الإيمان من كل وجه.

﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أظلم من افترى على الله كذباً﴾

من النساء والبنين والقناطر المقنطرة، من الذهب والفضة، والخييل المسومة، والأنعام والحرت. قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً، فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته للدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي، الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي: لا ينقصون شيئاً عما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعمهم.

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ خالدون فيها أبداً، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

﴿١٧﴾ ﴿أضمن كان على بيته من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرة منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه، وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿أضمن كان على بيته من ربه﴾ بالوحي الذي أنزل^(١) الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة.

﴿ويتلوه﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شاهد منه﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما

(١) كذا في ب، وفي أ: أنزله.

أَرَبُ ثَمُورٍ كَثِيرَةً عَلَى أَوَّلِ عَشْرِ سَوْرٍ وَثَمُورٍ مُنْفَعَةٍ وَأَعْرَابُ
 مِنْ أُمَّتِنَا مَنْ دُونَ ذَلِكَ كُنْتُمْ مَكْرُوفِينَ ﴿٢٦٠﴾
 فَكُلُوا مِنْ ثَمُورِهِمْ يَوْمَ قَادِمَاتِ الْعَذَابِ إِنَّ أَوَّلَ بَلَاءِ اللَّهِ وَأَنَّ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَدِ انْتَهَى سُبُوتُكُمْ مِنْ كُنْزِ نُبُوَّةِ
 نُبُوَّةِ الْوَالِدِيَّةِ وَرَبِّهَا نَوِيَّبُ الْوَالِدِيَّةِ وَرَبِّهَا وَرَبِّهَا
 لَا يَحْسَبُونَ ﴿٢٦١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الْآخِرَةِ
 إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَبَّحُوا فِيهَا مِنْ نَارٍ كَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ
 ﴿٢٦٢﴾ إِنَّ كُنْزَ عَالَمٍ يَنْتَهَى مِنْ رَبِّهِ وَنَبُوَّةُ شَاهِدَةٍ
 وَمِنْ قِيَامِهِ كُنْزٌ مِنْ أَمَامِ رَبِّهِ أُولَئِكَ ثَمُورٌ مِنْ
 كُنْزِ يَوْمِ الْآخِرَةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا نَجْوَءَ لَهُمْ فِي رَبِّهِمْ
 إِلَهٌ إِلَّا مَنْ فِي دِينِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦٣﴾
 وَمَنْ أَظَاهَرَ مِنْ أَنْ يَعْلَى اللَّهُ كُنْزًا أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ
 عَلَى رَبِّهِمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ الْكُذُوبِ فَكُلُّهَا عَلَى رَبِّهِ
 الْآيَاتِ الْكُذُوبِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْآيَاتِ الْكُذُوبِ فَكُلُّهَا
 سَبِيلُ اللَّهِ وَبَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُ وَالْآخِرَةُ هُمْ كُفْرُهُمْ ﴿٢٦٤﴾

إليه بدهاء العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولى الآليات يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل.

﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي: لستم أفضل منا فنقاد لكم، وبإل نظرناكم كاذبين وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا ﴿قال﴾ لهم نوح مجابياً ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: على يقين وجزم، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي يتقاد له أولو الآليات، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقاً، فإذا قال: إني على بينة من ربي، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً.

﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ أي: أوجى إلي وأرسلني، ومن علي بالهداية، ﴿فعميت عليكم﴾ أي: خفيت عليكم، وبها تناقلتكم. ﴿أنزلكموها﴾ أي: أنكرهم على ما تحققنا، وشككتهم فيه؟ ﴿وأنتم لها كارهون﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقينا فيه، ولا قولكم

مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتركونها. ﴿٢٥٥ - ٤٩﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾ إلى آخر القصة (١) أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحاً أول المرسلين ﴿إلى قومه﴾ يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانا زال به الإشكال.

﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني. ﴿٢٧﴾ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي: الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾ وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر، بخلاف الملائكة.

﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم. وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كأراذل الذين يقال لهم الملأ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟

وقولهم: ﴿بادي الرأي﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكير وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو

عيرة وتفكر، فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿لا جرم﴾ أي: حقاً وصدقاً ﴿أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، نستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء، ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

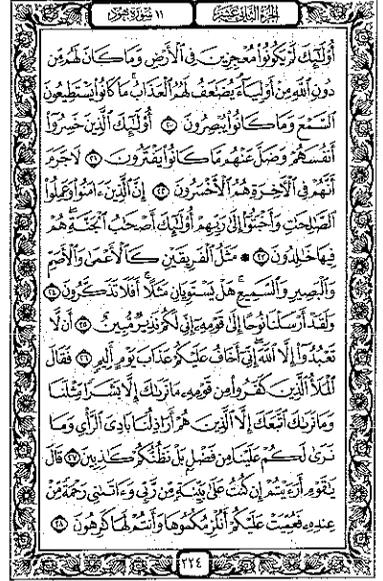
﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون؟ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا بقلوبهم﴾ أي: صدقوا واعتبروا، لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿وعملوا الصالحات﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان. ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وآنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه.

﴿أولئك﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً، إلا أدركوه، ولا خيراً، إلا سبقوا إليه.

﴿مثل الفريقين﴾ أي: فريق الأتقياء وفريق السعداء، ﴿كالأعمى والأصم﴾ هؤلاء الأشقياء، ﴿والبصير والسميع﴾ مثل السعداء. ﴿هل يستويان مثلاً﴾ لا يستويون

(١) في ب: أكل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فأصبر إن العاقبة للمتقين﴾



وافتراؤكم علينا صادراً لنا عما كنا عليه .
 وإنما غايته أن يكون صادراً لكم
 أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق،
 الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت
 الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على
 إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم
 ما نفرتم عنه، ولهذا قال :
﴿أنزلناكموها وأنتم لها كارهون﴾
﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ أي : على
 دعوتي إياكم **﴿مالاً﴾** فتستثقلون
 المغموم .

﴿إن أجري إلا على الله﴾ وكانهم
 طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال
 لهم : **﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾**
 أي : ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل
 أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز
 والإعظام **﴿إنهم ملائقوا ربهم﴾** فمشيهم
 على إيمانهم وتقواهم بجنات التميم .

﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾
 حيث تأمروني بطرد أولياء الله
 وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق
 لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على
 بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه
 ليس لنا عليكم من فضل .

**﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن
 طردتهم﴾** أي : من يمتنع من عذابه،
 فإن طردهم موجب للعذاب والنكال
 الذي لا يمنعه من دون الله مانع .

﴿أفلا تذكرون﴾ ما هو الأنفع لكم

والأصلح، وتدبرون الأمور .

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله

ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾

أي : غايستي أي رسول الله إليكم،

أبشركم وأندركم، وأما ما عدا ذلك

فليس بيدي من الأمر شيء، فليست

خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي

من أشياء وأحرم من أشياء، **﴿ولا أعلم**

الغيب﴾ فأخبركم بسر أئركم وبواطنكم

﴿ولا أقول إني ملك﴾ والمعنى : أني

لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة

سوى المنزلة التي أنزلني الله بها،

ولا أحكم على الناس بظني .

﴿ولا أقول للملذين تزدري أعينكم﴾

أي : ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم

الملأ الذين كفروا **﴿لن يؤتهم الله**

خيراً الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فإن

كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير

الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم

على الله .

﴿إني إذا﴾ أي : إن قلت لكم شيئاً

مما تقدم **﴿لن الظالمين﴾** وهذا تأييس

منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن

ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتقهم، وتقنيع

لقومه بالطرق المقتنة للمنصف .

فلما رآه لا ينكف عما كان عليه

من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم

﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت

جدالنا فاتنا بما تعدنا﴾ من العذاب

﴿إن كنت من الصادقين﴾ فما أجهلهم

وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم

الناصح .

فهلا قالوا إن كانوا صادقين : يا نوح

قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا

إلى أمر لم يتبين لنا فتريد منك أن تبيته لنا

لنتنقاد لك، وإلا فأنت مشكور في

نصحك . لكان هذا الجواب المنصف،

الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه،

ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم

متجرؤون . ولم يردوا ما قاله بأدنى

شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة .

ولهذا عدلوا - من جهلهم

وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب،

وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه

السلام بقوله : **﴿إنما يأتيكم به الله إن**

شاء﴾ أي : إن اقتضت مشيئته وحكمته

أن ينزله بكم، فعل ذلك . **﴿وما أنتم**

بمعهجزين﴾ لله، وأنا ليس بيدي من

الأمر شيء .

﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن

أنصح لكم إن كان الله يريد أن

يعوياًكم﴾ أي : إن إرادة الله غالبية،

فإنه إذا أراد أن يعوياًكم لردكم الحق،

فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت

لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه

السلام - فليس ذلك ينافع لكم شيئاً،

﴿هو ريكهم﴾ يفعل بكم ما يشاء،

ويحكم فيكم بما يريد **﴿وليه**

ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

﴿أم يقولون افتراه﴾ هذا الضمير

محمّد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة

محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق

في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه

يقولون : افتري على الله كذباً، وكذب

بالوحي الذي يزعم أنه من الله،

وأن الله أمره أن يقول : **﴿قل إن افتريته**

فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾

أي : كل عليه وزره **﴿ولا تزر وازرة**

وزر أخرى﴾ .

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي

محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة

في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من

الأمر التي لا يعلمها إلا الأنبياء،

فلما شرع الله في قصصها على رسوله،

وكانت من جملة الآيات الدالة على

صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له

مع البيان الثام، فقال : **﴿أم يقولون**

افتراه﴾ أي : هذا القرآن اختلقه محمد

من تلقاء نفسه، أي : فهذا من أعجب

الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم

يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم

لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا

الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة

من مثله .

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه،

علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في

حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال

الإعراض عنهم، ولهذا قال : **﴿قل إن**

افتريته فعلي إجرامي﴾ أي : ذنبي

وكذبي، ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي: فلم تستلجوا في تكذبي.

وقوله: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ أي: قد قسوا، ﴿فلا تبئس بما كانوا يفعلون﴾ أي: فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم، فإن الله قد مقتمهم، وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ أي: بحفظنا، ومرأى منا، وعلى مرضاتنا، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تتراجعني في إهلاكهم، ﴿إنهم مغروقون﴾ أي: قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر.

فامتثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك ﴿وكلما مر عليه ملاً من قومه ورأوا ما يصنع﴾ سخروا منه قال إن تسخروا منا الآن ﴿فإننا نسخر منكم كما تسخرون﴾ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحمل عليه عذاب مقيم ﴿نحن أم أنتم. وقد علموا ذلك حين حل بهم العقاب.

﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أي: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وفار التنور﴾ أي: أنزل الله السماء بالماء المنهمز، وفجر الأرض كلها عيوناً حتى التناير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر.

﴿قلنا﴾ لنوح: ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات، ذكر وأنثى، لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين، فلأن السفينة لا تطيق حملها ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ ممن كان كافراً، كابه الذي غرق.

﴿ومن آمن﴾ ﴿والحال أنه﴾ ما آمن معه إلا قليل. ﴿وقال﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿اركبوا فيها باسم الله مجريها

ومرساها﴾ أي: تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره.

﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.

ثم وصف جرياتها كأنها نشاهدنا فقال: ﴿وهي تجري بهم﴾ أي: بنوح ومن ركب معه ﴿في موج كالجبال﴾ والله حافظها وحافظ أهلها ﴿ونادى نوح ابنه﴾ لما ركب، ليركب معه ﴿وكان﴾ ابنه ﴿في معزل﴾ عنهم حين ركبوا، أي: مبتعداً وأراد منه، أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ فيصيبك ما يصيبهم.

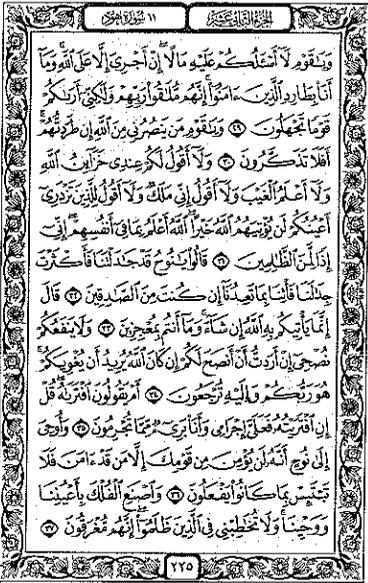
ف ﴿قال﴾ ابنه مكذباً لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة.

﴿سأزي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ أي: سأرتقي جبلاً، أمتنع به من الماء، ف ﴿قال﴾ نوح: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ فلا يعصم أحداً، جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب لما نجا إن لم ينجه الله. ﴿وحال بينهما الموج فكان﴾ الابن ﴿من المفرقين﴾.

فلما أغرقهم الله ونجى نوحاً ومن معه ﴿وقيل﴾ يا أرض ابلعي ماءك الذي خرج منك، والذي نزل إليك، أي: ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿ويا سماء اقلعي﴾ فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، فنضب الماء من الأرض، ﴿وقضى الأمر﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

﴿واستوت﴾ السفينة ﴿على الجودي﴾ أي: أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل.

﴿وقيل﴾ بعداً للقوم الظالمين ﴿أي: أتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعداً وسحقاً﴾ لا يزال معهم. ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني



من أهلي وإن وعدك الحق﴾ أي: وقد قلت لي: ف ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾ ولن تخلف ما وعدتني به.

لعله عليه الصلاة والسلام حملته الشفقة، وأن الله وعده بنجاة أهله، ظن أن الوعد لعمومهم، من آمن ومن لم يؤمن، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا ففوض الأمر لحكمة الله البالغة.

ف ﴿قال﴾ الله له: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ الذين وعدتك بإنجانهم ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أي: هذا الدعاء الذي دعوت^(١) به، لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله.

﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي: ما لا تعلم عاقبته وماله، وهل يكون خيراً أو غير خير.

﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ أي: أني أعظك وعظاً تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.

فحينئذ ندّم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه و ﴿قال﴾ رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.

(١) في النسختين: دعيت، وقد عدلت في ب إلى: دعوت.



فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القيم، والصراف المستقيم والدعوة إلى الله «إن العاقبة للمتقين» الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

﴿٥٠ - ٦٠﴾ «وإلى عاد أخاهم هوداً» إلى آخر القصة^(١). أي: «و» أرسلنا «إلى عاد» وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن، «أخاهم» في النسب «هوداً» ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

ف «قال» لهم «يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون» أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم للغيره، وتجويزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: «يا قوم لا أسألكم عليه أجراً» أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أَدْعُوكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِحَقِّهَا.

«إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون» ما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مُوجِبٌ لِقَبُولِهِ، مُنْتَفٍ الْمُنَافِعِ عَنْ رَدِّهِ.

«ويا قوم استغفروا ربكم» عما مضى منكم «ثم توبوا إليه» فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى.

فإنكم إذا فعلتم ذلك «يرسل السماء عليكم مدراراً» بكثرة الأمطار التي تهب بها الأرض، ويكثر خيرها.

«ويزدكم قوة إلى قوتكم» فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: «من أشد منا قوة؟» فوعدهم أنهم

فيالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل في قوله «ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغروقون» بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: «وأهلك».

وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك» من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها.

«وأمم ستمتعهم» في الدنيا «ثم يحسبهم منا عذاب أليم» أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن نكفر بعد ذلك أحللتنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسؤخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسالته.

«تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» فيقولوا: إنه كان يعلمها.

إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم. «ولا تتولوا» عنه، أي: عن ربكم «مجرمين» أي: مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

ف «قالوا» رادين لقوله: «يا هود ما جئتنا ببينة» إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بأية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته بإيهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الألباب، يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط. ومن آياته وبياناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم، ويعجزهم، ويقول لهم: «إني توكلت على الله ربي وربكم».

«إني أشهد الله وأشهدوا أبي بريء» مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون» وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي: طريق كان وهو غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

وقولهم: «وما نحن بتاركي آلِهتنا

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: «ألا بعداً لعاد قوم هود».

عن قولك ﴿أي: لا ترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بيعة بزعمهم﴾، ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿إن نقول﴾ فيك ﴿إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: أصابك بخبال وجنون فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاهم عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى فقال: ﴿إني أشهد الله وأشهدوا أي بريء مما تشركون من دونه فكيديني جميعاً﴾ أي: اظنوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي: لا تهملوني.

﴿إني سوكلت على الله﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله ﴿وربكم﴾ أي: هو خالق الجميع، ومديرنا وإياكم، وهو الذي ربانا ﴿ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة أرادها.

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويثنى عليه بها.

﴿فإن تولوا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فقد أبلهتكم ما أرسلت به إليكم﴾ فلم يبق علي تبعه من شأنكم. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾

يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطيعين (١) ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾].

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي ﴿ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم﴾.

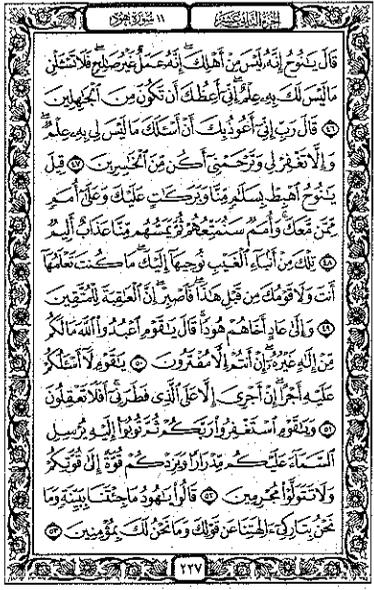
﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعباد، فأصبحوا لا يرى إلا مسكنهم.

﴿وتلك عاد﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع يظلم منهم لأنهم ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿ما جئنا ببيبة﴾ فنتين هذا أنهم متيقنون لدعوتهم، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وعصوا رسله﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿واتبعوا أمر كل جبار﴾ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيد﴾ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلهم الله.

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿ويوم القيامة﴾ لهم أيضاً لعنة ﴿إلا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿٦١ - ٦٨﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم (٢)، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وهم: عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون



الحجر، ووادي القرى، ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿صالحاً﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ف ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿ما لكم من إله غيره﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: خلقكم فيها ﴿واستعمركم فيها﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبنون وتغرسون وتزرعون، وتحراثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فاستغفروه﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونحن

(١) في ب: الطاعين.

(٢) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لثمود﴾.



قلوبهم، ﴿فأصبحوا في ديارهم جائمين﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا بها^(١)، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمد الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿ألا إن ثمود كفروا بربهم﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة، ﴿ألا بعداً لثمود﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿٦٩ - ٨٣﴾ ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبرسرى﴾ إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ من الملائكة الكرام، رسلنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبرسرى﴾ أي: بالبخشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجمللة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجمللة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿فما لبث﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلاً مشوياً على الرضف سميماً، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف فدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يعني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم تترى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿واننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب. وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله:

﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿وأتاني منه رحمة﴾ أي: من علي برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿فلذروها تأكل في أرض الله﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقرها ﴿فياخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال﴾ لهم صالح: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ العظيمة فقطعت

أقرب إليه من جبل الوريد﴾ والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي إطفائه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ودوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير. وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾

(١) في ب: فيها.

(٢) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾.

ذ ﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم ﴿قائمة﴾ تخدم أضيافه ﴿فضحككت﴾ حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به، تعجباً. ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ فهذان مانعان من وجود الولد ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾. قالوا أتعجبين من أمر الله؟ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد ﴿عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها. ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وجاءته البشري﴾ بالولد التفت حيثئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها، لننجيته وأهله إلا امرأته﴾.

﴿إن إبراهيم حلیم﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين.

﴿أواه﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، ﴿منيب﴾ أي: رجّاع إلى الله بمعرفته ومحبه، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حتم الله هلاكهم.

فقيل له: ﴿يا إبراهيم أعرض عن

هذا﴾ الحدال ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ بهلاكهم ﴿وإنهم أتتهم عذاب غير مردود﴾ فلا فائدة في جدالك.

﴿ولما جاءت رسلنا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا لوطاً سيء بهم﴾ أي: شق عليه مجيئهم، وضايق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله.

ف ﴿وجاء قومه يهرعون إليه﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿ومن قبل كانوا يعلمون السيئات﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم﴾ من أضيافني [وهذا كما عرض لسليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحيق ولعلمه أن بناته تمتنع منالهن ولا حق لهم فيهن والقصد الأعمم دفع هذه الفاحشة الكبرى] ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم.

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

ف ﴿قالوا﴾ له: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد﴾ كقبيلة مانعة لنتعكم.

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقصى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب.

قال يعقوب إنهم أتتهم عذاب غير مردود ﴿فلا فائدة في جدالك﴾
﴿ولما جاءت رسلنا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا لوطاً سيء بهم﴾ أي: شق عليه مجيئهم، وضايق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله.
ف ﴿وجاء قومه يهرعون إليه﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿ومن قبل كانوا يعلمون السيئات﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين.
﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم﴾ من أضيافني [وهذا كما عرض لسليمان عليه السلام على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحيق ولعلمه أن بناته تمتنع منالهن ولا حق لهم فيهن والقصد الأعمم دفع هذه الفاحشة الكبرى] ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم.
﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.
ف ﴿قالوا﴾ له: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.
فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد﴾ كقبيلة مانعة لنتعكم.
وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقصى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب.

﴿قالوا﴾ له: ﴿إنا رسل ربك﴾ أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، ﴿لن يصلوا اليك﴾ بسوء.

ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوسعون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يقطع من الليل﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إلا امرأتك إنه مصيبتها﴾ من العذاب ﴿ما أصابهم﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إن موعدهم الصبح﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أليس الصبح بقریب﴾ ﴿فلما جاء أمرنا﴾ بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جعلنا﴾ ديارهم ﴿عليها سافلها﴾ أي: قلبناها عليهم ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿منضود﴾ أي: متتابعة تتبع من شد عن القرية.

﴿مسومة عند ربك﴾ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وما هي من الظالمين﴾ الذين يشاهبون لفعل

(١) زيادة من هامش ب.



وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي: فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحلیم الرشید.

﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي﴾ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿و﴾ أنا لا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴿فلمست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا، وحتى تنظروا إليّ النعمة في ذلك. بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته، ﴿وإليه أتيت﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

ويهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

أشياءهم ﴿أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان.

﴿ولا تعشوا في الأرض مفسدين﴾ فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

﴿بقيت الله خير لكم﴾ أي: يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جداً.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي لله وتتعد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب!؟

وكذلك لا يوجب قولك لنا: ﴿أن نفعل في أموالنا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا: في تهكمهم: ﴿إناك لأنت الحلیم الرشید﴾ أي: أئتلك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحلیم الرشید، وآباؤنا هم السفهاء الغاؤون!؟

قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعالهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿٨٤ - ٩٥﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ إلى آخر القصة^(١) أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه.

ف ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي: اخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط.

﴿إني أراكم بخير﴾ أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة الله فيزيها عنكم.

﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي: عذاباً محيط بكم، ولا يبقئ منكم باقية.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ولا تبخسوا الناس

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾.

﴿ويا قوم لا يجرمكم شقاقي﴾ أي : لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي ﴿أن يصيبكم﴾ من العقوبات ﴿مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ لا في الدار ولا في الزمان .

﴿واستغفروا ربكم﴾ عما اقترفتم من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح ، والإنابة إليه بطاعته ، وترك مخالفته .

﴿إن ربي رحيم ودود﴾ لمن تاب وأتاب ، يرحمه فيغفر له ، ويتقبل توبته ويحبه ، ومعنى الودود من أسماؤه تعالى ، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، فهو «فعل» بمعنى «فاعل» وبمعنى «مفعول» .

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ أي : تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم ، فقالوا : ﴿ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ وذلك لبغضهم لما يقول ، وفترتهم عنه .

﴿وإنا لتركنا قبلاً﴾ أي : في نفسك لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين ، ﴿ولولا رهطك﴾ أي : جماعتك وقبيلتك ﴿لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ أي : ليس لك قدر في صدورنا ، ولا احترام في أنفسنا ، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك .

﴿ف﴾ قال لهم مترقياً لهم : ﴿يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ أي : كيف تراعوني لأجل رهطي ، ولا تراعوني لله ، فصار رهطي أعز عليكم من الله .

﴿واخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي : نبذتم أمر الله وراء ظهوركم ، ولم تبالوا به ولا حفتهم منه .

﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

﴿و﴾ لما أعياه وعجز عنهم قال : ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي : على حالتكم ودينكم .

﴿إنني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ ويجل عليه عذاب مقم

أنا أم أنتم ، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب .
﴿وارتقبوا﴾ ما يجلب في ﴿إني معكم رقيب﴾ ما يجلب بكم .

﴿ولما جاء أمرنا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ لا تسمع لهم صوتاً ، ولا ترى منهم حركة ﴿كان لم يفتنوا فيها﴾ أي : كأنهم ما أقاموا في ديارهم ، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب .

﴿ألا بعداً لمدین﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كما بعدت ثمود﴾ أي : قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك .

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته لقومه ، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير .

منها : أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام ، فكذلك بشرائعه وفروعه ، لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء المكيات والميزان ، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك .

ومنها : أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب ، وتحشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك ، وأن ذلك من سرقة أموال الناس ، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد ، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن الجزاء من جنس العمل ، فمن بخش أموال الناس يريد زيادة ماله ، عوقب بنقيض ذلك ، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله : ﴿إني أراكم بخير﴾ أي : فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم .

ومنها : أن على العبد أن يتقن بما أتاه الله ويقنع بالحلل عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة ، وأن ذلك خير له لقوله : ﴿بقية الله خير لكم﴾ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في

فَمَا جَاءَ أُمَّرًا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَائِلَهَا وَأَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِمْ
جِهَادًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَتَحْنُورُ ﴿٣٨٨﴾ مَسْمُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا
هِيَ بِرَبِّكَ الظَّالِمِينَ بِحَسْبٍ ﴿٣٨٩﴾ وَإِلَّا مَنِّنَ أَحْسَنُ
شُعَيْبًا قَالَ يَتُورُ أَعْبُدُ اللَّهَ مَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ عَزِيدًا
وَلَا تَنْفُسُوا الْيَسْئَالَ وَالذِّكْرَ إِنِّي أَرِيدُكُمْ بِحَسْبٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحْطٍ ﴿٣٩٠﴾ وَيَتُورُ
أَوْفُوا الْيَسْئَالَ وَالذِّكْرَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَنْفُسُوا الْيَسْئَالَ
أَشْهَادًا لَهُمْ وَلَا تَهْتِكُوا فِي الْأَرْضِ مُشْرِكِينَ ﴿٣٩١﴾ يَسْتَفْتِي
اللَّهُ حُكْمًا كُنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ تَقْوِينَ وَمَا كَانَ عَلَيْكُمْ
بِحَسْبٍ ﴿٣٩٢﴾ قَالَ لَيْسَ شُعَيْبٌ أَصْلُكَ تَأْتِيكَ أَنْ تَتْرَكَ
مَائِسُهُمْ نَابِقًا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِكَ مَا تَحْقِرُ الْآيَاتُ
لَكَ الْحِكْمَةَ الْكُرْبَىٰ ﴿٣٩٣﴾ قَالَ يَتُورُ أَرِيدُكُمْ إِن كُنْتُ
عَلَىٰ يَتَقْوِينَ رَبِّكَ وَرَزَقْنِي مِنهُ رِقًا فَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ
أَنْ تَخْلَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ كُنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ إِلَّا الْأَرْضُ
مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا تَوْفِيقِي لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٣٩٤﴾

التكالب على الأسباب المحرمة من المحق ، وضد البركة .

ومنها : أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره ، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان ، فذلك على أنه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقص أو معدوم .

ومنها : أن الصلاة لم تترك مشروعة للأنبياء المتقدمين ، وأنها من أفضل الأعمال ، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها ، وتقديمها على سائر الأعمال ، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي ميزان للإيمان وشرائعه ، فبإقامتها تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية .

ومنها : أن المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء ، فإنه أمانة عنده ، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق ، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله ، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم ، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون ، سواء وافق حكم الله أو خالفه .

ومنها : أن من تكلمة دعوة الداعي وقامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به ، وأول منته عما ينهى غيره عنه ، كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ ولقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لم



كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن الثائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يجبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: «إن الثائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود». فإن الله قال: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحصر على إبادتها، وجعلهم عملةً وخدماءً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿٩٦ - ١٠١﴾ وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة^(١). يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ بن عمران ﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعضا وأليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام. ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة ظاهرة

بينة، ظهرت ظهور الشمس، ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي: أشرف قومه لأنهم المتبوعون وغيرهم تبع لهم، فلم ينتقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿فاتبوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ بل هو ضال غاوي، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أردادهم وأهلكهم.

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ واتبوا في هذه ﴿أي: في الدنيا﴾ لعنة ويوم القيامة ﴿أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.

﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي: بئس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ لتنذر به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿منها قائم﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم، ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر، ﴿وما ظلمناهم﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بالشرك والكفر والعدا.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿وما زادهم غير تثيب﴾ أي: خسار ودمار، بالصد مما خطر ببالهم. ﴿١٠٢﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء. ﴿إن في ذلك﴾ المذكور من أخذه

تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون *.

ومنها: أن وظيفة الرسل وستهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لموليه ومسديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

(١) في ب: أورد الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وما زادهم غير تثيب﴾.

للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، ول يظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حتى المعرفة.

﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين، ﴿وما نؤخره﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إلا لأجل معدود﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحيثما ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿يوم يأت﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فمنهم﴾ أي: الخلق ﴿شقي وسعيد﴾ فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

﴿وأما جزاؤهم﴾ فأما الذين شقوا أي: حصلت لهم الشقاوة والحزني والفضيحة، ﴿ففي النار﴾ منغمسون في عذابها، مشتد عليهم عقابها، ﴿لهم فيها﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زفير وشهيق﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿خالدين فيها﴾ أي: في النار التي هذا عذابها ﴿ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

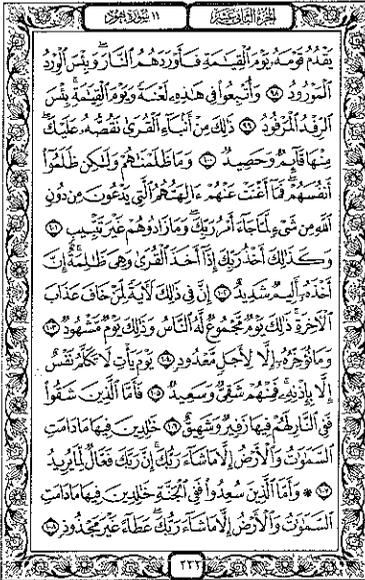
﴿وأما الذين سعدوا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز، ﴿ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عطاء غير مجدود﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

﴿١٠٩﴾ ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء يمتح بها لا يمتح بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آباؤهم الأقدمين، ولا على ما حوّلهم الله وآتاهم من الدنيا.

﴿١١٠ - ١١٣﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي



شك منه مريب * وإن كلا لما ليوفيتم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون * يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لقضي بينهم﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك منه مريب.

﴿وإن كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وإن كلا لما ليوفيتم ربك أعمالهم﴾ أي: لا بد أن الله يقضي بينهم ^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلا بما يستحقه.

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.



﴿إنه بما يعملون﴾ من خير بشر
﴿خبير﴾ فلا يخفى عليه شيء من
أعمالهم دقيقها وجليلها .

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي
أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه
محمدًا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن
يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما
شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما
أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا
يزيفوا عن ذلك يمنة ولا يسرة،
ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن
يتجاوزوا ما حده الله لهم من
الاستقامة .

وقوله: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾
أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء،
وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب
لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها،
ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى
الاستقامة فقال: ﴿ولا تركزوا﴾ أي:
لا تميلوا إلى الذين ظلموا﴾ فإنكم إذا
ملت بهم وافقتهم على ظلمهم، أو
رضيتهم ما هم عليه من الظلم
﴿فتمسك النار﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وما
لكم من دون الله من أولياء﴾ يمتعونكم
من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً
من ثواب الله .

﴿ثم لا تنصرون﴾ أي: لا يدفع
عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه
الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم،
والمراد بالركون الميل والانضمام إليه
بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما
هو عليه من الظلم .

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى
الظلمة، فكيف حال الظلمة
بأنفسهم!! نسال الله العافية من
الظلم .

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿وأقم الصلاة
طرفي النهار وزلفاً من الليل إن
الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى
للذاكرين﴾ * وأصبر فإن الله لا يضع
أجر المحسنين ﴿بأمر تعالی بإقامة
الصلاة كاملة﴾ طرفي النهار﴾ أي:
أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة
الفجر، وصلاتا الظهر والعصر،
﴿وزلفاً من الليل﴾ ويدخل في ذلك
صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك
قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد وتقربه
إلى الله تعالى .

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾
أي: فهذه الصلوات الخمس، وما
ألحق بها من التطوعات من أكبر
الحسنات، وهي: مع أنها حسنات
تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها
تذهب السيئات وتمحوها، والمراد
بذلك الصغائر، كما قيدها الأحاديث
الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:
«الصلوات الخمس، والجمعة إلى
الجمعة، ورمضان إلى رمضان،
مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»،
بل كما قيدها الآية التي في سورة
النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا
كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم
وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ .

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من
لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم
وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون
إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة

الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن
السيئات، الجميع ﴿ذكرى للذاكرين﴾
يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم،
ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة الثمرة
للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات،
ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة
النفس والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿وأصبر﴾ أي: احبس نفسك على
طاعة الله، وعن معصيته، وإلزامها
لذلك، واستمر ولا تضجر .

﴿فإن الله لا يضع أجر المحسنين﴾
بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي
عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما
كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم
للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة
إلى ثواب الله كلما ونت وفترت .

﴿١١٦﴾ ﴿فلولا كان من القرون
من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد
في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم
واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا
مجرمين﴾ لما ذكر تعالی إهلاك الأمم
المكذبة للرسول، وأن أكثرهم
منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية
وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب
والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل
في القرون الماضية بقايا من أهل الخير
يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد
والردى، فحصل من نفعهم ما بقيت به
الأديان، ولكنهم قليلون جداً .

وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم
المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من
دينهم، ويكون حجة الله أجراها على
أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى
من حي عن بينة^(١) .

﴿و﴾ لكن ﴿اتبع الذين ظلموا ما
أترفوا فيه﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من
النعيم والترف، ولم يغيروا به بدلاً .

﴿وكانوا مجرمين﴾ أي: ظالمين
باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق
عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب .
وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون

(١) جاء في هامش ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النفي، أي: إنه لم يكن في القرون السالفة أو لواقية... الخ، ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا لكن ما ذكرنا في الأصل...) ثم لم يضح باقي الكلام لإصابته بالبلل، وهو يسير .

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قاتمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، وإحلال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرزون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾ * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للضوابط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إلا من رحم ربك﴾ فهذه هم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم مخذولون موكلون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

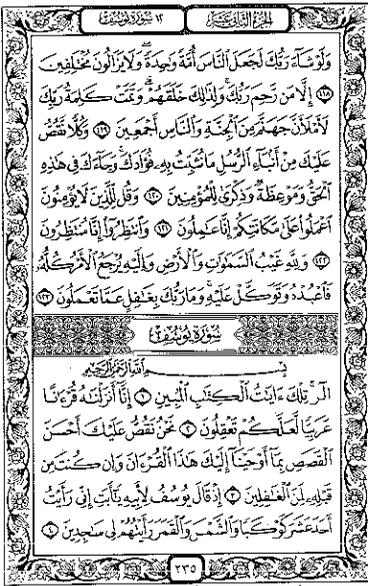
﴿و﴾ لأنه ﴿تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فلا بد أن يبسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون﴾ * وانتظروا إنا منتظرون﴾ * والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿وجاءك في هذه﴾ السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيعملونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم



عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه ﴿وانظروا﴾ ما يجل بنا ﴿إنا منتظرون﴾ ما يجل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿والله غيب السماوات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿والله يرجع الأمر كله﴾ من الأعمال والعمال، فميز الخبيث من الطيب ﴿فاعبهه وتوكل عليه﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين. وصلی الله على محمد وسلم [وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧هـ].^(١)

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرب المنان لجامع الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين آمين

عبارتها وروث معانيها، ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحينا إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض مئة من الله وإحسان.

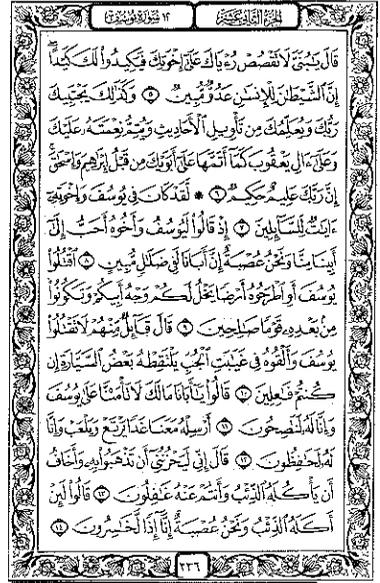
﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

﴿٤ - ٦﴾ ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين * وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم * واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرِك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحاً، فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعل العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ، ينقل.

فقوله تعالى: ﴿إذ قال يوسف



تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين * إن أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي: البين الواضحة الفاظه ومعانيه، ومن بيانه وإيضاحه:

أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، [المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة] وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: تزداد عقولكم بتكرار المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ وذلك لصدقها وسلاسة

الدنيا والآخرة. وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئه له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناب الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها، ولهذا قال:

﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي:

من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿ويتم نعمته عليك﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودينية.

﴿إن ربك عليم حكيم﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كل ما تقتضيه حكمته وحده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما بيان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه:

﴿يا بني لا تقصص رؤياك على

إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴿١٠﴾ أي : حسداً من عند أنفسهم ، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم .

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً ، ولا سراً ولا جهاراً ، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى ، فامتثل يوسف أمر أبيه ، ولم يجبر إخوته بذلك ، بل كتبها عنهم .

﴿٧-٩﴾ ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ يقول تعالى : ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات﴾ أي : عبرٌ وأدلة على كثير من المطالب الحسنة ، ﴿للسائلين﴾ أي : لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال ، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر ، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات ، ولا في القصص والبيئات .

﴿إذ قالوا﴾ فيما بينهم : ﴿ليوسف وأخوه﴾ بنيامين ، أي : شقيقه ، وإلا فكلهم إخوة ، ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي : جماعة ، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة ، ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي : لفي خطأ بين ، حيث فضلتهما علينا من غير موجب نراه ، ولا أمر نشاهده .

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي : غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها .

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي : يتفرغ لكم ، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة ، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم ، ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي : من بعد هذا الصنيع ﴿قوماً صالحين﴾ أي : تتوبون إلى الله ، وتستغفرون من بعد ذنبكم .

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله ، وإزالة لشاعته ، وتنشيطاً من بعضهم لبعض .

﴿١٠﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴿أي : قال قائل﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعه : ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع ، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل ، ولكن توصلوا إلى تبيعه بأن تلقوه ﴿في غيابة الجب﴾ وتتوسعده على أنه لا يجبر بشأنكم ، بل على أنه عبد مملوك أتق منكم ، لأجل أن يلتقطه بعض السيارة ﴿الذين يريدون مكاناً بعيداً﴾ فيحفظون فيه .

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف ، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية ، فإن بعض الشر أهون من بعض ، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل ، فلما اتفقوا على هذا الرأي .

﴿١١-١٤﴾ ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون﴾ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون ﴿ قال إني ليحزنتي أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لحاسرون ﴿ أي : قال إخوة يوسف ، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم : ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون﴾ أي : لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف ، من غير سبب ولا موجب ؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إننا له لناصحون﴾ أي : مشفقون عليه ، نود له ما نود لأنفسنا ، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها .

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم ، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم ، فقالوا :

﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ أي : يتنزه في البرية ويستأنس ، ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي : ستراعيه ، ونحفظه من أذى يريده .

فأجابهم بقوله : ﴿إني ليحزنتي أن

فَأَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوا فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَالْجَنَّةِ إِلَهُكُمْ لَيْتَنَّهُمْ يَأْرَءُونَ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا نُوَِّدُ أَن نُّعْرَضَكُمْ بِرَبِّكُمْ ﴿١١﴾ قَالَ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِئُ وَرَبُّنَا يُؤْتِنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكْأَلِ الذَّيْبَ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُتَّصِلِينَ ﴿١٢﴾ وَسَيَاةٌ مِّنَ اللَّيْلِ عَسَىٰ وَجَدْنَاهُ عُصْبَةً مِّنَ اللَّيْلِ عَسَىٰ وَجَدْنَاهُ عَلَىٰ رَأْسِ سِدْرٍ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ مِّنَ النَّارِ يُوقِدُ أَعْيُنَهُمْ فَذُكِّرُوا كَذِبًا ﴿١٣﴾ وَأَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوا فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَالْجَنَّةِ إِلَهُكُمْ لَيْتَنَّهُمْ يَأْرَءُونَ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا نُوَِّدُ أَن نُّعْرَضَكُمْ بِرَبِّكُمْ ﴿١١﴾ قَالَ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِئُ وَرَبُّنَا يُؤْتِنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكْأَلِ الذَّيْبَ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُتَّصِلِينَ ﴿١٢﴾ وَسَيَاةٌ مِّنَ اللَّيْلِ عَسَىٰ وَجَدْنَاهُ عُصْبَةً مِّنَ اللَّيْلِ عَسَىٰ وَجَدْنَاهُ عَلَىٰ رَأْسِ سِدْرٍ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ مِّنَ النَّارِ يُوقِدُ أَعْيُنَهُمْ فَذُكِّرُوا كَذِبًا ﴿١٣﴾

تذهبوا به﴾ أي : مجرد ذهابكم به يحزنتي ويشق علي ، لأنني لا أقدر على فراقه ، ولو مدة يسيرة ، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان ، وهو أني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴿أي : في حال غفلتكم عنه ، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب .

﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي : جماعة ، حريصون على حفظه ، ﴿إننا إذا لحاسرون﴾ أي : لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه .

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله ، وعدم الموانع ، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه .

﴿١٥-١٨﴾ ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبتنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ وجاؤوا بأباهم عشاء يبكون ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبي وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴿أي : لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه ، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب ، كما قال قائلهم السابق ذكره ، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه ، فنفذوا فيه قدرتهم ، وألقوه في

منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿٢١﴾ ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا﴾ أي: إما ينفعنا كنعف العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿٢٢﴾ ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي: ﴿لما بلغ﴾ يوسف ﴿أشده﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحوال الثقيلة، من النبوة والرسالة، ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعلماً ربانياً، ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

أبوهم بذلك، و ﴿قال﴾: ﴿بيل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرانين والأحوال أومن رؤيا يوسف التي قصها عليه^(٢) ما دلّه على ما قال.

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أن أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً، سالماً من السخط والشكوى إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفي.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشري هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي: مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى ﴿جاءت سيارة﴾ أي: قافلة تريد مصر، ﴿فأرسلوا واردهم﴾ أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الخياض ونحو ذلك، ﴿فأدلى﴾ ذلك الوارد ﴿دلوه﴾ فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، ﴿قال يا بشري هذا غلام﴾ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿وأسروه بضاعة﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتراه السيارة منهم، ﴿بثمن بخس﴾ أي: قليل جداً، فسره بقوله: ﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾.

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبني



الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الخرجة، ﴿لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿وجاؤوا أباهم عشاءً يكون﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم، ويكأوهم دليلاً لهم، وقريئة على صدقهم، فقالوا - متعذرين^(١) بغير كاذب - ﴿يا أبانا إنا ذهبنا نستيق﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ توفيراً له وراحة، ﴿فأكله الذئب﴾ في حال غيبتنا عنه في استيقاننا، ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقبة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعنا أن نعذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم، ﴿و﴾ مما أكدوا به قولهم، أنهم ﴿جاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين).

(٢) زيادة من هامش: ب.

علماً نافعاً .

ودل هذا، على أن يوسف وفي مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكيم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة .

﴿٢٣- ٢٩﴾ ﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ *

واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدهما لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ * قال هي روادنتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن

إن كيدكن عظيم﴾ * يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ * هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن ﴿رأودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ * أي : هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر .

﴿و﴾ زادت المصيبة، بأن ﴿غلقت الأبواب﴾ * وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها ﴿وقالت: هيت لك﴾ * أي : افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدهته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعده، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همأ تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و ﴿قال: معاذ الله﴾ * أي : أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي .

فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله وإخثارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المرادة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي : زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المرادة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً﴾ * ولم تقل «من فعل بأهلك سوءاً» تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل .

وإنما النزاع عند الإرادة والمرادة، ﴿إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ * أي : أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ * فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمَنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبية وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقربته من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ * لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب .

﴿وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين﴾ * لأن ذلك يدل على هزوبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ * عرف بذلك صدق يوسف وبرائه، وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيدها: ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾ * وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ * أي : اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله، ﴿واستغفري﴾ * أي : أيتها المرأة ﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ * فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة .

﴿٣٠- ٣٥﴾ ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لسراها في ضلال

ميين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكم الذي لمثني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * يعني : أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلتمها، ويقلن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حياً * أي : هذا أمر مستقيم، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً .

﴿قد شغفها حياً﴾ أي : وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، ﴿إننا لنهاها في ضلال مبين﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرأ، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز، وتريين إياه ليعذرها، ولهذا سماه مكرأ، فقال : ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن﴾ تدعوهم إلى منزلها للضيافة .

﴿وأعدت لهن متكأ﴾ أي : محلاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المأكول اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرتة في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، ﴿وأنت كل واحدة منهن سكيناً﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام

﴿وقالت﴾ ليوسف : ﴿اخرج عليهن﴾ في حالة جماله وبهائه .

﴿فلما رأيته أكبرنه﴾ أي : أعظمته في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، ﴿وقطعن﴾ من الدهش ﴿أيديهن﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وقلن : حاش لله﴾ أي : تنزيهاً لله ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين .

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة : ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي : امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً .

ولهذا قالت له بحضرتين : ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي : أمل إليهن، فياني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء، ﴿وأكن﴾ إن صبوت إليهن ﴿من الجاهلين﴾ فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة .

﴿فاستجاب له ربه﴾ حين دعاه ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إنه هو السميع﴾ لدعاء الداعي ﴿العليم﴾ بينته الصالحة، وبنيته الضعيفة المنتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح .

﴿بدا لهم﴾ أي : ظهر لهم ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ الذالة على براءته، ﴿ليسجننه حتى حين﴾ أي : لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه، نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن .

﴿٣٦ - ٤٠﴾ ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خمرأ وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزأ تأكل الطير منه تبشأ بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربِّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي : ﴿وما دخل يوسف السجن، كان في جملة من دخل معه السجن فتيان﴾ أي : شبابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ف ﴿قال أحدهما : إني أراي أعصر خمرأ، وقال الآخر : إني أراي أحمل فوق رأسي خبزأ﴾ وذلك الخبز ﴿تأكل الطير منه

نبينا بتأويله ﴿أي﴾ بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف يا حسانه .

ف ﴿قال﴾ لهما مجيباً لطلبتهما :
 ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ أي : فلنطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوها إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه ، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما .

ثم قال : ﴿ذلكما﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مما علمني ربِّي﴾ أي : هذا من علم الله علمنيه وأحسن إلي به، وذلك ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً .

فلا يقال : إن يوسف كان من قبل، على غير ملة إبراهيم ﴿واتبعت ملة آباي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ ثم فسّر تلك الملة بقوله ﴿ما كان لنا﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة .

﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ أي : هذا من أفضل ميثمه وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا، فإنه لا أفضل من ميثه الله على العباد بالإسلام والدين القويم، فمن قبله وانقاد له فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل .

﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ فلذلك تأتيهم المنة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من الترخيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى، فإن الغيتين لما تقرر عنده

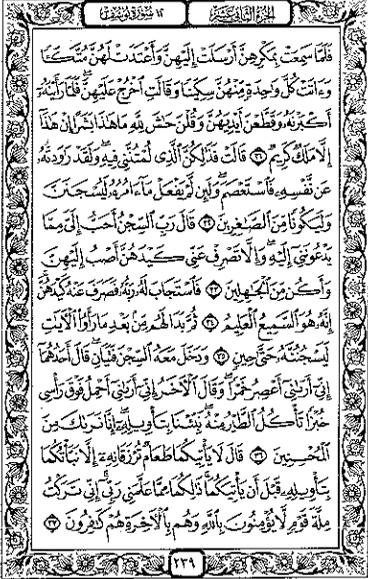
لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ ذلك الدين القيم ﴿أي﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل موهجة توصل إلى كل شر .

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها .

أما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن معلم - ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل الله وإحسانه، حيث من علي بترك الشرك واتباع ملة آباءه، فهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت .

ثم صرح لهما بالدعوة، فقال : ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ أي : أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أثلك ﴿خير أم الله﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك .

﴿القهار﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها، ولهذا قال : ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ .



ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يبالا على شركهما، فقامت عليهما - بذلك - الحاجة، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما، بعد ما وعدهما ذلك، فقال :

﴿٤١﴾ ﴿يا صاحبي السجن أما أحلكما﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خراً، فإنه يخرج من السجن ﴿فيسقي ربه خيراً﴾ أي : يسقي سيده الذي كان يخدمه خيراً، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ﴿وأما الآخر﴾ وهو : الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه .

﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ فإنه عبر [عن] الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال : ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي : تسألان عن تعبيره وتفسيره .

﴿٤٢﴾ ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان﴾

تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فعبّر بها يوسف - وقعت عندهم موقعاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سألهم آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتدرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقولون: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، ويتال ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت الطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه، «وقال الذي نجا منهما» أي: من الفتين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه «وإذ ذكر بعد أمة» أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيرة لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيلاً بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: «أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون» إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجاب عن ذلك، فقال: «يوسف أيها الصديق» أي: كثير الصدق في أقواله وأعماله، «أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهتمهم.

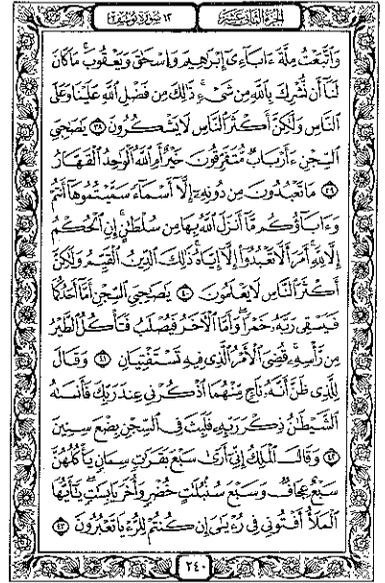
يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزعمون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغالث الناس وفيه يعصرون * لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رأها، لارتباط مصالحتها به.

وذلك أنه رأى رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي: منهم وقال: «إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع» أي: سبع من البقرات «عجاف» وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُنْ نهاية في القوة.

«و» رأيت «سبع سنبلات خضر» يأكلن سبع سنبلات «يابسات» «يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي» لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد، «إن كنتم للرؤيا تعبرون» فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهاً. و «قالوا: أضغاث أحلام» أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعدراً] ثم قالوا: «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم



ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين * أي: «وقال» يوسف عليه السلام: «للذي ظن أنه ناج منها» وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا: «أذكرني عند ربك» أي: أذكر له شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، «فأنساه الشيطان ذكر ربه» أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاه.

«فلبث في السجن بضع سنين» والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سبباً، كان سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك:

«٤٣ - ٤٩» «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يوسف عن نفسه ﴿فهل رأيتم منه ما يريب؟﴾

فَبَرَأْتَهُ و ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تبتغي عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(١). ﴿أنا رادوته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين﴾ في أقواله وبرائه، ﴿ذلك﴾ الإقرار الذي أقررت لآني راودت يوسف، ﴿ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المرادة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ أي: من المرادة والهيم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إن النفس لأماراة بالسوء﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إلا ما رحم ربي﴾ فنجاه من نفسه الأماراة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعده.

﴿إن ربي غفور رحيم﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿رحيم﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿٥٠ - ٥٧﴾ وقال الملك اثنتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم * قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم * وقال الملك اثنتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين * قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم * وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون * يقول تعالى: ﴿وقال الملك﴾ لمن عنده ﴿اثنتوني به﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجه من السجن ويحضره إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

ف ﴿قال﴾ للرسول: ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعني به الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ فأحضرهن الملك، وقال: ﴿ما خطبكن﴾ أي: شأنكن ﴿إذ راودتن

فعبير يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضراء، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحرث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحرث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال: ﴿تزرعون سبع سنين داباً﴾ أي: متتابعات.

﴿فما حصدم﴾ من تلك الزروع ﴿فذرهم﴾ أي: اتركوه ﴿في سنبله﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبية، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سبع شداد﴾ أي: مجذبات جداً ﴿ياكلن ما قدمتم لهن﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أي: تمتعونه من التقديم لهن.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عام فيه يغيث الناس وفيه يعصرون﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع

(٢) كذا في ب وفي أ: لسجن يوسف.

(١) في ب: التعبير.

السجن لم يحضر .
فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال :
﴿أئتوني به أستخلصه لنفسي﴾ أي :
أجعله خصيصة لي ومقرباً لديّ فأتوه به
مكرماً محترماً ، ﴿فلما كلمه﴾ أعجبه
كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له :
﴿إنك اليوم لدينا﴾ أي : عندنا ﴿مكين
أمين﴾ أي : متمكن ، أمين على
الأسرار ، فـ ﴿قال﴾ يوسف طلباً
للمصلحة العامة : ﴿اجعلني على
خزائن الأرض﴾ أي : على خزائن
جبايات الأرض وغللاتها ، وكيلاً
حافظاً مدبراً .

﴿إني حفيظ عليهم﴾ أي : حفيظ
للذي أتوا له ، فلا يضيع منه شيء في
غير محله ، وضابط للدخل والخارج ،
علمه بكيفية التدبير والإعطاء والمنع ،
والتصرف في جميع أنواع التصرفات ،
وليس ذلك حرصاً من يوسف على
الولاية ، وإنما هو رغبة منه في النفع
العام ، وقد عرف من نفسه من الكفاءة
والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على
خزائن الأرض ، فجعله الملك على
خزائن الأرض وولاه إياها ، قال
تعالى : ﴿وكذلك﴾ أي : بهذه الأسباب
والمقدمات المذكورة ، ﴿مكننا ليوسف
في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾ في
عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاء
عريض ، ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾
أي : هذا من رحمة الله بيوسف التي
أصابها وقدرها له ، وليست مقصورة
على نعمة الدنيا .

﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾
ويوسف عليه السلام من سادات
المحسنين ، فله في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة ، ولهذا قال : ﴿ولأجر
الآخرة خير﴾ من أجر الدنيا ﴿للدنين
آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي : لمن جمع بين
التقوى والإيمان ، فبالتقوى تترك
الأمور المحرمة من كبائر الذنوب
وصغائرها ، وبالإيمان التام يحصل
تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق
به ، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال

الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

﴿٥٨ - ٦٨﴾ ﴿وجاء إخوة يوسف

فدخلوا عليه فعرفهم وهم له
منكرون * ولما جهّزهم بجهازهم قال
إئتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني
أوفي الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم
تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا
تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا
لفاعلون * وقال لفتيانه اجعلوا
بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها
إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون *
فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع
منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا
له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا

كما آمنتم على أخيه من قبل فإله خير
حافظاً وهو أرحم الراحمين * ولما
فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت
إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا
ردت إلينا ونمير أهلنا وتحفظ أخانا
ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال

لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً
من الله لتأنتني به إلا أن يحاط بكم فلما
آتوه موثقهم قال الله على ما نقول
وكيل * وقال يا بني لا تدخلوا من
باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة
وما أغني عنكم من الله من شيء إن
الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه
فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من
حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم
من الله من شيء إلا حاجة في نفس
يعقوب قضاها وإنه للو علم لما علمناه
ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي : لما
تولى يوسف عليه السلام خزائن
الأرض ، دبرها أحسن تدبير ، فزرع في
أرض مصر جميعها في السنين المخصبة
زروراً هائلة ، واتخذ لها المحلات
الكبار ، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً
وحفظه ، وضبطه ضبطاً تاماً ، فلما
دخلت السنون المجدية ، وسرى الجذب
حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها
يعقوب وبنوه ، فأرسل يعقوب بنيه
لأجل الميرة إلى مصر ، ﴿وجاء إخوة
يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له
منكرون﴾ أي : لم يعرفوه .

﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ أي : كال

﴿قال﴾ يوسف لفتيانه الذين
في خدمته : ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي :
الثلث الذي اشتروا به من الميرة .
﴿في رحالهم لعلهم يعرفونها﴾
أي : بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في
رحالهم ، ﴿لعلهم يرجعون﴾ لأجل
التحرج من أخذها على ما قيل ،
والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه
إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً ، ثم إعادة
بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون
بها ، ولا يشعرون لما يسأتي ، فإن
الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء
للمحسن .
﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا
أبانا منع منا الكيل﴾ أي : إن لم ترسل
معنا أخانا ، ﴿فأرسل معنا أخانا نكتل﴾
أي : ليكون ذلك سبباً لكيلنا ، ثم
التزموا له بحفظه ، فقالوا : ﴿وإنا له
لحافظون﴾ من أن يعرض له ما يكره ،
﴿قال﴾ لهم يعقوب عليه السلام :
﴿هل آمنكم عليه إلا كما آمنتم على
أخيه من قبل﴾ أي : تقدم منكم التزام
أكثر من هذا في حفظ يوسف ، ومع
هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا
أتق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أتق

بالله تعالى .

﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم، ثم إنهم ﴿لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قالوا﴾ لأبيهم - ترغيباً في إرسال أخيه معهم - : ﴿يا أبانا ما تبغى﴾ أي: أي: شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وقى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟.

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سبباً لكيه لنا، فمرنا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ونحفظ أختانا ونزداد كيل بغيره بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بغيره، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

ف ﴿قال﴾ لهم يعقوب: ﴿لئن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي: عهداً ثقيلًا، وتحلفون بالله ﴿لئانتني به إلا أن يحاط بكم﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا يقبل لكم به، ولا تقدرتون دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ على ما قال وأراد: ﴿قال﴾ الله على ما نقول وكيل: أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفائه، ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(٣) رجل واحد، وهذا سبب.

﴿ولا﴾ إلا ف ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: القضاء

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿ولما﴾ ذهبوا و ﴿دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان﴾ ذلك الفعل ﴿يعني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

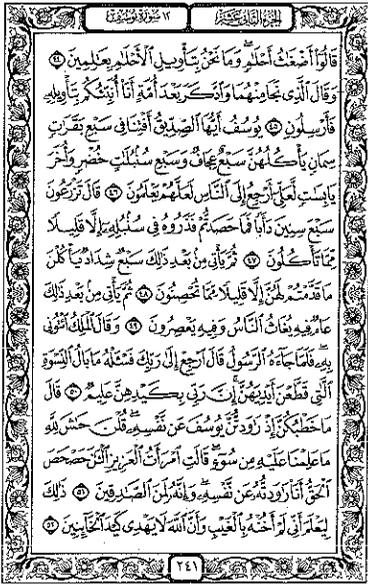
وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لذنو علم﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿٦٩ - ٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون﴾ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قالوا تفقد صواع الملك ولن جاء به حل بغير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم

(١) في ب: فتمير.

(٢) في ب: ونأتي.

(٣) كذا في ب، وفي أ: ابن.



بيدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أبا العزير إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴿أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿أوى إليه أخاه﴾ أي: شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به [و] ضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال﴾ إني أنا أخوك فلا تبتس ﴿أي: لا تحزن﴾ ﴿بما كانوا يعملون﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ أي: كان لكل واحد من إخوته، ومن جلتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية﴾ وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿في رحل أخيه ثم﴾ أوعرا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم لهم سرقة، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا

وجدنا متاعنا عنده ﴿أي﴾: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوبنا من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إننا إذا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لظالمون﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: فلما استياسوا إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خلصوا نجياً﴾ أي: اجتمعوا وخدمهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أي.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي: وأخذ بسرقتي، ولم يحصل لنا أن تأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في

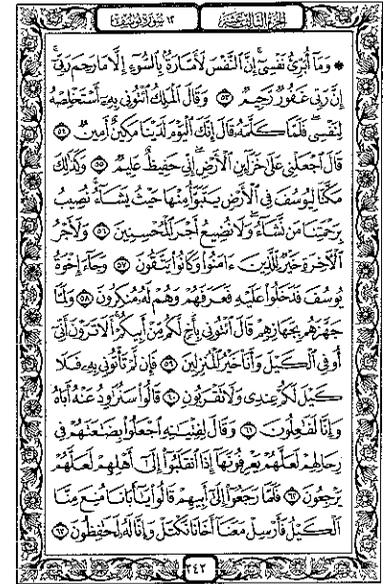
يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾ ولم يقل «وجدها»، أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحيث لم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، لئتم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿ترفع درجات من نشاء﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فكل عالم، فوفقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقتين لنا.

وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿ولم يبد لها لهم﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشرم منه، ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أننا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً﴾ أي: وإنه لا يبصر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فخذ أجدنا مكانه إننا نراك من المحسنين﴾ فأحسن إلينا وإلى أباينا بذلك، ﴿قال﴾ يوسف ﴿معاذ الله أن تأخذوا إلا من



إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة، ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي: أجرة له على وجدانه ﴿وإننا به زعيم﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إن كنتم كاذبين﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جزاؤه﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿فبئذ﴾ المفتش ﴿بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ وذلك لتزول الريبة التي

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدونا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، **﴿وأسأل﴾** إن شككت في قولنا **﴿القرية التي كنا فيها والعرير التي أقبلنا فيها﴾** فقد اطلعوا على ما أخبرناك به **﴿وإننا لصادقون﴾** لم نكذب ولم نغير ولم نبذل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و **﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾** أي: ألقا في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكرية انتهت فقال: **﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾** أي: يوسف و «بنيامين»، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفرجه وميئته، واضطراري إلى إحسانه، **﴿الحكيم﴾** الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ **﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾** قالوا لله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين **﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فهو كظيم﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، **﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾** أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: **﴿تالله تفتأ تذكر يوسف﴾** أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

أحوالك، **﴿حتى تكون حرضاً﴾** أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، **﴿قال﴾** يعقوب **﴿إنما أشكو بثي﴾** أي: ما أبث من الكلام **﴿وحزني﴾** الذي في قلبي **﴿إلى الله﴾** وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** من أنه سيردهم عليّ ويرعيني بالاجتماع بهم.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ **﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين **﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾** أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾** فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإيأس: يوجب له التناقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه، فذهبوا **﴿فلما دخلوا عليه﴾** أي: على يوسف **﴿قالوا﴾** متضرعين إليه: **﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾** أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا **﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾** أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، **﴿فأوف لنا الكيل﴾** أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. **﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾** بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رقى لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿٨٩ - ٩٢﴾ **﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾** قالوا **﴿إنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** قالوا **﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾** قال لا تثرِب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين **﴿قال﴾** هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه **﴿أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم﴾** **﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾** أو أن الحادث الذي فرّق بينه وبين أبيه، هم السب فيه، والأصل الموجب له، **﴿إذ أنتم جاهلون﴾** وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: **﴿إنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا﴾** بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، **﴿إنه من يتق ويصبر﴾** أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فأثرك الله تعالى ومكنك مما تريد **﴿وإن كنا لخاطئين﴾** وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف **﴿قال﴾** لهم يوسف عليه السلام، كراماً وجوداً:

﴿لا تشرب عليكم اليوم﴾ أي : لا أشرّب عليكم ولا أوممكم ﴿يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٣ - ٩٨﴾ ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ * ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون * قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم * أي : قال يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي : أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ولما فصلت العير﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ريح القميص، فقال : ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ أي : تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم فقالوا :

﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي : لا تزال تائها في بحر الحب لا تدري ما تقول.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿ألقاه﴾ أي : القميص ﴿على وجهه فارتد بصيراً﴾ أي : رجع على حاله الأولى بصيراً، بعد أن ابضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متبجحاً بنعمة الله عليه : ﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ حيث كنت مترجياً للقاء يوسف، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن.

فأقروا بذنوبهم ونجعوا بذلك و ﴿قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف ﴿قال﴾ بجيباً لطلبهم، ومسرعاً لإجابتهم : ﴿سوف أستغفر لكم ربي، إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي : ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل : إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ أي : ﴿فلما﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنها، فلما وصلوا إليه، و ﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي : ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئاً

عظيماً، ﴿وقال﴾ لجميع أهله : ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ من جميع المكارة والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي : على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي : أبوه، وأمه وإخوته، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وقال﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجدتهم له : ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وقد أحسن بي﴾ إحساناً جسيماً ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال : ﴿أحسن بكم﴾ بل قال ﴿أحسن بي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ فلم يقل «نزعت الشيطان إخوتي» بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسائر العباد وضمائرهم، ﴿الحكيم﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه

(١) في ب : والإحسان.

قَالَ هَلْ يَسْتَعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكَ عَلَىٰ خِيَمِهِ
 مِنْ قَبْلِ اللَّهِ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَكَأَيُّ
 فَخْرٍ أَمْسَحَهُمْ وَيَضَعُهُمْ زُرَّتْ إِلَيْهِمُ قَالُوا يَا بَنِي
 مَائِمَةَ خَلَوْا بِهِنَّ وَيَضَعُنَّ أَرْوَاتِ الْيَتَامَىٰ وَيُغْرِبْنَ الْأَمْوَالَ وَيَحْفَلْنَ
 أَنْفَادًا وَزَادُوا كَيْدَ بَيْدِ ذَلِكَ كَيْدٌ بَيْدٌ ﴿١٠٢﴾ قَالَ
 لَنْ أُرْسِيَهُ مَعَكُمْ سَخِيًّا وَتُؤَيِّنُ مَوْفِقِينَ اللَّهُ لَتَأْتِيَنِي
 بِرَأْيٍ لَا أَنْ يَخَاطِبُكُمْ فَلَمَّا دَاوَهُ مَوْفِقُهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا تَقُولُونَ
 وَكَيْدٌ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ بَنِي لَانْدَلَةَ لِبَابِ دَيْبِ بْنِ خَالِدٍ
 مِنْ أَرْوَابِ مَشْرُفَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ
 أَعْيُنَ اللَّهِ عَلَىٰ خَيْرِ مَا تَحْسَبُ وَصَلَّىٰ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُكْفِلُونَ
 ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيُّ مَقَامٍ حَيْثُ أَمْرُهُمْ أَوْ هُمْ تَأْكُلُونَ
 عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي شَرِّ عَقُوبٍ فَضَلُّوا
 وَابْتَدَأُوا وَيَلْتَئِنُّوا عَلَيْهِمْ وَأَلْكَأُكُمْ أَكْثَرَ الْكَلِمَاتِ لِيَتَكَلَّمُوا
 ﴿١٠٥﴾ وَكَأَيُّ دَعْوَىٰ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَابْتَدَأُوا وَيَلْتَئِنُّوا
 إِلَيْتُمْ أَنَا أَخْلَيْتُمْ فَلَا تَكْتُمِينَ يَا كَاذِبُوا تَكَلَّمُوا ﴿١٠٦﴾

اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فيظفروا كيف كان عاقبة الذين اتقوا أفلا تعقلون ﴿١٠١﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ للناس ﴿هذه سبيلي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿أدعوا إلى الله﴾ أي: أحب الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يعلدهم عنه.

ومع هذا فأننا ﴿على بصيرة﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، ﴿و﴾ كذلك ﴿من اتبعني﴾ يدعو إلى الله كما أدعو، على بصيرة من أمره ﴿وسبحان الله﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وما أنا من المشركين﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله خالصاً له الدين. ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلاي: شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نوحى إليهم من أهل القرى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى

عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية في السماوات والأرض يمرن عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون * أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴿١٠١﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على إيمانهم ﴿بمؤمنين﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدلالات على صدقهم ما أقاموا. ولهذا قال: ﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليركوه. ﴿وكأين﴾ أي: وكم ﴿من آية في السماوات والأرض يمرن عليها﴾ وهم عنها معرضون.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا ﴿يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم أمنون، ولهذا قال:

﴿أفأمنوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتبوأوا إلى الله، وتركوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل هذه سبيلي﴾ أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى

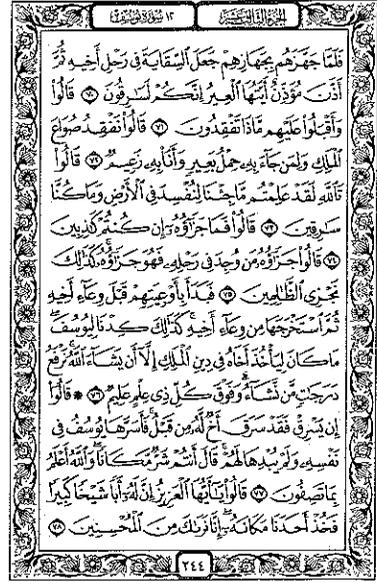
الأمور إلى أوقاتها المقدره لها. ﴿١٠١﴾ ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقتني بالصالحين﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وأقر عينه بأبيه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام:

﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً﴾ أي: أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، ﴿واللحقتني بالصالحين﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذلك﴾ الأنبياء الذي أخبرناك به ﴿من أنباء الغيب﴾ الذي لولا إيجائنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضرراً لديهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وهم يمكرون﴾ به حين تعافدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقاً.

﴿١٠٣ - ١٠٧﴾ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وما تسألهم



الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء، وليتين أمرهم ويتضح شأنهم.

﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيبيكم ما أصابهم، ﴿ولدار الآخرة﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿خير للذين اتقوا﴾ الله في امتثال أوامره، واجتتاب نواهيها، فإن نعيم الدنيا منغص منكذ، منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل، ﴿عطاء غير مجدود﴾ ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤثّر الذي هو خير على الأدنى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿حسبى إذا استياس الرسل ووطنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فتجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية

الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإيأس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جاءهم نصرنا فتجى من نشاء﴾ وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ أي: ولا يرد عذابنا، عمّن اجترم، وتجراً على الله ﴿فما لهم من قوة ولا ناصر﴾.

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عبرة لأولي الألباب﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المقترة المختلفة، ﴿ولكن﴾ كان تصديق الذي بين يديه من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والأجل تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ وقال ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ وقال في آخرها ﴿لقد كان

في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن منحة إلى منحة وميئة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبينها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمثابفة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكباً له ساجدين، وجه المناسبة فيها:

أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، وكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وأجرماً، لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود [له] معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظماً محترماً عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

الأحاديث* ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحمل تمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبيقرات والسنبلات، بالسنين المخصصة، والسنين المجدية، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البيقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقي عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمتت، وإذا أجدبت صارت عجافاً، وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً.

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يحط ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾

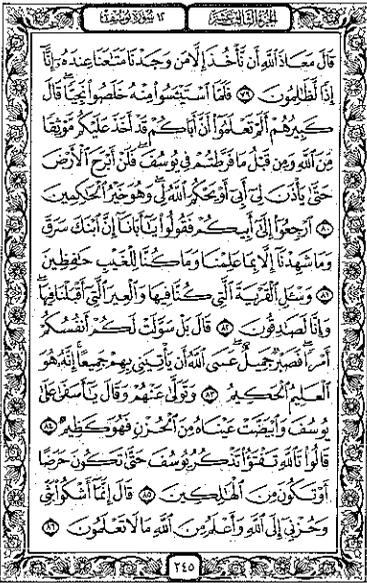
ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿فيكيدوا لك كيدا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وأثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الخيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاءه يكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بتقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء



لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

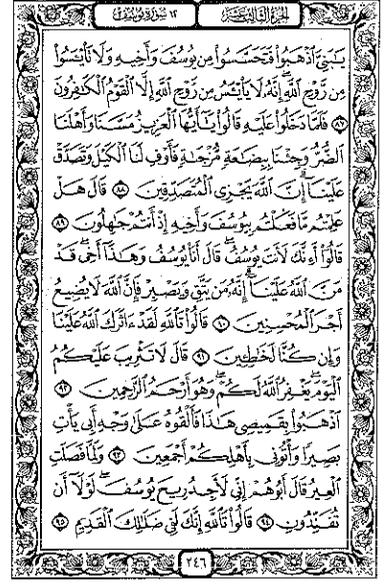
ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، وبما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فأنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم بزة العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقاءه أرضاً، وقال قائل منهم: ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه



لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بعبأ حراماً، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراء^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الخدر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والخدر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهمم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهمم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن «خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعت امرأة ذات

منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزماً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان غلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرانين يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والحمل بالقافة في الأشباه والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعل هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة،

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحاكم شاهداً فقال: «وشهد شاهد من أهلها».

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لئمتها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن «ما هذا بشرأ إن هذا إلا ملك كريم» وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» وقالت بعد ذلك: «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وقالت النسوة: «حاش الله ما علمنا عليه من سوء».

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على الواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين».

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجاهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراء مع كونه

فَمَا أَنْ جَسَدَ الْبَشَرِ الْقَدِيمَ عَلَى تَعْبُدِهِ، فَارْتَدَّ بِعَبِيدِهِ قَالَ أَرَأَيْتَ أَقْرَبَ لَكُمْ مِنْ أَعْرَابِكُمْ اللَّهُ مَا لَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا بَلَى يَا أَيُّهَا الْمَلَأَةُ مَا كُنَّا نَمُرُّ بِكَ إِلَّا أَنْتَ تَقُولُ خَيْرًا ﴿٢١﴾ قَالُوا أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ رُحِيمًا ﴿٢٢﴾ قَالُوا دَعُوا عَلَى رُسُلِكُمْ وَأَعِزُّوا إِلَهُهُمُ أُولَئِكَ قَالُوا أَنْتُمْ أَوْلَى بِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ وَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ حِجْرًا لَمْ يَسْجُدْ أَوْ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لَكَ مِنْهَا آيَةً فَتَلَوْنَهَا إِذَا نَسَّخْتُمُ مِنَ الْبَيْتِ وَبَنِيَّةً يَكُونُ الْبَيْتُ مِنَ الْبَنِيَّةِ أَنْ تَرُجَّ السَّيْلُ بَنِي وَبَنِيَّةً يُعْرَفُ بِهِ رَبِّي رَبِّ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ رَبِّي قَدْ آتَيْنَاكَ مِنَ الْغَيْبِ ثَمَنًا طَيِّبًا وَعَلَّمَنِي مِنَ رُؤْيَاكَ الْغَايِبَ قَالُوا السَّيْرُ وَالْأَرْضُ أَنْتَ تَقُولُ فِي الْغَايِبِ وَالْأَرْضُ وَالْغَايِبُ قَالُوا وَالْأَجْمِينَ وَالصَّالِحِينَ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ تَدْرِيهِمْ إِذْ جُمِعُوا فِي الْمِثْقَالِ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَكْتَرُ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

٢٢٧

يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيتين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر يفعله مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمده على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، وعلم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرآتي داخل في الفتوى، لقوله للفتيتين: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وقال الملك: ﴿أفتوني في رؤياي﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿أفتنا في سبع بقرات﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك

ومنها: أنه كما على العبد عبودية الله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، ف«يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيتين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: ﴿إننا نراك من المحسنين﴾ وآتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأرهما متشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياها فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيتان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتين: ﴿اذكروني عند ربك﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن

مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يدم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فهذه الأمور، ينهي عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسألها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدة، وأن هذا غير منافي للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله،

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، وهذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعد به، ولا ينافي ذلك، قوله: ﴿إنما أشكو بشي وحزني إلى الله﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافي، الشكوى إلى المخلوقين .

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب وسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفاتهم .

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجده، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ ولم ينكر عليهم يوسف .

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ .

إثم عليه ولا حرج .
ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لنيه: ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ .

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم .

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّراع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿معاذ الله أن تأخذوا من وجدنا متاعنا عنده﴾ ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك مخذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال .

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ .

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويمزجه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،



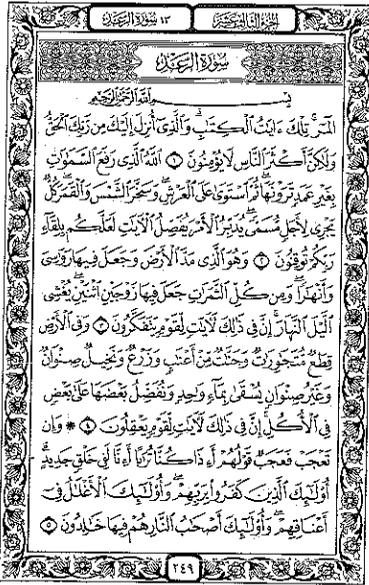
ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه وديناه .

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفرةها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا بمقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله .

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته ﴿الاترون أي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾ .

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ ثم لما احتسبه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير

(١) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).



الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه،
وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته
الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره .

وينزل الكتب الإلهية على رسله،
ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع
والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية
التفصيل بيانها وإيضاحها وتمييزها،
﴿لعلكم﴾ بسبب ما أخرج لكم من
الآيات الأفقية، والآيات القرآنية،
﴿بلقاء ربكم توقنون﴾ فإن كثرة الأدلة
وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول
اليقين في جميع الأمور الإلهية،
خصوصاً في العقائد الكبار، كالبعث
والنشور والإخراج من القبور .

وأيضاً فقد علم أن الله تعالى حكيم
لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم
عبثاً، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه
لأمر العباد ونهيمهم، فلا بد أن ينقلهم
إلى دار يحل فيهم جزاؤه، فيجازي
المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي
المسيئين بإساءتهم .

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي :
خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها،
ومهدنا للعباد، وأودع فيها من
مصالحهم ما أودع، ﴿وجعل فيها
رواسي﴾ أي : جبلاً عظيماً، لثلا تيمد
بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها،
لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا
استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي
جعلها الله أوتاداً لها .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف،
حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل
إليه الشدائد والحنن، ليوصله بها إلى
أعلى الغايات ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن يتملق
إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل
الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله
حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول
يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿رب
قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل
الأحاديث فاطر السموات والأرض
أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني
سليماً وأخفني بالصالحين﴾ .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر
في هذه القصة المباركة، ولا بد أن
يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك .
فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً
مقبلاً، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته
عليهم الصلاة والسلام،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة السعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ لمصالح

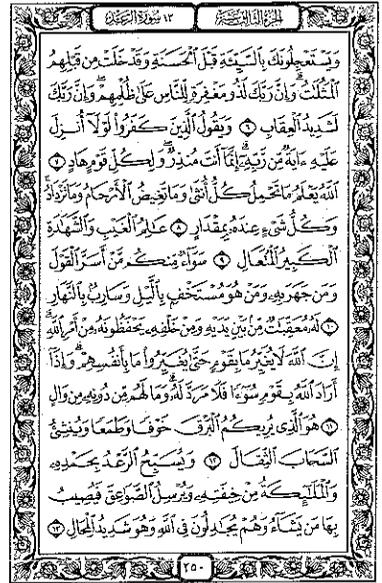
العباد ومصالح مواهبهم وثمارهم،
﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾
بتدبير العزيز العليم، ﴿لأجل مسمى﴾
يسير منتظم، لا يفتران ولا ينيان،
حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله
هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة
التي هي دار القرار، فعند ذلك
يطوي الله السماوات، ويبدلها، ويغير
الأرض ويبدلها . فتكور الشمس
والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في
النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل
للعباد؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة،
وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وقوله : ﴿يتدبر الأمر يفصل
الآيات﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر،
أي : قد استوى الله العظيم على سرير
الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي
والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني
ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين،
ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل
العشرات، ويفرج الكربات، وينفذ

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المر
تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك
من ربك الحق ولكن أكثر الناس
لا يؤمنون﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن
هو آيات الكتاب الدالة على كل ما
يحتاج إليه العباد من أصول الدين
وقروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول
من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره
صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة
بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل
عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم
بالحق، الذي يوجب لهم علمهم،
العمل بما أحب الله .

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾
بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه
وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً،
فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به،
لعدم السبب الموجب للانتفاع .

﴿٢﴾ ﴿الله الذي رفع
السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى
على العرش وسخر الشمس والقمر كل



قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من العجائب، فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على الذين كفروا برهيم ﴿٦﴾ ووجدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها، ﴿وأولئك الأغلال﴾ المانعة لهم من الهدى ﴿في أعناقهم﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت قلوبهم وأفندتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها أبداً.

﴿٦﴾ ويستعجلونك بالسنة قبل الحسنة وقد خلقت من قبلهم الثلاث وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴿يغير تعالي عن جهل المكذبين لرسوله، الشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم [الله] الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اتنا بعذاب اليم﴾.

﴿٧﴾ الخال أنه ﴿قد خلقت من قبلهم الثلاث﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم، ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرهم^(١) وعصيانهم إليه صاعداً.

يعصونه فيدعوههم إلى بابه، ويجرمون، فلا يجرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب التوابين، ويجب المتطهرين وإن لم يتوبوا فهو ظيبيهم، يبتليهم بالمصائب،

الأشجار ﴿من أعناب وزرع ونخيل﴾ وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صنوان﴾ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وغير صنوان﴾ بأن كان كل شجرة على حدتها، والجمع يسقى بماء واحد ﴿وأرضه واحدة﴾ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴿لونا، وطعماً، ونعماً، ولذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلاً والعشب الكثير، والأشجار والزرع، وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلاً، وهذه تنبت الزرع والأشجار، ولا تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهي، وأما أهل الأعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿٥﴾ ﴿وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا برهيم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يحتمل أن معنى قوله ﴿وإن تعجب﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحيده، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم ﴿إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً، أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق. فلما رأوا هذا محتسباً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه متمتع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من

﴿٧﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ تسقي الآدميين وبها تمهم وحرورهم، فأخرج بها من الأشجار والزرع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد.

﴿يقضي الليل النهار﴾ فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضا مأربهم من النوم، غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار.

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ على المطالب الإلهية ﴿للقوم يتفكرون﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته، أن جعل ﴿في الأرض قطع متجاورات وجنات﴾ فيها أنواع

(١) في ب: شركهم.

ليظهرهم من المعايب ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ إنه هو الغفور الرحيم .

﴿وان ربك لشديد العقاب﴾ على من لم يزل مصرأ على الذنوب ، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار ، فليحذر العباد من عقوباته بأهل الجرائم ، فإن أخذه ألم شديد .

﴿٧﴾ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ أي : ويقترح الكفار عليك من الآيات ، التي يعينونها ويقولون : ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ ويجعلون هذا القول منهم ، عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول ، والحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء ، والله هو الذي ينزل الآيات .

وقد أبده بالأدلة البينات التي لا تحفى على أولي الألباب ، وبها يتدي من قصده الحق ، وأما الكافر الذي - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات ، فهذا اقتراح منه باطل وكذب واقتراء^(١) .

فإنه لو جاءه أي : آية كانت لم يؤمن ولم ينقد ، لأنه لم يتمتع من الإيمان ، لعدم ما يدل على صحته ، وإنما ذلك لهوى نفسه ، واتباع شهوته ، ولكل قوم هاد﴾ أي : داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل واتباعهم ، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى .

﴿٨ - ١١﴾ ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ﴾ يخبر تعالى بعموم علمه ،

وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل شيء فقال : ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم ، ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي : تنقص مما فيها ، إما أن يهلك الحمل ، أو يتضائل أو يضمحل ، ﴿وما تزداد﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها ، ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه .

فإنه ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿المتعال﴾ على جميع خلقه ، بذاته وقدره وقهره . ﴿سواء منكم﴾ في علمه وسمعته ، وبصره .

﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل﴾ أي : مستقر بمكان خفي فيه ، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي : داخل سره في النهار ، والسرب هو ما يختفي فيه الإنسان ، إما جوف بيته ، أو غار ، أو مغارة ، أو نحو ذلك .

﴿١١﴾ ﴿له﴾ أي : للإنسان ﴿معقبات﴾ من الملائكة ، يتعاقبون في الليل والنهار .

﴿من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي : يحفظون بدنه وروحته من كل من يريد به بسوء ، ويحفظون عليه أعماله ، وهم ملازمون له دائماً ، فكما أن علم الله محيط به ، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد ، بحيث لا تحفى أحوالهم ولا أعمالهم ، ولا ينسى منها شيء ، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ بأن يتقلوا من الإيمان إلى الكفر ، ومن الطاعة إلى المعصية ، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها ، فيسلبهم الله عند ذلك إياها .

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية ، فانتقلوا إلى طاعة الله ، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة ، ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ أي : عذاباً



وشدة ، وأمرأ يكروهه ، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم .

﴿ف﴾ إنه ﴿لا مرد له﴾ ولا أحد يمنعهم منه ، ﴿وما لهم من دونه من والٍ﴾ يتولى أمورهم ، فيجلب لهم المحبوب ، ويدفع عنهم المكروه ، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله ، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين .

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال﴾ * ويستبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ يقول تعالى : ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي : يخاف منه الصواعق والهدم ، وأنواع الضرر ، على بعض الثمار ونحوها ، ويطمع في خيره ونفعه ، ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد .

﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ وهو الصوت ، الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد ، فهو خاضع لربه مسبح بحمده ، ﴿و﴾ تسبح ﴿الملائكة من خيفته﴾ أي : خشعاً لربهم ، خائفين من سطوته ، ﴿ويرسل الصواعق﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب ،

(١) كذا في ب ، وفي أ : واقتراء .

الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿يليلغ﴾
ببسط كفيه إلى الماء ﴿فاه﴾ فإنه
عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده
ويسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه،
فلا يصل إليه .

كذلك الكفار الذين يدعون معه
آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء ولا
ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم
حاجة، لأنهم فقراء، كما أن من
دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة
في الأرض ولا في السماء، وما لهم
فيهما من شرك، وما له منهم من
ظهير .

﴿وما دعاء الكافرين إلا في
ضلالٍ﴾ لبطلان ما يدعون من
دون الله، فطلت عباداتهم ودعاؤهم،
لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما
كان الله تعالى هو الملك الحق المبين،
كانت عبادته حقاً متصلة النفع لصاحبها
في الدنيا والآخرة .

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله
بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليلغ فاه من
أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر
محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به
محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما
يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى:

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا
عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا
يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم
الخطاط﴾ .

﴿١٥﴾ ﴿والله يسجد من في
السموات والأرض طوعاً وكرهاً

وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: جميع
ما احتوت عليه السموات والأرض
كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طوعاً
وكرهاً﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود
والخضوع اختياراً كالمؤمنين، والكره
لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله
وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وظلالهم
بالغدو والآصال﴾ أي: ويسجد له
ظلال المخلوقات أول النهار وآخره،
وسجود كل شيء بحسب حاله، كما
قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح
بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ .

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد



﴿فيصيب بها من يشاء﴾ من عبادة،
بحسب ما شاء وأراده ﴿وهو شديد
المحال﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا
يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه
شيء، ولا يفوته هارب .

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق
للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة
أرزاقهم، وهو الذي يدير الأمور،
وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف
منها، وتزعج العباد، وهو شديد
القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد
وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿١٤﴾ ﴿له دعوة الحق والذين
يدعون من دونه لا يستجيبون لهم
بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليلغ فاه

وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في
ضلالٍ﴾ أي: لله وحده ﴿دعوة الحق﴾
وهي: عبادته وحده لا شريك له،
وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له
تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف
له الدعاء، والخرف والرجاء، والحب،
والرغبة، والرغبة، والإنابة، لأن
ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره
باطلة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من
الأوثان والأنداد التي جعلوها
شركاء لله .

﴿لا يستجيبون لهم﴾ أي: لمن
يدعوا ويعبدها، بشيء قليل ولا
كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور
الآخرة، ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء﴾

لربها طوعاً وكرهاً، كان هو الإله حقاً،
المعبود المحمود حقاً، وإلا هية غيره
باطلة، ولهذا ذكر بطلتها وبرهن عليه
بقوله:

﴿١٦﴾ ﴿قل من رب السموات

والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه

أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا

ضرراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم

هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا

للله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق

عليهم قل الله خالق كل شيء وهو

الواحد القهار﴾ أي: قل لهؤلاء

المشركين به أوثاناً وأنداداً يجوبونها كما

يجوبون الله، ويبدلون لها أنواع التقربات

والعبادات: أفاتحت عقولكم حتى

اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم

بالعبادة، وليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً

ولا ضرراً﴾ وتكون ولاية من هو كامل

الأسماء والصفات، المالك للأحياء

والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير

والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله

وحده، وعبادة المشركين به، كما

لا يستوي الأعمى والبصير، وكما

لا تستوي الظلمات والنور .

فإن كان عندهم شك واشتباه،

وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا

كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم

هذا الاشتباه واللبس، بالبرهان الدال

على توحيد الإله بالوحدانية، فقل لهم:

﴿الله خالق كل شيء﴾ فإنه من المحال

أن يخلق شيء من الأشياء نفسه .

ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون

خالق، فتعين أن لها إلهاً خالقاً لا

شريك له في خلقه، لأنه الواحد

القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر

إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق

فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك

القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر

للوحد القهار، فالقهر والتوحيد

متلازمان، متعينان لله وحده، فتبين

بالدليل العقلي القاهر، أن ما يدعى من

دون الله ليس له شيء من خلق

المخلوقات، وبذلك كانت عبادته

باطلة .

عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صيرتم فنعم عقبي الدار ﴿١٧﴾ يقول تعالى : مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم : ﴿أقمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ ففهم ذلك وعمل به . ولا يعمل به ، فبينهما من الفرق ، كما بين السماء والأرض ، فحقيق بالبعد أن يتذكر ويتفكر ، أي الفريقتين أحسن حالاً وخيراً مآلاً ، فيؤثر طريقها ، ويسلك خلف فريقها ، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره .

﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي : أولو العقول الرزينة ، والآراء الكاملة ، الذين هم لب العالم ، وصفوة بني آدم ، فإن سألت عن وصفهم ، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله :

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهده إليهم ، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة ، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها ، والنصح فيها ، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾ أي : العهد الذي عاهدوا عليه الله ، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور ، التي يعقدها العباد . فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم ، إلا بأدائها كاملة ، وعدم نقضها وبخسها .

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله ، من الإيمان به ورسوله ، ومحبه ومحبة رسوله ، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ، ولطاعة رسوله .

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ، ببرهم بالقول والفعل ، وعدم عقوبتهم ، ويصلون الأقارب والأرحام ، بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا . ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والماليك ، بأداء حقهم كاملاً موفراً ، من الحقوق الدينية والدينية .

والسبب الذي يجعل العبد أصلاً ما أمر الله به أن يوصل ، خشية الله : وخوف يوم الحساب ، ولهذا قال : ﴿ويخشون ربهم﴾ أي : يخافونه ،

ثوابه ، وغير مستجيب ، فذكر عقابه فقال : ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي : انقادت قلوبهم للعلم والإيمان ، وجوارحهم للأمر والنهي ، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم ، فلهم ﴿الحسنى﴾ أي : الحالة الحسنة ، والثواب الحسن .

فلهم من الصفات أجلها ، ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والأجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال ، وبين لهم الحق ، لهم الحالة غير الحسنة ، ف ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من ذهب وفضة وغيرها ، ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، وأتى لهم ذلك !!؟

﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم ، وقالوا : ﴿يا ويلنا مال هذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مأواهم جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب ، من الجوع الشديد ، والعطش الوجيع ، والنار الحامية ، والزقوم ، والزمهرير ، والضريع ، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ، ﴿وبئس المهاد﴾ أي : المقر والمسكن مسكنهم .

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿أقمن يعلم أنما

أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعشى﴾ إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويديرون بالחסنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون

﴿١٧﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وما يؤقودون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زيد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله حياة القلوب والأرواح ، بالماء الذي أنزله حياة الأشباح ، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد ، بما في المطر من النفع العام الضروري ، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول ، فواید كبير يسع ماء كثيراً ، كقلب كبير يسع علماً كثيراً ، وواید صغير يأخذ ماء قليلاً ، كقلب صغير ، يسع علماً قليلاً ، وهكذا .

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها ، بالزبد الذي يعلو الماء ، ويعلو ما يوقد عليه النار من الخلية التي يراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدره له ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والخلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات ، لا يزال القلب يكرهها ، ويجاهدتها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره ، والرغبة فيه ، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ وقال هنا : ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال .

﴿١٨﴾ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل ، ذكر أن الناس على قسمين : مستجيب لربه ، فذكر

فيمتعهم خوفهم منه، ومن القدرم عليه يوم الحساب، أن يتجسروا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب.

﴿والذين صبروا﴾ على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعث منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يجس به العبد نفسه، طلباً لرضا ربه، ورجاءاً للقراب منه، والخطوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو المدحوح على الحقيقة.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم يتفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿أولئك﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لهم عقبى الدار﴾ فسرهما بقوله: ﴿جنت عدن﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبعون عنها جزواً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يدخلونها ومن صلح من آياتهم﴾ من

الذكور والإناث ﴿وأزواجهم﴾ أي: الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يثنونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بما صبرتم﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان العالية، ﴿نفعم عقبى الدار﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿٢٥﴾ ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم:

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً، ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

﴿٢٦﴾ ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة

الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وفرحوا﴾ أي: الكفار بالحياة الدنيا فرحاً، أوجب لهم أن يطمئنا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلاً طويلاً.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا يذكركم الله تطمئن القلوب ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم طوبى وحسن مآب﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله، يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراسها ولذاتها.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها، وحرى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد

للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه، فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً، ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها، ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾ أي: لهم حالة طيبة، ومرجع حسن.

وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿٣٠﴾ كذلك أرسلناك في أمة قد خلقت من قبلها أمة لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾ كذلك أرسلناك ﴿إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿قد خلقت

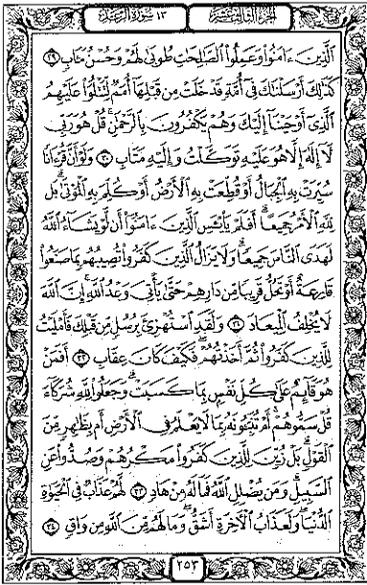
من قبلها أمة﴾ أرسلنا فيهم رسلنا، فلست بدع من الرسل حتى يستكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتركي النفوس.

والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمة وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا، وأنزلنا عليك كتابا - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم، ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ وهذا متضمن للتوحيد، توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أمورتي ﴿وإليه متاب﴾ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿٣١﴾ ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلف الموتى بل الله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾ يقول تعالى مبيّناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ولو أن قرآنا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سيرت به الجبال﴾ عن أماكنها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ جناً وأنهاراً ﴿أو كلف الموتى﴾ لكان هذا القرآن: ﴿بل الله الأمر جميعاً﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟

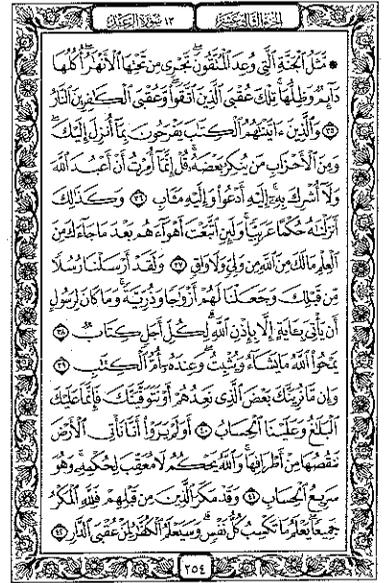
﴿٣٢﴾ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعاً، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ على كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم



القوارع التي تصيبهم في ديارهم، أو تحل قريبا منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه، ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿٣٣﴾ ﴿ولقد استهزئ به برسول من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ يقول تعالى لرسوله - مبيّناً له ومسلماً - ﴿ولقد استهزئ به برسول من قبلك﴾ فلست أول رسول كذب وأوذي ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ يرسلهم، أي: أهملتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين. ثم أخذتهم ﴿بأنواع العذاب﴾ فكيف كان عقاب ﴿كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك﴾

﴿٣٤﴾ ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم ينظرون من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله



من واق ﴿٣٥﴾ يقول تعالى: ﴿أنمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ بالجزء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟

ولهذا قال: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا يد ولا نظير، ﴿قل﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾ لتعلم حالهم، ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ اللهُ أن له شريكاً، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون، ولهذا قال: ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة، ولكن ﴿زين للذين كفروا مكرهم﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا

ولعذاب الآخرة أشق﴾ من عذاب الدنيا لشدة ودوامه، ﴿ومالهم من الله من واق﴾ بقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿٣٥﴾ ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ يقول تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أكلها دائم وظلها﴾ دائم أيضاً، ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين!!!

﴿٣٦﴾ ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: مئناً عليهم به وبمعرفة، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضاً، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين، ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه.

﴿فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله، ﴿قل﴾ إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أي: يا خلاص الدين الله وحده، ﴿إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

﴿٣٧﴾ ﴿وكذلك أنزلناه حكماً

عريباً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكماً عريباً، أي: حكماً متقناً، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - لمتن عليه بعضته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم﴾ الين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مالك من الله من ولي﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿ولا واق﴾ يقيق من الأمر المكروه.

﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾ ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك، ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ فلا يعينك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلا ي: شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟، وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، ﴿لكل أجل كتاب﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من الأقدار ﴿ويثبت﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله،

بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويبتاعها، ويجعل القوارع بأطرافها، تنبئها لهم قبل أن يحتاجهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يبرده أحد، ولهذا قال:

﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾
ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافق، ﴿وهو سريع الحساب﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ ويقول الذين كفروا لست برسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلمهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه ﴿فله المكر جميعاً﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرأ إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرأ يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأعماله.

﴿ويقول الذين كفروا لست برسلا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به، ﴿قل﴾ لهم - إن طلبوا

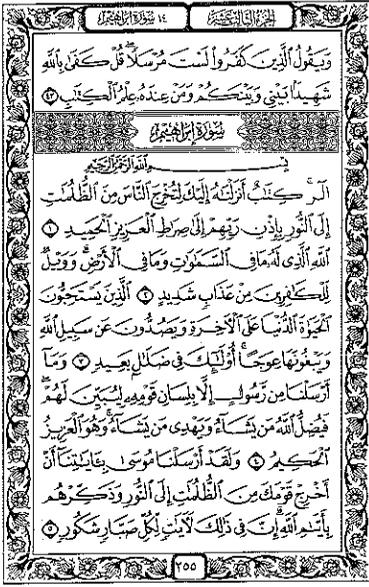
أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسباباً، ولمحوها أسباباً، لا تعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحوق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة. وجعل التعرض لذلك، سبباً للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ * أو لم يروا أننا تأتي الأرض تنقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابتها ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، ﴿إما نرينك﴾ إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك، ﴿أو نتوفينك﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وعلينا الحساب﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، بما عليهم، وضيعوه، وتشيهم أو نعاقيهم.

ثم قال متوعداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أننا تأتي الأرض تنقصها من أطرافها﴾ قيل بإهلاك الكاذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد



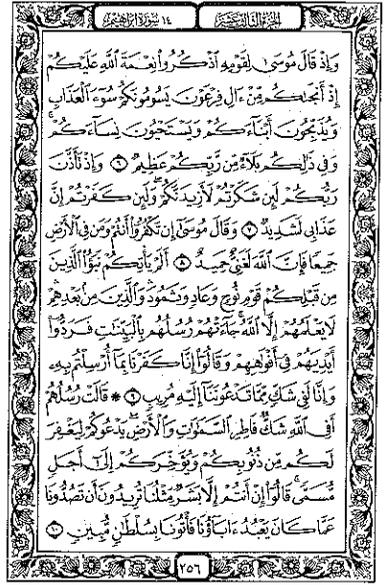
على ذلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما بثت به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصرأ خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن، واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فإخبار الله عنه أن عنده شهادة، أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر وإنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالألميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في



استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفةهم .
والله أعلم .

تم تفسير سورة الرعد ،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية

﴿١-٣﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد * يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بسراودة من الله ومعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الموصول إليه وإلى دار كرامته، المشتغل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر **العزير**

الحميد بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة .

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتدبيراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعد من لم يتقّد لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم **الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة** فرضوا بها وأطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة .

﴿وَيَصَّدُونَ﴾ الناس **عن سبيل الله** التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهو لا قد تابذوا مولا هم بالمعاداة والمحاربة، **ويغفونها** أي: سبيل الله **عوجاً** أي: يحرصون على تهجينها وتقيحها، للتفسير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم **في ضلال بعيد** لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربهما، فأبى: ضلال أبعد من هذا؟!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ومحسنوها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها .

﴿٤﴾ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** وهو العزيز الحكيم * وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولاً **إلا بلسان قومه**، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من

تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، وهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله **فبفضل الله من يشاء** من لم يتقّد للهدى، ويهدي من يشاء من اختصه برحمته .

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به .

ويستدل هذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها .

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيزهم، وصارت طبيعة لهم، فحيتض قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم .

﴿٥-٨﴾ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ آبَاءَكُمْ وَرَبَّكُمْ نَسَاءً كَمَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَذَكَّرْتُمْ بِرَبِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شِئْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * يَخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّهُ أَرْسَلَ مُوسَى بِآيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ وَصَحَّتْهُ، وَأَمْرَهُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، **أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه، **وذكرهم****

بأيام الله ﴿أي﴾: بنعمته عليهم، وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه، وليحذروا عقابه، ﴿إن في ذلك﴾ ﴿أي﴾: في أيام الله على العباد ﴿لآيات لكل صبار شكور﴾ ﴿أي﴾: صبار في الضراء والعسر والضييق، شكور على السراء والنعمة.

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتعام عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ ﴿أي﴾: بقلوبكم وألسنتكم. ﴿إذ أنجاهم من آل فرعون يسمونكم﴾ ﴿أي﴾: يولونكم ﴿سوء العذاب﴾ ﴿أي﴾: أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ ﴿أي﴾: يبقون فلا يقتلونهم، ﴿وفي ذلكم﴾ ﴿الإنجاء﴾ ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ ﴿أي﴾: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصيرون أم لا؟

وقال لهم حاثاً على شكر نعم الله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ ﴿أي﴾: أعلم ووعد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ من نعمي ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والشناء على الله بها، وصرافها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ فلن تضروا الله شيئاً، ﴿فإن الله لغني حميد﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

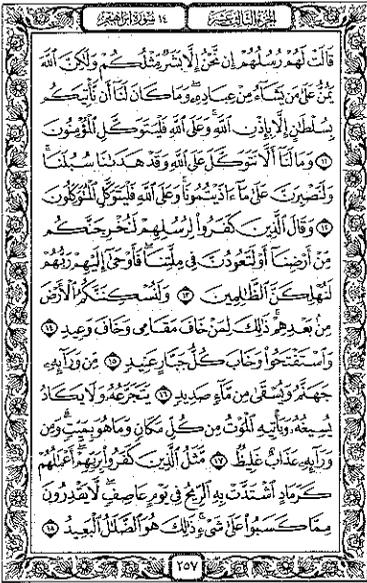
﴿٩٦-١٢﴾ ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في

أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتنونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن أتاكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ يقول تعالى مخوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها، ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ ﴿أي﴾: بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم يتقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾ ﴿أي﴾: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾.

﴿وقالوا﴾ صريحاً لرسلهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ ﴿أي﴾: موقع في الرية، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قالت لهم﴾ ﴿رسلهم﴾ أفي الله شك ﴿أي﴾: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور



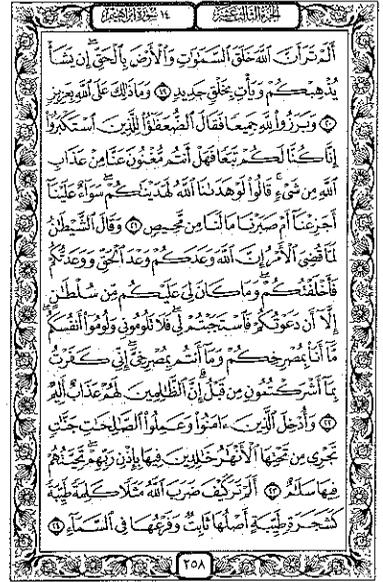
المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه ﴿يدعوكم﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ ﴿أي﴾: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والأجل، فلم يدعكم ليتنفع بعبادتكم، بل التفع عائد إليكم.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿وقالوا﴾ لهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ ﴿أي﴾: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة، ﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾ فكيف نترك رأي: الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثنا؟

﴿فاتنونا بسلطان مبين﴾ ﴿أي﴾: بحجة وبينه ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قالت لهم رسلهم﴾ ﴿مبشرين عن اقتراحهم واعتراضهم﴾: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ ﴿أي﴾: صحيح وحقيقة، أننا بشر مثلكم، ﴿ولكن﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿الله﴾ يمن على من يشاء من عباده ﴿فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه



ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾ متوعدين لهم - ﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمتنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمرءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه، ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ بأنواع العقوبات.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء ﴿لمن خاف مقامى﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيدى﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿واستفتحوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فانه حلیم

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسولهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري فأجمعوا شركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقبضوا إلي ولا تنظرون﴾ الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيّدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾.

﴿ولنصبرن على ما آذيتونا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وعلى الله﴾ وحده لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿١٣ - ١٧﴾ ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ ولسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدى * واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد * من ورثه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورثه عذاب غليظ * لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على

ولا يجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فأئونا بسلطان مبين﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويشقون به في تسير ذلك، ويحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يجها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾.

أي: شيء يمتنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هذه لا يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل

لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، **﴿وخاب كل جبار عنيد﴾** أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل وشاقهم.

﴿من ورائه جهنم﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها، فيذاق حيثذ العذاب الشديد، **﴿ويسقى من ماء صديد﴾** في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿يتجرعه﴾ من العطش الشديد **﴿ولا يكاد يسقغه﴾** فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء، **﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾** أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى: **﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها كذلك تجزي كل كفور﴾** وهم يصطرون فيها.

﴿ومن ورائه﴾ أي: الجبار العنيد **﴿عذاب غليظ﴾** أي: قوي شديد، لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿١٨﴾ **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء﴾** ذلك هو الضلال البعيد، يجبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار **﴿لا يقدرون مما كسبوا على شيء﴾** ولا على مثقال ذرة منه، لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ حيث بطل سعيهم، واضمححل عملهم، وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم

يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

﴿١٩ - ٢١﴾ **﴿لم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾** * وما ذلك على الله بعزيز * **﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تيعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾** قالوا لو هदानا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص **﴿ينبه تعالى عباده بأنه «خلق السماوات والأرض بالحق﴾** أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما على ماله من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال: **﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾**

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفتنكم ثم يعيدهم بالبعث خلقاً جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جداً، **﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾** وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.

﴿وبرزوا﴾ أي: الخلائق **﴿لله جميعاً﴾** حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم، فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً، ويرزون له لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أتى لهم ذلك؟

فيقول **﴿الضعفاء﴾** أي: التابعون



والمقلدون **﴿للذين استكبروا﴾** وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: **﴿إنا كنا لكم تيعاً﴾** أي: في الدنيا، أمرتونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، **﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾** أي: ولو مثقال ذرة، **﴿قالوا﴾** أي: المتبوعون والرؤساء **﴿أغويناكم كما غوينا﴾** و **﴿لو هदानا الله لهديناكم﴾** فلا يعني أحد أحداً، **﴿سواء علينا أجزعنا﴾** من العذاب **﴿أم صبرنا﴾** عليه، **﴿ما لنا من محيص﴾** أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ **﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾** * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحببتهم فيها سلام **﴿أي﴾** **﴿وقال الشيطان﴾** الذي هو سبب لكل شريع وقع في العالم، مخاطباً لأهل النار ومتبرئاً منهم **﴿لما قضي الأمر﴾** ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. **﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾** على السنة رسله، فلم تطيعوه، فلو أظعتموه



لأدركنم الفوز العظيم ﴿١٦﴾ ووعدتكم

الخير ﴿١٧﴾ فأخلفتكم ﴿١٨﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة.

﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾

أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ أي: هذا نهاية

ما عندي، أي دعوتكم إلى مرادي

وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعاً

لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت

الحال بهذه الصورة ﴿فلا تلموني

ولوموا أنفسكم﴾ فأنتم السبب،

وعليكم المدار في موجب العقاب،

﴿ما أنا بمصرحكم﴾ أي: بمغيبكم من

الشدّة التي أنتم بها ﴿وما أنتم

بمصرخي﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إني كفرت بما أشركتمون من

قبل﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي

شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله،

ولا تجب طاعتي، ﴿إن الظالمين

لأنفسهم بطاعة الشيطان﴾ لهم عذاب

أليم ﴿خالدين فيه أبداً.

وهذا من لطف الله بعباده، أن

حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر

بمداخله التي يدخل منها على الإنسان

ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله

النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار

وحزبه ^(١)، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة،

ويكفر بشركهم ﴿ولا ينبتك مثل

خبير﴾.

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه

ليس له سلطان، وقال في آية أخرى

﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه،

والذين هم به مشركون﴾ فالسلطان

الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة

والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما

يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم

لهم من الشبه والتزيينات ما به

يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبتته، فهو

التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه

يؤزّهم إلى المعاصي آراً، وهم الذين

سلطوه على أنفسهم بمواليته والاتحاق

بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على

الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب

الطائعين فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا

وعملوا الصالحات﴾ أي: قاموا

بالدين، قولاً، وعملاً، واعتقاداً،

﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها

من اللذات والشهوات، ما لا عين

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر، ﴿خالدين فيها بإذن ربهم﴾

أي: لا يحولهم وقوتهم بل يحول الله

وقوته ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي: يحيي

بعضهم بعضاً بالسلام، والتحية،

والكلام الطيب.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿لم تسر كيف

ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة

أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿تؤتي

أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله

الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴿ومثل

كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قرار﴾ يقول

تعالى: ﴿لم تر كيف ضرب الله مثلاً

كلمة طيبة﴾ وهي شهادة أن لا إله

إلا الله، وفروعها، ﴿كشجرة طيبة﴾

وهي النخلة ﴿أصلها ثابت﴾ في

الأرض ﴿وفرعها﴾ منتشر ﴿في

السماء﴾ وهي كثيرة النفع دائماً،

﴿تؤتي أكلها﴾ أي: ثمرتها ﴿كل حين

بإذن ربها﴾ فكذلك شجرة الإيمان،

أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً

واعتقاداً. وفرعها من الإكلم الطيب،

والعمل الصالح، والأخلاق المرضية،

والآداب الحسنة، في السماء دائماً،

يصعد إلى الله منه من الأعمال

والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان،

ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره،

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه،

فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني

المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين

المعنى الذي أراد الله غاية البيان،

ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته

وحسن تعليمه. فله أتم الحمد وأكمله

وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد

وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر

وفروعها، فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة

كشجرة خبيثة﴾ المأكلة والمطعم،

وهي: شجرة الحنظل ونحوها،

﴿اجتثت﴾ هذه الشجرة ﴿من فوق

الأرض ما لها من قرار﴾ أي: من

ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة

صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها

ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة

الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع

في القلب، ولا تثمر إلا كل قول

خبيث وعمل خبيث، يستضر به

صاحبه ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله

منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه ولا

ينتفع به غيره.

﴿٢٧﴾ ﴿يثبت الله الذين آمنوا

بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي

الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله

ما يشاء﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده

المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم

من إيمان القلب التام، الذي يستلزم

أعمال الجوارح ويشمرها، فيثبتهم الله

في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات

بالحياة الدنيا، وعند عروض

الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم

ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

(١) في ب: وجنده.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، وعمد نبيي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وغذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونيعم القبر وعذابه.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين بذلوا نعمة الله كفوفاً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صددهم غيرهم حتى ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جهنم يصلونها﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبئس القرار﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوههم إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً:

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿٣١﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سراً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا هبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يعنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ يخبر تعالى: أنه وحده ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ على اتساعهما وعظمتها، ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر﴾ بأمره ﴿فهو الذي يسر لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعكم إلى بلد تقصدونه.

﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها. ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفتران، ولا يبان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمجتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله.

﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجربى على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، يحمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، وبخشهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، أثناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلداً آمناً﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: ﴿رب اجعل هذا البلداً﴾ أي: الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القبل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿واجبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإلام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة ما افتتن وابتلي بعبادتها، فقال:

تعالى إلى نفسه المقدسة .

القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴿والظلم - هاهنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد الله، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأحوال وما أزعجها من القلاقل .

﴿مهطمين﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا عيص ولا ملجأ، ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي: رافعيها قد غلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد سعدت إلى الخناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق .

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وأُنذِر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبّع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منته الخصال﴾ يقول تعالى لنيبيه محمد ﷺ: ﴿وأُنذِر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلقله، ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ أي: رُدنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا، ﴿نجب دعوتك﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وتبّع الرسل﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذّبة في هذا الوعد ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ .

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فهذا قد تبين حثّكم في إفسانكم،

﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجيب إلى ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب .

﴿٣٨﴾ ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك، ﴿وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين .

﴿٣٩﴾ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين، أجل وأفضل، ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي: لقريب الإجابة عن دعاه، وقد دعوته، فلم يجيب رجائي، ثم دعا نفسه ولذريته، فقال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾ ربنا اعقرني ولو ألدني وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ فاستجاب الله له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعده وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه .

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿ثم قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ هذا وعيد شديد للظالمين، وتسليّة للمظلومين، يقول تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُملي للظالم ويمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ

﴿٣٦﴾ ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ أي: ضلوا بسببها، ﴿فمن تبعتني﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فإنه مني﴾ لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم التحق بهم .

﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه .

﴿٣٧﴾ ﴿ربنا إنني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وبانها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا دأع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال - متضرعاً متوكلاً على ربه: ﴿ربنا إنني أسكنت من ذريتي﴾ أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بواد غير ذي زرع﴾ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة .

﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ أي: تحبهم وتحب الموضوع الذي هم ساكنون فيه .

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة .

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيماً جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقّفه، وهذا سرّ إضافته

وكذبكم فيما تدعون، ﴿و﴾ ليس عليكم قاصرٌ في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضرينا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

﴿وقدم مكروا﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿مكروهم﴾ الذي وصلت إرادتهم، وقدر لهم عليه، ﴿وعند الله مكروهم﴾ أي: هو محيط به علماً وقدرة، فإنه عاد مكروهم عليهم ﴿ولا يحق المكر السيء إلا بأهله﴾.

﴿وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق، وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿مكروا مكرأ كُباراً﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسول، لينصر باطلا، أو يطل حقا، والقصد أن مكروهم لم يغن عنهم شيئا، ولم يضروا الله شيئا، وإنما ضرروا أنفسهم.

﴿٤٧ - ٥٢﴾ ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ويرزوا الله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد * سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴿يقول تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في

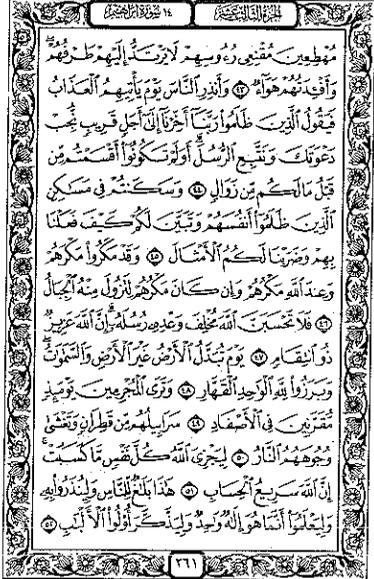
الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولا، على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنة الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه ﴿عزيز ذو انتقام﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة، ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ تبدل غير السموات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتعد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافياً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

﴿ويرزوا﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿الله الواحد القهار﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿وترى المجرمين﴾ أي: الذين وصفهم الإجرام، وكثرة الذنوب، في ذلك اليوم ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿سرايلهم﴾ أي: نياهم ﴿من قطران﴾ وذلك لثقة اشتعال النار فيهم وحرارتها، وبتن ريحها، ﴿وتغشى وجوههم﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿النار﴾ أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظلماً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ من



خير وشر بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إن الله سريع الحساب﴾ كقوله تعالى: ﴿أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:

﴿هذا بلاغ للناس﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿ولينذروا به﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿ولينعلموا أنما هو إله واحد﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحديته، ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وأراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غصاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى

﴿وما كانوا إذا﴾ أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ ﴿منظرين﴾ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾ ويكفهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر، ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه، إلا وقبض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدواً يبتاعهم.

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون * كذلك نسلكه في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين * يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ أي: فرقهم وجماعتهم، رسلاً.

﴿وما يأتيهم من رسول﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾ ﴿كذلك نسلكه﴾ أي: ندخل التكذيب ﴿في قلوب المجرمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبتهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم

بتمنون أنهم مسلمون، أي: متقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة، ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

فـ ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ بلذاتهم ﴿ويلههم الأمل﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا، فيلههم عن الآخرة، ﴿فسوف يعلمون﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراً عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى، فإن هذه سنته في الأمم.

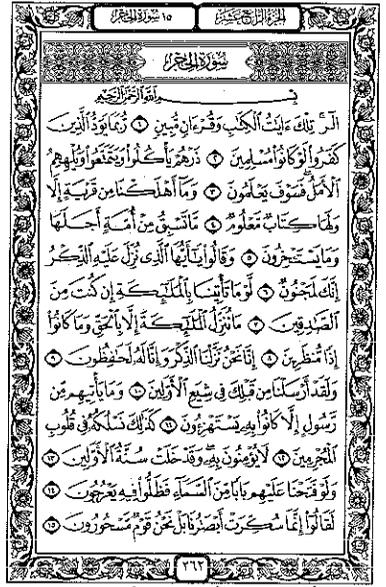
﴿وما أهلكنا من قرية﴾ كانت مستحقة للعذاب ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾ مقدر لإهلاكها.

﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ وإلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها، وإن تأخر.

﴿٦ - ٩﴾ ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ على زعمك، ﴿إنك لمجنون﴾ إذ نظن أنا سنتبعك، ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿لوما تأتينا بالملائكة﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل.

أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يجترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة، الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرته، فليس في إنزال الملائكة خسر لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقده له.



الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرج بها العبد الذكي، لم يزل في صعود ورفق على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

تفسير سورة الحجر وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يؤذون الذين كفروا أو يسئرون * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا أو يلهيهم الأمل فسوف يعلمون * وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * يقول تعالى معظماً لكتابه، مادحاً له: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب، ﴿وقرآن مبين﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه وتلقية بالقبول والفرح والسرور.

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت

﴿إلا من استرق السمع﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ أي: بين منير، يقتله أو يجيله.

فرمما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فيقطع خير السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها ويكذب معها مئة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿والأرض مددناها﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الأدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائتها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿والقينا فيها رواسي﴾ أي: جبالات عظاماً، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول ﴿وأثبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ من الحرت، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف. ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام، لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿٢١﴾ ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة، ﴿وما ننزله﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره، ﴿إلا بقدر معلوم﴾ فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ أي: وسخرنا

لأنبيائهم ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة، لم يؤمنوا وكابروا ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عياناً بأنفسهم، لقالوا من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة، حتى رأينا ما لم نر، ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطعم فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿١٦ - ٢٠﴾ ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾ وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأثبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين﴾ يقول تعالى - مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه -: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يتهدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وزيناها للناظرين﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيثة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ إذا استرق السمع، أتبعته الشهاب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروساً ممنوعاً من الآفات.



الرياح، رباح الرحمة تلقح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه ينابيع في الأرض، رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾ ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾ أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من عدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ويميتهم لأجالهم التي قدرها ﴿ونحن الوارثون﴾ كقوله: ﴿إننا نحن ربنا نحن ربنا﴾ ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ وليس ذلك بعزیز ولا ممتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المتقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً ويحشرهم إليه.

﴿إنه حكيم﴾ يضع الأشياء



مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢٦ - ٤٤﴾ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * وهذه أول عداوته لأدم وذريته، قال الله: ﴿يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لأدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿قال﴾ الله معاقباً له على كفره واستكباره ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي: مطرود معد من كل خير، ﴿وان عليك اللعنة﴾ أي: الذم والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾ ففيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿قال رب فانظرنى﴾ أي: أمهني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم * وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما

إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ أي: آدم عليه السلام ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ أي: من طين قد يبس، بعدما خر، حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه ويرجبه من طول مكثه.

﴿والجان﴾ وهو: أبو الجن أي: إبليس ﴿خلقناه من قبل﴾ خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة:

﴿إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته﴾ جسداً تاماً ﴿ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فامتثلوا أمر ربه.

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله، وإكراماً لأدم حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ وهذه أول عداوته لأدم وذريته، قال الله: ﴿يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لأدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿قال﴾ الله معاقباً له على كفره واستكباره ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي: مطرود معد من كل خير، ﴿وان عليك اللعنة﴾ أي: الذم والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾ ففيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿قال رب فانظرنى﴾ أي: أمهني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم * وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما

ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد، لبتين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه من ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريد منا.

﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض﴾ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إشارها على الأخرى، حتى يكونوا متقادين لكل معصية.

﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي: أضدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي: الذين أخلصتهم واجتبتهم، لإخلاصهم، وإيمانهم، وتوكلهم.

قال الله تعالى: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾ أي: معتدل موصل إلى، وإلى دار كرامتي.

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ تيميل به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربه وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿إلا من أتبعك﴾ فرضى بولايتك وطاعتك، بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾ والغاوي: ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال: الذي تركه من غير علم منه به.

﴿وان جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي: إبليس وجنوده، ﴿لها سبعة أبواب﴾ كل باب أسفل من الآخر، ﴿لكل باب منهم﴾ أي: من أتباع إبليس ﴿جزء مقسوم﴾ بحسب أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فككبوا فيها هم والغاؤون، وجنود إبليس أجمعون﴾.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم فقال:

﴿٤٥ - ٥٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ ادخلوها يسلا مآتين * وترزنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين * لا يمتسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين * نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن

عذابي هو العذاب الأليم ﴿ يقول تعالى : ﴿إنّ التّقين﴾ الذين اتّقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿في جنات وعميون﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات .

ويقال لهم حال دخولها : ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ من الموت، والنوم والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من النعيم، الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم، وسائر المكدرات، ﴿وتزغنا ما في صدورهم من غل﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل دغل (١) وحسد، متصافية متحابة ﴿إخواناً على سررٍ متقابلين﴾ .

دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أديهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكتئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر .

﴿لا يمسه فيها نصب﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات، ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ على سائر الأوقات .

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال : ﴿نبيء عبادي﴾ أي : أخيرهم خيراً جازماً مؤيداً بالأدلة، ﴿أني أنا الغفور الرحيم﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحته ومغفرته، سعوا في الأسباب (٢) الموصلة لهم إلى رحته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته .

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادي بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنتيهم ﴿أن عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي : لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لا يعذب عذابه أحد﴾ ولا يوثق وثاقه أحدٌ حذروا، وأبعدوا

عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرغبة والإقلاع عنها .

﴿٥١ - ٥٦﴾ ﴿ونبتهم عن ضيف إبراهيم﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴿قالوا لا توصل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ قال أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانتين﴾ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴿يقول تعالى لنبيه عمداً ﴿ونبتهم عن ضيف إبراهيم﴾ أي : عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصك عليهم أبناء الرسل وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيئه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه .

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾ أي : سلموا عليه، فرد عليهم ﴿قال : إنا منكم وجلون﴾ أي : خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفاً، ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم، عجلًا حينئذٍ فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم . ف ﴿قالوا﴾ له : ﴿لا توصل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ وهو : إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة، بأنه ذكر لا أنثى، عليم، أي : كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ .

فقال لهم متعجباً من هذه البشارة : ﴿أبشروني﴾ بالولد ﴿على أن مسني الكبر﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فبم تبشرون﴾ أي : على أي : وجه تبشرون

(٢) في ب : بالأسباب .

(١) في ب : غل .

إذ سمعوا عليه ﴿فقالوا سلاماً﴾ قال إنا منكم وجلون ﴿قالوا لا توصل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ قال أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانتين﴾ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴿يقول تعالى لنبيه عمداً ﴿ونبتهم عن ضيف إبراهيم﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴿قالوا لا توصل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ قال أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانتين﴾ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴿يقول تعالى لنبيه عمداً ﴿ونبتهم عن ضيف إبراهيم﴾ أي : عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصك عليهم أبناء الرسل وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيئه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه .

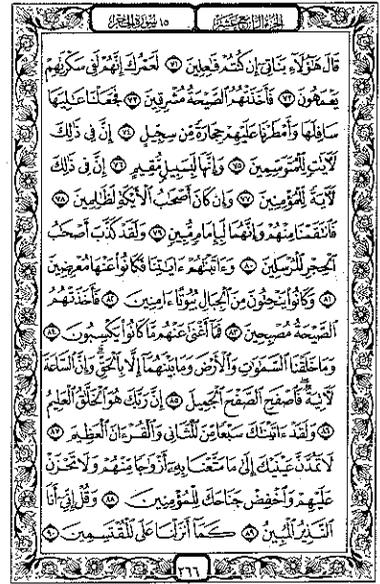
وقد عدت الأسباب ؟

﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ الذي لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم .

﴿فلا تكن من القانتين﴾ الذين يستعبدون وجود الخير، بل لا تزل راجياً لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله :

﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً، ثم لما بشره هذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر فهم .

﴿٥٧ - ٧٧﴾ ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴿إلا آل لوط إنا لمنجولهم أجمعين﴾ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الفابرين ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ قال إنكم قوم منكرون ﴿قالوا بل جئتكم بما كنتم تفرحون﴾ فأسر بأهلكم بالحق وإنا لصادقون ﴿فأسر بأهلكم بالحق من الليل وأتبع أديارهم



لهم لوط ﴿إنكم قوم منكرون﴾ أي :
لا أعرفكم ولا أدري من أنتم .

﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه
يتمرون﴾ أي : جئناك بعدابهم الذي
كانوا يشكون فيه ، ويكذبونك حين
تعددهم به ، ﴿وأنتيناك بالحق﴾ الذي
ليس بالهزل ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما قلنا
لك .

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾
أي : في أثناءه حين تنام العيون ، ولا
يدري أحد عن مسراك ، ﴿ولا يلتفت
منكم أحد﴾ أي : بل بادروا وأسرعوا ،
﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأن معهم
دليلاً يدلهم إلى أين يتوجهون ﴿وقضينا
إليه ذلك﴾ أي : أخبرناه خيراً لا مثوية
فيه ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾

أي : سيصبحهم العذاب الذي يحتاجهم
ويستأصلهم ، ﴿وجاء أهل المدينة﴾
أي : المدينة التي فيها لوط
﴿يستبشرون﴾ أي : يبشر بعضهم
بعضاً ، بأضياف لوط وصباحة
وجوههم واقتدارهم عليهم ، وذلك
لقصدهم فعل الفاحشة فيهم ، فجاؤوا
حتى وصلوا إلى بيت لوط ، فجعلوا
يعالجون لوطاً على أضيافه ، ولوط
يستعيذ منهم ويقول :

﴿إن هؤلاء ضيغي فلا تفضحون
واقفوا الله ولا تخزون﴾ أي : راقبوا الله
أول ذلك ، وإن كان ليس فيكم خوف
من الله ، فلا تفضحون في أضيافي ،
وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع .

ف ﴿قالوا﴾ له جواباً عن قوله ولا
تخزون فقط : ﴿أو لم ننهك عن
العالمين﴾ أن تضيفهم ، فنحن قد
أنذرتناك ، ومن أنذر فقد أعذر ،
ف ﴿قال﴾ لهم لوط من شدة الأمر
الذي أصابه : ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم
فاعلين﴾ فلم يبالوا بقوله ، ولهذا
قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿لعمرك
إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ وهذه
السكره ، هي سكره حبة الفاحشة التي
لا يبالون معها بعذل ولا لوم .

فلما بينت له الرسل حالهم ، زال
عن لوط ما كان يجده من الضيق

والكرب ، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله
ليلاً فنجوا ، وأما أهل القرية ﴿فأخذتهم
الصيحة مشرقين﴾ أي : وقت شروق
الشمس ، حين كانت العقوبة عليهم
أشد ، ﴿فجعلنا عليها سافلها﴾ أي :
قلبنا عليهم مدينتهم ، ﴿وأمطرنا عليهم
حجارة من سجيل﴾ تتبع فيها من شد
من البلد منهم .

﴿إن في ذلك لآية للمتوسمين﴾
أي : المتأملين المتفكرين ، الذين لهم
فكر وروية وفراصة ، يفهمون بها ما
أريد بذلك ، من أن من تجرأ على
معاصي الله ، خصوصاً هذه الفاحشة
العظيمة ، وأن الله سيعاقبهم بأشنع
العقوبات ، كما تجرؤوا على أشنع
السيئات .

﴿وإنها﴾ أي : مدينة قوم لوط
﴿لبسبيل مقيم﴾ للسالكين ، يعرفه كل
من تردد في تلك الديار ﴿إن في ذلك
لاية للمؤمنين﴾ وفي هذه القصة من
العر : عنائه تعالى بخليبه إبراهيم ، فإن
لوطاً عليه السلام من أتباعه ، ومن آمن
به فكأنه تلميذه ، فحين أراد الله
إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك ،
أمر رسله أن يمرؤا على إبراهيم عليه
السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما
بعثوا له ، حتى إنه جادلهم عليه السلام
في إهلاكهم ، حتى أقنعوه ، فطابت
نفسه .

وكذلك لوط عليه السلام ، لما كانوا
أهل وطنه ، فربما أخذته الرقة عليهم
والرأفة بهم ، قدر الله من الأسباب ما
به يشتد غيظه وحنقه عليهم ، حتى
استبسطاً إهلاكهم لما قيل له : ﴿إن
موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾
ومنها : أن الله تغلل إذا أراد أن يهلك
قرية ، [ازداد] شرهم وطفغياهم ، فإذا
انتهى ، أوقع بهم من العقوبات ما
يستحقونه .

﴿٧٨ - ٧٩﴾ ﴿وإن كان أصحاب
الأيكة لظالمين﴾ فانتقمنا منهم وإنما
ليؤامم ميين﴾ وهؤلاء هم قوم شعيب ،
نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة ، وهو
البيستان كثير الأشجار ، ليذكر نعمته
عليهم ، وأنهم ما قاموا بها ، بل جاءهم

ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث
تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن
دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء
أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء
ضيغي فلا تفضحون * واقفوا الله ولا
تخزون * قالوا أولم ننهك عن
العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم
فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم
يعمهون * فأخذتهم الصيحة
مشرقين * فجعلنا عليها سافلها
وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل *
إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنما
لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية
للمؤمنين * أي : ﴿قال﴾ الخليل عليه
السلام للملائكة : ﴿فما خطبكم أيها
المرسلون﴾ أي : ما شأنكم ، ولأي :
شيء أرسلتم؟

﴿قالوا إننا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾
أي : كثر فسادهم ، وعظم شرهم ،
لنعذبهم ونعاقبهم ، ﴿إلا آل لوط﴾
أي : إلا لوطاً ، وأهله ﴿إلا امرأته قدرنا
إنها لمن الغابرين﴾ أي : الباقيين
بالعذاب ، وأما لوط فسنخرجنه
وأهله ، ونتجنيهم منها ، فجعل إبراهيم
يبادل الرسل في إهلاكهم ،
ويراجعهم ، فقيل له : ﴿يا إبراهيم
أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك
وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ فذهبوا
منه .

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال﴾

مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن أمر الله إذا جاء، لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

﴿٨٥-٨٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ * إن ربك هو الخلاق العظيم ﴿أَي: مَا خَلَقْتَاهُمَا عَشَاءً وَبِاطِلًا كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ أَعْدَاءُ اللَّهِ، بَلْ مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي منه، أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هوأت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو: أن المأمور به هو الصفح الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكل مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجري عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿٨٧-٩٣﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك

نبههم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكابيل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، ﴿فَانتقمنا منهم﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وإنهما﴾ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿ليامام مبين﴾ أي: لطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فبين من آثارهم ما هو مشاهد بالابصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

﴿٨٠-٨٤﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به، ﴿وآتيناهم آياتنا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جعلتها تلك الناقة، التي هي من آيات الله العظيمة..

﴿فكانوا عنها معرضين﴾ كبراً وتجبراً على الله، ﴿وكانوا﴾ من كثرة إتمام الله عليهم ﴿ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ من المخاوف، مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبههم صالحاً عليه السلام، لأدّر الله عليهم الأرزاق، ولاكرهمم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم - لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿يا صالح اتتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾.

﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى،



لنسانتهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى مُتَمَثِّلاً على رسوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾ * وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة» و «الأعراف» و «الأَنْفَالُ» مع «التوبة». أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف «القرآن العظيم» على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في الثاني من التوحيد، وعُلوم الغيب، والأحكام الجلية، وتنتيتها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع الثاني، معناها: أنها سبع آيات، تنبئ في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع الثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ ولذلك قال بعده:

﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ * أي: لا تعجب إعجاباً يملكك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من الثاني والقرآن العظيم، ﴿ولا تحزن عليهم﴾ فإنهم لا خير فيهم يُرَجَى، ولا نفع يُرْتَقَب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن

الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴿١﴾ يقول تعالى - مقرباً لما وعد به عتقاً لوقوعه - : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ فإنه أت، وما هوأت فإنه قريب، ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ من نسبة الشريك والولد والصاحبة، والكفء، وغير ذلك مما نسب إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزل على أنبيائه، مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿على من يشاء من عباده﴾ ممن يعلمه صالحاً، لتحمل رسالته.

وزيدة دعوة المسلمين كلهم ومدارها على قوله: ﴿أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك. فقال:

﴿٣-٩﴾ ﴿خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾ * خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في

ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله، ويعلمن بذلك لكل أحد ولا يعوقته عن أمره عائق ولا تصده أقوال المتوكلين، ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي: لا تبال بهم، واترك مشاغلهم ومسابتهم، مقبلاً على شأنك، ﴿إننا كفيناك المستهزين﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضاً يؤذون الله ويعملون معه ﴿إلهاً آخر﴾ وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم ﴿فسوف يعلمون﴾ غيب أفعالهم إذا وردوا القيامة، ﴿ولقد تعلم أنك بضيق صدرك بما يقولون﴾ لك من الكذب والاستهزاء.

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

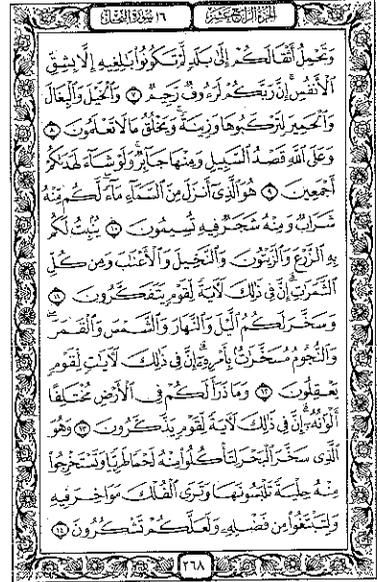
فأنت يا محمد ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ أي: أكثر من ذكر الله وتسيحه وتحميده والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائماً في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل وهي مكية

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ ينزل



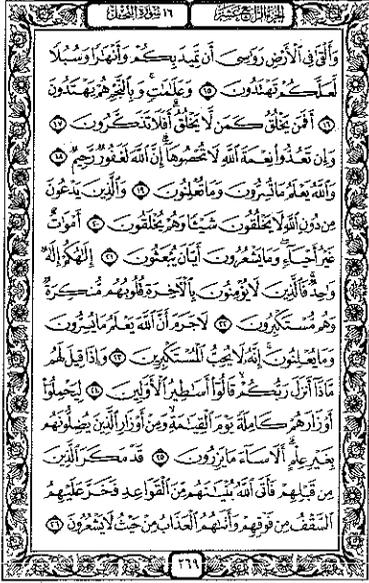
البدل، وأفضل العوض، ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي: ألن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وإكراماً، وتودداً، ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو، والصدق، فإنك إذا فعلت ذلك، فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يتوون، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مُفترى، إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قديحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ أي: جميع من قلد فيه وعابه، وحرفه وبدله ﴿عما كانوا يعملون﴾ وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١). ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم

(١) في ب: يعملون.



وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأمواتكم، وتعجبون بذلك، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، ولكن الله ذلّلها لكم.

فمنها ما تركيبه، ومنها ما تحمّلون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، ﴿إِنْ رَيْبُكُمْ لِرُؤُوفِ رَحِيمٍ﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ سخرناها لكم لتركبوها وزيتة، أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل، خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير، فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾.

أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: ﴿تعالى عما يشركون﴾ أي: تنزهه وتعاضم عن شركهم، فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة، والحب والذل لإله تعالى، ولما ذكر خلق السماوات والأرض^(١)، ذكر خلق ما فيهما.

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾ لم يزل يدبرها، ويرقيها وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به، من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الأدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فيها دفاء﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿ولكم فيها﴾ منافع غير ذلك ﴿ومنها تأكلون﴾ ﴿ولكم فيها جبال حزين تريحون وحين تسرحون﴾ أي: في

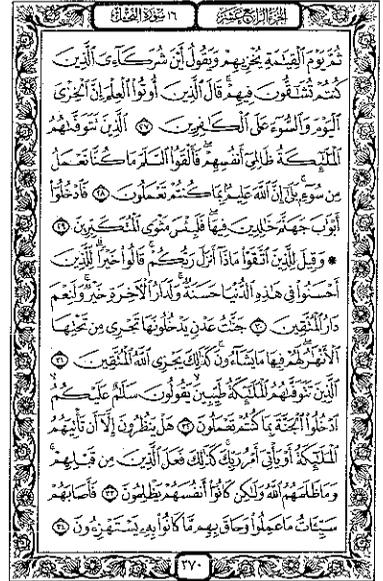
فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل، والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعون به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولكنه هدى بعضاً كرماً وفضلاً، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون﴾ بنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، ﴿بذلك على كمال قدرة الله، الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، وروحته حيث جعل فيه ماء

(١) زيادة يقتضيه السياق.



وتضطرب بالخلق، فيتمكون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحرثهم، وأنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، **﴿لعلكم تهتدون﴾** السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿١٧ - ٢٣﴾ **﴿أفمن يخلق﴾** لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أتيان يبعثون * إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين * لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العظيمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفاء له ولا ند له، فقال:

﴿أفمن يخلق﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد **﴿كمن لا يخلق﴾** شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، **﴿أفلا تذكرون﴾** فتعرفون أن المفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين، **﴿وإن تعدوا نعمة الله﴾** عدداً مجرداً عن الشكر **﴿لا تحصوها﴾** فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات،

﴿١٣﴾ **﴿وما ذرأ لكم في الأرض﴾** مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم **﴿يذكرون﴾** أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد، من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، **﴿لقوم يذكرون﴾** أي: يستحضرون في ذكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿١٤﴾ **﴿وهو الذي سخر البحر﴾** لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون **﴿أي: هو وحده لا شريك له﴾** **﴿الذي سخر البحر﴾** وهياً لمنافعكم المتنوعة، **﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾** وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، **﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾** فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى جسكم، **﴿وترى الفلك﴾** أي: السفن والمراكب **﴿مواخر فيه﴾** أي: تمخر البحر العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿ولعلكم تشكرون﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياًها، وتثنون على الله الذي من بها، فله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يتمنون، وأنعم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿١٥ - ١٦﴾ **﴿والقئ في الأرض﴾** رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً **﴿لعلكم تهتدون﴾** * وعلامات وبالنجم هم يهتدون **﴿أي:﴾** **﴿والقئ﴾** الله تعالى لأجل عباده **﴿في الأرض رواسي﴾** وهي: الجبال العظام لئلا تميد بهم

غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حرثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿١٢﴾ **﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾** والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون **﴿أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار، والنبات، وتخفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.**

وفيها وفي النجوم، من الزينة للسماء والهداية، في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾** أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبير والتفكير، فيما هي مهياً له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عظيم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم، ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وهم يخلقون﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره، ﴿أموات غير أحياء﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أنتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسواها بين الناقص من جمع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جمع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إلهكم إله واحد﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمتهم، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته وأفعاله المقدسة، ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وهم مستكبرون﴾ عن عبادته.

﴿لا جرم﴾ أي: حقاً لا بد

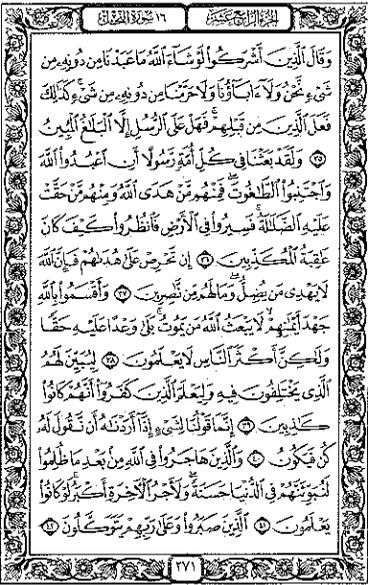
﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾.

﴿٢٤ - ٢٩﴾ ﴿وإذا قيل لهم ماذا

أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ ثم يوم القيامة يجزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ يقول تعالى - مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمته أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها، أم تكفرون وتعادون؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسج، فيقولون عنه: إنه ﴿أساطير الأولين﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وهملوا وزرهم ووزر من انقادت لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعواهم إليه، فيحملون إثم ما دعواهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكل مستقل بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ أي: بش ما حلوا من



الوزر المثلث لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه.

﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلمهم، واحتالوا بأنواع الخيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم، قصوراً هائلة، ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به، ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفهم ويقبهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأضلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبنابا عليهم، فصار تدميرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سييء ﴿ولا يحق المكر السييء إلا بأهله﴾ هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أحرى، ولهذا قال: ﴿ثم يوم القيامة يجزيهم﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي: تحاربون

لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم .

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللاتق بحالهم، ﴿فلبس ثوبى المتكبرين﴾ نار جهنم، فإنها ثوبى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الخي القيوم، لا يُفْتَرُّ عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أيام عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأدأقهم العذاب العظيم .

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدنار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله به نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها ﴿للذين أحسنوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور .

﴿ولدار الآخرة خير﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾

﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: مهما تمنته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر

﴿وما ظلمهم الله﴾ إذ عذبهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فإنها

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللاتق بحالهم، ﴿فلبس ثوبى المتكبرين﴾ نار جهنم، فإنها ثوبى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الخي القيوم، لا يُفْتَرُّ عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أيام عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأدأقهم العذاب العظيم .

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدنار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله به نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها ﴿للذين أحسنوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور .

﴿ولدار الآخرة خير﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾

﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: مهما تمنته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر

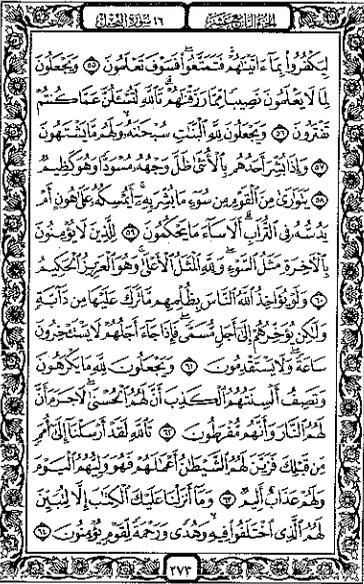


وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء الله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ قال الذين أوتوا العلم * أي: العلماء الربانيون ﴿إن الخزي اليوم﴾ أي: يوم القيامة ﴿والسوء﴾ أي: العذاب ﴿على الكافرين﴾

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقلوبهم اعتباراً عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيثهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والخزي والإهانة .

﴿فألقوا السلم﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ فيقال لهم: ﴿بلى﴾ كنتم تعملون السوء، ف ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا



مخلوقة لعبادة الله، ليكون مآلها إلى كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿فصاحبهم سيئات ما عملوا﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ فيأنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزؤوا به، وسخروا من أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿٣٥﴾ ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي:

من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ إن تفرص على هدايمه فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له﴾ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴿فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين﴾ ﴿فمنهم من هدى الله﴾ فاتبوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ فاتبع سبيل الغي.

حلّفوا أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، قال تعالى مكذباً لهم: ﴿بلى﴾ سيبعتهم ويجمعهم، ليوم لا ريب فيه ﴿وعدا عليه حقاً﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها.

﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتم ألهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون خطياً لجهنم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد، فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أرادته وشاءه.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿والذين هاجروا

شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاء به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكثهم من ^(١) القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشية تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطال الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس، قدرة الإنسان على كل فعل يريد، من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمرهم ونهيهم، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسول

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذباً إلا كان عاقبة الهلاك.

﴿إن تفرص على هدايم﴾ وتبدل جهدك في ذلك ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقوتهم بأسه.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ليعين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله، أنهم ﴿أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي:

(١) كذا في ب، وفي أ: على.

من التبعة، فدل على أن الله اتتمهم على وحيه وتنزيله، وأهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأول من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لَتَبِينَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿فَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * أو يأخذهم في ثقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم * هذا تحوير من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال ثقلبهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات^(١)، ومعاصيه

بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

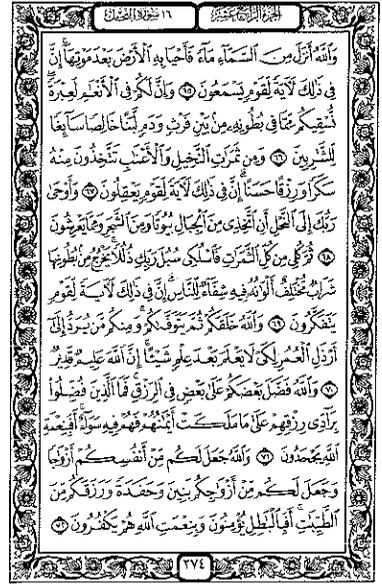
ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤتلة، وعلى الأذى فيه والمحن ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ * بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾ أي: لست ببعث من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء، ﴿نوحى إليهم﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ لا تعلمون نيا الأولين، وشككتهم هل بعث الله رجالاً؟

فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرروا عندهم، أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل

(٢) في ب: الحالات.



في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتبحرين ﴿الذين هاجروا في الله﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿من بعد ما ظلموا﴾ بالأذى والمحنة من قومهم، الذين يفتنهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رآه عياناً، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿ولأجر الآخرة﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجات لهم فيها نعيم مقيم * خالدون فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم * وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم.

صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، ولتعلم أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليثبت إليه وليزجج في جميع أموره إليه، فإنه رؤوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتقيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داحرون﴾ ﴿و الله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾ أي: الشاكرون في توحيد ربهم وعظمتهم وكمالهم، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها، ﴿عن اليمين﴾ وعن الشمائل سجداً لله ﴿أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمتهم وجلاله، وهم داحرون﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتدبيره عنده.

﴿و الله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿والملائكة﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لئن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أدلاء تحت قهره.

﴿ويضعون ما يؤمرون﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجود اضطرار، ودلالة على

ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم [من المخلوقات].

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون﴾ ﴿وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون﴾ ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ ﴿يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية فقال: و ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إنما هو إله واحد﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلنؤحده في عبادته، ولهذا قال: ﴿فإياي فارهبون﴾ أي: خافوني، وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنما كلها لله تعالى مملوكة.

﴿وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبغوا بعبوديته.

﴿أفغير الله تتقون﴾ من أهل الأرض أو أهل السموات، فإنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، والله المنفرد بالعطاء والإحسان، ﴿وما بكم من نعمة﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فمن الله﴾ لا أحد يشركه فيها، ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فإليه تجأرون﴾ أي: تضرعون بالدعاء والتضرع، لعلكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شَيْئاً وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ أَن تَبْسُطُوا فِيهَا سَبِيلًا مِّنْهُ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْفَالُ عَنِ الْعُنُقِ ﴿٥٢﴾ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِّنْهُ وَيُغْنِهِ مِمَّا كَسَبَ ﴿٥٣﴾ وَهُوَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُخْتَارُ ﴿٥٥﴾ وَإِلَىٰ عِندِ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥٦﴾

الذي لا تنغي العبادة إلا له وحده.

ولكن كثيراً من الناس، يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي: أعطيناهم، حيث نجيتهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة، ﴿فتمتعوا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة كفركم.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم والله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ ﴿وإذ بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾ يجبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزرعهم

يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عباده؟! ﴿١١﴾

﴿١٠﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾ مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كذب فقال [تعالى]: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه، وتولوه.

﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿٦٥﴾ ﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي تشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة، وجود عظيم.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿إن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم ليناًخالصاً سائغاً للشاربين﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾

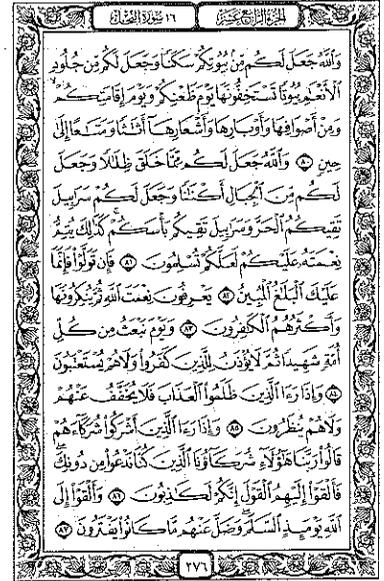
ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام، ﴿وه المثل الأعلى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود، فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة.

﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

﴿٦١﴾ ﴿ولو يواخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿ولو يواخذ الله الناس بظلمهم﴾ من غير زيادة ولا نقص، ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحیوانات، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل.

﴿ولكن يؤخرهم﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿ويجعلون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ يخبر تعالى أن المشركين ﴿يجعلون لله ما يكرهون﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عيب لله، فكما أنهم يكرهون، ولا



وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله الآية، ﴿لتسألن عما كنتم تفترون﴾ ويقال: ﴿الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿ويجعلون لله البنات﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وهو كظيم﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أيمسكه على هون﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين، ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدأ القسمين، وهو الإناث، الثلاث يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

أي: ﴿إن لكم في الأنعام﴾ التي سخرها الله لنا فنعلمكم ﴿للعبرة﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، لذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأي: شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طرياً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً، وشراباً يتخذ من عصيرها وتبيذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ جل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالخطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمة، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها

ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتعام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

﴿٧٠﴾ ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾ يغير تعالى أنه الذي خلق القوي العباد وتقلهم في الخلق، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم، يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يرد إلى أرذل العمر﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، إن الله عليم قدير﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الأدمي من أطوار الخلق، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾.

﴿٧١﴾ ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: ﴿كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى﴾ ﴿فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبید ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!!

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٢﴾ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ يخبر تعالى عن وثنيته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم، ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكول والمشرب، والنعمة الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصروها.

﴿أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!!؟

﴿وبنعمته الله هم يكفرون﴾ يجحدونها، ويستعيبونها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه!!؟

﴿٧٣ - ٧٦﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون * فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون * ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه

الأنعام ﴿إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

﴿بيوتاً تستخفونها﴾ أي: خفيفة المحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافها﴾ أي: الأنعام وأوبرها وأشعارها أئناً، وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأئنة والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعتة وعمله.

﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظلالاً﴾ وذلك، كأظلة الأشجار والجبال، والآكام ونحوها، ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي: مغارات، تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء.

﴿وجعل لكم سراويل﴾ أي: ألبسة وثياباً ﴿تقيكم الحر﴾ ولم يذكر الله البرد، لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿لكم فيها دفء ومنافع﴾.

﴿وتقيكم بأسكم﴾ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب، من السلاح، وذلك، كالدرع والزرذ، ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لعلكم﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورايتمها غامرة لكم من كل وجه ﴿تسلمون﴾ لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليا وسديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبي الظالمون إلا تمرداً وعناداً.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فإن تولوا﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذكروا بنعمه وآياته، ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويحذونها، وأكثرهم الكافرون ﴿لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قسودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسله.

﴿٨٤ - ٨٧﴾ ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون * وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون * يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أذكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

ف ﴿لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعد ما علم يقيناً بظلمان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً، وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا، ليستدرکوا لم يجابوا ولم يعبوا، بل ييادهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه، لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنة لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقررون بها ويفتضحون.



﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ يوم القيامة وعلموا بظلمانها، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فهوها بأنفسهم بظلمانها، وكفروا بها، وبدت بغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فألقوا إليهم القول﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إنكم لكاذبون﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدقونا معه، فلم تأمركم بذلك، ولا زعماً أن فينا استحقاقاً للألوهية، فاللوم عليكم.

فحيث استسلموا لله، وخضعوا لحكمته، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن حد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿٨٨﴾ ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ذنابهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿٨٩﴾ ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجنتنا بك

الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يبتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالله يهدي ما نالوه به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم:

﴿٩٠﴾ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالَّذِي يُعْظَمُ لِعَلْمِكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴿٩٠﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدينية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكة، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تتخذهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة

مستحب، وذلك كنعف الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيمة المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكيد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبتهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر. وقوله: **﴿وينهى عن الفحشاء﴾** وهو كل ذنب استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقه، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

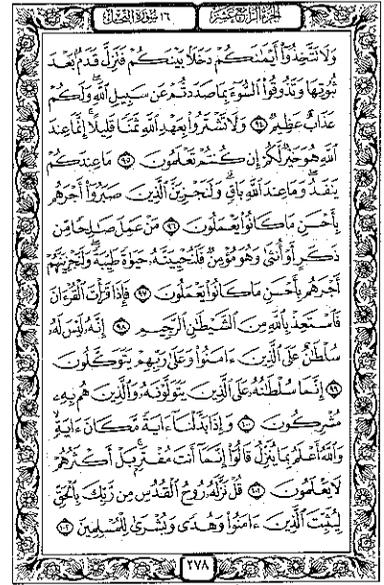
وبالبرغي كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي بما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقيح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: **﴿يعظكم﴾** به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضر تكم. **﴿لعلكم تذكرون﴾** ما يعظكم به، ففهمونه وتعلونونه، فإنكم إذا تذكروته وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرخ، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:



شهيدياً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿٩٠﴾ لما ذكر فيما تقدم أنه يعث **﴿في كل أمة شهيداً﴾** ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: **﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾** أي: على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**

وقال تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض **﴿وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾** في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالفاظ واضحة، ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمروها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من

﴿٩١ - ٩٢﴾ **﴿وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾** ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون.

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والسدور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها برأ، ويشمل أيضاً ما تعاهد عليه هو وغيره، كالمعهد بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتمميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: **﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾** بعقدها على اسم الله تعالى: **﴿وقد جعلتم الله عليكم﴾** أيها المتعاقدان **﴿كفيلاً﴾** فلا يجلب لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتتمنتك وأحسن ظنه فيك، فلتف له بما قلت وأكدته.

﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

﴿ولا تكونوا﴾ في نقضكم للعهد بأسوأ الأمثال وأفحها وأدناها على سفه متعاطيها، وذلك **﴿كالتى﴾** تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته **﴿أنكاثاً﴾** فتعبت على الغزل، ثم على النقص، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمرءة.

وقوله: **﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾**

أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.

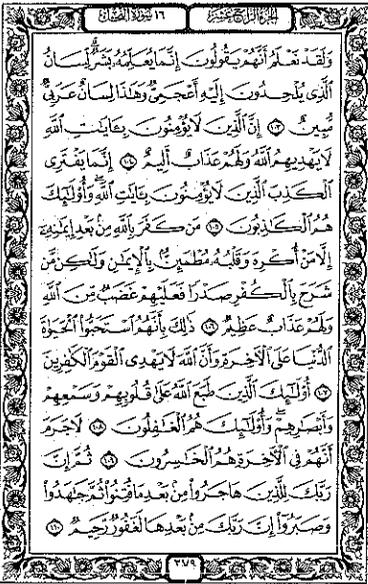
كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديمها لها على مراد الله منكم، وعلى المرءة الإنسانية، والأخلاق المرضية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان ببتليكم الله به حيث قبض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيجازي كلاً بما عمل، ويجزي الغادر.

﴿٩٣﴾ **﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾** أي: **﴿لو شاء الله﴾** لجمع الناس على الهدى وجعلهم **﴿أمة واحدة﴾** ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً. **﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾** من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿٩٤﴾ **﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتنزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾** أي: **﴿ولا تتخذوا أيمانكم﴾** وعهودكم وموائيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك، نزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. **﴿وتذوقوا السوء﴾** أي: العذاب الذي يسوءكم ويجزئكم **﴿بما صددتم عن سبيل الله﴾** حيث ضللتكم وأضللتم غيركم **﴿ولكم عذاب عظيم﴾** مضاعف.



﴿٩٥ - ٩٧﴾ **﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * يحذر تعالى عباده من نقض العهد والأيمان، لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال:

﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء **﴿إنما عند الله﴾** من الثواب العاجل والأجل لمن آثر رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله **﴿هو خير لكم﴾** من حطام الدنيا الزائلة **﴿إن كنتم تعلمون﴾**.

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن **﴿ينفد﴾** ويفنى، **﴿وما عند الله باق﴾** ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس يعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: **﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾** والآخرة خير وأبقى **﴿وما عند الله خير للآبرار﴾** وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على

ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزهم إلى المعاصي أژأ، وقادهم إلى النار قوداً.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ **﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾** قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴿يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآوه كذلك، قذحوا في الرسول وبما جاء به، و ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ قال الله تعالى: **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾** فهم جهال لا علم لهم برهيم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قذح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القذح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القذح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: **﴿قل نزله روح القدس﴾** وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بالحق﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقذح فيه قذحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً [من الأحكام] ثم نسخه، علموا أنه أبده بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم

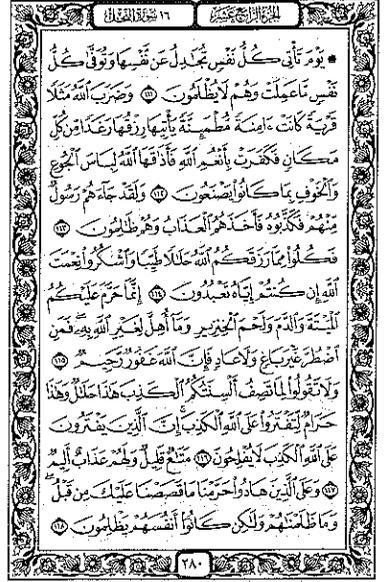
التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح **﴿فلنجزيه حياة طيبة﴾** وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحتسب.

﴿ولنجزيهم﴾ في الآخرة **﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة. **﴿٩٨ - ١٠٠﴾** **﴿فإذا قرأت القرآن فاستمعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾** إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون **﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾** أي: فإذا أزدت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعانة به من شره، فيقول القاريء: **﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾** متديراً لعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان **﴿ليس له سلطان﴾** أي: تسلط **﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم﴾** وحده لا شريك له **﴿يتوكلون﴾** فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

و **﴿إنما سلطانه﴾** أي: تسلطه **﴿على الذين يتولونه﴾** أي: يجعلونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن



حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين لو ليس الزهد المدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر، ونحوها، بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع ^(١).

﴿ولنجزيهم الذين صبروا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وفظموا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم **﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة، إلا بالإيمان، والإيمان مقتضى لها، فإنه

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) زيادة من هامش: ب.

الخاسرون ﴿الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة﴾، وفاتهم النعيم القيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكروه على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبية به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿أي: ثم إن ربك الذي ربي عبادة المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلي دياره وأمواله، طلباً لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ كل يقول نفسي نفسي لا يمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون

لا يؤمنون بآيات الله﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدر أفعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضياً به مطمئناً، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء. ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

وذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿حيث ارتدوا على أديارهم، طمناً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدم، لأن الكفر وصفهم، قطع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم

الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ما كثر في أبدأ. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، [أكثر] ^(١) فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فافقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيؤوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿١٠٣ - ١٠٥﴾ ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أنهم يقولون إنما يعلمه﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بشراً﴾ وذلك البشر، الذي يسيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيسردونها ولا يقبلونها. ﴿لا يهديهم الله﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾.

﴿إنما يفترى الكذب﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين

إلا ما كنتم تعملون ﴿١١٢﴾

﴿١١٢ - ١١٣﴾ ﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴿ وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت أمة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضدا ما كانوا فيه، والبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

﴿١١٤ - ١١٨﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ لِيَاءِهِ تَعْبُدُونَ﴾ * وإنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ * يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار، وغيرها ﴿حلالا طيبا﴾ أي: حالة كونها متصفة

بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أضرأ عن غضب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدُّ، ﴿واشكروا نعمة الله﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والشناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿إنما حرم عليكم﴾ الأشياء المضرّة تنزيهاً لكم، وذلك: كـ ﴿الميتة﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك، ميتة الجراد والسملك.

﴿والدم﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ولحم الخنزير﴾ لقدارته وخثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبا وافتراء على الله وتقولوا عليه.

﴿لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيم وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه ﴿متاع قليل﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾

فإنه تعالى ما حرم علينا إلا

الحيثيات، تفضلاً منه، وصيانة عن كل مستقدر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾

﴿١١٩﴾ ﴿ثم إن ربك للذنين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ وهذا حض من عباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمداً للذنب، فإنه لا بد أن يتقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه^(١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿١٢٠ - ١٢٣﴾ ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ * شاكراً لأنعمه اجتياه وهذاه إلى صراط مستقيم * وآييناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿ يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً. ﴿قانتاً لله﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين. ﴿حنيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه. ﴿ولم يك من المشركين﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الختفاء.

﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: أتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة

(١) كذا في ب، وفي أ: عزم.

وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن **«اجتباها»** ربه، واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

«وهدها إلى صراط مستقيم» في علمه وعمله، فعلم بالحق وآثره على غيره.

«وآتيناه في الدنيا حسنة» رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية **«وإنه في الآخرة لمن الصالحين»** الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمه.

﴿١٢٤﴾ **«إنما جعل السبب على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»**.

يقول تعالى: **«إنما جعل السبب»** أي: فرضاً **«على الذين اختلفوا فيه»** حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

«وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» فيبين لهم الحق من المبطل، والمستحق للثواب من استحق العقاب^(١).

﴿١٢٥﴾ **«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين»** أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتغل على العلم النافع، والعمل الصالح **«بالحكمة»** أي: كل أحد على

حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده. ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به.

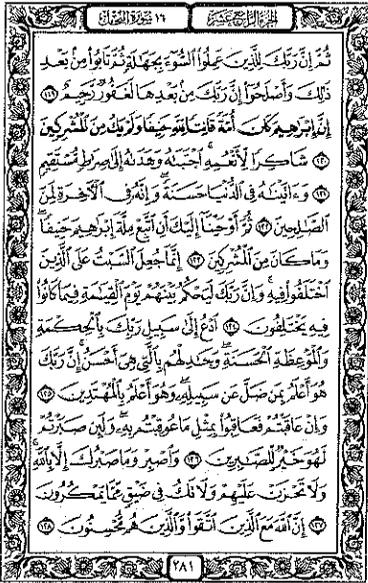
وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقددها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاقمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: **«إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله»** علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازهه عليها.

«وهو أعلم بالمهتدين» علم أنهم يصلحون للهداية، فهداهم، ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿١٢٦-١٢٨﴾ **«وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»** * وأصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون * **«إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»** يقول تعالى - مبيحاً للعدل، ونادباً للفضل والإحسان - **«وإن عاقبتهم»** من أساء إليكم بالقول والفعل **«فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به»** من غير زيادة منكم، على



ما أجره معكم.

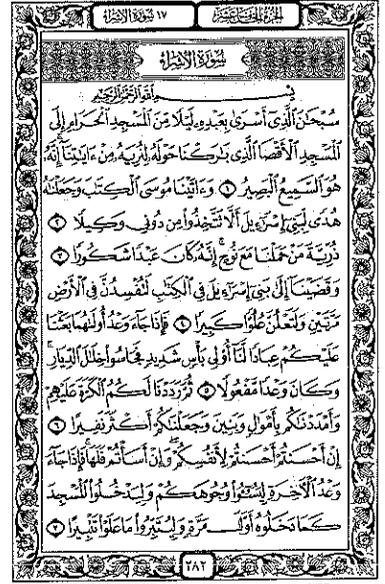
«ولئن صبرتم» عن المعاقبة، وعفوتهم عن جرمهم، **«لهو خير للصابرين»** من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم، وأحسن عاقبة، كما قال تعالى: **«فمن عفا وأصلح فأجره على الله»** ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال:

«وأصبر وما صبرك إلا بالله» هو الذي يعينك عليه ويثبتك. **«ولا تحزن عليهم»** إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولاً لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. **«ولا تك في ضيق»** أي: شدة وحرَج، **«مما يمكرون»** فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل والحمد لله



تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سبحانه الذي أسرى يعقوبه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴿ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جعلنا أن أسرى يعقوبه﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿من المسجد الحرام﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاناً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح، أنه أسرى به من بيت أم هانئ، فعل هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسرى به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمهته، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢ - ٨﴾ ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ آلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً * وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علوماً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأفئسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علما تبيراً *

عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴿كثيراً ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ، ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتهما، لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتهما أكمل الشرائع، وتبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ الذي هو التوراة ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ يتهدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿آلا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ أي: وقتلنا لهم ذلك، وأزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وينبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلاً ومدبراً لهم، في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً، ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ أي: يا ذرية من مننا عليهم، وحملناهم مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً ﴿ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة

فصرهم الله عليكم، وقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

وختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلمين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.

إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركو كثيراً من شريعتهم، وطغوا في الأرض.

﴿ثم ردنا لكم الكرة عليهم﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتموهم من دياركم. ﴿وأمدناكم بأموال وبنين﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم، ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إن أحستتم أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي: فلاأنفسكم يعود الضرر، كما أراكم الله من تسلط الأعداء.

﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: المرة الآخرة^(١) التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا أيضاً عليكم الأعداء. ﴿ليسوؤوا وجوهكم﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم وليدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد، مسجد بيت المقدس.

﴿وليتبروا﴾ أي: يجربوا ويدمروا ﴿ما علوا﴾ عليه ﴿تتبروا﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحررتكم.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ فيدبل لكم الكرة عليهم، فرحهم وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وإن علمتم﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ،

(١) في ب: الأخرى.

فانتقم الله به منهم، فهذا جزء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ يصلونها ويلازمونها، لا يخرجون منها أبداً. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لثلاث يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسلط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

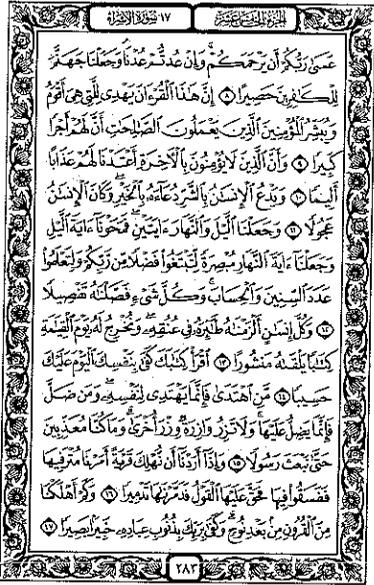
﴿٩ - ١٠﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴿يغير تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ أي: أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعوه إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها الندارة وهو ضد ذلك.

﴿١١﴾ ﴿ويدع الإنسان بالشجر دعاه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشجر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير،

(٢) في ب: من لطفه.



ولكن الله - لطفه^(٢) - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر. ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي:

دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فمحونا آية الليل﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه والراحة، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي:

مضيئة، ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في معاشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿ولتعلموا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عدد السنين والحساب﴾ فتنبون عليها ما تشاؤون من مصالحكم.

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتتميز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.



﴿ومن أراد الآخرة﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وسعى لها سعيها﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ وتواهم عند ربهم.

ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلما يمده الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الدنيا، بسنة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسهف، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسزور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سحق الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، فإله ملائكته ورسله، قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نمطاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع

واستدل هذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً، لأنه منزه عن الظلم.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، ﴿فحق عليها القول﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فدمرناها تدميراً﴾.

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم.

﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ فلا يخافوا منه ظلماً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ يخبر تعالى أن ﴿من كان يريد الدنيا﴾ العاجلة ﴿المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يجعل له من حظائها ومتاعها ما يشاءه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جهنم يصلاها﴾ أي: يباشر عذابها، ﴿مذموماً مدحوراً﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعث عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿وكل إنسان أرزاقه طائرته في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائرته في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرأ، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿١٥﴾ ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى عادل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعانده الحجة.

وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

والإكرام، الواجب والمستنون، وذلك الحق، يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة.

﴿والمسكين﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تمييز، وقد نبه الله عنه وأخبر:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإسراف، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى، إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقال هنا: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل. ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ فتتقق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فتقدم﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى، فأما مع العدم، أو تحسر النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلاً فقال: ﴿وإنما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: لطيفاً برفق، ووعد بالجميل، عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وقل رب ارحمهما﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربيتهما إياك صغيراً.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودينه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية.

﴿٢٥﴾ ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إن تكونوا صالحين﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورجبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فإنه كان للأوابين﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غفوراً﴾ فمن أطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبة ومحبة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ ﴿وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبديراً﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتقدم ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * يقول تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ من البر

أحداً إلا بإذن الله، وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً لما نبه تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾ قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إلا إياه﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدير لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعل، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر.

﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف. ﴿فلا تقل لهما أف﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذها أدنى أذى.

﴿ولا تنهرهما﴾ أي: تزجرهما، وتكلم لهما كلاماً خشناً، ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ بلفظ حبيانه، وتآدب وتلطف بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وَعَدُّهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن اللهم يفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، ويتوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله يسره له [بسبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمة منه، ﴿إِنَّهُ كَانَ بعبادِهِ خبيراً بصيراً﴾ فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا﴾ وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم والتجرؤ على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرِبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنته التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفرائض، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد.

وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالتفسيق بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسلطاً قديراً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد العدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ إنه كان منصوراً ﴿وَالْإِسْرَافُ﴾ مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل على أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول، يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم، الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على نميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: بلوغه، وعقله، ورشده، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ

رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتم، فلکم الشواب الجزيل، وإن لم تفوا (٢)، فعليكم الإثم العظيم.

﴿٣٥﴾ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مئمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يعد للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ ﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لِن تَحْرِقُ الْأَرْضَ وَلِن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلِقَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي: كبراً وتبهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاضماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فلكك ذلك ﴿لِن تَحْرِقُ

(٢) في ب: تفعلوا.

(١) زيادة من هامش: ب.

الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهنّ الإناث، وهو الذي خلقكم، واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفوراً﴾ قل لو كان مع الله كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ ﴿يجرّ تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضوحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلبكوه، وما يضرهم فيدعوه.

ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله، لبعضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألقوا لها بالاً.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، بحيث من أصغى إلى بعضها، لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله الهياً آخر: ﴿لو كان مع الله كما يقولون﴾ أي: على موجب زعمهم وافتراءهم، ﴿إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لا تتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه، والتقرب وإستغناء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه،

الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً عند الخلق، مبنوفاً ممقوتاً، قد اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت أزدلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كل ذلك﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيمة تقدم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله الهياً آخر﴾ والنهي عن عقوق الوالدين، وما عطف على ذلك، ﴿كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذلك﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة، ﴿مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالمة، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿ولا تجعل مع الله الهياً آخر فتلقى في جهنم﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

﴿ملوماً مدحوراً﴾ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والدم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿٤٠﴾ ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أي: اختار لكم الصفة والقسم^(١) الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ فيه أعظم الجرأة على الله، حيث نسبتهم له

(١) في ب: النصيب.

(٢) في ب: يدعون.



إليها مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟! فعل هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ وكقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء. ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قل لو كان مع الله كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلموا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون^(٢) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾. ﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عما يقولون﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿علواً كبيراً﴾ فعلا قدره وعظم، وجعلت كبرياؤه، التي لا تقادر أن

يريدون أن يعشروا على أقل شيء ليقدموا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ يَسْتَمِعُونَ تَكْوِينَ﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ في مناجاتهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿انظروا متعجباً﴾ كيف ضربوا لك الأمثال التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فضلوها﴾ في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه. ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي:

لا يهتدون أي اهتداء، فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الصرف.

﴿٤٩ - ٥٢﴾ ﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي: إذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴿إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: قتل كونوا حجارة أو حديداً ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فيسبغون عليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي: يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴿نحبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستعدادهم بقولهم: ﴿إذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي: أجساداً بالية، ﴿إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسول الله، ووجدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممنوع عليهم لا يقدر الله عليه، جعلوا قدرة الله كذلك، فسبحان من جعل خلقاً من خلقه،

وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنوبهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ ﴿وجعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاً مبثوراً﴾ ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: بلبسهم قلوبهم ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولولا على آذانهم نفورا﴾ ﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك﴾ ﴿وإذ هم نجوى﴾ أي: يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير والعلم الكثير.

﴿وجعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاً مبثوراً﴾ لا يسترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه والانتقاد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمما عن سماعه، ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن﴾ داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به. ﴿ولوا على آذانهم نفورا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة،



يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيناً، وظلم ظلاماً كبيراً. لقد تضاءلت لعظمتها المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ والسماوات مطويات بيمينه. وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي، فقراً ذاتياً، لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات. هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار، إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون، ولهذا قال:

﴿تسبح له السماوات السبع﴾ ﴿والأرض ومن فيهن﴾ وإن من شيء ﴿من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد وحى وميت﴾ ﴿إلا يسبح بحمده﴾ بلسان الحال، ولسان المقال. ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب.

﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه ونحر له الجبال ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم،

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى آية أخرى فكتب: فلا يهتدون وعلى ذلك فسرها، فأبقيت التفسير كما هو، وصوبت الآية.

يزعمون أنهم أولو العقول والأنبياء، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها، وأوضحها براهين وأعلاها، ليرى عباده أنه ما ثمَّ إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلال.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً:

﴿قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر * أي: يعظم * في صدوركم * لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي: حالة تكونون، وعلى أي: وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿نسيقولون * حين نقيم عليهم الحجة في البعث: * من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة * فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً * كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

﴿فسيقولون إليك رؤوسهم﴾ أي: هزونها، إنكاراً وتعجباً مما قلت، ﴿ويقولون متى هو﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سقفة منهم، وتعجيز. ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يوم يدعوكم﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي: تتقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾ أي: هو الحمود تعالى على ما يفعله ويميزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ من

سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿متى هو﴾؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿وقل لعبادي يقولوا

التي هي أحسن إن الشيطان يتزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً * ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً * وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾ وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يتمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إن الشيطان يتزغ بينهم﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم وديانهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي يتزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يجاربه، فإنه يدعوهم ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يقيموا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان

من قبيلها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه.

﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كل منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال، الحسنة والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحية على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من الأوصاف المدوحية، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتاباً، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿قل ادعوا الذين

زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو

لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ علماً وقدره، فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكشاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿والشجرة الملعونة﴾ التي ذكرت في القرآن ﴿وهي شجرة الزقوم، التي تنبت في أصل الجحيم

والمنعى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوازيق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوازيق الجسيمة؟!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿ونخوفهم﴾ بالآيات ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم

كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدر عليها، فمن زعم أنه يجب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أمره، لا بد من وقوعه، فليأدر المكذبون بالإنيابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحرق عليهم القول.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً * وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ يذكر تعالى رحمة بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالآولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهاه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان، الذي

يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم﴾ من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿ولا﴾ يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال ناعمة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجب، أن السنفه عند الاعتقاد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه هو الرأي: السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد، الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، فقال:

﴿أولئك الذين يدعون﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الخذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف والرجاء والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامه المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله ويتنافس في قربه بإخلاص الأعمال

الانقياد له.

﴿٦١-٦٥﴾ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا * قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا * قال اذهب فمّن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا * بينه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، وقال ﴿متكبراً: * أسجد لمن خلقت طينا﴾ أي: من طين، ويزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قال﴾ مخاطباً لله: «أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته﴾ أي: لأستاصلنهم بالإضلال، ولاغوينهم ﴿إلا قليلا﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: «إذهب فمّن تبعك منهم﴾ واختارك على ربه ووليه الحق، ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾ أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله. ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الرديئة.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

﴿وعدهم﴾ الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال:

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿٦٦-٦٩﴾ «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا * وإذا منكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورًا * أفأنتم أن ينسف

(١) في النسخين: الأوعاد.



بكم جانب البر أو يرسل عليكم حصاباً ثم لا تجدوا لكم وكيلًا * أم أمتنم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك، والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعها، وسخر لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره، لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده، فإنه لم يزل بهم رحيماً رؤوفاً، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومانعهم.

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه، أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدنا جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر،

البحر. **فتيلاً** * ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً * يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فيقسمون بهذا قسمين:

﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، وامتدنى بكتابه، فكشرت حسنة، وقلت سيئاته ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم.

﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ مما عملوه من الحسنات.

﴿ومن كان في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ عن الحق فلم يقبله، ولم ينقذ له، بل اتبع الضلال. ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضل سبيلاً﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابتها، وهل عملت به أم لا؟

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون^(١) من ﴿أن يعيدكم﴾ في البحر ﴿تارة أخرى﴾ فيرسل عليهم قاصفاً من الريح ﴿أي: ريحاً شديدة جداً تقصف ما أتت عليه.﴾ **﴿فيفرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾** أي: تبعة ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿٧٠﴾ **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** وهذا من كرمه عليهم وإحسانه، الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وحملناهم في البر﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والمراكب البرية. ﴿و﴾ في البحر ﴿في السفن والمراكب﴾ وورزقناهم من الطيبات ﴿من المأكّل والمشرب، والملابس، والمناجح.﴾ فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل، التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجيبهم النعم عن النعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

﴿٧١ - ٧٢﴾ **﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون**

وما سمعنا أن رُسُلًا بالآيات إلا أن كذب بها الأولون
وإن اتبعتموا آياتنا مهيبة فقطلم يؤمنوا وما نرسل
بالآيات إلا تخويفاً ﴿٧١﴾ وإذ قلنا لك إنك إنك لو تكلم
بالتين وما جعلناك الرُّبِّيَّ أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا الْخِطَابُ الْغَائِبِ
لَلْمُؤْمِنِينَ فِي الْغُرْبِ وَإِنْ رَجَعْتُمْ فَرَجِعُوا إِلَىٰ أُولِيكُمْ
﴿٧٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِسَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِكَ طِينًا ﴿٧٣﴾ قَالَ أَنزَلْنَاهُ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ عَلَىٰ نِعْتِهِ فَبُذِئْتُمْ إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ لِيُؤْمِنُوا
لَا تُخْفِكُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَلَا ظُلْمًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَهْبَبْ فَمَنْ يَبْعَثُ
رَبُّهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْجُودًا ﴿٧٥﴾ وَأَسْتَجِيزُ
مَنْ أَسْأَلْتُ مِنْهُمْ نِعْمَةً وَأَكْبُرُ عَلَيْكُمْ بِحُكْمٍ وَإِزْهَابِ
وَسَارِكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَرَبِّهِمْ وَمَا يُمَسِّكُونَ
إِلَّا عِزْمًا ﴿٧٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَشَرِكٌ عَلَيْكُمْ سُلْطَانٌ وَيَكْفُرُ
بِرَبِّكَ وَيَكْفُرًا ﴿٧٧﴾ رَبُّكَ الَّذِي يُشْرِكُ لَكُمْ إِلَهًا
فِي الْبَحْرِ لِيَتَمَتَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٧٨﴾

ونجاهم إلى البر، نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به، من لا يتنع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، وامتدنى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال، هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال، في الشدة والرخاء، واليسر والعسر.

وأما من خذل، ووكل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلاحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاهه في تلك الحال.

فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية، فضلاً عن أمور الآخرة.

ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أفأنتم أن تحسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً، من أسفل منكم بالحسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصبحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في

(١) مراد الشيخ - رحمه الله - الاستفهام - والله أعلم ..

معرفة.

﴿٧٣ - ٧٧﴾ وإن كسادوا

ليفنتوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً * وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنا تحويلاً *

يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وإن كادوا ليفنتوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا﴾ أي: قد كادوا لك أمرالم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وإذا﴾ لو فعلت ما يهرون لا تخذوك خليلاً﴾ أي: حبيباً صفيماً، أعز عليهم من أحبائهم، لما جيلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأداب، المحببة للقریب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعاندوك وينابذوك العداوة، إلا للحق الذي جئت به، لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

﴿و﴾ مع هذا ف ﴿لولا أن ثبتناك﴾ على الحق، وامتتنا عليك بعدم الإجابة لداعيهم، ﴿لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

﴿إذا﴾ لو ركنت إليهم بما يهرون لا أذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي: لأصبنك بعدذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال

﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

﴿وإن كادوا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحمل بهم العقوبة، كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها الله بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى أوقع الله بهم بـ «بدر» وقتل صنائديهم، وفض بيضتهم، فله الحمد.

وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه، أن يثبت على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له:

﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ فكيف بغيره!!! وفيها تذكير الله لرسوله منته عليه، وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه، ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله:

وإذا نكركم العرفى الجبريل من يعنون إلا آية فاعلموا
إلى الله أنتم يومئذ عاين أولئك الذين كذبوا
بآياتنا فاعلموا ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾
﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾
﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾
﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾
﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾
﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾
﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾
﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾
﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾
﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾

﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾

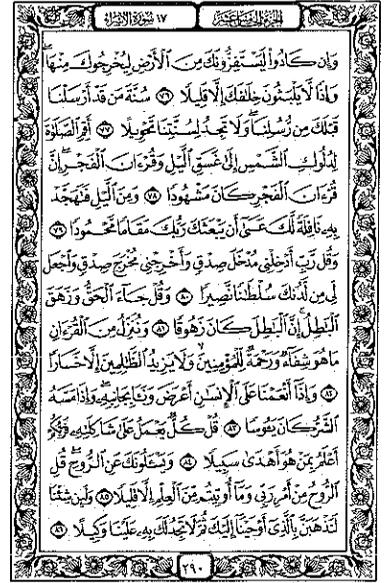
وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿٧٨ - ٨١﴾ ﴿أقم الصلاة لدلوك

الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً * ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً * ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾

﴿إلى غسق الليل﴾ أي: ظلّمته،

فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء. ﴿وقرآن الفجر﴾ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآناً، لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله، وملائكة



الليل وملائكة النهار .

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمر .

وفيها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات .

وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر، لأن الله جمع وقتها جميعاً .

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك .

وقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي: صل به في سائر أوقاته. ﴿نافلة لك﴾ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته .

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من

غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي مجده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بأدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هم الموقف وكرهه، فيشفع عنده ربه فيشفعه، وقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جمع الخلق .

وقوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ أي: اجعل مدخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر .

﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وأذره .

وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل .

وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى .

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك .

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبياناته .

﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل

أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود السيئة^(١) .

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من الآمها وأسقامها .

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يبحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل .

﴿٨٣﴾ ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤسأ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم وبيطر بها، ويعرض ونأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره .

﴿وإذا مسه الشر﴾ كالمرض ونحوه ﴿كان يؤسأ﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً .

وأما من هداه الله، فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضرأ يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء .

﴿٨٤﴾ ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: قل كل من الناس يعمل على شاكلته﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين . ومن كان من غيرهم من المخدولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم



جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه [باقتراح] (١) آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ أي: أنهاراً جارية.

﴿أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ أي: قطعاً من العذاب، ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي: جميعاً، أو مقابلة ومعابنة، يشهدون لك بما جنت به.

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أو ترقى في السماء﴾ رقيقاً حسيماً، ﴿و﴾ مع هذا ﴿لن نؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾.

ولما كانت هذه تعنتات وتعميرات، وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزهه فقال: ﴿قل سبحان ربي﴾ عما تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة.

﴿هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ ليس يبدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشراً.

وهذا من رحمة بهم، أن أرسل إليهم بشراً منهم، فإنهم لا يطبقون التلقي من الملائكة.

فلو ﴿كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم، ﴿لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناوأه.

فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين، فإنه خير بصير، لا تحفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿٩٧ - ١٠٠﴾ ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ما أوهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً * ذلك جزاؤهم بما كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً * أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً * قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً * يخبر تعال أنه المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده، فييسره لليسرى ويخيه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا وإهانة، عمياً وبكماً،

لا يسمعون ولا ينطقون.

﴿مأوهم﴾ أي: مقرهم ودارهم ﴿جهنم﴾ التي جمعت كل هم وعذب وعذاب.

﴿كلما خبت﴾ أي: تهيأت للانطفاء ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي: سعرناها بهم لا يفتر عنهم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ وهي أكبر من خلق الناس. ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿و﴾ لكنه قد ﴿جعل﴾ لذلك ﴿أجلاً لا ريب فيه﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث.

﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ ظلماً منهم وافتراء.

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ التي لا تنفذ ولا تبسد. ﴿إذا لأمسكنم خشية الإنفاق﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿١٠١ - ١٠٤﴾ ﴿ولقد أتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذا جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً * فأراد أن يستفزهم

من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً *
 وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا
 الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم
 لفيضاً * أي: لست أيها الرسول المؤيد
 بالآيات، أول رسول كذبه الناس،
 فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران
 الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناه
 تسع آيات بينات * كل واحدة منها
 تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية،
 والعصا، والظوفان، والجراد،
 والقمل، والضفادع، والدم، والرجز،
 وقلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك
 فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له
 فرعون * مع هذه الآيات * إني لأظنك
 يا موسى مسحوراً.

ف * قال * له موسى * لقد علمت *
 يا فرعون * ما أنزل هؤلاء * الآيات
 إلا رب السموات والأرض بصائر *
 منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة،
 وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك،
 واستخفافاً لهم.

* وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً *
 أي: محموتاً، ملقى في العذاب، لك
 الويل والدم واللعنة.

* فأراد * فرعون * أن يستفزه من
 الأرض * أن: يجليهم ويخرجهم منها.
 فأغرقناه ومن معه جميعاً * وأورثنا بني
 إسرائيل أرضهم وديارهم.

ولهذا قال * وقلنا من بعده لبني
 إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد
 الآخرة جئنا بكم لفيضاً * أي: جميعاً،
 ليجازي كل عامل بعمله.

* ١٠٥ * * وبالحق أنزلناه بالحق
 نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً *
 أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم،
 لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم،
 * وبالحق نزل * أي: بالصدق والعدل
 والحفظ من كل شيطان رجيم * وما
 أرسلناك إلا مبشراً * من أطاع الله

بالثواب العاجل والآجل * ونذيراً * لمن
 عصى الله بالعقاب العاجل والآجل،
 ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر.

* ١٠٦ - ١٠٩ * * وقرآناً فرقناه
 لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه
 تنزيلاً * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن
 الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى
 عليهم يخرون للأذقان سجداً *
 ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا
 لمفعولاً * ويخرون للأذقان يبكون
 ويزيدهم خشوعاً * أي: وأنزلنا هذا
 القرآن مفزقاً، فارقاً بين الهدى
 والضلال، والحق والباطل. * لتقرأه
 على الناس على مكث * أي: على مهل،
 ليتدبروه ويتفكروا في معانيه،
 ويستخرجوا علومه

* ونزلناه تنزيلاً * أي: شيئاً فشيئاً،
 مفزقاً في ثلاث وعشرين سنة.

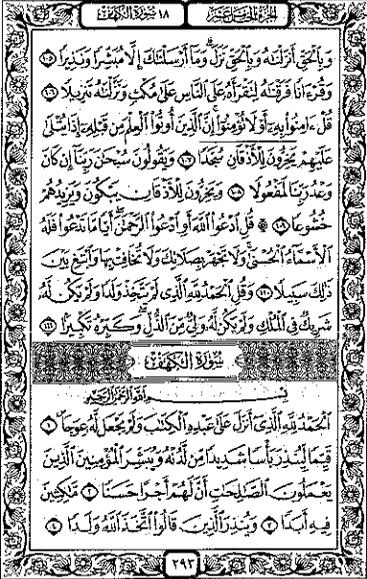
* ولا يأتونك بمثل إلا جنتناك بالحق
 وأحسن تفسيراً * فإذا تبين أنه الحق،
 الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من
 الوجوه ف:

* قل * : لمن كذب به وأعرض
 عنه: * آمنوا به أو لا تؤمنوا *
 فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه
 شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم،
 فإن لله عبادة غيركم، وهم الذين
 آتاهم الله العلم النافع: * إذا يتلى
 عليهم يخرون للأذقان سجداً * أي:
 يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

* ويقولون سبحان ربنا * عما
 لا يليق بجلاله، عما نسيه إليه
 المشركون. * إن كان وعد ربنا *
 بالبعث والجزاء بالأعمال * لمفعولاً *
 لا خُلف فيه ولا شك.

* ويخرون للأذقان * أي: على
 وجوههم * يبكون ويزيدهم * القرآن
 خشوعاً *.

وهؤلاء كالذين من الله عليهم من
 مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام
 وغيره، ممن آمن^(١) في وقت
 النبي ﷺ، وبعد ذلك.



* ١١٠ - ١١١ * * قل ادعوا الله أو

ادعوا الرحمن أيأ ما تدعوا فله الأسماء
 الحسنى ولا تمجهر بصلاتك ولا تخافت
 بها وابغ بين ذلك سبيلاً وقل الحمد لله
 الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك
 الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره
 تكبيراً * يقول تعالى لعباده:

* ادعوا الله أو ادعوا الرحمن * أي:
 أيما شئتم. * أيأ ما تدعوا فله الأسماء
 الحسنى * أي: ليس له اسم غير
 حسن، حتى ينهي عن دعائه به، بل
 أي: اسم دعوتوه به، حصل به
 المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في
 كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم.

* ولا تمجهر بصلاتك * أي:
 قراءتك * ولا تخافت بها * فإن في كل
 من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن
 المشركين المكذبين به إذا سمعوه سيؤه،
 وسبوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل
 المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء.
 * وابغ بين ذلك * أي: بين الجهر
 والإخفات * سبيلاً * أي: توسط فيما
 بينهما.

* وقل الحمد لله الذي * له الكمال
 والثناء والحمد والمجد من جميع
 الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.

الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً * فلعنك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدنية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم (٢١) مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره وتواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار، التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس،

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾
 ﴿وكبيره تكبيراً﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيدته بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(٢١).

تفسير سورة الكهف وهي مكية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ما كذب فيه أبداً * وينذر



الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك * بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿ولم يكن له ولي من الدن﴾ أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤ / ٢ / ٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة الآف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ: محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، واتبعه بخاتمة فيها أصول وكتليات من أصول وكتليات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرايع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألجوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إيجابهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا وإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم. وأتبعته بكتليات وأصول من كتليات التفسير لاستدراك ما لعله يقوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكتليات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل.

وتطهرها وتنميتها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يمدح الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

وقوله: ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي: لينذر هذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه، أن خوف عباده، وأندره ما يضرهم ويهلكهم.

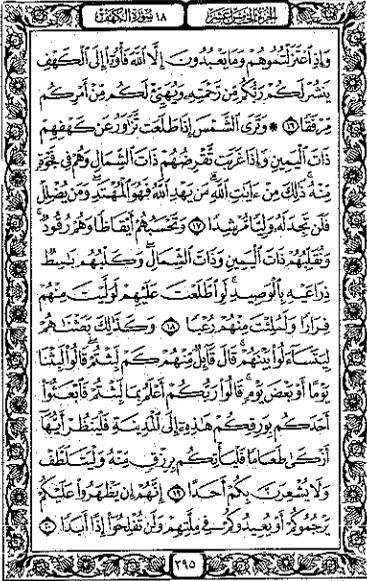
كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾. فمن رحمة عباده، أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، وبرسوله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والتابعة، ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله، الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن، دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنة تاماً، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿ما كثر فيه أبداً﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة

للمبشر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأى: شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد^(١) الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟! ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالترجيح، والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿ما لهم به من علم ولا لأبائهم﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾ وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وهنا قال ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها غماً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو

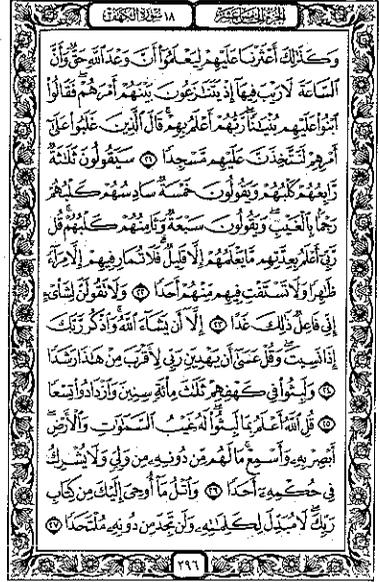


علم الله فيهم خيراً لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غماً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن الأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مُضعف للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كُلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ * لست عليهم بمسيطر.

﴿٧-٨﴾ ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيمم أحسن عملاً﴾ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ يخبر تعالى: أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكّل لذيدة، ومشارب، ومساكل^(٢) طيبة،

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد.

(٢) في ب: وملابس.



الدنيا منزل عبور، لا محل عبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لأخرته، حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين !!

﴿٩٦ - ١٢﴾ أم حسبت أن

أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهنيء لنا من أمرنا رشداً * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً * وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي .

أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الأفق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، ملازمتهم له دهرًا طويلاً، ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إذ أوى الفتية﴾ أي: الشباب، ﴿إلى الكهف﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من

وأشجار، وأثمار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختياراً. ﴿لنبلوهم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة متفضية، وستعود الأرض صعيداً جزراً قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأْي عين، وحذرنا من الاغترار بها، وورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقیمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترَّ بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفتت، فهو لاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يده من التفرط والسيئات .

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل

فتنة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي: تبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشده، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف﴾ أي: أنماهم ﴿سنين عدداً﴾ وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، ويكون آية بيته، ﴿ثم بعثناهم﴾ أي: من نومهم ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم لنبلاءوا بينهم﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿١٣ - ١٤﴾ نحن نقص عليك

نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً * هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمنوا﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ .

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويديره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كانهم] (٢) أيقاظاً، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود، ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبيهم يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الأدميين، فأخبر أنه جاهد بالربغ، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، ويقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

يعيدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأبدانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقاتهم (٣) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهبنا لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أبدانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً * وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقتهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الرخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من نطفه تعالى بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، وديرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لقد قلنا إذا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شططاً﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتمزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفاتوا (٤) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾

﴿١٦﴾ ﴿وإذ اعتزلتموهم وما

(٢) في النسخين: كأنه.

(٣) في النسخين: ولا بقاؤهم.

(٤) في ب: والتقوى وهو تصحيف.

﴿١٩ - ٢٠﴾ «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بوركتم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرمجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً» يقول تعالى: «وكذلك بعثناهم» أي: من نومهم الطويل «ليتساءلوا بينهم» أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

«قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلهذا «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم». فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: «وكذلك

أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها» فلولاً أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بوركهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أذكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحققتهم عليهم وعلى دينهم، ولما أن يفتنوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يقلحون أبداً، بل يجسرون في دينهم وديانهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

ومنها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: «فليُنظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه». وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمره بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم وأوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبعثه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: «ولن تفلحوا إذا أبداً»

﴿٢١﴾ «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم نبياً نام بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً» يخبر الله تعالى، أنه

أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمره بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا بُعْد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، ورحمة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و «قالوا ابنوا عليهم نبياً» الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

«لنتخذن عليهم مسجداً» أي: نعبد الله تعالى فيه، ونشكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهي عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، أوأاه الله، وجعله هداية لغیره، ومن تحمل الدل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب «وما عند الله خير للأبرار».

﴿٢٢﴾ «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعبادتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً



ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴿ بخير تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافاً صادراً عن رجهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها. ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا إن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴿ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: «إني فاعل ذلك» من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو:

الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محظور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه، ولما كان العبد بشراً، لا يذ أن يسهو^(١) فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك، إذا ذكر، ليحصل المطلوب، ويندفع المحذور، ويؤخذ من عموم قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه، وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه، ولا يكون من الغافلين، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾

﴿قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿فلا تمار﴾ أي: تجادل وتجادل ﴿فيهم إلا مراء ظاهراً﴾ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المارة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكن المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضييعاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة.

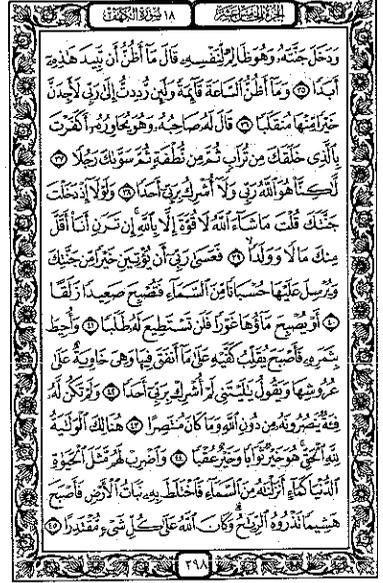
﴿ولا تستفت فيهم﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أحداً﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فهم على الرجم بالغيب والظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي

فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحرثي بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ «وليشوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وأزادوا تسعاً * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصره وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴿ لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف، لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها تختص به، فما أخبر به عنها على السنة رسله، فهو الحق اليقين، الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحداً من الخلق لا يعلمه.

وقوله: ﴿أبصره وأسمع﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والبصريات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن

(١) كذا في ب، وفي أ: يسهي.



انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسرهم ليسرى، ويحببهم العسرى، ولهذا قال: ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾. أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق.

﴿ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدرى، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدرًا، وخلقًا وتدبيرًا، والحاكم فيهم بأمره ونبيه، وثوابه وعقابه. ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يخرج بها عباده، وكان هذا القرآن، قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتضديق أخباره، وامثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغيير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا﴾ فلتمامها، استحسانًا عليها

التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه.

﴿ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المنتظر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿٢٨﴾ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وتابع هواه وكان أمره فرطًا﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المؤمنين ﴿الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، وتخالطهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للنظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُقبِل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿واتبع هواه﴾ أي: صار تبعاً

لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ الآية.

﴿وكان أمره﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فرطًا﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نسي الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلأ قلبه بحمبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرقي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحملون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة

وذلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله ﴿يَحْمِلُونَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ كلتا الجنتين آتت أكلهما ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمر * يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والأجل، والثواب، ليعتبرا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين جنتين، من أعناب.

﴿وحففناهما بنخل﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصتوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حُفَّ بذلك، وداز به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكتمل بها الثمار، وتنضج وتنضج، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿﴾ أنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وكان له﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾ أي: عظيم كما يفيد التنكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارها،

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متعباً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

﴿أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾. أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحللتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما راق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال التعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نعم الثواب﴾ للعاملين ﴿وحسنت مرتفقاً﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الخيرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمان، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يجرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشرُّ ما عندنا من التقصير والعصيان.

﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن﴾ ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إنا أعتدنا للظالمين﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وإن يستغيثوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد.

﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

﴿يشوي الوجوه﴾ أي: فكيف بالأعضاء والبطون، كما قال تعالى ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ ولهم مقامع من حديد﴾.

﴿بئس الشراب﴾ الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به، فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يفتقر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وَأَرْجَحَّتْ أَشْجَارُهَا، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿٣٤-٣٦﴾ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها متقلباً * أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرجات المعتادة، مفتخراً عليه:

﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، والإفأى: افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمان، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ف ﴿قال ما أظن أن تبعد﴾ أي: تقطع وتضمحل ﴿هذه أبداً﴾ فاطمان إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي﴾ على ضرب المثل ﴿لأجدن خيراً منها متقلباً﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبسخهم حظاً من العقل، فأبي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطني في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه

قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿٣٧-٣٩﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً * لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً * ولو لا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله * أي: قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وأوصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهياً لك ما هياً من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجدد^(١) نعمته، وترزع أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا ما لا ينبغي ولا يليق. ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

﴿٣٩-٤٤﴾ ﴿إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً﴾ * فعسى ربي أن يؤتين خيراً

من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً * وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولددك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حسباناً من السماء﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره، ﴿فتصبح﴾ بسبب ذلك ﴿صعيداً زلقاً﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، ﴿أو يصبح ماؤها﴾ الذي مادتها منه ﴿غوراً﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطفته، واطمان إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وأحيط بشمره﴾ أي: أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه،

(١) في ب: وتجهل.

(٢) في ب: والتزام.

وشره، ولهذا قال: ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾.

قال الله تعالى: ﴿ولم تكن له فئة يتصرونه من دون الله وما كان متصراً﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً﴾ فلم يدفعا عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا!!؟

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، وورقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

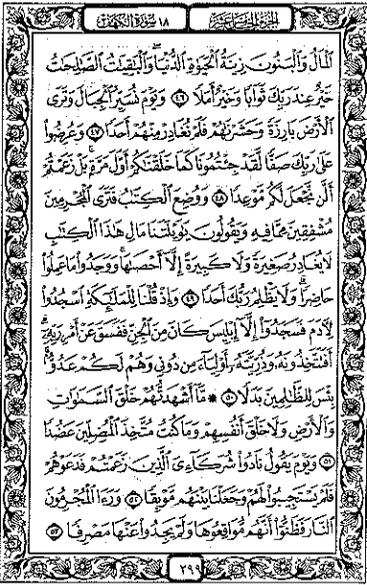
﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فشوابه الدنيوي والأخروي، خير^(١) ثواب يرجى ويؤمل، ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بنحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألتهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يجرمها طويلاً، وأن العبد

ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى مولها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكراً لله متسبباً لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله:

﴿إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً * فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ وفيها أن المال والولد لا يتفغان، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى:

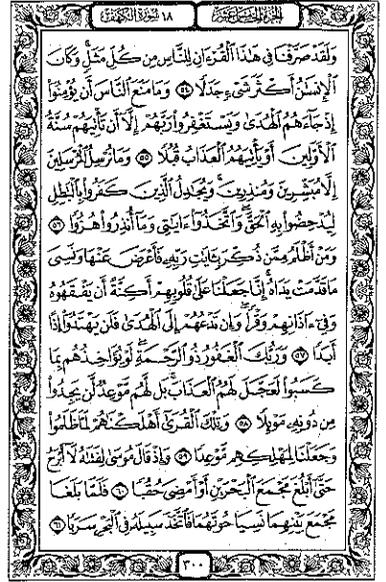
﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم، وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم ف ﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: عاقبة ومآلاً.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ أصلاً، ولن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كممثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تثبت من كل زوج بهيج، فبينما زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ



بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قيد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلّف ماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته، وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سئى أعماله، هنالك بعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدرني أنك قد مِتَّ، ولا بد أن تموت، فأني: الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والمتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبعات (شر ثواب) وهي في النسختين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو الذي ثوابه خير ثواب.



المال والبنون ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات. ﴿٤٧ - ٤٩﴾ «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً* وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها* أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، ووجدوا ما عملوا حاضراً* لا يقدرون على إنكاره* ولا يظلم ربك أحداً* فحيثما يجازون بها، ويقررون بها، ويحزون، ويحسبون عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿٥٠﴾ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً* يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامتنالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك* إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه* وقال: «أأسجد لمن خلقت طيناً* وقال: «أنا خير منه* فتبين هذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين* أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً* أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟!»

﴿٥١﴾ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً* يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامتنالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك* إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه* وقال: «أأسجد لمن خلقت طيناً* وقال: «أنا خير منه* فتبين هذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين* أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً* أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟!»

تشتيمه الأنفس وتلد الأعين؟ فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وريحه من خسارانه، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة، والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسيب، وتحميد، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة زحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والماليك، والبهاائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فتواها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجراها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته، وهو

قال:

﴿٥٥﴾ «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً» أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق، بين الهدى والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليثوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿٥٦﴾ «وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً» أي: لم ترسل الرسل عبثاً، ولا ليتخذهم الناس أرباباً، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، ويهتدون عن كل شر، ويشروهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل، وينذروهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والأجل، فقامت بذلك حجة الله على الكافرين، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل، ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها، وتبين الباطل وفساده، فيضدها وتبين الأشياء.

﴿٥٧-٥٩﴾ «ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه فأعرض عنها ونسي ما

يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حيثئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبرهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٥٣﴾ «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحققت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفتدة والقلوب.

﴿٥٤﴾ «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شياً جدلاً» يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، وفيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقاداً، وطمأنينة، ونوراً، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ولهذا قال: «وكان الإنسان أكثر شياً جدلاً» أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعدوان، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا

قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾.

وقال تعالى: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾.

﴿٥١-٥٢﴾ «ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً* ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً» يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين]، ﴿خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله، أن يجعل لهم قسطاً من التدبير، لأنهم ساعدوا في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصمهم ولا يندبهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿نادوا شركائي﴾ بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض، ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفعوكم، ويخلصوكم من الشدائد، ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مقال ذرة من النفع لنفسه ولا غيره.

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿موبقاً﴾ أي: مهلكاً،

قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا * وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً * وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً * يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذُكر بآيات الله ويُنن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوف ورُهب وزُعب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يدها من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف^(١) ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه للذنوب، ورضاه لنفسه، حالة الشرع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، * وفي آذانهم وقراً أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل، * وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا * لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن

ذلك . ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتممه برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ^(٢) العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأتوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي: وقتاً مقدراً، لا يستقدمون عنه ولا يتأخرون .

﴿٦٠ - ٨٢﴾ ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حورتها فاتخذ سبيله في البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا أتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لنتستطيع معي صبراً * وكيف نصبر على ما لم

تخط به خبراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها * إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ يخبر تعالى عن نبية موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه - أي: خادمه الذي يلزمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: - ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أو أمضي حقياً﴾ أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه .

﴿فلما بلغا﴾ أي: هو وفتاه ﴿مجمع بينهما نسيا حورتها﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت قُتِم ذلك العبد الذي قصده، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات .

قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً .

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه: ﴿أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي: لقد تعبتنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

(١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت.

(٢) في الأصل واخذ.

الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه: ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت﴾ أي: ألم تعلم حين أوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿واخذ سبيله في البحر عجبا﴾ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

قال المفسرون: كان ذلك المملك للحوث سرباً، وموسى وفتاه عجبا، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الخوت، وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ أي: نطلب ﴿فارتدا﴾ أي: رجعا على آثارهما قصصاً أي: رجعا يقصان أثرهما، إلى المكان الذي نسيا فيه الخوت فلما وصلا إليه، وجدا عبداً من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبداً صالحاً، لا نبياً على الصحيح.

آتيناه [رحمة من عندنا أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وعلمناه﴾] ﴿من لدنا﴾ [أي: من عندنا] علماء، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير

من الأشياء التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لمن تستطيع معي صبراً﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره، وعلمت المقصود منه ومآله؟

فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء المتنحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر، فحيث قال له الخضر: ﴿فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي: لا تتبدئي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاء عن سؤاله، ووعد أنه يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك نسيبته، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لفرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أخرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئاً إرمياً﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿ألم أقل لك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ أي: لا تعسر علي الأمر واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْكَ اللَّهُ فَنَسِيْتُ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذْتُ خُوتِي أَهْلِي مَتَابِعًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فَأَنْزَلْنَاهُ أُنْحَالَةً فَصَبَا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِهِ نَسِيَتْ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذْتُ خُوتِي أَهْلِي مَتَابِعًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فَأَنْزَلْنَاهُ أُنْحَالَةً فَصَبَا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِهِ نَسِيَتْ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذْتُ خُوتِي أَهْلِي مَتَابِعًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فَأَنْزَلْنَاهُ أُنْحَالَةً فَصَبَا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِهِ نَسِيَتْ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذْتُ خُوتِي أَهْلِي مَتَابِعًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فَأَنْزَلْنَاهُ أُنْحَالَةً فَصَبَا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِهِ نَسِيَتْ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذْتُ خُوتِي أَهْلِي مَتَابِعًا

﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً﴾ أي: صغيراً ﴿فقتله﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب، ﴿قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟ وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾

فقال [له] موسى: ﴿إن سألتك عن شيء﴾ بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبتترك صحبتي ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصّر. ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ أي: استضافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فأقامه﴾ الخضر أي: بناه وأعادته جيداً. فقال له موسى: ﴿لو شئت لأتخذت عليه أجراً﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟ فحيث لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر



الخضر منه، فقال له:

«هذا فراق بيني وبينك» فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة، «سأنتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً» أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأنتك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

«أما السفينة» التي خرقتها «فكانت لمساكين يعملون في البحر» يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم. «فأردت أن أعيبيها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقتها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

«وأما الغلام» الذي قتلته «فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا» وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرقت أبويه طغياناً وكفراً، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدسها على ذلك، أي: فقتلته، لإطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي: فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة!! وهو وإن كان فيه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً» أي: ولدنا صالحاً، زكياً، واصلحاً لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

«وأما الجدار» الذي أقمته «فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً» أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتها، لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما.

«فأراد ربك أن يبلغنا أشدهما ويستخرجنا كنزهما» أي: فلهدنا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاناً. «رحمة من ربك» أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، أتاهما الله عبده الخضر «وما فعلته عن أمري» أي: أتيت شيئاً من قبل نفسي، وبمجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

«ذلك» الذي فسرت لك «تأويل ما لم تستطع عليه صبراً» وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، نبه على بعضه بعون الله. فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الخضر والسفر لكفاية المؤنة وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخيار بمطلبه، وأين يريد، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهاراً لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقاً»

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة. ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره».

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً، لقول موسى: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً»

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فظناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: «آتينا غداءنا» إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً» والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: «آتينا غداءنا» فحيث تذكر أنه

نسيه في الموضوع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً، لذكر ذلك كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً﴾.

ومنها: أن العلم الذي يعلّمه الله [لعباده]^(١) نوعان:

علم مكتسب يدرسه العبد بجدده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمتن عليه من عباده لقوله: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام:

﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للمتعلم ممن دونه، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمه فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه.

فعل هذا، لا ينبغي للفقير المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله:

﴿تعلمن مما علمت﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق^(٢) الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإذا أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يقوته بحسب عدم صبره كثير من العلم^(٣)، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدرسه، أو لا يدرى غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به﴾ خبراً. فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضوع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد، لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكسر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: لطريق.

(٣) بدلاً من الجملة: (أنه يقوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.
ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه، بقوله: ﴿فأردت أن أعيبتها﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى، لقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك﴾ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ وقالت الجن: ﴿وأنأ لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المراقبة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض أجزأها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على الطافه في أفضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرهه.

﴿٨٣ - ٨٨﴾ ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾. ﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾. ﴿فأتبع سبباً﴾ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إنا أن نعذب وإنما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ قال أنا من ظلم فسوف

السكوت عنها، في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام ويأدر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجلية وهو أنه: «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعي أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانها خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن: «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير» كما حرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان، بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿يعملون في البحر﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: ﴿بغير نفس﴾.

وهذه الأسباب التي أعطاها الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تنتقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهاذا لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عددٍ وعُدَدٍ ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاها الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، وأها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند مغربها قوماً ﴿قلنا يا ذا القرنين إنا أن

تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴿أي﴾ :
 إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر
 ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فخير
 بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم إما كفار
 أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك،
 لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم
 يرخّص له في تعذيبهم، فكان عند ذي
 القرنين من السياسة الشرعية ما استحق
 به الملح والثناء، لتوفيق الله له لذلك،
 فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أما من
 ظلم﴾ بالكفر ﴿فسوف نعذبه ثم يرد إلى
 ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي: تحصل له
 العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة
 الآخرة، ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً
 فله جزاء الحسنى﴾ أي: فله الجنة
 والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم
 القيامة، ﴿وستنقلو له من أمرنا يسراً﴾
 أي: وستحسن إليه، ونلطف له
 بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل
 على كونه من الملوك الصالحين والأولياء
 العادلين العاملين، حيث وافق
 مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما
 يليق بحاله.

﴿٨٩ - ٩٨﴾ ثم أتبع سبباً *

حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها
 تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها
 ستراً * كذلك وقد أحطنا بما لديه
 خيراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ
 بين السدين وجد من دونهما قوماً
 لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا يا ذا
 القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون
 في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على
 أن تجعل بيننا وبينهم سداً * قال ما
 مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل
 بينكم وبينهم ردماً * أتوني زبر الحديد
 حتى إذا ساوى بين الصدفين قال
 انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني
 أفرغ عليه قطراً * فما استطاعوا أن
 يظهروه وما استطاعوا له نقباً * قال
 هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي
 جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً * أي:
 لما وصل إلى مغرب الشمس كثر راجعاً،
 قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي
 أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس
 ف ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم

بأمكنة في الأرض والله من كل شيء وسياً * فأتبع سبباً
 حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تقرب في عين جمجمة ووجد
 عندها قوماً فلما نادى الذين أن تعذب أو أمان أن تتخذ فيهم
 حسناً * قال ما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه
 فيعذبه عذاباً نكراً * وأما من آمن وعمل صالحاً فله حسنة
 الحسنات وتكون له أجراً عظيماً * فأتبع سبباً * حتى إذا
 بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها
 ستراً * كذلك وقد أحطنا بما لديه خيراً * ثم أتبع سبباً *
 حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون
 يفقهون قولاً * قال أئمة القرآن إنك يا أجوج وماجوج
 مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا
 وبينهم سداً * قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل
 بينكم وبينهم ردماً * أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين
 الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أفرغ عليه
 قطراً * فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً *

ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم:
 ﴿ما مكنتي فيه ربي خير﴾ أي: بما
 تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم
 أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿اجعل
 بينكم وبينهم ردماً﴾ أي: مانعاً من
 عبورهم عليكم.

﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي: قطع
 الحديد. فأعطوه ذلك.

﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾
 أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد
 ﴿قال انفخوا﴾ النار أي: أوقدوها
 إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها المنافع
 لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب
 النحاس، الذي يريد أن يبلصقه بين زبر
 الحديد ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾
 أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر،
 فاستحکم السد استحكاماً هائلاً،
 وامتنع به من وراءه من الناس، من
 ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما
 استطاعوا له نقباً﴾ أي: فما لهم
 استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه
 لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه
 وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل
 والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولياها
 وقال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ أي: من
 فضله وإحسانه علي، وهذه حاك
 الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم
 بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم
 وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما

﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين
 السدين﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهاً
 من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل
 إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا
 سلاسل جبال معروفين في ذلك
 الزمان، سداً بين يأجوج ومأجوج
 وبين الناس، وجد من دون السدين
 قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، لعجمة
 ألسنتهم، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم،
 وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب
 العلمية، ما فقه به السنة أولئك القوم
 وفقههم، وراجعهم وراجعوه،
 فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج،
 وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم،
 فقالوا:

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في
 الأرض﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير
 ذلك.

﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي:
 جعلاً ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾
 ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم
 على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي
 القرنين عليه، فبذلوا له أجره ليفعل
 ذلك، وذكروا له السبب الداعي،
 وهو: إفسادهم في الأرض، فلم يكن
 ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في
 الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال
 الرعية، بل كان قصده الإصلاح،
 فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من
 المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر



في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴿١٠١﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

﴿١٠١﴾ ولهذا قال: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ كما قال تعالى: ﴿وبرزت للجحيم للغاوين﴾^(١) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحيمها، وزمهيرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا ﴿كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي: لا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم^(٢) سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله ووجدوا آياته، وكذبوا رسوله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيراً.

﴿١٠٢﴾ ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ وهذا برهان وبيان، لبطان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء

والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسوله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ أي: لا يكون ذلك ولا يزال ولي الله معادياً لله أبداً، فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم *.

فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المنايذون لرسوله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، وينفعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسان باطل، وظن فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس بيدهم من النفع والضرر، شيء، ويكون هذا كقولته تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴿ ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ أي: ضيافة وقرى، فيبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿١٠٣- ١٠٦﴾ ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة جزاءهم * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً وطرأ.

كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة - قال: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾.

وقوله: ﴿فيأذا جاء وعد ربي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جمعه﴾ أي: ذلك السد المحكم المتين ﴿دكاه﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ يحتمل أن الضمير، يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يمتعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿ونفخ

(١) في السخيتين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم.

(٢) في السخيتين: له.

واتخذوا آياتي ورسلي هزواً! أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟! فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، في ﴿خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؟﴾ ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به وبملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿فحبطت﴾ بسبب ذلك ﴿أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويجزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقيم لهم يوم القيامة، ﴿وزناً﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزئون بها، ويسخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتحسوا، وانتكسوا في العذاب. ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين وأعمالهم فقال:

﴿١٠٧ - ١٠٨﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

الفرردوس نزلاً * خالدين فيها لا يبعثون عنها حولاً﴾ أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، لهم جنات الفرردوس.

يحتمل أن المراد بجنات الفرردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كتمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدین، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفرردوس، ولأن الفرردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفرردوس نُزِّل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي: ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المفردة المشجية، والمأكّل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها وأدومها وأكملها!!، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تحيط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿١٠٩﴾ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جُنُتَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لو كان البحر مداداً﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مداداً

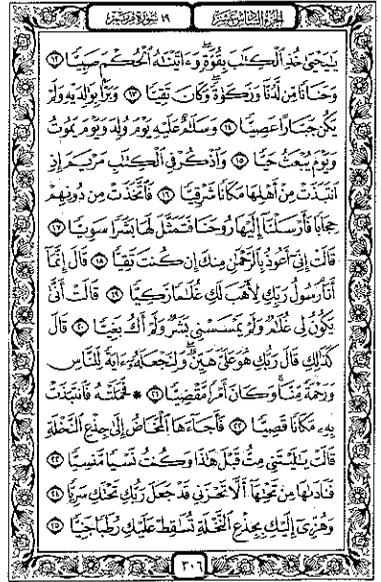
على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب الآف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفدت^(٢)، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿خالدین فیہا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لا يبعثون عنها حولاً﴾ أي: تحولا ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿١٠٩﴾ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جُنُتَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لو كان البحر مداداً﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مداداً

(٢) كذا في أ، وفي ب: وهت.

(١) في النسختين: ويستخرون.



ومعرفته، والسبب الموصل إليه . وذلك أن الله تعالى اجتنبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد يتوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكوا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال:

﴿رب إني وهن العظم مني﴾ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره، ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الخول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تنزل بي حفيماً ولدعائي مجيباً، ولم تنزل الطافك تنوالياً علي، وإحسانك واصلًا إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً.

﴿وإني خفت الموالى من ورائتي﴾ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس بطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين

﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، و ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يوحى إلي أنما الإلهكم إله واحد﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما الإلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: لا يرأى بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

تفسير سورة مريم وهي مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴿وإني خفت الموالى من ورائتي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴿أي: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ سنقصه عليك، ونفصله تفصيلاً يعرف به حالة نبيه زكريا، وأثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصتها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأولياته، وبأى سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره

لكلمات ربي﴾ أي: وأشجار الدنيا أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام، لنفد البحر﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأني سعة وعظمة تصورها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿١١٠﴾ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الإلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي:

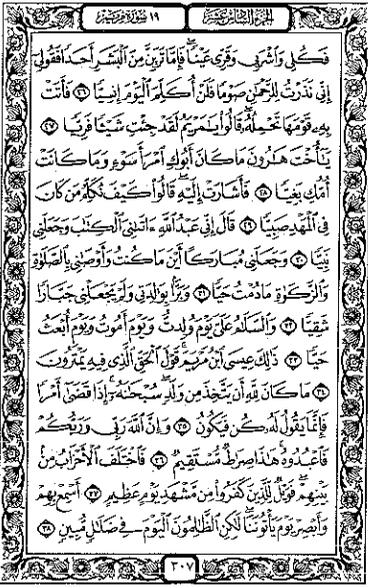
وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليفة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجادها قبل ولم يكن شيئاً.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هو، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ فطلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به، ف﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام وموآدها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا أفة، بل كان سوياً، لا نقص فيه، من الأدلة على قدرة الله الحارقة للعوائد، ومع هذا، ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وإذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتنل لأمر الله له بالشكر لعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه فأوحى إليهم، أي: بالإشارة والرمز ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ لأن البشارة بـ «يحيى» في حق الجميع، مصلحة دينية.

﴿١٢-١٥﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً﴾ وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً

من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة، أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً، أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والولد، ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ أي: عبداً صالحاً ترضاه وتحبه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولداً، ذكراً، صالحاً، يبقى بعد موته، ويكون ولياً من بعده، ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً، جامعاً لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه، واستجاب دعوته، فقال:

﴿٧-١١﴾ ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال رب أتى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له «يحيى»، وكان اسماً موافقاً لسمائه: يحيى حياة حسية، فتمم به المنة، ويحيى حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين، ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلاً ومسامياً، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم، وموسى، ونوح عليهم السلام، ونحوهم، ممن هو أفضل من يحيى قطعاً، فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه، استغرب وتعجب وقال: ﴿رب أنى يكون لي غلام﴾ والحال أن المانع من



بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجهد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه، ﴿و﴾ وآتيناه أيضاً ﴿حناناً من لدنا﴾ أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

﴿وزكاة﴾ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وكان تقياً﴾ أي: فاعلاً للمأمور، تاركاً للمحظور، ومن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، ما رتبته الله على التقوى.

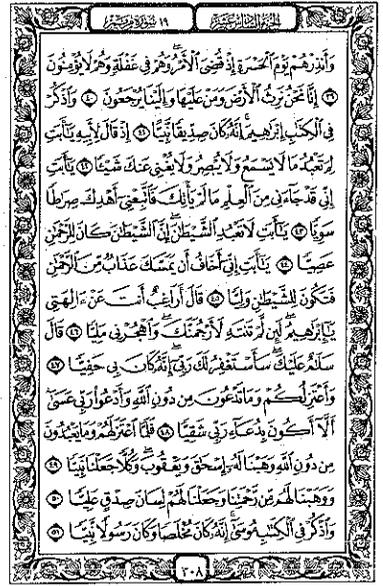
﴿و﴾ كان أيضاً ﴿براً بوالديه﴾ أي:

وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المناع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها أبناً آية للعالمين﴾ فأعاضها الله بعفتها، ولدأ من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة، قال: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك؟! ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لثلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة أمراً مقضياً. قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام، في جيها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب الكريم مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت: أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكاناً شرقياً﴾ أي: بمابلي الشرق عنهم، فانحذت من دونهم حجاباً: أي: سترأ وامنعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربه، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد انحذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت برهبا، واستعاذت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته، أن تنالني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام برهبا، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،



لم يكن عاقباً، ولا مسيئاً إلى أبيه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلماذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ فانحذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾ لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ لأن ذلك لم يجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحيث قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطبهم بوضفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿شقيماً﴾ في دنياي أو آخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذنباً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، ومحمد الخصال قال: ﴿والسلام علي يوم

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، ويكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧- ٣٣﴾ ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك اسماً سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً * قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بالذي لم يجعلني جباراً شقيماً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * أي: فلما تعلقت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١)، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فسبواها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الإصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

﴿٢٢- ٢٦﴾ ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلي واشربي وقري عينا فإما تریين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً * أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مكاناً قصياً﴾ فلما قرب ولادها، الجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنّت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحيث سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تحزعي ولا تهتمي، ف﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي: نهراً تشرين منه، ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيذاً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكّل والمشرب والهنّي.

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكوته ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام تسترجمي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا
وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا
موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون
حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا
الضلال، لأنهم بين معاند ضال على
بصيرة، عازف بالحق صادف عنه،
وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من
معرفة الحق والصواب، ولكنه راض
بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله،
غير ساع في معرفة الحق من الباطل،
وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين
كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود
الضمير إلى الأحزاب، لأن من
الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت
الصواب، ووافقت الحق، فقالت في
عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا
به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير
داخلين في هذا الوعيد، فلهذا
خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم
الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة
وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث
الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾
الإذار هو: الإعلام بالخوف على وجه
الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما
ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة
حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون
والآخرون في موقف واحد، ويسألون
عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع
رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها،
ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقي
شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر
نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم
ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع
منها الأفتدة، وأي: حسرة أعظم من
فوات رضا الله وجنته، واستحقاق
سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من
الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له
إلى تغيير حاله بالمرء إلى الدنيا؟! فهذا
قداسهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم﴾ الذي خلقنا، وصورنا،
ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له
العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي
هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد
الإلهية، والاستدلال بالأول على
الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط
مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل
إلى الله، لكونه طريق الرسل
وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق
الغى والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد
يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم
يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ لما بين تعالي حال عيسى ابن
مريم الذي لا يُشك فيها ولا يمتري،
أخبر أن الأحزاب، أي: فرق
الضلال، من اليهود والنصارى
وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم
اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن
غالٍ فيه وجاف، فمنهم من قال:
إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله
ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة ومنهم
من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد
بغبي كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم
باطلة، وأراؤهم فاسدة، مبنية على
الشك والعماد، والأدلة الفاسدة،
والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء
مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا
قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله
ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود
والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر
﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد
يوم القيامة، الذي يشهده الأولون
والآخرون، أهل السماوات وأهل
الأرض، الخالق والمخلوق، المتلىء
بالزلازل والأهوال، المشتمل على
الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا
يخفون ويدون، وما كانوا يكتنون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾
أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك
اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾
أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي
السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم
بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة،
وذلك يقتضي سلامته من الأهوال،
ودار الفجار، وأنه من أهل دار
السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان
باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله
حقاً.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن
مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما
كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا
قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾
وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط
مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك
الصفات، عيسى ابن مريم، من غير
شك ولا مرية، بل قول الحق
وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً،
ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر
اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما
قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع
بطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله
لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه
يسترون﴾ أي: يشكون فيما روي
بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن
قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو
ثالث ثلاثة، تعالي الله عن إفكهم
وتقولهم علواً كبيراً، ف ﴿ما كان لله أن
يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا
يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة،
لأنه الغني الحميد، المالك لجميع
الممالك، فكيف يتخذ من عباده
وماليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه
وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا
قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار
والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب
﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان
قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي
والسفلي، فكيف يكون له ولداً؟! وإذا
كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن
فيكون﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى
من غير أم؟! ولهذا أخبر عيسى أنه
عبد مربيوب كغيره، فقال: ﴿وإن الله

(١) في ب: لا يسعد.

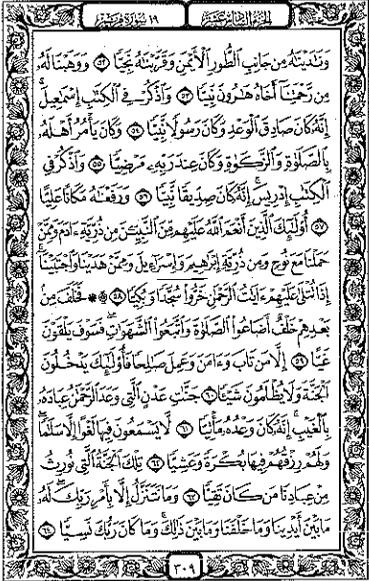
غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يحظر بقلوبهم، ولو خطر فعل سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكره، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألتهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهراتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستهذب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيروث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبتة، والإجابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الشناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاعتداء بهم، فقال: **﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾** جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

﴿٤١-٥٠﴾ **﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾** إنه كان صديقاً نبياً **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يبصر ولا يفني عنك شيئاً﴾** يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً **﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحم عصياً﴾** يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً **﴿قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً﴾** قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان يي حفيماً **﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾** فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً **﴿وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾** أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه الأخبار، وكانت أصدق الأخبار وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يبدي ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضّلهم على غيرهم،

فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه فقال: **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾** مهجئاً له عبادة الأوثان: **﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفني عنك شيئاً﴾** أي: لم تعبد أصناماً، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعبادتها نفعاً ولا ضرراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة التناقص في ذاته وأفعاله مستقيح عقلاً وشرعاً. ودل بتنبيهه وإشارته، أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس



عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: **﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾** أي: مستقيماً معتدلاً، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: **﴿يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل﴾** أو: **﴿ليس عندك من العلم شيء﴾**، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتتقاد لها.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**

﴿إن الشيطان كان للرحم عصياً﴾ فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه ولياً وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتعلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لتبيل رحمة، ولهذا قال: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابَ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾** أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتعاديك في الطغيان **﴿فتكون للشيطان ولياً﴾** أي: في الدنيا والآخرة، فتتزل بمنازله



أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: رحيمًا رؤوفًا بحالي، معتنيًا بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه .

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(٢١)، والصبر على ذلك، وعدم السامة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القوي والفعلي .

فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي: أنتم وأصنامكم ﴿وَادْعُونِي﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عَسَىٰ أَنْ لَا أَكُونَ بِدَعَاءِ ربي شَقِيًّا﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم الموعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿فَلَمَّا اعْتزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا مِنْهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿فَحَصَلَ لَهُ هَيْبَةٌ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ﴾^(٢٢) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين .

﴿ووهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿من رحمتنا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وقاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكراهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿وَنَادِيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له، والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين . وقرئ بكسرها، على معنى أنه مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجباً لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والمرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

الذميمة، وترتع في مراتعه الوحيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنتك إن أعطيتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أُرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ فتنجح بألفهته [التي هي] من الحجر والأصنام، ولأم إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوحيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها .

﴿لئن لم تنته﴾ أي: عن شتم آلهي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لأرجنك﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿واهجرتي ملياً﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾ أي: ستسلم من خطاي إياك بالشتم والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيًّا﴾ أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فصل له ولهؤلاء الصالحين.

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إبحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وتأديناه من جانب الطور الأيمن﴾

أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من الثمين والبركة. وبدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ ﴿وقربناه نجياً﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحانوحهم.

وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانته عليه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿وإذكفر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴿أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفى به، وهذا شامل

للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] (١) وقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ وفى بذلك ومكّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تضيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها (٢) من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمال غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وإذكفر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ ورفعناه مكاناً علياً ﴿أي: أذكر في الكتب (٣) على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال﴾ إدريس إنه كان صديقاً نبياً ﴿جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفايته لوحيه، واختياره لرسالته،﴾ ورفعناه مكاناً علياً ﴿أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلتحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين الآية. وأن بعضهم ﴿من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح﴾ أي: من ذريته ﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل﴾ فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خروا سجداً وبكياً﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً﴾ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿تلك الجنة التي نورت من عبادنا من كان تقياً﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

المخلصون^(١) المتبعون لمراضي ربهم، المتببون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمرُوا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأصاعوا الصلاة التي أمرُوا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها، وعلى أي: وجه انفتحت تناولوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جنازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجودونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والخبور. ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدوا الرحمن، أضافها إلى

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحته، فقال: ﴿وأما الذين ابضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً فضي إضافتها إلى رحته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلورأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدوا الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكنين إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم

من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مآتياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عياً، ولا قولاً فيه معصية الله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحمية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور والملائكة والولدان، والنعيمات المطرية، والألغاز الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا﴾ أي: أرزاقهم من المأكَل والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرة وعشيًا﴾ يعظم وقعها ويتم نفعها: فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي تورث من عبادنا من كان تقيًا﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبعون عنه جولا، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًا﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر مما تأتينا» - تشوقاً إليه، وتوحشاً

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

في النعت فلما نص الشيخ - رحمه الله - على ذلك أبقيتها كما هي.

لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله - فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ فنحن عبيد مأمورون، ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مديرون، فيبقى الأمر دائراً بين: «هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم يكن الله لينسأك وبهملك، كما قال تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ بل لم يزل معتنياً بأمرورك، مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يجوز لك ذلك ولا يهيك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه «رب السموات والأرض» فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدَي، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغله بما ينفكك ويعود عليك طائله، وهو: عبادته وحده لا شريك له، ﴿واصطبر لعبادته﴾ أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلياً للعابدين عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. «هل تعلم له سميّاً» أي: هل تعلم الله مسامياً ومشابهاً ومثالاً من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى الثقي، المعلوم

بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره مريبوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراذه بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراذه بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿ويقول الإنسان أإذا مات لسوف أخرج حياً﴾ * أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً. المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستفهماً على وجه النفي والعتاد والكفر - ﴿أإذا مات لسوف أخرج حياً﴾. أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصدته السيئة، وعناده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استنعاذه للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: ﴿أولا يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً، مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

وفي قوله: ﴿أولا يذكر الإنسان﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، باللفظ خطاب، وأن إنكار من أنكرك ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿فوربك لنحضرنهم

والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ * ثم لننزعن من كل شيعة أيمهم أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم، ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأحوال، وكثرة الزلزال، وفضاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيمهم أشد على الرحمن عتياً﴾ أي: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشركين في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتواً، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب، الأغلظ إثمًا، فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل؟ وكل هذا تابع لعنله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ * ثم نجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورد، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الاتزاع من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله التقيين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كمنح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يحطف فيلقى في النار، كلٌ بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خير مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

(١) كذا في ب، وفي أ: له.

تعالى:

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوام وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أكفاركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر﴾؟ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدده منها، ويزيده فيها حياً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ما يوعدون إما العذاب ﴿بقتل أو غيره﴾ وإما الساعة التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتقنون أنهم أهل الشر، ﴿وأضعف جنداً﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيحملون غير عملهم الأول. ﴿٧٦﴾ ﴿ويزيد الله الذين آتوا الهدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً﴾ لما ذكر أنه يمد للمهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً آخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، وبدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾. ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً﴾ أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير باب، فإنه ما تم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً * أطلع

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً * وترثه ما يقول ويأتينا فرداً * أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكديباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مُشَقَّوْلٌ، قاتل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا الله وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون: فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوُّله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿وترثه ما يقول﴾ أي: ترثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزء أمثاله من الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿أم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزااً * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزااً، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويشربها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده ويحارب عنه، ويجهاد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطاناً، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتكلمون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نملهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر. ﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

أَنْبَشَتِ اللَّهُ كَفَرًا لَيْتًا وَقَالَ الْوَيْلُ مَا لَوْ لَدْنَا * أَلَمْ نَعْلَمْ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَكَتَ مَأْيُوتًا وَسَمِعْتَهُ مِنَ الْقَبَابِ مَدًّا * وَرِثَهُ مَا كَفَرًا * وَرَأَيْتَ عَذَابَ الْعَذَابِ * كَلَّا سَكَتَ عَنَّا يَا كُفْرًا * ضِيمًا * الْوَيْلُ لِمَنْ أَتَى سَكَنَاتِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْكُفْرَيْنِ نَزَلَهُمْ أَرَا * فَلَا تَعْمَلْ عَلَيْهِمْ إِمَّا تَعْمَلُ عَدَا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ رَبِّكَ * وَنَسُوقُ الْكُفْرَيْنِ إِلَى جَهَنَّمَ رُودًا * أَلَيْسَ كَذَلِكَ الشَّقَاءَ إِلَّا مَنَافِقًا * عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الرَّحْمَانَ رِيكًا * لَعَنَّا جَهَنَّمَ إِنَّمَا * مَكَرَكُمُ الشَّرُّ أَنْ تَنْكُرُوا نَفْسَكُم مِمَّا وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ وَإِنَّ كُفْرًا * أَنْ تَدْعُوا الرَّحْمَانَ وَرَبَّهُ * وَرَأَيْتَ كَيْفَ يَرْكَبُونَ الْآيَاتِ الرَّحْمَنِ عَذَابًا * لَقَدْ أَهْمَمْنَا مِنْهُمْ عَذَابًا * وَكَلَّمَهُمْ آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدًّا * ﴿١٣١﴾

والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد [إليه]، ما هو معلوم، فالمتقون يقدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفرح بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مواصيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الشواب على السنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واتقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثن، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى. ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم

فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإنما جعل الله لهم ودأ، لأنهم^(١) ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه.

﴿٩٧- ٩٨﴾ ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾ * وكم أهلكتنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً* يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه والانتفاع به، ﴿لتبشّر به المتقين﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والأجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذروهم، فتقوم عليهم الحجة، وتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيّ عن بينة. ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وكم أهلكتنا قبلهم من قرن﴾ من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم، أهلكتهم الله فليس لهم من باقية.

﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ والركز: الصوت الخفي، أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسماهم عظة للمتعتظين.

تم تفسير سورة مريم،
و الله الحمد والشكر

**تفسير سورة طه
وهي مكية**

﴿١ - ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم طه﴾ * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى* تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى* الرحمن على العرش استوى* له ما في

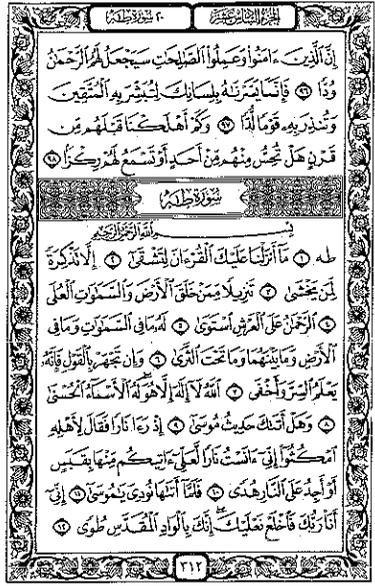
﴿وتنشق الأرض﴾ منه، أي: تتصدع وتنفطر ﴿وتخر الجبال هداً﴾ أي: تندك الجبال، ﴿أن دعوا للرحمن﴾ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر.

والحال أنه: ﴿ما ينبغي﴾ أي: لا يليق ولا يكون ﴿للرحمن أن يتخذ ولداً﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضاً، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي. ﴿إن كل من في السماوات والأرض، إلا آتي الرحمن عبداً﴾ أي: ذليلاً متقاداً، غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع ممالك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمة ملكه!!

﴿لقد أحصاهم وعدهم عداً﴾ أي: لقد أحاط علمه بالخلقات كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصى أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية.

﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ أي: لا أولاد، ولا ممال، ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾.

﴿٩٦﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم وداً، أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وذاً تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: ﴿إن الله إذا أحب عبداً، نادى جبريل: إني أحب



لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به ويرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهداً فأمن به ويرسله واتبعهم، فإنه من ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهداً، لأنه عهد في كتبه وعل أولسنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

﴿٨٨ - ٩٥﴾ ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولداً، كقول النصراني: المسيح ابن الله، واليهودي: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿لقد جئتم شيئاً إداً﴾ أي: عظيماً وخيماً، من عظيم أمره أنه ﴿تكاد السماوات﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يتفطرن منه﴾ أي: من هذا القول

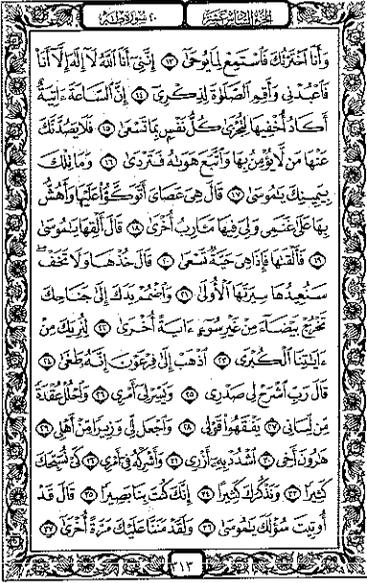
(١) في أ: لأنه.

السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى * طه * من جملة الحروف المقطعة، المفتوح بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ، «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشعر، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقتها الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: «إلا تذكرة لمن يخشى» إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة، التي كان مستقراً في عقله حسنها مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله **تذكرة** * والتذكرة لشيء كان موجوداً، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة **«من يخشى»** لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، **«سيذكر من يخشى»** ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدبر لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.

كما في هذه الآية، وكما في قوله: «إلا له الخلق والأمر» وفي قوله: «الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما» وذلك أنه الخالق الأمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضاً فإن خلقه للمخلق فيه التدبير القدرى الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان. فلما بين أنه الخالق المدبر، الأمر الناهي، أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: **«الرحمن على العرش»** الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، **«استوى»** استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، **«له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما»** من ملك وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات، **«وما تحت الثرى»** أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون، مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

«وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر» الكلام الخفي **«وأخفى»** من السر، الذي في القلب، ولم ينطق به. أو السر: ما خطر على القلب. **«وأخفى»** ما لم يحظر. يعلم تعالى أنه يحظر في وقته، وعلى صفته، المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسرته، فالكل سواء، بالنسبة لعلمه تعالى.

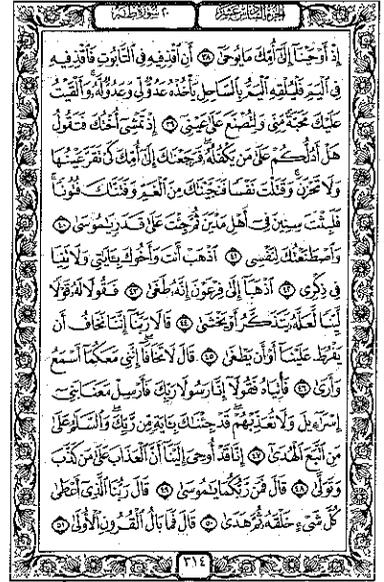
فلما قرر كماله المطلق، بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه، نتج من ذلك، أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره



باطلة، فقال: **«الله لا إله إلا هو»** أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء، إلا هو.

«له الأسماء الحسنى» أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسننها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يجيبها، ويجب من يجيبها، ويجب من يحفظها، ويجب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، قال تعالى: **«والله الأسماء الحسنى فادعوه بها»**.

٩ - ١٢ * **«وهل أتاك حديث موسى»** إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني أتست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودي يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستهزاء التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: **«هل أتاك حديث موسى»** في حاله التي هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته، أنه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه



البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره، ﴿فقال لأهله إني أنست﴾ أي: أبصرت ﴿ناراً﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن، ﴿لعمل آتاكم منها بقبس﴾ تصطلون به ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه، النور الجسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله.

﴿١١﴾ ﴿فلما أتاها﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وناديناها من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً﴾ ﴿إني أنا ربك فاخضع لعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ أخيره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهبأ لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

(١) كذا في ب، وفي أ: وتدخيله.

كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار»، فالله أعلم بذلك.

﴿وأنا اخترتك﴾ أي: تحيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال:

﴿فاستمع لما يوحي﴾ أي: ألقى سمعك للذي أوحى إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدأه، وعماد الدعوة الإسلامية، ثم بين الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثل ولا كفو ولا سمي، ﴿فابعيني﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿لذكرى﴾ اللام للتعليل أي: أتم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿إن الساعة آتية﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أكاد أخفيها﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: ﴿يسألك الناس عن الساعة قل

إنما علمها عند الله﴾ وقال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ فعلها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿ليجزى الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

﴿١٦﴾ ﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك، من كان كافراً بها، غير معتقد لوقوعها.

يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقين من الشبه ما يقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه خاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله^(١)، وكون النفوس مجبولة على التشبه، والاقتران بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها، أو نقص شيء منها.

وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقوله: ﴿فتردى﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد

عنها، وقوله تعالى:

﴿١٧ - ٢٣﴾ وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تحف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * .

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقربه عينه، ويقوى إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة جنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ولي فيها مآرب﴾ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾ غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال احتمالاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجايبه بعينها، ومنفعتها فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى﴾ فألقاها فإذا هي حية تسعى انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تحييل

لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خذها ولا تحف﴾ أي: ليس عليك منها بأس. ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه - آية، ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي: أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: بياضاً ساطعاً، من غير عيب ولا برص ﴿آية أخرى﴾.

قال الله: ﴿فذاذك برهانان من ربك إلى فرعون وملئيه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٢٤ - ٣٦﴾ إنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * أشد به أزي * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أوتيت سؤالك يا موسى * لما أوحى الله إلى موسى، ونبأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي:

تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والفهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -

قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجة بالرسول، فحيث علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملاً عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] من تمام الدعوة، فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القوي والفعل، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿ويسر لي أمري﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقضه في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ أي: معيناً^(٢) يعاونني، ويؤازري، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب

(٢) في النسخين: عونياً.

(١) زيادة من هامش: ب.

الأيام، وأحق برب الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هارون أخي * اشد به أزرى﴾ أي: قوني به، وشد به ظهري، قال الله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ ﴿وأشركه في أمري﴾ أي: في النبوة، بأن تجعله نبياً رسولاً، كما جعلتني. ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾ علم عليه الصلاة والسلام، أن مدار العبادات كلها والدين، على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسييح والتهليل، وغيره من أنواع العبادات. ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

البيوت من أبنائها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلأ بحسب حاله، وتعام ذلك، أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت، لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيتها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم خصوصاً، خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة، فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي * أن اذفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك حبة مني ولتصنع على عيني * إذ تشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وقتناك فتونا فليث ستين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى * واصطنعتك لنفسي﴾ لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقدفك في التابوت وقت الرضاع، خوفاً من فرعون، لأنه أمر يذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفاً شديداً فقدفته في التابوت، ثم قدفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقه في الساحل، وقبض أن يأخذه، أعدي

فقال الله: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنتشرح صدرك، وتيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، ﴿ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالون﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام، من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراضات، ولحاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتمجيئه،

(١) كذا في ب، وفي أ: عناد وتكبر وطغيان.

﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً﴾ وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿فاستغاثه الذي من شيعة على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن الملائ طلبوه، يريدون قتله.

فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل، ﴿وفتناك فتونا﴾ أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، ﴿فليث ستين في أهل مدين﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين،

﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ أي: جئت مجيئاً قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿واصطغعتك لنفسي﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي، لتكون لنفسي حبیباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه؟!!

﴿٤٢ - ٤٦﴾ ﴿أذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ أذهباً إلى فرعون إنه طفئ ﴿فقولا له قولاً ليلاً لعله يتذكر أو يخشى﴾ قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له:

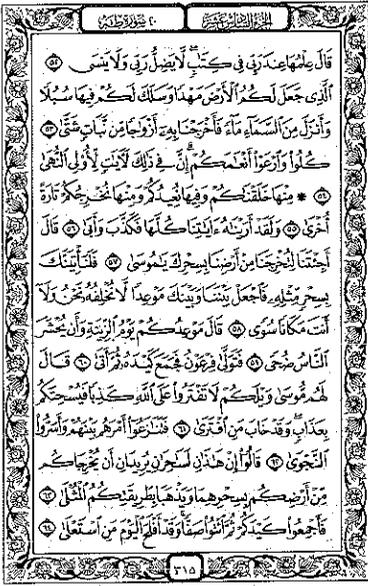
﴿أذهب أنت وأخوك﴾ هارون ﴿بآياتي﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئته، ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرا عليه، والزمناه كما وعدنا بذلك ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهّلها، ويخفّف حملها.

﴿أذهباً إلى فرعون إنه طفئ﴾ أي: جاوز الحد، في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه. ﴿فقولا له قولاً ليلاً﴾ أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في

المقال، أو فظاظه في الأفعال، ﴿لعله﴾ بسبب القول اللين ﴿يتذكر﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿أو يخشى﴾ ما يضره فتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴿فإن في هذا الكلام، من لطف القول وسهولته، وعدم بشاعته، ما لا يخفى على المتأمل، فإنه أتى بـ «هل» الدالة على العرض والمشاورة، التي لا يشتمز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأذناس، التي أصلها التطهر عن الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل «أزكيك» بل قال: «تزكى» أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه، الذي رباه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها فقال: ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

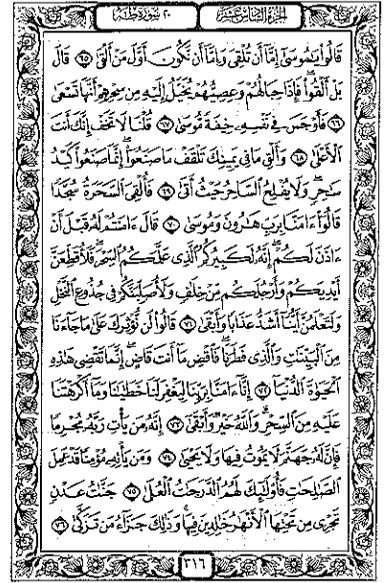
﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا، قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أو أن يطغى﴾ أي: يتردد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه، ﴿قال لا تخافا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي: أتتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعده ربهما.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئتنا بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴿أي: فأتياه بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل - من قيده وتعبيده لهم، ليحرروا ويملكوا أمرهم، ويقوم فيهم موسى شرع الله



ودينه. ﴿قد جئتنا بآية﴾ تدل على صدقنا ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿إلى آخر ما ذكر الله عنهما﴾ ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ أي: من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة. ﴿إنا قد أوحى إلينا﴾ أي: خير من عند الله، لا من عند أنفسنا ﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾ أي: كذب بأخبار الله، وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظملاً وعداؤاً.

﴿٤٩ - ٥٥﴾ ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك آيات لأولئ النهي ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾



أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثم هدى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيمن من العقل، ما يتمكن^(٢) به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاه خلقها الحسن، الذي لا تقتصر العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما تمكن.

الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعدا، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولا قوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فثلك أمة قد خلت، لها ما كتبت ولكم ما كتبت، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناها، قد تحققت صدقها، ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً، ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدوا مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض، ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي: فرأشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للزادراغ وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها محتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم، أكثر مما يتنفعون بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ أي: أنزل المطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت بذلك جميع أصناف النوايت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوايت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضراً، كالسوم ونحوه.

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحبي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن

سحكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها، تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على إعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿٥٦ - ٦١﴾ ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾ قال أجيئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴿فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم ضحى ﴿فتولى فرعون فجمع كينه ثم أتى﴾ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري ﴿يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانة، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبير، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: ﴿أجيئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعضوه، ويسعوا في محاربتة، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأهلنا، واجعل لنا ﴿موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً ليتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿موعدكم يوم

الزينة﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يحشركم الناس ضحى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، ﴿فتولى فرعون فجمع كينه﴾ أي: جمع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشركم السحرة الماهرين في سحركم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضروا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴿فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبيون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويغيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، ولتيمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرها بقوله: ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن

يخرجاك من أرضك من غير قصد، وإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿ويذهب بطريقتكم المثل﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتكم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا: ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم، ﴿ثم أتوا صفاً﴾ ليكون أسكن لعلمكم، وأهيب لكم في القلوب، وكثلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فله ذرهم ما أصلهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي عصاك﴾ وإما أن تكون أول من ألقى خيروه، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿بل ألقوا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم، ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه﴾ أي: إلى موسى ﴿من سحركم﴾ البلغ ﴿أنها تسمى﴾ أي: أنها حيات تسحى فلما خيل إلى موسى ذلك، ﴿أوجس في نفسه خيفة موسى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره، ﴿قلنا﴾ له تثبيتاً وتطميناً: ﴿لا تخف إنك أنث الأعل﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا

لك ويخضعوا.

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك
﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ
سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾
أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثير لهم
ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة،
الذين يموهون على الناس، ويلبسون
الباطل، ويخيلون أنهم على الحق،
فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا
كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك
الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن
هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا
للإيمان.

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾
فوقع الحق وظهر وسطه، وبطل
السحر والمكر والكيد، في ذلك المجمع
العظيم.

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين،
وحجة على المعاندين فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون
للسحرة: ﴿أَمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾
أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون
مراجعة مني ولا إذن؟

استغرب ذلك منهم، لأدبهم معه،
وذلمهم، وانقيادهم له في كل أمر من
أمرهم، وجعل هذا من ذلك.

ثم استلج فرعون في كفره وظغيانه
بعد هذا البرهان، واستخف عقول
قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من
موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه
الحق، بل لأنه عمالاً هو والسحرة،
ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون
وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا
المكر منه، وظنوه صدقاً ﴿فَاسْتَخَفَّ
قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل
عقل من له أدنى مسكة من عقل
ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من
مدين وحيداً، وحين أتى لم يجتمع بأحد
من السحرة ولا غيرهم، بل يبادر إلى
دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات،
فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به
موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في
مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم
فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر

والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية
الحرص، وكادوا أشد الكيد، على
غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان،
فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن
يكونوا دبرواهم وموسى وانفقوا على
ما صدر؟ هذا من أمحل المحال، ثم
توعد فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَا تَقْطَعْنَ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِ
بِالْفُسَادِ، يَقْطَعُ يَدَهُ الْيَمْنَى، وَرِجْلَهُ
الْيُسْرَى، ﴿وَلَا تَصْلِبْنَ كَمَا فِي جَلْدِ
النَّخْلِ﴾ أي: لأجل أن تشتبهوا
وتختزوا، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْناً أَشَدُّ عَذَاباً
وَأَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه
أشد عذاباً من الله وأبقى، قلباً
للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق،
ورزقهم الله من العقل ما يدركون به
الحقائق، أجابوه بقولهم:

﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نختارك وما وعدتنا
به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله
من الآيات البيّنات الدالات على أن الله
هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل
وحده، وأن ما سواه باطل، ولنؤثرك
على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به
من القطع، والصلب، والعذاب.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
أي: إنما توعدنا به غاية ما يكون في
هذه الحياة الدنيا، ينقضي ويزول ولا
يضرنا، بخلاف عذاب الله، لمن استمر
على كفره، فإنه دائم عظيم.

وهذا كأنه جواب منهم، لقوله:
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْناً أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ وفي
هذا الكلام، من السحرة، دليل على أنه
ينبغي للعاقل، أن يوازن بين لذات
الدنيا، ولذات الآخرة، وبين عذاب
الدنيا، وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾
أي: كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان
مكفر للسيئات، والتوبة تحب ما قبلها،
وقولهم، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ
السَّحْرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا
دليل على أنهم غير مختارين في عملهم

المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً.
والظاهر - والله أعلم - أن موسى
لما وعظهم كما تقدم في قوله: ﴿وَيَلِكُمْ
لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيَسْحَنتَكُمْ
بِعَذَابٍ أَثْرَ مَعَهُمْ، وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْعِظَةٌ
كَبِيرَةٌ، وَلِهَذَا تَنَازَعُوا بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ
وَالْمَوْعِظَةِ، ثُمَّ إِنَّ فِرْعَوْنَ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ،
وَأَكْرَهَهُمْ عَلَى الْمَكْرِ الَّذِي أَجْرُوهُ،
وَلِهَذَا تَكَلَّمُوا بِكَلَامِهِ السَّابِقِ قَبْلَ
إِتْيَانِهِمْ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَانِ
لَسَاحِرُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ
أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سنَّه
لهم، وأكرههم عليه، ولعل هذه النكته
التي قامت بقلوبهم من كراهتهم
لمعارضته الحق بالباطل وفعلهم، ما
فعلوا على وجه الإغماض، هي التي
أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها،
ووقفهم للإيمان والتوبة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾
وما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه،
وأبقى ثواباً وإحساناً لا ما يقول
فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْناً أَشَدُّ عَذَاباً
وَأَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.
وجميع ما أتى من قصص موسى مع
فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع
والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم
يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم
بوقوعه أو عدمه، يتوقف على الدليل،
والله أعلم بذلك وغيره، ولكن توعدده
إيابهم بذلك مع اقتداره، دليل على
وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله،
ولاتفاق الناقلين على ذلك.

﴿٧٤ - ٧٦﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ
مَجْرُمًا فَإِنْ لَمْ يَهْتُمْ بِهِ لَمْ يَمُوتْ فِيهَا وَلَا
يَحْيَا﴾ ومن يأتيه مؤمناً قد عمل
الصالحات فأولئك لهم الدرجات
العلیٰ ﴿جنات عدن تجري من تحتها
الأنهار خالدین فیها وذلك جزاء من
تزكى﴾ يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم
عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم من كل
وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر
على ذلك حتى مات، فإن له نار
جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
أغلغلاها، البعيد قعرها، الأليم حرها
وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب

الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن العذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم، إذا استغاث، أغيث بماء كاملهل يشوي الوجوه، وإن دعا، أجيب بـ ﴿أخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾. ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متبعاً لكتبه ﴿قد عمل الصالحات الواجبة والمستحبة، فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي: المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وذلك﴾ الثواب، ﴿جزاء من تزكى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، للهدين الأمرين.

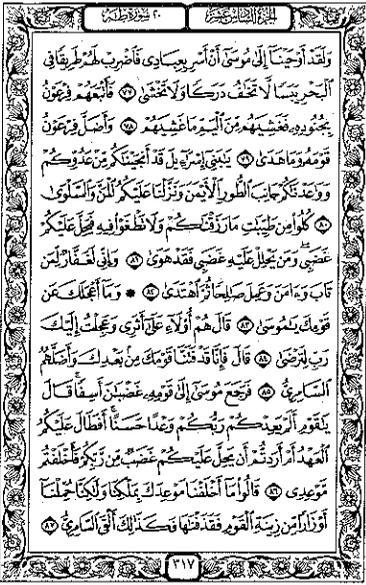
﴿٧٧-٧٩﴾ ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى * لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا

في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدر أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبده جهراً، ويقوموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى^(١)، أن يسر أو سيروا أول الليل، ليتمادوا^(٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساءهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داغ ولا نجيب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدن، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل، فاتبعوهم مشرقين، ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظاً وحنقاً، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرد اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأبسس الله طرقهم التي انفرد عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه^(٣). وهذا عاقبة الكفر

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

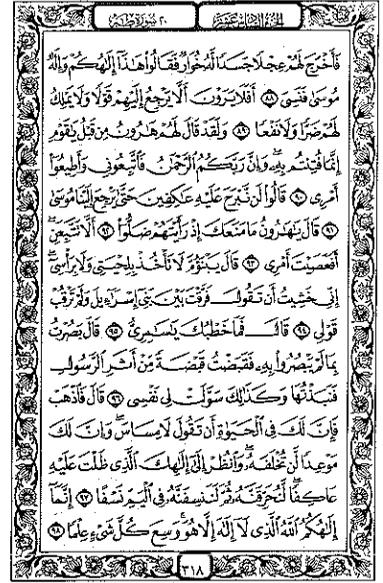
(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.



والضلال، وعدم الهدى بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه بإيهم، وما هذاهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

﴿٨٠-٨٢﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ يُذكر تعالى بني إسرائيل مِنَّةَ العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعדתه لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتتم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: واشكروه على ما



إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

﴿٨٣ - ٨٦﴾ **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾** قال هم أولاء على

أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فينا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفظال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * كان الله

تعالى، قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر، فلما تم الميقات، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾**

أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: **﴿هم أولاء على أثري﴾** أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري والذي عجلني إليك يا رب طلباً لقربك ومسارعة في رضاك، وشوقاً إليك، فقال الله له: **﴿فيانا قد فتننا قومك من بعدك﴾** أي:

بعبادتهم للعجل، ابتليتهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة، كفروا **﴿وأضلهم السامري﴾**

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾

وصاغه فصار **﴿له خوار فقالوا﴾** لهم **﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾** فنسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، وبهاهم هارون فلم ينتهوا، فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلئ غيظاً وحنقاً وغماً، قال لهم مويخاً ومقبحاً لفعالهم: **﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾** وذلك بإنزال التوراة، **﴿أفظال عليكم العهد﴾** أي: المدة، فتطاولتم غيبتني وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفظال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست

آثارها، فلم تقفوا منها على خبر، فانمحت آثارها لبعث العهد بها، فعبدتم غير الله، لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعلكم، أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع، **﴿فأخلفتم موعدي﴾** حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

﴿٨٧ - ٨٩﴾ **﴿قالوا ما أحلفنا موعداً بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري﴾** فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً * أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأمننا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم وألقوه، وجعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع.

وكان السامري قد بصّر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فنته وامتحناناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل، وضار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه، وهذا من بلادهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جاداً، فظنوه إله الأرض والسموات.

﴿أفلا يرون﴾ أن العجل **﴿لا يرجع إليهم قولاً﴾** أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعون، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أئقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدر

أسدى إليكم من النعم **﴿ولا تطغوا فيه﴾** أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطرون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم، **﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾** أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: **﴿وإني لغفار﴾** أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وأمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثم اهتدى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر، للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة

ولا يُحَافُ، ولا يُدْعَى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿٩٩-١٠١﴾ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حلالاً * يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن درأها، فأخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وقد أتيناك من لدنا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذكراً﴾ وهو هذا القرآن الكريم، وذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يمتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابله بالاعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه﴾ فلم يؤمن به، أو هاون بأوامره ونواهي، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فإنه﴾ يحمل يوم القيامة وزراً * وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خالدين فيه﴾ أي:

يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نفساً * أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟، فقال: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المنسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أن أقبضها، ثم أتبعها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فاذهب﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يلدن منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ فتجازى بعملك، من خير وشر، ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي: العجل ﴿لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نفساً﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهاً، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذّره في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى ذاع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿٩٨﴾ ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يُحِبُّ، ولا يُزجى

على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿٩٠-٩٤﴾ ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أي: إن اتخاذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنه، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فابوا وقالوا: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أفعصيت أمري﴾ في قولي ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المنسدين﴾

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾ تريق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لتكرت ما أمرتني بلزومه وخشيت لا تمتك، و ﴿أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم أقبل على السامري.

﴿٩٥-٩٧﴾ ف ﴿قال فما خطبك

في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تتقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وساء لهم يوم القيامة جلاً﴾ أي: بئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأحواله فقال:

﴿١٠٢- ١٠٤﴾ «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كُلُّ على حسب حاله، فالتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾.

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوا ساهمين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

﴿١٠٥- ١١٢﴾ «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيدورها قاعاً صاففاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً * يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً * وعنت الوجوه

للحوي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً * ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ يخبر تعالى عن أحوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي: يزيلها ويقلمها من أماكنها فتكون كالعهن والكرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعاً صاففاً، مستويًا لا ترى فيه أيها الناظر عوجاً، هذا من تمام استوائها ﴿ولا أمناً﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لا عوج له﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سراً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذلل وتخضع، فتري في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا

يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحببيه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فحيثُذَّ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة] ^(١)، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما تعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، وما شاهدته في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ مع قوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ مع قوله ﷺ: ﴿إن لله مئة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع جافرها عن ولدها خشية أن تطأه - أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضمَّ هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد».

مع قوله ﷺ: ﴿لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها﴾، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجَلَّ من غَنِيَّ عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا

من أذن له الرحمن ورضي له قولاً أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا إذا أذن في الشفاعة^(١)، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا احتل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد.

وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين:

ظالمين يكفرهم وشركهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا الحسبة والحرمات، والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.

والقسم الثاني: من آمن بالإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون فلا يخاف ظلماً أي: زيادة في سيئاته ولا هضمًا أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

﴿١١٣﴾ ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد للعلم يتقون أو يحدث لهم ذكر﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي، الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أي: نوعناها أنواعاً كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلمهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾ فيعملون من

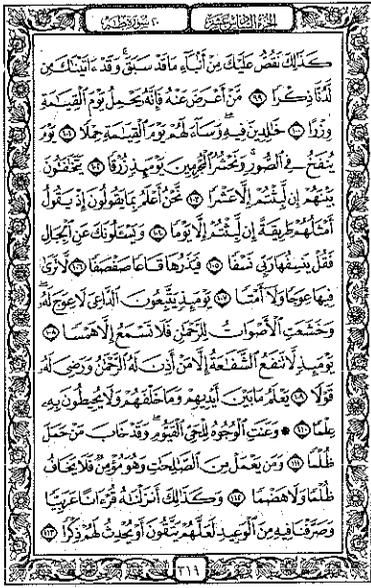
الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً، وكونه مصرفاً فيه [من] الوعيد، أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر.

﴿١١٤﴾ ﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادته، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه، وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فتعالى الله﴾ أي: جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وافة، ﴿الملك﴾ الذي الملك وصفه، وخلق كلهم

ممالك له، وأحكام الملك القدرية والشريعة، نافذة فيهم.

﴿الحق﴾ أي: وجوده وملكه وكماله حق، فصفت الكمال، لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً.

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، وأصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقراه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه * ولما كانت عجلته ^(٢) على تلقف الوحي ومبادرته إليه، تدل^(٣) على محبته التامة للعلم وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

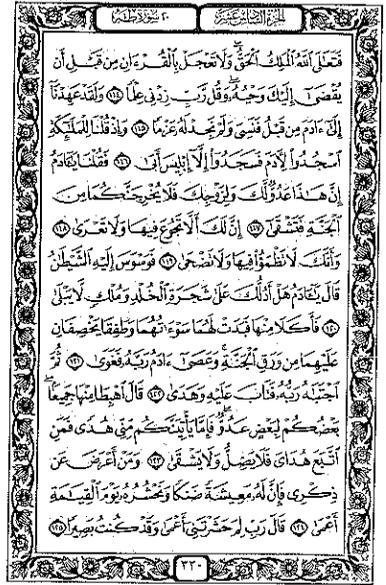


ويؤخذ من هذه الآية الكريمة، الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأني ويصبر حتى يفرغ الملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام مُلقِي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول، ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

﴿١١٥﴾ ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾، أي: ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه، وأدعن له واتقاد، وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطفاء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه آياه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال: ﴿١١٦ - ١٢٢﴾ ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ فقلنا يا آدم إن هذا عدو

(١) في ب: إلا من أذن له في الشفاعة. (٢) في النسخين: يدل.



يخبر تعالى، أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا شجرة معينة فقال: «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة، ويقول: «هل أدلك على شجرة الخلد» أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة. «وملك لا يبلى» أي: لا ينقطع إن أكلت منها، فأناه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاعتبر به آدم، وأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضح معصيتهما، وبدا لكل منهما سوء الآخر، بعد أن كانا مستورين، وجعلنا يحصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فنتشى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعمرى * وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحي * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يحصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى.

أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» فتبينت حيث عدواته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدواً لله، وظهر من حسده، ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: «لا يخرجكما من الجنة فتشقى» إذا خرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة.

«إن لسك أن لا تجوع فيها ولا تعمرى، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحي» أي: تصيبك الشمس بحرماً، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم

جميعاً بعضكم لبعض عدو فإذا يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي عن أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى *

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية،

لك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فنتشى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعمرى * وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحي * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يحصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى.

أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» فتبينت حيث عدواته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدواً لله، وظهر من حسده، ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: «لا يخرجكما من الجنة فتشقى» إذا خرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة.

«إن لسك أن لا تجوع فيها ولا تعمرى، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحي» أي: تصيبك الشمس بحرماً، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم

وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي النار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها.

«ونحشره» أي: هذا المعرض عن ذكر ربه **«يوم القيامة أعمى»** البصر على الصحيح، كما قال تعالى: **«ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً»**.

قال على وجه الذلل والمراجعة والتألم والضرير من هذه الحالة: **«رب لم حشرتني أعمى وقد كنت في دار الدنيا بصيراً»** فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة، **«قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها»** بإعراضك عنها **«وكذلك اليوم تنسى»** أي: تركت في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب، **«وكذلك»** أي: هذا الجزاء **«نجزيه»** من أسرف، بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له **«ولم يؤمن بآيات ربه»** الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

«ولعذاب الآخرة أشد» من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة **«وأبقى»** لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

«١٢٨» **«أفلم يبد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهي»** أي: أفلم يبد هؤلاء المكذبين المعرضين،

ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤمن هؤلاء، أن يحل بهم، ما حل بأولئك؟ **«أفكاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبير»** أم يقولون نحن جميع منتصر لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار، خيراً من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحقر من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاؤوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهي، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

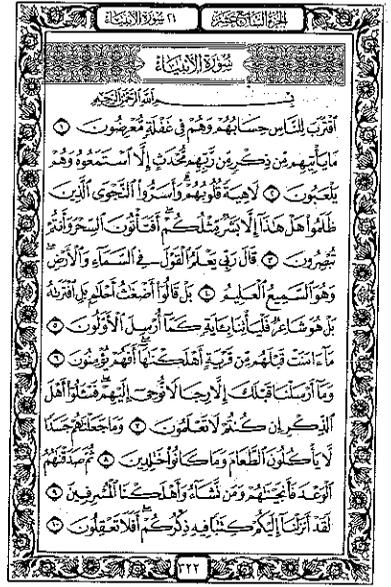
«١٢٩ - ١٣٠» **«ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى»** فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أتاه الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى هذا تسلياً للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لخلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب، ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ



كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إيمان وقتها، ولعلهم يرجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الشواب العاجل والأجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك، بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

«١٣١» **«ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى»** أي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والمستعين بها، من المآكل والمشرب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء الجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبهج بها نفوس الغفترين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - يقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون، ثم تذهب سريعاً، وتمضي جميعاً، وتقتل



بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة

بإقامتها، بحدودها وأركانها وأدائها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا

قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ في الدنيا والآخرة ﴿للتقوى﴾ التي هي فعل الأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ ﴿وقالوا لولا

﴿أولم يكفهم﴾ أي: أولم يكفهم في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعارضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب﴾ وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولتلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ قل كل متريص فتريصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾.

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،

حبيبها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وانا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾.

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ والآخرة خير وأبقى﴾.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون ﴿قل كل متريص﴾ فتريصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿ونحن نربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو

بأيدينا ﴿ فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ﴾ أي: المستقيم، ﴿ ومن اهتدى ﴾ بسلوكة، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

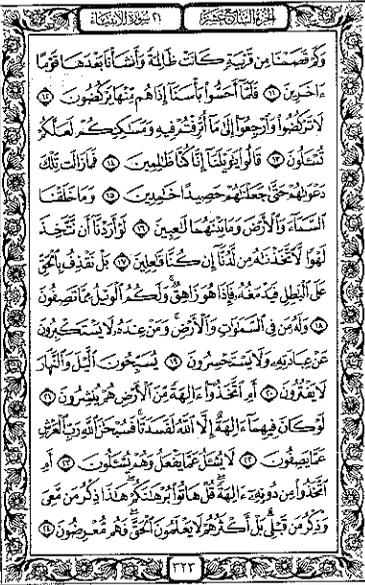
تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، وهي مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون * قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم * هذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجع فيهم تذكير، ولا يزعون إلى تذكير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به. كأنهم للدنيا خلقوا، وللمتعة بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحثهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿ إلا استمعوه ﴾ سماعاً، تقوم عليهم به الحجة، ﴿ وهم يلعبون ﴾ لاهية قلوبهم ﴿ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الرديئة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونبيه، وتستمعه استماعاً، تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها،

ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وتزكوا أعمالهم، وفي معنى قوله: ﴿ اقرب للناس حسابهم ﴾ قولان: أحدهما أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات، قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجؤه الموت، صباحاً أو مساءً، فهذه حالة الناس كلهم، إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطؤوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وأنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا: ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقاً بما شاهدوا^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجزيهم عليه، ولهذا قال: ﴿ قال ربي يعلم القول ﴾ أي: الخفي والجلي ﴿ في السماء والأرض ﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿ وهو السميع ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿ العليم ﴾ بما في الضمائر، وأكنته



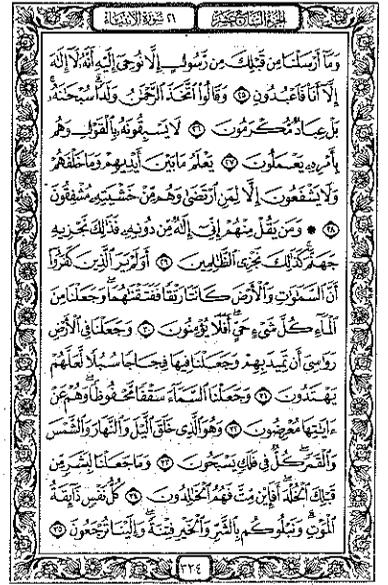
السرائر.

﴿٥ - ٦﴾ ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قلوبهم من قرية أهلكتها أفهم يؤمنون ﴾ يذكر تعالى إبتفانك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه^(٢)، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿ أضغاث أحلام ﴾ بمنزلة كلام النائم الهادي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿ افتراء ﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزماً لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحداً من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوا مع توفير دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك وإلا فما الذي أقامهم وأعددهم وأقض مضاجعهم ولبيل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تنفيراً عنه لمن لم

(٢) في ب: تقولوه فيه.

(١) في ب: بما يشاهدون.



يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان^(١) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ أي: كسابقة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك، قال الله: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أي: من هؤلاء؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم

(١) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

أبداً.

﴿٧-٩﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين * هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكاً، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بآيات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يُقرُّ بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلدًا، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي

(٢) في ب: من أهل.

الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبينا عليهم ما يلبسون *.

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، وتجبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيه، لا مريم ولا غيرها، لقوله ﴿إلا رجالاً﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ لقد أنزلنا إليكم - أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرآناً مبيناً ﴿فيه ذكركم﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكركم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا

الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها .
 ﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولحكم الويل مما تصفون﴾ * وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يستحون الليل والنهار لا يفترون﴾ يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا ثقافية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والثقافية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدتها كذلك ثم قال: ﴿ولكم﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الويل﴾ والندامة والخسران.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان، ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده وماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة، وكيف يجعل الله منها ولداً؟ فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿ومن عنده﴾ أي: من الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزمهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟

ولهذا ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ فما زالت تلك دعواهم﴾ أي: الدعاء بالويل والثبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأيسم، قد خدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لابين﴾ * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما يخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أي: من عندنا ﴿إن كنا فاعلين﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نحب أن نريه إياكم، فالسموات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقتاعها بجميع الوجوه المنقعة، فسبحان الخليم الرحيم،

السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتكم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخسنتكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيها، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي: رجع.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعفة والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ فلما أحسوا بأسأنا إذا هم منها يركضون﴾ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - ﴿وكم قصصنا﴾ أي: أهلكتنا بعداب مستأصل ﴿من قرية﴾ تلفت عن آخرها ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعداب الله وعقابه، وبإشراهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المخرقات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، وللذات جاني، وفي منازلكم مطمئنين

لعجزهم وفقهرهم، ولكونهم عميياً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتبدير في أنفسهم، ولا في غيرهم مقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلته العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق خلفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التففتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيئها أتم تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦-٢٩﴾ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، ورب واحد، وإله واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * ولهذا قال هنا: ﴿سِبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضعته الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يُسْأَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

أبدانهم. ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا خال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصَرَّفَ العبادة لغيره.

﴿٢١-٢٥﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا نسبجان الله رب العرش عما يصفون * لا يُسْأَلُ عَمَّا يَقُولُ هُمْ يُسْأَلُونَ * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون * لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكروا على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُم يُنْشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ * ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً * ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون * فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويديه الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوفر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي

(١) في النسختين: فربوبية.

ولداً سبحانه بل عباد مكرمون *
لا يسبقونه بالقول وهم بأمره
يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما
خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى
وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل
متمهم إني إله من دونه فذلك نجزيه
جهنم كذلك نجزي الظالمين * يخبر
تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين
للسرور، وأنهم زعموا -
قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا:
الملائكة بنات الله، تعال الله عن
قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة،
بأنهم ^(١) عبيد مربيون مديرون، ليس
لهم من الأمر شيء، وإنما هم
مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله،
وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته،
وذلك لما خصهم به من الفضائل
والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية
الأدب مع الله، والامتثال لأوامره.

ف **﴿لا يسبقونه بالقول﴾** أي:
لا يقولون قولاً بما يتعلق بتدبير
المملكة، حتى يقول الله، لكمال
أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته
وعلمه.

﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي: مهما
أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم
عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين،
ولا يكون لهم عمل باهواء أنفسهم من
دون أمر الله، ومع هذا، فالله قد أحاط
بهم علمه، فعلم **﴿ما بين أيديهم وما
خلفهم﴾** أي: أمورهم الماضية
والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه،
كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم
لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون
لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم
وارتضى من يشفعون فيه، شفعوا فيه،
ولكنه تعالى لا يرضى من القول
والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه،
متبعاً فيه الرسول. وهذه الآية من أدلة
إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.
﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي:
خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله،

وعنت وجوههم لعزه وجماله، فلما بين
أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا
يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم
به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر
أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد
الدعوى، وأن من قال منهم: **﴿إني إله
من دون الله﴾** على سبيل الفرض
والتنزل **﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك
نجزي الظالمين﴾**. وأي: ظلم أعظم
من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير
إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله
في خصائص الإلهية والربوبية! **﴿٣٠﴾**

**﴿أولم ير الذين كفروا أن
السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتناهما
وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا
يؤمنون﴾** أي: أ لم ينظر هؤلاء الذين
كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له
في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة:
على أنه الرب المحمود، الكريم المعبود،
فيشاهدون السماء والأرض،
فيجدونها رتقاً، هذه ليس فيها
سحاب ولا مطر، وهذه هامة مية
لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء
بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي
أوجد في السماء السحاب، بعد أن
كان الجو صافياً لا قرعة فيه، وأودع
فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛
قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه،
فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت
وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج،
مختلف الأنواع، متعدد النافع، [أليس
ذلك] ^(٢) دليلاً على أنه الحق، وما سواه
باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن
الرحيم؟ ولهذا قال: **﴿أفلا يؤمنون﴾**
أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا
شك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأقتية فقال:
﴿٣١ - ٣٣﴾ **﴿وجعلنا في الأرض
رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً
سبلاً لعلمهم يهتدون * وجعلنا السماء
سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها
معرضون * وهو الذي خلق الليل
والنهار والشمس والقمر كل في فلكٍ**

وإن الله الذي خلقكم من نوره أن يحذركم لأنكم لو أنتم
الذي يدرككم بالليل وهم يدرككم بالليل وهم
كذلك * خلق الإنسان من عجل سائرهم
يأتون فلا تشبهونهم * ويذكرون ما خلقناهم
إن كنتم صادقين * لو أنهم الذين كفروا
لأنكفرت عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم
يحصرون * بل أنبيأهم بغتة فبينهم سحرة فلا
يستهيئون بها ولا هم يحزنون * ولقد استخبرنا
موسى بن قتيبة قال وألذين سخروا منهم ما كانوا
يعرفونهم يومئذ * قل من ينكركم بالليل والنهار
من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون *
أرأيت إن طرفة عينهم من دونك لا تبصرون نصر
أقبيهم ولا هم ينصرون * بل ستمنوا هؤلاء
وإن الله هم حتى طال عليهم الأمر أفلا يرون أنا أنزلنا
الأرض تنفضها من أنوارها أفلا تعلمون

يسبحون .

أي: ومن الأدلة على قدرته وكما له
ووحديته ورحمته، أنه لما كانت
الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها
بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي:
لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من
السكون فيها، ولا حرثها، ولا
الاستقرار بها، فأرساها بالجبال،
فحصل بسبب ذلك من المصالح
والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال
المتصل بعضها ببعض، قد تتصل
اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها
جبالاً شامخات، وقُللاً باذخات،
لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

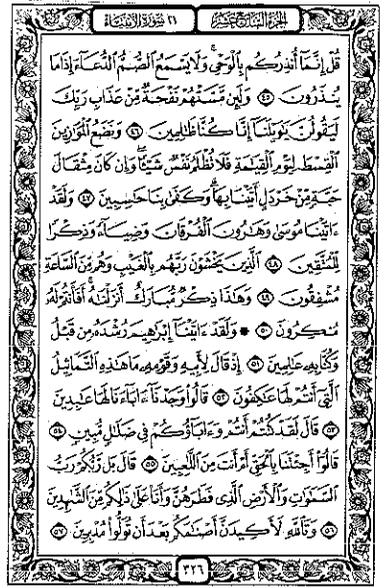
فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل
بين تلك الجبال فجاجاً سبلاً، أي:
طرقاً سهلة لا حزنَةً، لعلمهم يهتدون إلى
الوصول إلى مطالبهم من البلدان،
ولعلمهم يهتدون بالاستدلال بذلك على
وحديته المنان.

﴿وجعلنا السماء سقفاً﴾ للأرض
التي أنتم عليها **﴿محموظاً﴾** من السقوط
**﴿إن الله يمسك السماوات والأرض
أن تزولا﴾** محفوظاً أيضاً من استراق
الشياطين للسمع.

﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي:
غافلون لاهون، وهذا عام في جميع
آيات السماء، من علوها، وسعتها،

(١) في السخيتين: بأنه.

(٢) زيادة من هامش ب.



وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزماً لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقته في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها ما ربيهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا ويتفعموا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزء أعمالهم، كاملاً موفراً، ويعلم أن القصد من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفنان من فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالشر

والخير فتنه وإلينا ترجعون ﴿١﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون ^(١) تربصوا به رب المنون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر من قبلك * يا محمد **الخلد** في الدنيا، فإذا مت، فسيب أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفنان من فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليتنهنم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان، ولهذا قال: **كل نفس ذائقة الموت** وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمرت سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنه منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، **﴿إلينا ترجعون﴾** فتجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر **﴿ومباريك بظلام للعبد﴾** وهذه الآية، تدل على بظلام قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ وإذا رآك الضالين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً هذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كفرون * خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون * ولقد استهزئ به رسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون * وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا

رسول الله ﷺ، استهزؤوا به، وقالوا: **﴿هذا الذي يذكر آلهتكم﴾** أي: هذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحفلوا به.

هذا استهزاءؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فانه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخص الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: **﴿وهم بذكر الرحمن هم كفرون﴾** وفي ذكر اسمه **﴿الرحمن﴾** هنا، بيان لقباحة حالهم، وأهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: خلق عجولاً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يتولون ^(٢) ويستعجلون بالعذاب، تكديباً وعناداً، ويقولون: **﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويجعل لهم أجلاً مؤقتاً **﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** ولهذا قال: **﴿سأريكم آياتي﴾** أي: في انتقامي ممن كفروا بعصاتي **﴿فلا تستعجلون﴾** ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: **﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

(١) في النسختين: يقولون قل تربصوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسباق.

العقاب، وينزل بهم العذاب.

﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ حالهم الشنيعة حين لا يكونون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي: لا ينصرهم غيرهم، فلا نصرُوا ولا انتصروا، ﴿بل تأتيهم﴾ النار ﴿بغتة فتبهتهم﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم، ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علمنا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ سلاءً بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ولقد استهزئء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي: نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون * بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ يقول تعالى - ذاكرًا عجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته، شملت البرِّ والفاجر، في ليالهم ونهارهم - فقال: ﴿قل من يكلوكم﴾ أي: يجرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾ إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وبالنهار﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من الرحمن﴾ أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

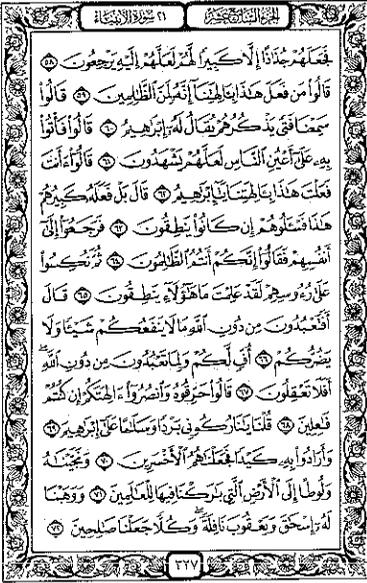
﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ فلماذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ أي: إذا أردناهم بسوء، هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟؟

﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ أي: لا يعاونون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعاونوا من الله، فهم مخلدون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة، والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهاؤها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقسست قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي: يموت أهلها وفنائهم، شيئاً فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أفهم الغالبون﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم ليقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى عانعة؟

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: ﴿قل﴾ يا محمد للناس كلهم: ﴿إنما أنذركم بالوحي﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا

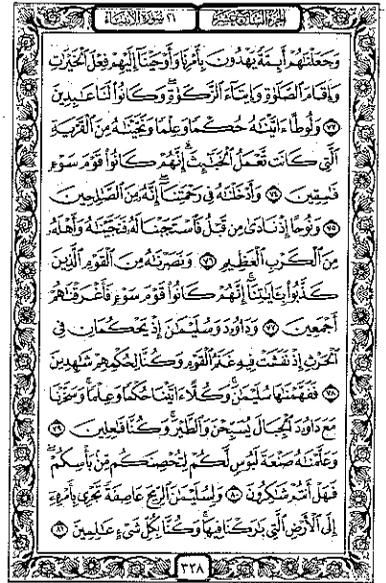


أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتاً، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد عمل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب حياة القلوب والأرواح، ولتلقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون، صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا منهم آله.

فلو مسهم ﴿نفحة من عذاب ربك﴾ أي: ولو جزء يسيراً ولا يسير من عذابه، ﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والشبور والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿٤٧﴾ ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الدر، الذي توزن بها الحسنات



والسنيات، ﴿فلا تظلم نفس﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شيئاً﴾ بأن تنقص من حسنها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وإن كان مثقال حبة من خردل﴾ التي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أتينا بها﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

وقالوا ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

﴿وكفى بنا حاسبين﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وللمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرقت العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبياناً وأوها التوراة

والقرآن^(١)، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأنم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية، ﴿وذكراً للممتقين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص ﴿المتقين﴾ بالذكر، لأنهم المتفكرون بذلك، علماً وعملاً، ثم فسّر المتقين فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أزم، ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مباركاً﴾ يقتضي كثرة خيراته^(٢) ونماؤها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً، وجب تلقيه بالقبول

والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به، فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أفأنتم له منكرون﴾.

﴿٥١ - ٧٣﴾ ﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وكتابيهما، قال: ﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكنا به عالمين﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلقة، واصبغطيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفاه له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيبهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾ التي مثلتموها، نحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي: فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ وإلحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تتحنون.

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وجئنا آباءنا﴾ كذلك يفعلون، فسلكنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا يجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضملاً للجميع: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد!! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، ﴿قالوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آباءهم: ﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلام لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفیه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: ﴿بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدير لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضولاً مديراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

عبادة الخالق الرازق المدير؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم، لا يغلط ولا يغير بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: ﴿وأنا على ذلكم﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿من الشاهدين﴾ وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلماذا قال: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ أي: أكسرها على وجه الكيد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿فجعلهم جذاذاً﴾ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: ﴿إلى عظيم الفرس﴾ «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل «إلى العظيم»، وهنا قال تعالى: ﴿إلا كبيراً لهم﴾ ولم يقل: «كبيراً من أصنامهم». فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستعملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ فرموا إبراهيم

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يقال له إبراهيم﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قالوا فأتوا به﴾ أي: بإبراهيم ﴿على أعين الناس﴾ أي: بمراى منهم وسمع ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أأنت فعلت هذا﴾ أي: التكسير ﴿بالهتنا يا إبراهيم؟﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي: كسرها غضباً عليها، لما عبت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وأراد الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها عن يريدها بأذى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ولوطاً أتيناها حكماً وعلماً ونَجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴿هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسادات، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم ﴿قوم سوء فاسقين﴾ كذبوا الداعي، وتوعده بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم وميثته.

﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، الناقلين كل خير وسعادة وير سرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنَجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أجمعين﴾ أي: وأذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويُبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رأهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿وب لا تذرع على الأرض من الكافرين دياراً﴾ * إنك إن تذرهم

هو العزيز الحكيم﴾ * ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. ﴿ووهبنا له﴾ حين اعتزل قومه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ ابن إسحق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلا﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿جعلنا صالحين﴾ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿واقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾ أي: لا نغيرنا ﴿هابدين﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبندنية في أكثر أوقانهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحوالهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تكلم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلنًا بشركهم على رؤوس الأَشهاد، ومبينًا عدم استحقاق الكهنة للعبادة -: ﴿أنتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ فلا نفع ولا دفع، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبت الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحيثما لما أقمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف﴿قالوا حرِّقوه وانصروا الهتهم إن كنتم فاعلين﴾ أي: اقتلوه أشتع القتلات، بالإحراق، غضباً لألهتهم، ونصرة لها. فتعسا لهم تعسا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم يتله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

﴿وأرادوا به كيداً﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم الأَخسرين﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الراجحين المفلحين.

﴿ونجينا لوطاً﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فتجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي إنه

يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . فاستجاب الله له ، فأغرقهم ، ولم يبق منهم أحداً ، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون ، وجعل ذريته هم الباقين ، ونصره الله على قومه المستهزئين .

﴿٧٨ - ٨٢﴾ داود وسليمان إذ

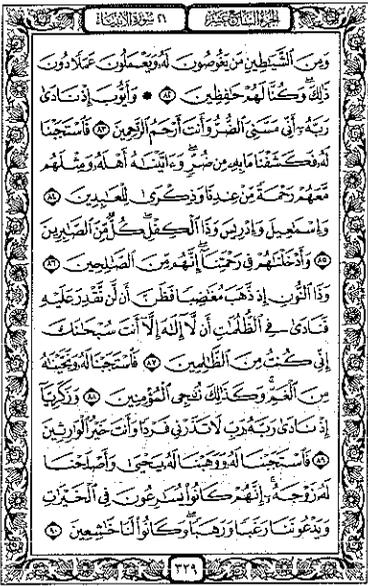
يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلماها صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون * ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين * ومن الشياطين من يفوضون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين * أي : واذكر هذين النبيين الكريمين «داود» و «سليمان» مثنياً مبالغاً ، إذ أتاهما الله العلم الواسع ، والحكم بين العباد ، بدليل قوله : ﴿إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ أي : إذ تحاكم إليهما صاحب حرث ، نفشت فيه غنم القوم الآخرين ، أي : رعت ليلاً ، فأكلت ما في أشجاره ، ورعت زرعه ، ففرض في داود عليه السلام ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث ، نظراً إلى تفریط أصحابها ، فعاقبهم بهذه العقوبة ، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للضوابط ، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بذرّها وصفوها ، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى ، فإذا عاد إلى حاله ، تراذاً ورجع كل منهما بماله ، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ففهمناها سليمان﴾ أي : فهمناه هذه القضية ، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها ، ولهذا خصمها بالذكر بدليل قوله : ﴿وكلاً﴾ من داود وسليمان ﴿أتينا حكماً وعلماً﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب ، وقد يخطئ ذلك ، وليس

بمعلوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده . ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال : ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحاً وتعجيداً ، وكان قد أعطاه [الله] من حسن الصوت ورقته ورخامته ، ما لم يؤته أحداً من الخلق ، فكان إذا سبح وأثنى على الله ، جاوبته الجبال الصم والطيور البهيم ، وهذا فضل الله عليه وإحسانه ، فلهاذا قال : ﴿وكنا فاعلين﴾

﴿وعلماها صنعة لبوس لكم﴾ أي : علم الله داود عليه السلام ، صنعة الدروع ، فهو أول من صنعها وعلماها ، وسرت صناعته إلى من بعده ، فالآن الله له الحديد ، وعلمه كيف يسردها ، والفائدة فيها كبيرة ، ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ أي : هي وقاية لكم ، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس .

﴿فهل أنتم شاكرون﴾ نعمة الله عليكم ، حيث أجزاها على يد عبده داود ، كما قال تعالى : ﴿وجعل لكم سراييل تقيكم الخمر وسراييل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلتها أمر خارق للعادة ، وأن يكون - كما قاله المفسرون - : إن الله الآن له الحديد ، حتى كان يعمل كالعجين والطين ، من دون إذابة له على النار ، ويحتمل أن تعليم الله له ، على جاري العادة ، وأن إلتة الحديد له ، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها ، وهذا هو الظاهر ، لأن الله امتنن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها ، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد ، لم يمت عليهم بذلك ، ويذكر فائدتها ، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام ، متعذر أن يكون المراد أعيانها ، وإنما الإئة بالجنس ، والاحتمال الذي ذكره المفسرون ، لا دليل عليه إلا قوله : ﴿وألنا له الحديد﴾ وليس فيه أن الإلتة من دون سبب ، والله أعلم بذلك .



﴿ولسليمان الريح﴾ أي : سخرناها ﴿عاصفة﴾ أي : سريعة في مرورها ، حيث ذُبرت امتثلت أمره ، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ وهي أرض الشام ، حيث كان مقره ، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً ، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة ، ﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء ، وعلما من داود وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا .

﴿ومن الشياطين من يفوضون له ويعملون عملاً دون ذلك﴾ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام ، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت ، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال ، التي لا يقدر على كثير منها غيرهم ، فكان منهم من يغوص له في البحر ، ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك ، ومنهم من يعمل له ﴿مخاريب ومغاثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس ومات ، وهم على عمله ، ويقربا بعده سنة ، حتى علموا موته ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

﴿وكنا لهم حافظين﴾ أي : لا يقدرن على الامتناع منه وعصيانه ، بل حفظهم الله له ، بقوته وعزته ، وسلطانه .

﴿٨٣ - ٨٤﴾ وأيوب إذ نادى

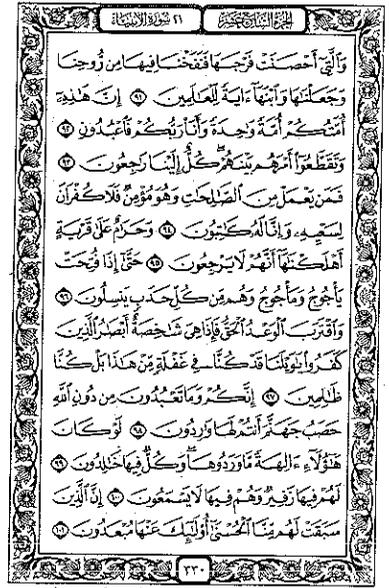
ونجينا من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿٥٢﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون، وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

[فجاءهم العذاب]، ورأوه عياناً، فعجوا إلى الله، وضجروا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾. وقال: ﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾. وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها لقولته: ﴿إذ أبتى إلى الفلك... وهو مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه^(١) والظاهر أن^(٢) عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكامل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، ممن يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزاهه عن كل نقص وعيب وأفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبثت في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ ولهذا قال هنا:

عبرة للعابدين، الذين ينتفون بالعبير، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أتاه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيهم الضر.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ ﴿إسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ وأدخلناهم في رحمتنا إثم من الصالحين ﴿٥٣﴾ أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، وإسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل، ﴿كل﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿من الصابرين﴾ والصبر: هو حيس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل إثم وفوما حقها، وقامروا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبه، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والأجل. ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى ثوبه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجبنا له



ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴿٥٤﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة عن عندنا وذكرى للعابدين ﴿٥٤﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثنياً معظماً له، رافعاً لقدره - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجهه صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتحاناً، فتنفخ في جسده، فتفرح قروحاً عظيمة، ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة فاستجاب الله له، وقال له: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى، ﴿وأتيناه أهله﴾ أي: ردنا عليه أهله وماله.

﴿ومثلهم معهم﴾ بأن منحه الله مع العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمة من عندنا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة. ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي: جعلناه

(٢) في الأصل: أنه.

(١) زيادة من هامش: ب.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي: هؤلاء الرسل المذكورون، هم أمتكم وأمتكم الذين بهم تأتون، وبهديم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبى واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أي: إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فزقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر و﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كل﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إلينا راجعون﴾ أي: فنجازيم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وبرسوله، وما جازوا به ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وإننا له كاتبون﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي: الشدة التي وقع فيها.

﴿وكذلك نجى المؤمنين﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهياً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: وأذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لثناقه وفضائله، التي من جللتها هذه الثنية العظيمة المتضمنة لتصححه للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نادى ربه رب لا تدركني فرداً﴾ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾.

من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رب لا تدركني فرداً﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكني أريد ما يطمش به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.

﴿٩١ - ٩٤﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإننا له كاتبون﴾ أي: وأذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها فقال:

﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحيث جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن ﴿قالت إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولدًا من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ حيث حملت به، ووضعت من دون ميسس أحد، وحيث تكلم في المهدي، وبرأها مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

﴿وأصلحنا له زوجه﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم خاسر في دينه وديناه .

﴿٩٥﴾ **«وحرّام على قرية أهلكتها**

أنهم لا يرجعون﴾ أي : يمتنع على القرى المهلكة المذبذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردوا ما فرطوا فيه ، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب ، فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك .

﴿٩٦-٩٧﴾ **«حتى إذا فتحت**

يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصي ، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض ، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف ، الذي ذكره الله ، من كل مكان مرتفع ، وهو الحذب ، ينسلون أي : يسرعون . وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم في الأرض ، إما بدواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب ، وأنهم يقهرون الناس ، ويعلنون عليهم في الدنيا ، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم .

﴿واقترب الوعد الحق﴾

أي : يوم القيامة الذي وعد الله بآتيانه ، ووعدته حق وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفرع والأهوال المزعجة والقلاقل المفضعة ، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ، ويقولون لـ : **«قد كنا في غفلة من هذا﴾** اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لما توار . **«بل كنا ظالمين﴾** اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم ، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

﴿٩٨-١٠٣﴾ **«إنكم وما تعبدون**

من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ ، أي : إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره **«حصب جهنم﴾** أي : وقودها وحطبها **«أنتم لها واردون﴾** وأصنامكم .

والحكمة في دخول الأصنام النار ، وهي حماد لا تعقل ، وليس عليها ذنب ، بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فلها قال : **«لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾** وهذا كقوله تعالى : **«ليبين لهم الذي يتخلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾** وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا ينتقلون عنها .

﴿لهم فيها زفير﴾ من شدة العذاب **«وهم فيها لا يسمعون﴾** صم بكم عمي ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غلبانها واشتداد زفيرها وتغيظها .

وإدخال آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عبده وهو راض بعبادته ، وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعذبون فيها ، ويدخلون في قوله : **«إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾** أي : سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله ، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا ليسرى والأعمال الصالحة .

«أولئك عنها﴾ أي : عن النار **«مبعدون﴾** فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يعبدون عنها غاية البعد ، حتى لا يسمعوا حسيها ، ولا يروا شخصها ، **«وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾** من الأكل ، والمشارب ، والمناكح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب ، **«لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾** أي :

لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع ، وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم مما يخافون ، **«وتلقاهم الملائكة﴾** إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وفدأ لنشورهم ، مهتئين لهم قائلين : **«هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾** فليهنئكم ما وعدكم الله ، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم بما أنكم الله من المخاوف والمكاره .

﴿١٠٤-١٠٥﴾ **«يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾** ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون **«يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي : الورقة المكتوب فيها ، فتنتشر نجومها ، ويكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها﴾** كما بدأنا أول خلق نعيده **«أي : إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم ، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .**

«وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ننفذ ما وعدنا ، لكمال قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

«ولقد كتبنا في الزبور﴾ وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالتوراة ونحوها **«من بعد**

الذكر ﴿ أي : كتبناه في الكتب المنزلة ، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق ، الذي هو اللوح المحفوظ ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك : ﴿ أن الأرض ﴾ أي : أرض الجنة ﴿ يرثها عبادي الصالحون ﴾ الذين قاموا بالمأمورات ، واجتنبوا المنهيات ، فهم الذين يورثهم الله الجنات ، كقول أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء .

ويحتمل أن المراد : الاستخلاف في الأرض ، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض ، ويورثهم عليها كقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ ... الآية .

﴿ ١٠٦ - ١١٢ ﴾ ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ * فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ * وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ * قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴿ يشي الله تعالى على كتابه العزيز « القرآن » وبين كفايته التامة عن كل شيء ، وأنه لا يستغنى عنه فقال : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ أي : يتبلغون به في الوصول إلى ربهم ، وإلى دار كرامته ، فيوصلهم إلى أجل المطالب ، وأفضل الرغائب . وليس للعابدين ، الذين هم أشرف الخلق ، وزاه غاية ، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم ، بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبالإخبار بالغيوب الصادقة ، وبال دعوة لحقائق الإيمان ، وشواهد الإيقان ، المبين للمأمورات كلها ، والمنهيات جميعها ، المعروف بعبود النفس والعمل ، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله ، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان ، فمن لم يغتنه

القرآن فلا أغناه الله ، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله .

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن ، فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ فهو رحمته المهداة لعباده ، فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها ، وغيرهم كفرها ، وبدلوا نعمة الله كفرأ ، وأبوار رحمة الله ونعمته .

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي : متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته ، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما من عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن .

﴿ فإن تولوا ﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم ، فحذرهم حلول المثلثات ، ونزول العقوبة .

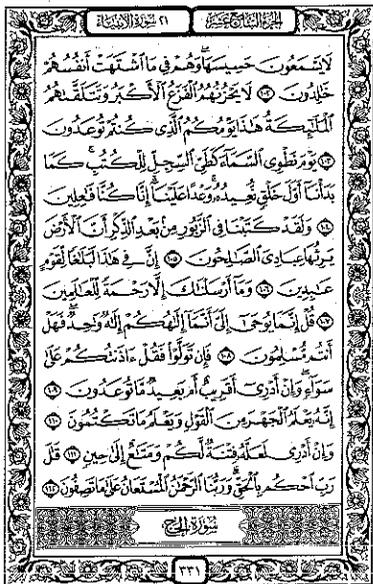
﴿ فقل أذنتكم ﴾ أي : أعلمتكم بالعقوبة ﴿ على سواء ﴾ أي : علمي وعلمكم بذلك مستو ، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب : ﴿ ما جأنا من بشير ولا نذير ﴾ بل الآن ، استوى علمي وعلمكم لما أذرتكم وحذرتكم ، وأعلمتكم بمآل الكفر ، ولم أكنم عنكم شيئاً .

﴿ وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي : من العذاب ، لأن علمه عند الله ، وهو بيده ، ليس لي من الأمر شيء .

﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ أي : لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم ، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين ، ثم يكون أعظم لعقوبتكم .

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ أي : بيننا وبين القوم الكافرين ، فاستجاب الله هذا الدعاء ، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة ، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة « بدر » وغيرها .

﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي : نسأل ربنا الرحمن ،



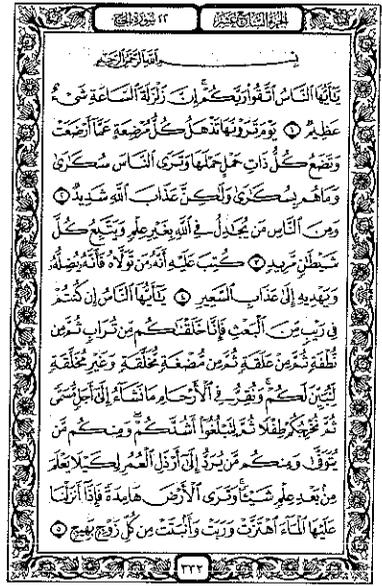
ونستعين به على ما تصفون ، من قولكم سنظهر عليكم ، وسيضمحل دينكم ، فنحن في هذا ، لا نعجب بأنفسنا ، ولا نتكل على حولنا وقوتنا ، وإنما نستعين بالرحمن ، الذي ناصية كل مخلوق بيده ، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته ، وقد فعل ، والله الحمد .

تفسير سورة الحج قيل : مكية ، وقيل : مدنية

﴿ ١ - ٢ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿ يخاطب الله الناس كافة ، بأن يتقوا ربهم ، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، فحقيق بهم أن يتقوه ، بترك الشرك والفسوق والعصيان ، ويمثلوا أمره مهما استطاعوا .

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ، ويحذرهم من تركها ، وهو الإخبار بأحوال القيامة ، فقال :

﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ لا يقدر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة ، رجفت الأرض وارتجت ، وزلزلت زلزالها ،



منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿١﴾ .

يدعون إلى النار .

وهناك ﴿بعض الظالم على يديه﴾ ، يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * وتسود حيثذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين . ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ ويقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها، قال: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ . قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها فقيراً ولا قطميراً .

هذا، والمنقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتتهت أنفسهم خالدون، فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يُعد له عُذَّتَهُ، وأن لا يلهبه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله .

﴿٣ - ٤﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي: ومن الناس طائفة ورفقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسوله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين

وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كشيئاً مهياً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج .

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتشر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تصدع له القلوب، وتجعل منه الأفتدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها .

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى .

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ : فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يميزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

ويومئذ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات والهدى لعلنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات والهدى لعلنا لنكونن من الخاسرين . ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات والهدى لعلنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات والهدى لعلنا لنكونن من الخاسرين . ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات والهدى لعلنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات والهدى لعلنا لنكونن من الخاسرين .

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي: مني،

(١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس فأثبت آيات سورة عبس

وهذا ابتداء أول التخليق، ثم من علققة أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله دماً أحر، ثم من مضغة أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون مخلقة أي: مصور منها خلق الأدمي، وغير مخلقة تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، لنئين لكم أصل نشاتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى أي: ونقر، أي: نقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إبقائه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

ومنكم من يتوفى من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزه فيبرد إلى أرذل العمر، أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوى، وضعفت.

لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً أي: لأجل أن لا يعلم هذا العمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله، ففوة الأدمي محفوفة بضعفين، ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير، والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: وترى الأرض هامدة أي: خاشعة مغيرة لا نبات فيها، ولا خضر، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت أي: تحركت بالنبات وربت أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، وأنبئت

من كل زوج أي: صنف من أصناف النبات بهيج أي: يبهج الناظرين، ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

ذلك الذي أنشأ الأدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، بأن الله هو الحق أي: الرب المعبود، الذي لا تبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، وأنه يحيي الموتى كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، وأنه على كل شيء قدير، كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

وأن الساعة آتية لا ريب فيها فلا وجه لاستبعادها، وأن الله يبعث من في القبور فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسئها.

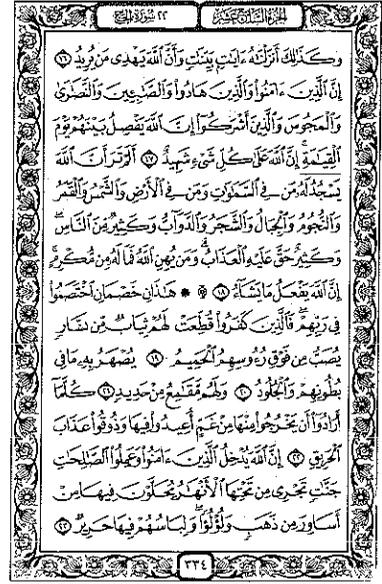
٨-٩ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه يجادل في الله أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليحضر به الحق، بغير علم صحيح ولا هدى أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ولا كتاب منير أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوجهها إليه الشيطان وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ومع هذا ثنائي عطفه أي: لأوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ليضل الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخرية فقال: له في الدنيا خزي أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

ذلك بأن الله هو الحق وأنه لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور * ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * ذلك بما قدمت يداه * وأن الله ليس بظالم للعبيد * ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه يجادل في الله أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليحضر به الحق، بغير علم صحيح ولا هدى أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ولا كتاب منير أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوجهها إليه الشيطان وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ومع هذا ثنائي عطفه أي: لأوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ليضل الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخرية فقال: له في الدنيا خزي أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق أي: نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداه، وأن الله ليس بظالم للعبيد.

١١-١٣ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين * يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى وليس العشير * أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، فإن أصابه خير اطمأن به أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكاراه شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه. فهذا، ربما أن الله يعاقبه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، وإن أصابته فتنة من حصول مكروه، أو زوال محبوب انقلب على وجهه أي: ارتد عن دينه، خسر الدنيا والآخرة أما في



الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأساً ماله، وعضواً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ذلك هو الخسران المبين ﴿أي: الواضح البين﴾.

﴿يدعو﴾ هذا الراجع على وجهه من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ذلك هو الضلال البعيد الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمروشيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ فإن ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿لبئس المولى﴾ أي: هذا المعبود ﴿ولبئس العشير﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١) في النسختين: أنهم.

﴿١٤﴾ ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين، مقلد، وداع، ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضاً على قسمين، والقسم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه ^(١) يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وسميت الجنة جنة، لاشتغالها على المنازل والقصور والأشجار والتوابت التي تجن من فيها، ويستتر بها من كثرتها، ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ فما أراده تعالى فعله من غير مانع ولا معارض، ومن ذلك، إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمتة وكرمه.

﴿١٥﴾ ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فليمدد﴾ ذلك الظان بسبب ﴿أي: حبل إلى السماء﴾ وليرقى إليها ﴿ثم ليقطع﴾ النصر النازل عليه من السماء ^(٢).

﴿فلينظر هل يذهبن كيده﴾ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربه، والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي [وأنه]، لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب. ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجعله، أن سعيه سيفيده شيئاً، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأيي

تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول - إن كان ممكناً - ائت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدّها وأغلقها واقطعها، فهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي: والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بتصر الله لدينه ورسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأسيس الكافرين، الذين يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿١٦﴾ ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلناه آيات بينات واضحات، دلالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقُدوة، واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

﴿١٧ - ٢٤﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات والأرض والنجوم والجن والانس وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يبين الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء * هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴿إلى قوله:

(٢) في هامش ب ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ النصر عن الرسول.

وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد
 ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالشَّجْدِ
 الْحَكِيمِ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ
 وَالسَّكْرَ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ وَالنَّكَارَ يُظَاهِرُونَ مَنْ كَذَّبَ
 إِلَيْهِمْ ﴿٢٥﴾ وَذُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالنَّكَارَ لَا
 تُشْرِكُ فِي شَيْءٍ وَظَهَرَ بَيِّنَاتٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْفِتْنَةِ
 وَالرَّشْحَ الشَّجْرِ ﴿٢٦﴾ وَأَنْزَلَ فِي النَّاسِ أَنْ يَأْتُواكَ
 بِسَاءِ مَا كُنَّ عَلَىٰ صَابِرٍ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ كَيْفٍ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾
 لِيَسْمَعُوا نَسِيعَ كَلِمَةٍ وَتَذَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ فِي آيَاتِهِ يَعْلَمُ
 عَلَىٰ مَا نَزَّاهُ مِنْ نَهْجَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا
 آيَاتِ الْفِتْنَةِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا أَقْسَامَهُمْ وَيُؤْتُوا نَدْوَهُمْ
 وَيُنظَرُوا إِلَيْتِ الْعَمِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مِنْ عَظَمَةِ
 حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَمٌ لِلَّهِ عَسَىٰ رَبُّهُ وَلِيَكَ لَكُمْ
 الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَشَرًا عَلَيْكُمْ وَتَأْتُوا
 الرَّحْمَنَ مِنَ الْأَنْعَامِ وَأَخْبِرُوا قَوْلًا أَرَادُوا ﴿٣٠﴾

عن سبيل الله ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد الحرام، الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارىء إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بإلحاد يظلم نذقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله، ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم ^(١) أن يفعل الله بهم!!

وفي هذه الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿٢٦ - ٢٩﴾ ﴿٢٦﴾ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وظهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * وليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا

﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهداها، ولهذا قال: ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ كل يدعي أنه الحق. ﴿فالذين كفروا﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين.

﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم.

﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ الماء الحار جداً، يصهر به ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره، ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ فلا يُفْتَرُّ عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: المحرق للقلوب والأبدان، ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل، ﴿يحملون فيها من أساور من ذهب﴾ أي: يُسَوَّرُونَ في أيديهم، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِلْحَادِ يظلم نذقه من عذاب أليم﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأتهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد

(١) كذا في ب، وفي أ: ظنهم.



منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق * يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قمماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنيناه، فبناه على تقوى الله، وأسنه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، وينبئه على اسم الله.

﴿وطهر بيتي﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأذناس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفتدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿والركع السجود﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي

تشوش على المتعبدين، بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد.

﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي: أعلمهم به، وأدعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وعمَّاراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي: ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿من كل فج عميق﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه، ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكرًا لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ أي: شديد الفقر، ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿وليوفوا نذورهم﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا، ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً، لفضله، وشرفه، ولكونه المقصود، وما

قبله وسائل إليه.

ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك، أم مستقلاً بنفسه.

﴿٣٠-٣١﴾ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴿ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها، لأن تعظيم حرمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه، ودنياه وأخراه عند ربه.

وحرمات الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها، فتعظيمها وإجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده، من بهيمة الأنعام، من إبل وبقرة وغنم، وشرعها من جملة المناسك، التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين، ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ الآية، ولكن الذي من رحمة بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيراً من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ أي: الخبث القدر ﴿من الأوثان﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس، والظاهر أن ﴿من﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعية، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون

وجوهها، وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبعيض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبيد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه.

فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾ هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، البدن، أي: الإبل، والبقر، على أحد القولين، فتعظم وتستنم، وتستحسن، ﴿لكم فيها خير﴾ أي: المهدي وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والشواب، والأجر، ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ أي: عند ذبحها قولوا «بسم الله» وأذبحوها، ﴿صواف﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر.

﴿فاذا وجبت جنوبها﴾ أي: سقطت في الأرض جنوبها، حين تسليخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحيث قد استعدت لأن يؤكل منها، ﴿فكلوا منها﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل، تقنعاً، وتعففاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيها.

﴿كذلك سخرناها لكم﴾ أي: البدن لعلكم تشكرون﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحساناً إليكم،

مسمى ﴿مقدر، موقت وهو ذبحها إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق، أي: الحرم كله «منى» وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً لذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون﴾ أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكاً، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولنظر أياكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراجه بالعبودية، وترك الشرك به ولهذا قال: ﴿قله أسلموا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشر المخبتين﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربه، محتسبين ثوابه، مرتقين أجره، ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع

منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور.

أمرهم أن يكونوا ﴿حنفاء لله﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله﴾ فمثله ﴿فكأنما خر من السماء﴾ أي: سقط منها ﴿فتخطفه الطير﴾ بسرعة ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبيات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودينه.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكاملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لكم فيها﴾ أي: [في] الهدايا ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إلى أجل

فأحدوه .

وقوله: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط . ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالتقشور الذي لا لب فيه، والجدس الذي لا روح فيه .

﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله﴾ أي: تعظموه وتجلوه، ﴿على ما هداكم﴾ أي: مقابلة لهديته إياكم، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد، وأعلى التعظيم، ﴿وبشر المحسنين﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبده، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم، ورويته إياهم، والمحسنين لعباد الله، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جارة، أو نصيح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك، فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته وعباده ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ .

﴿٣٨﴾ ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ إن الله لا يجب كل خوان كفور ﴿هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكروه، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف . كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر .

﴿إن الله لا يجب كل خوان﴾ أي: خائن في أمانته التي حمله الله إياها، فيسخر حقوق الله عليه، ويخونها، ويخون الخلق .

﴿كفور﴾ لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان، فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقتة، وسيجازهه على كفره وخيانتة، ومفهوم الآية، أن الله يجب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه .

﴿٣٩ - ٤١﴾ ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، وأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ فليستصروه، وليستعيتوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾ أي: أخرجوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿بغير حق إلا﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أن يقولوا ربنا الله﴾ أي: إلا أنهم وخذوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنباً، فهو ذنبهم كقوله تعالى: ﴿وما نقصوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين الله، وذُب الكفار المؤذنين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن

ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين، ﴿لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد﴾ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين، ﴿يذكر فيها﴾ أي: في هذه المعابد ﴿اسم الله كثيراً﴾ تقام فيها الصلوات، وتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخرّبوا معابدهم، وقتنوه عن دينهم، فدل هذا، أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ .

فإن قلت: ترى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تحرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولائهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دعفاً .

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، ودخل في حكمها، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة، وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة

مقتدرة بَعْدَها أو عُدْها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتحشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصرارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثير]^(١) ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يرى عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه [يشعور المسلمون بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل]^(٢)، فتحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلاق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وُعددكم، وقوي عدد عدوكم وعدتهم^(٣)، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

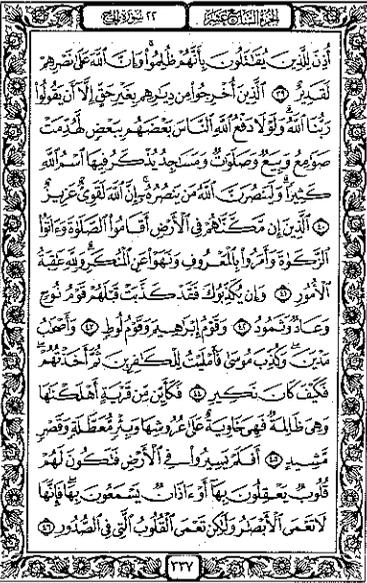
﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقوموا،

أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: ﴿الذين إن ملكناهم في الأرض﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، ﴿أقاموا الصلاة﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

﴿وآتوا الزكاة﴾ التي عليهم خصوصاً، وعلى رعييتهم عموماً، آتوا أهلها، الذين هم أهلها، ﴿وأمروا بالمعروف﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الأدميين، ﴿ونهاوا عن المنكر﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿والله عاقبة الأمور﴾ أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه،



فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشرومة، وعاقبته مذمومة.

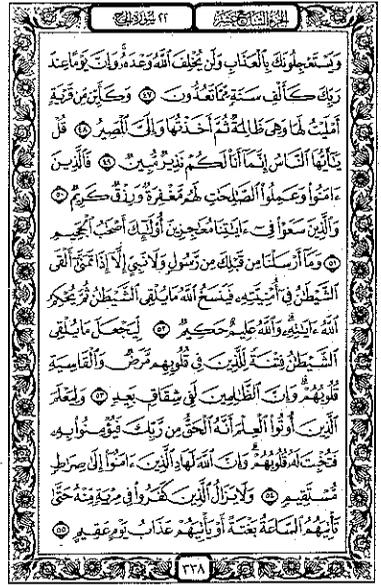
﴿٤٢ - ٤٦﴾ ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدین وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكتنا وهي ظالمة فبھی خاوية على عروشها وبشر معطلة وقصر مشيد * أفلم یسیروا فی الأرض فتكون لهم قلوب یعقلون بها أو آذان یسمعون بها فإنها لا تعمی الأبصار ولكن تعمی القلوب التي فی الصدور﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها ﴿فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدین﴾ أي: قوم شعيب.

﴿وكذب موسى فأملت للكافرين﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلم - والله أعلم -.



وشربهم يزدادون، ثم أخذتهم بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿تكيف كان نكير﴾ أي: إنكاري عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأقطع المثالات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذوبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال: ﴿فكأين من قرية﴾ أي: وكم من قرية أهلكناها بالعذاب الشديد، والحزبي الدنيوي، وهي ظالة ﴿بكرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا، فهي خاوية على عروشها﴾ أي: فديارهم مهتدمة، قصورها، وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آتسة، وبثر معطلة وقصر مشيد﴾ أي: وكم من بشر، قد كان

يزدحم عليه الخلق، لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيدوه، ورفعوه، وحصنوه، وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالاً لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا، ويعتبروا فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أو آذان يسمعون بها﴾ أخبار الأمم الماضية، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرتيات، وأما عمى البصر، فغايبته بلغة، ومنفعة دنيوية.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالة ثم أخذتها وإلي المصير﴾ أي: يستعجلك هؤلاء المكذوبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجزاً لله، وتكديماً لرسله، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته، والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزتك عجلتهم وتعجزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال:

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ (١) يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً، بأنه رسول الله، حقاً، مبشراً للمؤمنين بشواب الله، منذراً للكافرين والظالمين من عقابه، وقوله: ﴿مبين﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾ بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم من المأكول والمشرب والمنكح والصور والأصوات والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا

الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية وصورتها، وأبقيت التفسير كما هو.

كلامه ﴿والذين كفروا﴾ أي: جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتئهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب عقيم * الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿اللقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرده ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويدهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، ﴿والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته، مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿والقاسية قلوبهم﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي: مشاققة الله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقبض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كমান النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فيؤمنوا به﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع العارض والشبه.

﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي: تخضع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وإن الله لهادي الذين

الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا و عملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿اللقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرده ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويدهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، ﴿والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

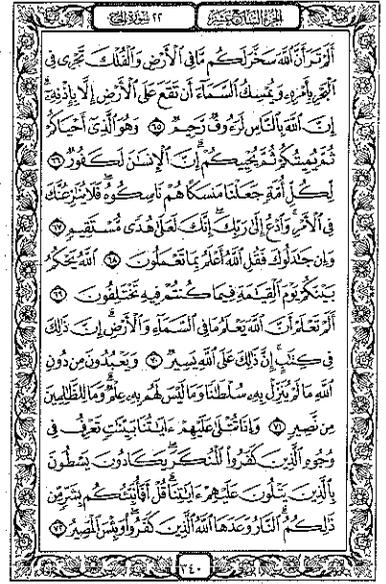
آمنوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷺ: ﴿والنجم﴾ فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى، ألقى الشيطان في قراءته: ﴿تلك العرائق العلى، وإن شفاعتهم﴾ لترتجى، فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿٥٥-٥٧﴾ ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتئهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب عقيم * الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا و عملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حتى تأتئهم

(١) كذا في ب، وفي أ: شفاعتهم.

(٢) في النسخين: وأنه.



الساعة بفتة ﴿أي﴾: مفاجأة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ ﴿أي﴾: لا خير فيه، وهو يوم القيامة، فإذا جاءت الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً، ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مرتبتهم وفريتهم. ﴿المملك يومئذ﴾ ﴿أي﴾: يوم القيامة ﴿الله﴾ تعالى، لا لغيره، ﴿يحكم بينهم﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل، ﴿فالذين آمنوا﴾ بالله ورسله، وما جاؤوا به ﴿وعملوا الصالحات﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿في جنات النعيم﴾ نعيم القلب والروح والسيد، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول. ﴿والذين كفروا﴾ بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ لهم، من شدته، وألمه، وبلوغه للافئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو

خير الرازقين ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حلِيم﴾ هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً في سبيل الله، ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى^(١): أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبروا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾ إما ما يفتحه الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وإن الله لعليم﴾

بالأمور، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها، ﴿حليم﴾ يعصيه الخلائق، وبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرته الله إن الله لعفو غفور﴾ ذلك بأن من جئني

عليه وظلِّم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنائته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن بغي عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُبغى عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غير، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلِّم وجني عليه، فالنصر إليه أقرب.

﴿إن الله لعفو غفور﴾ ﴿أي﴾: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويعفو ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فيبغى لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفروا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتديره، الذي ﴿يولج الليل في النهار﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك، قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وإن الله سميع﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿بصير﴾ يرى دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسار بالنهار﴾.

(١) في ب: المراد.

والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمينته، فأعطاهم فوق أمانهم، ما نقض ذلك من ملكه شيء، ومن غناه، أن يده سحاه بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس، ومن غناه وكرمه، ما أودعه في داز كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الحميد﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه، لكونها حسنى، وفي صفاته، لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السماوات والأرض، وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أتى على نفسه، وفوق ما يشني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴿أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة، وأياديه الواسعة، و﴿أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لسني آدم، حيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها، يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها، يستخرجها، وينتفع بها، ﴿والفلك﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن

وحدايته، وكماله فقال: ﴿ألم تر﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر، فينزل على أرض خاشعة مجربة، قد اغبرت أرجاؤها، ويبس ما فيها، من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، إن الذي أحياها بعد موتها وهمودها لمحبي الموتى بعد أن كانوا رميمًا.

﴿إن الله لطيف خبير﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخصياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القنطرة من الأرض، ويذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فنبت منه أنواع النبات، ﴿خبير﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخبايا الأمور.

﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وإن الله لهو الغني﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعم ولا يُطعم، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم، وإعدادهم، وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم

﴿ذلك﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾ الذي، هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبتطل تبعاً لغايتها ومقصودها، ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾ له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ﴿هذا حث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على

(١) في ب: (عباده الخير ويدفع عنهم الشر).

﴿تجزي في البحر بأمره﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمة بكم أنه ﴿يمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ فولوا رحمة وقدوته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضر، ومن رحته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أو جدكم من العدم ﴿ثم يميتكم﴾ بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بعد موتكم، لجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿إن الإنسان﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لكفور﴾ نعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه.

﴿٦٧ - ٧٠﴾ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعملى هدى مستقيم * وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون * الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون * ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير * يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ الآية، ﴿هم ناسكوه﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول

والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فلا ينازعك في الأمر﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جنتهم به، بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله»، وكقولهم «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فلاقتصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿على هدى مستقيم﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر متشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وأرائهم، ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾. مع أن في قوله: ﴿إنك لعملى هدى مستقيم﴾ إرشاداً لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدل عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾

أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: «اكتب» قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ وإن كان تصوره عندهم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتولون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقيح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قضد في اتباع

الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر ذلك بقوله: ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا﴾ التي هي آيات الله الخلية، المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل «تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر» من بغضها وكرهاتها، ترى وجوههم مُعْبَسَة، وأبشارهم مكفهرة، «يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا» أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بسن الحالة، وشرها بسن الشر، ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلهاذا قال: ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله للذين كفروا وبئس المصير﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز * هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يا أيها الناس﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، «ضرب مثل فاستمعوا له» أي: ألقوا إليه، أسمعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ شمل كل ما يُدعى من دون الله، ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب

أولى، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ بل أبلغ من ذلك لو «يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه» وهذا غاية ما يصير من العجز. «ضعف الطالب» الذي هو المعبود من دون الله «والمطلوب» الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين.

فهذا ما قدر «الله حق قدره» حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصنيحة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور * لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقاً، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: «الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس» أي: يختار ويختبى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، يكونون أركى ذلك النوع، وأجعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يَشَاءُ وَمِنْ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا سَبْعَةَ عَشَرَ إِذِ انبَسَجَا إِلَى اللَّهِ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَسْمِعُوا لَمْ يَكُنِ لَهُمْ مَلْفٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَمِعًا * وَلَمَّا تَلَّى الْقُرْآنَ لِيَذَّبَ عَنْهَا الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا اللَّهُ لَظَهِيرُ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْجُدُوا لِلَّهِ سَجْدًا وَابْتَغُوا الْوَجْهَ الرَّضِيَانَ وَأَقْبِلُوا أَلْسِنَكُمْ لِقَابِ اللَّهِ تَسْلِيمًا * وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا هَؤُلَاءَ فَسَيَمْلِكُ اللَّهُ أَعْيُنَكَ وَيَجْعَلُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ شَاءَ مِنْ حَيْثُ يَلِيكَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * مِنْ قَبْلِ نَزْلِ هَذِهِ آيَاتِ الرَّسُولِ فَهَذَا عَلَيْكُمْ تَكْوِينًا وَكُنُوا شَاهِدًا عَلَى النَّاسِ بِمَا قَالُوا وَالصَّلَاةَ رَءَاوُا الْكُفْرَةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٦﴾

صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم^(١)، ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإنما المصطفى لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعون الناس إلى الله، فمنهم المحيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيها إلى الله، فلا تعدم منه فضلاً أو عدلاً.

﴿٧٧ - ٧٨﴾ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاءهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج مئة أبيكم إبراهيم هو ستماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير * يأمر تعالى عبادة المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع

(١) في ب: واجتباهم.

تم تفسير سورة الحج،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المؤمنون^(١) وهي مكية

﴿١١-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرحيم قد أفلح المؤمنون * الذين هم
في صلاتهم خاشعون * والذين هم
عن اللغو معرضون * والذين هم
للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم
حافظون * إلا على أزواجهم أو ما
ملكتم أيماهم فإنهم غير ملومين *
فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم
العادون * والذين هم لأماناتهم
وعهدهم راعون * والذين هم على
صلواتهم يحافظون * أولئك هم
الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم
فيها خالدون * هذا تنويه من الله،
بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم

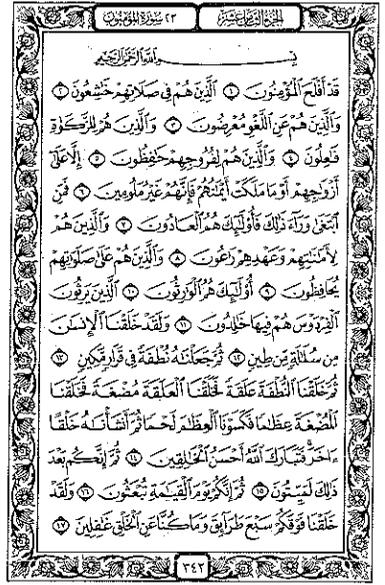
وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى
ذلك، وفي ضمن ذلك، الخث على
الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها.
فليزّن العبد نفسه وغيره على هذه
الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع
غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة
وقلة، فقله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾
أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا،
وأذركوا كل ما يرام. المؤمنون الذين
آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من
صفاتهم الكاملة أنهم ﴿في صلاتهم
خاشعون﴾

والخشوع في الصلاة: هو حضور
القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً
لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن
نفسه، وتسكن حركاته، ويقبل التفاته،
متأدياً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما
يقوله ويفعله في صلاته، من أول
صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك
الوساوس والأفكار الرديئة، وهذا روح
الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي
يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع
فيها ولا حضور قلب، وإن كانت
مجزئة مثاباً عليها، فإن الشواب على

ربما توهم متوهم أن هذا من باب
تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما
يشق، احترز منه بقوله: ﴿وما جعل
عليكم في الدين من حرج﴾ أي: مشقة
وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله
بغاية السهولة، فأولاً ما أمر وألزم إلا
بما هو سهل على النفوس، لا يتقلها
ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض
الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما
أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط
بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة
شرعية وهي أن المشقة تجلب التيسير
و «الضرورات تبيح المحظورات»،
فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية،
شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي: هذه
الملة المذكورة، والأوامر المزيورة، ملة
أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها،
فالزموها واستمسكوا بها.

﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾
أي: في الكتب السابقة، المذكورون
ومشهورون، ﴿وفي هذا﴾ أي: هذا
الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال
هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً،
﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾
بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وتكونوا
شهداء على الناس﴾ لكونكم خير أمة
أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً
خياراً، تشهدون للرسل أنهم بلغوا
أهمهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم
بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه،
﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها
وحدودها، وجميع لوازمها، ﴿وآتوا
الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها شكراً لله
على ما أولاكم، ﴿واعتصموا بالله﴾
أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك،
ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم،
﴿هو مولاكم﴾ الذي يتولى أموركم،
فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على
أحسن تقديره، ﴿فتنعم المولى ونعم
التصير﴾ أي: نعم المولى لمن تولاه،
فحصل له مطلوبه ﴿ونعم النصير﴾ لمن
استنصره فدفع عنه المكروه.



والسجود، لفضلهما وركنيتهما،
وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة
القلب المحزون، وأن ربوبيته وإحسانه
على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له
العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور
فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾. أي:
تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون
من المكروه المرهوب، فلا طريق
للفلاح سوى الإخلاص في عبادة
الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن
وفق لذلك، فله الفلاح المعلن، من
السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾
والجهاد بذل الوسع في حصول
الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق
جهاده، هو القيام التام بأمر الله،
ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق
موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم
وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير
ذلك.

﴿هو اجتياكم﴾ أي: اختاركم - يا
معشر المسلمين - من بين الناس،
واختار لكم الدين، ورضيه لكم،
واختار لكم أفضل الكتب وأفضل
الرسول، فقابلوا هذه المنحة العظيمة،
بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان
قوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾

حسب ما يعقل القلب منها .

«والذين هم عن اللغو» والكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، «ومعرضون» رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخرزته - إلا في الخير - كان مالكاً لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا»، فالؤمنون من صفاتهم الحميدة، كفّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات .

«والذين هم للزكاة فاعلون» أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة .

«والذين هم لفروجهم حافظون» عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنّب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما . فحفظوا فروجهم من كل أحد «إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم» من الإماء المملوكات «فإنهم غير ملومين» بقرّبهما، لأن الله تعالى أحلها .

«فمن ابتغى وراء ذلك» غير الزوجة والسرية «فأولئك هم العادون» الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرؤون على معارم الله . وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح النعمة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك .

ويدل قوله: «أو ما ملكت أيماهم» أنه يشترط في حل المملوكة،

أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(١) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان .

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، «والذين هم على صلواتهم يحافظون» أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشرطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص .

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات «هم الوارثون» الذين يرثون الفردوس الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و^(٢) مراتبهم، كل بحسب حاله، «هم فيها

(١) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في ب: في مراتبهم.

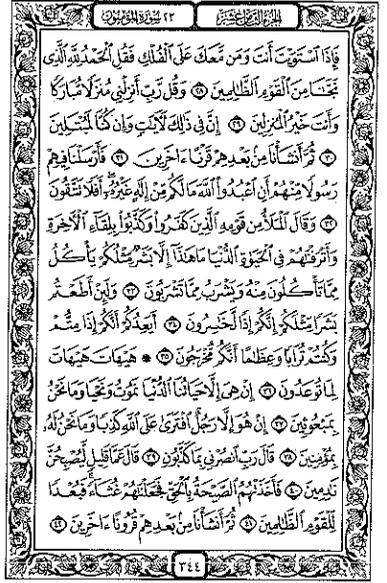


خالدون» لا يطعنون عنها، ولا يبغون عنها حولا، لأشمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منغص .

«١٢ - ١٦» «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» ثم جعلناه نطفة في قرار مكين» ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظما ثم فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» ثم إنكم بعد ذلك لميتون» ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتقلباته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه «من سلالة من طين» أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والحبيث، وبين ذلك، والسهل والحزئ، وبين ذلك .

«ثم جعلناه» أي: جنس الآدميين «نطفة» تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر «في قرار مكين» وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك .

«ثم خلقنا النطفة» التي قد استقرت قبل «علقة» أي: دماً أحر،



بعد مضي أربعين يوماً من النطفة، ثم خلقنا العلقة بعد أربعين يوماً مضفة أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمزج من صغرها، فخلقنا المضغة اللينة عظاماً صلبة، قد تحللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، فكسونا العظام لحماً أي: جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ثم أنشأناه خلقاً آخر نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جاداً، إلى أن صار حيواناً، فتبارك الله أي: تعالى وتعاظم وكثر خيره أحسن الخالقين الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون فخلقناه كله حسناً، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

ثم إنكم بعد ذلك الخلق، ونفخ الروح لميتون في أحد أطواركم وتنقلاتكم، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فتجازون بأعمالكم، حسنها

وسئها. قال تعالى: ﴿يحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين * لما ذكر تعالى خلق الأدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال:

﴿ولقد خلقنا فوقكم سقفاً للبلاد، ومصالحة للعباد سبع طرائق أي: سبع سماوات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع، وما كنا عن الخلق غافلين﴾ فعلمنا أيضاً بحيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقاً ولا ننساه، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لمح الجحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ وكثيراً ما يقرب تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ بلى وهو الخلاق العليم لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند الضرر من

دوامه، ﴿فأسكنناه في الأرض﴾ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرته منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معداً في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً، حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾.

﴿فأنشأنا لكم به﴾ أي: بذلك الماء جنات أي: بساتين من نخيل وأعناب حصن تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرها من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لكم فيها﴾ أي: في تلك الجنات فواكه كثيرة ومنها تأكلون من تين، وأترج، ورمان، وتفاح وغيرها، ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: ﴿تنبت بالدهن وصبغ للأكلين﴾ أي: فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل^(١) استعماله من الاستصباح به، واصطبغ الأكلين، أي: يجعل إداماً للأكلين، وغير ذلك من المنافع.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿وإن لكم في الأنعام عبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون﴾ وعليها وعلى الفلج يحملون أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقر، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمتفتحين ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائق للشاربين، ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من

(١) كذا في النسختين، وقد شطبت كلمة يستعمل في ب، وكتب فوقها بخط مغاير: يكثر. وهي كذلك في الطبقات المختلفة للتفسير.

جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم
ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿ومنها تأكلون﴾
أفضل المأكّل من لحم وشحم.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾
أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون
عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه
إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم
السفن في البحر تحمّلكم، وتحمل
متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً، فالذي
أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع
الإحسان، وأدر علينا من خيره
المدرار، هو الذي يستحق كمال
الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في
عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على
معاصيه.

﴿٢٣ - ٣٠﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً
إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من إله غيره أفلا تتقون﴾ إلى آخر القصة
وهي قوله ﴿إن في ذلك لآياتٍ وإن كنا
لمبشّرين﴾ يذكر تعالى رسالة عبده
ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول
أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى
قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم
بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يا قوم
اعبدوا الله﴾ أي: أخلصوا له العبادة،
لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها.
﴿مالك من إله غيره﴾ فيه إيظال الوهية
غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى،
لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال
كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أفلا
تتقون﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان
والأصنام، التي صورت على صور قوم
صالحين، فعبدوها مع الله، فاستبصر
على ذلك، يدعوهم سراً وجهاراً،
وليلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين
عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً
ونفوراً.

﴿فقال الملا﴾ من قومه الأشراف
والسادة المتبوعون - على وجه المعارضة
لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه - :
﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن
يتفضل عليكم﴾ أي: ما هذا إلا بشر
مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن

يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً،
وإلا فما الذي يفضله عليكم، وهو من
جنسكم؟ وهذه المعارضة ما زالت
موجودة في مكذبي الرسل، وقد
أجاب الله عنها بجواب شاف، على
أسنة رسله كما في قوله: ﴿قالوا﴾
أي: لرسولهم ﴿إن إنتم إلا بشر مثلنا
تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا
فأتونا بسُلطان مبین﴾ قالت لهم
رسولهم إن نحن إلا بشر مثلكم،
ولكن الله يمن على من يشاء من
عباده ﴿فأخبروا أن هذا فضل الله
ومتته، فليس لكم أن تحجروا على الله،
وتمنعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿ولو شاء الله لأنزل
ملائكة﴾ وهذه أيضاً معارضة بالشيعة
باطلة، فإنه وإن كان لو شاء أنزل
ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته
ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من
جنس آدميين، لأن المَلَك لا قدرة
لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون
إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس
عليهم كما كان.

وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي:
بإرسال رسول ﴿في آياتنا الأولين﴾
وأي حجة في عدم سماعهم إرسال
رسول في آياتهم الأولين؟ لأنهم لم
يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا
جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم
يرسل فيهم رسولا، فإما أن يكونوا
على الهدى، فلا حاجة لإرسال
الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على
غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن
خصهم بنعمة لم تأت آباءهم،
ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم
الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم
للإحسان إليهم.

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي:
مجنون ﴿فتربصوا به﴾ أي: انتظروا به
﴿حتى حين﴾ إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبهة التي أوردوها^(١)،
معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة
كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية

الجهل والضلال، فإنها لا تصلح
للمعارضة بوجه من الوجوه، كما
ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة
متعارضة. فقوله: ﴿ما هذا إلا بشر
مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أثبتوا
أن له عقلاً يكيدهم به، ليعلوهم
ويسودهم، ويحتاج - مع هذا - أن
يخدر منه لثلاثي عشر به، فكيف يلتزم مع
قولهم: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾
وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب
عليه الأمر، قصده الدفع بأي: طريق
اتفق له، غير عالم بما يقول!!
ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه
وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه
إلا فراراً ﴿قال رب انصرني بما
كذبون﴾ فاستنصر ربه عليهم،
غضباً لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا
رسوله وقال: ﴿رب لا تذّر على
الأرض من الكافرين دياراً﴾ * إنك إن
تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا
فاجراً كفاراً ﴿قال تعالى: ﴿ولقد نادانا
نوح فلنعم المجرّبون﴾.

﴿فأوحينا إليه﴾ عند استجابتنا له،
سبباً ووسيلة للنجاة، قبل وقوع
أسبابه، ﴿أن اصنع الفلك﴾ أي:
السفينة ﴿بأعيننا ووحينا﴾ أي: بأمرنا
لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا
وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فيأذا جاء أمرنا﴾ بإرسال الطوفان
الذي عذبوا به ﴿وفار الثنور﴾ أي:
فارت الأرض، وتفجرت عيوناً، حتى
محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده
عن الماء، ﴿فأسلك فيها من كل زوجين
اثنتين﴾ أي: أدخل في الفلك من كل
جنس من الحيوانات، ذكراً وأنثى،
تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي
اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في
الأرض، ﴿وأهلك﴾ أي: أدخلهم
﴿إلا من سبق عليه القول﴾ كاتبه،
﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي:
لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء
والقدر، قد حتم أنهم مغرقون.

(١) كذا في ب، وفي أ: أوردوا.

بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿قالوا أشرأ منا واحداً نتبعه إنا إذا لقي ضلال وسعر﴾ * ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقالوا: ﴿أبعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ * هيهات

هيهات لما توعدون﴾ أي: بعيد بعيد ما بعدكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، فقاوسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله. فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكروا أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إنا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

وهنا دليل آخر، وهو: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجب﴾ * إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ فقال في جوابهم: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي: في البلى، ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾.

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ (٢) فلماذا أتى بما أتى به، من توخيد الله،

بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين﴾ (١) قال رب انصرني بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعدا للقوم الظالمين﴾ لما ذكر نوحاً وقومه، وكيف أهلكهم قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ الظاهر أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿فأرسلنا فيهم رسولا منهم﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أفلا تتقون﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم ﴿يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً، وهو مثلكم إنكم لسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم. وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم ينقله. والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر، خصه الله

﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحدوا الله على النجاة والسلامة. فقل الحمد لله الذي نجاننا من القوم الظالمين، وهذا تعليم منه له ولن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن يبسر الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿إن في ذلك﴾ أي: في هذه القصة ﴿لآيات﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿ولإن كنا لمبتلين﴾

﴿٣١ - ٤١﴾ * ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أبعادكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وهذا سبق قلم منه - رحمه الله -، وسيفسرها فيما يلي على نحو مما أثبت وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

(٢) ينظر التعليق السابق.

مَاتُوا مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْتَبُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
تَتْرَا كُلٌّ مِنْ أُمَّةٍ رَسُولًا أَن كَذَّبُوا فَلَا يَتَّبِعُهُمْ بَصِيصًا
وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا
مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةِ قَوْمِهِ فَكَاذِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٨﴾ فَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ
بِآيَاتِكَ يَا مَعْزُومُ ﴿٤٩﴾ فَكَلَّمْنَا فِرْعَوْنَ فَكَذَّبَهَا كَمَا كَانُوا
مِنَ الْمُكَاذِبِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ وَجَعَلْنَا آيَاتِنَا لِلْمُؤْمِنِينَ آيَاتٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
بِهَا إِلَّا الْآيَاتِ الْبَاطِلَةِ ﴿٥٢﴾ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ وَمَجَّلْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُرُّوا قَوْمَهُ يَوْمَ يَأْتِي السَّيْلَ الْمَلْتَقَى فِي
الْآخِرَةِ ﴿٥٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٥٤﴾

من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقيقه ما جاؤوا به، «فأتبعنا بعضهم بعضاً» بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم «وجعلناهم أحاديث» يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالا للمكذبين، وحزياً عليهم مقروناً بعذابهم.

﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ ما أشقاهم!! وتعساً لهم، ما أخسر صفقتهم!!

﴿٤٥- ٤٩﴾ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون * فكذبوها فكانوا من المهلكين * ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون * مر على منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرنه الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جداً، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون» فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله:

وإنيات المعاد ﴿فترصوا به حتى حين﴾ أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره، احتراماً له، ولأنه يجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، أي: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه، لصحة ما جاء به، فإنهم قد عرفوا^(١) بطلانه، وإنما بقي الكلام، هل يوقعون به أم لا؟، فبزعمهم أن عقولهم الرزينة، اقتضت الإبقاء عليه، وترك الإيقاع به، مع قيام الموجب، فهل فوق هذا العناد والكفر غاية!! ولهذا لما اشتد كفرهم، ولم ينتفع فيهم الإنذار، دعا عليهم نبيهم فقال: «رب انصرتي بما كذبون﴾ أي: بإهلاكهم، وخزيهم الدنيوي، قبل الآخرة. «قال» الله مجيباً لدعوته: «عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ لا بالظلم والجور، بل بالعدل وظلمهم، أخذتهم الصيحة، فأهلكتهم عن آخرهم. ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي: هشيماً يسباً بمنزلة غثاء السيل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ أي: اتبعوا مع عذابهم، البعد واللعنة والذم من العالمين ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾.

﴿٤٤- ٤٤﴾ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلاً تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين قروناً آخرين، كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة، لعلهم يؤمنون ويتوبون، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، مع أن كل رسول يأتي

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي: من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك تطع على قلوب المعتدين * ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ الآيات والله أعلم.

فقوله: ﴿ثم أرسلنا موسى﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿وأخاه هارون﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بينة، من قوتها، أن تهجر القلوب، وتتسلط عليها لقوتها فتفتقد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة على المعاندين، وهذا كقوله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ أي: بتلك الآيات البينات ﴿فقال﴾ له ﴿فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ في ﴿قال﴾ موسى ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر، وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً﴾ وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال هنا: ﴿ثم أرسلنا موسى

(١) في ب: زعموا.

المهلكين ﴿ في الغرق في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون.﴾
 اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم، متفقون على إباحة الطيبات من المأكّل، وتحريم الحباثت منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تفاوتت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة ﴾ أي: جماعةكم - يا معشر الرسل - جماعة واحدة ﴿ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.﴾

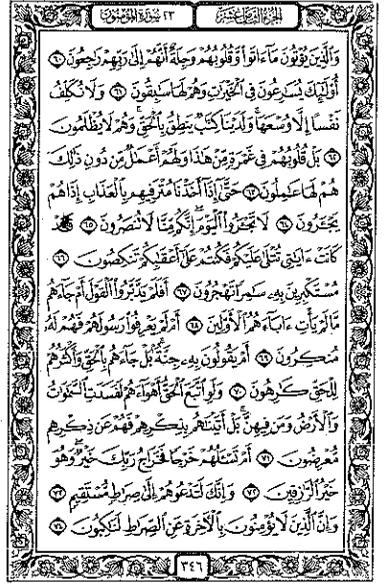
﴿ فاتقون ﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فالواجب من كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبنی الظالمون المفترقون إلا عصياناً، ولهذا قال: ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ﴾ أي: تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿ أمرهم ﴾ أي: دينهم ﴿ بينهم زبراً ﴾ أي: قطعاً ﴿ كل حزب بما لديهم

﴿ ولقد آتينا موسى﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿ وكنينا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿ لعلمهم يهتدون ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿ ولقد آتينا موسى﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿ وكنينا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿ لعلمهم يهتدون ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿ ٥٠ ﴾ ﴿ وجعلنا ابن مريم وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ أي: وأمتننا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولذته من غير أب، وتكلم في المهدي صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى، ﴿ وأويناهما إلى ربوة ﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها، ﴿ ذات قرار ﴾ أي: مستقر وراحة ﴿ ومعين ﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿ قد جعل ربك تحتك ﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿ سرياً ﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً ﴾ فكلي واشربي وقري عينا ﴿.

﴿ ٥١ - ٥٦ ﴾ ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴿ أيجسبون أنما نمدهم به من مال وبنيان ﴾ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴿ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله، بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة. ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي



وأخاه هارون بأياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئيه ﴿ ك هامان ﴾ وغيره من رؤسائهم، ﴿ فاستكبروا ﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه، ﴿ وكانوا قوماً عالين ﴾ أي: وصفهم العلو، والقهر، والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكر منهم.

﴿ فقالوا ﴾ كبراً وتبهاً، وتحذيراً لضعفاء العقول، وتحميماً: ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا مئة الله عليهما بالرسالة.

﴿ وقومهما ﴾ أي: بنو إسرائيل لنا عابدون ﴿ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿ وإذ نجيناكم من سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذلنا بادي الرأي ﴾. من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

ولهذا قال: ﴿ فكذبوها فكانوا من

الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوه. ولما كان المسابق لغيره المسارع قد يسبق لجلده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابق فقال:

﴿وهم لها﴾ أي: للخيرات ﴿سابقون﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نفساً إلا وسعها﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمير جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً، ﴿وهم لا يظلمون﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجارون * لا تجاروا اليوم إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يبتدون به، ولا يصل

أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم برهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية وتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضاً في الآيات الأقفية، كما في قوله: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب﴾ إلى آخر الآيات.

﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي: لا شركاً جليلاً، كاتخاذ غير الله معبوداً، يدعو ويرجوه ولا شركاً خفياً، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدر عليهم، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿و﴾ مع هذا ﴿قلوبهم وجلة﴾ أي: خائفة ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم برهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال

أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرحون﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم ^(١) المحقون. ﴿حتى حين﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿المجسبون﴾ إنما نمدهم به من مال وبنين * تسارع لهم في الخيرات﴾ أي: أيتنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بل لا يشعرون﴾ إنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، ولتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾.

﴿٥٧ - ٦٢﴾ ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون * ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً

(١) في النسختين: هو.

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسال عنه مَنْ له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين» فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المبين؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضاً فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله. وقد علم كراحتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه،

فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكاً ولا تكديماً للرسول، كما قال تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقاً لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو تبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل،

﴿تهجرون﴾ [أي: تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في^(١)] هذا القرآن. فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن، الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ وقال الله عنهم: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾ وتضحكون ولا تبكون. ﴿وأنتم سامدون﴾ ﴿أم يقولون تقوله﴾

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويويغون عند ذلك هذه الأعمال الساقطة ﴿أفلم يدبروا القول﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن، يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أظفاله.

﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ أي: أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلك طريق آباءهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق، فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾.

وقوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاً مستوراً﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم، ﴿ولو﴾ لكن ﴿لهم أعمال من دون﴾ هذه الأعمال ﴿هم لها عاملون﴾ أي: فلا يستغروا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال، التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها، انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم﴾ أي: متنعميهم، الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكارة، فإذا أخذناهم ﴿بالعذاب﴾ ووجدوا مسه ﴿إذا هم يجأرون﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم^(١) الغوث من جانبه، لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿كنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ قال المفسرون معناه: مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على النامس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى، ﴿سامراً﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.

الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، من قرب حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والنفوس بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغيثهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم «عن الصراط لناكبون» متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره، قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾. ﴿٧٥ - ٧٧﴾ «ولو رحناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون» * ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون * حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون» هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاههم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

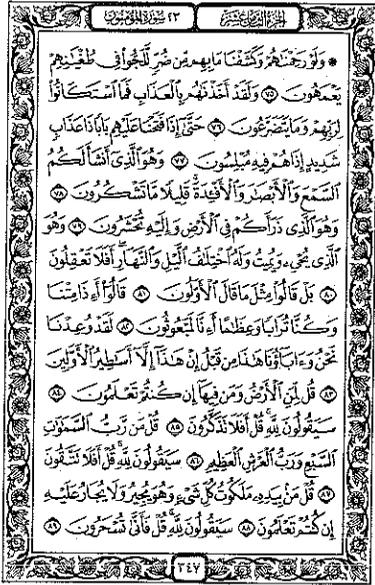
كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعون مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بالشرك وغيره. «ولقد أخذناهم بالعذاب» قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاههم

فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل «بل أتيناهم بذكرهم» أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس. «فهم عن ذكرهم معرضون» شقاوة منهم، وعدم توفيق «نسوا الله فانساهم» فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الحرمان؟.

﴿٧٢﴾ «أم تسألهم خرجاً فخرج ربك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين» أي: أو منعمهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجراً؟ فهم من مغرم مثقلون» يتكلفون من اتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك «فخرج ربك خير وهو خير الرازقين» وهذا كما قال الأنبياء لأمتهم: «يا قوم لا أسألكم عليه أجر إن أجزى إلا على الله» أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحاً لهم، وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الزلزل أنصخ للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أمهم خير الجزاء، ووزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

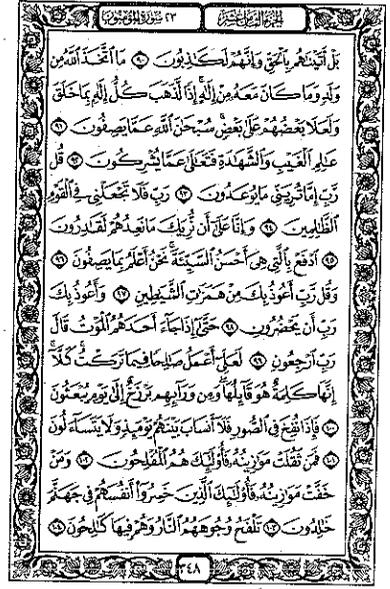
﴿٧٣ - ٧٤﴾ «وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم» * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون» ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات، كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها، واحداً بعد واحد، فذكر من الموانع أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بآبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنة، كما تقدم الكلام عليها، وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم، تدبر القرآن، وتلقى نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال

(١) كذا في ب، وفي أ: الداعي.



﴿٧٨ - ٨٠﴾ «وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» * وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون * وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون» يحبر تعالى بمنته على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: «وهو الذي أنشأ لكم

بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، «فما استكانوا لربهم» أي: خضعوا وذلوا «وما يتضرعون» إليه ويفتقرون، بل مرّ عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزلوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: «حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد» كالقتل يوم بدر وغيره، «إذا هم فيه مبلسون» أيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليخذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده. قال تعالى فيها: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون».



السمع ﴿ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، والأبصار ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها^(١) في مصالحكم.

﴿ والأفئدة ﴾ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صماً عمياً يكماً ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكما لكم؟ أفلا تشكرون الذي منّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟. ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم

﴿ وهو ﴾ تعالى ﴿ الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي: بثكم في أقطارها، وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعيشكم ومساكنكم، ﴿ وإليه تحشرون ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض، من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها، ﴿ وهو ﴾ تعالى وحده ﴿ الذي يحيي ويميت ﴾ أي: المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده، ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ أي: تعاقبهما

وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمداً، من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً، من إله غير الله يأتكم بضيء أفلا تبصرون؟. ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع، والأبصار، والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

﴿ ٨١ - ٨٣ ﴾ ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ قالوا أعذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدهو غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿ أئنا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ أي: هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعمهم.

﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ أي: ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت بعد، ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي: قصصهم وأسمارهم، التي يتحدث بها وتلهى، وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - قبحهم الله - فإن الله أراهم، من آياته أكبر من البعث، ومثله، ﴿ خلقت السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾.

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ الآيات ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها

الماء اهتزت وربت ﴾ الآيات. ﴿ ٨٤ - ٨٩ ﴾ ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴿ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ﴾ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون لله قل فأتى تسجرون ﴿ أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك.

﴿ لمن الأرض ومن فيها ﴾ أي: من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان، ونبات، وجماد، وبحار، وأنهار، وجبال، المالك لذلك، المدير له؟ فإنك إذا سألتهم^(٢) عن ذلك، لا بد أن يقولوا: لله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندهم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك، أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿ قل من رب السماوات السبع ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والشوابت ﴿ ورب العرش العظيم ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿ سيقولون لله ﴾ أي: سيقرن بأن الله رب ذلك كله.

قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿ أفلا تتقون ﴾ عبادة المخلوقات العاجزة،

(١) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به المبصرات، فتنتفعون به.

(٢) في أ: سألتهم.

ما يوعدون * رب فلا تجعلني في القوم الظالمين * وإنما على أن نريك ما نعدهم لقادرون * لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يدعوا لها، حتى عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي: أي وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك، ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للتعذيب، واحمني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإننا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا، فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿٩٦ - ٩٨﴾ ادفع بالنسيئة هي أحسن النسيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون * هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادفع بالنسيئة هي أحسن النسيئة﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه ادعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، ولتصف العاصي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالنسيئة هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها﴾ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ

ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إذ﴾ أي: لو كان معه إلهة كما يقولون ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لا نفر كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على عانة الآخر ومغالته، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمتع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدر، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً، ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربين!!

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببدع أشكالها، أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والمستحبات، ﴿والشهادة﴾ وهو ما نشاهد من ذلك، ﴿فتعالى﴾ أي: ارتفع وعظم، ﴿عما يشركون﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله^(١).

﴿٩٣ - ٩٥﴾ قل رب إما تريني

وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أفلا تدركون﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى. ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟

و «الملكوت»: صيغة مبالغة، بمعنى الملك. ﴿وهو يجير﴾ عبادة من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم عما يضرهم، ﴿ولا يجار عليه﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه.

﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم، ﴿فأنى تسحرون﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتهم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحروا عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿٩٠ - ٩٢﴾ بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم

(١) في ب: شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله).

عظيم.

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فانت - يا محمد - يعني لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه^(١) وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حربه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابله، أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وقل رب أعوذ بك﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿من هزات الشياطين﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهزهم ومستهم، ومن الشر الذي يسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه^(٢) استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن منه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول:

﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كلاً﴾ أي: لا رجعة له ولا إسهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون،

﴿إنها﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كلمة هو قائلها﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نهي عنه.

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليعدوا له عُدته، وليأخذوا له أهبة.

﴿١٠١ - ١١٤﴾ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال اخسروا فيها ولا تكلمون ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا فاغفر لنا وآرحننا وأنت خير الراحمين ﴿فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لِمَقَاتِ يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير

الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لا اشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه ﴿وأمه وأبيه ﴿وصاحبته وبنيه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾^(٣)

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر، ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فاتتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية فقوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿في جهنم خالدون﴾ لا يخرجون منها أبداً الأبدية، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين

(١) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٢) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٣) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتها منها.

فقال: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿وهم فيها كالحون﴾ قد عبت وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيحاً ولوماً -: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتظنوا، ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ ظلماً منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيّنات للمحق والمبطل، فحيث أنفروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع ﴿وكننا قوماً ضالين﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ولم يثبت الله لهم حجة، بل قطع أعدارهم، وعمّهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿اخشوا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخيب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكابتهم من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا أنمنا فأغفر لنا وارحمنا وأنت

خير الراحمين﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم. فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم، ﴿فاتخذتموهم﴾ أيها الكفرة الأندال ناقصو العقول والأحلام ﴿سخرين﴾ تهزؤون بهم وتحقروهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

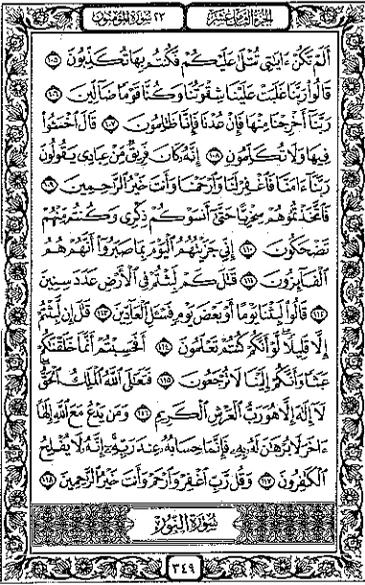
﴿حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟! ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي.

﴿أنهم هم الفائزون﴾ بالنعيم القيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ الآيات.

﴿قال﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم.

﴿كم ليتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا لبئنا يوماً أو بعض يوم﴾ كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جداً، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهذا قالوا: ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الضابطین لعدده، وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿إن لبئتم إلا

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: مناغل.



قليلاً﴾ سواء عيشتم عدده، أم لا ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

﴿١١٥ - ١١٦﴾ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿أي: أفحسبتم﴾ أيها الخلق ﴿أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي: سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون ببلذات الدنيا، وترتكبكم لا تأمركم، ولا [لا] نهاكم ولا تنبيكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ لا يخطر هذا ببالكم، ﴿فتعالى الله﴾ أي: تعاليم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدر في حكمته. ﴿الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ فكونه ملكاً للخلق كلهم حقاً، في صدقه، ووعدده، ووعدده، مألوهاً معبوداً، لما له من الكمال ﴿رب العرش الكريم﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ ﴿ومن يسد مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أي: ومن دعا

صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أثنى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يجلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قرناءهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، والحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغالها بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم الملح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤-٥﴾ ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾* إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ لما عظم تعالى أمر

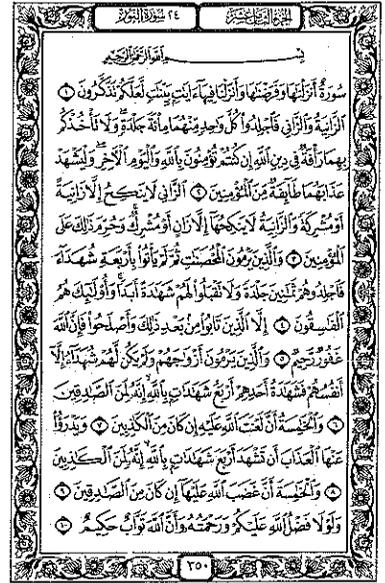
رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرضناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر، وحكماً عظيمة ﴿لعلمكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢-٣﴾ ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾.

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهنا تعالى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص، والله أعلم.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يندس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سبقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فكفرهم منهم من الفلاح.

﴿وقل﴾ داعياً لربك خالصاً له الدين ﴿رب اعف﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وأنت خير الراحمين﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمة القدر ﴿أنزلناها﴾

الزاني^(١) بوجوب جلده، وكذارجه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأضرار بالرمي بالزنا فقال: **﴿والذين يرمون المحصنات﴾** أي: النساء الأحرار العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْي الرَّمْيُ بالزنا، بدليل السياق، **﴿ثم لم يأتوا﴾** على ما رموا به **﴿بأربعة شهداء﴾** أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً، **﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾** بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبلغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإللاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المذدوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير.

﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القذف، حتى يتوب كما يأتي، **﴿وأولئك هم الفاسقون﴾** أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثروا شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسلط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

وقوله: **﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾** فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر

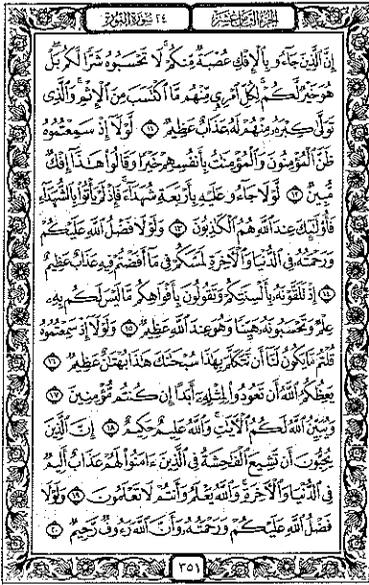
الذنوب جميعاً، لمن تاب وأتاب، وإنما يجلد القاذف، إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

﴿٦- ١٠﴾ **﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾**

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دائرة عنه الحد، لأن الغالب، أن الزوج لا يقدم على زمي زوجته، التي يدينسه ما يدينسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إحقاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره فقال: **﴿والذين يرمون أزواجهم﴾** أي: الحرائر^(٢) لا المملوكات.

﴿ولم يكن لهم﴾ على رميهم بذلك **﴿شهداء إلا أنفسهم﴾** بأن لم يقيموا شهداء، على ما رمواهم به **﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين﴾** سماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: «أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به».

﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعنة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف، ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها. وهل يقام عليها الحد، بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تجبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله: **﴿ويدراً عنها العذاب أن**



تشهد﴾ إلى آخره، فلو أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم يكن لعانها درأ له.

ويدراً عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها.

﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكداً لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاحن عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل لأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله، ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين

(١) في أ: الزنا، وفي ب: الكلمة مشطوبة.

(٢) في النسختين: الأحرار ولعل الصواب ما أثبت.

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، **«والذي تولى كبيره»** أي: معظم الإنك، وهو المتأفق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - **«له عذاب عظيم»** ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: **«لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً»** أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، **«وقالوا»** بسبب ذلك الظن **«سبحانك»** أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبثي أصفياءك بالأمور الشنيعة، **«هذا إفك مبين»** أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

«لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء» أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. **«فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون»** وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: **«فأولئك عند الله هم الكاذبون»** ولم يقل: **«فأولئك هم الكاذبون»**، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على زميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

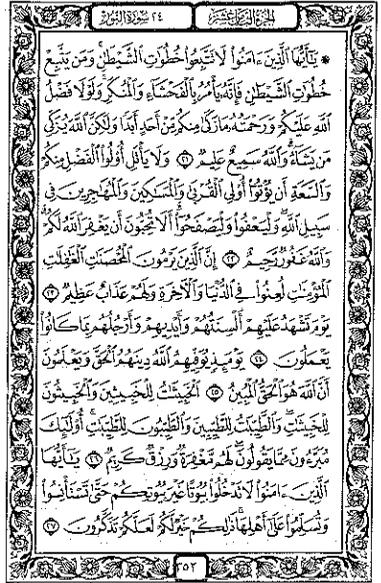
«ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة» بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، **«لنسكنكم فيما أفضتكم»** أي: خضتم فيه من شأن الإنك **«عذاب عظيم»** لاستحقاقكم ذلك بما قلمت، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة. ف قوله تعالى: **«إن الذين جاؤوا بالإفك»** أي: الكذب الشنيع، وهو زمني أم المؤمنين **«عصبة منكم»** أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه ولكنه اغتر بترويج المنافقين] ^(١) ومنهم المتأفق.

«لا تحسبهوا شرأ لكم بل هو خير لكم» لما تضمن ذلك ثبيرة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فيكرهه من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحته.

«لكل امرئ امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا



لكم شدة الزنا وفضاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

«١١ - ٢٦» **«إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبهوا شرأ لكم بل هو خير لكم»** إلى آخر الآيات وهو قوله: **«لهم مغفرة ورزق كريم»** لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الرُمي بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فأنجست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المغطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقودها بعد ما نزل

(١) زيادة من هامش: ب.

شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾ أي: تلقفونه، وبلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿وتحسبونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفقه حسبانها شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواعته مرة أخرى.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أي: كذب عظيم. ﴿يعظكم الله أن تعودوا مثله﴾ أي: لتظيره، من زمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله نعماً يعظكم به﴾. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات. ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جليلاً. ﴿والله عليم﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجرأته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبيّن لكم ما تجهلونه.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة وهو بيان ما في النهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي: الشيطان ﴿يأسر بالفحشاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿والمنكر﴾: هو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القتالة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكائها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿ولا يأتل﴾ أي: لا يحلف ﴿أو لو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا﴾ كان من جملة الخاتمين في الإفك «مسطح بن أثانة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا يفتق عليه، لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله إن غفر له، فقال:

(١) كذا في النسخين.

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالسرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعده تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشتمزاز من هذه الحال، «هو أذكى لكم» أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتمييزكم بالחסنات. «والله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبثات» أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبث، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

كيف وهي هي!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا، فقال: «أولئك مبرؤون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً «لهم مغفرة» تستغفر الذنوب «ورزق كريم» في الجنة صادر من الرب الكريم.

«٢٧ - ٢٩» «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلك خير لكم لعلكم تذكرون» * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يرشد المبازي عبادة المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

«ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» إذا عاملتم عبيده، بالعرف والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

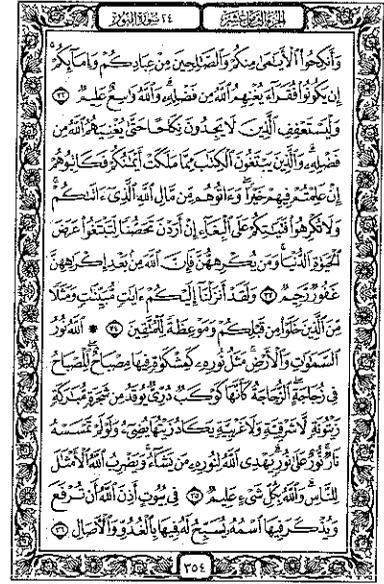
ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إن الذين يرمون المحصنات» أي: العفاف عن الفجور «الغافلات» التي لم يخطر ذلك بقلوبهن «المؤمنات» «لعنوا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «ولهم عذاب عظيم» وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة تقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق» أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعيده ووعيدته، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا تُم حق، إلا في الله وما من الله.

«الخبثات للخبثين والخبثون



عادة، ويحتمل أن المراد بالصلحين الصالحون للزوج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمزوجين ﴿يَغْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يمنعكم ما توهون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على الزواج، ووعده للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، بمن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وَلَيْسَتَعْتَفُفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يَغْنِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تحظر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يقدرون نكاحاً، إما لفقرهم أو فقر أولياتهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم]^(٢)، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح»، وجعلوا المضاف إليه نائباً مناب المضاف، فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حَتَّى يَغْنِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد

الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتَوَبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لتقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يفتنون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيم﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياء، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامي وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيسم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ﴾ يحتمل أن المراد بالصلحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا، منهي عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد

الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وَتَوَسَّوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لِعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى

(١) في النسختين: الصالحين للزوج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب بظ مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لثلاث يشق عليه ما هو فيه.

وقوله ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكايتوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكتابوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاًحاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، لذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وأتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا العباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدىء بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابته، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إن أردن تحصناً﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿ومن يكرهه فإن الله من بعد إكراهه غفور رحيم﴾ فُلَيْبٌ إلى الله، ولْيُقْلِعْ عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكائها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ هذا تعظيم وتفضيم لهذه الآيات، التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مينات﴾ أي: واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة، ﴿و﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والاطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل

مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكروسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فثُمَّ الظلمة والخصر، ﴿مثل نوره﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كمشكاة﴾ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاجه﴾ من صفاتها وبهائها ﴿كأنها كوكب دري﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يوقد﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجه الدرية ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي تاره من أنور ما يكون، ﴿لا شرقية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ولا غربية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أولاً] النهار، وإذا انتفى عنها الأمان، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام،

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبتته، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: ﴿يكاد زيتها﴾ من صفاته ﴿يضيء ولو لم تمسه نار﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نور على نور﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

وجوه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ ممن يعلم زكاه وظهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، ولتوضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً، ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعلمها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منها بها فقال:

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها

بالغدو والأصال﴾ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعبد لله ﴿في بيوت﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. ﴿أذن الله﴾ أي: أمر ووصى ﴿أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحززون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿ويذكر فيها اسمه﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، وتفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: ﴿يسبح له﴾ إخلاصاً ﴿بالغدو﴾ أول النهار ﴿والأصال﴾ آخره ﴿رجال﴾. خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها لله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لا تلهيهم تجارة﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿ولا بيع﴾ من باب عطف الخاص على العام،

لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهو لا الرجال، وإن اتجروا، وبعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ من شدة هولته وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالشواوب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿ويزيدهم من فضله﴾ زيادة كثيرة عن الجزء المقابل لأعمالهم، ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفوا حسابه والله سريع الحساب﴾ أو كظلمات في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ هذان مثلان، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها

يَسْأَلُ لَأَنْ يَكُونَ مِنْ جَنَّةٍ وَلَا يَمُوتُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقْتَرَأَ الْقُرْآنَ
 وَالْحِكْمَةَ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَلْيُفْلِحْ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَفْئِدَةُ
 بِحُجْرَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُرِيدُ مِنْ قَضِيئِهِ وَاللَّهُ يَزِيدُ
 مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلٍ حَسَابٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
 بِقَعْرِ بَحْرٍ مَلَّةٍ يَخْتَصِمُونَ لَهَا إِذْ إِذَا حُمِلَتِ هِيَ تَحْتَالُ عَلَى
 اللَّهِ فِي عُنُقِهِ فَوْقَهُ حِسَابُهُ يَرْسِلُ فِيهِ حِسَابًا أَوْ كَلِمَاتٍ
 فِي مَجْرٍ يُخْرِجُ مِنْهُ مَوْجٌ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِ سَكَابُ
 طَائِفَاتٍ خِصْفًا فَوقَ بَعْضِهَا أُنْفُوجٌ يَغْرِغُ رِيحًا وَغَرَابِيبُ
 يُجَمَلُ اللَّهُ لَهَا ذُرًّا فَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ
 الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَاللَّهُ يَرْفَعُ كُلَّ قَدْحَةٍ صَلَاتِهِ
 وَيَسْمَعُ سَمْعًا عَمِيمًا وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَيَقُولُ مَا كُنَّا
 وَالْأَرْضِ قَالُوا اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ فِي
 الْوَالِدِ بِنْتَهُ بِرُوحِهِ لَمَّا كَانَتْ أَلْفًا وَرَبُّهَا خَلْقًا
 وَيُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ فِيهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ
 وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَهْدِي بِالْأَمْرِ

فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مديرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطاهم مولاها، ومنحها ربه. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين، والله أعلم.

فقال: **﴿والذين كفروا﴾** برهم وكذبوا رسله **﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾** أي: بقاء، لا شجر فيه ولا نبت. **﴿يحسبه الظمان ماء﴾** شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسبان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، **﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾** فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تزي ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالاً نافعة، فيغره صورتها، ويغلبه خيالها، ويحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمان للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال إنه لم يذهب، إلا له ولا عليه، بل **﴿وجد الله عنده فوفاه حسابه﴾**. لم يخف عليه من عمله نكير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً، **﴿والله سريع الحساب﴾** فلا يستبطنه الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقيعة، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار **﴿كظلمات في بحر لحي﴾** بعيد قره، طويل مداه **﴿ينشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾** ظلمة البحر اللحي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المترامية، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً، بحيث إن الكائن في تلك الحال **﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾** مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير

ويحتمل أن الضمير في قوله: **﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾** يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقولها تعالى: **﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾**. فلما بين عبوديتهم واقتارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين اقتارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال: **﴿والله ملك السماوات والأرض﴾** خالقهما^(٣) ورازقهما، والتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقدرى]^(٤)، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: **﴿والى الله المصير﴾** أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم. **﴿٤٣- ٤٤﴾** **﴿لم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾** * يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٣) في النسخين: خالقها، ولعل الصواب ما أثبت.

(١) في النسخين (منه).

(٢) كذا في ب، وفي أ: علمها.

والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمَل علمه، وكملت رحمة، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بعد ذلك ﴿من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسن، وقدم الصدق، ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإثارة والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذلك عدله، وقطع الحاجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿٤٧﴾ - ﴿٥٠﴾ ﴿ويقولون آتينا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّى عَظِيمًا، بدليل قوله: ﴿وهم معرضون﴾ فإن التولى، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا التولى معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والتفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي: إذا صار بينهم وبين أحد

المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

﴿٤٥﴾ ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ ينبه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، ﴿من ماء﴾ أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

فالحيوانات التي تتولد، مادتها ماء النطفة، حين يلتحق الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالخشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالحية ونحوها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالآدميين، وكثير من الطيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: لقد رحمتنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحموده، والمعارف الرشيدة، فاتضح بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي،



الأبصار﴾ أي: ألم تشاهد بصرك، عظيم قدرة الله، وكيف ﴿يزجي﴾ أي: يسوق ﴿سحاباً﴾ قطعاً متفرقة ثم يولف ﴿بين تلك القطع، فيجعله سحاباً متراكماً، مثل الجبال.

﴿فتسرى الودق﴾ أي: الواابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلىء بذلك الغدران، وتندفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بزداً يُلَف ما يصيبه.

﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يمد عليها، ﴿يكاد سنا بركة﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته يذهب بالأبصار﴾ أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع ويتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويُدبِّل الأيام بين عبادته، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى هذه

وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتؤْمِنُوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بالله جهداً أيماهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون﴾ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله، ﴿لئن أمرتهم﴾ فيما يستقبل، أولئك نصصت عليهم حين خرجت ﴿ليخرجن﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله - راداً عليهم -: ﴿قل لا تقسموا﴾ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعداركم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك، من كان أمره محتماً، وحاله مشتبه، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أتم فكلاً ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال:

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن﴾ امتثلوا، كان حظكم وسعادتكم^(١)، وإن ﴿تولوا فإنما عليه ما حمل﴾ من الرسالة، وقد أداها. ﴿وعليكم ما حملتم﴾ من الطاعة، وقد بانث حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ إلى الصراط المستقيم،

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾.

أي: ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في جميع الأحوال، فقال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما، ﴿ويخش الله﴾ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿ويتقه﴾ بترك المحظور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها، فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقفي عذاب الله، بترك معاصيه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هم الفائزون﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة، واشتملت هذه الآية، على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى،

حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿إذا فريق منهم معرضون﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع، ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه﴾ أي: إلى حكم الشرع ﴿مذعنين﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا عمدحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة، من يتبع الحق فيما يجب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس يعبد على الحقيقة، قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أنفي قلوبهم مرض﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته، فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره، ﴿أم ارتابوا﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق، ﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾.

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة. ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾. وفي هذه الآيات، دليل على أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى يقترب به العمل، ولهذا نفى الإيمان عن من تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من يتقذله دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يجرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين المدوحين، فقال:

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم.

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامتنثال أو امره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿لعلكم﴾ حين تقومون بذلك ﴿ترحمون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنِّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغركم ما متعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أهملهم فإنه لا يهملهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وما أوهم النار وليئس المصير﴾ أي: بئس المآل، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنتهم مملئكمهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم: قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذنين عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بشيابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للفاصلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجبية الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُبدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا للصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكّن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن ننمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون * لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وما أوهم النار وليئس المصير﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وأدائها، ظاهراً وباطناً، وإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذا أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يُبقي لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يجاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده^(١) الصادقة، التي شوهد تأويلها ونحوها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رامهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبخوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

(١) كذا في النسختين، ولعل الصواب: وعوده.

ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾** أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: **﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾** أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعها وحكمته، ولهذا قال: **﴿والله عليم حكيم﴾** له العلم المحيط بالواجبات والمستحبات والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بينها وبين ما أخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾** وهو إنزال النبي يقظة أو مناماً، **﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾** أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾** الآية.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها **﴿والله عليم حكيم﴾**.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾** الآية، ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن

المحل والمكان، الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاعتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقليلولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً، لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بين الحكم المذكور - علله بقوله: **﴿ثلاث عورات لكم﴾**.

ومنها: أن الصغير والعبد، مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء، لقوله تعالى: **﴿طوافون عليكم﴾** مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجه



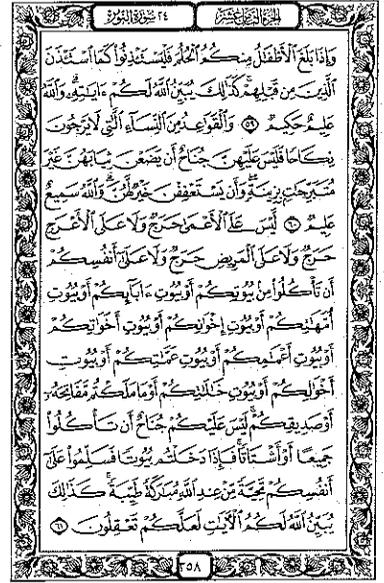
معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: **﴿طوافون عليكم﴾**.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

﴿٦٠﴾ **﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضمّن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾** والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة **﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾** أي: لا يطمنن في النكاح، ولا يُطمع فيهن، وذلك لكونها عجوزاً لا تُشتهي، أو دميمة الخلق لا تُشتهي ولا تُشتهي^(١)، **﴿فليس عليهن جناح﴾** أي: حرج وإثم **﴿أن يضمّن ثيابهن﴾** أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾**. فهؤلاء،

(١) كذا في السخنين، ولعل في الكلام قلباً فالأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تُشتهي ولا تُشتهي، أو دميمة الخلق لا تُشتهي).



أخوانكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن مثبته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فقال:

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾
أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾ أي: حرج ﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾ أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت: «أنت ومالك لأبيك»، والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلت من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»، وليس المراد من قوله: ﴿من بيوتكم﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم﴾
وهؤلاء معروفون، ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها

بالمملوك، فليس بوجيه، لو جهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه «ملكتم مفاتحه»، بل يقال: «ما ملكتموه» أو «ما ملكت أيمانكم» لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتيحه فقط.

والثاني: أن بيوت المالك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيدته، فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿أو صديقكم﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل^(١)، من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين^(٢)، قد جرت العادة والعرف، بالمساحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المساحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظراً للحكمة والمعنى.

وقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفى للحرج، لا نفى للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من تواددهم، وتراحهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفضيلاً في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تحية من عند الله مباركة

يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأمن المحذور منها وعليها، ولما كان نفى الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غير متبرجات بزينة﴾ أي: غير مظهرات للناس زينة، من تحمل ثياب ظاهرة، وتستتر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها، ليعلم ما تخفي من زينتها، لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهي يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج ﴿وأن يستعففن خير لهن﴾ والاستعفاف: طلب العفة، بفعل الأسباب المقترضية لذلك، من تزوج وترك لما يخشى منه الفتنة، ﴿والله سميع﴾ لجميع الأصوات ﴿عليم﴾ بالنيات والمقاصد، فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

﴿٦١﴾ ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ - رحمه الله - فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو - والله أعلم -.

طيبة أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، «تحية من عند الله» أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، «مباركة» لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، «طيبة» لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال: «كذلك يبين الله لكم الآيات» الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، «لعلكم تعقلون» عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد به العقل، ويتمو به اللب، لتكون معانيها أجل المعاني، وأدائها أجل الآداب، ولأن الجزء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للتعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: «أن العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ». فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو

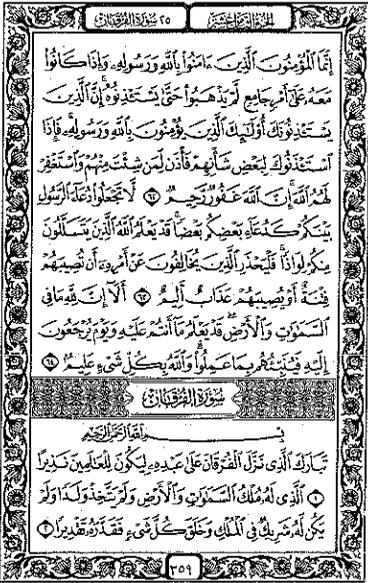
متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿٦٢ - ٦٤﴾ «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم» لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» * ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبتهم بما عملوا والله بكل شيء عليم» هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالمؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: «إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله» ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له.

والثاني: أن يشاء الإذن له فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالأذن، قال:

«فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم» فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم



ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: «واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم» يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

«لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً» أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه يجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً لا يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند نداءكم، أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتمييزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.

«قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا» لما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه، توعد من لم

من جميع الوجوه!!؟

وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وخلق كل شيء﴾ شمل العالم العلوي، والعالم السفلي، من حيواناته، ونباتاته، وجماداته، ﴿فقدره تقديراً﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير محله الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الذي خلق فسوى ﴿والذي قدر فهدى﴾ وقال تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾.

أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفههم، ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجرأتهم على ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم. ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

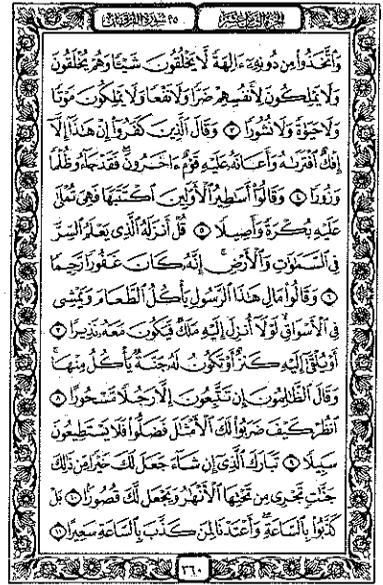
﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء

ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله بكل شيء عليم﴾

تفسير سورة الفرقان وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفردِه [بالوحدانية] من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿تبارك﴾ أي: تعظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمته، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿على عبده﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين، ﴿ليكون﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿للعالمين نذيراً﴾ ينذرهم بأس الله ونقمته، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها، كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ أي: له التصرف فيها وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه، فقراً ذاتياً



يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يستلبون منكم لوأذاً﴾ أي: يلبذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يهيجهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا ترعدهم بقوله: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه!!؟ وإنما ترك أمر الله من دون شغل له.

﴿أن تصيبهم فتنة﴾ أي: شرك وشر ﴿أو يصيبهم عذاب اليم﴾ ﴿ألا إن لله ما في السماوات والأرض﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي. ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿ويوم يرجعون إليه﴾ في يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدلون منه فضلاً أو عدلاً.

للخالق لسائر المخلوقات، من غير مشارك له في ذلك، الذي يديه النفع والنصر، والعطاء والمنع، الذي يجيي ويميت، ويبعث من في القبور، ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والحزى والنكال، لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والتنعيم المقيم، لمن اتخذه وحده معبوداً.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

﴿٤ - ٦﴾ «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً»

أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم، أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب، كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك، بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ، وكمال صدقه، وأمانته، وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك، فقد جاؤوا بهذا القول ظلماً وزوراً.

ومن جملة أقاويلهم فيه، أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﷺ أساطير الأولين اكتتبها أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﷺ فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً * وهذا القول منهم فيه عدة عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب، والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن - الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله - بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للمخلوق الكامل من كل وجه، بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته، وهم أشد الناس علماً بها، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة، والجرهر والسر، كقوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾

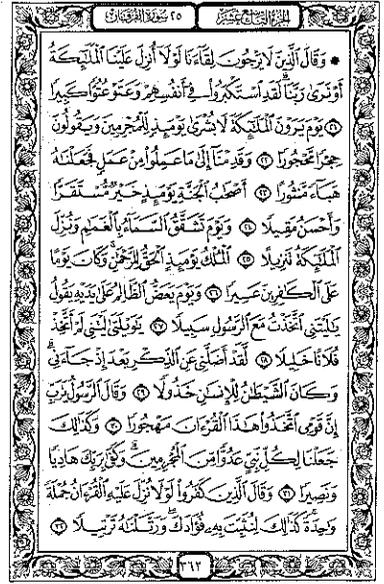
ووجه إقامة الحججة عليهم، أن الذي أنزله، هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده ويتصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم ويلاذهم، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم، سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضاً، فإن ذكر علمه تعالى العام، ينيههم ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا، لرأوا فيه من علمه وأحكامه، ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم، أنه لم يدعهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إنه كان غفوراً﴾ أي: وصفه بالمغفرة، لأهل الجزائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة،

إذ إنهم من فكان يعيد بمعوا لما تقطعاً ورؤياً *
 وإذا أنوارها كالكواكب ممتددة * دعواها لك ثوراً *
 لا تنفوا اليوم ثوراً وحيداً ولا ثوراً ثوراً كعينا *
 قل ذلك خير أم رجك الخليلي التي وعدت للشعوب كانت
 لهم حركاً وصيراً * لهم فيها ما يشاءون من حليلين
 كان عملك نيكاً وعداً متفوقاً * وتوم يحشدهم يوماً
 يعبدون من دون الله فيقول أئنتم أضللتهم عبادي
 هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا أضللك ما كنا
 نبيون قل إن نتخذ من دونك أولياء ولكن نتخذهم
 وآبائهم حمرحماً شراً للذين كفروا ثوراً *
 فقد كذبكم بما تقولون فما تستطعمون صرماً *
 ولا تنفروا من قبله فيكم نذرة عذاباً كبيراً *
 وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أن ينذر
 الناس والطعام وينشرون في الأسواق ويحسبوا
 بعصاهم يغفر فبئس أضلوت وما كان ذلك بصيراً *
 ﴿١٤﴾

وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿رحيماً﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محاماً سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الرجوع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه، إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

﴿٧ - ١٤﴾ «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً * تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً * بل كذبوا بالساعة وأعدت لنا كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقتها منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * هذا من مقالة الكذابين للرسول، التي قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعتراضوا بأنه: هلا كان ملكاً أو مَلِكاً، أو يساعده ملك، ما فقالوا: ﴿ما لهذا الرسول﴾ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تمكماً منهم



واستهزاء. ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولا، مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلِكٌ﴾ أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه، ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: مال مجموع من غير تعب، ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ حلهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن. ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وهي: أنه هلا كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان

مسحوراً.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدر في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قَصْرًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيبته، لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أوليائه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكذيباً بالحق، فقالوا ما يقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ والمكذب المتعنت، الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلماذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. ﴿إِذَا رَأَوْهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا﴾ عليهم ﴿وَوَظْفِرًا﴾ تعلق منه الأفتدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لديها لزيادة كفرهم وشركهم.

﴿وَإِذَا الْقَوَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾

مقرنين ﴿أَي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلال والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحسوا في أثر حبس ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والنم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةٌ الْخَالِدُ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً.

أي: قل لهم - مينا لسفاهة رأيهم، واختيارهم الضار على النافع - : ﴿أَذْكَاءٌ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها، ﴿كانت لهم جزاء﴾ على تقواهم ﴿ومصيراً﴾ موتلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: يطلبون، وتتعلق بهم أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنان، والحداثق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وسابغتها، حيث شاؤوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن

مزخرفة، وأصوات شجية، تأخذ من حسناتها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على عمر الأوقات، وتعاقب الآيات ﴿كان﴾ دخولها والوصول إليها ﴿على ربك وعداً مسؤولاً﴾ يسأله إياها، عبادة المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأبي: الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الأبواب؟

لقد وضح الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فنجرك يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء، ونسألك العفاة منها.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴿يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾ أي: الكذابين المشركين ﴿وما يعبدون من دون الله فيقول﴾ الله غاطباً للمعبودين على وجه التفرقة لمن عبدهم: ﴿أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا

السبيل﴾ هل أمرعوهم بعبادتكم، وزينت لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قالوا سبحانه﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، ﴿ما كان ينبغي لنا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا، أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم، ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن ﴿أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أتنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم الآية.

وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فلما نزهوا أنفسهم، أن يدعوا العبادة غير الله، أو يكونوا أضلوه، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبتها النفسية، ﴿حتى نسوا الذكر﴾ اشتغالاً في لذات الدنيا، واكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو:

أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم، قال الله توبيخاً وتقریباً للعابدين^(١): ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعا لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب، ﴿فما تستطيعون صرفاً﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفعده، أو غير ذلك، ﴿ولا نصراً﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿ومن يظلم منكم﴾ بترك الحق ظملاً وعتاداً ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول الكذابين: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة. وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين^(٢)، والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أتصبرون﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبية، فيثبكم مولاكم^(٣)، أم لا تصبرون فتستحقون العقاب؟

﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفى من يعلمه يصلح

(١) في ب: للمعاندنين. (٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي. (٣) كذا في ب، وفي أ: مولاكم.

منه شيء، لأنه لا خير في مقبل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿الله خير أما يشركون﴾.

﴿٢٥ - ٢٩﴾ ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تزيلاً * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً * ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتفتقر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفاً صفاً، إما صفاً واحداً محيطاً بالخلائق، وإما كل سماء، يكونون صفاً، ثم السماء التي تليها صفاً، وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالأممي الضعيف، خصوصاً الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مساحطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجوز، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ لصعوبته الشديدة، وتحسر أمره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾.

وقوله: ﴿الملك يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الحق للرحمن﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، مُلك ولا صورة مُلك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، ويتشرح له

الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾. ثم في القبر، حين يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبئهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً ينجيهم، فيحلون بهم النعمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحيث يتعودون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، قد خسروه وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول، المتبع لهم فيه.

﴿٢٤﴾ ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أصحاب الجنة﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحاً، واثقوا ربهم ﴿خير مستقراً﴾ من أهل النار ﴿وأحسن مقيلاً﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القبلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتمال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقراً ومقيلاً وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر

لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢١ - ٢٣﴾ ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً * وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ أي: قال المكذوبون للرسول، المكذوبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجراء، فمن أنتم بنا فقراء، وبنا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأيّ: كبر أعظم من هذا؟

﴿وعتوا عتواً كبيراً﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحبهم، وآيات الله البينات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأبى: عتواً أكبر من هذا العتو!! ولذلك، بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرّموا غاية الحرمان.

﴿يوم يرون الملائكة﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند

الصدر، أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه **«الرحمن»** الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا آدمي الضعيف وشرفه وكرمه، ليم عليه نعمته، ولتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه، ينتظرون ما يحكم فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقَّت عليه كلمة العذاب.

«ويوم يحض الظالم» بشركه وكفره، وتكذيبه للرسول **«على يديه»** تأسفاً، وتحسراً، وحزناً، وأسفاً. **«يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً»** أي: طريقاً بالإيمان به، وتصديقه واتباعه.

«يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً» وهو الشيطان الإنسي أو الجنى، **«خليلاً»** أي: حبيباً مصافياً، عادت أنصح الناس لي، وأبرهم بي، وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدوي، الذي لم تتدني ولايته، إلا الشقاء والخسار والحزني والبوار. **«لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني»** حيث زين له ما هو عليه من الضلال، بخدعه وتسويله. **«وكان الشيطان للإنسان خذولاً»** يزين له الباطل، ويقبح له الحق، ويعده الأمانى، ثم يتخلى عنه، ويتبرأ منه، كما قال لجميع أتباعه، حين قضي الأمر، وفرغ الله من حساب الخلق، **«وقال الشيطان ما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إنى كفرت بما**

أشركتمون من قبل» الآية. فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان، وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليتوال من ولايته فيها سعادته، ويعادي من تفعه عداوته، وتضره صداقته. والله الموفق.

﴿٣٠ - ٣١﴾ «وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً» * وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً **«وقال الرسول»** منادياً لربه، وشاكياً عليه إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: **«يا رب إن قومي»** الذين أرسلتني لهديتهم وتبلغهم، **«اتخذوا هذا القرآن مهجوراً»** أي: قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، قال الله مسلماً لرسوله، ومخبراً، أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: **«وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين»** أي: من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك، أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق، ويتضح اتضاحاً عظيماً، لأن معارضة الباطل للحق، مما تزيده وضوحاً وبيانا وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، **«وكفى بربك هادياً»** يهديك، فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك. **«ونصيراً»** ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا، فاكْتَفَ به، وتوكل عليه.

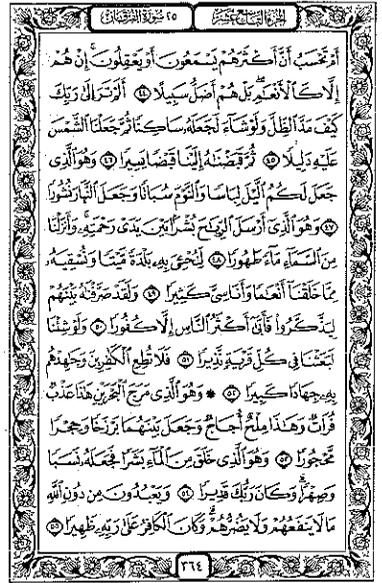
﴿٣٢ - ٣٣﴾ «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك نثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً» * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً **«وقال الذين كفروا»** مقترحات الكفار، الذي توحيه إليهم

ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً **«الذين كفروا»** على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ تكفراً وأكبر سيلاً **«ولقد آتينا موسى المبينات وجئناك من بعدنا محذرتين وزياراً»** فقلنا أذهبوا إلى القوم الذين كفروا وآتيناك آياتنا فذكرتها تنبؤاً **«وقد ورثنا ما تركنا الرجل أشرف قومك ولما وجدته غافلاً غافياً»** وأنت لا تعلمون **«عذاباً أليماً»** وعذاباً وكموناً وأعتك الذين كفروا بأنك ذك كذبتهم **«وكذا صرنا لك آياتنا آياتاً وتذكيراً»** ولقد آتيناك القرآن على قدر عقولهم لكيلا يحزنوا **«وإذا قرأت القرآن فاستمعوا له وهم أجمعين»** ولما تنزل التنزيل ينصرون **«لقد آتيناك من قبلنا آياتاً واضحة ومتواترة فما يكسبها إلا الجاهلون الظالمون»** وإذا قرأت القرآن فاستمعوا له وهم أجمعين **«ولما تنزل التنزيل ينصرون»** ولما تنزل التنزيل ينصرون **«لقد آتيناك من قبلنا آياتاً واضحة ومتواترة فما يكسبها إلا الجاهلون الظالمون»**

أنفسهم، فقالوا: **«لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة»** أي: كما أنزلت الكتب قبله، وأي: مخذور من نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: **«كذلك»** أنزلناه متفرقاً **«لنثبت به فؤادك»** لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن، ازداد طمأنينة وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوته، يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه.

«ورتلناه ترتيلاً» أي: مهلناه، ودرجناك فيه تدريجاً. وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ، حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحه الدينية، ولهذا قال: **«ولا يأتونك بمثل»** يعارضون به الحق، ويدفعون به رسالتك، **«إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً»** أي: أنزلنا عليك قرآناً جامعاً للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظاً، وأحسن تفسيراً، مبين للمعاني بياناً كاملاً.

وفي هذه الآية، دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم، من محدث،



ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم، يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلفين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

﴿٣٤﴾ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴿٣٥﴾ يحشرون على وجوههم أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويحرونهم إلى جهنم ﴿٣٦﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة ﴿٣٧﴾ أولئك الذين بهذه الحالة ﴿٣٨﴾ شر مكاناً ﴿٣٩﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله، ﴿٤٠﴾ وأضل سبيلاً ﴿٤١﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في

الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ﴿٤٠﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴿٣٦﴾ فقلنا اذهب إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ﴿٣٧﴾ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً ﴿٣٨﴾ وعاداً ونموداً وأصحاب الرّس قرونأً بين ذلك كثيراً ﴿٣٩﴾ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً ﴿٤٠﴾ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴿٤١﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات آخر، ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قرباً منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عياناً، كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرأ منهم، ورسولهم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء ﴿٤٢﴾ أفكاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبير ﴿٤٣﴾ ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات، ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿٤١﴾ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ﴿٤٢﴾ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرتنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴿٤٣﴾ أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴿٤٤﴾ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم

أضل سبيلاً ﴿٤٥﴾ أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات الله ﴿٤٦﴾، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: ﴿أهذه الذي بعث الله رسولا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلوبهم الخفاقة، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿٤٧﴾ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿٤٨﴾ فهذا الكلام، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلمهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم وهمامهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خلقي فاضل، وأن المحقر له، والشائئ له، قد جمع من السفة والجهل، والضلال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً، أن يقدح بهذا الرسول العظيم، والهمام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تصليبهم على باطلهم، وغروراً لضغفاء العقول ﴿٤٩﴾، ولهذا قالوا: ﴿إن كاد﴾ هذا الرجل ليضلنا عن آلهتنا ﴿٥٠﴾ بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿٥١﴾ لولا أن صبرنا عليها ﴿٥٢﴾ لأضلنا، زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فهذا تراصوا بالصبر عليه ﴿٥٣﴾ وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ﴿٥٤﴾.

وهنا قالوا: ﴿لولا أن صبرنا

(١) زيادة مني يقتضيها السياق.

(٢) المراد: (وتغرياً بضغفاء العقول).

عليها ﴿ والصبر محمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع، فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم. وأما المؤمنون، فهم كما قال الله عنهم: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ ولما كان هذا حكماً منهم، بأنهم المهتدون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم، توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت ﴿حين يرون العذاب﴾ يعلمون علماً حقيقياً ﴿من﴾ هو ﴿أضل سبيلاً﴾ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ الآيات.

﴿ديلاً﴾ فلولا وجود الشمس، لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ فكلمنا ارتفعت الشمس، تقلص الظل شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكلية، فتوالي الظل والشمس على الخلق، الذي يشاهدونه عياناً، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على كمال قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود، المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام.

وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده [هواه] (١)، فما هويه فعله، فلهدنا قال: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ ألا تعجب من حاله، وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الربيعة؟

﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي: لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذر، وقد قمت بوظيفتك، وحسابه على الله.

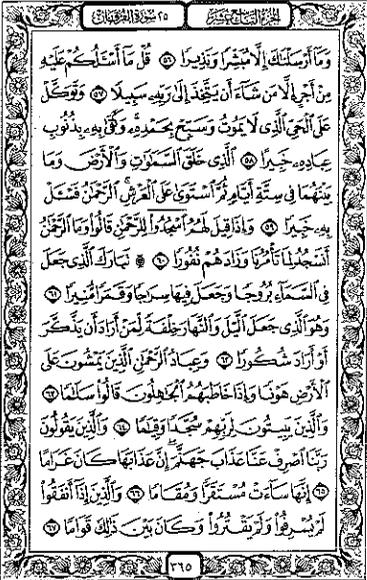
﴿٤٧﴾ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه، وتمتدوا بالنوم، وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولا الليل، لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمروا أيضاً الظلام، لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشوراً ينتشرون فيه، لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ، بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة، التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام، لأن الأنعام يهديها راعيها فتتهدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضاً أسلم عاقبة من هؤلاء، فتبين بهذا، أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف، وأن كل حيوان بهيم فهو أهدى منه.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً﴾ لنتحیی به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ ولقد صرفناه بينهم ليزكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده، وأدر عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو: المطر، فثار بها السحاب وتألف، وصار كسفأ، وألقته، وأدرته بإذن أمرها والمتصرف فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة.

﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ألم تر إلى ريسك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه ديلاً﴾ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي: ألم تشاهد يبصرك وبصيرتك، كمال قذرة ربك، وسعة رحمته، أنه مدَّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس ﴿ثم جعلنا الشمس عليه﴾ أي: على الظل

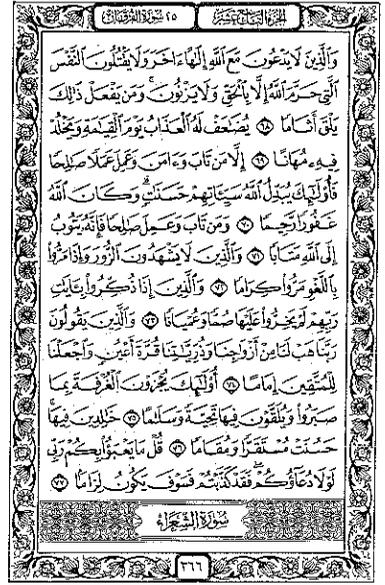


يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من برته، أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتاً، فتختلف أصناف الثواب والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام. ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي: نسقيكموه، أنتم وأنعامكم، ليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهوراً مباركاً، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره؟

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه، مع ذلك أبى أكثر الخلق إلا كفوراً، لفساد أخلاقهم وطباعهم.

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء لبعث في كل قرية نذيراً، أي: رسولاً يندهم ويحذرهم، فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد - يا محمد - أن أرسلك إلى جميعهم، أحرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم، ﴿فلا تطع الكافرين﴾ في ترك شيء مما أرسلت

(١) زيادة مني يقتضيها السياق مع العلم أن كلمة هواه كتبت في ب بدلاً عن معبوده ثم شطبت.



الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

﴿٥٥﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي: يعبدون أصناماً وأموثاً، لا تضر ولا تنفع، ويعملونها أنداداً لمالك النفع والضرر والعتناء والمنع، مع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربه، ذابيين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد، أعداء الله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربه، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجعله - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ * قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً * وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً * وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً * يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مبشراً﴾ يبشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والآجل، و﴿نذيراً﴾ ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجر، حتى يمنهم ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة. ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: إلا من شاء، أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست

أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت الحياة الكاملة المطلقة﴾ الذي لا يموت وسبح بحمده * أي: عبده وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق. ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله، بيد الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى بعد ذلك ﴿على العرش﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلامها، وأوسعها، وأجلها. ﴿الرحمن﴾ استوى على عرشه، الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمة كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت هذه الآية، خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومبايئته إياهم.

﴿فاسأل به خبيراً﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لحلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. ﴿قالوا﴾ جحداً وكفراً: ﴿وما الرحمن﴾ بزعمهم القاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: ﴿يا رحمن﴾ ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،

به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به. ﴿وجاهدهم﴾ بالقرآن ﴿جهاداً كبيراً﴾ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وهو الذي مرج البحرين جعل عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، وجعل بينهما برزخاً * أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الأدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: ﴿وكان ربك قديراً﴾ ويدل على أن عبادته هي

ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته وزده من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات، تتكرر بتكرار الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبادة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدده، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويبس. فله أتم حمد وأكملته على ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا﴾ أي: يكثر من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، مثلذليل له، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعداب. ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهذا منهم، على وجه التصريح لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا مئة الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفضاعتها، يعظم وقعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يَسْرِفُوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ يبذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من

فكل واحد منها، دل على صفة كمال. ﴿أَنْسُجِدَ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجزد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿كُرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لِأَنَّ مَعْنَاهَا كَمَا تَقَدَّمَ، أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْبَارِي، وَكَثْرَةِ أَوْصَافِهِ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ. وَهَذِهِ السُّورَةُ، فِيهَا مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَسِعَةٌ سُلْطَانِهِ، وَنَفُوذَ مَشِيئَتِهِ، وَعُمُومَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَإِحَاطَةَ مُلْكِهِ فِي الْأَحْكَامِ الْأَمْرِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الْجَزَائِيَّةِ وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ. وَفِيهَا، مَا يَدُلُّ عَلَى سِعَةِ رَحْمَتِهِ، وَوِاسِعِ جُودِهِ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ، الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، مَا هُوَ مُقْتَضٍ لِتَكَرُّرِ هَذَا الْوَصْفِ الْحَسَنِ، فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وَهِيَ: النُّجُومُ عُمُومًا، أَوْ مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الَّتِي تَنْزِلُهَا مَنزَلَةً مَنزَلَةً، وَهِيَ بِمَنزَلَةِ الْبُرُوجِ وَالْقَلَاعِ لِلْمَدِينِ فِي حِفْظِهَا، كَذَلِكَ النُّجُومُ بِمَنزَلَةِ الْبُرُوجِ الْمَجْعُولَةِ لِلْحِرَاسَةِ، فَإِنَّهَا رَجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ.

﴿٦٣ - ٧٧﴾ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿إِلَى آخِرِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربوبون مدبرون ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل

﴿وَجَعَلَ فِيهِ سِرَاجًا﴾ فِيهِ النُّورُ وَالْحَرَارَةُ، وَهُوَ: الشَّمْسُ. ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ فِيهِ النُّورُ، لَا الْحَرَارَةَ، وَهَذَا مِنْ أَدْلَةِ عَظَمَتِهِ، وَكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ، فَإِنَّ مَا فِيهَا مِنَ الْخَلْقِ الْبَاهِرِ، وَالتَّجْدِيرِ الْمُنْتَظَمِ، وَالْجَمَالِ الْعَظِيمِ، ذَالٌ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا فِي أَوْصَافِهِ كُلِّهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ لِلْخَلْقِ وَالْمَنَافِعِ، دَلِيلٌ عَلَى كَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ وهي نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يجل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلقى أثاماً﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القتاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود، ﴿وآمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإجابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعُدَّها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها هاهنا» والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وحمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها، وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالقصد من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه^(١) أجره، بحسب كمالها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القبول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه. وشهادة الزور داخله في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي

لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مروا كراماً﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربُّوا بأنفسهم عنه.

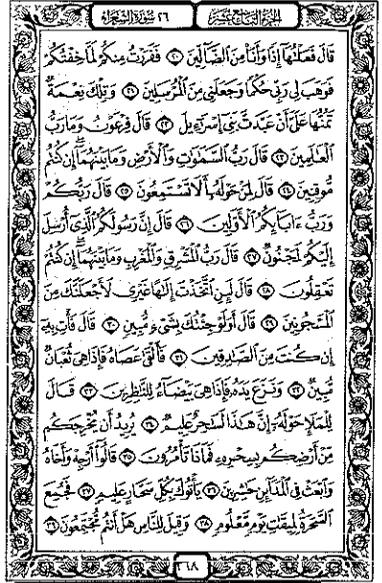
وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتمام بها، ﴿لم يخرأوا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيمانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قراناتنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وذرياتنا قررة أعين﴾ أي: تقرُّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقرُّ أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عاملين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير من يتعلق بهم، وينتفع بهم.

(١) في ب: فيوفيه.



تفسير سورة الشعراء وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٩﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون * أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم * يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يمزح حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها وشاق عليها،

﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا بها، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ أي: من آيات الاقتراح، ﴿فظلت أعناقهم﴾ أي: أعناق المكذبين ﴿لها خاضعين﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ الآية.

﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. ﴿إلا كانوا عنه معرضين﴾ بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث، الذي جرت العادة، أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا، لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال: ﴿فقد كذبوا﴾ أي: بالحق، وصر التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تتبدل، ﴿فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب. قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها، ﴿إن في ذلك لآية﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، ﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل

حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿١٠-٦٨﴾ ﴿وإذ نادى ربك موسى أن اتت القوم الظالمين﴾ إلى آخر القصة قوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم. أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يشن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال:

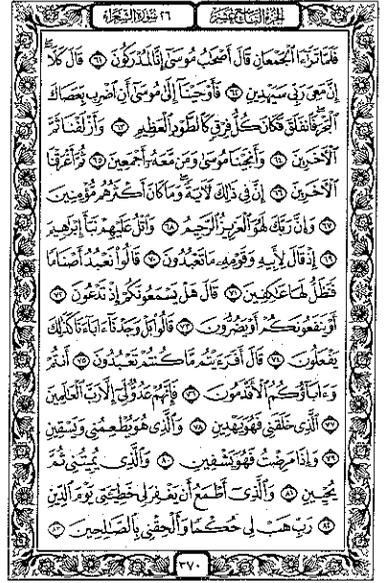
﴿إن اتت القوم الظالمين﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية، ﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة ﴿ألا تتقون﴾ الله الذي خلقكم ورزقكم، فتركون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معتذراً من ربه، ومبياً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قال رب إنني أخاف أن يكذبون﴾ ويضيق صدري ولا ينطلق لساني.

فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخني﴾ فأرسل إلى هارون، فأجاب الله طلبته، ونبأ أخاه هارون كما نبأه ﴿فأرسله معي زده﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن يصدقني.

﴿ولهم على ذنب﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فأخاف أن يقتلون﴾.

﴿قال كلا﴾ أي: لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطاناً، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع متابذته له غاية المتابذة، وتسفيهه رأيه، وتضليله وقومه، ﴿فأذهب بآياتنا﴾ الدالة على



ضعيف، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه أنهم غالبون.

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف﴾ تتلحف وتأخذ ﴿ما يأفكون﴾ فالتفت جميع ما ألقوا من الخبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا - لعلمهم - أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ بصدق موسى، وصحة ما جاء به.

﴿فألقي السحرة ساجدين﴾ لرهبهم.

﴿قالوا آتنا بربر العالمين﴾ رب

موسى وهارون. وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤسؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا غتوا وضللا، وتماديا في غيه وعنادا، فقال للسحرة: ﴿أنتم له قبل أن آذن لكم﴾ يتعجب، ويعجب قومه من جراتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامراته. ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ هذا، وهو الذي جمع السحرة وملاؤه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا راهوه قبل ذلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما ينجي الناظرين ويهلبهم، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم توعد السحرة فقال: ﴿لا تطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالفسد في الأرض،

العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيه، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتتظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.

﴿فلما جاء السحرة﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين﴾ لموسى؟ ﴿قال نعم﴾ لكم أجر وثواب ﴿وإنكم إذا لمن المقربين﴾ عندي، وعدهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿فلما اجتمعوا للموعود، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم موسى وذكرهم، وقال: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري﴾ فتنازعوا وتحاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضا.

﴿قال لهم موسى ألحقوا ما أنتم ملقون﴾ أي: ألحقوا كل ما في خواطركم الإقاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق.

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾ فإذا هي حيات تسنى، وسحروا بذلك أعين الناس، ﴿وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ فاستعانوا بعزة عبد

ثعبان﴾ أي: ذكر الحيات، ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال ولا تشبيه.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها. ﴿قال﴾

فرعون ﴿للملا حوله﴾ معارضا للحق ومن جاء به: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾

ويريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ موهة عليهم، لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المتقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وحوظهم أن قصده بهذا السحر،

التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجدوا ويثهدوا في معادة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم،

﴿فماذا تأمرن﴾ أن نعمل به؟

﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ أي: أخرها

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ جامعين للناس ﴿بأتوك﴾ أولئك الحاشرون

﴿يكل سحار عليم﴾ أي: ابعث في جميع مدنك، التي هي مقر العلم

ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحرة، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحرة.

وهذا من لطف الله أن يري العباد

بطلان ما موه به فرعون الجاهل الفضال

المضل، أن ما جاء به موسى سحر،

فيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر،

لينعقد المجلس عن حضرة الخلق

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾

﴿يكل سحار عليم﴾

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾

﴿يكل سحار عليم﴾

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾

﴿يكل سحار عليم﴾

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾

﴿يكل سحار عليم﴾

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾

﴿يكل سحار عليم﴾

﴿فألحقوا جبالهم وعصيهم﴾

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾

﴿يكل سحار عليم﴾

﴿وَأَصْلِبْنَكُمْ أَجْمِينَ﴾ لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته - : ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا نبال بما توقعنا به ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ * إِنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا * من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَنْ كُنَّا أُولَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توقعه به، لسلطانه واقتداره إذ ذلك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه، لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم يكتون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحققت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِبِعَادِي﴾ أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ورفع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَلِيلُونَ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشَرْمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ * وإتهم لنا لغائظون * ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبغوا منا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوُنَ﴾ أي: بساتين مصر

وجناتها الفائقة، وعيوبها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيمهم، وعمرت بها حاضرتهم وبلادهم.

﴿ومقام كريم﴾ يعجب الناظرين، ويلهي التاملين، تمتعوا به دهرأ طويلاً، وقضوا بلذاته وشهوته عمراً مديداً، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والتهيه العظيم.

﴿كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، ﴿بني إسرائيل﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يوتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحقن قادرين.

﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه، ﴿قال أصحاب موسى﴾ شاكين لموسى وحزينين: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ذ ﴿قال﴾ موسى مثباً لهم، وبخيراً لهم بوعده الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فكان كل فرق كالطود﴾ أي: الجبل العظيم ﴿فدخله موسى وقومه﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا ثَمَّ﴾ في ذلك المكان ﴿الآخرين﴾ أي: فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ عَظِيمَةٌ﴾ على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع هذه الآيات المقتضية



للإيمان، لفساد قلوبكم، ﴿وإن ربك لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿٦٩ - ١٠٤﴾ ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿إلى آخر هذه القصة﴾ وإن ربك لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته وقومه، وعاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ قالوا: ﴿تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا﴾ نحتنا ونعملها بأيدينا. ﴿فَنظَّلْنَاهَا عَلَى كَافَّةٍ﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقانتنا. فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمح دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ قالوا له: ﴿لقد علمت ما

من سلامته مما ذكر، اتصافه بأضدادها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه تبعاً لما جاء عن الله، ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال: ﴿وَأزلفت الجنة﴾ أي: قربت ﴿للمتقين﴾ بهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

﴿ويرزت الجحيم﴾ أي: برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، ﴿للعاوين﴾ الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجروا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاؤوهم به من الحق ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون﴾ من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرونكم بأنفسهم أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فككبوا فيها﴾ أي: ألقوا في النار ﴿هم﴾ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿والغاوون﴾ العابدون لها، ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ من الإنس والجن، الذين أُرهم إلى المعاصي أژاً، وتسلب عليهم بشرتهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائه، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومحجب لهم، ومقلد لهم على شركهم.

﴿قالوا﴾ أي: جنود إبليس الغاؤون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين﴾ إذ نسويكم برب العالمين ﴿في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما تدعوه، فتبين لهم حيثئذ: ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووه برب العالمين، إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: ﴿رب العالمين﴾ إنهم منقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم.

﴿وما أضلنا﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي

لا تقدرون أنتم وأبائكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وحاجه قومه قال أمأجوني في الله وقد هديت﴾ الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رب هب لي حكماً﴾ أي: علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿والحسني بالصالحين﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي: اجعل لي لسان صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وأحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً، معظماً مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إبراهيم * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين.

﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي: من أهل الجنة، التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، ورفع منزلته في جنات النعيم.

﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان يي حفياً﴾ قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ ﴿ولا تحزني يوم يبعثون﴾ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي ﴿لا ينفع﴾ فيه ﴿مال ولا بنون﴾ * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي يتجو به من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم



هؤلاء ينطقون * أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجؤوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وأبائكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

﴿أفأريتم ما كنتم تعبدون﴾ * أنتم وأبائكم الأقدمون * فإيهم عدو لي * فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرن.

﴿إلا رب العالمين﴾ * الذي خلقني فهو يهدين * هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية، للمصالح الدينية والدينية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميئتي ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة،

والفسق، **﴿إلا المجرمون﴾** وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، **﴿فما لنا﴾** حيثذ **﴿من شافعين﴾** يشفعون لنا، لينقذونا^(١) من عذابه، **﴿ولا صديق حميم﴾** أي: قريب مضاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها **﴿فنكون من المؤمنين﴾** لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

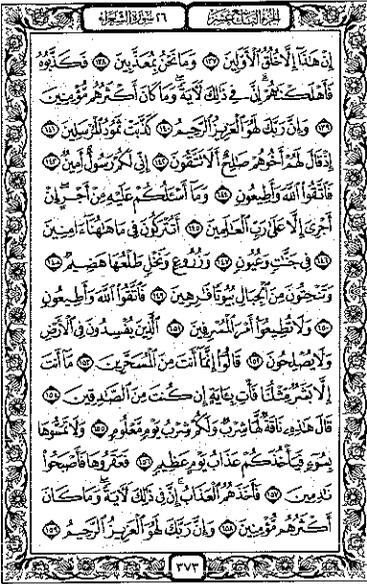
﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا **﴿آية﴾** لكم **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** مع نزول الآيات.

﴿١٠٥ - ١٢٢﴾ **﴿كذبت قوم نوح﴾** المسلمين **﴿إلى آخر القصة﴾** يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: **﴿كذبت قوم نوح﴾** المسلمين **﴿جميعهم﴾**، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المسلمين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب بجمع ما جاؤوا به من الحق، كذبوه **﴿إذ قال لهم أخوهم﴾** في النسب **﴿نوح﴾** وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - **﴿ألا تتقون﴾** الله تعالى، فتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، **﴿إني لكم رسول أمين﴾** فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا

الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في حبه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انقضاء المانع، فقال: **﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾** فتكلفون من المغموم الثقيل، **﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾** أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم فمئيتي، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم وسلوكمم الصراط المستقيم.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: **﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾** وقال: **﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً﴾** الآيات. فقالوا رداً لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: **﴿أنؤمن لك واتبعك الأردلون﴾** أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطتهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - **﴿بيّن لنا صفة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك﴾**، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلى، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأراذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع

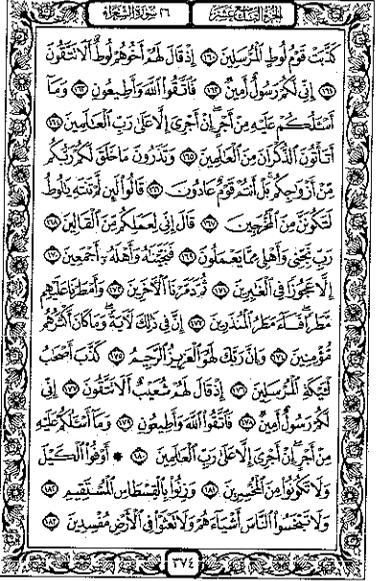


النظر عن صفة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: **﴿أنؤمن لك واتبعك الأردلون﴾** فبنوا على هذا الأصل، الذي كل أحد يعرف فساده رد دعوته - عرفنا أنهم ضالون مخطؤون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصلاحه ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: **﴿وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾** أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما على التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتم به الحق، فانقادوا له، وكل له عمله. **﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾** كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: **﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾** فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلية، كما قال تعالى: **﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾**.

﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.

(١) في السخيتين: لينقذنا.



بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان ﴿الرحيم﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً ومن معه، من أهل الإيمان.

﴿١٢٣ - ١٤٠﴾

المرسلين ﴿إلى آخر القصة﴾ أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً، وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب

﴿هود﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿ألا

تتقون﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة

غيره، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي:

أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء

بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني،

رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله

وأطيعون﴾ أي: أدوا حق الله تعالى،

وهو التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي

فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فهذا

موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس

ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فليست

أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم

أجراً، حتى تستقبلوا ذلك المغرم. ﴿إن

أجرى إلا على رب العالمين﴾ الذي

رباهم بنعمه، وأدرّ عليهم فضله

وكرمه، خصوصاً ما ربّى به أوليائه

وأتبياهه.

﴿أتبنون بكل ربع﴾ أي: مدخل

بين الجبال ﴿آية﴾ أي: علامة

﴿تمشون﴾ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير

فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وتتخذون مصانع﴾ أي: بركاً

ومجايب للمياه ﴿لملكم تخلدون﴾ والحال

أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وإذا بطشتم﴾ بالخلق ﴿بطشتم

جبارين﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال.

وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة

عظيمة، وكان الواجب عليهم أن

يستعينوا بقوتهم على طاعة الله،

ولكنهم فخرُوا واستكبروا، وقالوا:

﴿من أشد منا قوة﴾ واستعملوا قوتهم

في معاصي الله، وفي العبث والسفه،

فلذلك نهاهم بنبيهم عن ذلك.

﴿فاتقوا الله﴾ واتركوا شرككم

ويطركم ﴿وأطيعون﴾ حيث علمتم أني

رسول الله إليكم، أمين ناصح،

﴿واتقوا الذي أمركم﴾ أي: أعطاكم ﴿بما تعلمون﴾ أي: أمركم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام،

﴿أمركم بأنعام﴾ من إبل وبقر وغنم

﴿وبنين﴾ أي: وكثرة نسل، كثير

أموالكم، وكثير أولادكم، خصوصاً

الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعمة، ثم ذكرهم

حلول عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف

عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي: إني -

من شفقتي عليكم وبري بكم - أخاف

أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل

لا يرد، إن استمرتكم على كفركم

وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين

لنبيهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم

تكن من الواعظين﴾ أي: الجميع على

حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قوماً

بلغت بهم الحال إلى أن صارت

مواعظ الله، التي تذيب الخيال الصم

الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي

الآليات، وجودها وعدمها - عندهم -

على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم،

واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من

هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلا

خلق الأولين﴾ أي: هذه الأحوال

والنعمة، ونحو ذلك، عادة الأولين،

تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه

أحوال الدهر، لا أن هذه عن ومنح

من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وما

نحن بمعذبين﴾ وهذا إنكار منهم

للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتبكم به،

إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما

أدرت علينا النعمة في الدنيا، كذلك

لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب

سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه

رأع. ﴿فأهلكناهم﴾ ﴿يربح صرصر

عانية﴾ سخرها عليهم سبع ليال

وثمانية أيام جسوماً فترى القوم فيها

صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿إن في ذلك لآية﴾ على صدق نبينا

هود عليه السلام، وصحة ما جاء به،

وبطلان ما عليه قومه، من الشرك

والجبروت، ﴿وما كان أكثرهم

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام

على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً،

فلم يزدادوا إلا نفوراً، و ﴿قالوا لئن لم

تنته يا نوح﴾ من دعوتك إيانا، إلى الله

وحده ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي:

لنقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة،

كما يقتل الكلب. فتأ لهم، ما أقيح

هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين

الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم،

بشر مقابلة. لا جرم لما انتهى ظلمهم،

واشتد كفرهم، دعا عليهم بنبيهم بدعوة

أحاطت بهم، فقال: ﴿رب لا تدر على

الأرض من الكافرين ديناراً﴾ الآيات.

وهنا ﴿قال رب إن قومي كذبون﴾

فافتح بيني وبينهم فتحة﴾ أي: أهلك

الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة

الظلمة، ولهذا قال: ﴿ونجني ومن

معني من المؤمنين﴾ ﴿فأنجيناه ومن

معني في الضلك﴾ أي: السفينة

﴿المشحون﴾ من الخلق والحيوانات،

﴿ثم أفرقتنا بعد﴾ أي: بعد نوح، ومن

معه من المؤمنين ﴿الباقين﴾ أي: جميع

قومه.

﴿إن في ذلك﴾ أي: نجاة نوح

وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لاية﴾ دالة

على صدق رسنا، وصحة ما جاؤوا

به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قهر

مؤمنين* مع وجود الآيات المقتضية للإيمان .

﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ الذي أهلك بقوته قوم هود، على قوتهم ويطشهم . ﴿ الرحيم ﴾ بنبيه هود، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين .

﴿ ١٤١ - ١٥٩ ﴾ ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ إلى آخر القصة ﴿ كذبت ثمود ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿ المرسلين ﴾ كذبوا صالحاً عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكديماً للجميع .

﴿ إذ قال لهم آخوهم صالح ﴾ في النسب، برفق ولين : ﴿ ألا تتقون ﴾ الله تعالى، وتدعون الشرك والمعاصي ﴾ إني لكم رسول ﴾ من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفاً بكم ورحمة، فتلقوا رحته بالقبول، وقابلوها بالإذعان، ﴿ أمين ﴾ تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به .

﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ فتقولون : يمنعنا من اتباعك، أنك تريد أخذ أموالنا، ﴿ إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ أي : لا أطلب الثواب إلا منه .

﴿ أتتركون في ما هاهنا آمين ﴾ في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ أي : نصيد كثير . أي : تحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سدىً، تنعمون وتمتعون كما تتمتع الأنعام وتتركون سدى، لا تؤمرون، ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله، ﴿ وتنتحون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي : بلغت بكم القراهة والخذق إلى أن اتخذتم بيوتاً من الجبال الصم الصلاب . ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾

ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ الذين تجاوزوا الحد، ﴿ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ أي : الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إليها، إفساداً

لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض، وكان أناساً عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم، موضعون في الدعوة لسبيل العبي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلمهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ فلم يقد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً، فقالوا لصالح : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ أي : قد سحرت، فأنت تهذي بما لا معنى له .

﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ فاي فضيلة فقتنا بها، حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿ فأت باية إن كنت من الصادقين ﴾ هذا، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه، من أكبر الآيات البيئات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم^(١) من قسوتهم، سألو آيات الاقتراح، التي في الغالب لا يفلح من طلبها، لكون طلبه مبنياً على التعتت لا على الاسترشاد .

فقال صالح : ﴿ هذه ناقة ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها بأجمعكم، ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ أي : تشرب ماء البئر يوماً، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر .

﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ بعقر أو غيره ﴿ فياخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم ﴿ ففعلوها فأصبحوا نادمين ﴾ فأخذهم العذاب ﴿ وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين، ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، ويطلان قول معارضيههم، ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿

﴿ ١٦٠ - ١٧٥ ﴾ ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ إلى آخر القصة قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا - مع شركهم - يأتون فاحشة لم

وَأَنذَرْنَا أُولَئِكَ عَذَابَهُمْ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦١﴾ قَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ آلِهَتَ آبَائِنَا وَإِنَّمَا كُنَّا مِن قَبْلُ كَمَا كُنتُم مِّن قَبْلِهِمْ قَالُوا أَتَدْعُونَا إِلَىٰ أَن كُفِّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ أَكْبَرُ إِنَّ رَبَّكَ لَآتِيهِم بِخَبْرِهِمْ لَنَزِيلٍ ﴿١٦٢﴾ قَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ آلِهَتَ آبَائِنَا وَإِنَّمَا كُنَّا مِن قَبْلُ كَمَا كُنتُم مِّن قَبْلِهِمْ قَالُوا أَتَدْعُونَا إِلَىٰ أَن كُفِّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ أَكْبَرُ إِنَّ رَبَّكَ لَآتِيهِم بِخَبْرِهِمْ لَنَزِيلٍ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ آلِهَتَ آبَائِنَا وَإِنَّمَا كُنَّا مِن قَبْلُ كَمَا كُنتُم مِّن قَبْلِهِمْ قَالُوا أَتَدْعُونَا إِلَىٰ أَن كُفِّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ أَكْبَرُ إِنَّ رَبَّكَ لَآتِيهِم بِخَبْرِهِمْ لَنَزِيلٍ ﴿١٦٤﴾ قَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ آلِهَتَ آبَائِنَا وَإِنَّمَا كُنَّا مِن قَبْلُ كَمَا كُنتُم مِّن قَبْلِهِمْ قَالُوا أَتَدْعُونَا إِلَىٰ أَن كُفِّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ أَكْبَرُ إِنَّ رَبَّكَ لَآتِيهِم بِخَبْرِهِمْ لَنَزِيلٍ ﴿١٦٥﴾

يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران، المستقذر الحديث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم، لإسرافهم وعدوانتهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿ قالوا ﴾ له : ﴿ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ أي : من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه ﴿ قال إني لعملك من القالين ﴾ أي : المبغضين له الناهين عنه، المحذرين .

﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له، ﴿ فنجيناها وأهله أجمعين ﴾ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ أي : الباقيين في العذاب، وهي امرأته . ﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ وأمطرنا عليهم مطراً ﴿ أي : حجارة من سجيل ﴾ فساء مطر المنذرين ﴿ أهلكتهم عن آخرهم .

﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿

﴿ ١٧٦ - ١٩١ ﴾ ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ أصحاب الأيكة : أي : البساتين الملتفة أشجارها^(٢)، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيباً، الذي جاء بما جاء به المرسلون، ﴿ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴾ الله تعالى، فتركون ما يسخطه

(١) كذا في ب، وفي أ: أشجاره . (٢) في النسختين: ولكنه .



وقد أجاب عنها الرسل بقولهم: **﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾**. **﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾** وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، وقد انطوا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعبياً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا. **﴿إن كنت من الصادقين﴾** كقول إخوانهم **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تنميم مطلوب من سألها.

﴿قال﴾ شعيب عليه السلام: **﴿ربي أعلم بما تعملون﴾** أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس علي إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلمها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولدبارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا

ويغضبه، من الكفر والمعاصي، **﴿إني لكم رسول أمين﴾** يرتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكابيل والموازن، فلذلك قال لهم: **﴿أوفوا الكيل﴾** أي: أتموه وأكملوه **﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾** الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها بخس المكابيل والميزان، **﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾** أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، **﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾** أي: الخليفة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكركه.

قالوا له، مكذبين له، وأدين لقوله: **﴿إنما أنت من المسحرين﴾** فأنت تهذي وتتكلم بكلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، عن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصلون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

العمل، ولا يُفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون. **﴿إن في ذلك لآية﴾** دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وطلان رد قومه عليه، **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاة فيهم، ولا خير لديهم **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**. **﴿وإن ربك لهو العزيز﴾** الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. **﴿الرحيم﴾** الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحته، أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿١٩٢ - ٢٠٣﴾ **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** نزل به الروح الأمين **﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾** بلسان عربي مبين **﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾** أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل **﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾** فقرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين **﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾** لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم **﴿فيائتهم بغثة وهم لا يشعرون﴾** فيقولوا هل نحن متظرون **﴿لما ذكر قصص الأنبياء مع أهمهم، وكيف دعوهم، و [ما]**

ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة. ذكر هذا الرسول الكريم، والنبى المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** فالذي أنزله، فاطر الأرض والسموات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدایتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يريهم أيضاً، بهدایتهم لمصالح دينهم وأخرهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي

طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨ - ٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين * وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إتهم عن السمع لمعزولون﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذير بالآيات البينات، ويدعوهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فهلك القرى قبل أن ننذرهم، وتأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك. ﴿إتهم عن السمع لمعزولون﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣ - ٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتَك الأقرين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً، وأمه أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثه الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المحرمين﴾ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجماع، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم،

فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والتكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ إذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ أي: يطلبون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفر ساعة.

﴿٢٠٤ - ٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أفرأيت إن متعناهم ستين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾ الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتقر، ﴿يستعجلون﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرأيت إن متعناهم ستين﴾ أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ من اللذات والشهوات، أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند

اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزِيل رب العالمين﴾ من تعظيمة وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقوامهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ هدي به إلى طريق الرشاد، وتذير به عن طريق البغي.

﴿بللسان عربي﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من يُعَثِّ إليهم، ويأشر دعوتهم أصلاً، للسان النبي الواضح وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طَبَّقَ ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصننف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرّون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقراه﴾ عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندرى ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان

والشهادة. فاستحضر العيد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ - ٢٢٢﴾ ﴿هل أنبئكم على

من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفك أئيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً

وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هل أنبئكم﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿تنزل على كل أفك﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أئيم﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يلقون﴾ عليه ﴿السمع﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب^(٢)، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه^(٣) صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيمهم له.

وأما محمد ﷺ، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخذعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فإن عصوك﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابدل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿واخفض جناحك﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿وتوكل على

العزیز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وتوكل على العزیز الرحيم﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راعياً وساجداً خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خشع وذل، وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إنه هو السميع﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿العليم﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب

شركاً، ﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ والنهي عن الشيء أمر بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفاً، ورجاء، وذللاً، وإنابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والديني، وهذا لا ينافي أمره بإحسان جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً^(١) دالاً

على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُبَيِّنْ ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصيحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك ومحبتك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟ [وأ] إن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من الفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمل نفسه

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسخين: كذاباً.

(٣) في النسخين: هذا.

من المحرم.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروساً محفوظاً، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برأه أيضاً من الشعر فقال: **«والشعراء﴾** أي: هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم **«يتبعهم الغاوون﴾** عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى، فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاوضال فاسد.

«أم تر﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم **«أنهم في كل واد﴾** من أودية الشعر، **«يهيمون﴾** فتارة في مدح، وتارة في قبح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وأونة يجزون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

«وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ أي: هذا وصف الشعراء، أنهم يخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غراماً، وقلبه فارغ من ذلك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم يخالف أقواله أفعاله؟ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له،

ولا نهى عن شيء إلا كان أول التارئين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربه؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أمد الأبدين، ودهر الدهارين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذم عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

«إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسعلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون﴾ ينقلبون إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقاً إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل وهي مكية

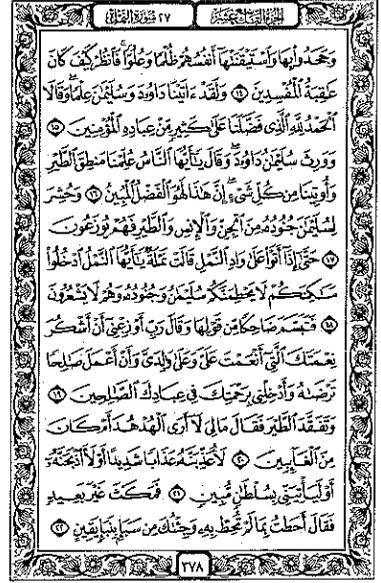
﴿١-٦﴾ **«بسم الله الرحمن الرحيم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾** هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأسخرون * وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ بينه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: **«تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾** أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح



الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخيار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة، مبلغ الشمس للابصار، آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على طريقي ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صوتاً لها عن من لا خير فيه ولا صلاح، ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها، من خصهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: **«هدى وبشرى للمؤمنين﴾** أي: تهديم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بشواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد ادعى



أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها، وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿زيننا لهم أعمالهم﴾ فهم يعمهون ﴿حائرين مترددين﴾ مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿العزیز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته، أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته، أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحرركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿وأتى عصاك﴾ فألقاها ﴿فلما رآها تهتفت كأنها عابدة﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى الطباع البشرية، فقال الله له: ﴿يا موسى لا تخف﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لويحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون، فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهز الناظرين شعاعه. ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتلقفه وتلقفه، ينزل من عند حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار الأمور^(١) وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حكيم عليم﴾^(٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه، واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنست ناراً﴾ أي: أبصرت ناراً من بعيد ﴿سأتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق، ﴿أو أتاكم بشهاب ميس لعلمكم تصطلون﴾ أي: تستدفؤون، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فلما جاءها تودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته، أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وسنحان الله رب العالمين﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله. ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى ﴿إني أنا الله لا

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (حكيم خير) فصحتها، وأبقت التفسير كما هو.

الجيب، فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فسقوا بشرهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات. ﴿فلما جاءهم آياتنا مبصرة﴾ مضيئة، تدل على الحق، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس. ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ لم يفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب، الآيات المبصرات، والأنوار الساطعات، تجعل من أبين الخزعيلات وأظهر السحرا هل هذا إلا من أعظم المكابرة، وأوقح السفسطة.

﴿وجحدوا بها﴾ أي: كفروا بآيات الله، جناحين لها، ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم^(١) بصحتها ﴿ظلموا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلووا﴾ على الحق وعلى العباد، وعلى الاتقياء للرسول، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنتهم المستضعفين من عباده.

﴿١٥ - ٤٤﴾ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وورث سليمان داود ﴿إلى آخر القصة. يذكر في هذا القرآن، ويتوه بمنته على داود وسليمان ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾ فهمناها سليمان

وكلآ آتينا حكماً وعلماً﴾ الآية. ﴿وقال﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ فحمداً الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان، من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكراً لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً، فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً، وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله فهمناها سليمان، وقال شكراً لله، وتبجحاً بإحسانه، وتحدثاً بنعمته: ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام] يفقه ما تقول وتكلم به، كما راجع الهدهد وراجع، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ أي: أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤتوه

إني وكنت امرأة تكلمت به وأوتيت من كل شيء وملياً ﴿عظيم﴾ ﴿وتدعوا فرعوناً وشجرتاً﴾ ﴿والشجرين دون الله ورتب﴾ ﴿لهما السنين أعانهم فصخر عن السبل فتم لا يهتدون﴾ ﴿الآن سيداً للذين يخرجونهم من الأرض والسموات والأرض يتعارفون وكانوا من الله﴾ ﴿الله الأكرم الذي أنزل القرآن﴾ ﴿قال سطر أمست أمركت من الكذابين﴾ ﴿أذهب كيتي حنا فالقمة الهيمه قول عنهم فاطمة ما دارت جفون﴾ ﴿قال يا أيها النكاح إني أنزلت كيت كيم﴾ ﴿الله من شاقن والله يسر الله الحق الكبر﴾ ﴿الآن تعلموا وأولئك مسلوبين﴾ ﴿قال يا أيها النكاح أوتوني في أنسرى ما كنت فاطمة أمركتني شجرتين﴾ ﴿قالوا نعم أولاً فوؤوا وأولوا بآس شجرتين وأمركتني فاطمة ما دارت جفون﴾ ﴿قال إن ذلك إذا دخلوا قرية أمستوها وجعلوا أئمةً أهلها أولاً﴾ ﴿وكان ذلك بقرعة﴾ ﴿والى مشيتهم إليهم بكية فأنطرتهم يرجع إلى الرسول﴾

أحداً من الأميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وهب^(٢) لي ملكاً لا يتبغي لأحد من بعدي﴾ فسخر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء، من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر.

﴿إن هذا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿لهو الفضل المبين﴾ الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

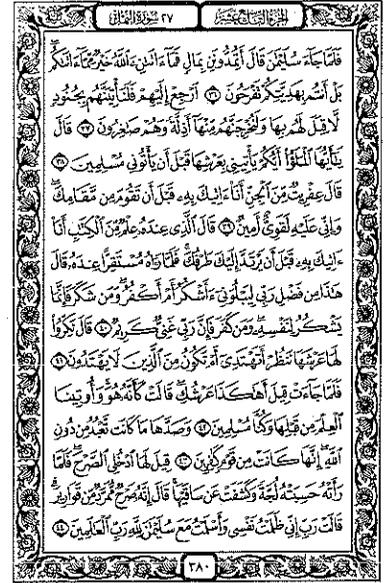
﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور فهم يوزعون﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤثرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تمرد عنه، قال تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره^(٣).

﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل

(١) في ب: يقينهم.

(٢) في النسخين: فقال: (رب هب) وهو خطأ.

(٣) في أ: في بعض في.



ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير، لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواقع التي عينها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت، ما يخفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواجها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟!!

وهذه التفاسير التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الرديئة في التفاسير ما يقع، واللييب الفطن، يعرف أن هذا القرآن الكريم، العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكير في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد، يدل على كمال حزمه وتديبه الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير **﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾** أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟ فحينئذ تعيظ عليه وتوعده، فقال:

والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك. وقال شاكراً لله الذي أوصله إلى هذه الحال: **﴿رب أوزعني﴾** أي: ألهمني ووفني **﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته، الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه، **﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾** أي: ووفني أن أعمل صالحاً ترضاه، لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه، سالماً من المسدات والمنقصات، **﴿وادخلني برحمتك﴾** التي منها الجنة **﴿فني﴾** جملة **﴿عبادك الصالحين﴾** فإن الرحمة جمولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال: **﴿وتفقد الطير﴾** دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتديبه بنفسه للأمر الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر: هل هي موجودة كلها، أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئاً من قال: إنه تفقد الطير، لينظر أين الهدهد منها^(٢)، ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي، فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك، لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي، فلو أريد هذا المعنى، لقال: **﴿وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده قال ما قال﴾** أو **﴿فتش عن الهدهد﴾**، أو: **﴿بحث عنه﴾** ونحو

قالت نملة **﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾** فنصحت هذه النملة، وأسمنت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع، وأمرتهم بالخذل، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهم.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، **﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾** إعجاباً منه بفصاحتها^(١) ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب عما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق

(١) في ب: بنصح أمته.

(٢) في ب: منه.

﴿لأعذبه عذاباً شديداً﴾ دون القتل،
﴿أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطان مبین﴾
أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا
من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم
على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل،
لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب،
وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح،
فلذلك استناده، لورعه وفطنته.

﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء، وهذا
يدل على هيبته^(١) جنوده منه، وشدة
اتحارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد،
الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على
التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾
لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾
أي: عندي من العلم علم ما أحطت
به، على علمك الواسع، وعلو درجتك
فيه، ﴿وجئتك من سبأ﴾ القبيلة
المعروفة في اليمن ﴿بنيبا يقين﴾ أي:
خبير متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إني
وجدت امرأة تملكهم﴾ أي: تملك قبيلة
سبأ، وهي امرأة، ﴿وأوتيت من كل
شيء﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال،
والسلاح، والجنود، والحصون،
والقلاع، ونحو ذلك. ﴿ولها عرش
عظيم﴾ أي: كرسي ملكها الذي تجلس
عليه، عرش هائل، وعظم العروش
تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان
وكثرة رجال الشورى.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس
من دون الله﴾ أي: هم مشركون
يعبدون الشمس. ﴿وزين لهم الشيطان
أعمالهم﴾ فأرأوا ما هم عليه هو الحق،
﴿فهم لا يستدنون﴾ لأن الذي يرى أن
الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته
حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿الآ﴾ أي: هلا
﴿يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في
السموات والأرض﴾ أي: يعلم الخفي
الخبئي، في أقطار السموات، وأنباء
الأرض، من صغار المخلوقات،
وبذور النباتات، وخفايا الصدور،
ويخرج خبء الأرض والسماء، بانزال

المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء
الأرض عند النفخ في الصور وإخراج
الأموات من الأرض، ليجازيهم
بأعمالهم ﴿ويعلم ما تحفون وما
تعلنون﴾.

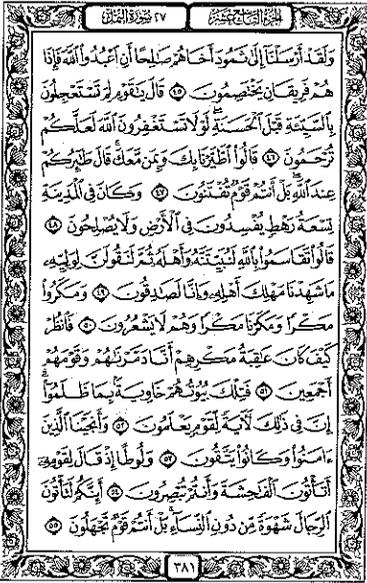
﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا تنبغي
العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا
له، لأنه المألوه، لما له من الصفات
الكاملة، والنعم الموجبة لذلك. ﴿وب
العرش العظيم﴾ الذي هو سقف
المخلوقات، ووسع الأرض
والسموات، فهذا الملك العظيم
السلطان، كبير الشأن، هو الذي يدل
له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم
الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ
العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي
عليه.

وقال متبثاً لكمال عقله ورزاقته:
﴿سننظر أصدقت أم كنت من
الكاذبين﴾ * اذهب بكتابي هذا * وسيأتي
نصه ﴿فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾ أي:
استأخر غير بعيد ﴿فانظر ماذا
يرجعون﴾ إليك وما يراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت
لقومها: ﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾
أي: جليل المقدر، من أكبر ملوك
الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إنه من
سليمان وإنه بسم الله الرحمن
الرحيم﴾ * ألا تعلموا علي وأتوني
مسلمين﴾ أي: لا تكونوا فوقي، بل
اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا
لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان
التمام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو
عليه، والبقاء على حالهم التي هم
عليها، والانقياد لأمره، والدخول
تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم
إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء
الكتب بالبسمة كاملة، وتقديم الاسم
في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها
وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال
ملكها، وقالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني



في أمري﴾ أي: أخبروني، ماذا نحببه
به؟ وهل ندخل تحت طاعته ونقاد؟ أم
ماذا نفعل؟ ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى
تشهدون﴾ أي: ما كنت مستبداً بامر
دون رأيكم ومشورتكم.

ف ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس
شديد﴾ أي: إن رددت عليه قوله، ولم
تدخل في طاعته، فإننا أقرباء على
القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي،
الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم
أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا:
﴿الأمر إليك﴾ أي: الرأي: ما رأيت،
لعلمهم بعقلها وحزمها، ونصحها لهم
﴿فانظري﴾ نظر فكر وتدبر ﴿ماذا
تأمرين﴾.

فقال لهم - مقنعة لهم عن رأيهم،
ومبينة سوء مغبة القتال - ﴿إن الملوك
إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قتلاً،
وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً
لديارها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾
أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف
الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي:
غير شديد، وأيضاً، فلست بمطبعة له
قبل الاختيار وإرسال من يكشف عن
أحواله ويتدبرها، وحيثئذ تكون على
بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿وإني
مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع
المرسلون﴾ منه. هل يستمر على رأيه

(١) كذا في ب، وفي أ: هيته.

لعقلها ﴿أعتدي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتمون﴾ .
﴿فلما جاءت﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عندها به، قد خلفته في بلدها، و ﴿قيل لها أهدئا عرشك﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قالت كأنه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتكبير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفته، فأنت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وكننا مسلمين﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: «وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه» .

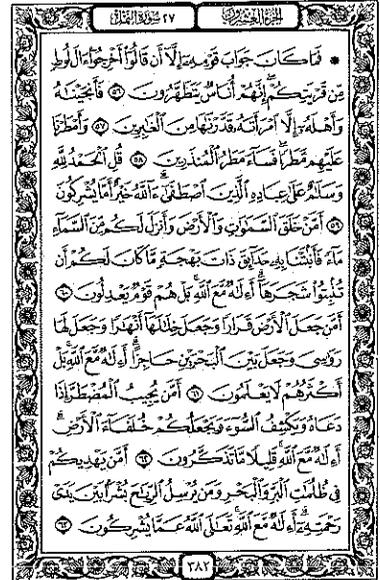
قال الله تعالى: ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: عن الإسلام، وإلا، فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم، من أندر ما يكون، فلهدا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار.

ف ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة﴾ ماء، لأن القوارير شفافة،

﴿أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً، ومع ذلك، يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به، على كبره وثقله وبُغده، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه . والمعتمد من المجالس الطويلة، أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم، الذي عند أحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: «أصف بن برخيا» كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم [هل هذا المراد أم عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديداً] (١)

﴿فلما رآه﴾ سليمان ﴿مستقراً عنده﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿تكرروا لها عرشها﴾ أي: غيرهو بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿ننظر﴾ نختبرين



وقوله؟ أم تحدعه الهدية، وتبدل فكرته، وكيف أحواله وجوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم، ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قال﴾ منكرأ عليهم ومتغيظاً على عدم إجابته: ﴿أئذنون بما لهما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغثناني الله عنها، وأكثر علي النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سيتقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتكم ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم ﴿بها﴾ ولنخرجهم منها أدلة وهم صاغرون﴾ فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن تنصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن﴾ والعفريت: هو القوي النشيط جداً:

(١) زيادة من هامش: ب.

يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، ﴿وكشفت عن ساقبها﴾ للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأديها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: **﴿إنه صرح بمرد﴾** أي: مجلس **﴿من قوارير﴾** فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحيث لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و **﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين﴾**

فهذا ما قصة الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصاص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فالجزم كل الجزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفسير، والله أعلم.

﴿٤٥ - ٥٣﴾ **﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾** إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان، **﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾** منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قال يا قوم لتستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرضون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدنيوية والدينية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب

لفعل السيئات؟ **﴿لولا تستغفرون الله﴾** بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، **﴿لملكم ثرهم﴾** فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قالوا﴾ لنيبهم صالح، مكذبين ومعارضين: **﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾** زعموا - فبهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: **﴿طائرکم عند الله﴾** أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، **﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾** بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تفلعون وتتبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابله به.

﴿وكان في المدينة﴾ التي فيها صالح، الجامعة لعظم قومه **﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾** أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: **﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾** ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فلم يزالوا بهذه الحال الشيعة، حتى إنهم من عداوتهم **﴿تقاسموا﴾** فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر: **﴿لنبيته وأهله﴾** أي: تأتيه ليلاً، هو وأهله، فلقتلهم، **﴿ثم لنقولن لوليه﴾** إذا قام علينا، وأدعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف **﴿إننا لصادقون﴾** فتواطؤوا على ذلك، **﴿ومكروا مكراً﴾** دبوا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى آمن قومهم، خوفاً من أوليائه، **﴿ومكرونا مكراً﴾** بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين **﴿وهم لا يشعرون﴾**

أَنْ يَبْدَأَ الْخَلْقَ مُرْسِئِينَ مِنْ رَبِّكَ كَرِهَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ
 لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَوْلٌ حَادٍ وَأَرْهَأْتُمْ أَنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ
 قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْكَافِرُ إِلَّا اللَّهُ
 وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٥٧﴾ بَلْ أَتَاكَ عَلَيْهِمُ بِالْآخِرَةِ
 نَازِلَةٌ فِي سَكَابِطٍ مُنَمَّلَةٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
 كُذِّبُوا ﴿٥٨﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبَتْ بِهَا آيَةُ الْكُفْرِيِّ ﴿٥٩﴾ لَقَدْ
 وَعَدْنَاكَ نَحْنُ وَرَبُّكَ أَنْ تَقُولَ إِنَّا كَذَّبْتُمْ أَنَّ كُذِّبْتُمْ
 قُلْ بَرِّئُوا مِنِّي وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنِّي إِنَّمَا اتَّخَذُوا مَلَكًا
 سَاحِقًا ﴿٦٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا كُنْ فِي حَسْرَةٍ مِمَّا كُنتُمْ
 تَفْعَلُونَ ﴿٦١﴾ وَتَقُولُوا نَحْنُ نَحْمِلُ الذُّنُوبَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
 أَن يَكُونَ رَدًّا لَكُمْ لِمَ كُنتُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: **﴿أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾** أهلكناهم، واستأصلنا شافتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم. **﴿فتلك بيومهم خاوية﴾** قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعظلت من نازليها، **﴿بما ظلموا﴾** أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض. **﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾** الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والنور.

ولهذا قال: **﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسوله.

﴿٥٤ - ٥٨﴾ **﴿ولو طأ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾** إلى آخر القصة. أي: وأذكر عبدنا ورسولنا لوطاً، ونباه الفاضل، حين قال

(١) في ب: لتأينهم.

وهياته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكركم، وتبويها بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب.

﴿الله خير مما يشركون﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعبادها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِثَ ذَاتٍ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَعْزِزْكُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

أي: من خلق السماوات وما فيها، من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِثَ ذَاتٍ بَهْجَةٍ﴾ أي: من بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتبوعها، وحسن ثمارها، ﴿ما كان لكم أن تبتتوا شجرها﴾ لولا مئة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟

﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿٦١﴾ ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا

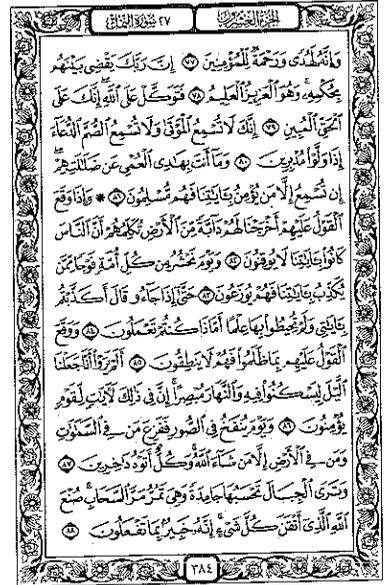
فكانه قيل: ما نعمتم منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إنيهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فقبحهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء موكل بالمنطق، فهم قالوا: ﴿أخرجوهم من قريبتكم إنيهم أناس يتطهرون﴾.

ومفهوم هذا الكلام: ﴿وانتم متلوثون بالخبث والقذر، المكتسبي لنزول العقوبة بقريبتكم، ونجاة من خرج منها﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهلكنا﴾ إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ وذلك لما جاءت الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاؤوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاده وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً، إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم، لأنهم أنذروا وخوفوا، فلم يتزجروا ولم يرتدعوا، فأجل الله بهم عقابه الشديد.

﴿٥٩﴾ ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى إله خير أم ما يشركون﴾ أي: قل «الحمد لله» الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجميل معرفته،



لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً - : ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الفعل الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستفحشها الشرائع ﴿وانتم تبصرون﴾ ذلك، وتعلمون قبحة، فعانذتم، واركتبتم ذلك، ظلماً منكم وجراً على الله.

ثم فسرتك الفاحشة، فقال: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والتجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن، ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وأدكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية، وأقيمت التفسير كما هو.

والسماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يسمعون * بل أذرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون * وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وكقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والباطن والخفايا، فهو الذي لا تبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل أذرك علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقُلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهأوه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هم في شك منها ﴿أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد غميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرتهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي:

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التي إذا تذكركموها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أرويتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعالظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتساويتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، وابتداء خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حججتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المنفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي جعل الأرض قراراً يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرب، والبناء، والذهب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبلاً ترسيها وثبتها، لثلا تقيدها، وتكون أوتاداً لها، لثلا تضطرب. ﴿وجعل بين البحرين البحر المالح والبحر العذب حاجزاً﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعده عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٦﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلقته الكرب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا سهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، وهو العزيز ﴿الذي قهر الخلائق فأذعنوا له، بجميع الأشياء﴾ ﴿العليم﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿٧٩﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ * إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إنك على الحق المبين﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً إذا ولوا مدبرين * فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ كما قال تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي: هؤلاء الذين يتقادون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب.

﴿٧٣﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ * وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين * ينه عباده، على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا، فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعيم عن المنعم. ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن﴾ أي: تنطوي عليه ﴿صدورهم وما يعلنون﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إلا في كتاب مبين﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ * وإنا لهدي ورحمة للمؤمنين * وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصصه هذا القرآن قصصاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بيّن أن نفعه ونوره وهده، يختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وإنا لهدي﴾ من الضلالة والغي والشبه و﴿رحمة﴾ تنلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿للمؤمنين﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في

فلم يحسنا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، ففسدوا دنياهم وأخرامهم.

﴿٦٩﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء الكذابين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ويقول المكذوبون بالمعاد، وبالخلق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذراً

بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿٨٢﴾ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴿أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته.﴾ أخرجنا لهم دابة خارجة ﴿من الأرض﴾ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تكلمهم﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس، ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فأظهر الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة، ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة، هي الدابة المشهورة، التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، أولم يأت دليل يدل على كیفيتها، ولا من أي نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم^(١).
﴿٨٣ - ٨٥﴾ ويوم نحشر من من كل أمة فجأاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أما ذا كنتم تعملون * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴿يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فجأاً وطائفة﴾ ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴿يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتريخ واليوم.

﴿حتى إذا جاؤوا﴾ وحضروا، قال لهم موبخاً ومقراً: ﴿أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علماً؟ ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ أي: يسألهم عن علمهم، وعن عملهم، فيجد علمهم تكديباً بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة، فهم لا ينطقون، لأنه لا حجة لهم.

﴿٨٦﴾ ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة، والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه، لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم.﴾ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿٨٧ - ٩٠﴾ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون * من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيسة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿يخوف تعالى عباده، ما أمامهم من يوم القيامة، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب، فقال:﴾ ويوم ينفخ في الصور ففزع ﴿بسبب النفخ فيه﴾ من

من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيسة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿إنما أريد أن أعيد ربك هذه الآية التي حرمتها والمكفل حين وأمرت أن أكون من المشركين ﴿وأن أتأمر القرآن أن فمن أعتك وأتأمرت يفسدوا ومن من قبل أن آمن بالآيات﴾ ﴿وقل الحمد لله سببكم اليقين قدرتها وأمرتك بعقلها بما تاملون﴾

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم
سورة القصص مكية آياتها ٢٨
سورة القصص مكية آياتها ٢٨
سورة القصص مكية آياتها ٢٨

في السماوات ومن في الأرض ﴿أي: انزعجوا وارتاعوا، ومناج بعضهم ببعض، خوفاً مما هو مقدمة له.﴾ إلا من شاء الله ﴿من أكرمه الله وثبته، وحفظه من الفزع،﴾ وكل ﴿من الخلق عند النفخ في الصور﴾ ﴿أتوه داخرين﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾. ففي ذلك اليوم، يتساوى الرؤساء والمرؤسون، في الذل والخضوع لمالك الملك.

ومن هزله أنك ﴿ترى الجبال تحسبها جامدة﴾ لا تفقد [شيئاً] منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضمحل، وتكون هباء منبأ. ولهذا قال: ﴿وهي تمرر السحاب﴾ من خفتها، وشدة ذلك الخوف وذلك ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة، قولية أو فعلية أو قولية ﴿فله خير منها﴾ هذا أقل التفضل^(٢).

(١) ما بين القوسين المرتكين زيادة من هامش أ بخط الشيخ - رحمه الله - وفي ب زيادة أخرى، يبدو أنها بخطه - رحمه الله - هي: (لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها، والمقصود منها، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين وحجة على المعاندين).

(٢) سبق قلم الشيخ إلى آية الأنعام ﴿فله عشر أمثاله﴾ وعليه فرها.

السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣.

المجلد السادس من تفسير الكرمي الرحمن في تفسير كلام المصنف، من من الله على الفقير إلى المعيد الصدي: عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له آمين.

تفسير سورة القصص وهي مكية

﴿١- ٥١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسّم﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ إلى آخر القصة ﴿تلك﴾ الآيات المستحقة

للتعظيم والتفخيم ﴿آيات الكتاب المبين﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبیین، وجلاها للعباد ووضحها.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبدأها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾. فإن نبأها غريب، وخبرها عجيب.

﴿لقوم يؤمنون﴾ فيلهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيماناً و يقيناً، وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاً بأن يفقهوه، فأول هذه القصة ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلى فيها. ﴿وجعل أهلها

ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي عليّ وقد أدبته، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائلة إليه ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿وقل الحمد لله﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والشناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم.

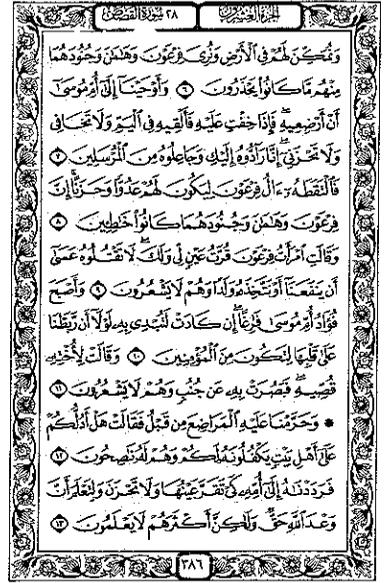
﴿سيركم آياته فتعترفونها﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستتبرون به في الظلمات. ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانتة وتيسيره

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا، وواصله منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، وعمد مائدة خيراته وميراثه للمتفكرين، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعته ومعلمه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله



﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿ومن جاء بالسبيقة﴾ اسم جنس، يشمل كل سبيقة ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ أي: القوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿٩١- ٩٣﴾ ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعترفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول. ﴿وله كل شيء﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لثلاث يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي: أبادر إلى الإسلام، وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً، ﴿و﴾ أمرت أيضاً ﴿أن أتلو﴾ عليكم ﴿القرآن﴾ تهتدوا به وتقتدوا وتعلموا

شعباً أي : طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسلطوته.

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذين له أن يكرمهم ويخلصهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراداه فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه **﴿يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم﴾** خوفاً من أن يكثروا، فيخمره في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إنه كان من المفسدين﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ بأن نزيل عنهم سواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأمهم. **﴿ونجعلهم أئمة﴾** في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدره تامة، **﴿ونجعلهم الوارثين﴾** للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة. **﴿ونمكن لهم في الأرض﴾** فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، **﴿و﴾** كذلك نريد أن **﴿نري فرعون وهامان﴾** وزيره **﴿وجنودهما﴾** التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا **﴿منهم﴾** أي : من هذه الطائفة المستضعفة. **﴿ما كانوا يحدرون﴾** من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراداه الله، وإذا أراد أمراً سهّل أسبابه، ونهج طريقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدّر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود، فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله

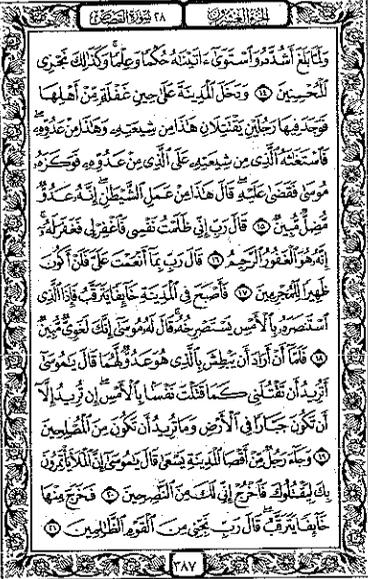
موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فإذا خفت عليه﴾ بأن أحسست أهدأ تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، **﴿فألقيه في اليم﴾** أي : نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، **﴿ولا تخافي المرسلين﴾** فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشائر لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى حتى **﴿التقطه آل فرعون﴾** فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه، **﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾** أي : لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزبنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قبض الله أن يكون زعيمهم، يترى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم.

وعند التدبير والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعدييات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفراده، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه. وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى



من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله : **﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾** أي : فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم ^(١) ونكيدهم جزاءً على مكروهم وكيدهم.

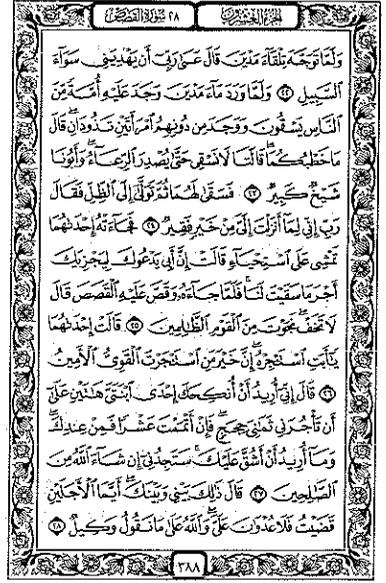
فلما التقطه آل فرعون، حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة «آسية» بنت مزاحم **﴿وقالت﴾** هذا الولد **﴿قررة عين لي ولك لا تقتلوه﴾** أي : أبقه لنا، ليقرّبه أعيننا، ونستره في حياتنا.

﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ أي : لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقبه بمنزلة أعلى من ذلك، نجعله ولداً لنا، ونكرمه، ونجعله.

فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قررة عين لها، وأحبه حباً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونسأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات

(١) كذا في ب، وفي أ: نعاقبهما على خطئهما.



منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فبجاءت أخته، وهو بتلك الحال **﴿فقال هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾**

وهذا جلُّ غرضهم، فإنهم أحبه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتتة على الترهيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالاته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

﴿فرددناه إلى أمه﴾ كما وعدناها بذلك **﴿كي تقر عينها ولا تحزن﴾** بحيث إنه تربي عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، **﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾** فأريناها بعض ما وعدناها به عينا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** فإذا رأوا السبب متشوشاً، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطق، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً. **﴿ولما بلغ أشده﴾** من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، **﴿واستوى﴾** كملت فيه تلك الأمور، **﴿آتيته حكماً وعلماً﴾** أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾** أي: يتخاصمان ويتضاربان **﴿هذا من شيعته﴾** أي: من بني إسرائيل **﴿وهذا من عدوه﴾** القبط.

﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت الملكة والسلطان.

﴿فوكزه موسى﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، **﴿فقضى عليه﴾** أي: أماته من تلك الوكزة، لشدها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و **﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾** أي: من تزيبته ووسوسته، **﴿إنه عدو مضل مبين﴾** فلذلك أجزيت ما أجزيت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه **﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾** خصوصاً للمخبتين، المبادرين للإتابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

﴿قال﴾ موسى **﴿رب بما أنعمت علي﴾** بالتوبة والمغفرة والنعيم الكثيرة، **﴿فلن أكون ظهيراً﴾** أي: معيناً ومساعداً **﴿للمجرمين﴾** أي: لا أعين أحداً على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرماً، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿ف﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه **﴿أصبح في المدينة خائفاً**

[والمقالات] في شأن موسى: **﴿وهم لا يشعرون﴾** ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي: بما في قلبها **﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾** فشبثناها، فصبرت، ولم تبد به. **﴿لنكون﴾** بذلك الصبر والثبات **﴿من المؤمنين﴾** فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.

﴿وقالت﴾ أم موسى **﴿لأخته قصيه﴾** أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك] وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه [فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾] أي: أبصرت على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرت، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله. ومن لطف الله بموسى وأمه، أن

يترقب ﴿ هل يشعر به آل فرعون أم لا ؟ وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس ﴾ على عدوه ﴿ يستنصره ﴾ على قبلي آخر . ﴿ قال له موسى ﴾ موبخاً له على حاله ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي : بين الغواية ، ظاهر الجراءة ، ﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾ موسى ﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾ أي : له وللمخاصم المستنصر ، أي : لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي ، وهو يستغيث بموسى ، فأخذته الحمية ، حتى هم أن يبطش بالقبطي ، ﴿ قال له القبطي زاجراً له عن قتله : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض ، قتل النفس بغير حق .

﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ وإلا ، فلو أردت الإصلاح لجلت بيني وبينه من غير قتل أحد ، فأنكف موسى عن قتله ، وارعوى لوعظه وزجره ، وشاع الخير بما جرى من موسى في هاتين القضيتين ، حتى تراود ملاء فرعون وفرعون على قتله ، وتشاوروا على ذلك ، وقبض الله ذلك الرجل الناصح ، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم . فقال : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ أي : ركضاً على قدميه من نصحه لموسى ، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر ، ف ﴿ قال يا موسى إن الملأ يأثمون ﴾ أي : يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ عن المدينة ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ فامتثل نصحه ، ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أن يوقع به القتل ، ودعا الله ، و ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل ، فتوعدهم له ظلم منهم وجراءة .

﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أي : قاصداً بوجهه مدين ، وهو جنوبي

فلسطين ، حيث لا ملك لفرعون ، ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي : وسط الطريق المختصر ، الموصل إليها بسهولة ورفق ، فهده الله سواء السبيل ، فوصل إلى مدين .

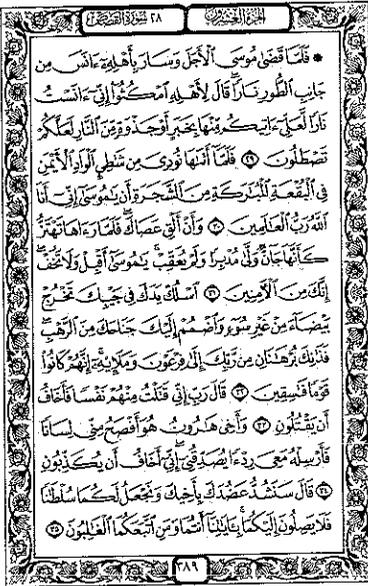
﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ مواشيهم ، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ ووجد من دونهم ﴾ أي : من دون تلك الأمة ﴿ امرأتين تزدوران ﴾ غنمهما عن حياض الناس ، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهما ، وعدم مروءتهم عن السقي لهما .

﴿ قال لهما موسى ﴾ ما خطبكما ؟ أي : ما شأنكما بهذه الحالة ، ﴿ قالنا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ أي : قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم ، فإذا خلا لنا الجو سقيننا ، ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي : لا قوة له على السقي ، فليس فينا قوة نتقندر بها ، ولا لنا رجال يزاحون الرعاء . فزق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿ فسقى لهما ﴾ غير طالب منهما الأجرة ، ولا له قصد غير وجه الله تعالى ، فلما سقى لهما ، وكان ذلك وقت شدة حر ، وسط النهار ، بدليل قوله : ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب .

﴿ فقال ﴾ في تلك الحالة ، مستزقاً ربه ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ أي : إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي . وهذا سؤال منه بحاله ، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال ، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً .

وأما المرأتان ، فذهبتا إلى أبيهما ، وأخبرتاه بما جرى ، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى ، فجاءته ﴿ غشي على استحياة ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ، فإن الحياة من الأخلاق الفاضلة ، وخصوصاً في النساء .

ويدل على أن موسى عليه السلام ، لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة ، وإنما هو عزيز النفس ، رأت من

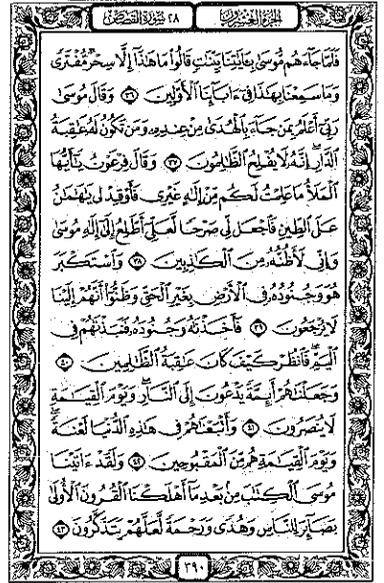


حسن خلقه ومكارم أخلاقه ، ما أوجب لها الحياة منه ، ف ﴿ قالت له : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ أي : لا ليمن عليك ، بل أنت الذي ابتدأنا بالإحسان ، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك ، فأجابها موسى .

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه ، إلى أن وصل إليه ﴿ قال له مسكناً روعه ، جابراً قلبه : ﴿ لا تحف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي : ليذهب خوفك وروعك ، فإن الله نجاك منهم ، حيث وصلت إلى هذا المحل ، الذي ليس لهم عليه سلطان .

﴿ قالت إحداهما ﴾ أي : إحدى ابنته ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أي : اجعله أجيراً عندك ، يرعى الغنم ويستقيها ، ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ أي : إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع من جمعهما ، أي : القوة والقدرة على ما استؤجر عليه ، والأمانة فيه بعدم الخيانة ، وهذان الوصفان ، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً ، بإجارة أو غيرها .

فإن الخليل لا يكون إلا يفقدها أو فقد إحداهما ، وأما اجتماعهما ، فإن العمل يتم ويكمل ، وإنما قالت ذلك ، لأنها شاهدت من قوة موسى عند



على ما نقول وكيل ﴿ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدا عليه .

وهذا الرجل، أبو المراتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين .

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه !! ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المراتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا البنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ [١].

﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفاته، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والوالدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه .

﴿ سار بأهله ﴾ قاصداً مصر، ﴿ آسن ﴾ أي: أبصر ﴿ من جانب الطور نارا ﴾ قال لأهله امكثوا إني آتست نارا لعملي آتيكم منها بخير أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴿ وكان قد أصابهم البرد، وناهوا الطريق .

﴿ ٣٠ ﴾ فلما أتاهم نودي ﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن

يأمره بعبادته وتألوهه، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ . ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ فألقاها ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيلة ﴿ كأنها جان ﴾ ذكر الحيات العظيم، ﴿ ولي مدبراً ولم يعقب ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿ يا موسى أقبل ولا تحف إنك من الأمنين ﴾ . وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف .

﴿ فإن قوله: ﴿ أقبل ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتنان، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم ينزل الأمر المخوف، فقال: ﴿ ولا تحف ﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمالاً، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿ إنك من الأمنين ﴾ فحيث أن دفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً، واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون ﴿ ٣١ ﴾ أجرأ له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿ اسلك يدك ﴾ أي: أدخلها ﴿ في جيبك فخرج بيضاء من غير سوء ﴾ فسلكتها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى .

﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف. ﴿ فذاتك ﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿ برهانان من ربك ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، ﴿ إلى فرعون وملته إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ فلا يكفهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت .

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام،

السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى، ﴿ قال ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ ثماني حجج ﴾ أي: ثماني سنين . ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك . ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ فأحتم عشر سنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلتك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ مستجدي إن شاء الله من الصالحين ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره .

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام - مجيباً له فيما طلب منه -: ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك . ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿ والله

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

معتزراً من ربه، وسائلاً له المعونة على ما حمله، وذاكراً له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها. ﴿رَبِّ إِنِّي قَبَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً. أي: معاونا ومساعداً ﴿بِصَدَقَتِي﴾ فإنه مع تضاfer الأخبار يقوى الحق فأجابته الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نعاونك به وتقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا﴾ أي: تسلطاً، وتمكناً من الدعوة بالحجة، والهيبة الإلهية من عدوهما لهما، ﴿فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمْ﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكم السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(١)، وصارت لكم أبلغ من الجنود، أو ألي العدد والعتدد.

﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَىٰكُمْ مِنَ الْقَابِلِينَ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده، بعد ما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

فذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قاله لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء. ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعتاد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّقْتَرَىٰ﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعمل على الباطل، واضمححل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيده ما قصه الله علينا، وقد علم ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَارِ﴾ أي: إذا لم تغد المقاتلة معكم، وتبين الآيات البيّنات، وأبيتم كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك، الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرئاً على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون! حيث لم يقل «ما لكم من إله غيري» بل تورع وقال: «ما علمت لكم من إله غيري». وهذا، لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحمل أن ثم إلهاً غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ «هامان»: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له بيتاً من فخار. ﴿فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا﴾ أي: بناء ﴿لِعَلِّي أُطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها

وَمَا كُنْتَ بِحَابِ النَّبِيِّ إِذْ قَصَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٢٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٣٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٤٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٥٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٦٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٧٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٨٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٠﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩١﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٢﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٣﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٤﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٥﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٦﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٧﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٨﴾ وَاللَّيْلِ ﴿٩٩﴾ وَاللَّيْلِ ﴿١٠٠﴾

أدعي، كذب موسى، وأدعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا تزويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ، الذين يزعمون أنهم كبار الملكة، المدبرون لشؤونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتمب لنا من لذتك رحمة إنك أنت الوهاب.

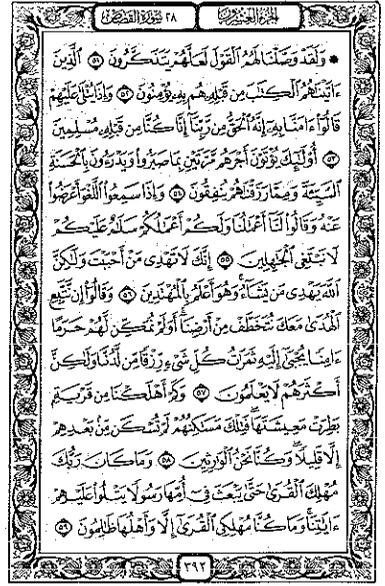
قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا وَجَنودَهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاؤوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم لِبِنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلذلك ﴿تَجَرَّؤُوا﴾، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجَنودَهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ

(١) كذا في ب، وفي أ: عنكم كيد عدوهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فكذلك.



الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص، من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت

من الشاهدين﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق، ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾ فاندرس العلم ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك. ﴿وما كنت ثاوياً﴾ أي: مقيماً ﴿في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين، ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من بشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلاً، ولغيرهم تبعاً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾.

﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلنا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حاجتهم، وقطع مقالتهم.

﴿فلما جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ﴿من عندنا﴾ وهو القرآن، الذي أوحيناه إليك ﴿قالوا﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة. أي: فأما ما دام ينزل متفرقاً، فإنه ليس من عند الله. وأي: دليل في هذا؟ وأي: شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل متفرقاً؟

بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾. وأيضاً، فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه،

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين كانت أشد العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدهون إلى النار﴾ أي: جعلنا فرعون وملاء من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الحزى والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: [وأنبئناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة هم من الملقوحين﴾ المبعدين، المستقرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين كانت أشد العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدهون إلى النار﴾ أي: جعلنا فرعون وملاء من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الحزى والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: [وأنبئناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة هم من الملقوحين﴾ المبعدين، المستقرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

الأمر، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملته، ومكثتهم في الأرض، وملكهم ببلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، [ولا دنياها]^(٣) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتمييزه عليها المصيبة بالبخارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهـم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وترداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولوسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك وتطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبيد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضعف فكره، ويذهل عقله، فلا يتنفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقاقتهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿ولقد وضئنا لهم القول﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لعلهم يتذكرون﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبير في هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله تعالى وغيره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعاب الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإيأس من ارتقائها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بما طلباً للحق، واتباعاً لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أتبعه إن كنتم صادقين﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتغل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جتتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق^(١).

﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصل إلى الهلاك والشقاء^(٢)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق.

أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتظليه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَنْ يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته يعبد الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن مَنْ قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك تميمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب أحدهما، أنه

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعتها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يرجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله. كما خرج موسى لتلقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على مَنْ يعرف ومَنْ لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة الأعاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يحب تضرع عبده وإظهار ذلك ومسكته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدوحة. ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معرفه الذي لم يتبع له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف. ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطية الرجل لا ينته الرجل الذي يتخير له يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل

[يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً. ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يُحسّن خلقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الفرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتاصيلًا موافقاً، قصه قصاً، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على مَنْ مجرد خبره ينبئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبئ العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.

الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان. ولم تزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكائد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخادته من الأرض، وهو قد بهرما وعلاها، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات، يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿٥٢ - ٥٥﴾ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * يذكر تعالى عظمة القرآن وضدقة وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ وهم أهل التوراة، والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هم به﴾ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿وإذا يتلى عليهم﴾ استمعوا له وأذعنوا و﴿قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقتها لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلاً عن الحججة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق.

قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا هذا القرآن، آمناً بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه هذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

﴿أولئك﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾ أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني، ﴿بما صبروا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم ترزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا تناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة، التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم ﴿يدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿وإذا سمعوا اللغو﴾ من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولى الألباب: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي: كل سيجازي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سلام عليكم﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ من كل وجه.

﴿٥٦﴾ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم

(١) في ب: الخبرة. (٢) كذا في ب، وفي أ: يززعهم من.

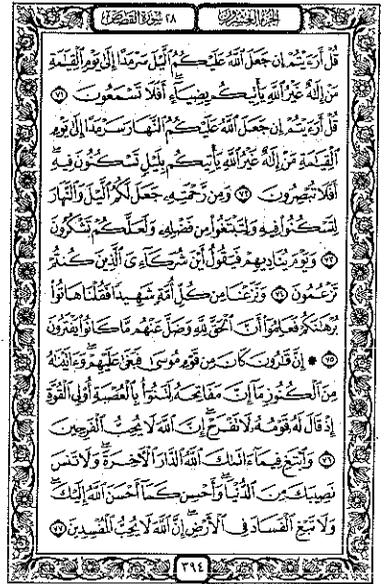
وَمَا أُرْسِلُ مِنْ قَبِي وَمَنْ خَلَقَ الْجِبْرُوتَ وَالنَّاسَ وَمَنْ يَكُونُ لَهُمْ عِزًّا وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢١٤﴾ وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢١٥﴾ وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢١٦﴾ وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢١٧﴾ وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢١٨﴾ وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢١٩﴾ وَإِنْ تُبَدِّلُوا عِزِّي لِعَدُوِّي وَلَوْ أَنِّي لَأَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ يُشَاءُ اللَّهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ ﴿٢٢٠﴾

بالمهتدين ﴿يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ فذلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبدل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويفقههم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادراً عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ وقالوا إن نشبعت الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون * وكم أهلكنا من قرية



الأماكن، قد حُف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليُخْمَدُوا ورهبهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون.

وليتبعوا هذا الرسول الكريم، ليتهم لهم الأمن والرخاء، وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: فخرت بها وأهلتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النقمة. ﴿فَتَلَكَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ تسكن من بعدهم إلا قليلاً لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيجاشها من بعدهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ للعباد، نمتيهم، ثم ترجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(١) إلينا فنجازيهم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجج عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والحفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل: أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجج عليه.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ * أقمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن تمتعنا متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاعتزاز بها، وعلى الرغبة في الآخرة، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، وبخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والبسيتين، والمأكول، والمشرب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالمنغصات، مزوجاً بالغيصص.

ويزين به زماناً يسيراً، للفتخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي: الأمور^(٢) أولى بالإشارة، وأي: الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لتقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَقْمِنَ وَعَدَنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لآقيه من

بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون * يخبر تعالى أن المكذابين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهَيْدَى مَعَكَ نَتَّخِطُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعتك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم، يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبیناً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال:

﴿أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: أو لم نجعلهم متمكنين لعمكين في حرم يكثره المتابون، ويقصده الزائر، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [ولا كثيرا].

والحال أن كل ما حولهم من

(١) كذا في ب، وفي أ: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم، وهو خطأ ظاهر من الناسخ.

(٢) في ب: الأمرين.

غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كمن متعنا متاع الحياة الدنيا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع يهدى الله رأساً، ولم يتقصد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار.

﴿٦٢ - ٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويانهم كما غويانا تبارنا إليك ما كانوا إيتانا يعبدون ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾ وليس الله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم واقتراحهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، وبدواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟ ومن المعلوم أنه^(١) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

منه، فيقرؤن على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا قال الذين حق عليهم القول ﴿الرؤساء والقادة، في الكفر والشرك، مقرين بغوايتهم وإغوائهم﴾: ﴿ربنا هؤلاء التابعون الذين أغويانا أغويانهم كما غويانا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تبارنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيتانا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ على ما أملمت فيهم من النفع فأمرؤا بدعاتهم في ذلك الوقت الخرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فدعوهم﴾ لينفعوهم، أو يدفعوهم عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا. ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، [واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يجيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضوع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والالتقاد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

يجيئون به، ولو كان كذباً. ﴿٦٧﴾ ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فمسي أن يكون من الفلحين﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل، ﴿فمسي أن يكون﴾ من جمع هذه الخصال ﴿من الفلحين﴾ الناجحين بالمللوب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر، [والأزمان] والأماكن، وأن أحداً^(٢) ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزه عن كل ما يشركونه به، من الشرك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، بما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنته، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وخرأ، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وإليه

(١) في ب: أنهم.

(٢) في هامش أ: كل.

ترجمون ﴿ فيجازي كلاً منكم بعمله، من خير وشر.

﴿٧١ - ٧٣﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتبغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده.

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟

فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواضع الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار. وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العيد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال. وعمي قلبه عن الشناء على الله، بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً ولا ذكراً.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعملوا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿أي: يوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم^(١) لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يستبغون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأمم المكذبة ﴿شهيداً﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من تصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حججتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية^(٢)، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعملوا﴾ حيثذا بطلان قولهم وفساده، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حججتهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿٧٦ - ٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل] وفعل به ونصح ووعظ، فقال: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتد الله عليهم بما امتد به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية. ﴿وآتيناه من الكون﴾ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة [أولي القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟﴾ إذ قال له قومه ﴿ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكبين على محبتها.

﴿وابغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي: لا تأمرك أن تصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بأخرتك، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾ عليك هذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فـ ﴿قال﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه -: ﴿إنما

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب.

أوتيته على علم عندي ﴿أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أي أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وستتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه، وجره ما أوتيه من الأموال، ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿في زينته﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وعضارتها وفخرها، فزمرته في تلك الحالة العيون، وملأت برؤته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إنه لئذو حظ عظيم﴾ وصدفوا إنه لئذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهياً إلى رغبتهم، وأنه ليس

وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية النعم ﴿بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، بل أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب العالية.

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر ﴿٢﴾ أولئك إلى ظاهرها: ﴿ويلكم﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالمهم: ﴿ثواب الله﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبتة، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿خير﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلْقَى ذلك ويفوق له ﴿إلا الصابرون﴾ الذين حسبوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقذاره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزيت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغيته العذاب ﴿فحسبنا به ويسداره الأرض﴾ جزءاً من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه ومتاعه. ﴿فما كان له من فئة﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يتصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر

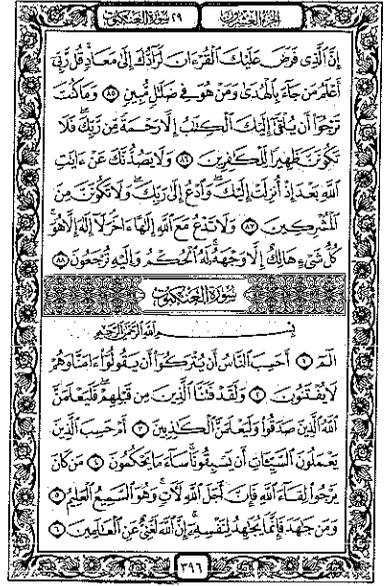
(١) كذا في ب، وفي أ: التعميم. (٢) كذا في ب، وفي أ: نظروا.

قال إنما أوتيته على علم عندي ﴿أوتيته﴾ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أي أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وستتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه، وجره ما أوتيه من الأموال، ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿في زينته﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وعضارتها وفخرها، فزمرته في تلك الحالة العيون، وملأت برؤته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إنه لئذو حظ عظيم﴾ وصدفوا إنه لئذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهياً إلى رغبتهم، وأنه ليس

ولا انتصر. ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ ويقولون ﴿متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأتينا غالطون في قولنا: ﴿إنه لئذو حظ عظيم﴾ و ﴿لولا أن من الله علينا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لحسف بنا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿٨٣﴾ ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصول إليها فقال: ﴿تلك الدار الآخرة﴾ التي أخبر الله بها



يغير تعالى عن مضاعفة فضله، وتام عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يبيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق^(٢) عباده، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٣)].

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومغله ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه نهي تحريم. ﴿فَلَا يَجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

﴿٨٥-٨٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ

عليك القرآن لرادك إلى معاد قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يلبق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحتم لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقصد بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل. ولهذا قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المظلون.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: لم تكن متحزباً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيّنًا لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿وَلَا يَصْدَنُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَادْعُ إِلَى رِبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فإرضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعهم وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

في كتبه وأخبرت [بها] رسوله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ حُلُوءَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَاداً﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، ﴿وَلَا فُسَاداً﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويوزل عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

﴿٨٤﴾ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(١) في ب: حظ.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(٣) زيادة من هامش: ب.

﴿ولا تدع مع الله الها آخر﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وإذا كان كل شيء هالكاً مضمحلاً، سواه فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطان غايتها، وفساد نهايتها. ﴿له الحكم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلاق كلهم، يجازيهم بأعمالهم، تعين على من له عقل، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويجذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص
- والله الحمد والثناء
والمجد دائماً أبداً -

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ يخبر تعالى عن [تمام] حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال «إني مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطّل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول

والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها^(١) بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

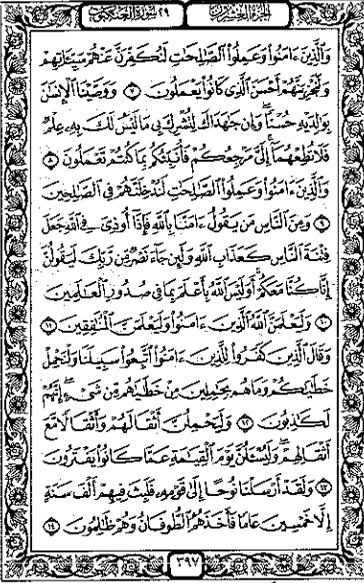
ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكاً وربياً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفة عن الواجبات، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يشتتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر، يخرج خبيثها وطيبها.

﴿٤﴾ ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنائيات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟

﴿سواء ما يحكمون﴾ أي: سواء حكمهم، فإنه حكم جائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿٥-٦﴾ ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾ يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أشرب بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل أت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه،



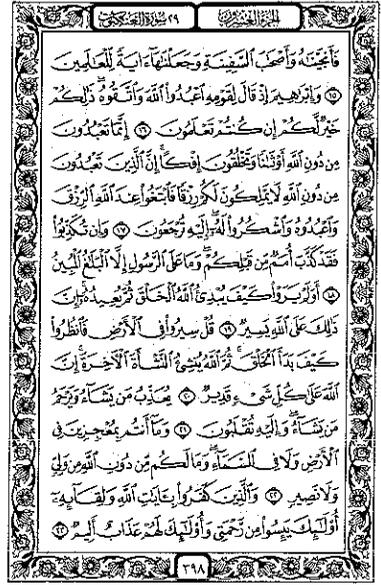
مستصحباً الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن، ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقاً في ذلك أتاه ما يرجو، ومن كان كاذباً لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح.

﴿ومن جاهد﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر، ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ لأن نفعه راجع إليه، وشمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتأقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهيه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه، كما ينبغي، وكل هذا معارضة تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولننجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ يعني أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم، ﴿ولنجزينهم أحسن الذي

(١) كذا في ب وفي أ: ويدفعه.



الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠ - ١١﴾ «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين» لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، جعل فتنة الناس كعذاب الله» أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاد عن سببه.

﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين».

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته.

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي: فلذلك قدر محناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرد، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتلوا لبتوا.

﴿١٢ - ١٣﴾ «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون *

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون» يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاعتزاز بهم والوقوع في مكرهم، فقال: «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا» فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم». وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلماذا قال: «وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله: «وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» قد يتوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: «خبراً عن هذا الوهم»^(١) «وليحملن أثقالهم» أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها «وأثقالاً مع أثقالهم» وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع]، والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع [لأنه] الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. «وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون» من الشر وتزيينه، [وقولهم]^(٢) «ولنحمل خطاياكم».

﴿١٤ - ١٥﴾ «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فليتب عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * آية للعالمين» يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة^(٣) الأمم المكذبة،

كانوا يعملون» وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ «ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم الإنسان، ووصينا بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، «فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبكم بما كنتم تعملون» فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتها، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿٩﴾ «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين» أي: من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.

(٣) في ب: عقوبات.

بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شرجاوية.

﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار ﴿فأنجاه الله﴾ منها.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبرهمن ونصحهم، ويطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصلوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿وقال﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ذلك، مودة في الدنيا ستقطع وتضمحل، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فكيف تعلقون بمن يعلم أنه يتبرأ من عابديه ويلعنهم؟ ﴿و﴾ أن ماوى الجميع، العابدين والمعبودين ﴿النار﴾ وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿٢٦- ٢٧﴾ ﴿فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه أمن له بدعوته لوط، الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتى ذكره.

﴿وقال﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام، ﴿إنه هو العزيز﴾ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بخالهم، لم

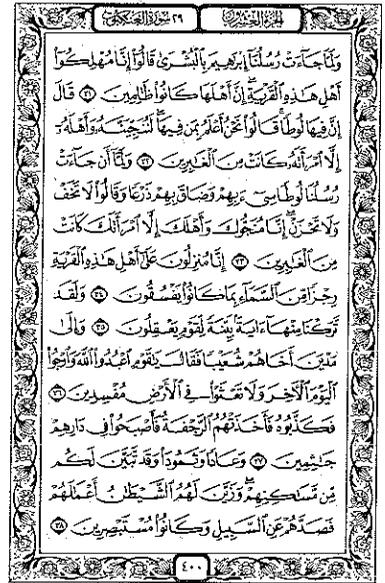
لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فلستم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ﴿ولا نصير﴾ ينصركم، فيدفع عنكم المكروه.

﴿٢٣﴾ ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾ يجبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأتهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاؤوهم به، وكذبوا بقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدما على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يحصلون به الرحمة، وإلا لوطمعا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالاً، والإياس من رحمة الله من أعظم المخاذير، وهو نوعان:

إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جنائياتهم أو حشنتهم، فملك قلوبهم، فأخذت لها الإياس، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم موجب. وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿٢٤- ٢٥﴾ ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماؤاكم النار وما لكم من ناصرين﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم إبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم



إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم وماواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزلوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم، قائلين: ﴿الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور﴾. ولهذا قال: ﴿ثم الله﴾ بعد الإعادة ﴿ينشئ النشأة الآخرة﴾ وهي النشأة التي لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العصاة والتنكيل بهم. ﴿وإليه تقلبون﴾ أي: ترجعون إلى الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكسبوا في هذه الدار، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي: يا هؤلاء الكاذبون، المتجرؤون على المعاصي،

قومه، فقالوا له: ﴿لا تخف ولا تحزن﴾ وأخبروه أنهم رسل الله. ﴿إننا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ * إننا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً * أي: عذاباً * من السماء بما كانوا يفسقون * فأمره أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَرًا من الأسمار، وعبرة من العبر، * ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون * أي: تركنا من ديار قوم لوط، آثاراً بيّنة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم، [فيستفون بها]، كما قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ * وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجعوا اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * أي: * ﴿و﴾ أرسلنا * إلى مدين * القبيلة المعروفة المشهورة * شعيباً * فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس الكاييل والموازن، والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله * فأصبحوا في دارهم جاثمين *.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ * وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين * وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أوردنا عليه حصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء

ناديكم المنكر فما كان جواب قومهم إلا أن قالوا اتنا بعداب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرتي على القوم المفسدين * إلى آخر القصة. تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وإن كان عاماً، فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطاً إلى قومهم، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قباتها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يراعوا ولم يذكروا. ﴿فما كان جواب قومهم إلا أن قالوا اتنا بعداب الله إن كنت من الصادقين﴾.

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و ﴿قال رب انصرتي على القوم المفسدين﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألتهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إن فيها لوطاً﴾ فقالوا له: ﴿لنتجيته وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من

يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومهم باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومهم كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذاباً عاماً.

وما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومهم، والله أعلم بالخال.

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام * وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب * فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي ^(١) محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وأمن المؤمنون، وصلح الصالحون. * وأتيناها أجره في الدنيا * من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد، الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبتة، والإنابة إليه.

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعمالهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿٢٨ - ٣٥﴾ * ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أتئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في

(١) في ب: بانه.

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وأثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وَرَيْنَ لَهُمِ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يتقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة] ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ الله، ولا فائتين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بَذَنبِهِ﴾ على قدره، ويعقوبة مناسبة له، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوا حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، ففرضوا غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم يفعونها.

﴿٤١-٤٣﴾ ﴿مِثْلَ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن

الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقبها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾. فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه وديناه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقولته تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل

شيء خلقه، وأتقن ما أمره:

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

﴿و﴾ لكن ﴿ما يعقلها﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إلا العالمون﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجلية، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى، ولا لغبر فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من

المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

﴿٤٥﴾ **﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾** يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبير معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: **﴿وأقم الصلاة﴾** من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرورها، وأثارها الجميلة، وهي **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشبهها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفظر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق^(١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: **﴿ولذكر الله أكبر﴾**.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج

الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿٤٦﴾ **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم [على وجه] يحصل به^(٢) الفتح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدر بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب، أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء

وقال رب زدني علماً ولقد جاءه من ربك بالبينات
فأنت تكتبهم إلى الأرض وما كنت أول مستقرين
مكة إذ أنزلنا نوره ونوره من أول ما أنزلنا عليه
وأنزلنا من السماء الحديد ونوره من حنقنا
والأرض ونوره من حنقنا وما كانت الله يظلمهم
ولكن كانوا أشبهوا بظلمهم ﴿٤٦﴾ مثل الذين
أنتكروا من ذوب الله أولئك الذين كذبوا عن
أفواههم يومئذ أرواهم الذين كذبوا عن
أفواههم ﴿٤٧﴾ إن الله يظلم ما يظلمون من
دونه ومن هو العبد المذنب ﴿٤٨﴾ وقال
الأنبياء الذين هم الكائن وما عرفهم إلا بالآيات
﴿٤٩﴾ قال الله السموات والأرض والخلق في ذلك
الآب للذين ﴿٥٠﴾ أنت ما أوحى إليك من الكتاب
وأنزلنا من السماء الحديد ونوره من حنقنا
والأرض ونوره من حنقنا وما كانت الله يظلمهم
ولكن كانوا أشبهوا بظلمهم ﴿٥١﴾

مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

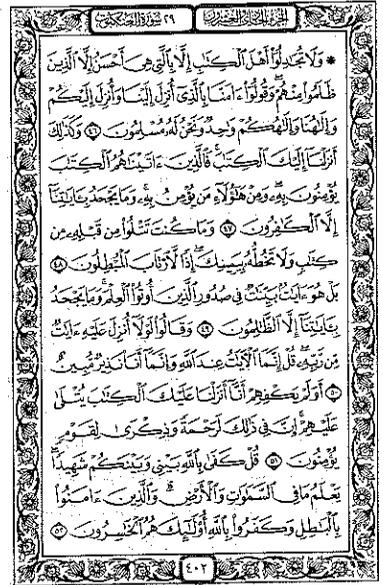
وأيضاً، فإن كل طريق تثبت به^(٣) نبوة أي: نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدر بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبوت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

وقوله: **﴿ونحن له مسلمون﴾** أي: منقادون مستسلمون لأمره. ومن آمن

(١) في ب: العباد.

(٢) في أ: بها.

(٣) وفي ب: بها.



به، واتخذها لها، وأمن بجمع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧-٤٨﴾ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يحمد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴿٤٩﴾ أي: ﴿ووكذلك أنزلنا إليك﴾ يا محمد، هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. ﴿يؤمنون به﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب.

﴿ومن هؤلاء﴾ الموجودين ﴿من يؤمن به﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهته. ﴿وما يحمد بآياتنا إلا الكافرون﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعدا له. وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

وإلا، فكل من له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل من له عقل، أولقى السمع وهو شهيد.

وبما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحمديت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحمد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي: ﴿بل﴾ هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾ لا خفيات، ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكامل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وما يحمد بآياتنا إلا الظالمون﴾ لأنه لا يحجدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذوبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات. فتعيين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء. ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي: فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد هو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

على مقصودهم، فأهانهم^(٧) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيآيائي فاعبدون﴾ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لبئسئتهم من الجنة غرباً تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ بي وصدقوا رسولي ﴿إن أرضي واسعة فيآيائي فاعبدون﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيفة الجامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وأتمت فيها خالدون.

فلتكفيكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾. ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم^(٥) فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟

يقول تعالى: ﴿ولولا أجل مسمى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، ﴿لجاءهم العذاب﴾ بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلما أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلاهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستبطلون^(٦) نزوله، فإنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم^(١)، آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنبأ السابقين^(٢)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل «لبيته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «لبيته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للمعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول [ثم مسيرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تضلح الأمور إلا به]^(٣).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٤)، فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به تعثرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصري ويسر لي الأمور،

(٧) في النسخين: فأهانهم، ولعلها كما أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السابقين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

ف ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ لله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأموره، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويم وعاجزهم، فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تنزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت بوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، وهو السميع العليم ﴿فلا يخفى عليه خافية﴾ ولا تمهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ الله ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، والزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السموات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن الله﴾ وحده، ولا عترفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أفروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأثم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً، وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا ينضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموقنون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، ويسر الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ أولم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفيالباطل يؤمنون وينعمة الله يكفرون ﴿ومن أظلم ممن افترى على

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ والذين جاهدوا فإنا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ يجبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التهديد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس الباطلة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها محبتها إلا على الندم والخسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الحيوان﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتنم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشرب، والمنكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما أتروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أئدادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى^(٢) من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة.

فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال

(١) في ب: حال.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه.

ولكن شرّكهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبتهم كفر ما أتياهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم.

فسوف يعلمون حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف واليأس العقوبة.

ثم امتنّ عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

﴿أنبيا الباطل يؤمنون﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة. **﴿وينعمة الله﴾** هم يكفرون، فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث أتروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ نسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، **﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾** على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم **﴿اليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم، الذين لا يخرجون منه.

﴿والذين جاهدوا فينا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، **﴿لنهديهم سبلنا﴾** أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون. **﴿وإن الله مع المحسنين﴾** بالعباد

والنصر والهداية. دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت

بحمد الله وعونه

تفسير سورة الروم وهي مكية

﴿١-٧﴾ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ غَلَبتْ الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبتهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينتصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون - لاشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

وَيَسْتَعِينُونَ وَالْعَذَابُ لَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ يَخْلُكُوا وَلَا بَأْسًا لِلَّهِ فِي هَذِهِ لَعْنَةُ رَجُلٍ كَذَبَ وَإِنْ يَسْتَعِينُوا وَالْعَذَابُ لَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ يَخْلُكُوا وَلَا بَأْسًا لِلَّهِ فِي هَذِهِ لَعْنَةُ رَجُلٍ كَذَبَ وَإِنْ يَسْتَعِينُوا وَالْعَذَابُ لَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ يَخْلُكُوا وَلَا بَأْسًا لِلَّهِ فِي هَذِهِ لَعْنَةُ رَجُلٍ كَذَبَ وَإِنْ يَسْتَعِينُوا وَالْعَذَابُ لَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ يَخْلُكُوا وَلَا بَأْسًا لِلَّهِ فِي هَذِهِ لَعْنَةُ رَجُلٍ كَذَبَ

فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غلباً لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم ^(١) أن الروم ستغلب الفرس.

﴿في بضع سنين﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم، ثم غلبة الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: **﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾** فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويظهرهم **﴿يفرح المؤمنون بنصر الله ينتصر من يشاء﴾** أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويعجز يومئذ المشركون.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلاق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء. **﴿الرحيم﴾** بعباده المؤمنين، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتصرهم، ما

(١) كذا في ب، وفي أ: بوعد.

ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بنى كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير^(٦)].

﴿٨- ١٠﴾ ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ * أولم يسيرا في الأرض فيظنوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليعلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ * ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله وللقائه ﴿في أنفسهم﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٧) بها، أن الذي أوجدهم من عدم، سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سيدي مهملين، لا يتهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا، وتجيء به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلّت على البعث والجزاء،

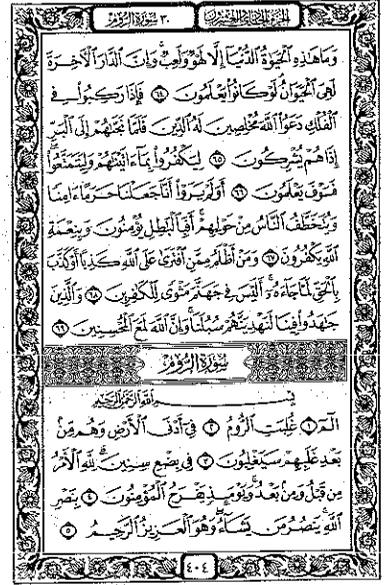
أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتحشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الأبواب.

وأظهروا من المعجائب الذرية^(٨) والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قدر أنهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٩). نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(١٠) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا^(١١) أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(١٢) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عيونها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

(٨) في ب: عدلت إلى: لعرفوا.

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

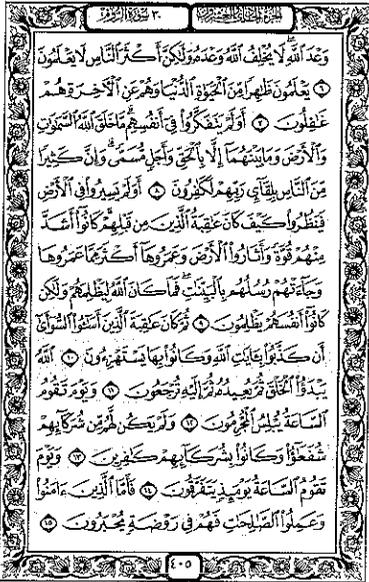
(٩) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون.

(١٠) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت

الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).



ويردون القيامة عياناً، يومئذ **﴿يبلس المجرمون﴾** أي: يأسون من كل خير. وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام، وهي الذنوب، من كفر وشرك ومعاصي، فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، آيسوا وأبلسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: **﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾** التي عبدوها مع الله **﴿شفعاء﴾** وكانوا بشر كائهم كافرين **﴿تبرأ المشركون﴾** ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: **﴿تبرأنا إليك ما كنا لبنا﴾** يعبدون **﴿والتعنوا﴾** وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افرقت أعمالهم في الدنيا.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ آمنوا بقلوبهم، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة **﴿فهم في روضة﴾** فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتيات، **﴿يجيرون﴾** أي: يسرون، ويتعمون بالماكل اللذيذة، والأشربة، والخور الحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المطربات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور، واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿١٦﴾ **﴿وأما الذين كفروا﴾** وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر **﴿وكذبوا بآياتنا﴾** التي جاءتهم بها رسلنا **﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾** فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الخميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين !!؟

﴿١٧-١٩﴾ **﴿فسبحان الله﴾** حين تسون وحين تصبحون **﴿وله الحمد﴾**

ولهذا نههم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تكن عنهم قوتهم، ولا نفعهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحق، وصحة ما جاؤوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أعماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متتابع. وهذا جزاء معجل، نموذج للجزاء الأخرى ومبتدأ له.

وكل هذه الأمم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسيبوا في هلاكها.

﴿ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن **﴿كذبوا﴾** بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون **﴿فهذا عقوبة لسؤئهم وذنوبهم﴾**.

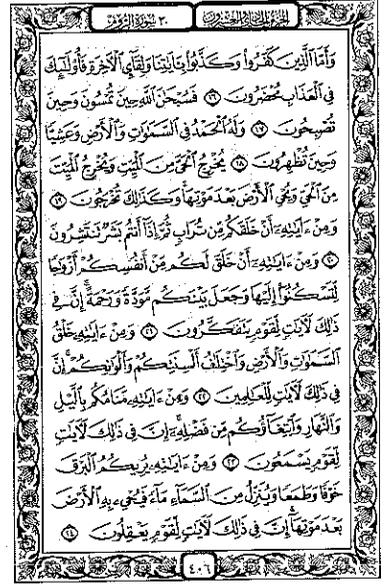
ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿١١-١٦﴾ **﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾** **﴿ويوم تقوم الساعة﴾** يبلس المجرمون **﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾** وكانوا بشركائهم كافرين **﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون﴾** فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يجيرون **﴿وأما الذين كفروا﴾** وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون **﴿يخبر تعالى أنه المنفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾** أي: يقوم الناس لرب العالمين،

في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون **﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾** هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يستحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك، الواجب منه، كالمشملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل، لأن هذه الأوقات التي اختارها الله [الأوقات المفروضة هي] أفضل من غيرها [فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها] ^(١) بل العباد، وإن لم تشمل على قول «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيهه الله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج



النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ يعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال

عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة إقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة] ^(١) وبكم في أقطار الأرض أو أرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبكم في أقطار الأرض ^(٢) هو الرب العبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتساكلكم وتساكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يُعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ والعالميون هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال إقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،

وكمال حكمته، لما فيها من الإلتقان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المرید، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصصات والمزايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحده، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقيين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿و﴾ [ومن] ^(٣) عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف، لثلايق كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتعاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك. إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به ^(٤) ويستجموا ^(٥)، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيه السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته، أن ينزل عليكم المطر، الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكم قبل نزوله مقدماته، من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمع فيه.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وأنه يجيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لقوم يعقلون﴾ أي: لهم عقول، تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السماوات والأرض كل له قانتون * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله مثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ومن آياته العظيمة، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتنا بأمره فلم تتزلزلا، ولم تستسط السماء على الأرض، فقدرت العظيمة، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت^(١) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله مثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم. فأمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته، أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته، أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، لقبح الشرك وتعجبه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى. هذا، ولستم الذين خلقتهم وهم ورزقتهم وهم، وهم أيضاً مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلته، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه] (٢) من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذ باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العبادة شيء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلها ﴿لقوم يعقلون﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبيّنت له البيّنات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعبد ويتوكل عليه في أمره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه وظهر برهانه؟ [لقد] (٣) أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلماذا قال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده، والفطر يردّه، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه.

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهادية من أضل الله، لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه.

﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتتقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأتم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

(٣) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(١) في السخين: كان.

وباطل، فيكونون مشاهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلقى، ويُنسى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنيابة إليه - وكان الأمور بها، هي الإنيابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنيابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣ - ٣٥﴾ **﴿وإذا مسَّ الناس ضرر دعوا وهم منيبين إليه ثم إذا أذاهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾** ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون؟

﴿وإذا مسَّ الناس ضرر﴾ مرض، أو خوف من هلاك، ونحوه. ﴿دعوا وهم منيبين إليه﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثم إذا أذاهم منه رحمة﴾ شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم، ﴿إذا فريق منهم﴾ يقضون تلك الإنيابة

الناس لا يعلمون﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿منيبين إليه واتقوه﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنيابة إنيابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل (٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿واتقوه﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنيابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فهذا إنيابتها على التقوى.

ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فهذا حثها على الإنيابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ لكون الشرك مضاداً للإنيابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومناوذة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال:

﴿فأقم وجهك﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى (١) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنيابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويرتّب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حنيئاً﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا أحد يبذل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذلك﴾ الذي أمرنا به ﴿الدين القيم﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيئاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ولكن أكثر

(٢) في ب: عمل.

(١) كذا في ب، وفي أ: على.

التي صدرت منهم، ويشركون به مَنْ لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما أتاهم الله ومَنْ به عليهم، حيث أنجاهم، وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلاً قابلو هذه النعمة الجليلة، بالشكر والندوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟

﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أي: حجة ظاهرة **﴿فهو﴾** أي: ذلك السلطان، **﴿يتكلم بما كانوا به يشركون﴾** ويقول لهم: اثبتوا على شرككم، واستمروا على شرككم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية، والكتب السماوية، والزسل الكرام، وسادات الأنام، قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طريقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين مَنْ ارتكبه؟

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

﴿٣٦- ٣٧﴾ **﴿وإذا أدقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبههم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾** * أولم يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * بغير تعالي عن طبيعة أكثر الناس، في حالي الرخاء والشدة، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر ونحو ذلك، فرحوا بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله.

﴿وإن تصبههم سيئة﴾ أي: حال تسوؤهم، وذلك **﴿بما قدمت أيديهم﴾** من المعاصي. **﴿إذا هم يقنطون﴾** يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض، ونحوه. وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

﴿أولم يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته

وضيقه من تقديره، ضائع ليس له محل. فلا تنتظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسبها، ولهذا قال: **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾** فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك، حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿٣٨- ٣٩﴾ **﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للمدين يريدون وجهه الله وأولئك هم المفلحون﴾** * وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجهه الله فأولئك هم المضعفون * أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع، أو حضض عليه، من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر، والسلام، والإكرام، والعمو عن زلته، والمسامحة عن هفوته. وكذلك [آت] المسكين، الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تزيل به حاجته، وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وابن السبيل﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به [في] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة، أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل **﴿خير للمدين يريدون﴾** بذلك العمل **﴿وجه الله﴾** أي: خير غزير، وثواب كثير، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي، الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.

فإن لم يرد به وجه الله، لم يكن خيراً للمُعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمُعطي كما قال تعالى: **﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف**

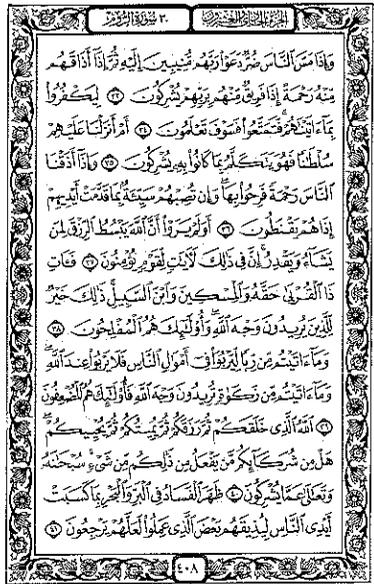
ومن الذين آمنوا والذين هادوا والذين نسطروا والذين آمنوا من قبلهم والذين آمنوا من بعدهم والذين آمنوا من قبلهم

أو إصلاح بين الناس. مفهومها، أن هذه الثببات خير لنفعها المتعدي، ولكن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً.

وقوله: **﴿وأولئك﴾** الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله **﴿هم المفلحون﴾** الفائزون بثواب الله، الناجون من عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يقصده به وجهه، [من النفقات] ذكر العمل الذي يقصده به مقصد دنيوي، فقال: **﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس﴾** أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وفصدكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدوم الشرط، الذي هو الإخلاص. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه، والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله.

﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي: مال يظهركم من الأخلاق الرذيلة، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطى. **﴿تريدون﴾** بذلك **﴿وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾** أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو نفعاتهم عند الله، ويربها الله لهم، حتى تكون شيئا كثيراً.



أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة، المفسدة بطبيعتها.

هذه المذكورة **﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾** أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا **﴿لعلهم يرجعون﴾** عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٢﴾ **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين﴾** والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كان أكثرهم مشركين﴾ تجردون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم لعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعلهم، يحذى بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ **﴿فأنم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون﴾** من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين **﴿أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع بيدك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفض أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك﴾** من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله **﴿وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون**

أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال. **﴿يومئذ يصدعون﴾** أي: يتفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُزوا أعمالهم.

﴿٤٤﴾ **﴿من كفر﴾** منهم **﴿فعليه كفره﴾** ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، **﴿ومن عمل صالحاً﴾** من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، **﴿فلأنفسهم﴾** لا لغيرهم **﴿يمهدون﴾** أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلماذا قال: **﴿إنه لا يحب الكافرين﴾**.

﴿٤٦﴾ **﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾** أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، **﴿أن يرسل الرياح﴾** أمام المطر **﴿مبشرات﴾** بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وليذيقكم من رحمته﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والحالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزان الرحمة.

﴿ولتجري الفلك﴾ في البحر

ودل قوله: **﴿وما اتيمم من زكاة﴾** أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق، أو مع ذنب عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: **﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾** فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به الموتى.

﴿٤٠﴾ **﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** يجبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون، من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟! فسبحانه وتعالى، وتقدس وتزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم^(١) عليهم.

﴿٤١﴾ **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**

(١) في ب: وباله. (٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

﴿بأمره﴾ القدري ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.
 ﴿ولعلمكم تشكرون﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.
 وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته عنتاً، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ في الأمم السابقين ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسالهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، ويطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيبيهم. ﴿فانقمنا من الذين أجرموا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل. ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدهناهم به، فلا بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم، حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لميلسين ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يجمي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ يجبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته،

أنه ﴿يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾ أي: يمدده ويوسعه ﴿كيف يشاء﴾ أي: على أي: حالة أرادها من ذلك، ثم يجعله ﴿كسفاً﴾ أي: سحاباً ثخيناً، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فتزرى الودق يخرج من خلاله﴾ أي: السحاب، نقطاً صغاراً متفرقة، لا تنزل جميعاً، تفسد ما أنت عليه.
 ﴿فإذا أصاب به﴾ بذلك المطر ﴿من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فلهذا قال: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لميلسين﴾ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم [عندهم]^(١)، وفرح واستبشار.
 ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يجمي الأرض بعد موتها﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

﴿إن ذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ قدرته تعالى، لا يتعاضى عليها شيء، وإن تعاضى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحوارت فيه عقولهم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ يجبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى زروعهم، ريحاً مضررة متلفة أو منقصة، ﴿فرأوه مصفراً﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾ فينسبون النعم الماضية، ويزادرون إلى الكفر. وهؤلاء، لا ينفع فيهم وعظ ولا

(٢) في ب: فيهم.

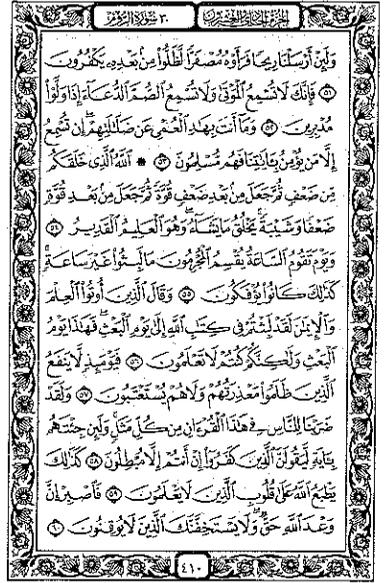
(١) زيادة من: ب.

﴿فانظر إلى آياتنا﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾
 ﴿فانظر إلى آياتنا﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾
 ﴿فانظر إلى آياتنا﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾
 ﴿فانظر إلى آياتنا﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾

زجر ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ وبالأولى ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عمامهم فليس منهم^(٢) قابلة له.
 ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المتقادون لأوامرنا، المسلمون لنا، لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواظب، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿٥٤﴾ ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ يجبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام، إلى أن وُلد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ



اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.

ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا، كذبوا الحق الذي جاءهم به المرسلون، وفي الآخرة، أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وقال الذين أتوا العلم والإيمان﴾

أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إثبات الحق، وإذا كانوا عالين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم.

فهذا قالوا الحق: ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾ أي: عمرتم عمراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فلذلك أنكروا في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وأتاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يزدون ولا يعودون لما شؤا عنه،

لم يُمكنوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿٥٨ - ٦٠﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جهتهم مبطلون﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ أي: ﴿ولقد ضربنا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴿تتضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال، التي يضرها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة. وفي الإخبار بما سيكون، وجلاء حقيقته، [حتى] كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون، إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ولئن جهتهم بأية﴾ أي: أي: آية، تدل على صحة ما جئت به ﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطبع الله على قلوبهم، وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فلا يدخلها خير، ولا يدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

﴿فاصبر﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً، فلا يصدك ذلك.

﴿إن وعد الله حق﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من

ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشية والهرم.

﴿يخلق ما يشاء﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته، أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له، لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطنى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ وقال الذين أتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة يقسم المجرمون ﴿بالله أنهم﴾ ما لبثوا في الدنيا إلا ﴿ساعة﴾ وذلك

المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم ^(١) منك على بال وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأمر والنواهي، والنفس تساعدكم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة ^(٢)، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل] ^(٣) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.

تفسير سورة لقمان وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار ^(٤) السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء أولم يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

عليه ^(٥).

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر [حكمته] ^(٦) فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

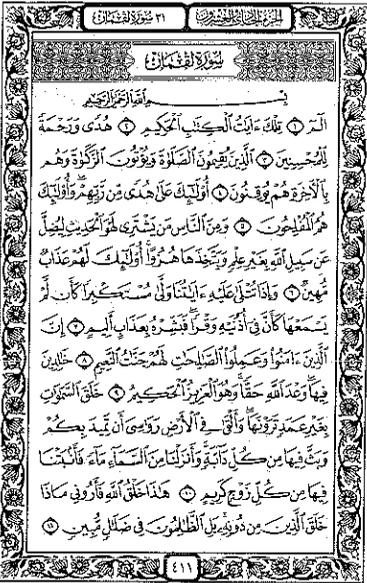
ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعادل به النفوس الخيرة وتحكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصاص، والأحكام، ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبيراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل لبه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزءاً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لثيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هدى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، ﴿ورحمة﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والشواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة



على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر بحجة الله على محبته للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

ف ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيدته التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يريهم بالتعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلوكم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

﴿٦٦-٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري

(٥) زيادة من: ب.

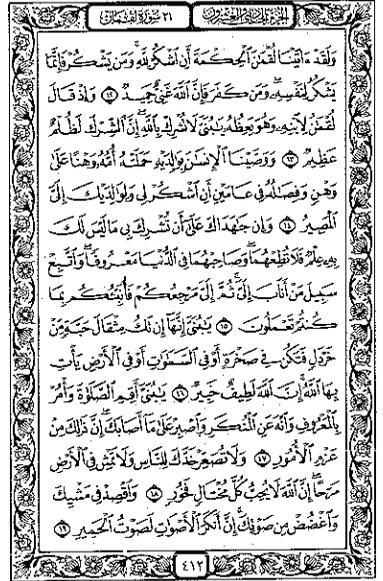
(٦) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في أ: الأحكام والتصويب من: ب.

(١) كذا في ب وفي أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمراقبة.



عن الحديث النافع، والعمل النافع،
والحق المبين، والصراف المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدح في
الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً
ويسخر بها ويمن جاء بها، فإذا جمع بين
مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في
الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من
لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه
من القول الذي لا يميزه ذلك الضال
ولا يعرف حقيقته.

﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ بما
ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا
[آيات الله] ^(١) وكذبوا الحق الواضح،
ولهذا قال: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾
ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿ولي مستكبراً﴾
أي: أدبر إدار مستكبر عنها، راد لها،
ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر
عنها ﴿كان لم يسمعها﴾ بل ﴿كان في
أذنيه وقرأ﴾ أي: ضمماً لا تصل إليه
الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.

﴿فبشره﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن
والغم، وفي بشرته السوء والظلمة
والغبرة: ﴿بعذاب أليم﴾ مؤلم لقلبه
ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدرى
بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر،
فلا نعمت البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إن
الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ جمعوا
بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر
بالإسلام، والعمل الصالح.

﴿لهم جنات النعيم﴾ بشارة لهم بما
قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه.

﴿خالدين فيها﴾ أي: في جنات
النعيم، نعيم القلب والروح والبدن.
﴿وعد الله حقاً﴾ لا يمكن أن
يخلف ولا يغير ولا يتبدل. ﴿وهو
العزیز الحكيم﴾ كامل العزة، كامل
الحكمة، من عزته وحكمته، و﴿قوٌّ من
وَقوٌّ﴾ وخذل من خذل، بحسب ما
اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿خلق السماوات
بغير عمد ترونها وألقى في الأرض
رواسي أن تميد بكم ويث فيها من كل

دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها
من كل زوج كريم﴾ هذا خلق الله
فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل
الظالمون في ضلال مبين﴾ يتلو تعالى
على عباده آثاراً من آثار قدرته، وبدائع
من بدائع حكمته، ونعماً من آثار
رحمته، فقال: ﴿خلق السماوات﴾
السيح، على عظمها، وسعتها،
وكتافتها، وارتفاعها الهائل. ﴿بغير
عمد ترونها﴾ أي: ليس لها عمد، ولو
كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت
واستسكنت، بقدرة الله تعالى.

﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أي:
جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها
وأبحاثها، لئلا ﴿تميد بكم﴾ فلولا
الجبال التراسيات لمادت الأرض، ولما
استقرت بساكنها.

﴿ويث فيها من كل دابة﴾ أي: نشر
في الأرض الواسعة من جميع أصناف
الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم،
ولصالحهم ومنافعهم: ولما بثها في
الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من
رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء
مباركاً، ﴿فأنبثنا فيها من كل زوج
كريم﴾ المنظر، نافع مبارك، فرتعت فيه
الدواب المنبثثة، وسكن إليه كل
حيوان.

﴿هذا﴾ أي: خلق العالم العلوي
والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق
أرزاق الخلق إليهم. ﴿خلق الله﴾
وحده لا شريك له، كل مقر بذلك
حتى أئتم يا معشر المشركين.

﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾
أي: الذين جعلتموهم له شركاء،
تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا،
أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق
كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك
فأرونيه، ليصح ما ادعيتهم فيهم من
استحقاق العبادة.

ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن
يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع
المذكورات، قد أقروا أنها خلق الله
وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها،

لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير
علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب
مهين﴾ وإذا تتلى عليه آياتنا ولي
مستكبراً كان لم يسمعها كان في أذنيه
وقرأ فيبشره بعذاب أليم﴾ إن الذين
آمَنوا وعملوا الصالحات لهم جنات
النعيم﴾ خالدون فيها وعد الله حقاً
وهو العزيز الحكيم﴾

أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محروم
مخدول ﴿يشترى﴾ أي: يختار ويرغب
رغبة من يبذل الثمن في الشيء. ﴿لهو
الحديث﴾ أي: الأحاديث الملهمية
للقلوب، الصادة لها عن أجل
مطلوب. فدخل في هذا، كل كلام
محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من
الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق
والعصيان، ومن أقوال الرادين على
الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به
الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب،
وشتيم، وسب، ومن غناء ومزامير
شيطان، ومن الماجريات الملهمية، التي
لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشتري
لهو الحديث عن هدي الحديث
﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾ أي:
بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن
الإضلال ناشئ عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث، صده

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿يَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جَلِي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] ^(١) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن مَنْ كفر فلم يشكر الله، عاد وبان ذلك عليه. والله غني [عنه] ^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه على مَنْ خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه أتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، ويئّن له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ لَظَلْمٍ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظلم وأشع من سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً يمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى مَنْ لم يُنعم بممثل ذرة [من النعم] ^(٣) بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف سوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!!

وهل أعظم ظلماً من خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب] ^(٤) جعلها عبادة لمن لا يسرى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَوَصِيَّتَا الْإِنْسَانِ﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيته ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما ﴿وَأَجْلَالَهُمَا﴾ ^(٥) والقيام بمؤوتتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيته بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع إليها الإنسان إلى مَنْ وصاك وكلفك بهذه

الحقوق، فيسألك: هل قيمت بها، فيشيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغيير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فَصَالَهُ فِي غَمِّينَ﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعقهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكتهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ الطائع والمعاصي والنيب، وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِنْ تَكْ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار، والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قُلْ أَوْ كَثُرْ.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهي.

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عِزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تجلّه وتعيس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي: بطراً، فخرًا بالنعم، ناسياً للنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ كُلَّ مِخْتَالٍ﴾^(١) في نفسه وهيئته وتعاضمه

﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا تمشي البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَإِغْضِضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أبدأ مع الناس ومع الله، ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أفضعها وأبشعها ﴿لِلصَّوْتِ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت حسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتزكّه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتزرت بأن محل برهما وامتنال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وحؤفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿فَحَقِّقْ بَيْنَ أَوْصِيَٰى هَذِهِ الْوَصَايَا، أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِالْحِكْمَةِ، مشهوراً بها. ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عبادته، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿يَمْتَنُ تَعَالَى عَلَىٰ عِبَادِهِ نِعْمَهُ، ويدعوهم إلى شكرها ورويتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لرفع العباد.

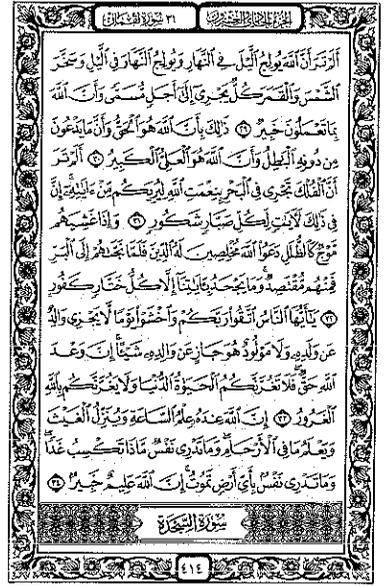
﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرورع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عمّم وعمرمكم نعمة الظاهرة والباطنة التي تعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة المنعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم، ﴿مَنْ النَّاسُ مَسَّنَ﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، ووجد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين^(٢) وإنما جداله في الله مبني

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.



﴿وَالْبَحْرُ يَمده من بعده سبعة أبحر﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقسام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ **﴿كلمات الله﴾** تعالى، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله

وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعِثْمِكُمْ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لحظة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه جميع السموعات، ويصره لجميع المصبرات، فقال:

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿وهذا فيه أيضاً، انفراداً بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.﴾

وتسخيره للشمس والقمر، يجران بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾.

وأن أعمال النسيين والصادقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأغناهم في دنياهم وأخرامهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتحير فيه الأفتلدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ يكتب بها

(١) في ب: مدت.

لوطفه وإحسانه، ﴿ليربكم من آياته﴾ فيها الانتفاع والاعتبار^(١).

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلم فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [الله]^(٢) والعبادة: ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدية، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يبيحذ بآياتنا إلا كل ختار﴾^(٣) أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يف بذلك، ﴿كفور﴾ يتعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

﴿٣٣﴾ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجه، ويستلقتهم خشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهيم إلا نفسه، ف ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويتصفون.

و ﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مستقى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانها، وتعطل سلطانها، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وأن الله بما تعملون﴾ من خير وشر ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالشواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و ﴿ذلك﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيدته حق، وعبادته هي الحق.

﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أبطل وأبطل.

﴿وأن الله هو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلو على الخلق فقهرهم، ﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

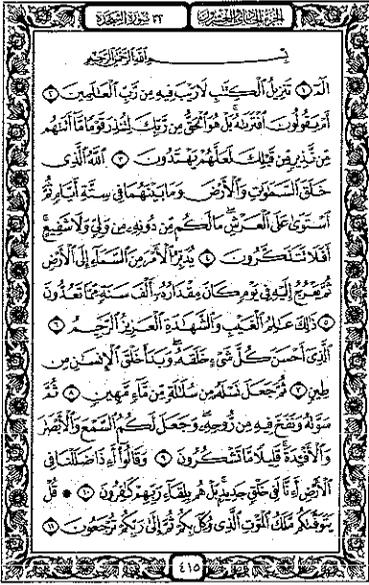
﴿٣١-٣٢﴾ ﴿لم تر أن الفلك تجزي في البحر بنعمة الله ليربكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ وإذا غشيه موج كالظلمل دعوا الله خالصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يبيحذ بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك بأمره القدري

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: كالظلم.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وزاد في أ: قوله تعالى: ﴿كفور﴾.



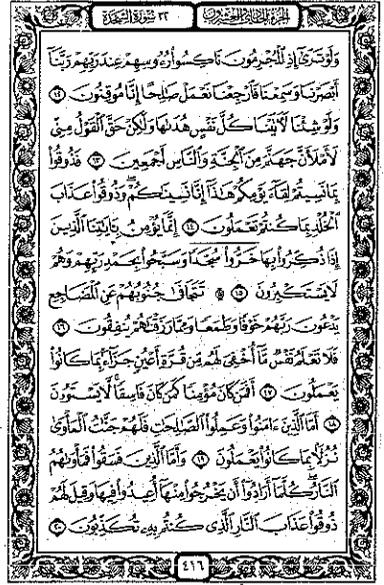
فلقت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إن وعد الله حق﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يتجعد الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان



بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟
فيقضي الله ما يشاء.

﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾
من كسب دينها ودنياها، ﴿وما تدري
نفس بأي: أرض تموت﴾ بل الله تعالى
هو المختص بعلم ذلك جميعه.

ولما خصص هذه الأشياء، عمم
علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إن الله
عليم خبير﴾ محيط بالظواهر والبواطن،
والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن
حكمته التامة، أن أخفى علم هذه
الخمسة عن العباد، لأن في ذلك من
المصالح ما لا يخفى على من تدبر
ذلك.

تم تفسير سورة لقمان
بفضل الله وعونه، والحمد لله

تفسير سورة السجدة
وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ آمَنَ﴾ تنزيل الكتاب لا ريب
فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه
بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً
ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم
يهتدون ﴿يخبر تعالى أن هذا الكتاب
الكريم، أنه تنزيل نزل من رب
العالمين، الذي رباهم بنعمته.

ومن أعظم ما رباهم به، هذا
الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح
أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه
لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء،
ومع ذلك قال المكذبون للرسول
الظالمون في ذلك: افتراه محمد،
واخترقه من عند نفسه، وهذا من أكبر
الجرأة على إنكار كلام الله، ورمي
محمد ﷺ، بأعظم الكذب، وقدرة
الخلق على كلام مثل كلام الخالق.

وكل واحد من هذه من الأمور
العظام، قال الله - راداً على من قال:
افتراه: - ﴿بل هو الحق﴾ الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ﴿من

ربك﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لتنذر قوماً ما
أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي: هم في
حال ضرورة وفاقه لإرسال الرسول
وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم
في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة
ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب
عليك ﴿لعلهم يهتدون﴾ من ضلالهم،
فيعرفون الحق فيؤثرونه.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله، كلها
مناقضة لتكذيبهم له، وإنما تقتضي
منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو
كونه ﴿من رب العالمين﴾ وأنه ﴿الحق﴾
والحق مقبول على كل حال، وأنه
﴿لا ريب فيه﴾ بوجه من الوجوه،
فليس فيه ما يوجب الريبة، لا بخبر
لا يطابق للواقع^(٢)، ولا بخفاء
واشتباه معانيه، وأهم في ضرورة
وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية
لكل خير وإحسان.

﴿٤ - ٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ
دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾
يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم
يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة
عما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة
المعزى الرحيم * الذي أحسن كل
شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من
طين * ثم جعل نسله من سلاله من ماء
مهيين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه
وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
قليلاً ما تشكرون ﴿يخبر تعالى عن
كمال قدرته بخلق السماوات
والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أولها
يوم الأحد وآخرها الجمعة، مع قدرته
على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق
حكيم.

﴿ثم استوى على العرش﴾ الذي هو
سقف المخلوقات، استواء يليق
بجلاله. ﴿ما لكم من دونه من ولي﴾
يتولاكم في أموركم فينتفعكم
﴿ولا شفيع﴾ يشفع لكم إن توجه
عليكم العقاب.

الموسوس المسؤل، فنهى تعالى عباده أن
تغرم الدنيا أو يغرمهم بالله الغرور
﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان
إلا غروراً﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيُعَلِّمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا
تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط
علمه بالغيب والشهادة، والظواهر
والبواطن، وقد يطلع الله عباده على
كثير من الأمور الغيبية، وهذه
[الأمور]^(١) الخمسة، من الأمور التي
طوى علمها عن جميع المخلوقات،
فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك
مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال:
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: يعلم
متى مرساها، كما قال تعالى:
﴿يسألونك عن الساعة إياناً مرساها قل
إنما علمها عند ربِّي لا يجليها لوقتها إلا
هو ثقلت في السماوات والأرض
لا تأتيكم إلا بغتة﴾ الآية.

﴿وينزل الغيث﴾ أي: هو المنفرد
بإنزاله، وعلم وقت نزوله.

﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فهو الذي
أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو
ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل

(٢) في ب: بخبر غير مطابق للواقع.

(١) زيادة من: ب.

﴿أفلا تتذكرون﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليتكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿يدبر الأمر﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير ﴿من السماء إلى الأرض﴾ فيسعدُها ويُسقي، ويُغيي ويُفقر، ويُعزِّز ويُذل، ويكرم ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويُنزل الأرزاق.

﴿ثم يعرج إليه﴾ أي: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ وهو يعرج إليه ويصله في لحظة.

﴿ذلك﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة، ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ فيسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته، أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقها خلقاً يليق به ويوافقه، فهذا عام. ثم خص الآدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أبي البشر.

﴿ثم جعل نسله﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿من ماء مهين﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

﴿ثم سواه﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد إذ

كان جاداً.

﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ الذي خلقكم وصوركم.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿وقالوا إذا ضللتنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴿أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إذا ضللتنا في الأرض﴾ أي: بلبئنا وتمزقتنا، وتفرقتنا في المواضع التي لا نعلم.

﴿إنا لفي خلق جديد﴾ أي: تبعوثون بعثاً جديداً. بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم.

وكلامهم هذا، ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بلقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ فكلامهم علم^(١) مصدره وغايته، وإلا، فلو كان قصدهم بيان الحق، لبيّن لهم من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهداً للبعث بمنزلة الشمس للبصر.

ويكفيهم أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل الله عليها المطر، فتحيها بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان. ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿ولو تولى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ولو شئت لأتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملاّن جهنم من الجنة والناس



أجمعين ﴿فلذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم ﴿بين يديه﴾^(٢)، فقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناه عياناً، فصار عين يقين.

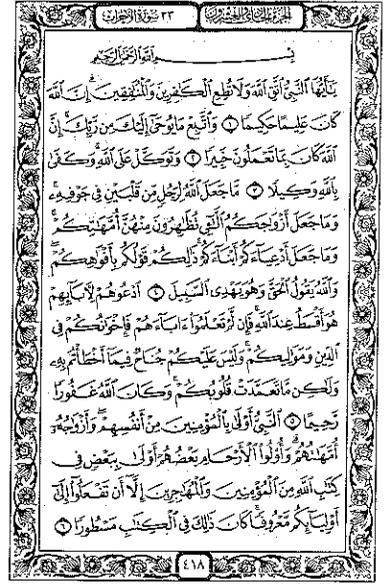
﴿فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا^(٣) نكذب به، أي: لرأيت أمراً قطعياً، وحالاً مزعجة، وأقواماً خاسرين، وسؤلاً غير محاب، لأنه قد مضى وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلماذا قال: ﴿ولو شئت لأتينا كل نفس هداها﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأتي أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: وجب، وثبت

(١) كذا في: ب، وفي أ: ظلم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.



ثبوتاً لا تغير فيه .

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهذا الوعد لا يبد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي .

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي : يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستدركوا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي : بما عرضتم عنه وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه .

﴿إننا نسيئناكم﴾ أي : تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيئتم نسيئتم، ﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾ أي : العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها . ﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي .

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم

لا يستكبرون * تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال : ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ [أي : ^(١) إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم : ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوا فقبلوها، وانقادوا، و ﴿خروا سجداً﴾ أي : خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته .

﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ لا يقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم .

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي : ترتفع جنوبهم، وتنزج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الذم عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومتاجاة الله تعالى .

ولهذا قال : ﴿يدعون ربهم﴾ أي : في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهمنا . ﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي : جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه .

﴿وما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ينفقون﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء

وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم، فقال : ﴿فلا تعلم نفس﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي . أي : فلا يعلم أحد ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله : ﴿أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر﴾ .

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جزأهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال : ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستؤمن * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ بينه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال : ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ قد عمّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مسأخطة الله، التي ^(٢) يضر وجودها بالإيمان .

﴿كمن كان فاسقاً﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه أواع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بسفقه عن طاعة الله .

أفيستوي هذان الشخصان؟ ﴿لا يستوي﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة .

﴿أما الذين آمنوا وعملوا

(٢) كذا في ب وفي أ: الذي .

(١) زيادة من : ب .

قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل. ﴿وجعلناه﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه وإثباته في أم الكتاب لدينا لعل حكيم.

﴿وجعلنا منهم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي: علماء بالشريعة وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماعها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة فيما

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائها ظاهرة، فإنه قال: ﴿ولنديقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن تم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذابة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلمهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾ أي: لا أحد أظلم وأزهد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أرسلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والالتقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقوبة، ولهذا قال: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾.

﴿٢٣-٢٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون * إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

الصالحات﴾ من فروض ونوافل ﴿فلهم جنات المأوى﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نزلاً﴾ لهم، أي: ضيافة وقرى ﴿بما كانوا يعملون﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بسالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُفتَر عنهم العقاب ساعة.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج ليلوغ العذاب منهم كل مبلغ، رداً إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

﴿٢١﴾ ﴿ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

أي: ولنديقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ ثم

(١) في النسختين: وفروعهم، ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

كانوا فيه يختلفون ﴿ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عدها مما خالفه باطل .

﴿ ٢٦ - ٢٧ ﴾ ﴿ أولم يبد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴿ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدمهم إلى الصواب. ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ الذين سلخوا مسلكتهم، ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط .

﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، ويظان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فَعَل بهم كما فَعَل بأشياعه من قبل . وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿ أفلا يسمعون ﴾ آيات الله فيعونها فينتفون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك .

﴿ أولم يروا ﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿ أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. ﴿ فنخرج به زرعاً ﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿ تأكل منه أنعامهم ﴾ وهو نبات البهائم، ﴿ وأنفسهم ﴾ وهو طعام الآدميين .

﴿ أفلا يبصرون ﴾ تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير .

﴿ ٢٨ - ٣٠ ﴾ ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة .

﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿ إن كنتم ﴾ أيها الرسل ﴿ صادقين ﴾ في دعواكم .

﴿ قل يوم الفتح ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إيمانكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب . ﴿ وانتظر ﴾ الأمر الذي يجلب بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء منتظرون ﴿ بك رب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى .

تم تفسير سورة السجدة بحول الله
ومنه فله تعالى كمال الحمد
والثناء والمجد

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ واتبع ما يوحى إليك من

ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عبادته وحيه، وابدل النصيحة للخلق .

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده .

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب .

﴿ و ﴾ لكن ﴿ اتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يجازيك بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر .

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماداً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان .

﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد،

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم .

الإلهية .

﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته : «أنت علي كظهر أمي أو كأمي» فما جعلهن الله ﴿أمهاتكم﴾ أمك من ولدتك ، وصارت أعظم الناس عليك حرمة وتحريماً ، وزوجتك أحل النساء لك ، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟

هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالى : ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾ .

﴿وما جعل أديعاءكم أبناءكم﴾ والأديعاء ، الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له ، أو يدعى إليه بسبب تبنيه إياه ، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام .

فأراد الله تعالى أن ينظفه ويزيله ، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه ، وأنه باطل وكذب ، وكل باطل وكذب ، لا يوجد في شرع الله ، ولا يتصف به عباده الله .

يقول تعالى : فانه لم يجعل الأديعاء الذين تدعونهم ، أو يدعون إليكم ، أبناءكم ، فإن أبناءكم في الحقيقة ، من ولدتوهم وكانوا منكم ، وأما هؤلاء الأديعاء من غيركم ، فلا جعل الله هذا كهذا .

﴿ذلك﴾ القول الذي تقولون في الدعي : إنه ابن فلان الذي ادعاه ، أو والده فلان ﴿قولكم بأفواهكم﴾ أي : قول لا حقيقة له ولا معنى له .

﴿والله يقول الحق﴾ أي : اليقين والصدق ، فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه ، فقوله حق ، وشرعه حق ، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه ، وليست من هدايته ، لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة ، والطريق الصادقة .

خصوصاً خواص عبيده ، الذين لم يزل يربيههم ببره ، ويدبر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة ، خصوصاً وقد أمره باللقاء أموره إليه ووعدته ، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر ، وصعب يسهل ، وخطوب تهون ، وكروب تزول ، وأحوال وحوائج تقضى ، ويركات تنزل ، ونقم تدفع ، وشرور ترفع .

وهناك ترى العبد الضعيف ، الذي فوض أمره لسيده ، قد قام بأمر لا يقوم بها أمة من الناس ، وقد سهل الله [عليه] ^(١) ما كان يصعب على فحول الرجال ، وبالله المستعان .

﴿٤ - ٥﴾ ﴿ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ * ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعاتب تعالى [عباده] ^(٢) عن التكلم بما ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً لا حقيقة له من الأقوال ، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا ، فإن ذلك القول منكم كذب وزور ، يترتب عليه منكرات من الشرع . وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء ، والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى .

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها ، وشدة الحاجة إلى بيانها ، فقال : ﴿ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه﴾ هذا لا يوجد ، فإياكم أن تقولوا عن أحد : إن له قلوبين في جوفه ، فتكونوا كاذبين على الخلقة

(١) زيادة من : ب .

(٢) زيادة من : ب .

(٣) زيادة من : ب .

(٤) زيادة من : ب .

وَأَذَانَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَنِ السَّمْعِ وَأَكْبَهُمْ كِبَارَهُمْ وَرَنَّهُمْ لِقَابِ اللَّهِ وَأَلْبَسَهُمْ جَنَاحَ الْمَلَائِكَةِ وَأَنزَلَ مِنْهُمْ مَتَرًا مَّاءً عَذْبًا فَاَسْتَقْبَلُ بِهِ أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَقَدْ أَمَرْنَا النَّبِيَّ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٤١١﴾

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته ، فمشيئته عامة ، لكل ما وجد من خير وشر .

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى ، المتضمنة للقول الباطل ، فقال : ﴿ادعوهم﴾ أي : الأديعاء ﴿لأبائهم﴾ الذين ولدوهم ﴿هو أقسط عند الله﴾ أي : أعدل وأقوم وأهدى .

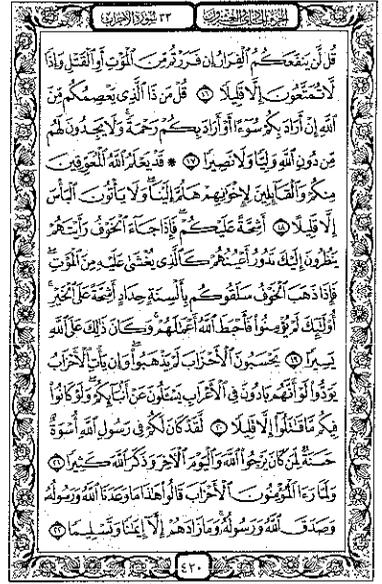
﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾ الحقيقين ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أي : إخوتكم في دين الله ومواليكم في ذلك ، فادعوههم بالأخوة الإيمانية الصادقة ، والموالاة على ذلك ، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها .

وأما دعاؤهم لأبائهم ، فإن علموا ، دعوا إليهم ، وإن لم يعلموا ، اقتصر على ما يعلم منهم ، وهو أخوة [الدين] ^(٣) والموالاة ، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم ، لأن المحذور لا يزول بذلك .

﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه ، فهذا غير مؤاخذ به ، أو علم أبوه ظاهراً ، [فدعوتوه إليه] ^(٤) وهو في الباطن غير أبيه ، فليس ^(٥) عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ ،

(٥) في (أ) وقعت هنا زيادة حرف (في)

ولا محل له .



﴿ولكن﴾ يواخذكم بما ﴿تعمدت قلوبكم﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم وديناكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦﴾ ﴿النسي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تعملوا إلى أولياتكم معروفًا﴾ كان ذلك في الكتاب مسطوراً يخبر تعالى المؤمنين خيراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصيح والشفقة والرفقة، ما كان به أرحم الخلق وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق مئة عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسيه.

فليدلك، وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

(١) في: ب: كما يصرح بذلك.

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقوله أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبة على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه. وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يري الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: «زيد بن محمد» حتى أنزل الله ﴿ما كان محمد أباً لأحد من رجالكم﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحملن لأحد من بعده، كما الله صرح^(١) بذلك: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾.

﴿وأولوا الأرحام﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [أي: في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، فهم أولى من الخلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحويل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة

(٢) زيادة من: ب.

على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إلا أن تفعلوا إلى أولياتكم معروفاً﴾ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً تعطوهم معروفًا منكم، ﴿كان﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿٧-٨﴾ ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿٩-١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحشهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقبوا

والحال أنهم قد **«عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً»** سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا برهم؟

﴿١٦﴾ «قل لهم، لانتم على فرارهم، وغبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً لمن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل» فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيته.

﴿وإذا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا فإنكم **«لا تمتعون إلا قليلاً»** متاعاً لا ينوي فراركم، وترككم أمر الله، وتقويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدى.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تخفي عن العبد شيئاً إذا أراد الله بسوءه، فقال: **﴿قل من ذا الذي يعصمكم﴾** أي: يمتنعكم **«من الله إن أراد بكم سوءاً»** أي: شرّاً، **﴿أو أراد بكم رحمة﴾** فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع **﴿ولا نصيراً﴾** أي: ينصرهم، يدفع عنهم المضار.

﴿فَلْيَمْتَنُوا طاعة المنفرد بالأمر كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قديره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ولي ولا ناصر.

ثم توعدت تعالى المخذلين المعوقين، وتهلدهم فقال: **﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾** عن الخروج لمن **﴿لم﴾** **﴿يخرجوا﴾** **﴿والقاتلين لإخوانهم﴾** الذين خرجوا:

شركهم، فقالت هذه الطائفة: **﴿يا أهل يثرب﴾** يريدون: **﴿يا أهل المدينة﴾**، فنادوهم باسم الوطن النبوي [عن التسمية] **﴿٣﴾**، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حلهم على ذلك، مجرد الخور الطبيعي:

﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، **﴿فارجعوا﴾** إلى المدينة، فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمروهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشد الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخللوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعداء الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: **﴿ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة﴾** أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن نحبت عنها، فأذن لنا نرجع إليها، فنحرسها، وهم كذبة في ذلك:

﴿وما هي عورة إن يريدون﴾ أي: ما قصدهم **﴿الإقرار﴾** ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً. **﴿لهم﴾** **﴿٤﴾** فهؤلاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿ولو دخلت عليهم﴾ المدينة **﴿من أقطارها﴾** أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك - **﴿ثم﴾** سئل هؤلاء **﴿الفتنة﴾** أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين **﴿لاتوها﴾** أي: لأعطوها مبادرين.

﴿وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلبت على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطوهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق. ومالئهم [طوائف] **﴿١٧﴾** اليهود الذين حوالى المدينة، فجاؤوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فنحصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: **﴿وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾** أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هنالك ابتلى المؤمنون﴾ هذه الفتنة العظيمة **﴿وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾** بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيمانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾**.

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

﴿١٢﴾ «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً».

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة **﴿١٣﴾**، ويصدق ظنه.

﴿وإذ قالت طائفة﴾ من المنافقين، بعدما جزعوا وقل صبرهم، صاروا أيضاً من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: الحاضرة.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(٦) في ب: المنافع.

(٧) زيادة من: ب.

﴿هَلُمُّ لَنَا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾

وهم مع تعويبتهم وتخذيبتهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلّف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبن، من التفاق وعدم الإيمان.

﴿أَشْحَةَ عَلَيْهِمْ﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ رأيتهم ينظرون إليك ﴿نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ﴾ من الموت ﴿مِنْ شِدَّةِ الْجَبَنِ الَّذِي خَلَعَ قُلُوبَهُمْ، وَالْقَلْقَ الَّذِي أَذْهَلَهُمْ، وَخَوْفًا مِنْ إِجْبَارِهِمْ عَلَى مَا يَكْرَهُونَ مِنَ الْقِتَالِ.﴾ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿سَلْقُوكُمْ بِالسِّنَةِ﴾ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يُحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي:

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابَ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا عن بيالي^(١) بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟! ﴿فَتَأْتُوا فِي الْحَمِيَّةِ الْمَثَلَةَ خَالِجًا عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

فتأتوا في هذا الأمر وغيره. واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن المتأسّي به، سالك الطريق المؤصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار^(٢) حين دعتهم الرسل للتأسّي لهم^(٣): ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان برحمة الله واليوم الآخر، فإن ما معه^(٤) من الإيمان،

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسّي بالرسول ﷺ.

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَمَا يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ في جوارحهم، واتباعاً لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، قبلوا مهجهم في مرضاته، وسبّوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارح في قضاء ما عليه، وفاء نحيبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك مجد.

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ كما بدّل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن^(٥) عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أتته.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: يغالي.

(٢) في ب: المشركين.

صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً الآية .

أي : قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ، ليتبين الصادق من الكاذب ، فيجزي الصادقين بصدقهم **«ويعذب المنافقين»** الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن ، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه .

«إن شاء» تعذيبهم ، بأن لم يشأ هدايتهم ، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم .

«أو يتوب عليهم» بأن يوفقهم للتوبة والإنابة ، وهذا هو الغالب على كرم الكريم ، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان فقال : **«إن الله كان غفوراً رحيماً»** غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم ، ولو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالتاب . **«ورحيماً»** بهم ، حيث وفقهم للتوبة ، ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه .

«ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً» أي : ردهم خائنين ، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حثقين عليه ، مغتاطين قادرين [عليه] ^(١) جازمين ، بأن لهم الدائرة ، قد غرتهم جمعهم ، وأعجبوا بتحزبهم ، وفرحوا بغيظهم وغديهم .

فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة ، وهي ^(٢) ريح الصبا ، فزعزعت مراكزهم ، وقوضت خيامهم ، وكفأت قلوبهم وأزعجتهم ، وضربهم الله بالرعب ، فأنصرفوا بغيظهم ، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين .

«وكفى الله المؤمنين القتال» بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ، **«وكان الله قوياً عزيزاً»** لا يغالبه أحد إلا غلب ، ولا يستنصره أحد إلا غلب ، ولا يعجزه أمر أراده ، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم ، إن لم يعنهم بقوته وعزته .

«وأنزل الذين ظاهروهم» أي : عاونوهم **«من أهل الكتاب»** أي : اليهود **«من ضاياصيصهم»** أي : أنزلهم من حصونهم ، نزولاً مظفوراً بهم ، مجعولين تحت حكم الإسلام .

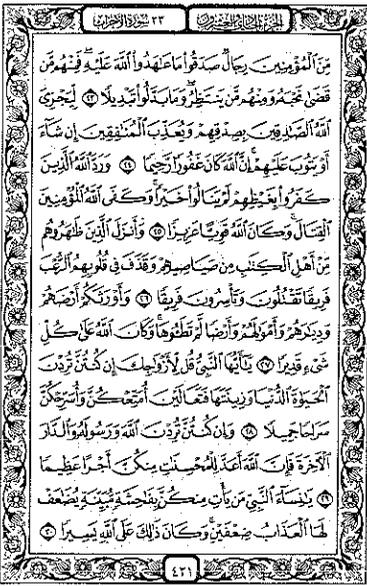
«وقذف في قلوبهم الرعب» فلم يقووا على القتال ، بل استسلموا وخضعوا ذلوا . **«فريقاً تقتلون»** وهم الرجال المقاتلون **«وتأسرون فريقاً»** من عداهم من النساء والصبيان .

«وأورثكم» أي : غنمكم **«أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطووها»** أي : أرضاً كانت من قبل ، من شرفها وعزتها عند أهلها ، لا تتمكنون من وطئها ، فمكنكم الله وخذلهم ، وغنمتم أموالهم ، وقتلتموهم وأسرتموهم . **«وكان الله على كل شيء قديراً»** لا يعجزه شيء ، ومن قدرته قدر لكم ما قدر .

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب ، هم بنو قريظة من اليهود ، في قرية خارج المدينة غير بعيد ، وكان النبي ﷺ [حين] ^(٣) هاجر إلى المدينة ووادعهم وهادبهم ، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه ، وهم باقون على دينهم ، لم يغير عليهم شيئاً .

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم ، وقللة المسلمين ، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين ، وساعد على ذلك [تدجيل] ^(٤) بعض رؤسائهم عليهم ، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، ومالوا والمشركين على قتاله .

فلما خذل الله المشركين ، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم ، فحاصرهم في حصنهم ، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فحكم فيهم ، أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى



ذرايبهم ، وغنمتم أموالهم .

فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنة ، وأسبغ عليهم النعمة ، وأقر أعينهم بخذلان من انخزل من أعدائهم ، وقتل من قتلوا ، وأسر من أسروا ، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمراً .

«٢٨ - ٢٩» **«يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنكم وأسرحنكم سراحاً جميلاً»** وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً **«يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنكم وأسرحنكم سراحاً جميلاً»** لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة ، وطلبن منه النفقة والكسوة ، طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت ، ولم يزلن في طلبهن متفتقات ، في مرادهن متعنتات ، فشئ ذلك على الرسول ، حتى وصلت به الحال إلى أنه أتى منهن شهراً .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله ، وأن يرفع درجة زوجاته ، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن ، فأمر رسوله أن يخبرهن ^(٥) فقال : **«يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا»** أي : ليس لكن في غيرها مطلب ، وصرتن ترضين لوجودها ،

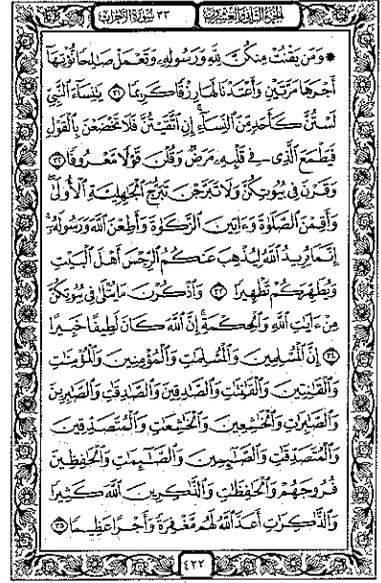
(٥) في أ: يخبرهن .

(٣) زيادة من : ب .

(٤) زيادة من : ب .

(١) زيادة من : ب .

(٢) في أ: وهو . ولعل الصواب ما أثبت .



وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن هذه الحال.

﴿فتعالين أمتعنكم﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿واسرحكن﴾ أي: أفاركن ﴿سراحاً جميلاً﴾ من دون مغاضبة ولا مشامة، بل بسعة صدر، وانشرح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينغي.

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكُنَّ الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقتها، ويسرها وعسرها، وقتعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فإن الله أعدل للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكوهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيّرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدينية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعه حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾.

ومنها: تزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن، وبيان علو همهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه^(١) كاملات مكملات، طيبات مطيبات ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

﴿٣٠ - ٣١﴾ ﴿يا نساء النبي من

يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً﴾ ومن يقنت منكن الله ورسوله وتعمل صالحاً نؤمها أجرها مرتين وأعدتنا لها رزقاً كريماً﴾

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿ومن يقنت منكن﴾ أي: تطيع الله ورسوله وتعمل صالحاً ﴿قليلاً أو كثيراً﴾، ﴿نؤمها أجرها مرتين﴾ أي: مثل ما تعطي غيرها مرتين، ﴿وأعدتنا لها رزقاً كريماً﴾ وهي الجنة، فقتنن الله ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ ﴿أهل البيت ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لستن كأحد من النساء إن اتقيتن﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكملمن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.

فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فقلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرض﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه، لأن قلبه غير صحيح، إقإن القلب

أي: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتذكروا نفوسكم، ولتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُبَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن. والحكمة، أسرارها. أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار^(٥) الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

لفظفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرها النفوس ما يكون ذلك طريقاً^(٦) آله إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يش^(٢) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليُعرف أن ذلك مرض.

فليُجْتَهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديئة، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكن، ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ﴾ تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، أي: لا تكشرون الخروج متجمعات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [لحاجة]^(٣) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما^(٤) نهاكن عنه، ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

الصحيح^(١)، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاضى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليّن خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: ﴿فَلَا تَلِينَ بِالْقَوْلِ﴾ وذلك لأن المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَتُنَّ لَهُمْ﴾ وقال موسى وهارون: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

ودل قوله: ﴿فِي طَمَعٍ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفرجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عتاً.

(٥) في ب: سرائر.

(٦) زيادة من: ب.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين، أن الأديعاء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: «ادعوهم لأبائهم» فقيل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحت زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يتأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه» أي: بالإسلام «وأنعمت عليه» بالعتق^(٣)، حين جاءك مشاوراً في فراقها: فقلت له ناصحاً ونخبراً بمصلحته^(٤)، مع وقوعها في قلبك: «أمسك عليك زوجك» أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، «واتق الله» تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به.

«وتخفي في نفسك ما الله مبديه» والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ.

«وتخشى الناس» في عدم إبداء ما في نفسك «والله أحق أن تخشاه»^(٥) وأن لا تباليهم شيئاً، فلما قضى زيد منها وطراً^(٦) أي: طابت نفسه، ورجب عنها، وفارقها. «زوجناكها» وإنما

لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. «وأجراً عظيماً» لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦﴾ «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» أي: لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة «إذا قضى الله ورسوله أمراً» من الأمور، وحثماً به والأزماً به «أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاً بينه وبين أمر الله ورسوله.

«ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» أي: بيناً، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضللال، الدال على العقوبة والتكال.

﴿٣٧﴾ «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً»

عظيماً» لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن لوقدر عدم الامتنال^(٧) وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: «إن المسلمين والمسلمات» وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها. «والمؤمنين والمؤمنات» وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

«والقانتين» أي: الطيبين لله ورسوله «والقانتات والصادقين» في مقالهم وفعالهم «والصادقات» «والصابرين» على الشدائد والمصائب «والصابرات والخاشعين» في جميع أحوالهم، خصوصاً في عبادتهم، خصوصاً في صلواتهم «والخاشعات» «والمصدقين» فرضاً ونقلاً «والمصدقات والصابئتين» شمل ذلك الفرض والنفل. «والحافظين فروجهم» عن الزنا ومقدماته «والحافظات» «والذاكرين الله كثيراً» أي: [٣٧] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المفيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات «والذاكرات».

«أعد الله لهم» أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعدد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة

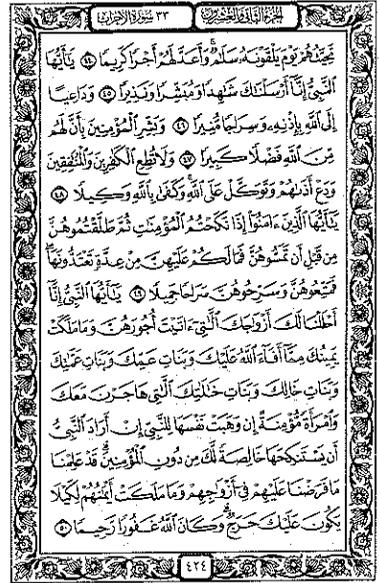
(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٤) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك.

(٥) في هامش ب: فإن خشية جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).



وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴿٤٤﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾ أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مبشراً ونذيراً﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر والمُنذر، وما يشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشّر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب، والمُنذر، هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى، بالعقاب الويل، والعذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربه، ويسوقهم^(٢) لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربه

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلها وشرها، وسهولة العمل فيها.

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمدهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاعفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ﴿وقهم السيئات ومن تقي السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾.

فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا مَنْ أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٨﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *

ظاهرة، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور، فقال: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره [ونصحه]^(١)، كأنه أب لهم.

﴿وكان الله بكل شيء عليمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾. يأمر تعالى المؤمنين بذكره كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قرينة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان أرواد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

(٢) في ب: يسوقهم.

(١) زيادة من: ب.

الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا عمل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أوضح قولي العلماء.

وبدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازها قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلاها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتصر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تنصّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة [وعلى أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يرهيب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

ولما كان ثمّ طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهرها الموافقة في الإيمان،

وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهي الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن

لا يقتضي هذا أذاهم، [أبل لا تطعمهم ﴿ودع أذاهم﴾] (٢) فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وتوكل على الله﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ تُوكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدنها (٣) أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعيهن (٤) بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواترهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً، من غير خصامة ولا مشاقمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ فجعل

بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يبتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها (١)، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به معرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ ذكر في هذه الجملة المبشّر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشّر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكرب، وكثرة الأرزاق الدايرة، وحصول التعم السارة، والفوز برضا ربهm وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في النسختين ولعل الصواب تعدها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بتمتعهن.

بالوفاة تعتد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية^(١).

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، يموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿٥٠﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما آفأ الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنات قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يقول تعالى، تمتناً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما ينفرد به ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين]^(٢)، كذلك يباح لهم ما^(٣) آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿و﴾ كذلك أحللتنا لك ﴿وما ملكت يمينك﴾ أي: الإماء التي ملكت ﴿مما آفأ الله عليك﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، الأقربيين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿و﴾ أحللتنا لك ﴿امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بمجرد هبتها نفسها.

﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنات﴾ يعني: إباحة المؤهبة^(٤). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمن. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فوائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأباحت لك يا أيها النبي ما لم نبيح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرتة ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها]^(٥)، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿و﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿من ابتغيت﴾ أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاص بالوهابات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم]^(٦).

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: المؤهوبة.

(٥) زيادة من ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.

﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاخمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

﴿وكان الله عليمًا حلِيمًا﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿٥٢﴾ ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبًا﴾ وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكورًا للزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث احترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمن، وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ زوجاتك الموجودات ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها.

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

﴿ولو أعجبك حسنهن﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ أي: السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وكان الله على كل شيء رقيبًا﴾ أي: مراقبًا للأمر، وعالمًا بما إليه تؤول، وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا

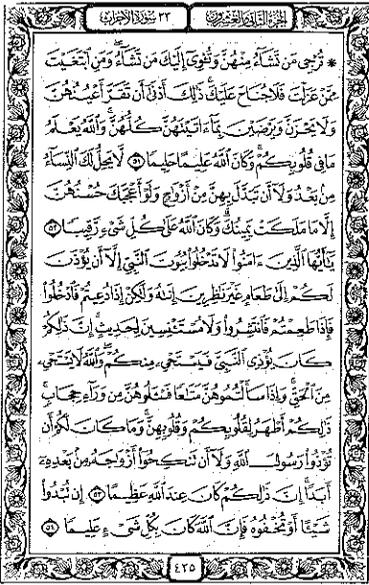
النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيماً * إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليمًا﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا ﴿ناظرين إناه﴾ أي: منتظرين ومتأئين لا تنتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إن ذلكم﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة، ﴿كان يؤذي النبي﴾ أي: يتكلف منه ويشق عليه جسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه ﴿فيستحيي منكم﴾ أن يقول لكم: «أخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، ﴿ولكن﴾ الله لا يستحيي من الحق.

فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يميز أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كأننا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته،



وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتاج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يُسألن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يُسألن ﴿من وراء حجاب﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأظهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وما كان لكم﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقيح شيء ﴿أن تؤذوا رسول الله﴾ أي: أذية قولية أو فعلية، بجمع ما يتعلق به، ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد
كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد
مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه
مشروع في جميع الأوقات، وأوجهه
كثير من العلماء في الصلاة.

وقوله: ﴿وَلَا نَسْأَلُهُنَّ﴾ أي لا جناح عليهن إلا يمتحن عن نساتهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي، فقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَوِّنُونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ﴾ أي: ينسئ الله عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى، لمحبه تعالى له، وتشني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم وأفضل هبات الصلاة عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجهه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿٥٨ - ٥٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته، وتوعد عليها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم [في الدنيا] (٤)، أنه يحتم قتل من شتم الرسول ﷺ وأذاه.

﴿٥٩ - ٦٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ عَلَيْنَا وَلَئِن كُنَّا إِلَّا نَسِئَةً﴾

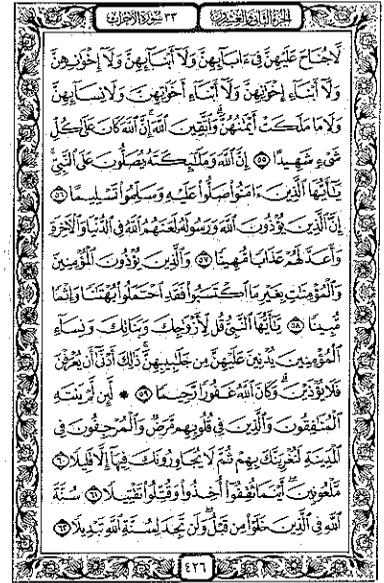
﴿٥٩﴾ ﴿لِمَ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ عَلَيْنَا وَلَئِن كُنَّا إِلَّا نَسِئَةً﴾

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾

﴿٥٥﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

﴿٥٤﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾



[بعده] مغل بهذا المقام.

وأيضاً، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجة باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجته بعده لأحد من أمته. ﴿إِنْ ذُكِرْتُمْ كُنْتُمْ أَهْلًا لَهَا عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدَّلُوا شِئْتًا أَوْ تَطَهَّرُوا أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

﴿٥٥﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

﴿٥٤﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٥) في ب: يتحتم.

(٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب.

(٤) زيادة من: ب.

المسلمين .

ولم يذكر المعمول الذي يتتهون عنه ، ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم ، وتوسوس به وتدعو إليه من الشر ، من التعريض بسبب الإسلام ، وأهله ، والإرجاف بالمسلمين ، وتوهين قواهم ، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة ، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء .

﴿لنغفركنهم﴾ أي : نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ، ونسلطك عليهم ، ثم إذا فعلنا ذلك ، لا طاقة لهم بك ، وليس لهم قوة ولا امتناع ، ولهذا قال : ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي : لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً ، بأن تقتلهم أو تضيئهم .

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر ، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين ، فإن ذلك أحسن للشر وأبعد منه ، ويكونون ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ أي : مبعدين أين (٣) وجدوا ، لا يحصل لهم أمن ، ولا يقر (٤) لهم قرار ، يخشون أن يقتلوا ، أو يجسوا ، أو يعاقبوا .

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أن من تهادى في العصيان ، وتجراً على الأذى ، ولم يتب منه ، فإنه يعاقب عقوبة بليغة . ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي : تغييراً ، بل سنة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها (٥) .

﴿٦٣ - ٦٨﴾ ﴿يسألك الناس من الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ إن الله لمن الكافرين وأعد لهم سعيراً ﴿خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً * لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغفرنك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً * هذه الآية التي تسمى آية الحجاب ، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً ، ويبدأ بزواجاته وبناته ، لأنهن أكد من غيرهن ، ولأن الأمر [لغيره] (١) ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ .

أن يدنين عليهن من جلابيبهن ﴿وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحقه وخمار ورداء ونحوه ، أي : يغطين بها وجوههن وصدورهن .

ثم ذكر حكمة ذلك ، فقال : ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ دل على وجود أذية إن لم يحتجبن ، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن ، ربما ظن أمنهن غير عفيفات ، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن ، وربما استهين بهن ، وظن أمنهن إماء ، فتهاون بهن من يريد الشر . فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن .

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم ، بأن بين لكم الأحكام ، وأوضح الحلال والحرام ، فهذا سد للباب من جهتهن .

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله : ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي : مرض شك أو شهوة ﴿والمرجفون في المدينة﴾ أي : المتخوفون المرهبون الأعداء ، المحدثون (٢) بكثرتهم وقوتهم ، وضعف

(١) زيادة من هامش : ب .

(٢) في ب : المتحدثون .

(٣) في ب : حيث .

(٤) كذا في ب ، وفي أ : ولا يقر .

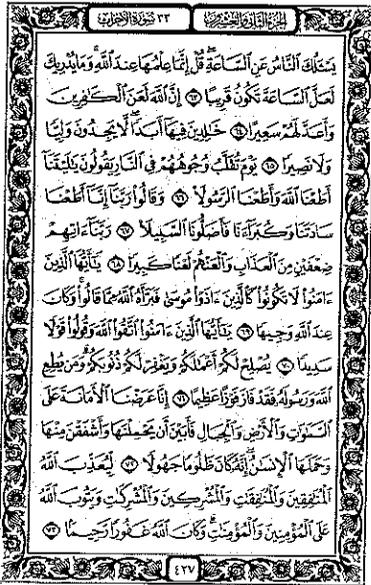
(٥) كذا في النسختين ولعله والله أعلم

المقتضية لمسياتها .

(٦) كذا في ب ، وفي أ : قد .

(٧) في ب : والشقاوة .

(٨) زيادة من : ب .



وكبراءنا فأصلونا السيلا * ربنا أتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً * أي : يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها ، وبعضهم تكذيباً لوقوعها ، وتعجيزاً للذي أخبر بها . ﴿قل﴾ لهم : ﴿إنما علمها عند الله﴾ أي : لا يعلمها إلا الله ، فليس في ولا لغيري بها علم ، ومع هذا ، فلا (٦) تستبطؤوها .

﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ومجرد تحييء الساعة ، قريباً وبعداً ، ليس تحته نتيجة ولا فائدة ، وإنما النتيجة والخسار والريح والشقا (٧) والسعادة ، هل يستحق العبد العذاب ، أو يستحق الثواب ؟ فهذه سأخبركم بها ، وأصف لكم مستحقها .

فوصف مستحق العذاب ، ووصف العذاب ، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة ، فقال : ﴿إن الله لمن الكافرين﴾ [أي : (٨) الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله ورسوله ، وبما جاؤوا به من عند الله ، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته ، وكفى بذلك عقاباً ، وأعد لهم سعيراً﴾ أي : ناراً موقدة ، تسعر

القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول الشديد، لئلا الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلاح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول الشديد فقال: **«يصلح لكم أعمالكم»** أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تنقل به الأعمال كما قال تعالى: **«إنما يتقبل الله من المتقين»**.

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفتها، كما أن الإخلال بالتقوى والأعمال السعيدة، سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

«ويغفر لكم» أيضاً **«ذنوبكم»** التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: **«ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً»**.

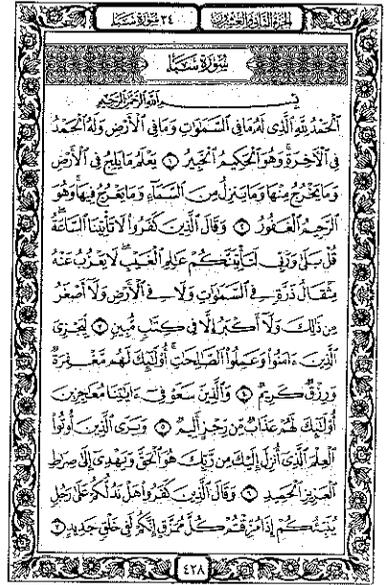
﴿٧٢ - ٧٣﴾ **«إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً»** ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيمًا يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه

مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا عن أصلوهم، فقالوا: **«ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً»** فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فاشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿٦٩﴾ **«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً»** يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بصد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته.

والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عبادة المخلصين، فلم يزرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى ^(١) لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: **«إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر»** أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمز به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴿٧٠ - ٧١﴾ **«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً»** يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول الشديد، وهو



في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُغفَر عنهم ساعة.

ولا يجدون لهم ولياً فيعطيهم ما طلبوه **«ولا نصيراً»** يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: **«يوم تقلب وجوههم في النار»** فيذوقون حرها، ويشد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

«يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول» فسلمنا من هذا العذاب، واستحققتنا كالمطيعين جزيل الثواب. ولكن أمتية فات وقتها، فلم تقدم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

«وقالوا ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا» وقلدناهم على ضلالهم، **«فأضلونا السبيلاً»**

كقوله تعالى: **«ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً»** لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم

يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه .

وحدد نفسه هنا، على أن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والشواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراك خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطاياه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أعطي، فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم، ولم يخطر بقلوبهم.

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله ومحبه والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالتنفس، متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

﴿وهو الحكيم﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبير﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يسلج في الأرض﴾ أي: من مطر، وبذر، وحيوان ﴿وما يخرج منها﴾ من

تعال عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تخميم، وأنتك إن قُمت بها وأدبيتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقمومي بها [ولم تؤديها] فعليك العقاب.

﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لربهن، ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

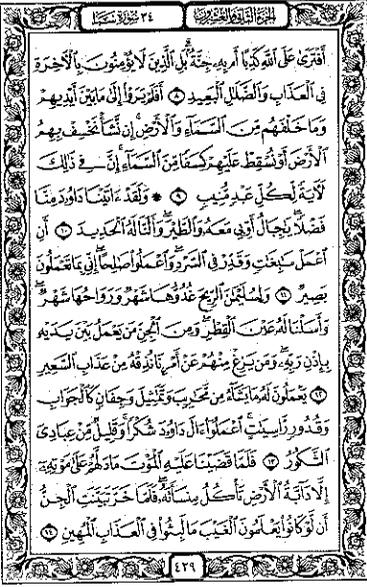
مناقضون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطنياً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه

تفسير سورة سبأ وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ يعلم ما يسلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿الحمد: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي



أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرتة ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آثارها تنزل على عباده كل وقت، بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿٣ - ٥﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين * ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربه حق قدره، ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: بالله وبرسله، وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا.

من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿٧-٩﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب * أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد.

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: «إنكم مبعوثون» بعدما مزقتم البلي، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟! فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل

﴿أفترى على الله كذباً﴾ فتجرأ عليه وقال ما قال، ﴿أم به جنة﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون، وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدو وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم

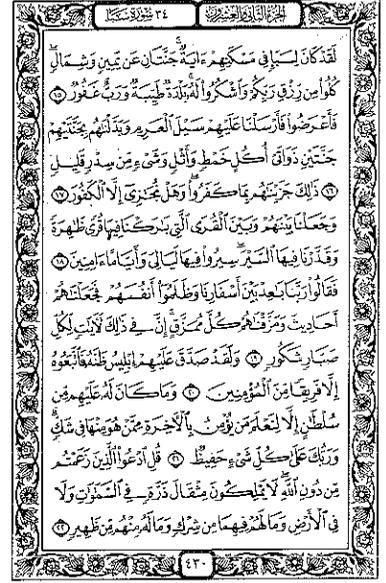
لإيمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب. ﴿ورزق كريم﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سعوا فيها كفرةً بها، وتعجيزاً لمن جاء بها، وتعجيزاً لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ لما ذكر تعالى إنكار مَنْ أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموقفين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه ﴿يهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق ما أخبر به، ومن جهة موافقته للأموال الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتبني الأجر، وتفيد التعامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،



فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقرب به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يعزب﴾

أي: لا يغيب عن علمه ﴿مشقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مشقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسوله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ تصديقاً

(١) كذا في ب، وفي أ: وعلم.

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴿١٠﴾

ولما ذكر ما امتنَّ به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾ * يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وثمَّائيل وجفان كالجواب وقدر راسيات عملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿لما ذكر فضلنا على داود عليه السلام، ذكر فضلنا على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين. ﴿غدوها شهر﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿ورواحها شهر﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾ وأعمالهم^(١)، كل ما شاء سليمان عملوه، ﴿من محارِبٍ﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة، ﴿وتمَّائيل﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتيان صنعتهم،

لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد﴾ * أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴿أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعَمُّ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، ومن يعمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجمال والحيوانات، من الطيور، أن تُؤَوِّبَ معه، وتُرَجَّعَ التَّسْبِيحَ بحمد ربها مجاوبة له، وفي هذا من النعمة التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رآوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يبيح على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء - أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل من سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والحيوانات، وسبحت بحمدها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعاً له. ومن فضلنا عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض. قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس

- يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينسخي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلى قوله منه كل مبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴿ولهذا قال تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي: شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأهم به، وجزمهم بأن ما جاؤوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى. ثم نبههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعده، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذلك خير غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنتعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إن في ذلك﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لآية لكل عبد منيب﴾. فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،

(١) كذا في ب، وفي أ: وأعماله.

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان ،
﴿وجفان كالجواب﴾ أي : كالبرك
الكبار ، يعملونها لسليمان للطعام ،
لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ،
﴿و﴾ يعملون له قدورا راسيات
لا تزول عن أماكنها ، من عظمها .

فلما ذكر منته عليهم ، أمرهم
بشكرها ، فقال : ﴿اعملوا آل داود﴾
وهم داود وأولاده وأهله ، لأن المنة على
الجميع ، وكثير من هذه المصالح عائد
لكلهم . ﴿شكرا﴾ لله على ما أعطاهم ،
ومقابلته لما أولاهم . ﴿وقليل من عبادي
الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى
على ما أولاهم من نعمه ، ودفع عنهم
من النقم .

والشكر : اعتراف القلب بمنة الله
تعالى ، وتلقيها افتقارا إليها ، وصرفها
في طاعة الله تعالى ، وصونها عن
صرفها في المعصية .

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان
عليه الصلاة والسلام كل بناء ، وكانوا
قد موهوا على الإنس ، وأخبروهم أنهم
يعلمون الغيب ويطلعون على
المكنونات ، فأراد الله تعالى أن يُري
العباد كذبهم في هذه الدعوى ، فمكثوا
يعملون على عملهم ، وقضى الله
الموت على سليمان عليه السلام ، وأتكا
على عصاه وهي المنسأة ، فصاروا إذا
مروا به وهو متكئ عليها ، ظنوه حيا ،
وهايوه .

فغدوا على عملهم كذلك ستة كاملة
على ما قيل ، حتى سلطت دابة الأرض
على عصاه ، فلم تزل ترعاها ، حتى ياد
وسقط ، فسقط سليمان عليه السلام
وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن
الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا
في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق
عليهم ، فلو علموا الغيب ، لعلموا
موت سليمان ، الذي هم أحرض شيء
عليه ، ليسلموا مما هم فيه .

﴿١٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في
مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة
طيبة ورب غفور﴾ فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل حنط وأثل وشيء من
سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل نجازي إلا الكفور * وجعلنا
بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى
ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها
ليالي وأياما آمنتين * فقالوا ربنا باعد
بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم
أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك
لآيات لكل صبار شكور * ولقد
صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا
فريقا من المؤمنين * وما كان له عليهم
من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة
من هو منها في شك وربك على كل
شيء حفيظ * سبأ قبيلة معروفة في
أداني اليمن ، ومسكنهم بلدة يقال لها
«مأرب» ، ومن نعم الله ولطفه بالناس
عموما ، وبالعرب خصوصا ، أنه قص
في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ،
من كان يجاور العرب ويشاهد آثاره
ويتناقل الناس أخباره ، ليكون ذلك
أدعى إلى التصديق ، وأقرب للموعظة
فقال : ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾
أي : محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾
والآية هنا : ما أدر الله عليهم من
النعم ، وصراف عنهم من النقم ، الذي
يقتضي ذلك منهم ، أن يعبدوا الله
ويشكروه . ثم فسر الآية بقوله :
﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم
واد عظيم ، تأتيه سيول كثيرة ، وكانوا
بنوا سدا محكما ، يكون مجمعا للماء ،
فكانت السيول تأتيه ، فيجتمع هناك ماء
عظيم ، فيفرقونه على بساتينهم ، التي
عن يمين ذلك الوادي وشماله . وتُغَل
لهم تلك الجنتان العظيمنتان ، من الثمار
ما يكفيهم ، ويحصل لهم به الغبطة
والسرور ، فأمرهم الله بشكر نعمه التي
أدرها عليهم من وجوه كثيرة . منها :
هاتان الجنتان اللتان غالب أوقاتهم
منهما .

ومنها : أن الله جعل بلدهم بلدة
طيبة ، لحسن هوائها ، وقلته ورحمها ،
وحصول الرزق الرغد فيها .

ومنها : أن الله تعالى وعدهم - إن
شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم ،

ولهذا قال : ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ .
ومنها : أن الله لما علم احتياجهم في
تجاراتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة
- الظاهر أنها : [قرى صنعاء قاله غير
واحد من السلف ، وقيل إنها] الشام -
هيا لهم من الأسباب ما به يتيسر
وصولهم إليها بغاية السهولة ، من
الأمن ، وعدم الخوف ، وتواصل القرى
بينهم وبينها ، بحيث لا يكون عليهم
مشقة بحمل الزاد والمزاد .

ولهذا قال : ﴿وجعلنا بينهم وبين
القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة
وقدرنا فيها السير﴾ أي : [سيراً] مقدراً
يعرفونه ويحكمون عليه ، بحيث
لا يتيهون عنه ﴿ليالي وأياما آمنتين﴾
أي : مطمئنين في السير ، في تلك
الليالي والأيام ، غير خائفين . وهذا من
تمام نعمة الله عليهم ، أن أمنهم من
الخرف .

فأعرضوا عن النعم ، وعن عبادته ،
وبطروا النعمة وملوها ، حتى إنهم
طلبوا وتمنوا ، أن تتباعد أسفارهم بين
تلك القرى التي كان السير فيها
متيسراً .

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله
وبنعمته ، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة
التي أظفقتهم ، فأبادها عليهم ، فأرسل
عليها سيل العرم ، أي : السيل المتورع ،
الذي خرب سددهم ، وأتلف جناتهم ،
وحرب بساتينهم ، فبدلت تلك الجنات
ذات الحداثق العجبية ، والأشجار
الثمرة ، وصار بدلها أشجار لا نفع
فيها ، ولهذا قال : ﴿وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل﴾ أي : شيء قليل من
الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿حنط
وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله
شجر معروف ، وهذا من جنس
عملهم .

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر
القيبح ، بدلوا تلك النعمة بما ذكر ،
ولهذا قال : ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي : وهل
تجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق -
والأمن كفر بالله وبطر النعمة؟

فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا

وتزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تزقوا أيدي سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبارة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صَبَّارٌ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ، يتحملها لوجه الله ولا يتسخطها بل يصبر عليها. شكور لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترف، ويشني على مَنْ أُولَاهَا، ويصرفها في طاعته. فهذا إذا سمع بقصصهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن مَنْ فعل مثلهم فَعِلَ به كما فعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة، دافع للنعمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿فِعَزَّتْكَ لِأَعْوَيْنِهِمْ أَجْعِينَ﴾ * إلا عبادك منهم المخلصين. وهذا ظن من إبليس، لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأت خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا مَنْ استثنى، فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأغواهم، ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ * ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل مَنْ اتبعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط وقهر، وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت

تسليطه وتسويله لبني آدم.

﴿لِنُعَلِّمَ مَنْ يَأْمَنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف مَنْ كان إيمانه صحيحاً ثبت عند الامتحان والاختبار واللقاء الشبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعو به إليه، فإله تعالى جعله امتحاناً، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب.

﴿وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ظَهِيرًا﴾ * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزماً لهم بعجزها، ومبيناً لهم بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعمتوهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك ف ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ * على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتهم ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض، ﴿مَنْ شَرِكٌ﴾ أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعاً، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج

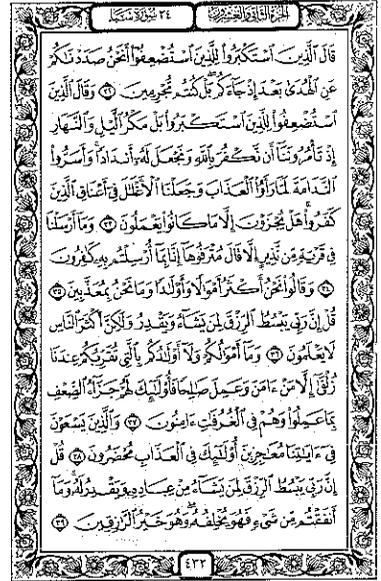
وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ إِذْ يُدْعَىٰ أَذْنًا مِّنْ قَلْبِهِمْ قَالُوا تَبَا تَبَا تَبَا رَبُّكُمْ قَالُوا هَؤُلَاءِ مِمَّنْ ذُكِّرُوا وَلَمْ يَتَذَكَّرُوا أَلَيْسَ الْأَكْبَرُ ﴿٢٢﴾ * قُلْ مَنْ يَتَرَفَّقُكُمْ فِي الْكَافِرِينَ وَلَا دَرَجَاتٍ لَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ فِي سَكَنٍ ﴿٢٣﴾ قُلْ لَا تَقْرَبُوا عَنَّا أَحْسَنَ مِنَّا وَلَا سُوءًا وَلَا تَتَلَفَعُوا فِيهَا عَنَّا وَإِنَّكُمْ لَبِئْسَ الْفِتْيَانُ ﴿٢٤﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَكُمُ الرَّبُّ ثُمَّ يَشْفَعُ بَيْنَكُمُ الْبَرُّ وَهُوَ الْفَتَاكُ ﴿٢٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ زُلْفَةً مِّنَ السَّمَاءِ سَاءَ مَا يُرْسِلُهَا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا قَدْحًا لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّكَ أَعْيُنَ النَّاسِ لَأَنفُسٌ كَاتِبَةٌ ﴿٢٧﴾ وَيَكْفُرُونَ بِكُنُوزِ اللَّهِ الَّتِي كَفَىٰ لَهُمُ سَعِيرٌ ﴿٢٨﴾ قُلْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ تِلْكَ السَّاعَةِ وَلَا تُخَفِّفُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الْبَلْبِيُّ كَذَّبُوا وَهُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَلَا يَأْتُونَ بَشِيرًا وَلَا نَذِيرًا إِذْ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فَتُفَكَّرُ مِنْهُ أَلَيْسَ لَنَا بِبَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ مَّنْ نَّهَىٰ عَنِ الْفِتْيَانِ وَأَلَّا يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِذْ نُذِرُوا أَنَّ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَكَيْفَ تُفَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ كَفَىٰ لَكُمْ إِذْ أَخَذْتُمُ الْعَهْدَ أَنْ قُلْتُمْ اللَّهُ شَهِيدٌ فَكَيْفَ تُكْفِرُونَ ﴿٣١﴾

من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: الله تعالى الواحد القهار ﴿منهم﴾ أي: من هؤلاء العبودين ﴿من ظهير﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ * فهذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأناداهم وأوثانهم، من البشر والشجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبييناً حاسماً مواد الشرك، قاطعاً لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان مَنْ يدعوه [غير الله]، لا مالكا للنفع والضر، ولا شريكاً للمالك، ولا عوناً وظهيراً للمالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة، ضلالاً في العقل، باطلة في الشرع.

بل يتعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فيبين الله بطلانه وعدمه، ويبين في آيات أخر ضرره على عبديه^(١)، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وماوهم النار ﴿وَإِذَا حَشَرَ النَّاسَ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ *.

(١) في ب: عابديه.



ومن علوه، أن حكمه تعال يعلو، وتدعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين.

وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعال إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرقوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمته وجلاله - أن الملائكة الكرام والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقولون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعال العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

﴿٢٤ - ٢٧﴾ ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنما أوياكم لعل هدى أو في ضلال مبين﴾ * قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا تسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم * قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم * يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿من يرزقكم

من السماوات والأرض﴾ فإنهم لا بد أن يقولوا أنه الله، ولئن لم يقولوا ف ﴿قل الله﴾ فإنك لا تجحد من يدفع هذا القول، فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لتفعمكم ورزقكم، فليمن تعبدون معه من لا يرزقكم شيئاً، ولا يقيدكم نفعاً؟

وقوله: ﴿وإننا أوياكم لعل هدى أو في ضلال مبين﴾ أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم، على الهدى، مستعجلة عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم، ما به يعلم علماً يقيناً لا شك فيه، من المحق منا ومن المبطل، ومن المهتدي ومن الضال؟ حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه، فإنك^(١) إذا وزنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق لسائر المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جمع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم خاضعون لهيئته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافة، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها ولا لمن عبدها، نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمه^(٢) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي عبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوه وهو الشيطان.

وقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم المذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

﴿وهو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار ﴿الكبير﴾ في ذاته وصفاته.

(١) في النسختين: بزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

(٢) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط.

ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جهادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلذذون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويجاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده، تبيّن^(١) لك أي: الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتاج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قل﴾ لهم [﴿لا تسألون عما أجرنا، ولا نسأل عما تعملون﴾] أي: كل منا ومنكم له عمله أنتم [﴿لا تسألون﴾] عن إجراننا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويحتمل الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكام الحاكمين، ويفصل بين المختصمين، أعدل العادلين.

ولهذا قال: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للشواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفالحين.

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك. ﴿ويعبدون من دون الله ما

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ الآية ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد. ﴿بل هو الله﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیز﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مذبذبة. ﴿الحكيم﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى^(٢) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة!!

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ، إلا يبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجهة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجهة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم. ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوته.

فمما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذروهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا ظلم منهم. فأبي: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم. فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنخل عزيمة، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!

﴿قل﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه -: ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

﴿٣١ - ٣٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرنا أن نكفر بالله ونجعل له

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبت.

فإن يُعثنّا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعدبنا. فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، ﴿وهم في العرفات آمنون﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعتات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، ف ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾. ﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يخلفه﴾ فلا تشوهوا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمتفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وهو خير الرازقين﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: العابدين لغير الله

[وأته] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهرون ذلك الندم جهراً.

﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ الآيات.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ يغلرون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ الآيات.

﴿هل يجزون﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقال ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٣٤ - ٣٩﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في العرفات آمنون﴾ والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخرها بها.

﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وما نحسن بمعذبين﴾ أي: أولاً، لسنا بمبعوثين،

أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى أن معابد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنت لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأبغاب في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهو لا جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، ف ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع: ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ ولكنكم حلثتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [إن]، فتبعنكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء ودونهم.

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم. ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحسبون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وفتتمونا.

فلم تعد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿أسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق،

والمعبودين من دونه، من الملائكة. ثم يقول الله ﴿للملائكة﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ فبأروا من عبادتهم. و ﴿قالوا سبحانك﴾ أي: تنزيهاً لك وتقدسياً، أن يكون لك شريك أو ند ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء!!!

ولكن هؤلاء المشركون ﴿كانوا يعبدون الجن﴾ أي: الشياطين، يأمرون^(١) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم، لأن العبادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم.

﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ أي: مصدقون للجن، منقادون لهم، لأن الإيمان هو التصديق الموجب للالتحاق.

فلما تبرأوا منهم، قال تعالى [مخاطباً] لهم: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرراً﴾ تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض. ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ بالكفر والمعاصي - بعدما ندخلهم النار - ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ فالיום عاينتكموها ودخلتموها، جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب، من عدم الهرب من أسبابها.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا فكيف

(١) في ب: يأمرونهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولم يردوا.

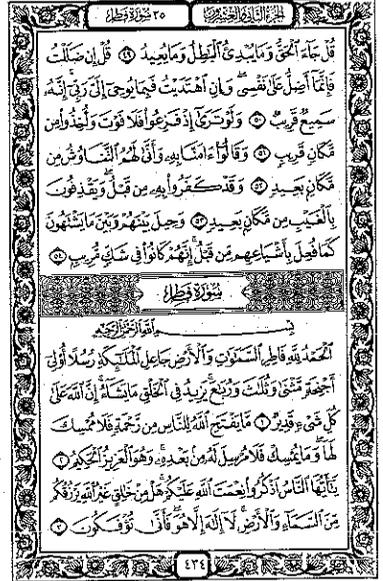
وهم يحضرونهم يوماً وقول الملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ربنا من دونهم بل كانوا يعبدون آباءهم الذين كفروا وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا فكيف

ما جئتهم به، فليس عندهم علم، ولا آثارة من علم.

ثم خوفهم ما فعل بالأسم المكذبين [قبلهم] فقال: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا﴾ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿معشار ما آتيناهم﴾ ﴿فكذبوا﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رسلنا فكيف كان تكبير﴾ أي: إنكارهم عليهم، وعقوبيتي إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أفرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالخسف بالأرض، وبإرسال هؤلاء المكذبتين، أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم.

﴿٤٦ - ٥٠﴾ ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرينى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد * قل إن ربي يقذف بالحق عمام الغيوب * قل جاء الحق وما يبدئ به الباطل وما يعيد * قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحى إلي ربي إنه سمع قريب * أي:





وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان **﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾** الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبيّنها لهم، ولهذا قال: **﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾** أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه. **﴿وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يَعْبُدُ﴾** أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدئ ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضح لهم، وبيّن لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

﴿وإن أهديت﴾ فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما **﴿يوحى إلى ربي﴾** فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي **﴿سميع﴾** للأقوال والأصوات كلها **﴿قريب﴾** ممن دعاه وسأله وعبده.

﴿٥١ - ٥٤﴾ **﴿ولو ترى إذ فرعوا﴾** فلا فوت وأخذوا من مكان قريب * وقالوا أمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد * وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد * وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشباعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب **﴿يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾** أيها الرسول، ومنّ قام مقامك، حال هؤلاء الكذابين، **﴿إذ فرعوا﴾** حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل، وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضلاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، وفقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه الملح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب^(٢) عن مساوئ الأخلاق وردائلها، إذا تكلم رفقته العيون، هيبة وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعريدهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟!!

فكل من تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، وتبني صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وتمّ مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجره على دعوته. فبيّن الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال:

﴿قل ما سألتكم من أجر﴾ أي: على اتباعكم للحق **﴿فهو لكم﴾** أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، **﴿إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾** أي: محيط علمه بما أدعو إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بيّن البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن **﴿يقذف بالحق﴾** على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهاق، لأنه بيّن من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال الكذابين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال الكذابين، وتبين كذبهم

﴿قل﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء الكذابين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: **﴿إنما أعظكم بواحدة﴾** أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: **﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾** أي: تنهضوا همة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرادى، استعملتم ففكرهم وأجلمتهم، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيبته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيبته^(١) ليست كهيبات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(١) في ب: هيبته. (٢) في ب: وترجر.

فليس لهم عنه مهرب ولا فوت،
﴿واخذوا من مكان قريب﴾ أي: ليس
بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون
ثم يقذفون في النار.

﴿وقالوا﴾ في تلك الحال: ﴿أمنّا﴾
بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿و﴾ لكن
﴿أتى لهم التناوش﴾ أي: تناول
الإيمان ﴿من مكان بعيد﴾ قد خيل
بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة
في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت
الإمكان، لكان إيمانهم مقبولاً،
ولكنهم ﴿كفروا به من قبل ويقذفون﴾
أي: يرمون ﴿بالغيب من مكان بعيد﴾
بمقذفهم الباطل، ليحضرابه الحق،
ولكن لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل
للترامي من مكان بعيد إلى إصابة
الغرض، فكذلك الباطل، من المحال
أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون
له صولة، وقت غفلة الحق عنه، فإذا
برز الحق وقاوم الباطل قمعه.

﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾
من الشهوات واللذات، والأولاد،
والأموال، والخدم، والجنود، قد
انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما
خَلِقُوا، وتركوا ما خولوا وراء
ظهورهم، ﴿كما فعل بأشباعهم﴾ من
الأهم السابقين حين جاءهم الهلاك،
حيل بينهم وبين ما يشتهون. ﴿إنهم
كانوا في شك مريب﴾ أي: محدث
الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا،
ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمئة
والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل،
وبه الثقة

تفسير سورة فاطر وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله فاطر السماوات والأرض
جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى
وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء
إن الله على كل شيء قدير﴾ ما يفتح
الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما
يمسك فلا مرسل له من بعده وهو
العزیز الحكيم ﴿يمدح الله تعالى نفسه

الكريمة المقدسة، على خلقه السماوات
والأرض، وما اشتملتا عليه من
المخلوقات، لأن ذلك دليل على كمال
قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته،
وبديع حكمته، وإحاطة علمه.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده ما
يتضمن الأمر، وهو: أنه ﴿جاعل
الملائكة رسلاً﴾ في تدبير أوامره
القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه، في
تبلغ أوامره الدينية.

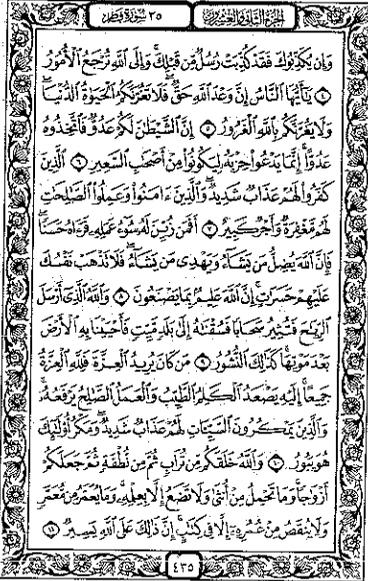
وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً،
ولم يستثن منهم أحداً، دليل على كمال
طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره، كما
قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم
ويطيعون ما يؤمرون﴾.

ولما كانت الملائكة مدبرات
يأذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه،
ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم،
بأن جعلهم ﴿أولي أجنحة﴾ تطير بها،
فتسرع تنفيذ ما أمرت به. ﴿مثنى
وثلاث ورباع﴾ أي: منهم من له
جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما
اقتضته حكمته. ﴿يزيد في الخلق ما
يشاء﴾ أي: يزيد بعض مخلوقاته على
بعض، في صفة خلقها، وفي القوة،
وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء
المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة
التغذات.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾
فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا
يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة
مخلوقاته بعضها على بعض.

ثم ذكر انفراذه تعالى بالتدبير
والعطاء والمنع، فقال: ﴿ما يفتح الله
للناس من رحمة فلا ممسك لها وما
يُمسك﴾ من رحمته عنهم ﴿فلا مرسل
له من بعده﴾ فهذا يوجب التعلق بالله
تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه،
وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف
ويرجى إلا هو. ﴿وهو العزيز﴾ الذي
قهر الأشياء كلها ﴿الحكيم﴾ الذي
يضع الأشياء مواضعها وينزلها
منازلها.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿يا أيها الناس اذكروا
نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله



يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا
هو فأنى تؤفكون * وإن يكذبوك فقد
كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع
الأمور﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن
يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل
لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء،
وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمته تعالى
داع لشكره، ثم نبههم على أصول
التعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هل
من خالق غير الله يرزقكم من
السماء والأرض﴾.

ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد
يخلق ويرزق إلا الله، نتج من ذلك،
أن كان ذلك دليلاً على الوهيته
وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو
فأنى تؤفكون﴾ أي: تصرفون من عبادة
الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿وإن يكذبوك﴾ يا أيها الرسول،
فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين،
﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ فأهلك
المكذبون، ونجى الله الرسل
وأتباعهم. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾.

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن وعد
الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا
يغرنكم بالله الغرور * إن الشيطان لكم
عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه
ليكونوا من أصحاب السعير * الذين
كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا
وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر
كبير﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إن



وَمَا يَشْتَرِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ مُرْتَبِطٌ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
عَلِمَ أَجْرَهُمْ وَمَنْ كَلَّمَكَ لَمْ يَكُنْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَدُّ عَصَا
جِبْرِيلَ عَلَيْهِمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ تَحْتِمْ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَسْنَا لَكُمْ فُتُورًا ۝ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الْقَمُونَ وَالْقَمَرُ
سَخَّرَ لِحُكْمِ اللَّهِ وَلَسْنَا لَكُمْ فُتُورًا ۝ وَاللَّهُ يَوْمَ
الْحِسَابِ عَلِيمٌ ۝ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُخْرِجْهُ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ
الضَّالِّ فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْغَالِبِينَ ۝ وَاللَّهُ يَوْمَ
الْحِسَابِ عَلِيمٌ ۝ وَإِنْ يَسْأَلُ عَنْ عِبَادِكُمْ
وَأَنْبِيَائِكُمْ وَرُسُلِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ
يُخَوِّفُونَ نَفْسَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَإِنْ
يَسْأَلُ عَنْ عِبَادِكُمْ وَعَنْ ذُرِّيَّتِكُمْ فَإِنَّ
اللَّهُ وَرُسُلَهُ يَخَوِّفُونَ نَفْسَهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَإِنْ يَسْأَلُ عَنْ عِبَادِكُمْ
وَأَنْبِيَائِكُمْ وَرُسُلِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ
يُخَوِّفُونَ نَفْسَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

وعذ الله ﴿بالبعث والجزاء على الأعمال﴾ ﴿حق﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهيؤوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فلا تفرنكم الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيككم عما خلقتم له، ﴿ولا يفرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو ﴿الشيطان﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فانخذوه عدوا﴾ أي: لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربتة كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ هذا غايته ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿الذين كفروا﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لهم عذاب شديد﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وعملوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم،

الأعمال ﴿الصالحات لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿أجر كبير﴾ يحصل به المطلوب.

﴿٨﴾ ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون يقول تعالى: ﴿أفمن زين له عمله السيئ القبيح﴾، زين له الشيطان، وحسنه في عينه ﴿فرآه حسناً﴾ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟

فالأول: عمل السيء، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم﴾ أي: على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حسرات﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله [هو] الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾

﴿٩﴾ ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾ فأنزله الله عليها ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾.

فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، وزرعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم الليل، فيسوق إليهم مطراً، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿١٠﴾ ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون

السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يامن يريد العزة اطلبها عن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ من قراءة وتسييح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه بين الملأ الأعلى، ﴿والعمل الصالح﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

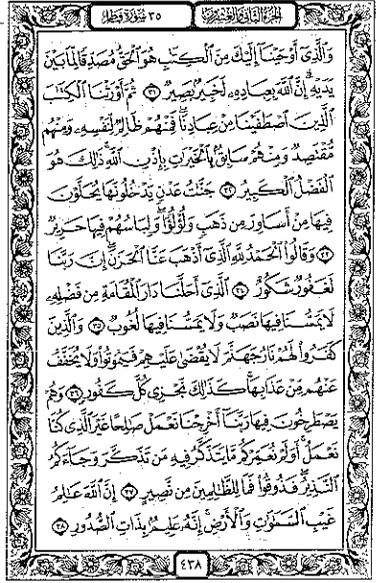
وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾ يهانون فيه غاية الإهانة.

﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

﴿١١﴾ ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها.

﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي: لم يزل ينقلكم، طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً يتزوج أنثى، ويراد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلوه، ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلها بعلمه وقضائه.



ومع هذا **﴿إن تدعوهم﴾** لا يسمعونكم لأنهم ما بين جناد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم. **﴿ولو سمعوا﴾** على وجه الفرض والتقدير **﴿ما استجابوا لكم﴾** لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: **﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾** أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: **﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾**.

﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي: لا أحد ينبتك، أصدق من الله الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتمر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة باطل، لا تفيد عباده شيئاً.

﴿١٥ - ١٨﴾ **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز * ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير﴾** يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم

ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [إياها]، لما استعدوا لأي: عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النعم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكراباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلولا يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكفه إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت وجلال.

ومن غناه تعالى: أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها غلباً، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه [الغني في حده].

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع الله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك، إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتك بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي: بمتنع، ولا معجز له.

وبدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. **﴿وإن تدع مثقلة﴾** أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها **﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾** فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتنفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وأوجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه

العذاب، والنصلاة تدعو إلى الخير، وتتهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالتَّزَكَّىٰ مِنَ الْعِيُوبِ، كَالرِّيَاءِ وَالْكِبْرِ، وَالْكَذْبِ وَالغَشِّ، وَالْمَكْرِ وَالخِدَاعِ وَالنِّفَاقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّىٰ بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، مِنَ الصِّدْقِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَلِيَنِ الْجَانِبِ، وَالتَّصَحُّحِ لِلْعِبَادِ، وَسَلَامَةِ الصُّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ تَزَكِّيَتَهُ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ، وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيْعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ.

﴿وَلِيَّ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩٩ - ٢٤٤﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ فَاقِدَ الْبَصَرِ * وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فكما أنه من المقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإيثار.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموح من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثتك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصرراط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم، حق وصدق. ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك، بثواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدع من الرسل.

فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَّةِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنِ بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيِّ عَنِ بَيْتَةٍ﴾.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبِيرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّبَ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به، ﴿وَالزَّبِيرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والحزني الوخيم.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مَّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مَّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مَّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبيدع حكيمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض، تجدها جبلاً مشبكية، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحر، وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنتظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضاً، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث مَنْ فِي الْقُبُورِ، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له

التذكر، وإنما ينتفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾.

﴿إن الله عزيز﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غفور﴾ لذنوب التائبين.

﴿٢٩٩ - ٣٠﴾ ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيها فيتركونها، وفي أخبارها فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات. ﴿سراً وعلانية﴾ في جميع الأوقات. ﴿يرجون﴾ [بذلك] تجارة لن تبور ﴿أي: لن تكسند وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إنه غفور شكور﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١ - ٣٥﴾ ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾ ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيهاحرير﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب والرسول، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿ومنهم مقتصد﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، الكثير من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بورثة الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿بيذن الله﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ أي:

(١) في ب: الإخلاص.

جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» فجنات عدن أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ آسَورٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الخلي الذي يجعل في البدن، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الخلية في الجنة سواء. ﴿وَيَجْلُونَ فِيهَا لَوْلُؤًا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم. ﴿وَيَلْبَسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ مِنْ سُنْدُسٍ، وَمِنْ إِسْتَبْرَقٍ أَخْضَرَ﴾

﴿وَيَلْبَسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ مِنْ سُنْدُسٍ، وَمِنْ إِسْتَبْرَقٍ أَخْضَرَ﴾ ما تم نعيمهم، وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يمرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبتهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الآباد.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شُكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار. ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا﴾

فيها لغوب﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويبيء لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة، لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَاتِهِمْ فِيمَاتُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلكم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشددة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآفات واللحظات.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ وهم يصطرخون فيها﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا﴾ أي: دهرأ وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعانكم في

الدنيا، وأدزنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وإبتلناكم بالسراء والضراء، لتبتيوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم

وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة؟ هيئات هيئات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصروهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلاً ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خِلَافَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله وما جاء به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له ويغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

من مقت الرب الكريم؟! **﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾** أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿٤٠﴾ **﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾** يقول تعالى مُعْجِزاً لآلهة المشركين، ومبيناً نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: **﴿أرأيتم﴾** أي: أخبروني عن شركائكم **﴿الذين تدعون من دون الله﴾** هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ **﴿أروني ماذا خلقوا﴾** [من الأرض] هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جاداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة **﴿في السموات﴾** في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

إذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركو الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتف، فلماذا قال: **﴿أم آتيناهم كتاباً﴾** يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. **﴿فهم﴾** في شركهم **﴿على بينة﴾** من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا**

نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، **﴿وما أروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾**.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دل على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذور العقول والذكاء والفتنة؟

أجاب تعالى بقوله: **﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾** أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالتقدم الضال، وأمانى متآها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿٤١﴾ **﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾** يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بامهال المذنبين، وعدم معالجته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لخصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه **﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾**

﴿٤٢﴾ **﴿٤٣﴾** **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما**

زادهم إلا نفوراً﴾ **﴿استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾** أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالإيمان الغليظة: **﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾** أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتاب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل **﴿ما زادهم﴾** ذلك **﴿إلا نفوراً﴾** زيادة ضلال وبغي وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوقفوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمى إليه سيئ باطل **﴿إلا بأهله﴾** فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحوهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يجلب بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يجلب به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤﴾ **﴿٤٥﴾** **﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا**

في الأرض إنه كان عليماً قديراً * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً * يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار، لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عقابته الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمروا الأرض^(١) أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته.

﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدته إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا﴾ من الذنوب ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة.

﴿ولكن﴾ يمهلهم تعالى ولا يمهلهم و ﴿يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر.

تم تفسير سورة فاطر،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة يس وهي مكية

﴿١-١٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من

بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه، وضع الأمر والنهي في الموضع^(٢) اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلها اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿إنك لمن المرسلين﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست بدع من الرسل، وأيضاً فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية، وأيضاً فمن تأمل أحوال^(٣) المرسلين وأوصافهم، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم، عرف أنك من خيار المرسلين، بما فيك من الصفات الكاملة، والأخلاق الفاضلة.

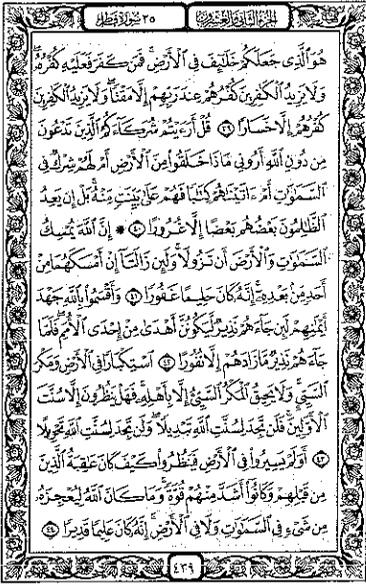
ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، لوهو رسالة الرسول محمد ﷺ، من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿على صراط مستقيم﴾ معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك

(١) كذا في ب، وفي أ: وعمروها.

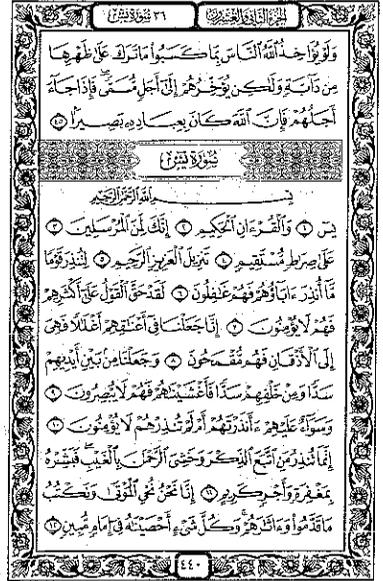
(٢) في ب: في المحل.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أصول.



الصراط المستقيم، مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة، المزكية للنفس، المطهرة للقلب، والتنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله ما نهبنا عليه، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه، وهذا الصراط المستقيم ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز الرحيم.

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزلوا خالين



من الكتب، عادمين الرسل، قد عنتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزيكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصا، وعلى غيرهم عموماً. ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد لما جنت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحيث دعوا فبالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ وهي جمع «غل» و «الغل»: ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١)، عزيمة قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت

(١) كذا في ب، وفي أ: الأذقان.

رؤوسهم إلى فوق، ﴿فهم مقمحون﴾ أي: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان، ﴿فهم لا يبصرون﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة. ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً! والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: ﴿إنما تنذر﴾ أي:

إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿من أتبع الذكر﴾ [أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به، ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فيشره بمغفرة﴾ لذنوبه، ﴿وأجر كريم﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

﴿إنما نحن نحيي الموتى﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال، ﴿ونكتب ما قدموا﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وياشروها في حال حياتهم، ﴿وأنا نرهم﴾ وهي آثار الخير وأثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقترن به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس،

وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي كتبت له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: ﴿من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾.

وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليفة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

﴿وكل شيء﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أحصيناه في إمام مبين﴾ أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿١٣ - ٣٠﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تمجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتماد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين. ﴿إذ جاءها

المرسلون من الله تعالى بأمرهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾ أي: قوريناها بثالث، فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم، ﴿فقالوا﴾ لهم: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل: ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلهنا﴾ أي:

فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟ قالت الرسل لأمتهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾.

﴿وما أنزل الرحمن من شيء﴾ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾

فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ فلو كنا كاذبين، لأظهر الله^(١) خزيها، ولبادرتها بالعقوبة.

﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي:

البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب، فليس إلينا، وإنما وظيفتنا - التي هي البلاغ المبين - قمنا بها، وبينناها لكم، فإن اهتديتم، فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتهم، فليس لنا من الأمر شيء.

فقال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿إننا تطيرنا بكم﴾ أي: لم نر على قدمكم علينا واتصالك بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة يُنعم الله بها على العباد، وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر، زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموها بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما^(٢) يصنع به عدوه.

ثم توعدهم فقالوا: ﴿لئن لم تنتهوا

لنرجنكم﴾ أي: نقتلنكم رجماً بالحجارة أشنع القتلات ﴿وليمسنكم منا عذاب اليم﴾

فقالت لهم رسلهم: ﴿طائركم معكم﴾ وهو ما معهم من الشرك والشر، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة. ﴿إن ذكرتم﴾ أي: بسبب أننا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم. ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ متجاوزون للحد، متجرهون في قولكم، فلم يزدكم [دعائهم] إلا نفوراً واستكباراً.

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل

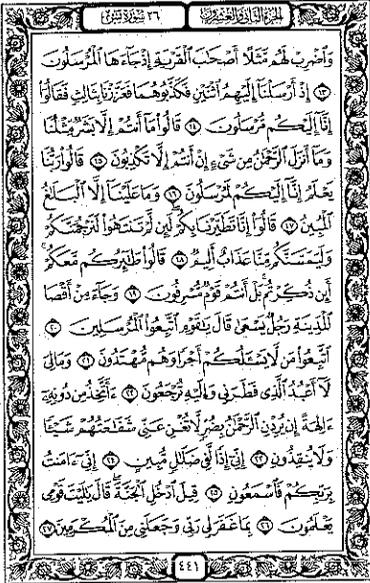
يسعى﴾ حرصاً على نصح قومه حين

سمع ما دعت إليه الرسل وأمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم، فقال [لهم]: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾

فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ أي: اتبعوا من نصحكم نصحاً يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم ولا أجراً على نصحه لكم وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.

بقي [أن يقال: فلعله يدعو ولا يأخذ أجره، ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وهم مهتدون﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.

فكان قومه لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لاثمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده، فقال: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾ أي: وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة، لأنه الذي فطرني، وخلقني ورزقني، وإليه مأل جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي



يستحق أن يُعبد، ويشى عليه ويمجد، دون من لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا عطاءً ولا منعاً، ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً، ولهذا قال: ﴿ألتخذ من دونه آلهة إن يرزق الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تغني شفاعتهم عني شيئاً، ولا هم ينفقون من الضر الذي أراداه الله بي.

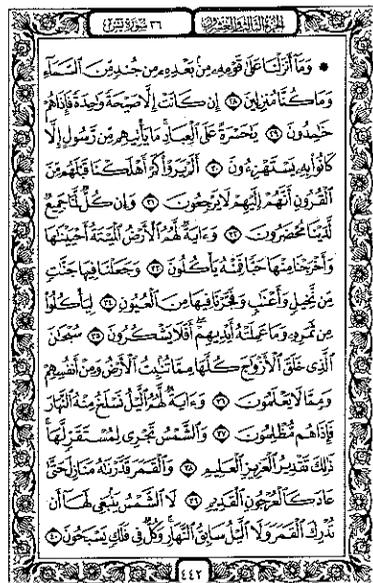
﴿إني إذا﴾ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لفي ضلال مبين﴾ فيجمع في هذا الكلام، بين نصحهم، والشهادة للرسول بالرسالة، والاهتداء والإخبار بتعيين^(٣) عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفة الشديد من قتلهم، فقال: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به.

﴿ف قيل﴾ له في الحال: ﴿ادخل الجنة﴾ فقال خجراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيدِهِ وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يا ليت قومي يعلمون﴾ بما غفر لي ربي: أي: بأي شيء غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات، ﴿وجعلني من المكرمين﴾

(٣) كذا في ب، وفي أ: بتعين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما.

(١) كذا في ب، وفي أ: لظهر خزيها.



أوجد الله هذه الشمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال. ﴿أفلا يشكرون﴾ من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم وديارهم، اليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبث فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذيق الشمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعتيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل، إنه على كل شيء قدير.

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ أي: الأصناف كلها، ﴿عما تنبت الأرض﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. ﴿ومن أنفسهم﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاتوا بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة. ﴿وما لا يعلمون﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد، ف سبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو وزير، أو عوين، أو سمي، أو شبيه، أو ممثل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يزيد.

﴿٣٧- ٤٠﴾ ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. ﴿آية لهم﴾ على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موتهم. ﴿الليل نسلخ منه النهار﴾ أي: نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، فبندله بالظلمة، ونحلها محله ﴿فإذا هم مظلمون﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة، التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومضالهم، ولهذا قال: ﴿والشمس تجري لمستقر

﴿٣١- ٣٢﴾ ﴿لم يروا كم أهلكتنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ وإن كل ما جميع لدينا محضرون. يقول تعالى: ألم يروهؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكتها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويعيشهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٣٣- ٣٦﴾ ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حياً فمنه ياكلون﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾ سبحان الذي خلق الأزواج كلها عما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون. ﴿آية لهم﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿الأرض الميتة﴾ أنزل الله عليها المطر، فأحيياها^(١) بعد موتها، ﴿وأخرجنا منها حياً فمنه ياكلون﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم، ﴿وجعلنا فيها﴾ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جنات﴾ أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿وفجرنا فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من العيون﴾

جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل والأعناب، ﴿ليأكلوا من ثمره﴾ قوتاً وفاكهة، وأدماً ولذة، ﴿و﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿ما عملته أيديهم﴾ [وليس لهم فيه صنع، ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم] بطبخ ولا غيره، بل

بأنواع الثوبت والمسرات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: [﴿وما أنزلنا على قومه﴾ من بعده من جند من السماء. ﴿أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وما كنا منزلين﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم. ﴿إن كانت﴾ أي: كانت عقوبتهم ﴿إلا صيحة واحدة﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله، ﴿فإذا هم خامدون﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام الفحيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عنائهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

(١) كذا في ب، وفي أ: فأصابها.

لها [أي: دائماً تجري لمستقر لها] قدره الله لها، لا تتعداه، ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ذلك تقدير العزيز الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام. «العلم» الذي بعلمه، جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

«والقمر قدرناه منازل» ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة، «حتى» يصغر جداً، فيعود «كالمرجون القديم» أي: عرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك، ما زال يزيد شيئاً شيئاً، حتى يتم [نوره] ويتسقى ضياؤه.

«وكل» من الشمس والقمر، والليل والنهار، قدره [الله] تقديراً لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد عدم الآخر، ولهذا قال: «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر» أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، «ولا الليل سابق النهار» فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه، «وكل» من الشمس والقمر والنجوم «في فلك يسبحون» أي: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر، وبرهان باهر، على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا

الموضع. ﴿٤١ - ٥٠﴾ «وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون» وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نفرقهم فلا صريح لهم ولا هم ينقذون * [إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين] * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحون * وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطمم من لو يشاء الله

أطمعه إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنعمة، الذي من جملة نعمه «أنا حملنا ذريتهم» قال كثير من

المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم. «وخلقنا لهم» أي: للموجودين من بعدهم «من مثله» أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه «ما يركبون» به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم، نعمة على الذرية. وهذا الموضع من أشكال المواضع علي في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وتم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية [بني] آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريراً للمعنى، تأباه فصاحة القرآن.

فإن أريد بقوله: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضاً، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال:

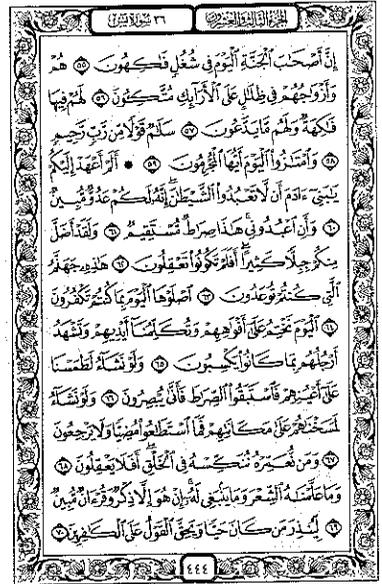
وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نفرقهم فلا صريح لهم ولا هم ينقذون * [إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين] * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحون * وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطمم من لو يشاء الله لعطممهم إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنعمة، الذي من جملة نعمه «أنا حملنا ذريتهم» قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم. «وخلقنا لهم» أي: للموجودين من بعدهم «من مثله» أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه «ما يركبون» به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم، نعمة على الذرية. وهذا الموضع من أشكال المواضع علي في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وتم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية [بني] آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريراً للمعنى، تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضاً، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال:

الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه، للأمر الحاضرة والماضية والمستقبلية، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم [صنعة] الفلك [البحرية] الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، [والمراكب البرية] مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياته فقال: «وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون» أي: المملوءة ركبناً وأمتعة.

فحملهم الله تعالى، وتجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها، من



الغرق، و [لهذا] نههم على نعمته عليهم حيث ^(١) أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وإن نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿ولا هم يتقذون﴾ مما هم فيه، ﴿إلا رحمة منا ومناعاً إلى حين﴾ حيث لم نفرقهم، لطفنا بهم، وعتبنا لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات لعلكم ترحمون﴾ أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾. وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بياناً.

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما يتفهمون في دينهم وديانهم. ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الرزق الذي من الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾

(١) كنا في ب، وفي أ: حين.

معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: ﴿أطعِمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [إلا في ضلال مبين] حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبدأ، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمتز واجتتاب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿ويقولون﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ وهي نفخة الصور ﴿تأخذهم﴾ أي: تصيبهم ﴿وهم يخصمون﴾ أي: وهم لاهون عنها، لم تحظر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾

﴿٥١ - ٥٤﴾ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداد إلى ربهم ينسلون ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ النفخة الأولى، هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور، فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداد والقبور، ينسلون إلى ربهم، أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر، وفي تلك الحال، يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون:

﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رعدة قبيل النفخ في الصور، فيجابون، فيقال [لهم]: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأياً عين.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخير عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يحظر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ و﴿خشعت الأصوات للرحمن﴾ ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إن كانت﴾ البعثة من القبور ﴿إلا صيحة واحدة﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد، ﴿فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ الأولون والآخرون، والانس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها، ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿٥٥ - ٥٨﴾ ﴿إن أصحاب الجنة﴾ اليوم في شغل فاكهون ﴿هم وأزواجهم في ظلل على الأرائك متكئون﴾ لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازي إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، بدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿في شغل فاكهون﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، ملذ لها، من كل ما تنوّه النفوس، وتلذذه العيون، ويتمناه المتمنون.

ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال: ﴿هم وأزواجهم﴾ من الجور العين، اللاتي قد

كانوا يكسبون ﴿٦٥﴾ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم. ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي: فبادروا إليه، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة، ﴿فأنى يبصرون﴾ وقد طمسنا أبصارهم.

﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائنتهم﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يبتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿٦٨﴾ ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ يقول تعالى: ﴿ومن نعمه﴾ من بني آدم ﴿ننكسه في الخلق﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الأدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴿ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من

المجرمون ﴿أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أن اعبدوني﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هَذَا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموااة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما علمتم ذلك، فإذا أعطتم الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفطيع في دار الشقاء: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما

جمعن حُسن الوجوه والأبدان وحُسن الأخلاق. ﴿في ظلال على الأراك﴾ أي: على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن. ﴿مشكثون﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿لهم فيها فاكهة﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين وزمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يدعون﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدرّكوه.

ولهم أيضاً ﴿سلام﴾ حاصل لهم ﴿من رب رحيم﴾ ففي هذا كلام الرب تعال لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قولا﴾ وإذا سلّم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولا أن الله تعال قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك.

فمرجور بنا أن لا يجرنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم:

﴿٥٩ - ٦٧﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائنتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿امتازوا اليوم أيها

أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون * هذه الآيات الكريمات، فيها ذكر [أشياء] شبيهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿أولم ير الإنسان﴾ المُنكر للبعث والشاك فيه، أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿من نطفة﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب، ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق، من باب أول.

﴿وضرب لنا مثلاً﴾ لا ينبغي لأحد أن يضره، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: ﴿قال﴾ ذلك الإنسان ﴿من يحيى العظام وهي رميم﴾ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضر هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ وهذا بمجرد تصويره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

يشكرون﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبادة والفكرة.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي ^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز: ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] ^(٢)، فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فتقضي الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

﴿وهم لهم جند محضرون﴾ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبريء بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

﴿٧٦﴾ ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدهون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

﴿٧٧-٨٣﴾ ﴿أولم ير الإنسان آتاه خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ وضررب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون *

جنس المحال أن يكون شاعراً، لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالون على رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له، ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم احتمال، وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح.

﴿وقرآن مبين﴾ أي: مبين لما يطلب بيانه. ولهذا حذف العمول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿لينذر من كان حياً﴾ أي: حي القلب وأعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية. ﴿ويحق القول على الكافرين﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يذنون بها.

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلّلها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أنقالتهم ومعاملتهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفاء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أئاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، ﴿أفلا

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

(٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقية كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور، وهو بكل خلق عليم.

هذا أيضاً دليل ثان من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم.

ثم ذكر دليلاً ثالثاً ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ فإذا أخرج [النار] اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادها وشدة تخالفهما، فإخراجها الموتى من قبورهم مثل ذلك.

ثم ذكر دليلاً رابعاً فقال: ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض﴾ على سعتهما وعظمتها ﴿بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي: [أن] يعيدهم [بأعينهم].

﴿بلى﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ﴿وهو الخلاق العليم﴾ وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

فإعادته للأموات، فرد من أفراد [آثار] خلقه، ولهذا قال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء. ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ أي: في الحال من غير تمنع.

﴿فسيحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له، وعبيد مسخرون ومدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكيمية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية.

فإعادته إياهم بعد موتهم، لينفذ

فيهم حكم الجزاء، من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ من غير امتراء ولا شك، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك.

فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس، فله [تعالى] الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

تفسير سورة الصافات، وهي مكية

﴿١ - ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والصافات صفاً﴾ فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً * إن إلهكم لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق * إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب * فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ هذا قسم منه تعالى باللائكة الكرام، في حال عبادتها وتبديرها ما تدبره بإذن ربها، على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿والصافات﴾ صفواً أي: صفوفاً في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿فالزاجرات زجراً﴾ وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى.

فلما كانوا متألّهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته فقال: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ أي: هو الخالق

أولئك الذين أنزلنا من السماء ماء فأنزلنا به لنا أكواناً من فوقهم وبها ينزلون ﴿١﴾ ﴿والصافات صفاً﴾ فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً * إن إلهكم لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق * إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب * فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ هذا قسم منه تعالى باللائكة الكرام، في حال عبادتها وتبديرها ما تدبره بإذن ربها، على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿والصافات﴾ صفواً أي: صفوفاً في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿فالزاجرات زجراً﴾ وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى.

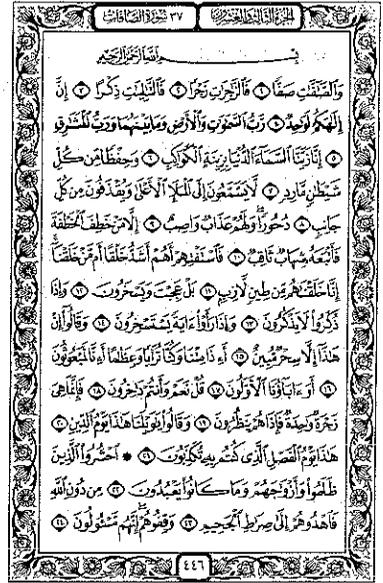
لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيراً ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضاً المشركون في العبادة، فيلزمهم بما^(١) أقروا به على ما أنكروه.

وخص الله المشارق بالذكر، لدلائنها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فهذا قال: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين:

إحداها: كونها زينة للسماء، إذ لولاها، لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيها، ولكن زينتها فيها لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى، وهم الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب النواقب * من كل جانب * طرداً لهم، وإبعاداً عن استماع ما يقول الملأ الأعلى.

(١) كذا في ب، وفي أ: ما.



﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي : دائم ، معد لهم ، كتمردهم عن طاعة ربهم .
ولولا أنه [تعالى] استثنى ، لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يسمعون شيئاً أصلاً ، ولكن قال : ﴿إِلَّا مَنْ خُطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي : إلا مَنْ تُلْفِط من الشياطين المردة ، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة ، ﴿فَأَتَّبَعَهُ شَهَابٌ نَاقِبٌ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه ، فيقطع خير السماء ، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب ، فيكذبون معها مئة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء .
وما بين هذه المخلوقات العظيمة قال : ﴿فَاسْتَفْتَهُمْ﴾ أي : أسأل منكري خلقهم بعد موتهم ، ﴿أَمْ أَشِدَّ خَلْقًا﴾ أي : إيجادهم بعد موتهم ، أشد خلقاً وأشق ؟ ﴿أَمْ مِنْ خَلْقِنَا﴾ من [هذه] المخلوقات ؟ فلا بد أن يقرروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس .

فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث ، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها ، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب ، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم ، ولهذا قال : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي : قوي شديد كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

(١) كذا في ب ، وفي أ : ترتيبهم .

صلصال من حمٍ مسنون﴾ .

الأولون﴾

﴿١٢ - ٢١﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ

وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِرُوا

لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةَ

يَسْتَسْخَرُونَ * وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مِيقِينَ * أَعِزَّا مَتْنًا وَكِنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّنَا

لَبِعِوْثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ * قُلْ

نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ

وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا

يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ

الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ

عَجِبْتَ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان ،

من تكذيب مَنْ كَذَبَ بالبعث ، بعد أن

أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة

المستقيمة ، وهو حقيقة محل عجب

واستغراب ، لأنه ما لا يقبل الإنكار ،

﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه ،

أنهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن

البعث ، فلم يكفهم مجرد الإنكار ، حتى

زادوا السخرية بالقول الحق .

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إِذَا

ذُكِرُوا﴾ ما يعرفون في فطرهم

وعقولهم ، وفطنوا له ، وألفت نظرهم

إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك ، فإن كان

جهلاً ، فهو من أدل الدلائل على شدة

بلادتهم العظيمة ، حيث ذكروا ما هو

مستقر في الفطر ، معلوم بالعقل ، لا

لا يقبل الإشكال ، وإن كان تجاهلاً

وعناداً ، فهو أعجب وأغرب .

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت

عليهم الأدلة ، وذكروا الآيات التي

يخضع لها فحول الرجال والباب

الآباء ، يسخرون منها ويعجبون .

ومن العجب أيضاً ، قولهم للحق لما

جاءهم : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِيقِينَ﴾

فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها ، وهو

الحق ، في رتبة أحسن الأشياء

وأجهرها .

ومن العجب أيضاً ، قياسهم قدرة

رب الأرض والسماوات ، على قدرة

الآدمي الناقص من جميع الوجوه ،

فقالوا استبعاداً وإنكاراً : ﴿إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا

تَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّنَا لَبِعِوْثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا

ولما كان هذا منتهى ما عندهم ، وغاية ما لديهم ، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم (١) ، فقال : ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ ﴿سَبِعْثُونَ﴾ ، أنتم وآبائكم الأولون ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ ذليلون صاغرون ، لا تمتنعون ، ولا تستعصون على قدرة الله .

﴿فإنما هي زَجْرَةٌ واحدة﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فإذا هم﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿ينظرون﴾ كما ابتدئ خلقهم ، بعثوا بجميع أجزائهم ، حفاة عراة غرلاً ، وفي تلك الحال ، يظهرن الندم والحزني والخسار ، ويدعون بالويل والثبور .

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ فقد أقرروا بما كانوا في الدنيا به يستهزؤون .

فيقال لهم : ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق ، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق .

﴿٢٢ - ٢٦﴾ ﴿احشروا الذين

ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون *

من دون الله فاهدوهم إلى صراط

البحيم * وقفوههم إنهم مسؤولون *

ما لكم لا تنصرون * بل هم اليوم

مستسلمون﴾ أي : إذا أحضروا يوم

القيامة ، وعابنوا ما به يكذبون ، ورأوا

ما به يستسخرون ، يؤمر بهم إلى النار ،

التي بها كانوا يكذبون ، فيقال :

﴿احشروا الذين ظلموا﴾ أنفسهم

بالكفر والشرك والمعاصي ،

﴿وأزواجهم﴾ الذين من جنس

عملهم ، كل يضم إلى مَنْ يجانس في

العمل .

﴿وما كانوا يعبدون﴾ من

دون اللّٰهِ من الأصنام والأنداد التي

زعموها ، فاجعومهم جميعاً ﴿فاهدوهم

إلى صراط البحيم﴾ أي : سوقوهم

سوقاً عنيفاً إلى جهنم ، وبعد ما يتعين

أمرهم إلى النار ، ويعرفون أنهم من أهل

دار البوار، يقال: ﴿وقفروهم﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿إنهم مسؤولون﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، يظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

يقال لهم: ﴿مالمكم لا تناصرون﴾ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرفكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، عندما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾.

﴿٢٧ - ٣٩﴾ ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهة ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها. ﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إننا لتاركوا آلهتنا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يفهمهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ أي: وبعجته صدق المرسلين [فلولا بحجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم لؤمنن به

﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي: قهر لكم على اختيار الكفر ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ متجاوزين للححد.

﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم ﴿إننا لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿ف﴾ لذلك ﴿أغويناكم إنا كنا غاوين﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾ يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إننا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهة ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إننا لتاركوا آلهتنا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يفهمهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ أي: وبعجته صدق المرسلين [فلولا بحجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم لؤمنن به

مالمكم لا تناصرون ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴿قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم ﴿إننا لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿ف﴾ لذلك ﴿أغويناكم إنا كنا غاوين﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم. قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إننا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهة ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها. ﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إننا لتاركوا آلهتنا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يفهمهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

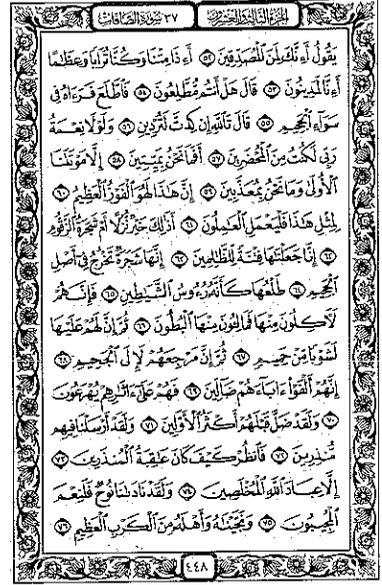
ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أمهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم حججته، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

وصدق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأمن بهم، وأخير بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إننا لذائقون﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي: المؤلم الموجه، ﴿وما تجزون﴾ في إذابة العذاب الأليم ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ أي: وبعجته صدق المرسلين [فلولا بحجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم لؤمنن به

(١) كذا في ب، وفي أ: للحق.



ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف
عين * كأنهن بيض مكنون .

يقول تعالى: ﴿إلا عباد الله
المخلصين﴾ فإنهم غير ذائقى العذاب
الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال،
فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد
عليهم بلطفه، ﴿أولئك لهم رزق
معلوم﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو
رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره،
ولا يبلغ كنهه، فسره بقوله:
﴿فواكه﴾ من جميع أنواع الفواكه التي
تتفكه بها النفس، للذتها في لونها
وطعمها. ﴿وهم مكرمون﴾ لا مهانون
محتقرون، بل معظمون مجلون
موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً،
وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا
يدخلون عليهم من كل باب،
ويشئونهم ببلوغ أنها الثواب، وأكرمهم
أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع
الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح
والأبدان، ﴿في جنات النعيم﴾ أي:
الجنات التي النعيم وصفها، والسرور
نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين
رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر، وسلمت من كل مخل
بنعيمها، من جميع المكدرات
والمنغصات .

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام
بعضهم بعضاً، أنهم على ﴿سرور﴾ وهي
المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية

الفاخرة، المزخرفة الجملة، فهم
متكثرون عليها على وجه الراحة
والطمأنينة والفرح. ﴿متقابلين﴾ فيما
بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما
بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع
بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على
تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع
بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى
جانبه، بل من كمال السرور والأدب
ما دل عليه ذلك التقابل .

﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾
أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم
بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة
المنظر، المترعة من الرحيق المختوم
بالمسك، وهي كاسات الخمر .

وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من
كل وجه، فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من
أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذة﴾
للشاربين، يتلذذ شاربها بها وقت
شربها وبعده، وأنها سالمة من غول
العقل وذهايه ونزفه ونزف مال
صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر،
فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم،
وعموم النعيم وتفاضيله داخلة في
قوله: ﴿جنات النعيم﴾ .

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم
فتشاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم
فقال: ﴿وعندهم قاصرات الطرف
عين﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في
محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات
الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها
قصرت طرفها على زوجها، لعفتها
وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها
وكمالها، بحيث لا تطلب في الجنة
سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها
قصرت طرف زوجها عليها، وذلك
يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي
أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها،
وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر
النفوس والمحبة عليها، وكلا المعنيين
محتمل، وكلاهما صحيح، و [كل]
هذا يدل على جمال الرجال والنساء في
الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة
لا يطمح إلى غيره، وشدة غفثتهم
كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعض

ولا تشاحن، وذلك لانفء أسبابه .
﴿عين﴾ أي: حسان العين
جميلاًها، ملاح الحدق، ﴿كأنهن﴾
أي: الحور ﴿بيض مكنون﴾ أي:
مستور، وذلك من حسنهن وصفاتهن
وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها،
ليس فيه كدر ولا شين .

﴿٥٠ - ٦١﴾ ﴿فأقبل بعضهم على
بعض يتساءلون * قال قائل منهم إنني
كان لي قريين * يقول إنك لمن
المصدقين * إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً
أنا لمدنيون * قال هل أنتم مطمعون *
فاطلع فرأه في سواء الجحيم * قال
تالله إن كنت لتردين * ولولا نعمة ربي
لكنت من المحضرين * أما نحن
بميتين * إلا موتنا الأولى وما نحن
بمعدنين * إن هذا لهو الفوز
العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون﴾
لما ذكر تعالى نعيمهم وتمام سرورهم،
بالمآكل والمشرب، والأزواج الحسان،
والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما
بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن
الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في
المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك
بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إنني كان
لي قريين﴾ في الدنيا ينكر البعث،
ويلومني على تصديقي به، و ﴿يقول﴾
لي ﴿إنك لمن المصدقين﴾ إذا متنا وكنا
تراباً وعظاماً أنا لمدنيون﴾ أي: مجازون
بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر
البعيد، الذي في غاية الاستغراب،
وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً،
أنا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى
بأعمالنا؟!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه:
هذه قصتي، وهذا خبري، أنا
وقريتي، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً،
وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث، حتى
متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون
من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل،
وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب .
ف ﴿هل أنتم مطمعون﴾ لتنظر إليه،
فتزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه،
ويكون ذلك رأي عين؟ والظاهر من
حال أهل الجنة، وسرور بعضهم

بعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له، للاطلاع على قرينه، ﴿فاطلع﴾ فرأى قرينه ﴿في سواء الجحيم﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

﴿قال﴾ له لائماً على حاله، وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيدِه: ﴿تالله إن كدت لتردين﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزعمك، ﴿ولولا نعمة ربِّي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لكنت من المحضرين﴾ في العذاب معك ﴿أفما نحن بميتين﴾ إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴿أي:﴾ يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب استفهام بمعنى الإنبيات والتقريب أي: يقول لقرينه العذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب^(١).

وقوله: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل، فقال: ﴿إن هذا لهُوَ الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تبوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل مخذور ومكروه، فهل فوز يطلب

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من: ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إبقاءه لعدم شطبه في: أ.
(٢) كذا في: ب، وفي: أ: معدن.

وجعلنا ذُرِّيَّتَهُمُ الْيَتَامَى ﴿ وَرَكَّعَا عَلَيْهِ فِي الْأَجْنَى ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُورٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿ إِنَّكَ لَكُلِّ نَجْوَى الْخَلْقِينَ ﴿ أَتَمِّنُونَ عِندَ الْيَتَامَى ﴿ ثُمَّ أَتَمِّنُوا الْأَخْرَى ﴿ وَكَانَ مِنْ سَبْعِينَ لَيْلَةً رَجِيمٍ ﴿ إِذْ بَعَثَ رَبُّكَ قَلْبَ سَلِيمٍ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّدٍ وَقَوِيهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿ أَفَبِكُلِّ عِبَادَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿ فَأَطَعْتُ رَبِّي الْقَائِلِينَ ﴿ فَطَرْنَا ظِلَّةً فِي السُّجُودِ ﴿ وَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ ﴿ تَوَلَّوْا عَنِّي مُزَيَّرِينَ ﴿ فَسَرَّعَ إِلَيَّ الْعَبْرَةَ ﴿ فَتَقَالُ الْأَعْقَابُونَ ﴿ مَا كُنَّا لَنَطْفِئُونَ ﴿ وَأَعْرَجَ عَلَيْهِمْ حُرْمًا بِالْحَسِينِ ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ قُرُونًا ﴿ قَالَ تَعْبُدُونَ مَا تَدْعُونَ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا لَكُمْ رَسُولًا لِمَا تَعْبُدُونَ ﴿ فَآذَنُوا بِهِ وَبَوَّكْنَا لَهُمْ فَاتَمَّوْنَا إِلَيْهِ ﴿ وَقَالَ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّبِّ صَوْمًا ﴿ رَبِّي سَمِعَ لَيْلَةَ الْقَائِلِينَ ﴿ فَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ سَلِيمٍ ﴿ مَا كَانَ يَلْمِزُكَ مِنَ الشَّيْءِ ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿ وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ سَتَلِدُنَّ أَوْلَادًا ﴿ فَكَلِمَاتُ اللَّهِ أَتَمَّ

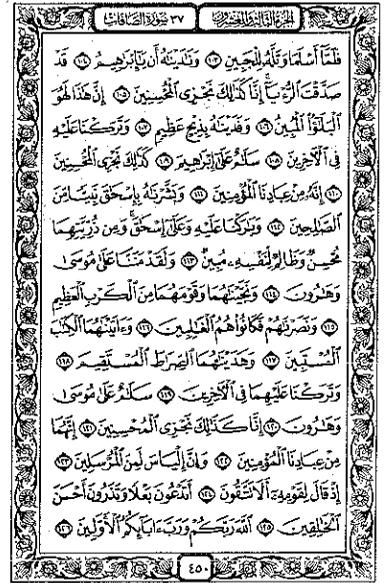
ولهذا قال: ﴿فإنهم لا يكون منها فمالتون منها البطون﴾ فهذا طعام أهل النار، فيفس الطعام طعامهم، ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثم إن لهم عليها﴾ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لنشوبا من حميم﴾ أي: ماء جاراً، قد انتهى، كما قال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ وكما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾

﴿ثم إن مرجعهم﴾ أي: ما لهم ومقرهم ﴿وما وأهم﴾ لآل الجحيم ﴿ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء، وكأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إنهم ألفوا﴾ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالين﴾ فهم على آثارهم يهرعون ﴿أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾

﴿ولقد ضل قبلهم﴾ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أكثر الأولين﴾ وقليل منهم آمن واهتدى. ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من: ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إبقاءه لعدم شطبه في: أ.

(٢) كذا في: ب، وفي: أ: معدن.



ينذروهم عن غيرهم وضلالهم،
فانظر كيف كان عاقبة المنذرين
كانت عاقبتهم الهلاك والحزني
والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا
على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما
أصابهم.

ولما كان المنذرون ليسوا^(١) كلهم
ضالين، بل منهم من آمن وأخلص
الدين لله، استثناه الله من الهلاك
فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي:
الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته
لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت
حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم
المكذبة، فقال:

﴿٧٥ - ٨٢﴾ ولقد نادانا نوح
فلنعم الجيبون * ونجيناه وأهله من
الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم
الباقين * وتركنا عليه في الآخرين *
سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك
نجزي المحسنين * إنه من عبادنا
المؤمنين * ثم أغرقتنا الآخرين * يخبر
تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه
السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه
إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يرددهم
دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال:
﴿رب لا تدركني الأرض من الكافرين
دياراً﴾ الآية.

وقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله له، ومدح
تعالى نفسه فقال: ﴿فَلْيَنْعَمِ الْجَبِينُ﴾
للدعاء الداعين، وسماع تبتلهم
وتضرعهم، أجابه إجابة طابق ما
سأل، ونجاه وأهله من الكرب العظيم،
وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله
وذريته متسلسلين، فجميع الناس من
ذرية نوح عليه السلام، وجعل له نناء
حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين،
وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق،
محسن إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في
المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على
حسب إحسانهم.

ودلّ قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل
العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع
الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح
به خواص خلقه.

﴿٨٣ - ١١٣﴾ وإن من شيعته
إبراهيم ﴿إلى آخر القصة، أي: وإن
من شيعه نوح عليه السلام، ومن هو
على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة
الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم
الخليل عليه السلام.﴾ إذ جاء ربه
بقلب سليم ﴿من الشرك والشبه،
والشهوات المانعة من تصور الحق
والعمل به، وإذا كان قلب العبد
سليماً، سلم من كل شر، وحصل له
كل خير، ومن سلامته، أنه سليم من
غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من
مساوىء الأخلاق، ولهذا نصح الخلق
في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا
استفهام بمعنى^(٢) الإنكار، والزام لهم
بالحجة.

﴿أَفَكُلَّمَا نَادَاكَ رَبُّكَ أَنْ
تَعْبُدُونَ [مِن دُونِهِ] آلِهَةً كَذِبًا، ليست
بالهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم
برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم
معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء
بالعقاب على الإقامة على شركهم.
وما الذي ظننتم برب العالمين، من

النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.
فأراد عليه السلام أن يكسر
أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهز
الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى
عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فنظر
نظرة في النجوم * فقال إني سقيم﴾.

في الحديث الصحيح: ﴿لم يكذب
إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات:
قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله
كبيرهم هذا﴾ وقوله عن زوجته ﴿إنها
أختي﴾، والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم
له الكيد بالهتهم ﴿فلهذا﴾ تولوا عنه
مدبرين ﴿فلما وجد الفرصة،﴾ فرأى
إلى الهتهم﴾ أي: أسرع إليها على وجه
الخفية والمرارة، ﴿فقال﴾ متهمكماً بها
﴿ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون﴾

أي: فكيف يلبق أن تعبد، وهي انقص
من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه
جهد لا تأكل ولا تكلم. ﴿فرأى عليهم
ضرباً باليمين﴾ أي: جعل يضربها
بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاداً، إلا
كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون،
﴿فأقبلوا إليه يذفون﴾ أي: يسرعون
ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به،
بعدما بحشوا وقالوا: ﴿من فعل هذا
بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾.

وقيل لهم: ﴿سمعنا قتي يذكركم
يقال له إبراهيم﴾ يقول: ﴿تالله لأكيدن
أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾
فوبخوه ولاموه، فقال: ﴿بل فعله
كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا
ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا
إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على
رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء
ينطقون * قال أتعبدون من دون الله
ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾
الآية. و ﴿قال﴾ هنا: ﴿أتعبدون ما
تنتحون﴾ أي: تنتحونه بأيديكم
وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم
الذين صنعتموهم، وتشركون
الإخلاص لله؟ الذي ﴿خلقكم وما
تعملون﴾ قالوا ابتوا له بنياناً ﴿أي:
عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار

(٢) في ب: على وجه.

(١) كذا في: ب، وفي أ: ليس.

﴿فألقوه في الجحيم﴾ جزاء على ما فعل من تكسير ألتهم.

﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سبيدين﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوري عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿رب هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم يرَ فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده الإشارة ﴿بإسحاق﴾ ولأن الله تعالى قال في بشرناه بإسحاق ﴿فبشرناها﴾ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلّم، وهو ينضمّن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عمن جنى﴾.

﴿فلما بلغ﴾ الغلام ﴿معه السمي﴾ أي: أدرك أن يسمى معه، وبلغ سنّاً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أني أدبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤياً^(١) الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وبارزاً بالوَالِدِ: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن﴾

شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلماً﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وتله للجبين﴾ أي: تلّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿وناديسناه﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم﴾ قد صدقت ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه، ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبيب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بآبائه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حبّ ربه، فلما قدّم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبيح لا فائدة فيه، فلماذا قال: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ وفديناه بذبح عظيم﴾ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداه لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم

القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلاماً على إبراهيم﴾ أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه ﴿فيه﴾ محبوب معظم مثني عليه.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقولته: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ هذه الإشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورثته يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذرئتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ - ١١٢﴾ ﴿ولقد منا على﴾

أي: من ربه مغاضباً له، طائناً أنه لا يقدر عليه، ويجبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما دُكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبقى لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما [افترعوا] أصابت القرعة يونس ﴿فكان من المدحضين﴾ أي: المغلوبين، فألقى في البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾ وقت التقامة ﴿مليماً﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

﴿لئب في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. ﴿فنبذناه بالعراء﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عازية من الأشجار والظلال. ﴿وهو متقيم﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ المعوط من البيضاء.

﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ ثناء حسناً، ﴿سلام على إن ياسين﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴿إلا هجوراً في الغابرين﴾ ثم دمرنا الآخرين ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ وبالليل أفلا تعقلون ﴿وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونبيه عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا﴾.

﴿إلا هجوراً في الغابرين﴾ أي: الباقين المعدنين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ بأن قلنا عليهم ديارهم ﴿فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ حتى همدوا وهمدوا.

﴿وإنكم لتمرون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مصبحين﴾ وبالليل ﴿أي: في هذه الأوقات يكثرت تردكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿أفلا تعقلون﴾ الآيات والعبير، وتنزجرون عمقا يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩ - ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إذ أبقى﴾

موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة يذكر تعالى مثته على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداها الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكة.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ سلام على موسى وهارون ﴿أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين﴾ ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴿﴾.

﴿١٢٣ - ١٣٢﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ إلا عباد الله المخلصين ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إن ياسين ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورياهم فأحسن تربيتهم، وأدرج عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم؟! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغنى؟!﴾

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم يتقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فإنهم لمحضرون﴾ أي: يوم القيامة

ثم لطف به لطفاً آخر، وأمننَّ عليه
مئة عظمى، وهو أنه أرسله ﴿إلى مئة
ألف﴾ من الناس ﴿أو يزيدون﴾ عنها،
والمعنى أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا،
فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فأمتوا﴾ فصاروا في موازينه، لأنه
الداعي لهم، ﴿فتمتعناهم إلى حين﴾
بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما
انعدت أسبابه، قال تعالى: ﴿فلولا
كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم
يونس لما أمتوا كشفنا عنهم عذاب
الخنزي في الحياة الدنيا وتمتعناهم إلى
حين﴾.

﴿١٤٩ - ١٥٧﴾ ﴿فاستفتهم

ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا
الملائكة إنائاً وهم شاهدون * ألا إنهم
لكاذبون * أصطفى البنات على
البنين * ما لكم كيف تحكمون *
أفلا تذكرون * أم لكم سلطان
مبين * فأتوا بكتابتكم إن كنتم
صادقين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ:
﴿فاستفتهم﴾ أي: أسأل المشركين بالله
غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا
أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله
ووصفه بما لا يليق بجلاله، ﴿ألربك
البنات ولهم البنون﴾ أي: هذه تسمية
ضيزى، وقول جائر، من جهة جعلهم
الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أرباً
القسمين وأخسهما له وهو البنات التي
لا يرصونهن لأنفسهم، كما قال في
الآية الأخرى ﴿ويجعلون لله البنات
سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ ومن جهة
جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم
بذلك.

قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أم
خلقنا الملائكة إنائاً وهم شاهدون﴾
خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم
ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا
هذا القول بلا علم، بل افتراء
على الله، ولهذا قال: ﴿ألا إنهم من
إفكهم﴾ أي: كذبهم الواضح

(١) كذا في ب، وفي أ: لم يكن.

﴿ليقولون * ولد الله وإنهم
لكاذبون﴾

﴿أصطفى﴾ أي: اختار ﴿البنات
على البنين﴾ ما لكم كيف تحكمون﴾
هذا الحكم الجائر ﴿أفلا تذكرون﴾
وتميزون هذا القول الباطل الجائر،
فإنكم لو تذكروتم لم تقولوا هذا القول.
﴿أم لكم سلطان مبين﴾ أي: حجة
ظاهرة على قولكم، من كتاب أو
رسول.

وكل هذا غير واقع، ولهذا قال:
﴿فأتوا بكتابتكم إن كنتم صادقين﴾ فإن
من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة
شرعية، فإنه كاذب متعمد، أو قائل
على الله بلا علم.

﴿١٥٨ - ١٦٠﴾ ﴿وجعلوا بينه

وبين الجنة نسياً ولقد علمت الجنة إنهم
لمحضرون * سبحان الله عما
يصفون * إلا عباد الله المخلصين﴾
أي: جعل هؤلاء المشركون بالله
بين الله وبين الجنة نسياً، حيث زعموا
أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم
سروات الجن، والحال أن الجنة قد
علمت أنهم محضرون بين يدي الله،
[ليجازيم] عباداً أذلاء، فلو كان بينهم
وبينه نسب لم يكونوا^(١) كذلك.

﴿سبحان الله﴾ الملك العظيم،
الكمال الخليم، عما يصفه به المشركون
من كل وصف أوجب كفرهم
وشركهم.

﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ فإنه لم
ينزه نفسه عما وصفه به، لأنهم لم
يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك
كانوا مخلصين.

﴿١٦١ - ١٦٣﴾ ﴿فإنكم وما

تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا
من هو صال الجحيم﴾ أي: إنكم أيها
المشركون ومن عبدتموه مع الله،
لا تقدرون أن تقتنوا وتضلوا أحداً، إلا
من قضى الله أنه من أهل الجحيم،
فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من

﴿فكروا بأنهم لمحضرون﴾ إلا عباد الله المخلصين
﴿وربكم أنا الذين﴾ سألنا آل بيوتنا ﴿إنا
لكم بحجري المخلصين﴾ إنهم صواب المؤمنين
﴿واللوط لما لئى المؤمنين﴾ إنهم صواب المؤمنين
﴿والإبراهيم واليساى﴾ كبريتة المؤمنين ﴿واللهم
تسبون عليهم مخلصين﴾ وآليل أفلا تذكرون
﴿وأروى من المؤمنين﴾ إذ أتى آل العاقبة أئمة
﴿فساهمة كانوا للمؤمنين﴾ فالله الموثق وهو يثبت
﴿فقال الله كان من السجين﴾ آية وظهوره إن
﴿يؤيدون﴾ ﴿فبذلك بالعلم وهو يثبت﴾ وأبنا
﴿عليهم سجدة من بطين﴾ وأرسلنا آل الله إلى آل يزيدون
﴿فأتوا بكتابتكم﴾ فاستفتهم آلهم
﴿البنات ولهم البنون﴾ أن خلقنا الملائكة إننا
﴿شاهدون﴾ ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ ولهم
﴿بنات ولهم البنون﴾ أصطفى آلنا على آلهم

هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن
إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله
تعالى، أي: فلا تطمعوا بإضلال
عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿١٦٤ - ١٦٦﴾ ﴿وما منا إلا له

مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون *
وإنا لنحن السبعون﴾ هذا [فيه] بيان
براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله
فيهم المشركون، وأنهم عباد الله،
لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من
أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله به،
لا يتعداه ولا يتجاوزاه، وليس لهم
من الأمر شيء.

﴿وإنا لنحن الصافون﴾ في
طاعة الله وخدمته ﴿وإنا لنحن
المسبحون﴾ لله عما لا يليق به.
فكيف - مع هذا - يصلحون أن
يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

﴿١٦٧ - ١٨٢﴾ ﴿وإن كانوا

ليقولون * لو أن عندنا ذكراً من
الأولين * لكتا عباد الله المخلصين *
ولقد فكفروا به فسوف يعلمون * ولقد
سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم
لهم المنصورون * وإن جندنا لهم
الغالبون * فتول عنهم حتى حين﴾ إلى
آخر السورة. يخبر تعالى أن هؤلاء
المشركين يظهرون الثمني، ويقولون:
لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء



الأولين، لأخلصنا لله العباد، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، فسوف يملعون العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عن من عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يجلبهم من العذاب، ولهذا قال: «وأبصرهم فسوف يبصرون» من يحمل به النكال، فإنه سيحل بهم. «فإذا نزل بساحتهم» أي: نزل عليهم، وقریباً منهم «فساء صباح المنذرين» لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب. ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من

(١) زيادة من ب.

أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: «سبحان ربك» أي: تنزه وتعالى «رب العزة» [أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصقونه به، وسلام على المرسلين] لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات.

«والحمد لله رب العالمين» الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدر عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكنونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة].^(١)

تسم تفسير سورة الصافات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣هـ على يد جامعهم وكاتبه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصى الله على سيدنا محمد وسلم تسليمًا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المجلد السابع من تيسير الكريم الضان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجمع المسلمين

تفسير سورة ص وهي مكية

١١ - ١ «بسم الله الرحمن الرحيم ص والقرآن ذي الذكر» * بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا

لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أنزل عليه الذكر من بينا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: «ص والقرآن ذي الذكر» أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقينه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه.

فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم «عزة وشقاق» عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة وخاصة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن «لات حين مناص» أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليخذل هؤلاء أن يدوموا على عزيم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم، وتام الانقياد له.

ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هذا ساحر كذاب﴾ وذبّه - عندهم - أنه ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده. ﴿إن هذا الذي جاء به﴾ لشيء عجائب. أي: يقضي منه العجب لبطانه وفساده. ﴿وانطلق الملأ منهم﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿إن امشوا واصبروا على الكهتكم﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدركم عن عبادتها صاد. ﴿إن هذا الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها﴾ لشيء يراد. أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نية، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الحجج والبراهين، وهم قصدهم، أن محمداً، ما دعاكم إلى ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون معظماً عندكم، متبوعاً ﴿ما سمعنا بهذا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿في الملة الآخرة﴾ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آياتنا، ولا أبأونا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه، وهذه أيضاً شبهة من جنس شبهتهم الأولى، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه

آباؤهم الضالون، فأين في هذا ما يدل على بطلانه؟

﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي: ما الذي فضله علينا، حتى ينزل الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به؟ وهذه أيضاً شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا هذا الوصف، يُمن الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله، ولهذا لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخبر تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿في شك من ذكري﴾ ليس عندهم علم ولا بينة.

فلما وقعوا في الشك وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الانتفاك منهم.

ومن المعلوم، أن من هو بهذه الصفة يتكلم عن شك وعناد، إن قوله غير مقبول، ولا قاذح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الدم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا تورعدهم بالعذاب، فقال: ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أي: قالوا هذه الأقوال، وتجرؤوا عليها، حيث كانوا متعين في الدنيا، لم يصيبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرؤوا.

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ فيعطون منها من شاؤوا، ويمنعون منها من شاؤوا، حيث قالوا: ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتى يتحجروا على الله.

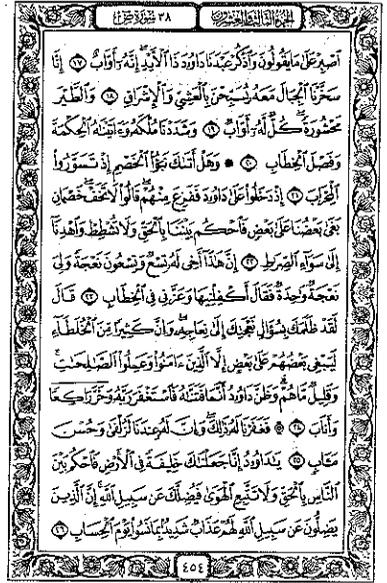
﴿أم لهم ملأ السموات والأرض وما بينهما﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون. ﴿فليرققوا في الأسباب﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 مِنَ الَّذِينَ دَعَا الدُّكْرُ إِلَى الْذُّكْرِ فِي عَرَفَاتٍ وَمَشَايِ
 كَرَاهَةً كَانُوا يَكْفُرُونَ فَذَكَرْنَا لَهُمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَّمَكُمُ اللَّهُ
 لَعَلَّكُمْ أَتَقُونَ إِنَّ كَلِمَتَهُ نَجْمٌ وَنَضَائِجُ الْكَلِمَاتِ
 يَشْفَعُ أَمْسُؤًا وَنَسْؤًا وَعَمُّوهُمُ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ هَذَا كَلِمَةٌ مِنْ رَبِّكَ
 مَا تَسْمَعُونَ هَذَا فِي اللَّهِ الْآخِرُ وَإِنْ هَذَا إِلَّا آخِثٌ لَكُمْ
 عَلَيْهِ الدُّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا لَمْ نُرِ فِي سَكِينٍ وَذِكْرِي لَكُمْ لَا يُلْغِي عَنْكُمْ
 آيَاتِي وَتَعْلِيمِي فَتَنْصَرُّوا وَيَسْمَعُوا كَلِمَةَ رَبِّكَ أَمَّا لَكُمْ
 الْكُفْرَاتُ وَالْأَفْسُوسُ وَتَوَلَّيْتُمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ
 جُنْدًا مَاهَمْتُمْ اللَّهُ مَعَهُمْ مِنْ الْأَحْزَابِ كَذَّبْتُمْ قِيَامَهُمْ
 قَوْمٌ فَجُّونَ وَعَادُوا فِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ وَمَعَهُمْ قَوْمٌ
 وَأَصْحَابُ الْأَحْزَابِ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا كَذَّابِينَ
 الرُّسُلَ حَقَّ عِقَابٌ وَمَنْ يَنْظُرْ خُلُوفَ الْأَمْسِجَةِ كَعِدَةٍ
 فَلْيَنْظُرْ قَوْمًا وَقَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنْزِيلِكَ الْكِتَابَ

التحزب والتجند، والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحق؟ وهو الواقع فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾

﴿١٢ - ١٥﴾ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وهمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب * وما ينظروهم هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق * يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزبا على الباطل، ﴿قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد﴾ أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة، ﴿وثمود﴾ قوم صالح، ﴿وقوم لوط وأصحاب الأيكة﴾ أي: الأشجار والساتين الملتفة، وهم قوم شعيب، ﴿أولئك الأحزاب﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعددهم وعددهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئا.

﴿إن كل﴾ من هؤلاء ﴿إلا كذب الرسل فحق﴾ عليهم ﴿عقاب﴾ الله، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويكفيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك. فليتنظروا ﴿صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ أي: من رجوع ورد، تهلكهم



وتستاصلهم إن أقاموا على ما هم عليه .

﴿١٦ - ١٧﴾ وقالوا ربنا جعل لنا

قطننا قبل يوم الحساب * اصبر على ما يقولون * أي : قال هؤلاء المكذبون ، من جهلهم ومعادتهم الحق ، مستعجلين للعذاب : ﴿ربنا جعل لنا قطننا﴾ أي : قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قبل يوم الحساب﴾ ولجوا في هذا القول ، وزعموا أنك يا محمد ، إن كنت صادقاً ، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب ، فقال لرسوله : ﴿اصبر على ما يقولون﴾ كما صبر من قبلك من الرسل ، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً ، ولا يضرونك في شيء ، وإنما يضررون أنفسهم .

﴿١٧ - ٢٠﴾ واذكر عبدنا داود ذا

الأيد إنه أوأب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كل له أوأب * وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب * لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه ، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده ، ويتذكر حال العابدين ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ .

ومن أعظم العابدين ، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذا الأيد﴾ (١) أي : القوة العظيمة على عبادة الله تعالى ، في بدنه وقلبه . ﴿إنه أوأب﴾ أي : رجأع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه ، بالحلب والتأله ، والخوف والرجاء ، وكثرة التضرع والدعاء ، رجأع إليه عندما يقع منه بعض الخلل ، بالإقلاع والتوبة النصوح .

ومن شدة إجابته لربه وعبادته ، أن سخر الله الجبال معه ، تسبح معه بحمد ربه بالعشي والإشراق ﴿أول النهار وأخره﴾ .

﴿و﴾ سخر ﴿الطير محشورة﴾ معه مجموعة ﴿كل﴾ من الجبال والطير ، الله تعالى ﴿أوأب﴾ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ فهذه مئة الله عليه بالعبادة ، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال : ﴿وشددنا ملكه﴾ أي : قوته بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه ، ثم ذكر منته عليه بالعلم ، فقال : ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي : النبوة والعلم العظيم ، ﴿وفصل الخطاب﴾ أي : الخصومات بين الناس .

﴿٢١ - ٢٦﴾ ﴿وهل أتاك نبأ

الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغبي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب * ففغرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب * يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن

سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴿لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس ، وكان معروفاً بذلك مقصوداً ، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب الله عليه وغفر له ، وقبض له هذه القضية ، فقال لنبيه محمد ﷺ : ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إذ تسوروا﴾ على داود ﴿المحراب﴾ أي : محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ، ولم يدخلوا عليه مع باب ، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة ، فرح منهم وخاف ، فقالوا له : نحن ﴿خصمان﴾ فلا تخف ﴿بغبي بعضنا على بعض﴾ بالظلم ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ أي : بالعدل ، ولا تملم مع أحدنا ﴿ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾

والمقصود من هذا ، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصريح ، وإذا كان ذلك ، فسيقضان عليه نبأهما بالحق ، فلم يشتم نبي الله داود من وعظهما له ، ولم يؤنبهما .

فقال أحدهما : ﴿إن هذا أخى﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة ، لاقتضاها عدم البغى ، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره . ﴿له تسع وتسعون نعجة﴾ أي : زوجة ، وذلك خير كثير ، يرجب عليه القناعة بما آتاه الله . ﴿ولي نعجة واحدة﴾ فطمع فيها ﴿فقال أكفلنيها﴾ أي : دعها لي ، واخلها في كفالتني . ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي : غلبني في القول ، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد .

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما ، أن هذا هو الواقع ، فلهدنا لمحتج أن يتكلم الآخر ، فلا وجه للاعتراض بقول القائل : ﴿لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر﴾ ؟

(١) كذا في ب ، وفي الأصل : ذو الأيد .

(٢) في السخطين : فيسبون .

أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب .

﴿٣٠ - ٤٠﴾ ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردها علي فطفت مسحاً بالسوق والأعناق * ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب * لما أنشئنا على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أنشئنا على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ * أي: أنعمنا به عليه، وأقرنا به عينه.

﴿نعم العبد﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنه أواب﴾ * أي: رجأع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمجبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ * وضمن «أحببت» معنى «أثرت» * أي: أثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد الخيل. ﴿عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾

النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب * يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقها باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ بربه، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن السبعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله.

﴿ليدبروا آياته﴾ * أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركنته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتتة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ * أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على

﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ وهذه عادة الخلقاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وإن كثيراً من الخطاء ليفي بعضهم على بعض﴾ لأن الظلم من صفة النفوس. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمتنعهم من الظلم. ﴿وقليل ما هم﴾ كما قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. ﴿وظن داود﴾ حين حكم بينهما ﴿أنما فتناه﴾ * أي: اختبرناه ودبرناه عليه هذه القضية ليتنبه ﴿فاستغفر ربه﴾ لما صدر منه، ﴿وخز راعياً﴾ * أي: ساجداً ﴿وأناب﴾ * لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿ففغفرنا له ذلك﴾ الذي صدر منه، وأكرمته الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ * أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وحسن مآب﴾ * أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع مجله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلاً.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ * أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿ولا تتبع الهوى﴾ فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فيضلك﴾ الهوى ﴿عن سبيل الله﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم، ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ خصوصاً المتعمدين منهم، ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.
ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «ياغ علي» لقولهما: «خصمان بغى بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشتمن، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتمن ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المادية، موجبة للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده».

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهيم، يجاوبنه إذا رجّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعي والاشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل يفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم! المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

رُدُّوها عليَّ» فردوها «فطفق» فيها «مسحاً بالسوق والأعناق» أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

«ولقد فتننا سليمان» أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، «وألقينا على كرسیه جسداً» أي: شيطاناً قضى الله وقدّر أن يجلس على كرسی ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنه سليمان، «ثم أتى» سليمان إلى الله تعالى وتاب.

ف «قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب» فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوتقه.

وقلنا له: «هذا عطاؤنا» فقرأ به عيناً «فأشئن» على من شئت، «أو أمسك» من شئت «بغير حساب» أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا سليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإتابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أدى قومه، ولهذا في هذا الموضع لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيسئلي به.

قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمر الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل حجة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولدا صالحا، فإن كان عالما، كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ومنها: كثرة خیر الله وبره بعبده، أن يمن عليهم بضالحي الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يشني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان حجة الله تعالى على حجة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشرؤوم مذموم، فليُفَارِقْهُ وَلْيُتَّبِعْ عَلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ.

ومنها: القاعدة المشهورة «مَنْ تَرَكَ شَيْئاً اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ مِنْهُ» فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديماً لمحبة الله، فعوضه الله خيراً من ذلك، بأن سخر له الريح الرضاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر

ورواها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

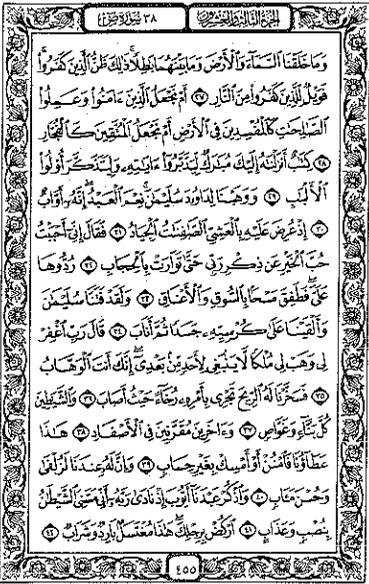
ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملكاً نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العتيد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

﴿٤١ - ٤٤﴾ * واذكر عبدنا أيوب إذا نادى ربه أي مسني الشيطان بضرب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تخثث * إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب * أي: * واذكر * في هذا الكتاب ذي الذكر * عبدنا أيوب * بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه.

و ﴿نادى ربه﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: رَبِّ * أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانَ بِضَرْبٍ وَعَذَابٍ * أي: بأمر مشق متعب معذب، وكان سلط على جسده فنفض فيه حتى تقرح، ثم تقحح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

ف قيل له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب الأرض بها، لينع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى.

﴿ووهبنا له أهله﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿ومثلهم معهم﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيماً ﴿رحمة منا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثيناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً. * واذكر سي لأولي الألباب * أي: ولتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يشيه ثواباً عاجلاً

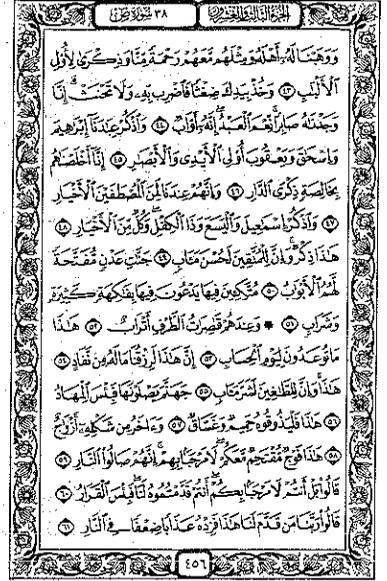


وآجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ أي: حزمة شماريخ ﴿فاضرب به ولا تخثث﴾ قال المفسرون: وكان في مرضه وضربه قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالححة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفاته أن يضربها بضعت في مائة شمراخ ضربة واحدة، فبصر في يمينه.

﴿إنسا وجدناه﴾ أي: أيوب ﴿صابراً﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى. ﴿نعم العبد﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضرء، والشدة والرخاء. ﴿إنه أواب﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ * واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنا هم عندنا لمن المصطفين الأخيار * يقول تعالى: ﴿واذكر عبدنا﴾ الذين أخلصوا لنا العباد ذكراً حسناً، ﴿إبراهيم﴾ خليل ﴿و﴾ ابنه ﴿إسحاق و﴾ ابن ابنه ﴿يعقوب أولي الأيدي﴾ أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿والأبصار﴾ أي:



البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إنا أخلصناهم بخالصة عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي ﴿ذكرى الدار﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المتعبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه، ﴿الأخيار﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وإذكرا اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾ هذا ذكر ﴿أي﴾ وإذكرو هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السنيذة.

﴿هذا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذكر﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف

الزكية، وما نشر لهم من الشئاء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

﴿٤٩ - ٥٤﴾ ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾

﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴿إن هذا لوزننا ما له من نفاذ﴾ أي: ﴿وإن للمتقين﴾ ربه، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، ﴿لحسن مآب﴾ أي: لمآباً حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفضله، فقال: ﴿جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ينبغي صاحبها يبدل منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين.

﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿متكئين فيها﴾ على الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات.

﴿يدعون فيها﴾ أي: يأمرون خدامهم، أن يأتوا بفاكهة كثيرة وشراب ﴿من كل ما تشتهي نفوسهم، وتلذذ أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللذة.

﴿وعندهم﴾ من أزواجهم، الحور العين ﴿قاصرات﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا ينبغي بصاحبه بدلاً، ولا عنه عوضاً. ﴿أتراب﴾ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذ.

﴿هذا ما توعدون﴾ أيها المتقون ﴿ليوم الحساب﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إن هذا لوزننا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿ما له من نفاذ﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآتات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعض بره.

﴿٥٥ - ٦٤﴾ ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾

﴿جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ هذا فيلذوقوه حميم وفساق ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴿قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ اتخذناهم سخرياً أم زأقت عنهم الأبصار ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ هذا الجزء للمتقين ما وصفناه ﴿وإن للطاغين﴾ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لشر مآب﴾ أي: لشر مرجع ومتقلب، ثم فضله فقال: ﴿جهنم﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قرها ﴿يصلونها﴾ أي: يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فبئس المهاد﴾ المعد لهم مسكناً ومستقراً ﴿هذا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي والفضيحة والتكال. ﴿فيلذوقوه حميم﴾ ماء حار، قد اشتد حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم. ﴿وفساق﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من فيح وصديد، مر المذاق، كرهه الراحنة.

﴿وآخر من شكله﴾ أي: من نوعه ﴿أزواج﴾ أي: عدة أصناف من

أصناف العذاب، يعذبون بها ويحزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ النار

﴿لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار﴾

﴿قالوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم

قدمتموه﴾ أي: العذاب ﴿لنا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم

وتسبيكم: ﴿فبئس القرار﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المعزيرين لهم في ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال

لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾

أي: كنا نزعهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم

المؤمنون، تفقدتهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أنخذناهم سخرى﴾ أم زاغت عنهم الأبصار؟ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر

بين أمرين: إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما

كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما

قال تعالى لأهل النار: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فأغفر لنا

وارحمنا وأنت خير البراحين﴾ فاتخذتموه سخرى حتى أنسوكم ذكري

وكنتم منهم تضحكون﴾.

والأمر الثاني: أنهم لعليهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب،

وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في

قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل

الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صيغة لها، فدخلوا النار وهم

هذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في

النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم

لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو

أصدق القائلين: ﴿إن ذلك﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحق﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿فخاصم أهل النار﴾.

﴿٦٥ - ٨٨﴾ ﴿قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾

رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ ﴿قل هو نبي عظيم﴾

﴿أنتم عنه معرضون﴾ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ إن يوحى

إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ فإذا

سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين﴾ فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ قال يا إبليس ما منعك أن

تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين﴾ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ قال

فاخرج منها فإنك رجيم﴾ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من النظرين﴾ إلى يوم الوقت المعلوم﴾

قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ إلا عبادك منهم المخلصين﴾ قال فالحق والحق أقول﴾ لاملأن جهنم منك ومن

تبعك منهم أجمعين﴾ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلمين﴾ إن هو إلا ذكر للعالين﴾ ولتعلمن نبأه بعد

حين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الكاذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك

ولا بيدك: ﴿إنما أنا نذير﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فلله تعالى، ولكنني أمرتكم وأنهاكم، وأحثكم على

الخير وأزجركم عن الشر فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليه﴾ ﴿وما من إله

إلا الله﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الواحد القهار﴾ هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال:

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرها﴾

بجميع أنواع التدابير. ﴿العزيز﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الغفار﴾ لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قل﴾ لهم، مخوفاً ومخذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبي عظيم﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خير عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله، ولكن ﴿أنتم عنه معرضون﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتم في قولي، وامتريتهم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فأخبرني بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾ أي: الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ لولا تعليم الله إياي، وإجاءة إلي، ولهذا قال: ﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبليغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصاص الملائكة فقال: ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ على وجه الإخبار ﴿إني خالق بشرأ من طين﴾ أي: مادته من طين ﴿فإذا سويته﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربهم، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿استكبر﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله تعالى.

ف ﴿قال﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ أي: شرفته وكرمه واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿استكبرت﴾ في امتناعك ﴿أم كنت من العالين﴾.

﴿قال﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾. وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيح والخفة وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ف ﴿قال﴾ الله له: ﴿فاخرج منها﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فإنك رجيم﴾ أي: مبعث مدحور. ﴿وإن عليك لعنتي﴾ أي: طردي

وإبعادي ﴿إلى يوم الدين﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

ف ﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فإنك من المنظرين﴾ إلى يوم الوقت المعلوم حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه مُنظر، بأدى ربه، من حيث، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فبعثتك لأغوينهم أجمعين﴾ يحتمل أن الباء للقسمة، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين.

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾

علم أن الله سيحفظهم من كيده. ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إليناها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربتته وعداوته، والسلامة من شره وشره، ونحسن الظن بك أن تحيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ فقد دعوتنا كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾.

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿فالحق والحق أقول﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: ﴿قل ما أسألكم عليه﴾ أي: على

دعائي إياكم ﴿من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إن هو﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إلا ذكرٌ للعالمين﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين. فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿واذكر عبادنا﴾ - واذكر عبادنا﴾ - رحمة من عندنا وذكرى﴾ - هذا ذكر﴾.

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك. ﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي: خبره ﴿بعد حين﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصاً له الدين ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه مختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذلل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقُرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى

الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بدم من أشرك به فقال: **«والذين اتخذوا من دونه أولياء»** أي:

يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، لمعتدين^(١) عن أنفسهم وقائلين: **«ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»** أي: لترفع جوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا، فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا يعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وفطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم. فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمهم لهم^(٢)، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقتضون حوائج من توسطوا لهم، ومراعاة لهم، ومداراة لخواطبرهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمتعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد

الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته.

ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتقاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتقاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلماذا قال: **«فاعبد الله مخلصاً له الدين»** أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والسرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد.

«ألا لله الدين الخالص» هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، ولإلنابة إليه في عبوديته، والإلنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويظهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مشتق للنفوس غاية

(١) في أ: معتدين.

(٢) كذا في النسختين ولعل الصواب (ويسترحمهم له).



من خلقه يجعله زاحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم والديهم، وهو الذي يثبهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلاً منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فيهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراتهم عليه.

ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال - حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركون، وفي ضمنه التهديد للمشركون - **«إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون»**

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن

مقهوراً، وكان له إلال على أبيه ومناسبة منه.

ووحده تعالي وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿٥٥ - ٧﴾ «خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار * خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور* يخبر تعالي أنه «خلق السماوات والأرض» أي: بالحقمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصلحتها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أئبنا وأمنا، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق» أي: طوراً بعد طور، وأنتم في خال لا يد مخلوق تمسك، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق «في ظلمات ثلاث» ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، «ذلكم» الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم «الله ربكم» أي: المألوه المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: «لا إله إلا هو فأنى تصرفون» بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالي للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمشيء.

«إن تكفروا فإن الله غني عنكم» لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. «ولا يرضى لعباده الكفر» لكمال إحسانه بهم،

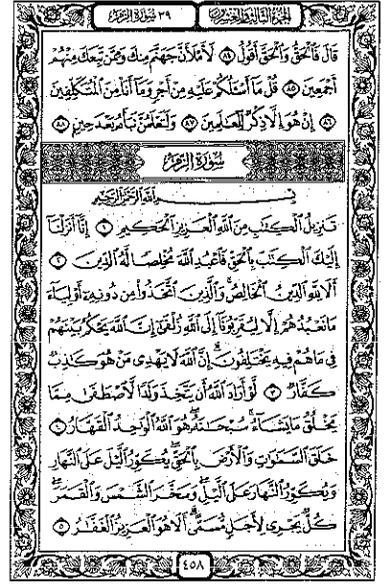
ووحده تعالي وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿٥٥ - ٧﴾ «خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار * خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور* يخبر تعالي أنه «خلق السماوات والأرض» أي: بالحقمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

«يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» أي: يدخل كلاً منهما على الآخر، ويجعله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما اعزل الآخر عن سلطانه.

«وسخر الشمس والقمر» بتسخير منظم، وسير مقنن. «كل» من الشمس والقمر «يجري» متأثراً عن تسخيره تعالي «لأجل مسمى» وهو انقضاء هذه السدار وخرابها، فيخرب الله ألانها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقرؤا في دار القرار، الجنة أو النار.

«ألا هو العزيز» الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره. «الغفار» لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالي: «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى». الغفار لمن أشرك به بعدما



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. «إن الله لا يهدي» أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم «من هو كاذب كفار» أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتيه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجدها ويكفر بها ويكذب، فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن!!

﴿٤﴾ «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار» أي: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً» كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. «لأصطفى» مما يخلق ما يشاء» أي: لأصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة. «سبحانه» عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون. «هو الله الواحد القهار» أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن

وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وإن تشكروا﴾ الله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يرضه لكم﴾ لرحمته بكم، ومحبه للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله.

وكما أنه لا يتضرر بشررككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿ولا تزر وازرة وزر﴾ أخرى ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فنبئكم بما كنتم تعملون﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلًا منكم ما يستحقه.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿٨﴾ ﴿وإذا مسَّ الإنسان ضررًا﴾ ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بخر أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينتجيه في هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً منيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك.

﴿ثم إذا خوله﴾ الله ﴿نعمته منه﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه.

﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي: ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال،

فأتى بالمزوم ليدل على اللازم. ﴿قل﴾ لهذا العاتي، الذي بذل نعمة الله كفراً: ﴿تمتع بكفرك قليلاً﴾ إنك من أصحاب النار ﴿فلا يفتيك ما تتمتع به إذا كان المال النار﴾.

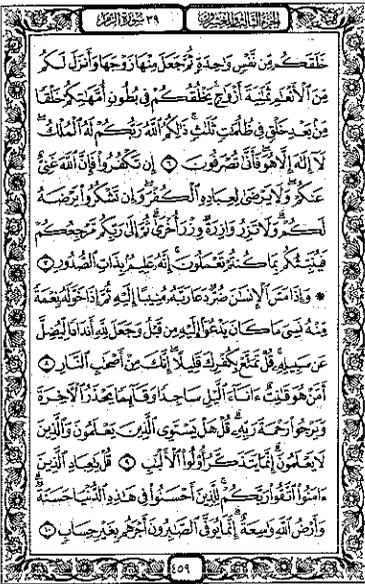
﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾.

﴿٩﴾ ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء، رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿والذين لا يعلمون﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضيء والظلام، والماء والنار.

﴿إنما يتذكر﴾ إذا ذكروا ﴿أولو الألباب﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لبَّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿١٠﴾ ﴿قل يا عباد الذي آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة﴾ إنما يوفى



الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، أمرأ لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المتقضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدَّق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ بعبادة ربهم لهم ﴿حسنة﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة﴾.

﴿وأرض الله واسعة﴾ إذا منعت من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضوع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: ﴿لا تزال طائفة من أمتي على



الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما مُتعتم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذلك إلا لفضيلة الصبر وعمله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١١ - ١٦﴾ ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت أن أكون أول المسلمين * قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين * لهم من

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾

﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ لأنني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من اتهم بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، ومن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ فسي ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. ﴿عذاب يوم عظيم﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ فاعبدوا ما شئتم من دونه كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾

﴿قل إن الخاسرين﴾ حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وأهليهم يوم القيامة﴾ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ومن تحتهم ظلل﴾

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحته، ﴿يخوف الله به عباده، يا عباد فاتقون﴾ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو

عباده إلى التقوى، وزاجر عمّا يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحنهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشاقق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشري فيشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ لما ذكر حال المجرمين ذكر حال النبيين وثوابهم، فقال: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وأنابوا إلى الله﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، ﴿لهم البشري﴾ التي لا تقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشري في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشري في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشري ما يشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشري، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فيشر عباد * الذين يستمعون القول﴾ وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثاره

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من العمالة.

مزخرقة ، من حسنها وبهاثها وصفاتها ،
 أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من
 ظاهرها ، ومن علوها وارتفاعها ،
 [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر
 في الأفق الشرقي أو الغربي ، ولهذا
 قال : ﴿ من فوقها غرف ﴾ أي : بعضها
 فوق بعض ﴿ مبنية ﴾ بذهب وفضة ،
 وملاطها المسك الأذفر .

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ المتدفقة ،
 المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار
 الطاهرة ، تغفل بأنواع الثمار اللذيذة ،
 والفاكهة النضيجة .

﴿ وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾
 وقد وعد المتقين هذا الثواب ، فلا بد
 من الوفاء به ، فليوفوا بخصال التقوى ،
 ليوفهم أجورهم .

﴿ ٢١ ﴾ ﴿ ألم تر أن الله أنزل من
 السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم
 يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يبيح فتراه
 مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك
 لذكرى لأولي الألباب ﴾ يذكر تعالى أولي

الألباب ، ما أنزله من السماء من الماء ،
 وأنه سلكه ينابيع في الأرض ، أي :
 أودعه فيها ينبوعا يستخرج بسهولة

ويسر ، ﴿ ثم يخرج به زرعا مختلفا
 ألوانه ﴾ من بر وذررة ، وشعير وأرز ،
 وغير ذلك . ﴿ ثم يبيح ﴾ عند
 استكمالها ، أو عند حدوث أفة فيه

﴿ فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ﴾
 متكسرا ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي
 الألباب ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته

بعباده ، حيث يسر لهم هذا الماء ،
 وخزنه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم .
 ويذكرون به كمال قدرته ، وأنه

يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد
 موتها ، ويذكرون به أن الفاعل لذلك
 هو المستحق للعبادة .

اللهم اجعلنا من أولي الألباب ،
 الذين نوهت بذكرهم ، وهديتهم بما
 أعطيتهم من العقول ، وأريتهم من

أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل
 إليه غيرهم ، إنك أنت الوهاب .
 ﴿ ٢٢ ﴾ ﴿ أفمن شرح الله صدره

لما ينبغي اجتنابه ، فهذا من حزمهم
 وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه ، وأحسنه
 على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله ،
 كما قال في هذه السورة : ﴿ الله نزل
 أحسن الحديث كتابا متشابها ﴾ الآية .

وفي هذه الآية نكتة ، وهي : أنه لما
 أخبر عن هؤلاء المدوحين أنهم
 يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كأنه

قيل : هل من طريق إلى معرفة أحسنه
 حتى نتصف بصفات أولي الألباب ،
 وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من
 أولي الألباب ؟

قيل : نعم ، أحسنه ما نص الله عليه
 ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً
 متشابها ﴾ الآية .

﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون
 أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ﴾
 لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿ وأولئك
 هم أولو الألباب ﴾ أي : العقول

الزاكية .
 ومن ليهم وحزمهم ، أنهم عرفوا
 الحسن من غيره ، وأثروا ما ينبغي إيثاره

على ما سواه ، وهذا علامة العقل ، بل
 لا علامة للعقل سوى ذلك ، فإن الذي
 لا يميز بين الأقوال ، حسننها

وقبيحها ، ليس من أهل العقول
 الصحيحة ، أو الذي يميز ، لكن غلبت
 شهوته عقله ، فبقي عقله تابعاً لشهوته
 فلم يؤثر الأحسن ، كان ناقص العقل .

﴿ ١٩ - ٢٠ ﴾ ﴿ أفمن حق عليه
 كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في
 النار ﴾ لكن الذين اتقوا ربهم لهم

غرف من فوقها غرف مبنية تجري من
 تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله
 الميعاد ﴾ أي : أفمن وجبت عليه كلمة

العذاب باستمراره على غيبه وعناده
 وكفره ، فإنه لا حيلة لك في هدايته ،
 ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة ،

لكن الغنى كل الغنى ، والفوز كل
 الفوز ، للمتقين الذين أعد لهم من
 الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر
 قدره .

﴿ لهم غرف ﴾ أي : منازل عالية

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه قيل
 للقياسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في حلال مبین
 الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها متشابها متشابها
 جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم رزقهم إلى
 وذكر الله ذلك هدى الهدى به من يشاء ومن يضلل
 الله كما يشاء وما كان لأمنهم من الله أن ينزلهم من السماء
 يوم القيامة وقيل للظالمين دوماً ما كنتن تكفرون
 كتب الله من قبلهم آياتهم العظام التي لا ينظرون
 فأما فهم الذين يخشون ربهم فقد أخذنا آياتهم
 آياتهم التي لا ينظرون ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا
 القرآن من كل مثل آياتهم يتكفرون ﴿ وتوالت
 آياتهم على عبادهم يتكفرون ﴿ عز وجل الله تلاكذ
 ويوشك أن يتنكبون ويكذبون ﴿ ولقد علمنا ما كان
 منكم من الصادقين ﴿ فكيف لا يخشون ﴿ إن الله يثبت قائمهم
 ﴿ وتوالت آياتهم على عبادهم يتكفرون ﴿

للإسلام فهو على نور من ربه قيل
 للقياسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في
 ضلال مبین ﴾ أي : أفمن استوي من

شرح الله صدره للإسلام ، فاستمع
 لتلقي أحكام الله والعمل بها ، منشرحاً
 قريز العين ، على بصيرة من أمره ، وهو

المراد بقوله : ﴿ فهو على نور من ربه ﴾
 كمن ليس كذلك ، بدليل قوله : ﴿ فويل
 للقياسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أي :

لا تلين لكتابته ، ولا تتذكر آياته ،
 ولا تطمئن بذكره ، بل هي معرضة عن
 زهبا ، ملتفتة إلى غيره ، فهؤلاء لهم
 الويل الشديد ، والشر الكبير .

﴿ أولئك في ضلال مبین ﴾ وأي :
 ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن
 وليه ؟ ومن كل السعادة في الإقبال
 عليه ، وقنا قلبه عن ذكره ، وأقبل على
 كل ما يضره !!

﴿ ٢٣ ﴾ ﴿ الله نزل أحسن الحديث
 كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود
 الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم

وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله
 يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له
 من هاد ﴿ يجز تعالى عن كتابه الذي نزله

أنه ﴿ أحسن الحديث ﴾ على الإطلاق ،
 فأحسن الحديث كلام الله ، وأحسن
 الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن ،
 وإذا كان هو الأحسن ، علم أن ألفاظه

(١) كذا في ب ، وفي أ : أنه .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن كَذَّبَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ﴾ وَالْيَسْدُ
إِلَىٰ جَاءَ وَالْقُرْآنُ بِهِ نَبِيًّا لَّا يَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِي
جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَصَدَّقَ بِهِ أَزْوَاجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
لَهُمْ مَنَاقِبُ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٨﴾
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي أَعْمَلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ كَافٍ
عَبْدَهُمْ فَوْقَ نِعْمَتِهِ بِالَّذِينَ مَنَؤُوهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴿٣١﴾
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِرَاتُكُمُ
وَأَرَأَيْتُمْ إِنْ وَضَعَهُم لَحِيضًا مَّحْمُومًا ﴿٣٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٣٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٣٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٣٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٣٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٣٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٠﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤١﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٠﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥١﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٠﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦١﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٦٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٠﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧١﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٧٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٠﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨١﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٨٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٠﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩١﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٤﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٦﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿٩٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُونَ
اللَّهَ عَالِمَ الْغُيُوبِ ﴿١٠٠﴾

أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والانتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاهه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهز الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فالمراد بها، التي تشبهه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فجعل التشابه لبعضه، وهنأ جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أحسن الحديث﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

﴿مشان﴾ أي: تشنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتشنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي

الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بُعد عهدهما بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع عزيز.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلماذا قال تعالى: ﴿تقشعر من جلود الذين يخشون ربهم﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هدى الله﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يهدي به﴾ أي: بسبب ذلك ﴿من يشاء﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذلك﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هدى الله﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ من حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾.

﴿ومن يضل الله فما له من هادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

﴿٢٤ - ٢٦﴾ ﴿أمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كذب الذين من قبلهم فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿فأذاقهم الله الحزني في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غلّت يده ورجلاه، ﴿وقيل للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾

﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون، ﴿فأذاقهم الله﴾ بذلك العذاب الحزني في الحياة الدنيا ﴿فافتضحوا عند الله وعند خلقه﴾ وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبيهم ما أصاب أولئك من التعذيب﴾.

﴿٢٧ - ٣١﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعليهم يتذكرون﴾ قرآناً عربياً غير ذي عوج لعليهم يتقون ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إنك ميت وإنهم ميتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لعليهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ،

سهل المعاني، خصوصاً على العرب. غير ذي عوج: أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً *

لعلهم يتقون: الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل. ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: ضرب الله مثلاً رجلاً * أي: عبداً * فيه شركاء متشاكسون * فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تتمكن راحتته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

ورجلاً مسلماً لرجل: أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. هل يستويان: أي: هذان الرجلان * مثلاً * لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو غيره، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في مرضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف هل يستويان مثلاً الحمد لله على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجاهل. بل أكثرهم لا يعلمون.

إنك ميت وإنهم ميتون: أي: كلكم لا بد أن يموت وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون.

ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون: فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلأ ما عمله * أحصاه الله ونسوه.

﴿٣٢ - ٣٥﴾ فممن أظلم ممن

كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ليس في جهنم مثوى للكافرين * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون * يقول تعالى، محذراً وخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلاماً * فمن كذب على الله، إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: * وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع،

[وكذب بالصدق إذ جاءه] (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبيئات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والكذب بالحق، كان ظلماً على ظلم. * ليس في جهنم مثوى للكافرين * يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. * إن الشرك لظلم عظيم.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: والذي جاء بالصدق في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خير الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

وصدق به: أي: بالصدق لأنه قد يحيى الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في الملاح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

أولئك: أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين * هم المتقون * فإن جمع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق



والتصديق به.

لهم ما يشاؤون عند ربهم * من الشواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فكل ما تعلق به إرادتهم ومشيتهم، من أصناف اللذات والمشهييات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً، * ذلك جزاء المحسنين * الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم * المحسنين * إلى عباد الله.

ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون * عمل الإنسان له ثلاث حالات:

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، فهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله: * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا * أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتفواهم، * ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون * أي: بحسناهم كلها. * إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدهن أجرأ عظيماً.

(١) في النسختين: أو كذب بالحق لما جاءه.

الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿٤١﴾ ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية، ويلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فمن اهتدى﴾ بتوبه واتباع أوامره ﴿وإن نفع ذلك يعود إلى نفسه﴾ ﴿ومن ضل﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فإنما يضل عليها﴾ لا يضر الله شيئاً. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿٤٢﴾ ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وأخبره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه، لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سنه تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، فيمسك من هاتين النفسين النفس التي قضى عليها الموت وهي نفس

أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿من خلق السماوات والأرض﴾ لم يشبوا لأهنتهم من خلقها شيئاً. ﴿ليقولن الله﴾ الذي خلقها وحده. ﴿قل﴾ لهم مقررأ عجز آهنتهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أفرأيتم﴾ أي: أخبروني ﴿ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر﴾ أي ضرر كان.

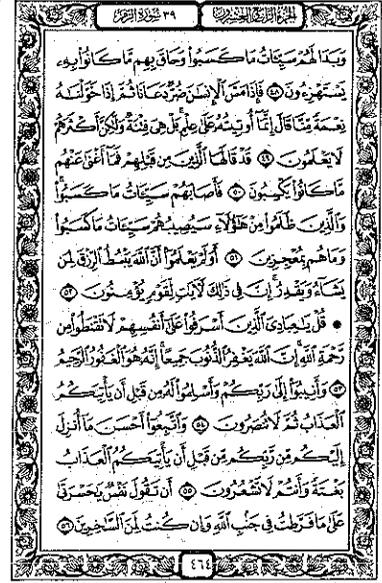
﴿هل هن كاشفات ضرره﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أو أرادني برحمة﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي. ﴿هل هن مسكات رحمة﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم: ﴿قل﴾ حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴿أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أمني ومالا أهتم به.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون﴾ من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴿أي: ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيء.

﴿إني عامل﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده.

﴿فسوف تعلمون﴾ لمن العاقبة و ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ في الدنيا، و ﴿يحل عليه﴾ في الأخرى ﴿عذاب مقيم﴾ لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن



﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام * ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامتنل أمره واجتنب نهي، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناواه بسوء.

﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ من الأصنام والأنناد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم. ﴿ومن يضل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿أليس الله بعزيز﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم. ﴿ذوي انتقام﴾ ممن عصاه، فأحذروا موجبات نقمته.

﴿٣٨﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر﴾ هل هن كاشفات ضرره أو أرادني برحمة هل هن مسكات رحمة قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون

﴿٣٨﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر﴾ هل هن كاشفات ضرره أو أرادني برحمة هل هن مسكات رحمة قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون

﴿٣٨﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر﴾ هل هن كاشفات ضرره أو أرادني برحمة هل هن مسكات رحمة قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون

مَنْ كَانَ مَاتَ، أَوْ قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ فِي مَتَامِهِ .

﴿ويرسل﴾ النفس ﴿الأخرى إلى أجل مسمى﴾ أي : إلى استكمال رزقها وأجلها . ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم .

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جنس قائم بنفسه، يخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات .

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبَهُمْ قَالُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَقْلِقُونَ﴾ * قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون﴾ ينكر تعالى على مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَّعَلَقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيُعِيدُهُمْ . ﴿قُلْ لَهُمْ - مَبِيتٌ جَهَنَّمُ، وَأَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئاً مِنَ الْعِبَادَةِ - : ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي مَنْزِلٍ أَعْيَبَ مِنَ الشُّفَعَاءِ﴾ لا يملكون شيئاً﴾ أي : لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال : إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلماً؟

﴿قل﴾ لهم : ﴿الله الشفاعة جميعاً﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنتين . ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله : ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي : جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات . فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة . ﴿ثم إليه ترجعون﴾ فيجازي المخلص له بالشواب الجزيل، ومن

أشرك به بالعذاب الويل .

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ * قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون﴾ يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إذا ذكر الله﴾ توحيداً له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشتمزون وينفرون، ويكرهون ذلك أشد الكراهة .

﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَدَعَا الدَّاعِي إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدْحِهَا،﴾ إذا هم يستبشرون﴾ بذلك، فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم، وهذه الحال أشد الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء . فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر : هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئاً؟

ولهذا قال : ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾ أي : خالقهما ومدبرهما، ﴿عالم الغيب﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، ﴿والشهادة﴾ الذي نشاهده .

﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين : إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسوا فيك من لا يسوى شيئاً، وتنقصوك غاية النقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشتمزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى .

قال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ .

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها

بقوله : ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد﴾ إلى أن قال : ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يجولون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ .

وقال تعالى : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ * إنه مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ففي هذه الآية، بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدترته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه بين عباده وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقها دال على علمه ﴿ألا يعلم مَنْ خلق﴾ .

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ﴾ * وبدل لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سوء العذاب﴾ أي : أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على - الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوائها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم، ولا أئنى عنهم من عذاب الله شيئاً، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم﴾ .

﴿وبدل لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون﴾ أي : يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنعهم وكسبهم. ﴿وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

﴿٤٩-٥٢﴾ ﴿فإذا مس الإنسان ضرر دعانا ثم إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ أولم يعلموا أنّ الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسّه ضرر، من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دعانا﴾ ملحاً في تفريح ما نزل به ﴿ثم إذا حوّلناه نعمة منا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بره كافراً، ولمعروفه منكراً، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي: علم من الله، أي له أهل، وأي مستحق له، لأن كرمه عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ يتلى الله به عباده، لينظر من يشكره من يكفّره. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتهه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي: قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن ﴿عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم العذاب.

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتخزئه. ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿ويقدر﴾ الرزق، أي: يضيئه على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إن في ذلك، لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: يسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعال مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٥٣-٥٩﴾ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بفتنة وأنتم لا تشعرون﴾ أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جناب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كسرة فأكون من المحسنين ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مسأخط علام الغيوب.

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي: لا تياسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق

يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الذالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للوجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لغفرته ورحمته وينيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وأنسيوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا.

وفي قوله: ﴿إلى ربكم وأسلموا له﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ مجيئاً لا يدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾. فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك، ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،

والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالتبعية لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو النبيب المسلم، ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ وكل هذا حدث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أن﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و﴿تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ أي: في جانب حقه، ﴿وإن كنت﴾ في الدنيا ﴿لمن الساعرين﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ و﴿لو﴾ في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست ﴿لو﴾ هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ وتجزم بوروده ﴿لو أن لي كربة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لكنت ﴿من المحسنين﴾. قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعباد لو رُدَّ، بيان بعد البيان الأول.

﴿بل قد جاءتك آياتي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق ﴿فكذبت بها واستكبرت﴾ عن اتباعها ﴿وكننت من الكافرين﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾ يخبر تعالى عن حزني الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف،

فالحق أبلغ واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

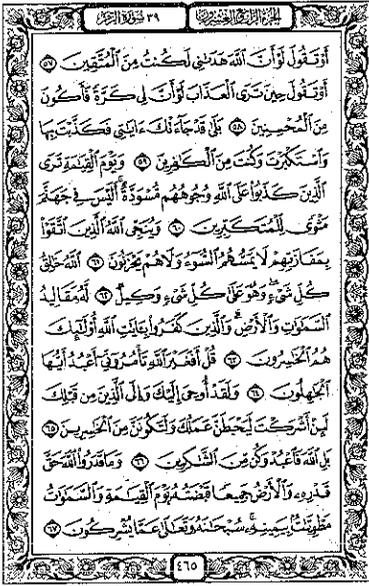
فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿اليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم، المتكبرين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي: العذاب الذي يسوؤهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ نفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.

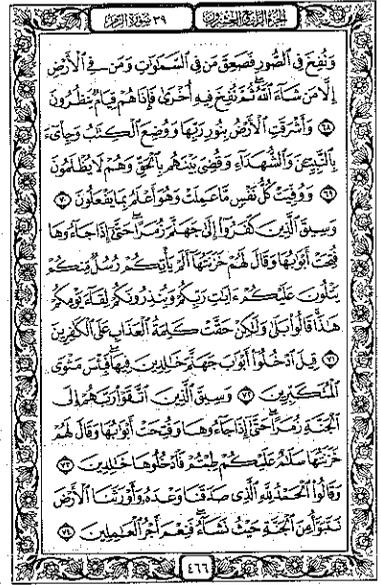
﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن عظمتهم وكماله، الموجب لخسران من كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها ردة على كل من قال بتقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بتقديم الأرض والسماوات، وكالقائلين بتقديم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.



وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأتيقن، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، فأخبره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٦٣﴾ ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي: مفاتيحها، علماً



وتدبيراً، ف ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك الحكيم﴾. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تعلى القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ الدالة على الحق اليقين والصرط المستقيم، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الأنسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴿بل الله فاعبدو﴾ من الشاكرين ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعواك إلى عبادة غير الله: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك وأخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدنيوية، كالنعم على الإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السموات - على سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزهه وتعظيمه عن شركهم به.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور﴾ فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴿وأشرفت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴿لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرائيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حلة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أوزمات، على اختلاف القولين: ﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إلا من شاء الله﴾ من ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق ونفخة الفزع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

﴿وأشرفت الأرض بنور ربها﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والخذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم. ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وخذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وحببت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وحجدها جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ف قيل﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فيبس مشوى المتكبرين﴾ أي: بس مشوى النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وقدأ على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة، وهب عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طيبتم﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ف﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيبس مشوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين * لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيقاً، يُضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتاعهم من دخولها.

وساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، ويبراً بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فتحت﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم وقرى لزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتيكم رسول منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر يُحسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَفُورُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فتسرى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبيين﴾ لئلسألو عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر من لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعد الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يحيط بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿وفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿٧١ - ٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا

إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير انتظار ولا إسهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم حرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعاة أكرم الشفاعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومن عليهم وهذا هم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن أمنا وصلحنا، فوق لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مآنا. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿تسبوا﴾ من الجنة حيث نشاء﴾ أي: ننزل منها أي: مكان شئنا، وتتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده. ﴿فنعم أجر العاملين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خراص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الرائي ذلك

اليوم العظيم ﴿حافين من حول العرش﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وقضى بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراذه بأفعاله، العزيز الذي قهر بعزته كل مخلوق، العليم بكل شيء، غافر الذنب للمذنبين وقابل التوب من التائبين، شديد العقاب على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذو الطول﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجياً لأن يكون وحده المألوه الذي تجلص له الأعمال، قال: ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني. فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال.

وأما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وأما إخبار عن نعمة العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذو الطول﴾.

وأما إخبار عن تقوية الشديدة، وعما يوجبها ويقضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شديد العقاب﴾.

وأما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾.

وأما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾.

وأما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إليه المصير﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤-٦﴾ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفرقون قلبهم في البلاد﴾ كذبت قلوبهم قوم نوح والأحزاب من بدمهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذونه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يتجر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فلا يفرقون﴾.

تقلبهم في البلاد أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد، أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له.

ثم هدد من جادل بآيات الله ليطلبها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليطلبوه، وعلى الباطل لينصروه، ﴿وإنه بلغتم بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه همت كل أمة من الأمم برسولهم ليأخذوه﴾ أي: يقتلوه. وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هووا يقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فأخذتهم﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خامدون.

﴿وكذلك حققت كلمة ربك على الذين كفروا﴾ أي: كما حققت على أولئك، حققت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أنهم أصحاب النار﴾

﴿٧-٩﴾ ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آباؤهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ يجبر تعالى عن كمال

لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وأخرتهم، وفي ضمن ذلك، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الذين يحملون العرش﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقوامهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾.

﴿ومن حوله﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العيد يصرفها لغيره، ومحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده» فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات.

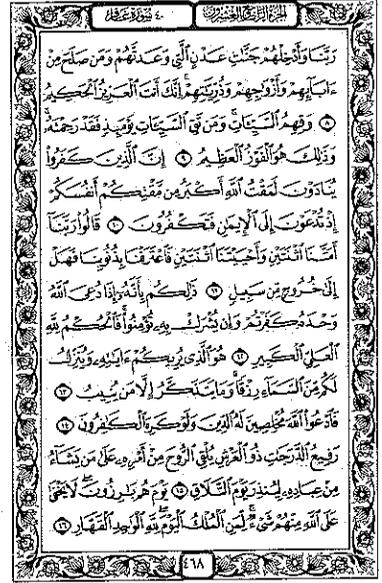
﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم لما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿ربنا وسعت كل شيء



رحمة وعلماً﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلاً برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه. ﴿فاغفر للذين تابوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿واتبعوا سبيلك﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك. ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ على السنة رسلك ﴿ومن صلح﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿من آباؤهم وأزواجهم وزوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقاتهم﴾ وذرياتهم ﴿إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم به إلى كل خير ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك خلافة، بل من حكمتك التي أخبرت بها على السنة رسلك، واقتضاها فضلك، المغفرة للمؤمنين. ﴿وقهم السيئات﴾ أي: الأعمال السيئة وجزاؤها، لأنها تسوء صاحبها. ﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾ أي: يوم القيامة



﴿فقد رحمته﴾ لأن رحمتك لم تنزل مستمرة على العباد، لا يمنحها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقبته السيئات وفتته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذلك﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يجب من عبادة التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُبلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،

واجتهدوا اجتهاد المحيين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يجهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفضله من دعائهم بعد قوله: ﴿يستغفرون للمذنب آمنوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراد، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراد أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والتوقف عليه.

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبير والتفكير في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني. وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله أيضاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

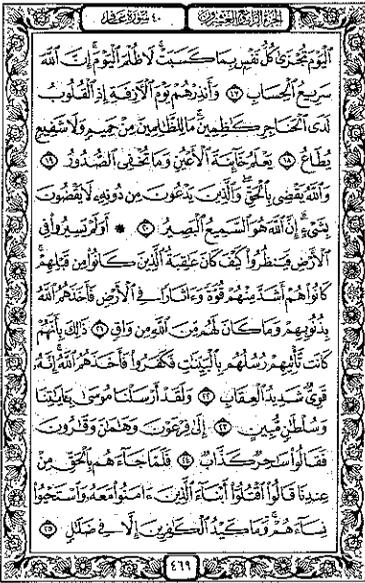
وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يفتينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصل رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي

تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿ومن صلح﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ قالوا ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشارك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصاب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ اللَّهُ﴾ أي: إياكم ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البيئات ما تبين به الحق، فكفرتهم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له،

وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾ يريدون الموتة الأولى وما بين النفتين على ما قيل، أو العدم



القصيد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدنيونه به وتفقرون به إليه.

﴿ولو كره الكافرون﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يبتغوا ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالى ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الظاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يلقي الروح﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الذي فيه

عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يري عباده من آياته النفسية والأفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يبتغ الحق مشتتهاً، ولا الصواب ملتتبساً، بل نوع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وكلما كانت المسائل أجل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾

ولما ذكر أنه يري عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ أي: مطراً، به ترتزقون وتعيشون أنتم وبها تمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وما يتذكر﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إلا من ينسب﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

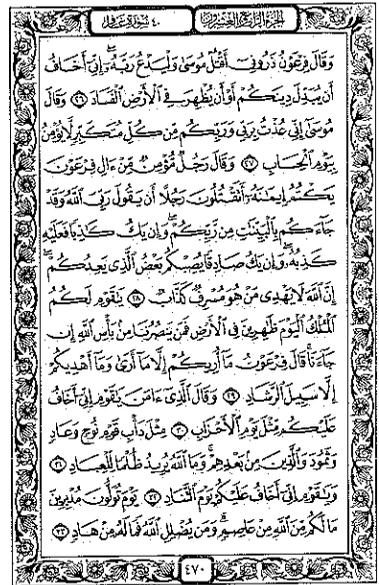
ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص

المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدتهم، ﴿وأحييتنا اثنتين﴾ الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ﴿فاحترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، وويخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده﴾ أي: إذا دُعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كفرتم﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور. ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا القبيل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة. تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾.

﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ العلي الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.

﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المنتزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿١٣-١٧﴾ ﴿هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينسب﴾ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على



نفع العباد ومصالحتهم.

﴿على من يشاء من عبادهم﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وأخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وأخرتهم، ولهذا قال: ﴿لينذر﴾ من ألقى الله إليه الوحي بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه «يوم التلاق»، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون ببعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمت فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لمن الملك اليوم﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب،

ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿الله الواحد القهار﴾ أي:

المفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿القهار﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للححي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه،

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: لا تستطشوا ذلك اليوم، فإنه أت، وكل أت قريب.

وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿١٨-٢٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم

الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من

دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت

أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فإله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقاربه، وهو نظر المسارفة، ﴿وما تخفي

الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فإله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدرى، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير وأستطاعتهم لفعله. ﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾^(١) بما كان وما يكون، وما ينصر وما لا ينصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المتضمنة للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترهيب والترهيب.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار،

﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العَدَد والعدَد وكبير

الأجسام. ﴿و﴾ أشد آثاراً في

(١) في النسخين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).

الأرض ﴿من البناء والخرس، وقوة الأتار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعه بها. ﴿فأخذهم الله﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها، ﴿إنه قوي شديد العقاب﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿٢٣-٤٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿موسى﴾ ابن عمران، ﴿بآياتنا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتذعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البيّنات، التي أيد الله بها موسى، ومكّنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿فرعون وهامان﴾ وزيره ﴿وقارون﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ فلما جاءهم بالحق من عندنا وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم وما كيد الكافرين﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقبوا، ويقبوا في رقهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما

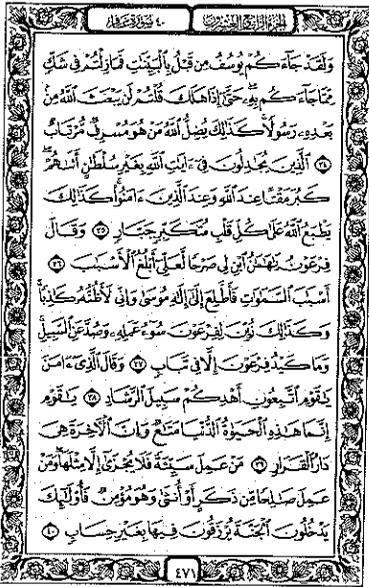
قصدوا، أهلكتهم الله وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثُر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتدرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل ﴿وما كيدهم إلا في ضلال﴾ بل قال: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾

و ﴿قال فرعون﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذروني أقتل موسى وليدح ربه﴾ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشك في الأرض فقال: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾. وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويح، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿وقال موسى﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعيناً بربه: ﴿إني عدتُ بربي وربكم﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون

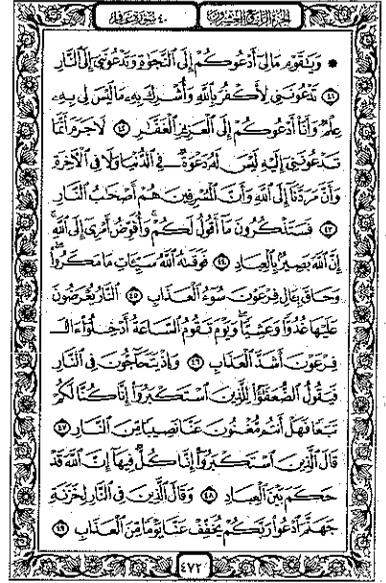


وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أنتقلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنب وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البيّنات، ولهذا قال: ﴿وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم﴾ لأن بيّنته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلّا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرت: هل يحل قتله إذا ظهرت عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه،



الأسم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾ أي: مثل عاداتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قيل الآخرة، ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ فيعذبهم بغير ذنب أدنوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الآخورية، فقال: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ إلى آخر الآيات.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾.

وحين ينادي أهل النار مالكا ﴿ليقض علينا ربك﴾ فيقول: ﴿إنكم ماكثون﴾. وحين ينادون ربه: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فيجيبهم: ﴿أخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾. وحين يقال للمشركين: ﴿ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾.

فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم الم هول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يوم تولون مدينين﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مالكم من الله من عاصم﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يوم تبلى السرائر﴾ فما له من قوة ولا ناصر.

﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحبه، فلا سبيل إلى هدايته.

﴿ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، فما

ولا يوفق للصراف المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والحوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾ أي: في الدنيا ﴿ظاهرين في الأرض﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿فمن ينصرتنا من بأس الله﴾ أي: عذابه ﴿إن جاءنا﴾؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فمن ينصرتنا﴾ وقوله: ﴿إن جاءنا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف ﴿قال فرعون﴾ معارضاً له في ذلك، ومغزراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ وصدق في قوله: ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ ولكن ما الذي رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، الضلال.

﴿وقال الذي آمن﴾ مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعوة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربه، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ يعني

بينكم وبين حل قتلها فما تزال تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعلي كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كذاب﴾ بنسبه ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله،

زلتم في شك مما جاءكم به ﴿ في حياته ﴾ حتى إذا هلك ﴿ ازداد شككم وشرككم، و ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسلا، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلماً وعلواً، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

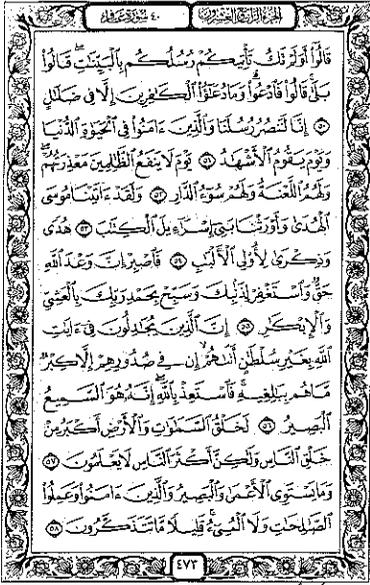
فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقلوبهم أفتلتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وتذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

﴿ ٣٥ ﴾ ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبتلوها ﴿ بغير سلطان أتاهم ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارضه بدليل شرعي أو عقلي أصلاً، ﴿ كبير ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ فالله أشد بغضاً لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص

ولكنه يريد أن يحاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويمسسه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه وناظر مناظرة المحققين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿ وصد عن السبيل ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿ وما كيد فرعون ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه حق، وأن موسى مبطل ﴿ إلا في تباب ﴾ أي: خسار ووبار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ ٣٨ ﴾ وقال الذي آمن ﴿ معيداً نصيحتة لقومه ﴾: ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد. ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل. فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿ من عمل سيئة ﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿ فلا يجزى إلا



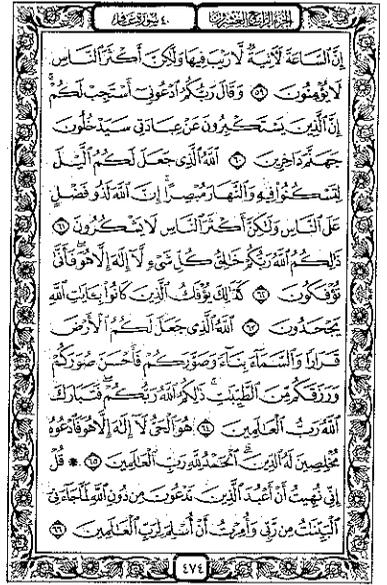
مثلها ﴿ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويجزئه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿ فأولئك يدخلون الجنة يبرزون فيها بغير حساب ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة ﴾ بما قلت لكم ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام. ثم فسر ذلك فقال:

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أنه يستحق أن يُعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿ العفار ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساحطه ثم إذا تابوا وأتابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿ لا جرم ﴾ أي: حقاً يقيناً ﴿ أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً



ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

﴿وأن مردنا إلى الله تعالى فيجازي كل عامل بعمله.﴾ وأن المسرفين هم أصحاب النار، وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجروء^(١) على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذّروهم وأنذروهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغية عدم قبولها حين يحلّ بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وأفوض أمري إلى الله أي: الجأ إليه واعتصم، وألقي أمور كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم.﴾ إن الله بصير بالعباد يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشئته، فإن سلطكم عليّ، فيحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشئته صدر ذلك.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي: وقى الله القويّ الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموقف، عقوبات ما مكر فرعون

وأله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يجتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذلك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾ أغرقهم الله تعالى في صيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي نحلّ بالمكذبين لرسول الله، المعاندين لأمره.

﴿٤٧-٥٠﴾ ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد * وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال * يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقول الضعفاء﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿للذين استكبروا﴾ على الحق، ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشرك، ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قال الذين استكبروا﴾ مبيّن لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزداد في ذلك ولا يتقصن

منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم. ﴿وقال الذين في النار﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿خزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ لعله تحصل بعض الراحة، ف ﴿قالوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ التي تبيّن بها الحق والصرط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قالوا بلى﴾ قد جاؤنا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين. ﴿قالوا﴾ أي: الخزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال، صاذ لإجابة الدعاء.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله وحرابوهم، قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم لهم، ولأتباعهم بالثواب، ولن حاربهم بشدة العقاب.

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ حين يعتذرون ﴿ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازلها.

﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ لما ذكر

(١) في السخيتين (بالتجري).

ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار، ذكر أنه أعطى موسى «الهدى» أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون. «وأورثنا بني إسرائيل الكتاب» أي: جعلناه متوارثاً بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، وعلى التذكار للخير والترغيب فيه، وعن الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو «لأولي الألباب».

«فاصبر» يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين. «إن وعد الله حق» أي: ليس مشكوكاً فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدى الصبر، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجهتد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: «إن وعد الله حق» من الأسباب التي تحث على الصبر على طاعة الله وعن ما يكره الله.

«واستغفر لذنبك» المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصاً «بالعشي والإبكار» اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما، لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور.

«٥٦» «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير» يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليطلقها بالباطل، بغير بينة من أمره ولا حجة، إن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم.

ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا بالبغيه، فهذا نص صريح، وبشارة، بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل. «فاستعذ» أي: اعتصم والجأ بالله. ولم يذكر ما يستعذ، إرادة للعموم. أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور.

«إنه هو السميع» لجميع الأصوات على اختلافها، «البصير» بجميع المراتب، بأي محل وموضع وزمان كانت.

«٥٧-٥٩» «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تذكرون. «إن الساعة لأتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» يخبر تعالى بما تقرر في العقول، أن خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - أعظم وأكبر من خلق الناس، فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر العاقل إليها يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث. وليس كل أحد يجعل فكره لذلك

ويقبل بتدبره، ولهذا قال: «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال، ثم قال تعالى:

«وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء» أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن

هو الذي خلقكم من تراب فمن نطقتكم لعلكم تتقون ﴿٥٧﴾ ثم يخبركم بخلقكم ثم تلتو تلو وكنت لأبصاراً ما عسى أن يكون من قبلي من غير أن تمشوا بها بال ﴿٥٨﴾ إن الذين يريدون ربهم بالكفر أو بالكذب أو بالمشركين أو بالظالمين ﴿٥٩﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٠﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦١﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٢﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٣﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٤﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٥﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٦﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٧﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٨﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٦٩﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير من الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات ﴿٧٠﴾

كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مساخطه، «قليلاً ما تتذكرون» أي: تذكركم قليل^(١)، وإلا، فلو تذكركم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة عليّة، لأترتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

«٥٩» «إن الساعة لأتية لا ريب فيها» قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق ونطقت بها الكتب السماوية، التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية. «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان.

«٦٠» «وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها فقال: «إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل ﴿الله ربكم﴾ أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، ﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ﴿خالق كل شيء﴾ تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: ﴿فأنتى توفكون﴾ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل وأثار لكم السبيل!!

﴿كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي: قارة ساكنة، مهياة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿والسما بناء﴾ سقفاً للأرض التي أتم فيها، قد جعل الله فيها ما تتفنون به من الأنوار والعلامات التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾.

وإذا أردت أن تعرف حسن الأدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً، إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور.

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل،

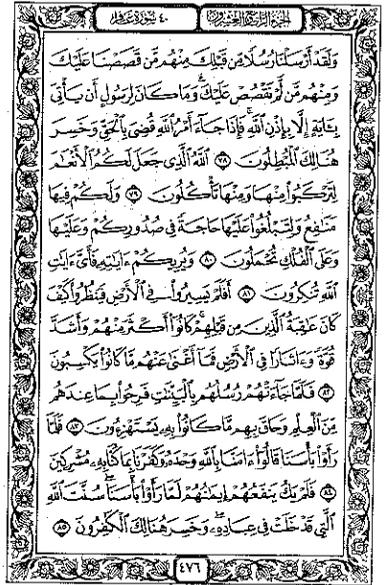
ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكرم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فأت كل خير وحضر كل شر.

فسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبه، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاطمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

فقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الليل﴾ أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، ﴿لتسكنوا فيه﴾ من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الأدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضاً، كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿وجعل تعالى النهار مبصراً﴾ منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكوره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفوه برأ وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته.

﴿إن الله للذو فضل﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير ﴿على الناس﴾. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكوره، ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.



والإهانة، جزاء على استكبارهم.

﴿٦١-٦٥﴾ ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ إن الله للذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى توفكون * كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون * الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين * هو ألهي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين * تدبر هذه الآيات الكريمة، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك، أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى

تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله . ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ يقلي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقاداً لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهئي عنه على الإطلاق، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم، فكما خلقكم وحده فاعبده وحده، فقال: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم من نطفة﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقه، فالضغنة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقه الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة. ﴿ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل﴾ بلوغ الأشد ﴿ولتبلغوا﴾ هذه الأطوار المقدره إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم. ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

ومشرب، ومنكح، وفليس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أسبابها، ومنعهم من الخبائث التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم، ﴿ذلكم﴾ الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿الله ربكم﴾ فتيارك الله رب العالمين أي: تعظم وكثر خيره وإحسانه، المرني جميع العالمين بنعمه.

﴿هو الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم. ﴿فادعوه﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء، بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

ويقال ﴿لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قلوا﴾ ضلوا عننا أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كذلك يضل الله

﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ إن ذلك على الله يسير.

﴿فإذا قضى أمراً﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ لا رد في ذلك، ولا مثوية، ولا تمتع.

﴿٦٩ - ٧٦﴾ ﴿لم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴿إذ الأغلال في

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿قل إنى نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قل﴾ يا أيها النبي ﴿إنى نهيته أن أعبد الذين

تتكرون ﴿ يمتن تغالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإناعام :

منها : منافع الركوب عليها والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها .

ومنها : منافع الدفاء ، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة ، وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها . ﴿ وعليها وعلى الفلئك ﴾ تحملون ﴿ أي : على الرواحل البرية والفلئك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهياؤها ما هياها من الأسباب التي لا تتم إلا بها .

﴿ ويريككم آياته ﴾ الذالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته ، وهذا من أكبر نعمه ، حيث أشهد عباده آياته النفسية ، وآياته الأقدية ، ونعمته الباهرة ، وعددها عليهم ، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه .

﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ أي : أي آية من آياته لا تعترفون بها ؟ فإنكم قد تقر عندكم ، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى ، فلم يبق للإنكار محل ، ولا للإعراض عنها موضع ، بل أوجب لذوي الألباب بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، للاجتهد في طاعته والتبتل في خدمته والانقطاع إليه .

﴿ ٨٢ - ٨٥ ﴾ ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فيظنوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأكثر آثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فلما جاءتهم رسالهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلقت في عباده وخسر هنالك

والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ في الدنيا فذاك ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل عقوبتهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ فنجازيم بأعمالهم ، ﴿ فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ . ثم سلاه وصبره بذكر إخوانه المرسلين فقال :

﴿ ٧٨ ﴾ ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ أي : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً ﴾ كثيرين إلى قومهم ، يدعوهم ويصبرون على أذاهم . ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ خبرهم . ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ . وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شيء من الأمر .

وما كان لأحد منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بمشيئته وأمره ، فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ، ظلم منهم وتعننت وتكذيب ، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به . ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح . ﴿ قضى ﴾ بينهم ﴿ بالحق ﴾ الذي يقع الموقع ، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم ، وإهلاك الكاذبين ، ولهذا قال : ﴿ وخسر هنالك ﴾ أي : وقت القضاء المذكور ﴿ المبطلون ﴾ الذين وصفهم الباطل ، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل ، وغايتهم المقصودة لهم باطلة ، فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك ، فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة .

﴿ ٧٩ - ٨١ ﴾ ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوها ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلئك تحملون ﴿ ويريككم آياته فأي آيات الله

الكافرين ﴾ أي : كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا ، الضلال الواضح لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة ، ويتبين لهم معنى قوله تعالى : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ ﴿ ومن أصل ممن يدعون من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ الآيات .

ويقال لأهل النار ﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ﴾ أي : تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه ، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل وتفرحون على عباد الله ، بغياً وعدواناً وظلماً وعصياناً ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ فلما جاءتهم رسالهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

وكما قال قوم قارون له : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ .

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب ، بخلاف الفرح المدحوح الذي قال الله فيه : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿ فبئس مشوى المتكبرين ﴾ مشوى يجزؤون فيه ويهانون ويحسبون ويعذبون ويترددون بين حرها وزمهريرها .

﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أي : ﴿ فاصبر ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى ، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿ إن وعد الله حق ﴾ سينصر دينه ، ويغلي كلمته ، وينصر رسله في الدنيا والآخرة ، واستعن على ذلك أيضاً ، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا

بأسنا﴾ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سنة الله﴾ وعادته ﴿التي خلت في عبادته﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وخسر هنالك﴾ أي: وقت الإهلاك وإذابة البأس ﴿الكافرون﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعوته، لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء.

تفسير سورة فصلت (١) مكية

﴿١ - ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حم ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴿بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إليه واحد﴾ * فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿يجر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾ صادر ﴿من الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحته كل شيء، الذي من أعظم رحته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو

الكافرون﴾ حيث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين. ﴿فينظروا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

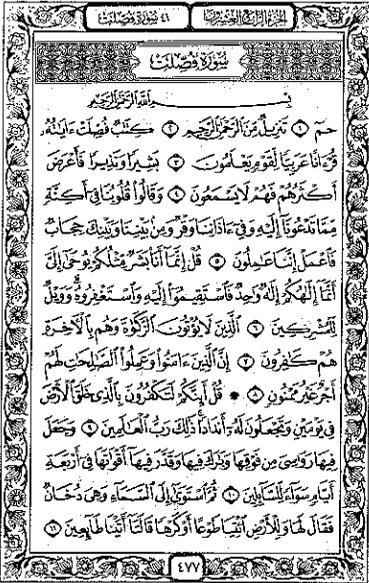
﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد أثراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيفة، والزروع الكثيرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فلما جاءهم رسلهم بالبينات﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فروحوا بما عندهم من العلم﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعادة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رذت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تغيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة فالله المستعان.

﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ من العذاب. ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي: عذابنا، أقرروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرتنا بما كنا به مشركين﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا﴾

(١) كذا في الأصل والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت).



من أجل نعيمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فصلت آياته﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق. ﴿قرآناً عربياً﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربياً. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغي من الرشاد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عمى فهؤلاء لم يسق الكلام لأجلهم، ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون﴾.

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي: بشيراً بالشواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فهم﴾

دخان فقال لها وللأرض اثنيًا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرًا بمصاييح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم * ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمّل خلقها، ودحاها، وإخراج أقرانها، وتوابع ذلك * في أربعة أيام سواء للسائلين * عن ذلك، فلا يبتنك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

ثم * بعد أن خلق الأرض * استوى * أي: قصد * إلى * خلق السماء وهي دخان * قد ثار على وجه الماء، * فقال لها * ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: * وللأرض اثنيًا طوعاً أو كرهاً * أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه. * قالتا أتينا طائعين * ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. * فقضاهن سبع سموات في يومين * فتمّ خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رقيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدره.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السموات قال: * والأرض بعد ذلك دحاها * يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

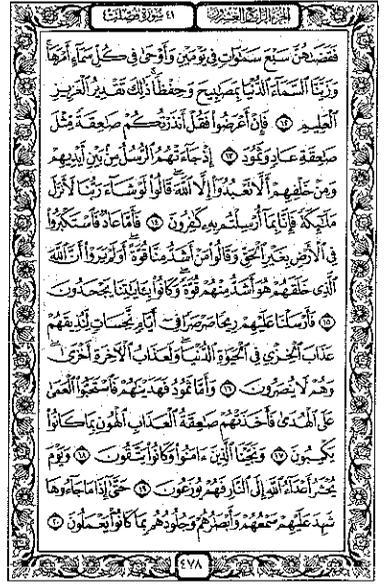
والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتها

بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: * إليه * تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: * واستغفروه * ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: * وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة * أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وندسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. * وهم بالآخرة هم كافرون * أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الحرف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: * إن الذين آمنوا * بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة. * لهم أجر * أي: عظيم * غير ممنون * أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتتات.

٩ - ١٢ * قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي



لا يسمعون * له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

وقالوا * أي: هؤلاء المرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: * قلوبنا في أكنة * أي: أعظية مغطاة * بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر * أي: صمم فلا نسمع لك * ومن بيننا وبينك حجاب * فلا تراك.

القصود من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: * فاعمل إننا عاملون * أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

قل * لهم يا أيها النبي: * إننا أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ * أي: هذه صفتي ووظيفتي، أي بشرٌ مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم وميّزني وخصّني بالوحي الذي أوحاه إليّ وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

فاستقيموا إليه * أي: اسلكوا الصراط الموصول إلى الله تعالى،

متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن «أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها» متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النزاعات، ولهذا قال فيها: «والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها» إلى آخره ولم يقل: «والأرض بعد ذلك خلقها».

وقوله: «وأوحى في كل سماء أمراها» أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. «وزيننا السماء الدنيا بمصابيح» هي النجوم يستار بها ويبتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً، وجمالاً لها باطناً، يجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها. «ذلك» المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها

تقدير العزيز العليم الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. «العليم» الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد. فترك المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية، فلهذا خوفهم بقوله:

﴿١٣ - ١٤﴾ «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون»

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذوبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم «فقل أنذرتكم صاعقة» أي: عذاباً يستأصلكم ويبتاحكم، «مثل صاعقة

عاد وثمود» القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحتهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

حيث «جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم» أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة. «ألا تعبدوا إلا الله» أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبهم، و«قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة» أي: وأما أنتم فبشر مثلنا «فإنا بما أرسلتم به كافرون» وهذه الشهية لم تنزل متوارثة بين المكذبين [من الأمم]، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿١٥ - ١٦﴾ «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم رجلاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون» هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود. «فأما عاد» فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم. «وقالوا من أشد منا قوة» قال تعال رداً عليهم بما يعرفه كل أحد: «أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة» فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

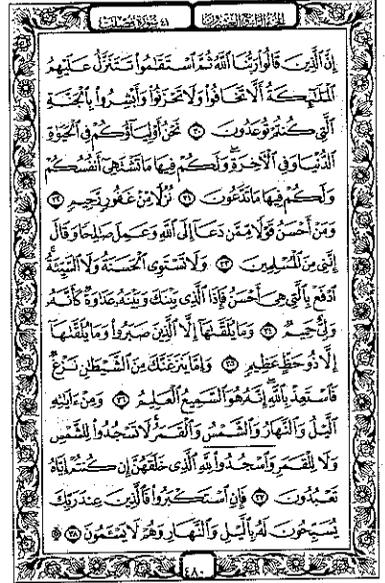
(١) في النسخين (بالأمم).

﴿١٧﴾ «فأرسلنا عليهم رجلاً صرصراً» أي: رجلاً عظيمة، من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم «سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية» «نحسات» فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنتهم. وقال هنا: «لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا» الذي اختروا به واقتضوا بين الخليفة. «وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون» أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا يمنعون أنفسهم.

﴿١٧ - ١٨﴾ «وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجيتا الذين آمنوا وكانوا يتقون» وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: «وأما ثمود فهديناهم» أي:

﴿١٨ - ١٧﴾ «وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجيتا الذين آمنوا وكانوا يتقون»

﴿١٧ - ١٨﴾ «وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجيتا الذين آمنوا وكانوا يتقون»



من المعتبين ﴿يَجْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَعْدَائِهِ، الَّذِينَ بَارَزُوهُ بِالْكَفْرِ بِهِ وَبِآيَاتِهِ، وَتَكْذِيبِ رِسَالِهِ وَمَعَادَاتِهِمْ وَحَارِبَتِهِمْ، وَحَالِهِمْ الشَّيْغَةَ حِينَ يَجْشِرُونَ، أَيْ: يَجْمَعُونَ. إِلَى النَّارِ فَهَمْ يُوَزَعُونَ﴾ [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوفاً عنيفاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ عموم بعد خصوص. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ فلا جلدٌ عليها ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وعظم غليان حميمها، وزادت نيران صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُرَابِهَا، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سحق الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اٰخِسُوْا فِيْهَا وَلَا تَكْلُمُوْنَ﴾.

﴿وَلَكِنَهُمْ - مِنْ ظَلْمِهِمْ وَشَرِهِمْ - اسْتَحْبُوا الْعَمَى - الَّذِي هُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ - عَلَى الْهُدَى - الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ - فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ لَا ظُلْمًا مِنْ اللَّهِ لَهُمْ. وَنَجِينَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: نجى الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يُجْشِرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهَمْ يُوزَعُونَ﴾ * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ﴿فَكَمَا خَلَقَكُمْ بَدَأَاتِكُمْ وَأَجْسَامَكُمْ، خَلَقَ أَيْضاً صِفَاتِكُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ الْإِنطَاقُ. وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتُرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تخاذرون من ذلك. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ

﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ أي: يطالبوا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفروا العمل. ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لانه ذهب وقته، وعمرها ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم التذير وانقضت حجتهم مع أن استعابهم كذب منهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُمَا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قَرْنًا مَزِينًا﴾ لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴿أَي: قِيضْنَا لَهُمْ قَرْنًا مَزِينًا﴾ من الجاحدين للحق ﴿قَرْنًا﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزَهُمْ أَرْسَالَنَا﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي وتختمهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفها بأعينهم، ودعوههم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شأؤوا من محاربة الله ورسله، والآخرة بعدوها

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يُجْشِرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهَمْ يُوزَعُونَ﴾ * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم

عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خروفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي .

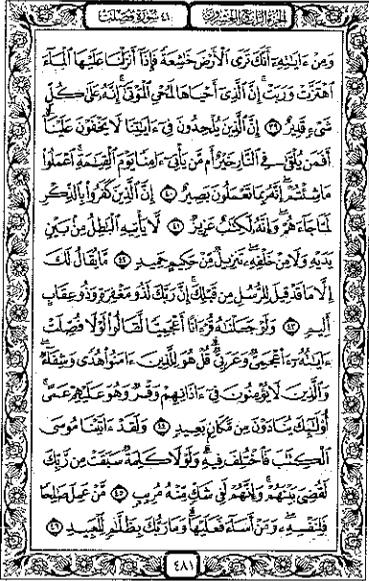
وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَعَرَّهُ لَهُ قَرِينَ ﴾ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون .

﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿ في ﴾ جملة ﴿ أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ لأديانهم وأخرتهم، ومن خسر، فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب .

﴿ ٢٦ - ٢٩ ﴾ ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ فلندينن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا يأتينا يحسدون ﴾ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، ف ﴿ الغوا فيه ﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا - مع قدرتكم - أحداً يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿ لعلكم ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿ تغلبون ﴾ [وهذه] ^(١) شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لكن

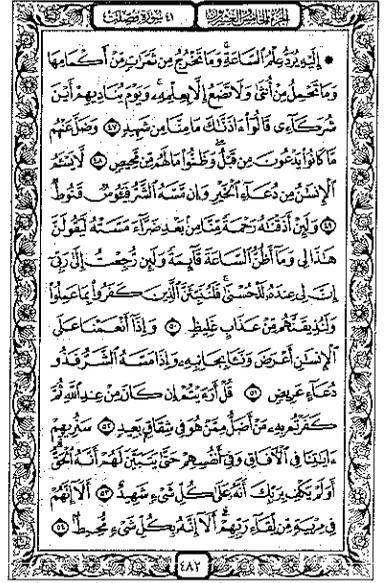
(١) في النسختين (وهذا).

(٢) في (ب) (الشرك).



ولكن فيهم ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ نزلا من غفور رحيم ﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تشبيطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً، فلهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

﴿ تنزل عليهم الملائكة ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار . ﴿ ألا تخافوا ﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما مضى، فنفا عنهم المكره الماضي والمستقبل، ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً، ويقولون لهم أيضاً مثبتين لهم ومبشرين: ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشبثونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشده، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون



وحسنه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاذه من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله، تحجيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر

الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم والعبوراض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يرضي ربه. ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل، كما أن من أشرف الناس قولاً، من كان من دعاة الضالين^(١) السالكين لسبيله.

عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾ أي: في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ قد أعد وهييء. ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي: تطلبون من كل ما يتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿نزلنا من غفور رحيم﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والتعظيم المقيم، نُزِّلَ وضيافة ﴿من غفور﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رحيم﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم. فبمغفرتة أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ هذا استفهام بمعنى النفي التقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة ﴿ومن دعا إلى الله﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه، الدعوة إلى أصل دين الإسلام

﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصلة، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك وترك خطابك فطُيب له الكلام، وابدل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وما يلقاها﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إلا الذين صبروا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان!!

فإذا صبر الإنسان نفسه، وأمثلة أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بخسنة عملة لا يفيد شياً، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك مثلاً مستحلياً له.

﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون﴾. ﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب (من دعاة الضلال).

ظاهرة وباطنه، وسيجازيه على إحداه بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أقمن يلقى في النار﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خيرٌ أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المتجني من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم ورجته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقولته تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحيهم الدينية والدنيوية والأخروية، المغلي لقدرة من اتبعه، ﴿لما جاءهم﴾ نعمة من ربه على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿وروا الحال إنه لكتاب﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عزيز﴾ أي: منيع من كل من أرادته بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾.

﴿تنزيل من حكيم﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. ﴿حميد﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمدها عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة

اعبده وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحيه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فإن استكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فالدِّين عند ربك﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ أي: المطر ﴿اهتزت﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وربت﴾ ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إن الذي أحياها﴾ بعد موتها وهو دها، ﴿لمحي الموتى﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، وتشرهم ﴿إنه على كل شيء قدير﴾ فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير * إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿الإحداد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها ما أرادها الله منها.

فتوعّد تعالى من ألد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرقعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿٣٥ - ٣٩﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون * ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الخبي، وهو الاستعانة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ أي: أي وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشتر، وتكسيه عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فاستعذ بالله﴾ أي: أسأله، مفتقراً إليه، أن يعيدك ويعصمك منه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿من آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿الليل والنهار﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. ﴿والشمس والقمر﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ فإنما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ أي:

وذو عقاب أليم ﴿أي: ﴿ما يقال لك﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة من كذبك وعاندك ﴿إلا ما قد قيل للرسول من قبلك﴾ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسول، من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلينا﴾.

واقتراحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة؛ وحذرهم من الاستمرار على العنق فقال: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي: عظيمة، يمحوها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وذو عقاب أليم﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿٤٤﴾ ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في أذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب، لاعترض المكذوبون وقالوا: ﴿لولا فصلت آياته﴾ أي: هلاً بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿أعجمي وعربي﴾ أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفي الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون المرفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قل هو للذين آمنوا

هدى وشفاء﴾ أي: يهديهم لطريق الرشد والصراف المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزرع عن مساويء الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

﴿والذين لا يؤمنون﴾ بالقرآن ﴿في أذانهم وقر﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وهو عليهم عمى﴾ أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عمائم، وغياً إلى غيهم.

﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا يتفجعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿ولقد أتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد أتينا موسى الكتاب﴾ كما أتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لقضي بينهم﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿من عمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فلنفسه﴾

نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فيحتمل أحداً فوق سبتائهم.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا أدناك ما منا من شهيد﴾ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيلاً.

﴿وما تحمل من أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿ولا تضع﴾ أنثى حملها ﴿إلا بعلمه﴾ فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿ويوم يناديهم﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أين شركائي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتهم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قالوا﴾ مقرين بظلال إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿أدناك ما منا من شهيد﴾ أي: أعلنناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بظلال عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون﴾ من دون الله، أي:

فإن قلتم، أو شككتم بصحته وحقيقته، فسيقم الله لكم ويريكم من آياته في الآفاق، كآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق.

﴿وفي أنفسهم﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك. ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنهم بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

— بمتة تعالى —

تفسير سورة الشورى مكية

﴿١ - ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم عسق﴾ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. ﴿له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم﴾ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض إلا إن الله هو الغفور الرحيم. ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطغى، ويقول: ﴿هذا لي﴾ أي: أتاني لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة وهذا من أعظم الجراحة والقول على الله بلا علم، فلهدأ توعده الله بقوله: ﴿فلننبئ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما، ﴿أعرض﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ونأى﴾ أي: ترفع ﴿بجانبه﴾ عجباً وتكبراً. وإن مسه الشر ﴿أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما﴾ فذو دعاء عريض ﴿أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومن عليه.

﴿٥٢ - ٥٤﴾ ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي: معاندة الله ورسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تقيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وظنوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، بيئها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضى عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدرجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

بوكيل * وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير * ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمة والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من انصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدرى والشرعى.

وأنه ﴿العلي﴾ بذاته، وقدره، وقهره. ﴿العظيم﴾ الذي من عظمته ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ على عظمتها وكونها جماداً، ﴿والملائكة﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مدعون بربوبيته. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الغفور الرحيم﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى هذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد - صلى الله عليهم أجمعين - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال البارئ تعالى، ووصفه هذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من

معرفته وعظمته وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد الله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها.

﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فتسال عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

﴿١٠ - ١٢﴾ ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، كما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فيباطل. ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿وإليه أنيب﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيرهما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قرآناً عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومن حولها﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. ﴿وتنذر﴾ الناس ﴿يوم الجمع﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتجزيهم أنه ﴿لا ريب فيه﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فريق في الجنة﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وفريق في السعير﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لو شاء الله﴾ لجعل الناس، أي: جعل الناس أمة واحدة على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمة من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، ف ﴿ما لهم﴾ من دون الله ﴿من ولي﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه.

والذين ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقيح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما

الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله : ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ .

﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي : خالقهما بقدرته ومشيتته وحكمته . ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ لتسكنوا إليها ، وتنتشر منكم الذرية ، ويحصل لكم من النفع ما يحصل .

﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي : ومن جميع أصنافها نوعين ، ذكر وأُنثى ، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة ، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل ، أي : جعل ذلك لأجلكم ، ولأجل النعمة عليكم ، ولهذا قال : ﴿يذروكم فيه﴾ أي : يبتكم ويكثركم ويكثر مواشيكم ، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم ، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً .

﴿ليس كمثله شيء﴾ أي : ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، لأن أسماء كلها حسنى ، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة ، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك ، فليس كمثله شيء ، لانفراده وتوحيده بالكمال من كل وجه . ﴿وهو السميع﴾ لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات . ﴿البصير﴾ يرى دبيب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً ، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة .

وهذه الآية ونحوها ، دليل المذهب أهل السنة والجماعة ، من إثبات الصفات ، ونفي مماثلة المخلوقات . وفيها رد على المشبهة في قوله : ﴿ليس كمثله شيء﴾ وعلى العظلة في قوله : ﴿وهو السميع البصير﴾ .

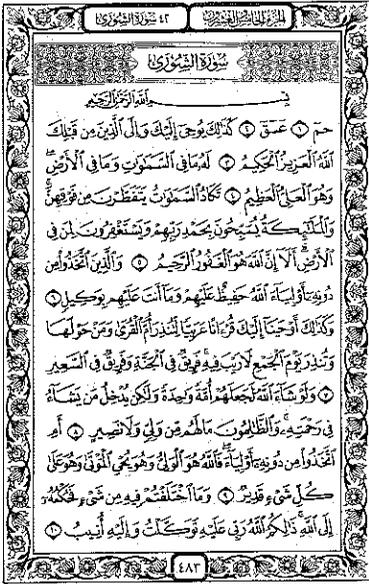
وقوله : ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي : له ملك السماوات والأرض ، وييده مفاتيح الرحمة

والأرزاق ، والنعم الظاهرة والباطنة . فكل الخلق مفتقرون إلى الله ، في جلب مصالحهم ، ودفع المضار عنهم ، في كل الأحوال ، ليس بيد أحد من الأمر شيء .

والله تعالى هو المعطي المانع ، الضار النافع ، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع الشر إلا هو ، و ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ .

ولهذا قال هنا : ﴿يسط الرزق لمن يشاء﴾ أي : يوسعها ويعطيها من أصناف الرزق ما شاء ، ﴿وتقدر﴾ أي : يضيق على من يشاء ، حتى يكون بقدر حاجته ، لا يزيد عنها ، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ، ولهذا قال : ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فعلم أحوال عباده ، فيعطي كل ما يليق بحكمته وتقضيه مشيئته .

﴿١٣﴾ ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يبغى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده ، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها ، وأزكاها وأطهرها ، دين الإسلام ، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده ، بل شرعه الله لخيار الخيار ، وصفوة الصفوة ، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية ، أعلى الخلق درجة ، وأكملهم من كل وجه ، فالدين الذي شرعه الله لهم ، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم ، موافقاً لكمالهم ، بل إنما كملهم الله واصطفاهم ، بسبب قيامهم به ، فلولا الدين الإسلامي ، ما ارتفع أحد من الخلق ، فهو روح السعادة ، وقطب رحي الكمال ، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب .

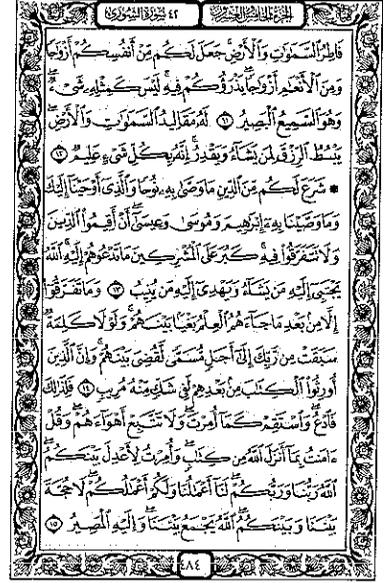


ولهذا قال : ﴿أن أقيموا الدين﴾ أي : أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه ، تقيمونه بأنفسكم ، وتحثدون في إقامته على غيركم ، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان . ﴿ولا تتفرقوا فيه﴾ أي : ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه ، واحرصوا على أن لا تتفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً ، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم .

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة ، كاجتماع الحج والأعياد ، والجمع والصلوات الخمس والجهاد ، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق .

﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي : شق عليهم غاية المشقة ، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده ، كما قال عنهم : ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستشرون﴾ وقولهم : ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ .

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب : (صفات) .



﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾ أي .

يختار من خليفته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ هذا

السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنبابه لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحين مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ .

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يهدى إليه من ينيب﴾ مع قوله: ﴿واتبع سبل من أناب إلى﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنبابهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من

بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا

ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظرنا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن

ويعني جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخير بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقررة بصحتها.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا الكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر

﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدل، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

﴿والله المصير﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فيأثم تباعضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾

أي: بتأخير العذاب القاضى إلى أجل مستى لقضى بينهم﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم.

﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من

بعدهم﴾ أي: الذين ورثوه وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللذين

القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتابه وأرسل رسوله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله، ﴿واستقم﴾ بنفسك ﴿كما أمرت﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفریط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ﴿ولا تتبع دينهم﴾ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم،

﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ يوم القيامة، فيجزى كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿١٦﴾ ﴿والذين يماجون في الله من بعد ما استجيب له حجبتهم داخضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم، فأخبر هنا أن ﴿الذين يماجون في الله﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿من بعد ما استجيب له﴾ أي: من بعد ما استجاب الله أولو الألباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حجبتهم داخضة﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عند ربهم﴾ لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿وعليهم غضب﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيئاته وتكذيبها. ﴿ولهم عذاب شديد﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ ما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحة، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل،

والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضع بين عباده، ليزنوا به ما أشبهه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خیر المسائل وما أخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالحجج الباطلة المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقّعة وقوعها، مخوف وجبتها. ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ عناداً وتكديباً، وتعجيزاً لربهم. ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿إلا أن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأيّ بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

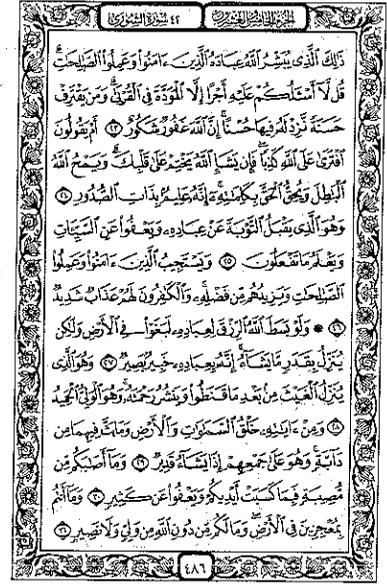
وَالَّذِينَ يَمَارُونَ فِي الْكُفْرِ بِمَا أَنزَلْنَا مِنْ حَيْثُ جَاءَهُمْ دَلِيلٌ مِنَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَمَارُونَ فِي الْكُفْرِ بِمَا أَنزَلْنَا مِنْ حَيْثُ جَاءَهُمْ دَلِيلٌ مِنَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣٠﴾

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وتكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنةً وفهماً.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿الله لطيف بعباده﴾ يريد حوث الآخرة نزله في حرثه ومن كان يريد حوث الدنيا نوته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴿يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخاطر بهاله، بما يسره من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى للملائكة الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس



على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يرزق من يشاء﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وهو القوي العزيز﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿ومن كان يريد حرث الآخرة﴾ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿نزد له في حرثه﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يحش عقابها. ﴿نؤته منها﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ إلى آخر الآيات.

لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿٢١-٢٣﴾ ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشركونهم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرّم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن السدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن مقتضى لإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿ترى الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين ﴿مما كسبوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿واقع بهم﴾ العقاب الذي خافوه،

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله وكتبه ورسله وما جاؤوا به، ﴿وعملوا الصالحات﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿في روضات الجنات﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية الطرية. والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياًقاً إلى لذاتها ووداداً، ﴿لهم ما يشاؤون﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿أجرأ﴾ فليست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إلا المودة في القربى﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرأ إلا أجرأ واحداً هولكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني

الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد * هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتعام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعد ما انعقدت سبباً للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبه ويوقفه لما يقتره إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقشروا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به ورسوله، ف﴿لهم عذاب شديد﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي: لغفلوا

على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرؤون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿ويحق الحق بكلماته﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يقبض له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبياناته، فظهر من نوره وهذاه ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

﴿٢٥ - ٢٨﴾ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ورسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقوله: ﴿ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك﴾.

﴿ومن يقترف حسنة﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نزد له فيها حسناً﴾ بأن يشرح الله صدره، ويبسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والأجل.

﴿إن الله غفور شكور﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستز العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفهاضاعفاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿افترى على الله كذباً﴾ فرمك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء

عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهي نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: ﴿إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إنني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إنني خبير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، ﴿من بعد ما قنطوا﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسروا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث ﴿وينشر﴾ به رحمته ﴿من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو السوي﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتديره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سبحانه المولى بعد موتهم، ﴿خلق﴾ هذه السماوات والأرض ﴿على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتيقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وما بثَّ فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومانع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إذا يشاء قدير﴾ فقدرته ومشيبته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠ - ٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة﴾. وليس إهمالاً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢ - ٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿أو يوقهن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴿أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الجوار في البحر﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها ﴿كالأعلام﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أممعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة

على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيتها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار ﴿رواكد﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا شرط مشيتها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شكور﴾ في الرضاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي يتفجع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مُعرض أو معاند لا يتفجع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ليطولها بباطلهم. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا يتقدم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿٣٦ - ٣٩﴾ ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذي يجتنبون كباثر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴿هذا تزيهد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منقصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿حسين﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وأبقى﴾

لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الشواب فقال: **«للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»** أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل، الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

«والذين يمتنبون كبائر الإثم والفواحش» والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع أفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

«وإذا ما غضبوا هم يغفرون» أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: **«ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»** وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

«والذين استجابوا لربهم» أي: انقادوا لطاعته، ولَبَّوا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، النذال على شرفه وفضله فقال: **«وأقاموا الصلاة»** أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها. **«ومما رزقناهم ينفقون»** من النفقات

الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

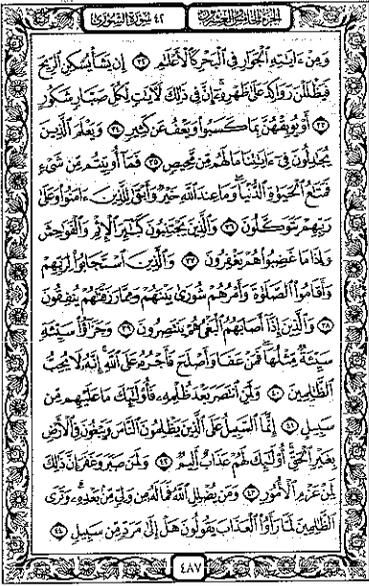
«وأمرهم» الديني والدنيوي **«شورى بينهم»** أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوافقهم وتواددهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى أعمال الفكر والرأي: فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي: في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

«والذين إذا أصابهم البغي» أي: وصل إليهم من أعدائهم **«هم يتصرون»** لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانتقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم، فعل ما هو دونهما، وانتفاء ضدها.

«٤٠ - ٤٣» **«وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين»** * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور * ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس



بالنفس، وكل جازحة بالجازحة الماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: **«فمن عفا وأصلح فأجره على الله»** يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

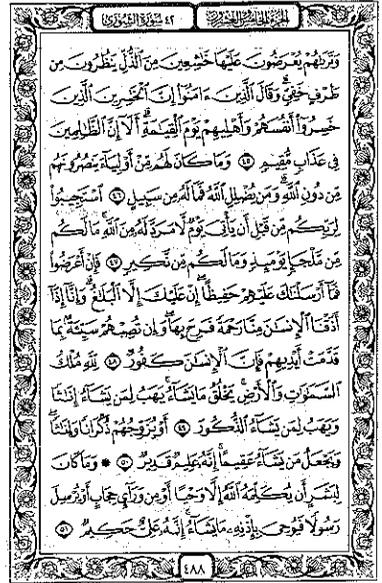
وفي جعل أجر العافي على الله ما يبيح على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يجب أن يعامله الله به، فكما يجب أن يعفو الله عنه، فلْيَعْفُ عنهم، وكما يجب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: **«إنه لا يحب الظالمين»** الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

«ولمن انتصر بعد ظلمه» أي: انتصر عن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه **«فأولئك ما عليهم من سبيل»** أي: لا حرج عليهم في ذلك.

وذكر قوله: **«والذين إذا أصابهم البغي»** وقوله: **«ولمن انتصر بعد ظلمه»** أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة



ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تاديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الخجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿ولن صبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخير أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستحسان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

﴿٤٤-٤٦﴾ ﴿ومن يضل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿من يضل الله﴾ بسبب ظلمه ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى أمره ويهيده.

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيماً، ضعياً شبيحاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيبتها وخوفها.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إن الخاسرين﴾ على الحقيقة ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿ألا إن الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذاب مقيم﴾ أي: في سوائه ووسطه، منغمسين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون.

﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم

عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ تحصل به هدايته، فهو لا ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فبين حينئذ ضلالهم.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ فإن عرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وأنا إذا أذنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصيهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتنال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفاتت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلق من خلفهم، ونودوا ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فإن عرضوا﴾ عما جنتهم به بعد البيان التام ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ تحفظ أعمالهم وتسال عنها، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم عرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فرح بها﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم.

فخبر، وإن شراً فشر. تم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمَّ * وَالكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينًا لِعَلِيٍّ حَكِيمٍ * أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه يجعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدِينًا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لِعَلِيٍّ حَكِيمٍ﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه وعمله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعقل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملًا، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفترض عنكم، وترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل تنزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿٦ - ٨﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا

إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً. ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِنْ وِرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلمه الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، ف ﴿يُرْسِلُ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فِيُوحِي بِآذَنِهِ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى على الذات، على الأوصاف، عظيمها، على الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن يحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تحفظ ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المرديّة، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبيته لهم وتوضحه، وتبينه وترغبهم فيه، وتنههم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسّر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلاً بحسب عمله، إن خيراً

﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَنْبَغُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَنْبَغُ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكُورُ * أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق ما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومته، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إنثاء، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكوراً وإنثاء، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، ويقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بآذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ لما قال المكذبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْ لَا يَكْلِمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ مِنْ كِبَرِهِمْ وَتُجِيبُهُمْ، رد الله عليهم هذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

﴿إِنَّمَا﴾ أن يكلمه الله وحياً ﴿بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير

بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب
للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو
كظيم * أومن ينشأ في الحلية وهو في
الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناناً أشهدوا
خلقهم ستكتب شهداتهم ويسألون *

وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم
بذلك من علم إن هم إلا يخرصون *
أم أتيناهم كتاباً من قبله فهم به
مستمكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا
على أمة وإنا على آثارهم مهتدون *
وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من
نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا
على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال
أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه
آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به
كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف
كان عقابة المكذبين * يخبر تعالى عن
شناعة قول المشركين، الذين جعلوا الله
تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد
الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا
ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك
باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباده،
والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده،
والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم
في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء
من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى
ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة
بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون
الصفين، فكيف يكون لله البنات،
ويصطفيهن بالبنين، ويفضلهم بها؟!
فاذاً يكونون أفضل من الله، تعالى الله
عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي
نسبوه لله، وهو البنات، أدون
الصفين، وأكرهما لهم، حتى إنهم
من كراهتهم لذلك **﴿إذا بشر أحدهم
بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه
مسوداً﴾** من كراهته وشدة بغضه،
فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في

جعل منافذ بين سلاسل الجبال
المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من
الآقطار. **﴿لعلكم تهتدون﴾** في السير
في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم
تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك
والادكار فيه.

﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾
لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً
بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث
لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث
يضر العباد والبلاد، بل أغاث به
العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة،
ولهذا قال: **﴿فأنشرونا به بلدة ميتاً﴾**
أي: أحييناها بعد موتها، **﴿كذلك
تخرجون﴾** أي: فكما أحيا الأرض الميتة
الهامة بالماء، كذلك يحييكم بعدما
تستكملون في البرزخ، ليجازيكم
بأعمالكم.

﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي:
الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض
ومن أنفسهم وما لا يعلمون، من ليل
ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير
ذلك. **﴿وجعل لكم من الفلك﴾** أي:
السفن البحرية، الشراعية والنازية، ما
تركبون **﴿و﴾** من **﴿الأنعام ما
تركبون﴾** لتستروا على ظهوره **﴿وهذا
شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام،
أي: لتستقروا عليها، ثم تذكروا
نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾**
بالاعتراف بالنعمة من سخرها، والثناء
عليه تعالى بذلك، ولهذا قال:
**﴿وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا
وما كنا له مقرنين﴾** أي: لولا تسخيره
لنا ما سخر من الفلك، والأنعام، ما
كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن
من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلكها
ويسر أسبابها.

والمقصود من هذا، بيان أن الرب
الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم
على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد،
ويصلى له ويسجد.

﴿١٥ - ٢٥﴾ **﴿وجعلوا له من
عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾**
أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم

كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد
منهم بطشاً ومضى مثل الأولين * يقول
تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن
لا نتركهم هملاً، فكم **﴿أرسلنا من نبي
في الأولين﴾** يأمرهم بعبادة الله
وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب
موجوداً في الأمم.

**﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به
يستهزؤون﴾** جحداً لما جاء به، وتكبيراً
على الحق.

﴿فأهلكنا أشد﴾ من هؤلاء
﴿بطشاً﴾ أي: قوة وأفعالاً وآثاراً في
الأرض، **﴿ومضى مثل الأولين﴾** أي:
مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم
منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب
والإنكار.

﴿٩ - ١٤﴾ **﴿ولئن سألتهم من
خلق السماوات والأرض ليقولن
خلقهن العزيز العليم﴾** الذي جعل
لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً
لعلكم تهتدون * والذي نزل من
السماء ماء بقدر فأنشرونا به بلدة ميتاً
كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج
كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما
تركبون * لتستروا على ظهوره ثم
تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه
وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما
كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمقلبون *
يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو
**﴿سألتهم من خلق السماوات والأرض
ليقولن﴾** الله وحده لا شريك له،
العزيز الذي دانت لعزته جميع
المخلوقات، العليم بظواهر الأمور
وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا
كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له
الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف
يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا
يُميت ولا يحيي!؟

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على
كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده
من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً
للعباد، يتمكنون فيها من كل ما
يريدون.

﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي:

وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُثَشِّرْ فِي الْحَلِيَةِ﴾ أي: يَجْمَلُ فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وهو في الخِصام﴾ أي: عند الخِصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غَيْر مَبِين﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبونن الله تعالى؟

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناءً، فتجزؤوا على الملائكة، العباد المقربين، ورفوهم عن مرتبة العبادة والذلل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنثوية، فسبحان مَنْ أظهر تناقض مَنْ كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمثبته، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قلمه.

وأما شرعاً، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يتخربصون تخربصاً لا دليل عليه، ويتخربصون خبب عشاء.

ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي:

فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران، فلا ثم إلا الباطل.

نعم، لهم شبهة من أوهى الشبه، وهي تقليد آباؤهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها ﴿أَي: منعموها، وملؤها الذين أظغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ وإنا على آثارهم مقتدون ﴿أَي: فهو لاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول مَنْ قال هذه المقالة.

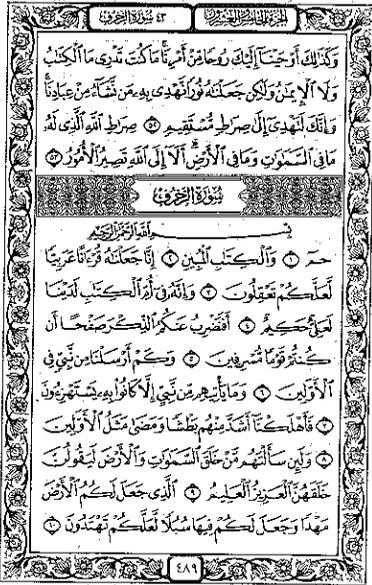
وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أُولُو جُنُودِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿٢٦٦ - ٢٢٢﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهَمْ يَقْسَمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ



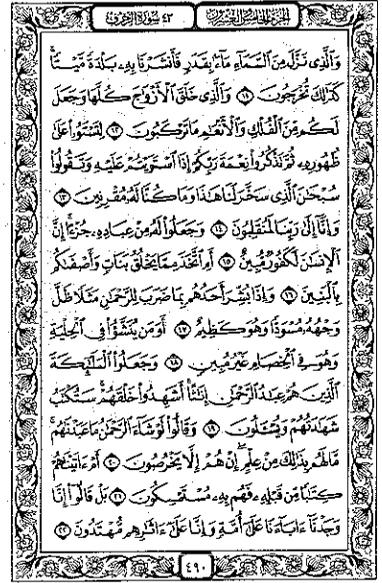
بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴿ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَبْغُوا وَهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾

﴿إِننسي براء مما تعبّدون﴾ أي: مبعوض له، مجتنب معاد لأهله، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني وديربي بما يصلح بدني ودنياي، ف ﴿سيهدين﴾ لما يصلح ديني وأخري.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبرّي من عبادة ما سواه.

﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: ذريته لعلهم ﴿إيها﴾ يرجعون ﴿لشهرتها﴾ عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه - كأسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان.



وَأُولَىٰ نَزَّلْنَا النَّوْمَ ثُمَّ وَجَدْنَا مُرْسِمًا فِي رءُوسِهِمْ لَمَّا نَسُوا فَأَاسْرَآ إِلَىٰ يَوْمِ لَمَلٍ وَجَدَنَا كَذِبًا أَجْرًا حَكِيمًا ﴿٤٣﴾ وَأُولَىٰ عَلَى الْأَنْفُسِ كَيْفَ أَرَادُوا ﴿٤٤﴾ لَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ نَسُوا مَا وَعَدُوا وَإِن يَنْتَهُوا عَنَّا فَلِئَلَّنَّ لَمَمَاتِهِمْ تَوَدُّوا ﴿٤٥﴾ وَأَمَّا الْإِنسَانُ لِرَبِّهِمْ كَفُورًا ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥١﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾

فقال تعالى: ﴿بل متعت هؤلاء وآبائهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ولا مريبة ولا اشتباه. ﴿ورسول مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبفس دعوته ﷺ.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإننا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جرده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخيب الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وآبائهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم﴾ أي: معظم عندهم، ميثج من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالثوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله رداً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الخزان

لرحمة الله، ويبدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون، ويمنعونها ممن يشاؤون؟

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿و﴾ الحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فييسر الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكيمته، فرحمته الدنيوية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فإله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمر كلها، دينها وديوبها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلظتهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً، وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أوليائه وأعدائه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمة ومنتهى حقته، أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل

السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدنيوية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ ولبسوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون﴾ وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، توسع الدنيا على الذين كفروا توسعاً عظيماً، ولجعل ﴿لبسوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿ولبسوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يتمتع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزني عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، متغصّة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامثال أو امره

واجتناب نواهيها، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهي به الأنفس وتلذذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!!

﴿٣٦- ٣٩﴾ * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإهم ليصدونهم عن السبيل ويمسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشركين فيئس القرين * ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون * يخبر تعالى عن عقوبته البليغة، لمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿ومن يعش﴾ أي: يعرض ويصد ﴿عن ذكر الرحمن﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها، فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والراغائب، ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقبض له الرحمن شيطاناً مريداً، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزاً، وإهم ليصدونهم عن السبيل﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم. ﴿ويمسبون أنهم مهتدون﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورجعوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغفّي، وانقلاب الحقائق.

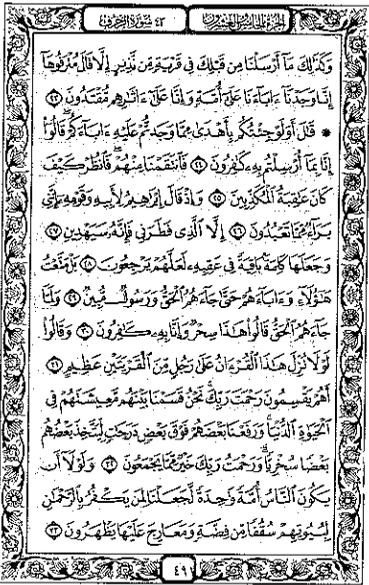
وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجير مصابه، والتبرّي من قرينه، ولهذا قال

تعالى ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشركين فيئس القرين﴾. كما في قوله تعالى: ﴿ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاقكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشركتم في عقابه وعذابه. ولن ينفعكم أيضاً، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن ترحمتنا برحمتك.

﴿٤٠- ٤٥﴾ * أفأنت تسمع الصم أو تبدي العمي ومن كان في ضلال مبين * فإذا نذرينك بك فإننا منهم منقمون * أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدون * فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون * واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلماً له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ أي: الذين لا يسمعون ﴿أو تبدي العمي﴾ الذين لا يبصرون، أو تهدي ﴿من كان في ضلال مبين﴾ أي: بين واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضلالاً مبيناً لا يتهدى، فهؤلاء قد فسدت فطرتهم وعقولهم، بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا

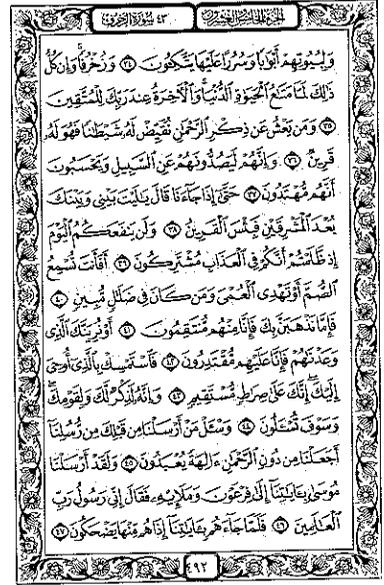


عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمتعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى، فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فإنما نذرينك بك فإننا منهم منتقمون﴾ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أننا منهم منتقمون.

﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾ من العذاب ﴿فإننا عليهم مقتدون﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

وأما أنت ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾ فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالانصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك. ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بانياً على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام، والظلم والجور.

﴿وإنه﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لذكر لك ولقومك﴾ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم



عليه، ويذكركم النسر ويرهبكم عنه، ﴿وسوف تسألون﴾ عنه، هل قمتم به فارتعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه النعمة؟

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله، وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦- ٥٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ إلى آخر القصة^(١) لما قال تعالى:

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ بين تعالى حال موسى ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

(١) وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخرها.

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات.

﴿إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه، ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزؤا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى الإسلام، ويدعون له، ليزول شركهم وشرهم.

﴿وقالوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يا أيها الساحر﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي: بما خصك الله به، وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عتاء العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ إن كشف الله عتاء ذلك، ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكتون﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم. وهذا كقوله تعالى:

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عتاء الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه

إذا هم ينكتون﴾. ﴿ونادى فرعون في قومه قال﴾ مستعلياً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يا قوم أليس لي ملك المتصرف فيه، وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ أي: الأهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين. ﴿أفلا تبصرون﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ يعني - قبحة الله - بالهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحقر، فأينا خير؟ ﴿ومع هذا فلا﴾ يكاد يبين عتافي ضميره بالكلام، لأنه ليس بفسيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان بين ما في قلبه، ولو كان ثقيلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب﴾ أي: فهلاً كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً جملاً بالخلي والأساور؟ ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تخني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

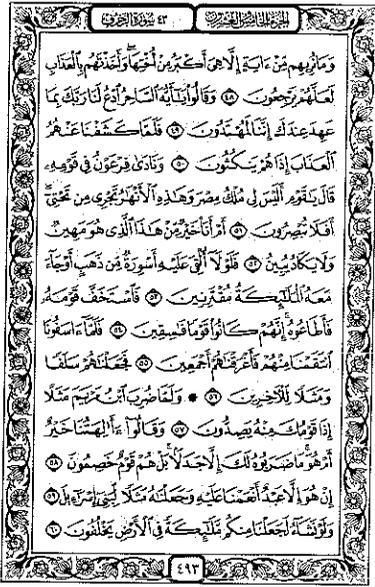
فأي: دليل يدل على أن فرعون حق، لكون ملك مصر له، وأتاهه تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى، نقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً لا يعقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل. ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فيسبب فسقهم، قيس لهم

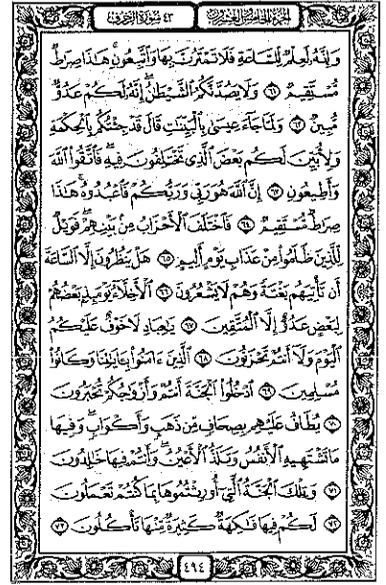
فرعون، يزين لهم الشرك والشر.
 ﴿فلما أسفونا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، وتعظ بأحوالهم المتعظون.
 ﴿٥٧ - ٦٥﴾ ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا آللهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أئمننا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا متكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تترنن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ يقول تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إذا قومك﴾ المكذبون لك ﴿منه﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يصدون﴾ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.
 ﴿وقالوا آللهتنا خير أم هو﴾ يعني: عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ووجه حجتهن الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فليم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلو لا أن حججت باطلا لم تناقض.

ولم قلت: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. وهذا لفظ بزعمهم، يعبر الأصنام، وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها، هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة [الذي] ^(١) فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.
 وهي - والله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأى: شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟
 وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقرباً عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إن هو إلا عبد أئمننا عليه﴾ بالنسبة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.
 وأما قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:
 أحدها: أن قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.
 الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين يمكئة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح.
 الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إن الذين سبقت لهم مثلاً الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ فلا شك أن

(١) في النسختين (الذي) ولعل الصواب (التي).



عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية.
 ثم قال تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا متكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ أي: لجعلنا بدلکم ملائكة يخلفونکم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى ترسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليکم الملائكة، فمن رحمة الله بکم، أن أرسل إليکم رسلاً من جنسکم، تتمکنون من الأخذ عنهم.
 ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة. ﴿فلا تترنن بها﴾ أي: لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر. ﴿واتبعون﴾ بامتنال ما أمرتکم، واجتنب ما نهيتکم، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله عز وجل، ﴿ولا يصدنکم الشيطان﴾ عما أمرکم الله به، فإن الشيطان ﴿لکم عدو﴾ حريص على إغوائکم، باذل جهده في ذلك. ﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به،



من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأأرصر، ونحو ذلك من الآيات. **﴿قال﴾** لبني إسرائيل: **﴿قد جنتكم بالحكمة﴾** النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. **﴿ولأبين لكم بعض الذي تختفون فيه﴾** أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانتقاد له، وقبول ما جاءهم به. **﴿فاتقوا الله وأطيعوه﴾** أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأمنوا بي وصدقوني وأطيعوني.

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: «إنه ابن الله»، أو ثالث ثلاثة»، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا **﴿اختلف الأحزاب﴾** المتحزبون على التكذيب **﴿من بينهم﴾** كل قال بعيسى

عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿قويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

﴿٦٦ - ٧٣﴾ **﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ما أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون * يقول تعالى: **﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها، وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالفين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، **﴿بعضهم لبعض عدو﴾** لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة. **﴿إلا المتقين﴾** للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله، ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: **﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾** أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق

بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها. **﴿وكانوا مسلمين﴾** الله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادخلوا الجنة﴾ التي هي دار القرار **﴿أنتم وأزواجكم﴾** أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. **﴿تحبرون﴾** أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ أي: تدور عليهم خدماتهم، من الولدان المخلدن بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عزى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وفيها﴾ أي: الجنة **﴿ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾** وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم موفقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: **﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾** **﴿وأنتم فيها خالدون﴾** وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وتلك الجنة﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي **﴿التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾** أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمة ما أودع.

﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ كما في الآية الأخرى: **﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾**. **﴿منها تأكلون﴾** أي: بما تتخبرون من تلك الفواكه الشهية،

والثمار اللذيذة تأكلون^(١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤-٧٨﴾ **﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي**

عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ
وَهُمْ فِيهِ مَبْسُورُونَ * وَمَا ظَلَمْتَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنادوا يَا
مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِيكَ قَالِ إِنَّكُمْ
مَأْكُوثُونَ * لَقَدْ جِئْتَنَا بِالحَقِّ وَلَكِنْ
أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم **﴿فِي عَذَابِ**

جَهَنَّمَ﴾ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، **﴿خَالِدُونَ﴾**

فيه، لا يخرجون منه أبداً، و **﴿لَا يَفْتَرُ**

عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة، بإذنته، ولا بتهورين عذابه، **﴿وَهُمْ فِيهِ**

مَبْسُورُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون

رهبهم فيقولون: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ**

عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون، وهذا العذاب العظيم،

بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم

بلا ذنب ولا جرم. **﴿وَنادوا﴾** وهم في النار، لعلمهم

يحصل لهم استراحة، **﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ**

عَلَيْنَا رِيكَ﴾ أي: ليمنتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ،

لا صبر لنا عليه ولا جلد. **﴿قَالَ﴾**

لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم -

﴿إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ﴾ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم

ما قصدوه، بل أحاسبهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم

ويخهم بما فعلوا، فقال: **﴿لَقَدْ جِئْتَنَا بِالحَقِّ﴾** الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفترتم وسعدتم،

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها. **﴿٧٩-٨٠﴾**

﴿إِنَّكُمْ مَبْسُورُونَ﴾ أي: ميسورون **﴿أَمْ أَيْرِمْوْا أَمْرًا فَإِنَّا**

مَيْرِمُونَ * أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ

سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرسلْنَا لَدَيْهِمْ

يَكْتُبُونَ﴾ يقول تعالى: أم أيرم المكذبون بالحق المعاندون له **﴿أَمْرًا﴾** أي: كأدوا

كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل

المزخرف المزوق، **﴿فَأِنَّا مَيْرِمُونَ﴾** أي:

محكمون أمراً، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما

قيّضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

فَيُدْغِمُهُ﴾ **﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾** بجهلهم وظلمهم **﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾** الذي لم يتكلموا

به، بل هو سر في قلوبهم **﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾** أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدّموا

على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: **﴿بَلَىٰ﴾** أي:

إننا نعلم سرهم ونجواهم، **﴿وَرسلْنَا﴾** الملائكة الكرام، **﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا

حاضرًا، ولا يظلم ربك أحداً. **﴿٨١-٨٣﴾**

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ

وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

يَصِفُونَ * فَلرَّهْمُ يَخْرُصُونَ وَيَلْعَبُونَ

حَتَّىٰ يَلِاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يوعُدُونَ﴾

أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا الله ولداً، وهو الواحد الأحد

الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمر

المحبوبة لله، ولكنني أول المنكرين لذلك، وأشدّهم له نقياً، فعلم بذلك

بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول

الناس سباً إليه وتكميلاً له، وكل شر

فهم أول الناس تركاً له وإنكاراً له ويُعداً

منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل

الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله،

ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية

الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك

بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. **﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ**

وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه

المشركون. **﴿فَلرَّهْمُ يَخْرُصُونَ وَيَلْعَبُونَ﴾**

أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلموهم ضارة غير نافعة،

وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به

الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: **﴿حَتَّىٰ يَلِاقُوا يَوْمَهُمُ**

الَّذِي يوعُدُونَ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء

الدائم، والعذاب المستمر. **﴿٨٤-٨٩﴾**

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ

العَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ

عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ

إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَشَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللهُ

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ

وَقُلْ سَلَامٌ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في

السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

التي أورتهمها بما كنتم تعملون.

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أورتهمها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعتين مختارين، وكرهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبته فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعظيم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفراد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تهيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿والله يرجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسوله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقايقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنتى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، والله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلِيم، يمهل العباد ويستأنئ بهم، لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقَابِلُ به أولو الأبواب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطأياً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غب ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان مكية

﴿١٦٠﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدرتي وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،

والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿في شك يلعبون﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر، ﴿فارتقب﴾ أي: انظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يغشى الناس أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هذا عذاب اليم﴾

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعممهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: ﴿أنى لهم الذكري وقد جاءهم رسول مبين﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

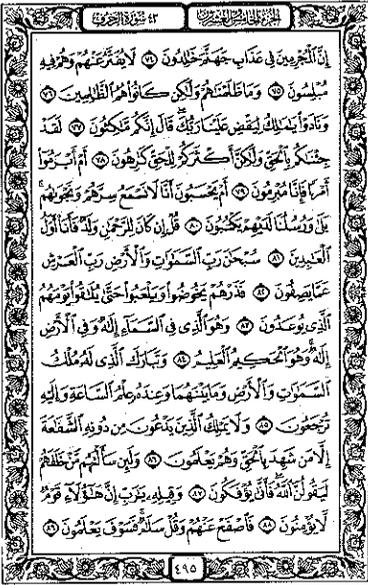
وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: ﴿اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف﴾، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون على هذا قوله: ﴿يوم تأتي السماء بدخان﴾ أن ذلك بالنسبة

الذي يكون في ليلة القدر، أحد^(١) الكتابات التي تكتب وتميز، فتطبق الكتاب الأول، الذي كتب الله به مقادير الخلائق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه، وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتناؤه تعالى بخلقهم ﴿أمرأ من عندنا﴾ أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا، ﴿إننا كنا مرسلين﴾ للرسول، ومنزلين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل، وتخبر بأقداره، ﴿رحمة من ربك﴾ أي: إن إرسال المرسل وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى زسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومن عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يحجي ويميت﴾ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزئكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي: رب الأولين

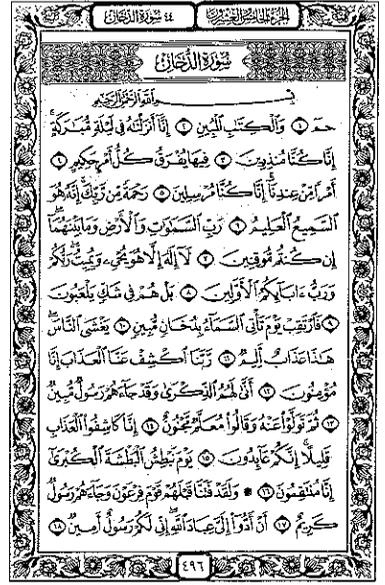


إلى أنصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعاهم، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إننا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يغشى الناس هذا عذاب اليم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إننا مؤمنون﴾ أي لهم الذكري وقد جاءهم رسول مبين ﴿ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾ أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: ﴿إننا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يوم نبطش البطشة الكبرى

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).



إنا منتقمون ﴿١٧﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم .

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك .

بل تجد مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويرجح، والله أعلم .

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة^(١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ، ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم، ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم، الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره، ﴿أن أدوا إلي عباد الله﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فأنهم عشيقي، وأفضل العالمين في زمانهم .

وأنتم قد ظلمتموهم، (١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة .

واستعبدوهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له .

﴿وأن لا تعملوا على الله﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، ﴿إني أتاكم بسلطان مبين﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة القاهرات، فكذبوه وهوما يقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: ﴿وإني عدت بربي وربيكم أن ترجون﴾ أي: تقتلونني أشر القتلات، بالرجم بالحجارة .

﴿ولإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين لنبية موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل، ﴿فدعاه ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي: قد أجرموا جرماً، يوجب تعجيل العقوبة .

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال، التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، ﴿واترك البحر رهوا﴾ أي: بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه .

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهوا، أي: بحاله، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إنهم جند مغرقون﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم

فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قوماً آخرين﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ .

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم، لم تبك عليهم السماء والأرض، أي: لم يحزن عليهم، ولم يؤس على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلقوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والقتل من العالمين .

﴿وما كانوا منظرين﴾ أي: مهلين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال . ثم امتنَّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ الذي كانوا فيه ﴿من فرعون﴾ إذ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم .

﴿إنه كان عالياً﴾ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق، ﴿من المسرفين﴾ المتجاوزين لحدود الله، المتجترئين على محارمه .

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي: اصطفيناهم وانتقناهم ﴿على علم﴾ منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿على العالمين﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ، ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتنَّ عليهم بما لم يمتن به على غيرهم .

﴿واتيناهم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿من الآيات﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة، ﴿وما فيه بلاء مبين﴾ أي:

إحسان كثير، ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم، على صحة ما جاءهم به نبينهم موسى عليه السلام.

﴿٣٤ - ٣٧﴾ **﴿إن هـؤلاء﴾** ليقولون * إن هي إلا موتنا الأولى وما نحن بمنشرين * فأتوا بابائنا إن كنتم صادقين * أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكتناهم إنهم كانوا مجرمين * يخبر تعالى **﴿إن هـؤلاء﴾** المكذبين يقولون مستبعبدين للبعث والنشور: **﴿إن هي إلا موتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾** أي: ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار، ثم قالوا - متجربئين على ربهم، معجزين له -: **﴿فأتوا بابائنا إن كنتم صادقين﴾** وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأبي: ملازمة بين صدق الرسول ﷺ، وأنه متوقف على الإتيان بأبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به، وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه.

قال تعالى: **﴿أهم خير﴾** أي: هؤلاء المخاطبون **﴿أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكتناهم إنهم كانوا مجرمين﴾** فإنهم ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجماع، فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿٣٨ - ٤٢﴾ **﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لآعين﴾** ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * **﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾** يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون * **﴿إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾** يخبر تعالى، عن كمال قدرته، وقام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً أو سدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتتمل على الحق، وأنه أوجدتهما ليعبده وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويشيهم ويعاقبهم، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

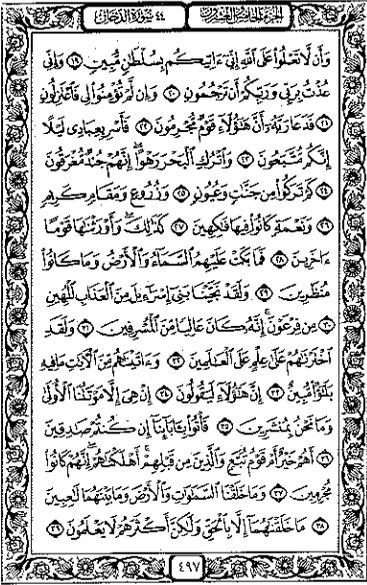
﴿إن يوم الفصل﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين **﴿ميقاتهم﴾** أي: الخلاق **﴿أجمعين﴾**

كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، **﴿ولا هم ينصرون﴾** أي: يمنعون من عذاب الله عز وجل، لأن أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً.

﴿إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى، التي تسبب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالى:

﴿٤٣ - ٥٠﴾ **﴿إن شجرة الزقوم﴾** طعام الأثيم * **﴿كالمهل يغلي في البطن﴾** كغلي الحميم * **﴿خذه فاعطوه إلى سواء الجحيم﴾** ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * **﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾** إن هذا ما كنتم به تمترون * لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم: الأثيمون بعمل الكفر والمعاصي، وأن طعامهم **﴿شجرة الزقوم﴾** شر الأشجار وأظفها، وأن طعامها **﴿كالمهل﴾** أي: كالصديد المنتن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة، يغلي في بطونهم **﴿كغلي الحميم﴾** ويقال للمعذب: **﴿ذق﴾** هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم، **﴿إنك أنت العزيز الكريم﴾** أي: بزعمك أنك عزيز، ستمتتع من عذاب الله، وأنت كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فالיום تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس، **﴿إن هذا﴾** العذاب العظيم **﴿ما كنتم به تمترون﴾** أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿٥١ - ٥٩﴾ **﴿إن المتقين في مقام**



أمين * في جنات وعيون * يليسون من سندس واستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم * فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * **﴿فارتقب إنهم مرتقبون﴾** هذا جزاء المتقين لله الذين اتقوا سخطه وعذابه، وتركهم المعاصي، وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله، والثواب العظيم، في ظلال ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه، وعيون سارحة، تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم.

فأضاف الجنات إلى النعيم، لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه. ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والاستبرق، أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشبهه أنفسهم، **﴿متقابلين﴾** في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة، والطمأنينة، والمحبة والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة.

﴿كذلك﴾ التعميم التام والسرور الكامل **﴿وزوجناهم بحور عين﴾** أي: نساء جميلات، من جالهن وحسنهن أنه

واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفتنون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وأبوابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد غطيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفكك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعالة. وأخبر أن له عذاباً أليماً، وأن من ورائهم جهنم﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه ﴿لا يغني عنهم ما كسبوا﴾ من الأموال ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يستنصرون بهم فخذلهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالملتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿والذين كفروا

﴿لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم فيعملونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

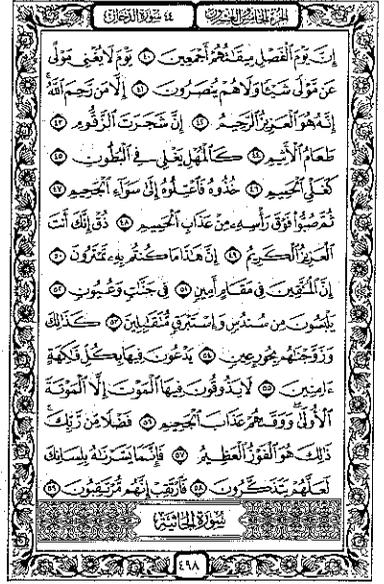
﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما عدك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان،
ولله الحمد والمنة

تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١١-١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما بيث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي: حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفكك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم * يخبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ ﴿من الله﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يجي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



بجار الطرف في حسنه، وينهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن، ﴿عين﴾ أي: ضخام العين حسنها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة ﴿بكل فاكهة﴾ مما له اسم في الدنيا، وما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿أمين﴾ من انقطاع ذلك، وأمين من مضرتهم، وأمين من كل مكدر، وأمين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يدعون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ فضلاً من ربك﴾ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعظاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه، ويسر معناه.

بآيات ربهم ﴿ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾

﴿ ١٢ - ١٣ ﴾ ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ يخبر تعالى بفضلته على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

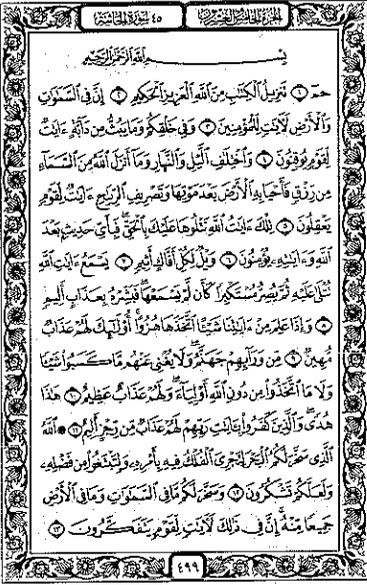
﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والشوابع، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والشمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معدّ لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وجملة ذلك أنّ خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دال على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلق، دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعّال لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه

وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسوله صادقون فيما جاؤوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

﴿ ١٤ - ١٥ ﴾ ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴿ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم (١) ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾

﴿ ١٦ - ١٧ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وورقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الكتاب ﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿ الحكم ﴾ بين الناس، و ﴿ النبوة ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ وورقناهم من الطيبات ﴾ من المأكول والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي: على الخلق هذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

(١) في أ: هذه الجملة غير واضحة وفيها شطب وتصويه من: ب.



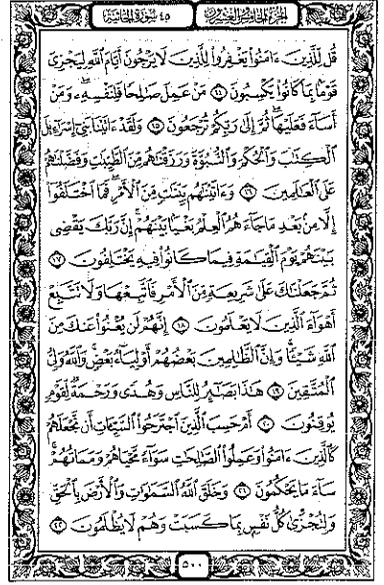
الأمّة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمّة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، ويميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعمت، قد حصلت كلها لهذه الأمّة، وزادت عليهم هذه الأمّة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

﴿ وآتيناهم ﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿ بينات ﴾ أي: دلائل تبين الحق من الباطل ﴿ من الأمر ﴾ القدر الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي: الموجب لعدم



﴿٢٠﴾ ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي: ﴿هذا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر للناس﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لقوم يوقنون﴾ فيهدتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ أي: أم حسب المسيؤون، المكشرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والأجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: خلق الله السموات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتنوا بأبائنا إن كنتم صادقين﴾ قل الله يحييكم ثم لا يرب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتخذ إلهه هواه﴾

فما هويه سلكه، سواء كان يرضى الله أو يسخطه. ﴿وأضلله الله على علم﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها. ﴿وختم على سمعه﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبه﴾ فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أفلا تذكرون﴾ ما يتفكركم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وقالوا﴾ أي: منكروا البعث ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجزئي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، ومات فليس يرجع إلى الله، ولا يجازي بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إن هم إلا يظنون﴾ فأنتكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستيعادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا اتنوا بأبائنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

الاختلاف، وإنما حلهم على الاختلاف البني من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إن ربك بقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنبه عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فاتبعها﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواء وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا﴾ أي: لا يتفنونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿والله ولي المتقين﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

وقفتم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فالיום تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ﴾ منكربين لذلك: ﴿مَا نُنْذِرُ مَا السَّاعَةُ إِلَّا نَظَنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبِقِينَ﴾

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البحث الإنكار له، وردة قول من جاء به. قال تعالى: ﴿وَيُؤَدِّعُ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ عَنِ عَذَابِهِمْ أَيْ: يَمُوتُونَ﴾ أي: ينزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به. ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّسُكُمْ فِي الْعَذَابِ﴾ كما نسيتم لقاء يومكم هذا، فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ سبب ﴿أَنْتُمْ تَخْتَدِمُونَ آيَاتِ اللَّهِ هِزْوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستشارة والفرح.

﴿وَعَرَّضْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتكم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، وعجبه تعالى وإكرامه،

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتمهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ سُبُلَ الْبِرِّ وَيُخْرِجُكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا رب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وإلا فلر وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتبرؤوا له.

﴿٢٧ - ٣٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ﴾

السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ ينصر المبطون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قومًا مجرمين * وإذا

أليم العقاب . ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وَتَرَى الْأُمَّةَ كُلَّهَا لِيَوْمٍ لَّهِ كَتَبَ فِي السَّمَوَاتِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّ الْأَعْمَالِ﴾

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: المفاض والنجاة والربح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، وانذفع عنه كل شر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

قيل إن وعد الله حق والساعة لا رب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * وقيل اليوم ننسلكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون * فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسران على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

والكبرياء فيها عظمته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله، والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد
والنعمة والفضل

تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١٣ - ٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن﴾ وكما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون﴾ خلق السماوات والأرض بالحق ﴿الله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مسأكتهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وعمر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى أجل مسمى.

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندمع عنهم كل شر.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم - مبيئاً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أروني ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل

أنتبوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقل، فقال: ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أو أثارة من علم﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل تجزم وتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونها عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول قال لبقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستدين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادها استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمشقال ذرة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم. ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٧ - ١٠﴾ ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم * قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾

أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي: شيء تنكر رسالتي؟ ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتهم دعوتي، فهو حظكم ونصيبيكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله

وكفرتهم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

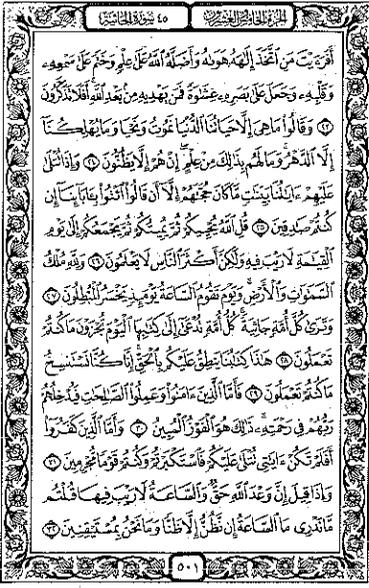
﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وقال الذين كفروا

للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا ويشري للمحسنين﴾ أي: قال الكفار بالحق معاندين له، ورأين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهجة في مكان، فأني دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أذكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم

يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتهم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: وإذا تتلى على المكذبين ﴿آياتنا بينات﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحقها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتقاعاً على الأفلاك، وفاق بضوته ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهجة؟

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري عمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

﴿قل﴾ لهم: ﴿إن افتريته﴾ فإله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ فهل ﴿تملكون بي من الله شيئاً﴾ إن أرادني الله بضراً، أو أرادني برحمة ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، بغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويثيبكم جزيل الأجر.



بمثلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتره، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إماماً ورحمة﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب مصدق﴾

للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله ﴿لساناً عربياً﴾ ليسهل تناوله، وتيسر تذكره، ﴿لينذر الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعباد الويل، ويبشر المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالشواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي يبشر بها.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿إن الذين قالوا

ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أولئك أصحاب الجنة خالدون فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته

غيرها: **﴿وتجاوز عن سيئاتهم﴾** في جملة **﴿أصحاب الجنة﴾** فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناه هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ - ١٩﴾ **﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين * أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾** لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الخالات، فقال: **﴿والذي قال لوالديه﴾** إذ دعواه^(١) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدتهما، أن يدعوه إلى ما فيه سعاده الأبدية، وفلاحه السرمدى، فقابلهما بأبجح مقابلة، فقال: **﴿أف لكما﴾** أي: تتأ لكما ولما جتما به.

ثم ذكر وجه استعباده وإتكاره لذلك فقال: **﴿أتعدانني أن أخرج من قبري إلى يوم القيامة﴾** وقد خلت القرون من قبلي **﴿على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجوهل ومعاند؟﴾** وهما **﴿أي: والداه﴾** يستغيثان الله **﴿عليه، ويقولان له: ويلك آمن﴾** أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدتهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: **﴿إن وعد الله حق﴾** ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد

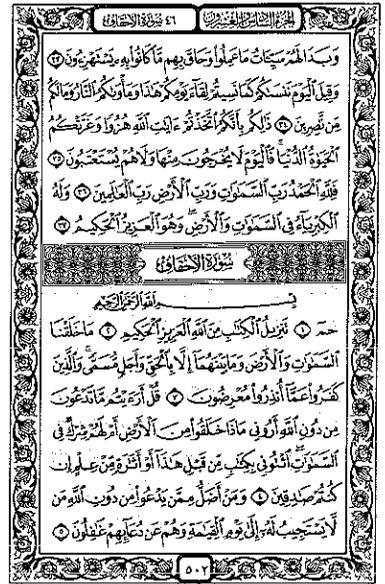
وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها **﴿ثلاثون شهراً﴾**: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾** أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت منها الستان، بقي ستة أشهر، مدة للحمل، **﴿حتى إذا بلغ أشده﴾** أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، **﴿ويبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾** أي: ألهمني ووفقني **﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته مئة، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الشناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وأثارها، خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشب عليه. **﴿وأصلح لي في ذريتي﴾** لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: **﴿وأصلح لي﴾**.

﴿إني تبت إليك﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك **﴿وإني من المسلمين﴾**.

﴿أولئك﴾ الذين ذكرت أو صافهم **﴿الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾** وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و **﴿استقاموا﴾** مدة حياتهم **﴿فلا خوف عليهم﴾** من كل شر أمامهم، **﴿ولا هم يحزنون﴾** على ما خلفوا وراءهم، **﴿وأولئك أصحاب الجنة﴾** أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، **﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾** من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ - ١٦﴾ **﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾** هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها

(١) في النسخين: دعواه.

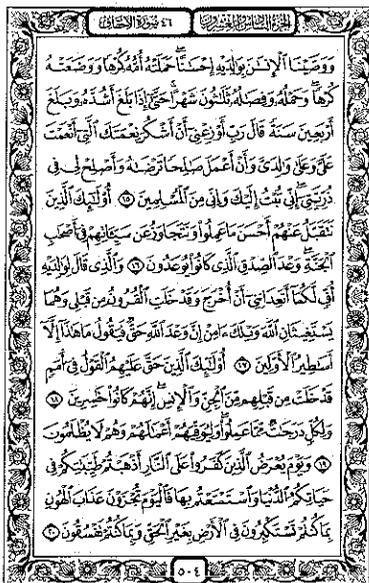
إلا اعتوا ونفورا، واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، **﴿فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾** أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟ **﴿أولئك الذين﴾** هذه الحالة الذميمة **﴿حق عليهم القول﴾** أي: حقت عليهم كلمة العذاب **﴿في﴾** جملة **﴿أمم﴾** قد خلت من قبلهم من الجن والإنس على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيفرقون في تيارهم. **﴿إنهم كانوا خاسرين﴾** والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم **﴿ولكل﴾** من أهل الخير وأهل الشر **﴿درجات مما عملوا﴾** أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في النار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: **﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾** بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. **﴿٢٠﴾** **﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾** يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: **﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾** حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغتررتם بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لأخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من أخرتكم، **﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾** أي:

العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، **﴿وبما كنتم تفسقون﴾** أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بسببته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة. **﴿٢١ - ٢٦﴾** **﴿وإذا ذكر آخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾** إلى آخر القصة ^(١) أي: **﴿وإذا ذكر﴾** بالثناء الجميل **﴿آخا عاد﴾** وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه. **﴿إذ أنذر قومه﴾** وهم عاد **﴿بالأحقاف﴾** أي: في منازلهم المعزوفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن. **﴿وقد خلت النار من بين يديه ومن خلفه﴾** فلم يكن يدعأ منهم ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: **﴿ألا تعبدوا إلا الله إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد، فلم تفرق فيهم تلك الدعوة. **﴿قالوا أجهننا لتأفكنا عن آلهتنا﴾** أي: ليس لك من القصد، ولا منعك من الحق، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تضرفنا عنها. **﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾** وهذا غاية الجهل والعناد. **﴿قال إنما العلم عند الله﴾** فهو الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء. **﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾** أي: ليس على إلا البلاغ المبين، **﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾** فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم

وإذا خسر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين
 وإذا نزل عليهم إننا نبتلي قال الذين كفروا بالأساطير
 هذا ما هم يخبرون أم يقولون بآياتنا كذباً
 ليس الله شريكاً لهم في العبادات
 وتفسقون
 فمن أين يتعلمه؟
 وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟
 أولئك الذين
 حقت عليهم القول
 في جملة أمم
 قد خلت من قبلهم من الجن والإنس
 على الكفر والتكذيب
 فسيدخل هؤلاء في غمارهم
 وسيفرقون في تيارهم
 إنهم كانوا خاسرين
 والخسران فوات رأس مال الإنسان
 وإذا فقد رأس ماله
 فالأرباح من باب أولى وأحرى
 فهم قد فاتهم الإيمان
 ولم يحصلوا على شيء من النعيم
 ولا سلموا من عذاب الجحيم
 ولكل من أهل الخير وأهل الشر
 درجات مما عملوا
 أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر
 ومنازلهم في النار الآخرة على قدر أعمالهم
 ولهذا قال: وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون
 بأن لا يزداد في سيئاتهم
 ولا ينقص من حسناتهم
 ٢٠ ويوم يعرض الذين كفروا على النار
 أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا
 واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون
 بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق
 وبما كنتم تفسقون
 يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار
 حين يوبخون ويقرعون
 فيقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا
 حيث اطمأنتم إلى الدنيا
 واغتررتم بلذاتها
 ورضيتم بشهواتها
 وألهتكم طيباتها عن السعي لأخرتكم
 وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة
 فهي حظكم من أخرتكم
 فاليوم تجزون عذاب الهون
 أي:

العذاب العظيم، وهي الريح التي دمريتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: **﴿فلما رآوه﴾** أي: العذاب **﴿عارضاً مستقيل أوديتهم﴾** أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل، فتسقي نوابتهم، ويشربون من آبارها وغدرانها. **﴿قالوا﴾** مستبشرين: **﴿هذا عارض ممطرنا﴾** أي: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: **﴿بل هو ما استعملتم به﴾** أي: هذا الذي جنيتم به على أنفسكم، حيث قلتم: **﴿فأنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**. **﴿ريح فيها عذاب أليم﴾** **﴿تدمر كل شيء﴾** تمر عليه من شدتها ونحسها. فسلبها الله عليهم **﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾** فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية **﴿إلى بأمر ربها﴾** أي: بإذنه ومشيئته. **﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾** قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. **﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾** بسبب جرمهم وظلمهم، هذا مع أن الله تعالى قد أدرَّ عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: **﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾** أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿وإحقاق بهم ما كانوا به يستهترون﴾.



أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إلى الحق﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبنوا محله ومرتبته، دعوههم إلى الإيمان به،

فقالوا: ﴿يا قومنا أجيئوا داعي الله﴾ أي: النبي لا يدعوا إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربهكم، ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكره، ولهذا قالوا: ﴿يقفر لكم من

ذنوبكم ويحرمكم من عذاب الأليم﴾ وإذا أجازهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. ﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر!!

﴿٣٣﴾ ﴿أولم يروا أن الله السذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظيمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يعي بخلقهن فكيف تعجزه إعادتك بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير!!

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فاصبر كما صبر أولو العزم

العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات، أي: نوعها من كل وجه، ﴿لعلمهم يرجعون﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم ألتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لالهة﴾ أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بل ضلوا عنهم﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، ﴿وذلك إنكم هم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب، الذي يمتنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنتفعهم، فضلت وبطلت.

﴿٢٩-٣٢﴾ ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيئوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب الأليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بذلك، ﴿فلما قضي﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ لأن كتاب موسى

وعمرناهم عمراً، يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي: لا تصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم ﴿يجهلون بآيات الله﴾ الدالة على توحده وإفراده بالعبادة.

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزؤون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلمهم يرجعون﴾ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لالهة بل ضلوا عنهم وذلك إنكم هم ما كانوا يفترون﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم الكاذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴿١﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿اليس هذا بالحق﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لأفأروهم، والاهتداء بمسارهم. فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمهت على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً. وقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحقهم، فلا يَسْتَحْفَتُكَ بجهلهم، ولا يملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا﴾ في الدنيا ﴿إلا ساعة من نهار﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صابرون إلى العذاب الويل.

إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿فهل يهلك﴾ بالعقوبات ﴿إلا القوم الفاسقون﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل. وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا بِحَبْلِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثْنَا فِي نَفْسِكَ رَسُولًا مِّنْ رَبِّكَ لِتُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَبْلِ الَّذِي بَعَثْنَا فِي نَفْسَيْكَ وَرَبِّكَ وَالَّذِينَ أُكْفِرُوا يَكْفُرُوا بِالْحَبْلِ الَّذِي بَعَثْنَا فِي نَفْسَيْكَ وَرَبِّكَ وَإِنَّكَ بِعَيْنِنَا لَمِنَ الْمُتَكَفِّرِينَ﴾

الذين كفروا وصدقوا بحبل الله الذي بعثنا في نفسك رسولاً من ربك لتؤمنوا بهذا الحبل الذي بعثنا في نفسك وربك والذين أكفروا يكفرون بالحبل الذي بعثنا في نفسك وربك وإنك بعيننا لمن المتكفرون

فهؤلاء ﴿أضل﴾ الله ﴿أعمالهم﴾ أي: أبطلها وأشقامها بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يشابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان،

﴿وَأَذِّنْ لِّقَوْمِكَ إِذْ يُذَكِّرُونَ الْأَحْقَابَ وَتَذَكَّرَ أَذًى مِّنْ رَبِّكَ يُذَكِّرُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ الْمُكْفِرِينَ﴾

﴿عَلَّمَ يَوْمَ تُبْرَأُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُكْفِرُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ يَلْعَنُ الْمُكْفِرِينَ﴾

﴿قَالَ الْيَهُودُ أَفَكَيْفَ تَعَزَّوْنَا بِدِينِنَا مَا يَكْفُرُونَ﴾

﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّكُمْ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَيْدَ الْفَاسِقِينَ إِذْ يَقُولُ مَا كُنَّا وَعَدَّوْنَا أَن لَّنُؤْتِيَنَّهُم مَّغْرِبًا وَلَا نَكْتُمُ إِلَيْهِمْ سَبِيلًا وَلَا نُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنْ غَيْرِ سَبِيلًا﴾

﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّكُمْ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَيْدَ الْفَاسِقِينَ إِذْ يَقُولُ مَا كُنَّا وَعَدَّوْنَا أَن لَّنُؤْتِيَنَّهُم مَّغْرِبًا وَلَا نَكْتُمُ إِلَيْهِمْ سَبِيلًا وَلَا نُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنْ غَيْرِ سَبِيلًا﴾

﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّكُمْ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَيْدَ الْفَاسِقِينَ إِذْ يَقُولُ مَا كُنَّا وَعَدَّوْنَا أَن لَّنُؤْتِيَنَّهُم مَّغْرِبًا وَلَا نَكْتُمُ إِلَيْهِمْ سَبِيلًا وَلَا نُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنْ غَيْرِ سَبِيلًا﴾

والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

وأما ﴿والذين آمنوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

﴿كفّر﴾ الله ﴿عنهم سيئاتهم﴾ صغارها وكبارها، وإذا كفّرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة. ﴿وأصلح بهم﴾ أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتحميته وتزكيتهم، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿اتبعوا الحق﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿من ربهم﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق المنسوبة إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾.

تعالى للمؤمنين، أن يتصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة، ويسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وأضل أعمالهم﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾

﴿١٠-١١﴾ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ أي: أفلا يسيروا هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون بمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فحمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾

كان قتال وحرب . فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداوله الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبئد المسلمون خضراءهم.

﴿ولكن ليلو بعضكم بعض﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

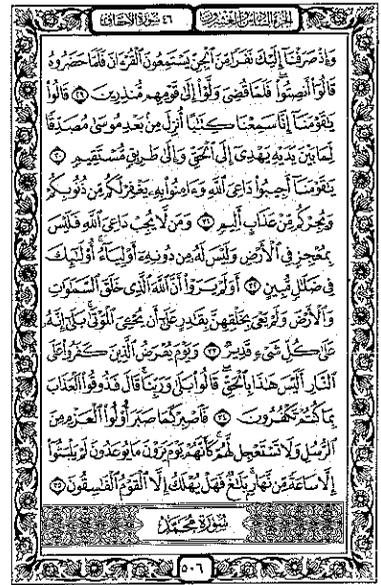
﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحيطها وبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة.

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿ويصلح بهم﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جهلتها القتل في سبيله، ووقفهم للقيام بما أمرهم به ورغبتهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿٧-٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم﴾ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ هذا أمر منه



﴿٤-٦﴾ ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا

فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما متا بعداً وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ سيهديهم ويصلح بالهم﴾ ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم - : ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واخربوا منهم الأعناق، حتى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولى وأصلح، ﴿فشدوا الوثاق﴾ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتمم بالخيار بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسألة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا



ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١)، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدنيوية والدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة، والتأله له وحده لا شريك له. الرابع: ما تراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا دافع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على

أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿والذين اهتدوا﴾ بالإيمان والانتقاد، واتباع ما يرضي الله ﴿زادهم هدى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك، ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿نهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكروا، وجاءهم النذير.

(١) في ب: وجلاله.

ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولا، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا الله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأقفية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، ويديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبهة والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملة ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والخسرات الماحية، وترك الذنوب والعمى عن الجرائم.

﴿و﴾ استغفر أيضاً للمؤمنين والمؤمنات فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة. ومن جملة حقوقهم أن يدعوا لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصيح لهم، وأن يجب لهم من الخير ما



والأرض، وقطعوا أرحامهم
لعنهم الله بأن أبعدهم عن رحمة،
وقربوا من سخط الله.

فأصمهم وأعمى أبصارهم أي:
جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا
يبصرونه، فلم أذان، ولكن لا تسمع
سماعا إذعان وقبول، وإنما تسمع
سماعا تقوم به حجة الله عليها، ولهم
أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر
والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين
والبيانات.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ
عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ﴾ أي: فهلا يتدبر
هؤلاء المعرضون لكتاب الله،
ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو
تدبروه، لدلّهم على كل خير،
وحذّرهم من كل شر، ولما قلوبهم من
الإيمان، وأفشدهم من الايقان،
ولأوصلهم إلى المطالب العالية،
الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها
ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى
العذاب، وبأي: شيء تحذّر، ولعرفهم
بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه،
ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم
من العقاب الويل.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ﴾ أي: قد
أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

وقول معروف ﴿أي: فأولى لهم أن
يمثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم،
ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن
يشرع لهم ما هو شاق عليهم،
وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم
الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال
لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل
الجد في أمثاله ﴿لكان خيرا لهم﴾ من
حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه،
لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب
زيادة على ما هو قائم بصدده.
ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه

بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة
وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال،
فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره،
والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه
لا يجيء حتى تفتقر الهمة عن نشاطها
فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال
المستقبل، مع كسله عن عمل الوقت
الحاضر، شبيه بالمتأني الذي يجزم
بقدرته، على ما يستقبل من أمره،
فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما همّ به
ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن
يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على
وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب
قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله
بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة،
مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري
بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة
ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى
شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن
تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي:
فهما أمران، إما التزام
لطاعة الله، وامتنال لأوامره، فثم الخير
والرشد والفلاح، وإما إعراض عن
ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا
الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي
وقطية الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أنفسدوا في

يجب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما
يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير
لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم،
ويعفو عن مساوئهم ومعاصيهم،
ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف
به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد
المفضية للمعادة والشقاق، الذي به
تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي:
تصرفاتكم وحركاتكم، وذمابكم
ومجيئكم، ﴿ومشاوكم﴾ الذي به
تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات
والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم
الجزاء وأوفاه.

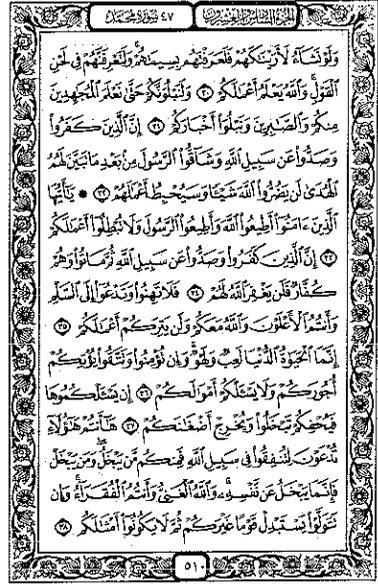
﴿٢٠ - ٢٣﴾ ﴿ويقول الذين آمنوا
لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة
محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في
قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي
عليه من الموت فأولى لهم * طاعة
وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو
صدقوا الله لكان خيرا لهم * فهل
عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض
وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين
لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾
يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾
استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقّة:
﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر
بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي:
ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾
الذي هو أشق شيء على النفوس، لم
يشبّ ضعفاء الإيمان على امتثال هذه
الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في
قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي
عليه من الموت﴾ من كراهتهم لذلك،
وشدته عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين
قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة
واتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا
فريق منهم يخشون الناس كخشية الله
أو أشد خشية﴾.

ثم نديهم تعالى إلى ما هو الأليق
بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم * طاعة

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطها الشيخ - رحمه الله - وعذها إلى: وطن نفسه.



فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع .

﴿٢٥ - ٢٨﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا**

على أديارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأمل لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: **﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾**

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و **﴿قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾** من المبارزين العداوة لله ولرسوله **﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾** أي: الذي يوافق أنواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي .

﴿والله يعلم إسرارهم﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها .

﴿فكيف﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورويتهم الفظيعة **﴿إذا توفتهم**

الملائكة﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، **﴿يضربون وجوههم وأديارهم﴾** بالمقامع الشديدة!

﴿ذلك﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه **﴿ب﴾** سبب **﴿أنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾** من كل كفر فسوق وعصيان .

﴿وكرهوا رضوانه﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقرهم إليه، ولا يدينهم منه، **﴿فأحبط أعمالهم﴾** أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضى الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه .

﴿٢٩ - ٣١﴾ **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي**

قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو شاء لأرناكمهم فلعرقتهم بسيماهم * ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * ولنبئوكم حتى تعلم الجاهدين منكم والصابرين ونبئوا أخباركم﴾ يقول تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قلوبهم مرض﴾** من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمنحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: **﴿ولو نشاء لأرناكمهم فلعرقتهم بسيماهم﴾** أي: بعلاماتهم التي هي كالرسم في وجوههم .

﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، وتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر **﴿والله يعلم أعمالكم﴾** فيجازيكم عليها .

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،

فقال: **﴿ولنبئوكم﴾** أي: نختبر إيمانكم وصبركم، **﴿حتى تعلم الجاهدين منكم والصابرين ونبئوا أخباركم﴾** فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه .

﴿٣٢﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا** عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه .

﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي: عاتدوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغبي وضلال، فإنهم **﴿لن يضروا الله شيئاً﴾** فلا يتقص به ملكه .

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي: مساعيتهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها .

﴿٣٣﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على التوجه المأمور به بالإخلاص وتتمام المتابعة:

وقوله: **﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾** يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من من بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها .

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخله في هذا، ومنهي عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع

قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ هذا تزيهد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب

ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمأكّل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لآعباً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى

تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقب الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يتم به ما ذكره بقوله: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي

من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمريضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي يتفق العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل

الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً،

ليشبههم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي: لا يريد

تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم، ويقائكم

بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: ﴿إن يسألكموا فيحكمم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي: ما في

قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم

تتمتعون منها، أنكم ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ على هذا الوجه، الذي فيه فصلتكم الدينية والدنيوية.

﴿فمنكم من يبخل﴾ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير

أمر تروونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

الحال أنكم ﴿أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم﴾ أي: ينقصكم أعمالكم ﴿.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهن الأعلين، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وهدداً، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى:

﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا يتألون من عدو نبلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ولا يتفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴿.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ إن

يسألكموا فيحكمم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ ها أنتم هؤلاء تدعون

لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله

الغني وأنتم الفقراء وإن تولوا يبدل

النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿إن الذين كفروا

وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفاراً فلن يغفر الله لهم﴾ فلا تمنوا

وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ هذه الآية

والتي في البقرة قوله: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾

مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه،

فقال هنا: ﴿إن الذين كفروا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

﴿وصدوا﴾ الخلق ﴿عن سبيل الله﴾ بتزهدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى

الباطل، وتزيينه، ﴿ثم ماتوا وهم كفاراً﴾ لم يتوبوا منه، ﴿فلن يغفر الله

لهم﴾ لا بشفاعة ولا غيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب،

ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم

ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفين أعمالهم في الكفر به والصد عن

سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة،

ولم يغلّقها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الخليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيتهم،

ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تمنوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا وأثبتوا،

ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام،

وإغضاباً للشيطان. ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة، ﴿و﴾

ثم قال: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً. فإن الله هو ﴿الغني وأتم الفقراء﴾ يحتاجون إليه في جميع أوقاتهم، لجميع أموركم.

﴿وإن تولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتنال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

تم تفسير سورة القتال،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر * ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي: محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحرير على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعف فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال: ﴿٤ - ٦﴾ ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليهم حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

يغير تعالى عن ميثه على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبتته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابية رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدييره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليهم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين. وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريمهم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، ووطنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضب الله عليهم﴾ بما أترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿ولعنهم﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمة ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ كرر

الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيها من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ **﴿وكان الله عزيزاً﴾** أي: قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء، ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتديبه، يجزي على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

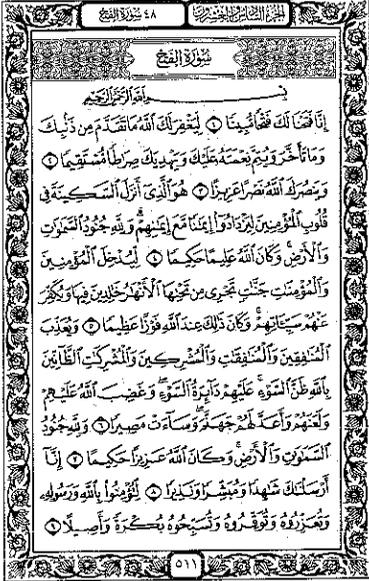
﴿٨٩﴾ **﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾** * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي: **﴿إنا أرسلناك﴾** أيها الرسول الكريم **﴿شاهداً﴾** لأمك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية والافتراق بالكمال من كل وجه، **﴿ومبشراً﴾** من أطاعك وأطاع الله بالشواب الدنيوي والديني والآخروي، ومنتذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والتنذرة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشّر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل، ولهذا رتب على ذلك قوله: **﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾** أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في جميع الأمور.

﴿وتعزروه وتوقروه﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة بربابكم، **﴿وتسبحوه﴾** أي: تسبحوا لله **﴿بكرة وأصيلاً﴾** أول النهار وآخرة، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزيز والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقدّس بصلاته أو غيرها.

﴿١٠﴾ **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى**

بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ هذه المبايعات التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين يبايعون حقيقة الأمر أنهم **﴿يبايعون الله﴾** ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: **﴿يد الله فوق أيديهم﴾** أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعات، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحلهم على الوفاء بها، ولهذا قال: **﴿فمن نكث﴾** فلم يف بما عاهد الله عليه **﴿فإنما ينكث على نفسه﴾** أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصله له، **﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾** أي: أتى به كاملاً موفراً، **﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾** لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿١١-١٣﴾ **﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾** بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * **﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾** يذم تعالى المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهلهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: **﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾** فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم



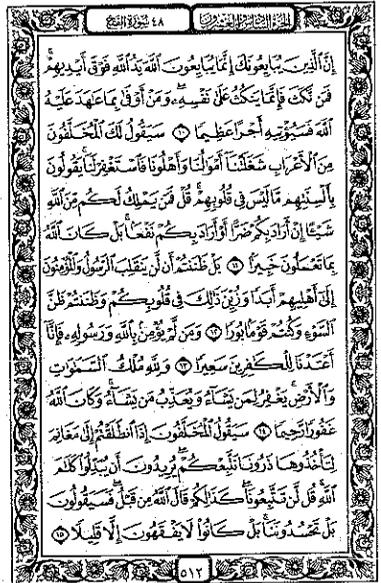
بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأتوا بها، ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

فظنوا **﴿أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً﴾** أي: إنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكمت، وسبب ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا **﴿قوماً بوراً﴾** أي: هلكي، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: **﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾** أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، **﴿فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾**.

﴿١٤﴾ **﴿والله مملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾** أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: **﴿يغفر لمن يشاء﴾** وهو من قام



بما أمره الله به **﴿ويعذب من يشاء﴾** عن تبارك بأمر الله، **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آتاء الليل والنهار.

﴿١٥﴾ **﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تبعوننا بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾** لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: **﴿ذرونا تبعكم يريدون﴾** بذلك **﴿أن يبدلوا كلام الله﴾** حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً وقدراً. **﴿قل﴾** لهم **﴿لن تبعوننا كذلك قال الله من قبل﴾** إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة.

﴿فسيقولون﴾ مجيبين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: **﴿بل تحسدوننا﴾** على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضوع، ولو فهموا

رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودنيوية، ولهذا قال: **﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾**.

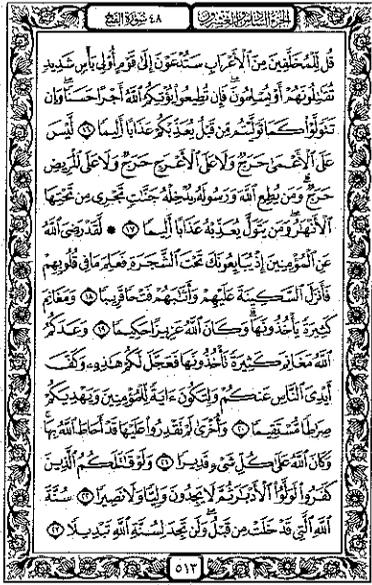
﴿١٦- ١٧﴾ **﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تنولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾** ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذب عذاباً أليماً

لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنمة، قال تعالى **﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾** أي: سيدعوكم الرسول ومن تاب منكم من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحانحهم وأشبههم. **﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾** أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبدلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أئحتهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبدلوا الجزية، **﴿فإن تطيعوا﴾** الداعي لكم إلى قتال هؤلاء **﴿يؤتكم الله أجراً حسناً﴾** وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، **﴿وإن تنولوا كما توليتم من قبل﴾** عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، **﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾** ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه يجب طاعتهم في ذلك.

ثم ذكر الأعداء التي يعذب بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: **﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾** أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في امتثال أمرهما، واجاب نيهما **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، **﴿ومن يتول﴾** عن طاعة الله ورسوله **﴿يعذب عذاباً أليماً﴾** فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته وخالفته.

﴿١٨- ٢١﴾ **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾** ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغنماً كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخري لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً * يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعات التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت، معظماً له، فبحث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان مكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف وخمس مئة، فبايعوه تحت شجرة حتى قتال المشركين، وأن لا يفرؤا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، **﴿فأنزل ما في قلوبهم﴾** من الإيمان، **﴿فأنزل**



بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لولوا الأديار، ثم لا يجدون ولياً﴾ يتولى أمرهم، ﴿ولا نصيراً﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً * هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوماً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصيبكم منهم مرة بغير علم ليدخل الله في رحمة من يشاء لو تزولوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول تعالى ممثلاً على عبادته بالعاقبة، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وهو الذي كف أيديهم﴾ أي: أهل مكة ﴿عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهيين فأمسكواهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضاً صدوا ﴿الهدى معكوماً﴾ أي: مجبوساً ﴿أن يبلغ محله﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثم مانع وهو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين،

السكينة عليهم﴾ شكر الله لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وأنا بهم فتحاً قريباً﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاء لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ وهذا يشمل كل غنيمة عثمتها المسلمين إلى يوم القيامة، ﴿فمجدل لكم هذه﴾ أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوا وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم ستبعتها، ﴿وإرحموا الله إذ كف أيدي الناس﴾ القادريين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عنكم﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم. ﴿ولتكون﴾ هذه الغنيمة آية للمؤمنين﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعدده الحق، وشوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿ويهديكم﴾ بما يقض لكم من الأسباب ﴿صراطاً مستقيماً﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وأخرى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لم تقدروا عليها﴾ وقت هذا الخطاب، ﴿قد أحاط الله بها﴾ أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره ومملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به، لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ هذه

وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون أن تطوؤهم أي: خشية أن تطوؤهم ﴿فتصيبكم منهم مرة بغير علم﴾ والمرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكرهه، وفائدة أخروية، وهو: أنه ليدخل في رحمة من يشاء فممن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لو تزولوا﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليم﴾ يقول تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ المؤمنين إليهم في تلك السنة، لثلاث يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش»، وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تنزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت



من كثير من المعاصي، ﴿فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمت الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللاتمين.

﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وكانوا أحق بها﴾ من غيرهم ﴿و﴾ كانوا «أهلها» الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾

﴿٢٧- ٢٨﴾ ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ يقول تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويظوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول مكة، كثر في ذلك الكلام

منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم نخبرنا أننا ستأتي البيت ونطوف به؟ فقال: ﴿أخبرتم أنه العام؟﴾ قالوا: لا، قال: ﴿فإنكم ستأتونه وتظوفون به﴾، قال الله هنا: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالخلق والتقصير، وعدم الخوف، ﴿فعلم﴾ من المصلحة والمنافع ﴿ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك﴾

الدخول بتلك الصفة ﴿فتحاً قريباً﴾ ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومتفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿ودين الحق﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُرَكَّبٌ للقلوب، مطهر للنفوس، مُرَبٌّ للأخلاق، مُغَلٌّ للأقدار.

﴿ليظهره﴾ بما بعثه الله به ﴿على الدين كله﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿٢٩﴾ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾ يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين

والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأهم ﴿أشداء على الكفار﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، متراحون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يبتغون﴾ بتلك العبادة ﴿فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه.

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت [بالجلال] ظواهرهم.

﴿ذلك﴾ المذكور ﴿مثلهم في التوراة﴾ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كزرع أخرج شطأه فآزره﴾ أي: أخرج فراخه، فآزرته فراخه في الشباب والأستواء.

﴿فاستغلظ﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ ﴿فاستوى﴾ على سوقه ﴿جمع ساق﴾ يعجب الزراع ﴿من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق وازره وعاونته على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه،

ولم نجىء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغيرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء»، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس القيل، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهموها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أننا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمَّاراً، وادعهم إلى الإسلام». وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمناً، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق

عشرة مئة، قال: يرحمه الله وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وضح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلظ غلظاً بيتاً من قال: كانوا سبع مئة، وعذره^(١) أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

فصل

فلما كانوا بذى الخليفة، قلد رسول الله ﷺ الهذلي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عينا له بين يديه من خزاعة، يجبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عسفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأخابيش، وجمعوا لك جمعاً، وهم مقاتلون وصادقون عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانواهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عتفاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين،

كالزروع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: «ليغظ بهم الكفار» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصامدون هم وهم في معارك التزال، ومعامع القتال... «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً» فالصحابه رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة. ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكليم على معانيها وأسرارها، قال - رحمه الله تعالى -:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع

كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى الحية والنبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخرج يدك عن الحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فليست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه. وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضع، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يُجدون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يُجدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: آته.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إننا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا أمادهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جروا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعت يقول قولاً، فإن شئتم عرضه عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشداً، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: آته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندهه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما

عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أذعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمّاراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى تطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتعن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بشما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعنتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه

حفص، وقال: دعوني آتة، فقالوا: آتة، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينا هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو تعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «عل أن تحلوا بيننا وبين البيت فتطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا زدته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

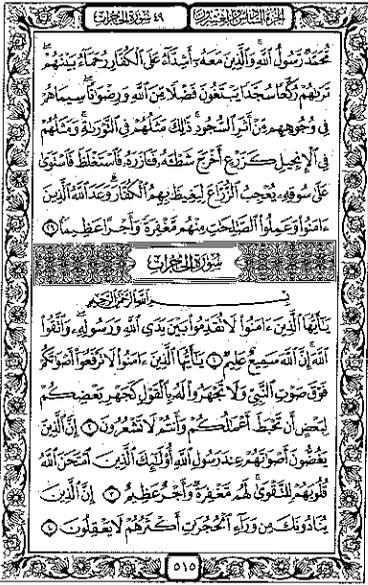
فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترد، فقال النبي ﷺ: «إنما نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال

النبي ﷺ: «أجزة لي»، فقال: ما أنا بسجيزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أورد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثبت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أأست نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» فقلت: علام نعطي الذية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت محمدتاً أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى»، فأخبرت أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأثبت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما ورد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعل الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر يديه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فتحروا، وجعل بعضهم يعلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً عمداً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ «بعصم الكوافر» فطلق عمر



يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: حينئذ لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة.

لوصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات [١].

المجلد الثامن من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(٤)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤-٥﴾ «إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم» نزلت هذه الآيات الكريمة في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجرد أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلثات.

وفلاحه، وفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كماثلاً ما كان^(١).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات^(٢).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامثال^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يجبط عمل



تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

﴿١-٣﴾ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله، من امثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أسورهم، [وأن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد

- (١) في ب: من كان.
- (٢) في ب: والجائزات.
- (٣) في ب: عن ضده.
- (٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن **«بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»** أي: ترجع إلى ما جده الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، [وقوله] **«فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل»** هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والخيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقربة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، **«إن الله يحب المقسطين»** أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

«إنما المؤمنون إخوة» هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي: شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ **«أمراً بحقوق الأخوة الإيمانية: (لا تحاسدوا، ولا تناجسوا، ولا تباعضوا، ولا يبيع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،**

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب^(١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له^(٢).

«أولئك» أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان **«هم الراشدون»** أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والضرط المستقيم. وضدهم الغاؤون، الذين حجب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما **«زاعوا أزاع الله قلوبهم»** ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: **«فضلاً من الله ونعمة»** أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

«والله عليم حكيم» أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

«٩-١٠» **«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين»** إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون **«هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل^(٣) بعضهم بعضاً، وأنه**

«٦٦» **«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»** وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يشبوا في خبره، ولا يأخذوه بمجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

«٧-٨» **«وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون»** فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم **«أي: ليكون لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لثقت عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته،**

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.

لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره^(١) وقال ﷺ^(٢): «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفريق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فيصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شئناهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وتقوى الله، الرحمة [فقال: «لعلكم ترحون»]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن ﴿لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الآخر المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو^(٣) الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوىء الأخلاق، مُتَحَلِّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمْزَةٍ﴾ الآية، وسمى الآخر المؤمن^(٤) نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالحسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه^(٥)، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي: بشما تبدلتن عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستخلاله والاستغفار، والمدح له مقابلته [على] ذمته.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا تَمَّ قسم ثالث غيرهما.

﴿١٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَEْعُضُكُم بَEْعًا أَيُّبِ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُل لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ نهي تعالى عن كثير من الظن السوء^(٦) بالمؤمنين، ف﴿إن بعض الظن إثم﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا^(٧) المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله^(٨)، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تاحشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيها عن النبي ﷺ.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: السيء.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾
والغيبية كما قال النبي ﷺ «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: ﴿يجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك [فلكرهموا] غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بثب منهما رجلاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق.

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤ - ١٨﴾ ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم﴾ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم﴾ يمتنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإنما أمتتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ بفعل خير، أو ترك شر ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي: لا ينقصكم منها مثقال

ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأتاب، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشروط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ والله بكل شيء عليم﴾ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

تفسير سورة ق وهي مكية

وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأى: ضرر يلحق من تعجب من هذه حالة؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاوسا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاوسا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم وماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى.

﴿٥٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ سَرِيعٍ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ سَرِيعٍ﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يشتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة^(١) ولا قرار، [فترى أموره متناقضة متفككة] كما أن من اتبع الحق

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ * يَقْسِمُ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَيْ: وَسِعَ الْمَعَانِي عَظِيمَهَا، كَثِيرَ الْوُجُوهِ كَثِيرَ الْبِرَكَاتِ، جَزِيلَ الْبِرَاتِ. وَالْمَجْدُ: سَعَةُ الْأَوْصَافِ وَعَظَمَتُهَا، وَأَحَقُّ كَلَامٌ يَوْصَفُ بِهَذَا، هَذَا الْقُرْآنُ، الَّذِي قَدْ اِحْتَوَى عَلَى عُلُومِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الَّذِي حَوَى مِنَ الْفَصَاحَةِ أَكْمَلَهَا، وَمِنَ الْأَلْفَاظِ أَجْزَلَهَا، وَمِنَ الْمَعَانِي أَعْمَهَا وَأَحْسَنَهَا، وَهَذَا مُوجِبٌ لِكَمَالِ اتِّبَاعِهِ [وَأَسْرَعَةُ] الْإِنْقِيَادِ لَهُ، وَشُكْرِ اللَّهِ عَلَى الْمُنَّةِ بِهِ.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، وبأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقته. فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم^(٥) ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في [استغرابهم] وتعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم،

يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنته على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به^(١)، فإن المنته لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن^(٢) عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم^(٣) من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا اسْلَمْتُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيها، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البخار، ومهامم القفار، وما جئه الليل أو واره النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحببات الرمال، ومكونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويميزكم عليها بما تقتضيه رحمة الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات، يعون الله ومنه وجوده وكرمه، فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأعمه^(٤)

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو المان.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: بعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم.

(٦) في ب: وجه.

وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿٦٥ - ١١﴾ ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته^(١) الألفية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كيف بنيناها﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخفس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا تترى فيها عيباً، ولا فروجاً، ولا خللاً، ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿١١﴾ إلى ﴿الأرض كيف مددناها﴾ ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار^(٢)، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجيال، لتستقر من التزلزل والتموج، ﴿وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين رامقها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على

الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأنرج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال، التي يطول^(٣) نفعها وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأداماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم وكذلك ما يخرج الله بالطرز، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بُرّ وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تبصرة﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وذكرى﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿لكل عبد منيب﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلق^(٤)، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلق وديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً

أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

ولما ذكروهم بهذه الآيات السماوية والأرضية، خوّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فصيّبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد * أفبعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، ك «نوح» كذبه قومه [وثمود كذبوا صالحاً]^(٥)، وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب الأيكة كذبوا «شعيباً»، وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام^(٦) فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي: تبع من التبابعة، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تحفى ماجرياتهم على العرب خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل، الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا

(١) كذا في ب، وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلق.

(٥) زيادة من هامش ب.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع.

رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدلت تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول^(١) - على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما^(٢) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرسم، فقال: ﴿أفعميتنا﴾ أي: أفعمزنا وضعت قدرتنا ﴿بالخلق الأول﴾؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعني عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل لللبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ إذ يتلقى التلقين عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد * يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق^(٣) جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره^(٤)، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق^(٥) المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه^(٦) في جميع

أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نراه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إذ يتلقى التلقين﴾ أي: يتلقى عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عن اليمين﴾ يكتب الحسنات، ﴿و﴾ الآخر ﴿عن الشمال﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قعيد﴾ بذلك متبهيء لعمله الذي أعد له، ملازم له^(٧) ﴿ما يلفظ من قول﴾ خير أو شر ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد * ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي: ﴿وجاءت﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سكرة الموت بالحق﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي: تتأخر وتنكص^(٨) عنه، ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ﴿وجاءت كل نفس معها سائق﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا

يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وشهيد﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾ الذي غطى قلبك، فكشرك، واستمر^(٩) إعراضك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ينظر ما يزرعه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة^(١٠) عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويحول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد * ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * متاع للخبير معتد مريب * الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾ يقول تعالى: ﴿وقال قرينه﴾ أي: قرين هذا المكذب

(١) في ب: النشأة الأولى.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.

(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.

(٥) في ب: العظم.

(٦) في ب: إليه.

(٧) في ب: لذلك.

(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.

(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.

(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هذا ما لدي عنيد﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿القيافي جهنم كل كفار عنيد﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثرم من المعاصي، المجترى على المحارم والمآثم.

﴿مناع للخير﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده^(١)، الذي أعظمه الإيمان بالله ﴿وملائكته﴾^(٢) وكتبه ورسله مناع، لنفع ماله وبدنه، ﴿معتد﴾ على عباد الله، وعلى حدوده^(٣)، ﴿مريب﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الذي جعل مع الله الهاً آخر﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فألقياه﴾ أيها الملكان القرينان ﴿في العذاب الشديد﴾ الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿قال قرينه﴾ الشيطان، مثيراً منه، حاملاً عليه إثمه: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا

تلموموني ولوموا أنفسكم... الآية^(٤)

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لا تختصموا لدي﴾ أي: لا فائدة في اختصاصكم^(٥) عندي، ﴿والحال أني قد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي: جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حججتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿ما يبدل القول لدي﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قبلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ بل أجزيم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد^(٦) في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

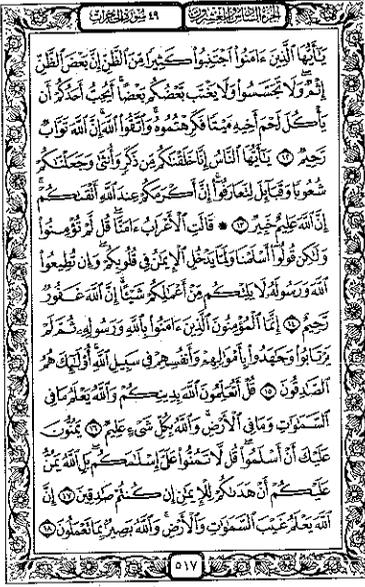
﴿٣٥ - ٣٥﴾ ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ وأزلقت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ * من خشني الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد * يقول تعالى خوفاً لعباده: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿وتقول هل من مزيد﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضباً لربها، وغيظاً على الكافرين.

وقد وعدما الله ملاءها، كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه،

﴿حفيظ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتناله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل^(٧) الوجوه، حفيظ لحدوده، ﴿من خشني الرحمن﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على

فنزوي بعضها على بعض، وتقول قط، قد اكتفيت وامتلات، ﴿وأزلقت الجنة﴾ أي: قريت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، وإنما أزلقت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، المتشابهين لأوامر ربهم، المتقادين له، ويقال لهم على وجه التهنتة: ﴿هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيhe الأنفس وتلد الأعين، هي التي وعد الله كل أبواب أي: رجاء إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه ورجائه.

﴿حفيظ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتناله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل^(٧) الوجوه، حفيظ لحدوده، ﴿من خشني الرحمن﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على



٥١٧

﴿حفيظ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتناله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل^(٧) الوجوه، حفيظ لحدوده، ﴿من خشني الرحمن﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على

(١) في ب: قَيْلَهُ.
 (٢) زيادة من هامش ب.
 (٣) في أ زيادة هنا هي (أثم) أي كثير الإثم) ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب.
 (٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم).
 (٥) كذا في ب، وفي أ: خصامكم.
 (٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد.
 (٧) في ب: أثم.

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ * فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود * وهذا إخبار منه تعال عن قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى، ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسميحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّمٌ للنفس، مؤنس لها، مُهَوِّنٌ للصبر.

﴿٤١-٤٥﴾ ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير * نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد * أي: ﴿واستمع﴾ بقلبك نداء المنادي وهو إسماعيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿من مكان قريب﴾ من الخلق^(٤) ﴿يوم يسمعون الصيحة﴾ أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بالحق﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء.

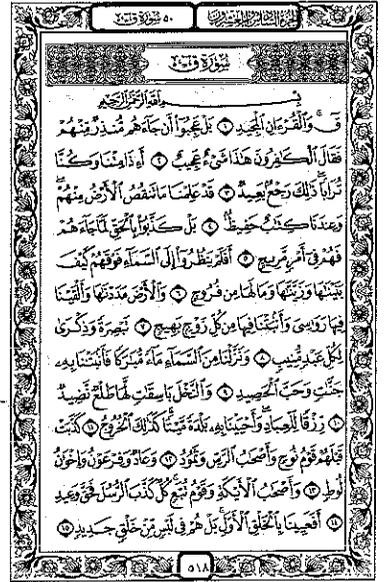
﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال: ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ * يوم تشقق الأرض

أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعيم بقربه، نسأل الله تعال أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ * إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ يقول تعال - خوفاً للمشركين المكذبين للرسول -: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي: أما كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي: قوة وأثراً في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، ف ﴿هل من محيص﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ أي: قلب عظيم حيّ ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع فارتفع^(٢)، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه ﴿شهيد﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض، الذي لم يلق^(٣) سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.



خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراءد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر^(١).

﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب نواحيه إلى مرضاه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشروء، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذلك يوم الخلود﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات، ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك ﴿مزيد﴾

(١) من قوله: ويحتمل إلى: هذا هو الظاهر ليس في ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وارتفع.

(٣) في ب: لم يصغ.

(٤) في ب: من الأرض.

عنهم ﴿ أي : عن الأموات ^(١) .

المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون .

والمراد بالذاريات : هي الرياح التي تذر في هبوبها ﴿ ذروا ﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿ والحاملات ﴾ قرأ ﴿ السحاب ﴾ تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، و﴿ الجاريات يسرا ﴾ : النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزين بها السموات، ويهدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، ﴿ والمقسمات أمراً ﴾ : الملائكة التي تقسم الأمر وتديره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمر الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حُدِّدَ ورسم، ولا ينقص منه .

﴿ سراعاً ﴾ أي : يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ ذلك حشر علينا يسيراً ﴾ أي : حين ^(٢) على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ لك عما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتاوناً بك، وتيسرنا لأمرورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرفق من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والثأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي : مسلط عليهم ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ ولهذا قال : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من حجة الخير وإثارة فعله، ومن بغض الشر ومجانته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول : ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ .

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات مكية

﴿ ١٦ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا ﴾ ﴿ فالحاملات وقرأ ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ ﴿ المقسمات أمراً ﴾ ﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ ﴿ هذا قسم من الله الصادق في قبيله، هذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به

(١) في ب: عن الخلاق .



الخراصون ﴿ أي : قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليحذصوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ﴿ الذين هم في غمرة ﴾ أي : في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ ساهون ﴾ ﴿ يسألون ﴾ على وجه الشك والتكذيب أتيان يعثون أي : متى يعثون، مستبعدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مالهم ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي : يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم] : ﴿ ذوقوا فنتنكم ﴾ أي : العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿ هذا ﴾ العذاب، الذي وصلتكم إليه، [هو] ﴿ الذي كنتم به تستعجلون ﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال .

﴿ ١٥ - ١٩ ﴾ ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴿ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم ^(٣) إلى

(٣) في ب: وصلوا بها .

(٢) في ب: سهل .

أموالهم حق ﴿ واجب ومستحب للسائل والمحروم ﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم^(٤).

﴿ ٢٠ - ٢٣ ﴾ ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فو رب السماء والأرض إنه الحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿ يقول تعالى - داعياً عباده إلى التفكير والاعتبار - : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، التأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وأسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد^(٥) الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

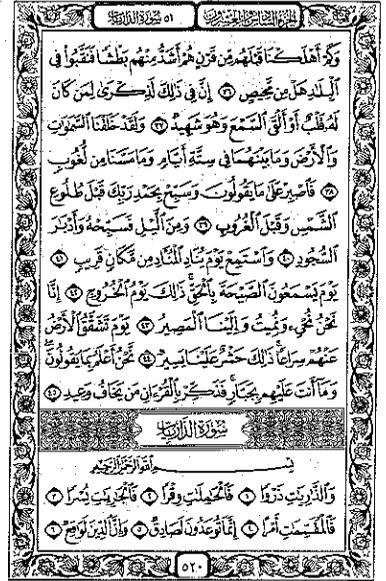
وقوله: ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والديني، ﴿ وما توعدون ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهاً ينبيه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا] وهو النطق، فقال: ﴿ فو رب السماء والأرض إنه الحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت^(٦).

﴿ ٢٤ - ٣٧ ﴾ ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه

الوجوه، ولما نهى عنه، بالانزجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقى بالشكر [لله] عليها والانتقاد.

والمعنى الأول الصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿ محسنين ﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان^(٧)، وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلى المالك، والبهائم المملوكة وغير المملوكة^(٨)، ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿ كانوا ﴾ أي: المحسنون ﴿ قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع، ﴿ وبالأسحار ﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿ هم يستغفرون ﴾ الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السجر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ﴿ وفي



ذلك الجزاء: ﴿ إن المتقين ﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دثارهم، ﴿ في جنات ﴾ مشتقات على جمع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلوب العباد^(٩)، ﴿ وعبود ﴾ سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيراً، ﴿ أخدين ما آتاهم ربهم ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يبغون عنه حولا، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم أخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وانشرح الصدر، متقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل

(١) في ب: قلب بشر.

(٢) في ب: من وجوه البر.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

(٤) في ب: والذين لا يسألونهم.

(٥) في ب: أن الله واحد أحد.

(٦) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتركم الشك في البعث والجزاء.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفقار، ليعتبروا بحالهم^(٣)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي^(٤) وأمه، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه الملح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلاً، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٥)، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الشبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: «أنكرتكم» [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً، فتمّ مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا حكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر^(١) أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسؤمة عند ربك للمسرفين﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه^(٢)، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم مجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون صدوقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴿فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسؤمة عند ربك للمسرفين ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ مجيئاً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ ﴿فقربه إليهم﴾ وعرض عليهم الأكل، ف ﴿قال ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة ﴿حين رأى أيديهم لا تصل إليه﴾، قالوا لا تخف وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ورنوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ووقالت عجوز عقيم﴾ أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(٤) أمر الله محمداً وأمه.

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

كالريم ﴿٤١﴾ أي: كالرمم البالية، والذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم من عصاه:

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٥﴾ ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴿فتمتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴿فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ أي: ﴿وفي ثمود﴾ آية عظيمة. حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتواً ونفورا.

فقيل ﴿لهم تمتعوا حتى حين ﴿فتمتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وهم ينظرون﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السيوف والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستة فيمن عصاه.

﴿٤٧﴾ - ﴿٥١﴾ ﴿والسماء بنيانها بأيدينا وإنما لموسعون ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لملككم تذكرون ﴿ففرروا إلى الله إنني لكم منه نذير مبين ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنني لكم منه نذير مبين﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿والسماء بنيانها﴾ أي: خلقناها وأنتأناها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها.

﴿بأيدينا﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة

المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليهم.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤٠﴾ ﴿وقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسليطان مبين ﴿فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ أي: ﴿وفي موسى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون ومليئه بالآيات السينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى ﴿بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿بركنه﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿ساحر أو مجنون﴾ أي: إن موسى، لا يخلو إما إن يكون ساحراً وما أتى به شعبيذة ﴿ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ الآية، ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ أي: مذنب طاع، عاث على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ أي: ﴿وفي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته

قد أعدت لغير الضيف الحاضر^(١)، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده^(٢)، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به^(٣) من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: ﴿تفضلوا، أو اتوا إليه﴾ لأن هذا أسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿ألا تأكلون﴾ ولم يقل: ﴿كلوا﴾ ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلون﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿ألا تأكلون﴾ أو: ﴿ألا تتفضلون علينا وتشرفونا وتحسنون إلينا﴾ ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان^(٥) لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لا تخف﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرَّتها غير

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص. (٢) في ب: لديه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلقه.

(٤) في ب: وسيد.

(٥) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبيذة.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون.

(٧) في ب: من أحد.

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴿ وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم .

﴿٥٤- ٥٥﴾ ﴿فتول عنهم فما أتت بمولوم﴾ * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ بالمؤمنين ﴾ يقول تعالى آمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك .

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به .

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول^(٣)، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنتهى عنه من المضار .

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو^(٤) معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع .

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتنع عنهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكر إن تفتت الذكرى﴾ * سيذكر من يخشى * ويتجنبها

المراد^(٢) والمطلوب .

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكابر، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن أو السرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، ﴿ولا تجعلوا مع الله الهماً آخر﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأبئاد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة .

﴿٥٢- ٥٣﴾ ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ يقول الله مسلماً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون .

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتي آية كذلك قال

﴿وإنا لموسعون﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه الفقار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها .

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأتى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فتنعم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي: صنفين، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم]^(١) في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من النافع .

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لحشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الذين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم .

(٢) في ب: غاية المراد .

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله .

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما .

الأسقى ﴿ وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، ويحث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، وذلك يتضمن^(١) معرفته تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المعني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذ مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يعث الأموات بعدما مزقههم الليل، وعصفت بترابهم^(٢) الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه التفار، ولجج البحار، فلا يفوته

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩-٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستمعلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿ أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا^(٣) محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذنوباً﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستمعلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأسم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيب لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [تعوذ بالله منه].

تفسير سورة الطور، مكية

﴿١-١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور﴾ وكتاب مسطور ﴿ في رق منشور﴾ والبيت المعمور ﴿ والسقف المرفوع﴾ والبحر المسجور ﴿ إن عذاب ريك لواقع﴾ ماله من دافع ﴿ يوم غور السماء موراً﴾ وتسير الجبال سيرا ﴿ فويل يومئذ للمكذبين﴾ الذين هم في خوض يلعبون ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿ أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتملة على الحكم الجلية، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب^(٤)، أنزله الله محتوباً على نبي الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رق﴾ أي: ورق ﴿منشور﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تحفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ليتعبدون فيه لربهم ثم، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالزفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومانته العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمثاً، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمة.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاقتها ومنتازها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٣) في ب: بتكذيبهم.

(٤) في ب: الكتب.

وأن حجة الله قامت عليهم^(٣).
﴿اصلوها﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم^(٤)، وتطلع على أفئدتكم.

﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست^(٥) من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال]
﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

﴿١٧ - ٢٠﴾ **﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾** فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: **﴿إن المتقين﴾** لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسابيه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿في جنات﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة، والأهجار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة، **﴿ونعيم﴾** [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، **﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾** أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم تويخاً ولوماً: **﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾** فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما أرا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف^(٦) للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الخلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: **﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾**] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحرٌ أم عدم بصيرة بكم، حتى أشبهه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجزيان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تُلظي، ممتلئاً على عظمتها وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: **﴿إن عذاب ربك لواقع﴾** أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿ما له من دافع﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه^(٧) العذاب، فقال: **﴿يوم تمور السماء موراً﴾** أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون، **﴿وتسير الجبال سيراً﴾** أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وقطاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل القلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟! **﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾** والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: **﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾** أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم ويحوتهم بالعلوم الضارة التضمنة للتكذيب

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصراط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نصٌ ما في ب: (أي: أفبصرون من له عقل أن يقول عنه: إنه سحرٌ، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، منسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاضرون أحسن عشرة. ويتنادمون أطيب النادمة، ولا يسمعون من ربه، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم ومحبه لهم.

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه^(٥)، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور: ﴿إننا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إننا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات^(٦)، وندعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البئر الرحيم﴾ فمن برة بنا ورحته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩ - ٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر نترصد به رب المنون * قل تربصوا فإني معكم من المترصد * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون *

ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون * قالوا إننا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إننا كنا من قبل ندعوه إنه هو البئر الرحيم * وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آباؤهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لأبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخير أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتين بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العليم، ﴿بفأكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها. ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكراب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

ونجاهم من المهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأياه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: عما تشتهي أنفسكم، من [أصناف] المأكّل والمشرب اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: متهينين بتلك المأكّل والمشرب^(١) على وجه الفرح والسرور والبهجة والخبور. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتم ما نلتهم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض^(٢)، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يحظر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكّل والمشرب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن^(٣)، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائنها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يمجرن بحسنة الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش^(٤) شوقاً إليهن، ورغبة في وصلهن، والعيّن: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢١ - ٢٨﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعتمهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين * وأمددناهم بفأكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٣) في ب: إلا بهن.

(١) في ب: متهينين بذلك على وجه.

(٦) في ب: العبادات.

(٤) في ب: تطير.

(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.

وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿١٠٤﴾ إِنَّكَ لَآتِيهِمُ الْغُلُوبُ ﴿١٠٥﴾ وَيَوْمَ نَسْفَعُ بِالنِّفْثِ النَّاسَ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٦﴾ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾

وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿١٠٤﴾ إِنَّكَ لَآتِيهِمُ الْغُلُوبُ ﴿١٠٥﴾ وَيَوْمَ نَسْفَعُ بِالنِّفْثِ النَّاسَ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٦﴾ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾

استحالتهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء الله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين ﴿لَا يوقنون﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْبِكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ أي: أعدد هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاؤون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكانهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

أثرت، وصدر منها ما صدر (٢) فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً، وأصدق الصدق (٣) وأحق الحق كذباً وباطلاً، ليهي العقول التي ينزه المجانين عنها، أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد (٤) يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ﴾ أي: تقول عمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟ ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أنه قوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدرُوا على معارضته والإتيان بمثله، فحيث أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

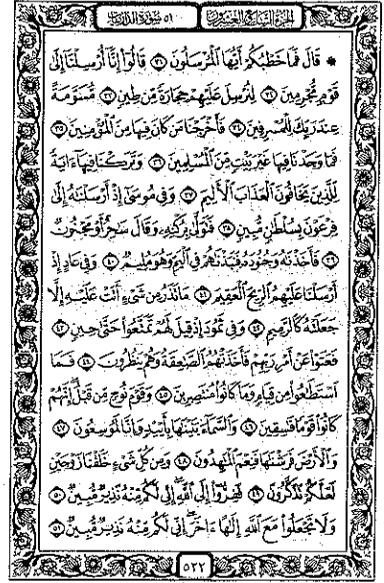
أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم (٥).

فإذا بطل [هذان] الأمران، وبان

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْبِكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يُسْتَمُونُ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ بَسْطَانٌ مِيبِن * أَمْ لَهُ الْبِنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتَبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يَا مَرْءَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَذْكَرَ النَّاسَ، مُسْلِمَهُمْ وَكَافِرَهُمْ، لِتَقُومَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَيَهْتَدِيَ بِتَذْكِيرِهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَأَنَّهُ لَا يُبَالِي بِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذُوبِينَ وَأَذْيَتِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ الَّتِي يَصْدُونَ بِهَا النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُ أَبَدُ النَّاسِ عِنْدَهَا، وَلِهَذَا نَفَى عَنْهُ كُلَّ نَقْصٍ رَمَوْهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا أَنْتَ بِتَعْمَةٍ رَيْبِكَ﴾ أي: منهُ ولطفه، ﴿بِكَاهِنٍ﴾ أي: له رأيي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها منة كذبية، ﴿وَلَا يَجْنُونَ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم، وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾.

﴿نَسْرِبِصٌ بِهِ رَبِّبُ الْمُتُونَ﴾ أي: نتنظر به الموت (١)، فسيبطل أمره، [ونستريح منه]، ﴿قُلْ﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرْبِصُوا﴾ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ التَّرْبِصِينَ﴾ نترصد بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبش العقول والأحلام، التي أثرت ما

(١) كذا في ب، وفي أ: تربيص به الموت، ونتظره فيه.
 (٢) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها.
 (٣) في ب: وجعلت أصدق الصدق.
 (٤) كذا في ب، وفي أ: لا حد له.
 (٥) في ب: أن يوجد أحد نفسه.



﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿أم هم المصيطرون﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي: أنهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فليات مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿بسلطان مبين﴾ وأتى له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحدًا] (١) إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعدته، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذوبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأئى المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وحذلمهم.

إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم (٣)، وحذلمهم وانتصر منهم.

﴿أم لهم إله غير الله﴾ أي: أنهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد ويُخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مرحومٌ * قدرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون * يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يقولوا سحابٌ مرحومٌ﴾ أي: هذا سحابٌ متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿قدرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره (٢) عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لزب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أم تسألهم﴾ يا أيها الرسول ﴿أجر﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك] و[دعوتك]، وتعطي المؤلفعة قلوبهم [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يُطْلغ عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أم يريدون﴾ بقدهم فيك وفيما جنتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالدِّين كُفروهم المكيدون﴾ أي: كيدهم في تحورهم، ومضرتة عائدة

طغى ﴿١﴾ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفریط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها متفية عنه ﴿٢﴾.

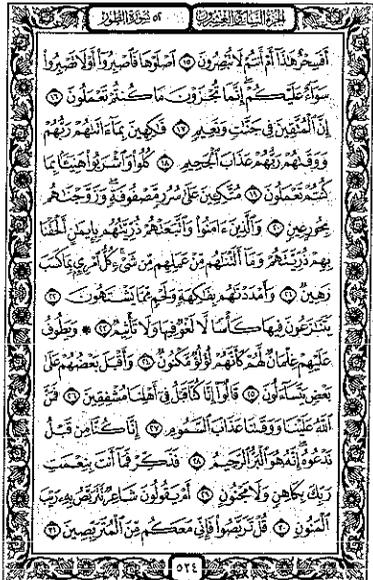
﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﴿٣﴾ ليلة أسري به.

﴿١٩ - ٢٥﴾ ﴿أفرايتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فليله الآخرة والأولى﴾ لما زكى تعالى ما جاء به محمد ﴿٤﴾ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مشقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و «العزى» من «العزير»، و «مناة» من «المنان»، إلخ، فإحداً في أسماء الله وتمجيراً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة

أسري به، من آيات الله العظيمة، وأنه يتقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﴿٥﴾ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا هذا رؤية الرسول ﴿٦﴾ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﴿٧﴾ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﴿٨﴾، ولهذا قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

﴿عند سدرة المنتهى﴾ وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاه علم الخلق ﴿٩﴾ إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها ﴿١٠﴾، أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى محمد ﴿١١﴾ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة. عند تلك الشجرة ﴿جنة المأوى﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه ﴿١٢﴾ الأمانى، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة. ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل. ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ أي: ما زاغ يمنية ولا يسرة عن مقصوده ﴿وما



﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثم دنا﴾ جبريل من النبي ﴿١٣﴾، ليصل الوحي إليه.

﴿فقلدى﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فكان﴾ في قربه منه ﴿قاب قوسين﴾ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أو أدنى﴾ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة ﴿١٤﴾ للرسول ﴿١٥﴾ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فأوحى﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إلى عبده﴾ محمد ﴿١٦﴾ ﴿ما أوحى﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبا المستقيم.

﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﴿١٧﴾ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك. ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﴿١٨﴾ ليلة

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على. (٢) في ب: مباشرته. (٣) في ب: علم المخلوقات. (٤) كذا في ب، وفي أ: علومها.

عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الكلم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتعملون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي: ظالة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! [تعال عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هسي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدكم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يمتنون الأمانى، ويعترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ فقلله الآخرة والأولى، فيعطي منهما من يشاء، ويمتنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لآمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعال منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة: ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعال في الشفاعة، ورضاه عن الشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن السذيين لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * يعني ان المشركين بالله المكذبين لرسوله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولسو له، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون

﴿٢٧﴾ ﴿إن السذيين لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * يعني ان المشركين بالله المكذبين لرسوله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولسو له، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون

شذرات الخبر

إلى الله، قاتمون بخدمته ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ والمشركون^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو^(٢) الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبا الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصولها، وبأي طريق سحت ابتدروها، ذلك مبلغهم من العلم^(٤) أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعال أعلم بمن يستحق الهداية فيهبه، ممن لا يستحق

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(٣) كذا في ب، وفي أ: وهم.

موجود مشاهد منكم حين أنشاكم^(٤) الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية

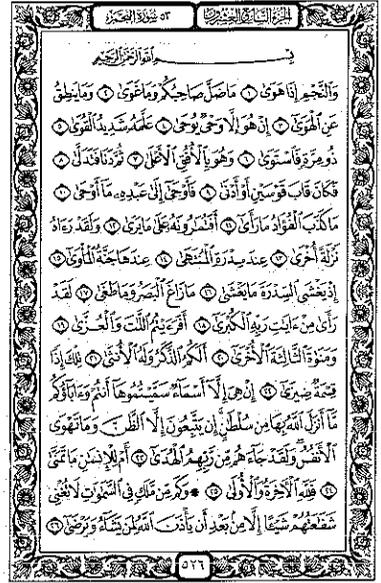
والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الغلظة بعد الغلظة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٥)، أرحم عباده من الوالدة بولدها، فلا بد لئلا يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح^(٦)

﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ [فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً.]

﴿٣٣ - ٦٢﴾ ﴿أفرأيت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبا بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ريبك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه خلق الزوجين الذكر وأُنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(٧). ﴿ويجزى الذين أحسنوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿بالحسني﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة^(٨).

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كباثر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إلا الممن﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه التندرة والقلّة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها خرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إن ريبك واسع المغفرة﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٩) المحرمات، وكثرة الجوازب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف



ذلك فيكمله إلى نفسه، ويحذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ريبك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿و الله ما فسي السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ريبك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عيده وماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجزي عليهم شرعه، ويأمرهم به وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثبت المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أسأوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

(١) في ب: الفظيعة.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

﴿وأنه خلق الزوجين﴾ فسر الزوجين^(٤) بقوله: ﴿الذكر والأنثى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها، ﴿من نطفة إذا تمنى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نطفة ضعيفة^(٥) من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الأدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الخلالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبنداء على الإعادة، فقال: ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم المقات، ويمجازهم على الحسنات والسيئات، ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يضيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(٦)، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مريبوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(٧)، ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد^(٨) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: ﴿وأن ليس للإنسان ما سعى﴾ فوصول سعي غيره إليه منافع لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فأليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكائنات، ﴿وأنه هو أضحكك وأبكى﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويمجازهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

عليه النشأة الأخرى﴾ إلى آخر السورة يقول تعالى: ﴿أقريت﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدي ويمتنع.

فإن المعروف ليس سجيبة له وطبيعة^(٩)، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجريء على الجمع بين الإساءة والتزكية^(١٠)، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على تقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أم لم ينبا﴾ هذا المدعي ﴿بما في صحف موسى﴾ وإبراهيم الذي وفي أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿الأتزر وازرة ووزر أخرى﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ في الآخرة فيميز حسنته من سيئته، ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه، جزاء تقرر بعدله

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجيبة له وطبعاً.

(٢) فتجريء عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٦)، وأنه سر العبادة ولها، فإن ليها الخشوع لله^(٧) والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٨)، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أننى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١٥٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم * وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مردجر * حكمة بالغة فما تغني النذر * يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحين وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويرى الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟

﴿أزفت الآزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أنت القيامة وجاءهم العذاب الموعد به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون؟﴾ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة لعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(٩) العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً وبقيناً والذي^(١٠) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعيدِهِ، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فيعت الله إليهم^(١١) الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم^(١٢)، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فيأي: الآء ربك تجماري﴾ أي: فيأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس يبدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلاي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تظلم دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟^(١٣)

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذوبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] وصدقته، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(١) الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التموه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٢) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا^(٣) يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: «سحر مستمر» سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(٤) والرد لها، ولهذا قال: «وإن يروا آية يعرضوا» ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: «وإن يروها بل قال: «وإن يروا آية يعرضوا» وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» كقوله تعالى: «فإن لم

يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم» فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البيئات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، «وكل أمر مستقر» أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى - مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى -: «ولقد جاءهم من الأنبياء» أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة «ما فيه مزدجر» أي: زاجر يزرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك «حكمة» منه تعالى «بالغة» أي: لتقوم حجته على المخالفين^(٦)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، «فما تغن النذر» كقوله تعالى: «ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

٦ - ٨ «فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر * خشماً أبصارهم يخرجون من الأجدات كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر» يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال]: «فتول عنهم» وانتظرهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

(١) في ب: العظيمة.

(٢) في ب: من ورد.

(٣) في ب: لم.

(٤) في ب: بالكذب.

(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

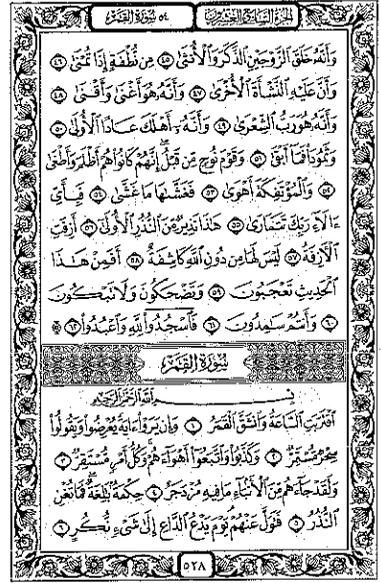
(٦) في ب: العالمين.

(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.



«يدعو الداع» إسرأفيل عليه السلام «إلى شيء نكر» أي: إلى أمر فطع تنكره الخليقة، فلم تر منظرًا أظف ولا أوجع منه، فينفخ إسرأفيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، «خشماً أبصارهم» أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخشعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

«يخرجون من الأجدات» وهي القبور، «كأنهم» من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض «جراد منتشر» أي: مبثوث في الأرض، متكاثراً جداً، «مهطعين إلى الداع» أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(٧)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، «يقول الكافرون» الذين قد حضر عذابهم: «هذا يوم عسر» كما قال تعالى «على الكافرين غير يسير»



[مفهوم ذلك أنه يسيّر سهل على المؤمنين]^(١)

﴿٩٦ - ١٧﴾ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبيدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعاه ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحتنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتمى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابنا ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تدرن أهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً * ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا عبيدنا وقالوا مجنون﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وأبأؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أي مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ فجعلت السماء تنزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

ويحتمل أن المراد: أننا أهلكتنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والحزني، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المذكورون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكته الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعها تعليم من الله لعبده^(٤) نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمة بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، ويديع صنعته، ﴿فهل من مدكر﴾؟ أي: فهل متذكر^(٥) للآيات، مُلتي ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ ﴿فكيف كان عذابنا ونذر﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحد عليه حجة.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

﴿فكذبوا عبيدنا وقالوا مجنون﴾ لزعمهم أن ما هم عليه والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أي مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ فجعلت السماء تنزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿على أمر﴾ من الله له بذلك، ﴿قد قدر﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وحملناه على ذات

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿على أمر﴾ من الله له بذلك، ﴿قد قدر﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وحملناه على ذات

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاد.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.

وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

﴿٢٣ - ٢٢﴾ كذبت ثمود

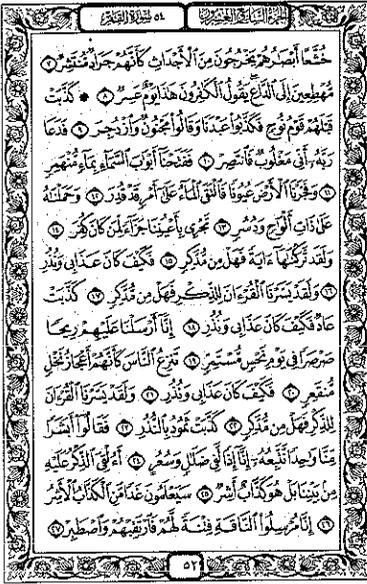
بالنذر * فقالوا أشرأ منا واحداً نتبعه إننا إذا لقي ضلالاً وسعراً * ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا مرسلون غداً فاتقوا الله فمَنْ عَصَا فَاصْطَبِرْ * ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحطَّر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * أي:

كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبههم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً وتبهاً -: ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي: كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إننا إذا﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لقى ضلالاً وسعراً﴾ أي: إننا لضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنكروا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿ألقى الذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأى: مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأمهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحية،

القرآن الكريم، الفاظه للمحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معنى، وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظب والعبير، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيمنان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فهل من مدكر﴾.

﴿١٨ - ٢٢﴾ كذبت عاد فكيف

كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * «وعاد» هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾ أي: شديدة جداً، ﴿في يوم نحس﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم، ﴿مستمر﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ﴿تنزع الناس﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته^(١) الريح فسقط على الأرض، فما هون الخلق على الله إذا عصوا أمره، ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والندارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده



ومن رحمة وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لتعاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبههم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي: كثير الكذب والشهر، فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله، ونعمة يحتسبون من ضرعها^(٢) ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنة لهم﴾ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً ﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي: اصبر على دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿ونبتهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: أخبرهم أن الماء أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم، ﴿كل شرب محتضر﴾ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من

(١) في ب: اقتلته.

(٢) في ب: درها.

من العبير ما لم يشهد عليه أحداً غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقتهم في اليم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس [المكذبين لمحمد ﷺ]، ولهذا قال: ﴿أَكْفَارِكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصيبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بئس، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدِهِمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿وَالسَّاعَةِ أَهْمِي وَأَمْرِي﴾ أي:

عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤوهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿٤١ - ٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿أَكْفَارِكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ﴾ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ مُسْمَرٍ﴾ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسن سقر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا شِعَابَكُمْ فَبَلَّغْنَا مِنَ الْبَصْرِ﴾ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴿وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ إن المتقين في جنات ونهر ﴿فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النَّذِيرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة^(١)، وأشهدهم



ليس بقسمة له.

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾ الذي باشر عقربها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فَتَعَاطَى﴾ أي: انقاد لما أمره به من عقربها ﴿فَعَقَرَ﴾ فكيف كان عذابي ونذري ﴿كَانَ أَشَدَّ عَذَابٍ﴾ أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ﴾.

﴿٣٣ - ٤٠﴾ ﴿كَذَبَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيتناهم بسحر ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجِي مَنْ شَكَرَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ﴾ أي: ﴿كَذَبَتْ قَوْمَ لُوطٍ﴾ لوطاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم

(١) في ب: جاءوا.

(٢) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

(٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.

(٤) في ب: فأغرقتهم وجنوده في اليم.

(٥) في ب: وقتلت.

(٦) في ب: فأذلوا.

أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال^(١).

﴿إن المجرمين﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿في ضلال وسعر﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلالٌ عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينتجهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفتدتهم، ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمأ أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويجزون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿إننا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها^(٢)، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلماذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون كما أراد، كلمح بالبصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتهم ﴿فهل من مدكر﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين. ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء

والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿إن الشقين﴾ الله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر.

﴿في جنات ونهر﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمأكول والمشارب اللذيذة، والخور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة اقرت، والله الحمد والشكر

تفسير سورة الرحمن
[وهي] مكية

﴿١ - ١٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض ضعتها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر * وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر * إن الشقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَلْقَى الْوِزْنَ بِالْقَاسِ * وَأَخْبَسُوا أَلْبَانَ * وَالْأَرْضَ ضَعَفَهَا لِلْأَنْعَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ * وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا يُكْفَرُونَ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَوَضَعْنَا الْقُرْآنَ كِتَابًا * مَرِيعًا * فَبِأَيِّ آيَاتِنَا يُكْفَرُونَ

رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية [والأخرية] وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

فذكر أنه ﴿علم القرآن﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، وسرها على عباده، وهذا أعظم منه ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البديع تعالى^(٣) خلقه أي اتقان، وميزه على سائر الحيوانات، بأن ﴿علمه البيان﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل لتعليم النطق والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الأدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه، ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر،

(١) في ب: في الخيال.

(٢) في ب: خلقه.

(٣) في ب: قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه.



رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب، **﴿والنجم والشجر يسجدان﴾** أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربهما وتسجد له، وتطيع وتحشع^(١)، وتنفذ لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، **﴿والسمااء رفعها﴾** سقفا للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: **﴿الأتطفأوا في الميزان﴾** أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وأرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

- (١) في ب: وتخشع.
- (٢) في ب: فكلما مر بقوله: **﴿فيأي آلاء ربكما تكذبان﴾** قالوا.
- (٣) في ب: فهكذا ينبغي.
- (٤) في ب: وهو الطين المشوي.
- (٥) في ب: لعنة الله.
- (٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، **﴿ولا تحسروا الميزان﴾** أي: لا تقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والظغيان، **﴿والأرض وضعها﴾** الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها] وأحوالها **﴿للأنام﴾** أي: للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفرشاً يبنون بها، ويجرثون ويغرسون ويحفرّون ويسلكون سبلها فجاجاً، ويستفعمون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

وتشرح لها النفوس. ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: **﴿فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾** أي: فيأي: نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: **﴿فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾** إلا قالوا^(٢): ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي^(٣) للبعد إذا تليت عليه نعم الله وآلؤه، أن يقر بها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿١٤ - ١٦﴾ ثم قال تعالى: **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾** * وخلق الجن من نار * فيأي: آلاء ربكما تكذبان.

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبيدع صنعته، أن **﴿خلق﴾** أبا الإنس وهو آدم عليه السلام **﴿من صلصال كالفخار﴾** أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي يطبخ على النار^(٤)، **﴿وخلق الجن﴾** أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين^(٥) **﴿من نار﴾** أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجن وهو النار، التي هي محل الخفة والطييش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(٦)، وكان ذلك مئة مئة [تعالى]

في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرة التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفناهم الله تعالى^(٤)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريمهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدهونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرح حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

﴿٣١-٣٢﴾ **سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان***

أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا**

بسلطان* أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يا

معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض*

أي: تجدون منفذاً مسلماً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فانفذوا

لا تنفذون إلا بسلطان* أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرته، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا

ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟﴾ ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا

بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمزؤوسون، والأغنياء

والفقراء.

﴿٢٦-٢٨﴾ **﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي: آلاء ربكما**

تكذبان* أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر

المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذو الجلال

والإكرام* أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل

لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجلود، والداعي لأن يكرم أولياءه

وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، [ويعظمونه]

ويحونه، وينسبون إليه ويعبدونه، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.

﴿٢٩-٣٠﴾ **﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.**

أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع

حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كل يوم هو في

شأن* يعني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل،

ولا يبرمه إلهام الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسيحان الكريم

الرهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع

الخلق في كل الأنتات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء

معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون

التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدبيره التي قدرها

على عباده^(١)، قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.

﴿١٧-١٨﴾ **﴿رب المشرقين ورب المغربين * فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.**

أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كانا فيه]

فهي تحت^(٢) تدبيره وربوبيته، وثناها هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك^(٣).

﴿١٩-٢١﴾ **﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.**

المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاماً، فيصيب

العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل

النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح

به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسلمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون

مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤-٢٥﴾ **﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.**

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارية، التي تمخر البحر وتشقه

بإذن الله، التي ينشئها آدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع

تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها

حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان*.

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت..

(٣) في ب: وثناها هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

أهل الجنة وجلسهم عليها، وأنهم متكونون عليها، [أي:] جلوس تمكن واستقرار [وراحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائفها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟! (٦)

﴿وجنى الجنتين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يتاله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهن وجمالهن، وكما لم يحتهن لهم، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصلاتهن، ﴿لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي: لم يطمئن قبلهن أحد من الإنس والجن، بل هن أبنكار عرب، متحبيبات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده، إلا أن يحسن إليه بالشواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانها وأنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مداهمان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣- ٤٥﴾ ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يطوفون بينها وبين حميم أن ﴿فيأي: الآء ربكما تكذبان﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم (٣)، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وبين حميم أن﴾ أي: ماء خار جداً قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده وقره، ﴿فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾. ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزء المتقين الخائفين، فقال:

﴿٤٦- ٦٥﴾ ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فيأي: الآء ربكما تكذبان إلى آخر السورة. أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنياتهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا أُذُنٌ بشرًا (٤) أن (٥) فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغضون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة، أو ذوات أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف.

وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنبوع الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش

﴿٣٥- ٣٦﴾ ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم (١)، فقال: ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ ونحاساً فلا تنظران فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يرسل عليكم لهب صافٍ من النار.

﴿ونحاس﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بتاصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تحريفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتتن عليهم (٢)، فقال: ﴿فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانثرت نجومها، ﴿فكانت﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فيأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

﴿٤٦﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

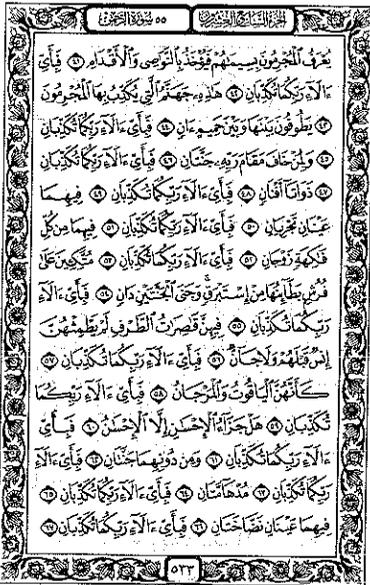
(٦) في ب: التي يباشرون.

(٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(١) في ب: في ذلك اليوم.

(٢) في ب: ذكر منه بذلك.



الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴿ وقال في الآخرين ﴾: ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأولين^(٢): ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فدل ذلك أن الأولين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الآخرين.

ومجرد تقديم الأولين على الآخرين، يدل على فضلها.

فهذه الأوجه يعرف فضل الأولين على الآخرين، وأنها معذتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلاً^(٣) منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه]. ولما ذكر سعة فضله وإحسانه، قال: ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي: تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن،

ولله الحمد والشكر
والثناء الحسن.

تفسير سورة الواقعة [وهي] مكية

﴿ ١ - ١٢ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا وقعت الواقعة ﴾ ليس لوقعتها كاذبة ﴿ خافضة رافعة ﴾ إذا رجت الأرض رجاً ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ فكانت هباء منبثاً ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ والسابقون

الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق، ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تبيان وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبناث الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفريات،

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ أي: وآله وبكلمات تكذبان ﴿ متكئين على رفرق خضر ﴾ أي: أصحاب هاتين الجنة، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق^(١) المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرقة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿ وعيقري حسان ﴾ العيقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعمومة الملمس، وهاتان الجنة دون الجنة الأولين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وكما وصف الأولين بعدة أوصاف لم يصف بها الآخرين، فقال في الأولين: ﴿ فيهما عيتان تجريان ﴾ وفي الآخرين: ﴿ عيتان نضاختان ﴾. ومن العلوم الفرق بين الجارية والنضاجة.

وقال في الأولين: ﴿ ذواتا أفنان ﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين.

وقال في الأولين: ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ وفي الآخرين: ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأولين: ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين، بل قال: ﴿ متكئين على رفرق خضر وعيقري حسان ﴾

وقال في الأولين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿ فيهن قاصرات

(١) في ب: تحت.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين ويدو

أنه سبق قلم.

(٣) في ب: كل واحد منهم

السابقون ﴿ أولئك المقربون ﴾ في جنات النعيم ﴿ تجري تعالي بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي ليس لوقعتها كاذبة ﴾ أي:

لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسعوية، ودلت عليها حكمته تعالى، ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي:

خافضة لأبأس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو

خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أي: حركت

واضطربت، ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي: فتنت، ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾

فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفضفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمناً، ﴿ وكنتم ﴾ أيها

الخلق ﴿ أزواجاً ثلاثة ﴾ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة

والسيئة، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿ فأصحاب الميمنة ما

أصحاب الميمنة ﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم، ﴿ وأصحاب المشأمة ﴾ أي: الشمال، ﴿ ما أصحاب المشأمة ﴾ تهويل لخالهم.

﴿ والسابقون السابقون ﴾ أولئك

العين في الأثني، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأَمْثالِ اللَّوْلُؤِ الْأَبْيَضِ الرُّطْبِ الصَّافِيِ﴾ أي:

كأهنن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت.

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر^(١) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾

ولا تائيمًا﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، ﴿إلا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس^(٢)، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين^(٣)، فقال: ﴿وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، ﴿في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللصدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ والطلح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وماءً مسكوباً﴾ أي: كثير

مخلدون﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ أي:

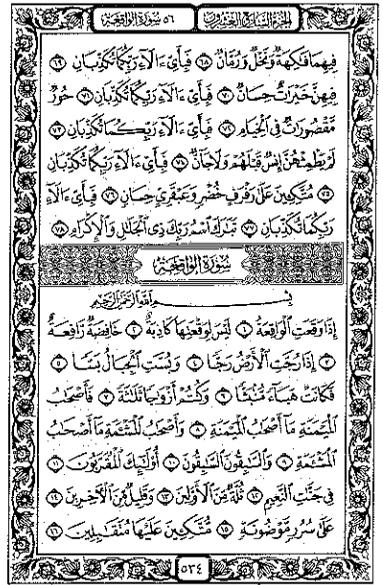
مستور، لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أستانهم، ويدورون عليهم بآية شراهم ﴿بأَكْوَابٍ﴾ وهي التي لا عرى لها، ﴿وأباريق﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأس من معين﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا أفة فيها، ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

ولاهم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخم الدنيا.

والحاصل: أن جميع^(٤) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه أفة، كما قال تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل أفة توجد في الدنيا.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شاؤوا مشوياً، أو طيبخاً، أو غير ذلك.

﴿وحور عين﴾ كأَمْثالِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها^(٥)، وحسن



المقربون﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلتة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثلة من الأولين﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، ﴿على سرر موضونة﴾ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الخلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿مكتئين عليها﴾ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار. ﴿مقابلين﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أديمهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يطوف عليهم ولدان

(١) في ب: كل.

(٢) كلنا في ب، وفي أ: ضخام الأعين.

(٣) في ب: القلب.

(٤) في ب: للقلوب.

(٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

وعدد كثير من الآخرين .

﴿٤١ - ٤٨﴾ «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحيم * وظل من محموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبيل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو أباؤنا الأولون﴾ .

المراد بأصحاب الشمال [هم] : أصحاب النار، والأعمال المشؤومة، فذكر [الله] لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم «في سموم» أي: ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، «وحيم» أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، «وظل من محموم» أي: لهب نار يختلط بدخان، «لا بارد ولا كريم» أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده. ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» أي: قد ألهمهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهام الأمل عن إحسان العمل، فهذا العرف الذي ذمهم الله عليه، «وكانوا يصرون على الحنث العظيم» أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: «إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو أباؤنا الأولون» أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من المحال] «أئنا لمبعوثون أو أباؤنا الأولون» قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم^(١): «قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم»، أي: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم،

من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة، «فواكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة» أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممنوعة [أي: متعسرة] على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناولها العبد على أي: حال يكون، «وفرش مرفوعة» أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله. «إنا أنشأناهم إنشاء» أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء، «فجعلناهم أبكاراً» صغارهن وكبارهن، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن «عوراً تراباً» ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيبتها ودلالها وجمالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنفحات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً، وإن برزت^(٢) من محل إلى آخر، امتلاً ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنسأوهم عرب أتراب، متفقات مؤلفات، راضيات مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفراح النفوس، وقررة العيون، وجلاء الأبصار، «لأصحاب اليمين» أي: معدات لهم مهيات، «ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين» أي: هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين،

(١) في ب: وإن انتقلت.

(٢) في ب: قال تعالى في جوابهم.

يُؤْتَى عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ أَنْهَارٍ مُسْكِيَّةٍ وَأَنْهَارٌ كَأَمْثالِ الْكُوفَةِ وَمِنْ أَلْفٍ عَشَرَ نَاقَةً وَعَلَى الْوَجْهِ يُسْرَبُ مِنْ تَحْتِهَا نَاقَةٌ مَسْكُوبَةً وَأَلْفُ عَشَرَ نَاقَةً وَالْأُولَى لِمَنْ يُشَاءُ وَالآخِرَى لِمَنْ يُشَاءُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَيْمِ مَتَّعْنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَوَّلَ عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يُصْرُونَ ﴿٤٨﴾

الجميع سبيعتهم الله ويجمعهم لمقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف .

﴿ثم إنكم أيها الضالون﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، «المكذبون» بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، «لا تكون من شجر من زقوم» وهو أقيح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبسعها منظرأ، «فمالمشون منها البطون» والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تقطع منه أفئدتهم .

هذا الطعام الذي يدفعون به الجرع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .

وأما شرابهم، فهو بثن الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء .

﴿هذا﴾ الطعام والشراب «نزلهم» أي: ضيافتهم «يوم الدين» وهي

وبأي: سبب دهيتهم، فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾ فاحدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون * أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جملناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذبا فراتا تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحا أجاجاً مكروهاً للنفوس. لا ينتفع به ﴿فلولا تشكرون﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

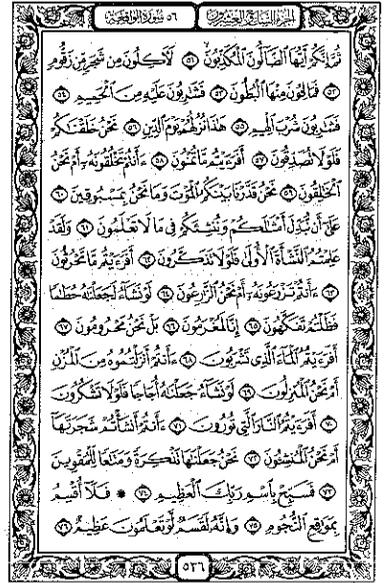
﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿أفرايتم النار التي تورون * أنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشؤون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوادثهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدر أن ينشؤوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفئوها وأخذوها.

﴿نحن جعلناها تذكرة للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم، ومتاعاً للمقوين﴾ أي: [المتتبعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافرين بذلك أعظم من غيره، ولعل

للتناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال^(١) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿أفرايتم ما تمحرون * أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهن * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون﴾ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحده وعبادته والإجابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزرع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدر أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته، فقال: ﴿أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نमितموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حياً حصيداً وثماراً نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال: ﴿لو نشاء لجعلناها﴾ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلمتم﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبت فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهن﴾ أي: تسندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إنا لمغرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا.

ثم تعرفون بعد ذلك من أين أنتم،



الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وأثروها على ضيافة الله وأوليائه.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾.

ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل إنه على كل شيء قدير، ولهذا ويخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٨ - ٦٢﴾ ﴿أفرايتم ما تمنون * أنتم تخلفونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدى كلا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب

(١) في ب: بالاستدلال.

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الشناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده^(١)، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى.

﴿٧٥-٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولاً إذا بلفت الخلقوم * وأنتم حيثنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولاً إن كنتم غير مدنيين * ترجعوهما إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغارها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا القسم به، فقال: ﴿وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغارها، آيات وعبراً لا يمكن حضرها، وأما المقسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن

مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢)، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم^(٣) على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتبيينها^(٤)، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خبيرٌ بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، وما يجب عليهم أن يقوموا به^(٥)، ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تحتفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به

ولا يخفى، بل يصعد به ويعلن.

وقوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا ببناء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فلولا إذا بلغت الخلقوم * وأنتم حيثنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الخلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدنيين﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحيثنظرون، فلو بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء ما لكم.

﴿٨٨-٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من هميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

(٥) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن يقوموا به.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لها.

(٤) في ب: تبيها.

(١) في ب: وتعظيمه.

(٢) في ب: لوحه ورسالته.

المحرمات والمكروهات^(١) وفضول المباحات، ﴿ف﴾ لهم ﴿روح﴾ أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وريحان﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المأكس والمشارب وغيرها، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام^(٢).

﴿وجنة نعيم﴾ جامعة للامرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ نزلاً من غفور رحيم.

وقد أول قوله^(٣) تبارك تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أن هذه البشارة المذكورة، هي البشرى في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و ﴿إن﴾ حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم، ﴿ف﴾ يقال لأحدهم: ﴿سلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين، الذين

سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى، ﴿فنزل من حيم﴾ * وتصلية جحيم﴾ أي: ضيافتهم يوم قدمهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يناثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفات﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفصيل ذلك ﴿لهو حق اليقين﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له^(٤)، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الحسنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

تفسير سورة الحديد [وهي] مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ * له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق

السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور﴾ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، [والجوامد] تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فهذا فيه بيان عموم اقتدار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره، ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وهو على كل شيء قدير﴾.

﴿هو الأول﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿والآخر﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿والظاهر﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿والباطن﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وهو بكل شيء عليم﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والباطن، والسرائر والحقايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ من حب وحيوان ومطر،

(١) في ب: ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

(٢) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

(٣) في ب: فسر.

(٤) في ب: مشاهدون لحقيقته.

وغير ذلك .

﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك ، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق .

﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح ، والأدعية والأعمال ، وغير ذلك .

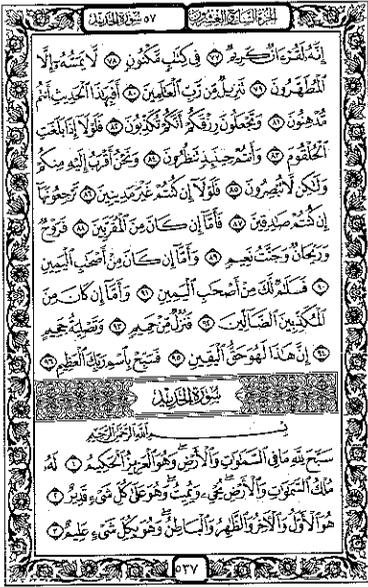
﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ .

وهذه المعية ، معية العلم والاطلاع ، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله : ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي : هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال ، وما صدرت عنه تلك الأعمال ، من بر وفجور ، فمجازيكم عليها ، وحافظها عليكم ، ﴿وله ملك السماوات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً ، يتصرف فيهم بما شاء من أوامره القدرية والشرعية ، الجارية على الحكمة الربانية ، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ من الأعمال والعمال ، فيعرض عليه العباد ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويمجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي : يدخل الليل على النهار ، فيغشيهم الليل بظلامه ، فيسكنون ويهدؤون ، ثم يدخل النهار على الليل ، فيزول ما على الأرض من الظلام ، ويضيء الكون ، فيتحرك العباد ، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم ، ولا يزال الله يكور الليل على النهار ، والنهار على الليل ، ويداول بينهما ، في الزيادة والنقص ، والطول والقصر ، حتى تقوم بذلك الفصول ، وتستقيم الأزمنة ، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك ، فتبارك الله رب العالمين ، وتعالى الكريم الجواد ، الذي

أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة ، ﴿وهو علم بذات الصدور﴾ أي : بما يكون في صدور العالمين ، فيفوق من يعلم أنه أهل لذلك ، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهذابته^(١) .

﴿٧-١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببركم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم * وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير * من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم * يأمر تعالى عباده بالإيمان به ويرسوله وبما جاء به ، وبالنفقة في سبيله ، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها ، لينظر كيف يعملون ، ثم لما أمرهم بذلك ، رغبهم وحشهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب ، فقال : ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾ أي : جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، والنفقة في سبيله ، لهم أجر كبير ، أعظمه [وأجله] رضا ربهم ، والفوز بدار كرامته ، وما فيها من النعيم المقيم ، الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين ، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان ، وعدم المناع منه ، فقال : ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببركم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي : وما الذي يمنعكم من الإيمان ، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم دواعي الله يدعوكم ، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته ،



والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به ، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين ، ومع ذلك ، من لطفه وعنايته بكم ، أنه لم يكف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم ، بل أيده بالمعجزات ، ودلّمكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات ، فلماذا قال : ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي : ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(٢) ، وأنه حق اليقين ، ﴿ليخرجكم﴾ بإرسال الرسول إليكم ، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة .

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي : من ظلمات الجهل والكفر ، إلى نور العلم والإيمان ، وهذا من رحمة بكم ورأفته ، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وان الله بكم لرؤوف رحيم﴾ .

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض﴾ أي : وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله ، وهو طرق الخير كلها ، ويوجب لكم أن تبخلوا ، ﴿و﴾ الحال أنه ليس لكم شيء ، بل ﴿الله ميراث السماوات والأرض﴾ فجميع الأموال تنتقل من أيديكم أو تتقلون

(١) كذا في ب ، وفي أ ونخذل من يعلمه لا يصلح .

(٢) في ب : على صحة جميع ما جاء به .



يتوهم منه نقص وقبح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كلاً منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خاصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة عملها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها هو الفوز العظيم﴾ * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فضرب﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿يسور﴾ أي: حانط منيح، وحصن حصين، ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحماً: ﴿ألم تكن معكم﴾ في الدنيا نقول: ﴿لا إله إلا الله﴾، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

﴿قالوا بلى﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿فكنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم﴾ أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وغررتكم الأماني﴾ الباطلة، حيث ^(٢) تمنيتم أن تتلوا مثال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حتى

عنها، ثم يعود الملك إلى مالكه تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجاً، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرأ وثواباً لمن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.

جاء أمر الله ﴿أي﴾ حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة .

﴿وغركم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فطمأنتم به، ووثقت بوعده، وصدقت خبره، ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه، لما تقبل منكم، ﴿وأواكم النار﴾ أي: مستقركم، ﴿هي مولاكم﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿وبئس الصير﴾ النار .

[قال تعالى]: ﴿وأما من خفت موازينه﴾ فأهه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية .

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ * اعلما أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمتها، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ .

أي: ألم يحىء^(١) الوقت الذي تلين به قلوبهم^(٢) وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهذا فيه الخشوع على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿ولا

يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ فالقلوب محتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك^(٣) سبب لقسوة القلب وجود العين .

﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله و[لم] ينقد لشرائع الله .

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾ * والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم^(٤) عند ربهم، ﴿يضاعف لهم﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿ولهم

(٤) في ب: ذخرأ .

(٥) في ب: ما بين كل درجتين .

(١) في ب: أتم يأت .

(٢) في ب: الذي به تلين قلوبكم .

(٣) في ب: فانه .



أجر كريم﴾ وهو ما أعد الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس .

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء .

[وقوله]: ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: ﴿إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين^(٥)﴾ كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، وهذا يقتضي شدة علومهم ورفعتهم، وقرهم إلى الله تعالى .

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جُل عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً



أذهبها^(٤) من يده، وأزال تسلطه الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله^(٥)، وعمّا أمامهم من الوعد والوعد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعُمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة

بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي. [وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] ﴿وتفاخر بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾ أي: كلٌ يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولادة، وهذا مصداقه، وقوعه من تحبّي الدنيا والمطمئنين إليها.

بالنفع بالمال في سبيل الله. والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [الإعلاء كلمة الله، وبنلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل. ﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يجبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية

بخلها من يده، وأزال تسلطه الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله^(٥)، وعمّا أمامهم من الوعد والوعد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعُمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] ﴿وتفاخر بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾ أي: كلٌ يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولادة، وهذا مصداقه، وقوعه من تحبّي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلها من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٦)، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا^(٧) جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا زوّي لها مرأى أتيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتنفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور. ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومطابها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ والإيمان بالله ورسوله^(٨)، يدخل فيه أصول الدين وفروعها، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: هذا

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.

(٢) في ب: إلى ذلك.

(٣) في ب: مهمهم ونظرهم.

(٤) في ب: فأذهبها.

(٥) في ب: من أخله عليه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

﴿والميزان﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والذين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنایات والقصاص والحدود [والمواريث وغير ذلك]، وذلك ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعددها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ من آلات الحرب، كالتسليح والبرود وغير ذلك.

﴿ومنافع للناس﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والآواني والآلات الحث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يتلى أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا (٣) الموضوع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجج والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة﴾.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثّوهم على هذا الخلق الذميمة بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمده عليه ويثنى ويعظم.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في فريتهما النبوة والكتاب فمهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة وربانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلاً بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم (١)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده (٢).

﴿٢٢-٢٤﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أئسدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظن وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومثمه، فيشتغلوا بشكر من أول النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحد من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله .

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿فمنهم﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مهتد﴾ بدعوتهم، متقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم .

﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١)، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ .

﴿ثم قفينا﴾ أي: أتبعنا ﴿على آثارهم برسلانا وقفيتا بعمسى ابن مريم﴾ خصص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿وأتيناه الإنجيل﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات .

ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام .

﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين يتزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله

تعالى، ومع ذلك ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم .

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم .
ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ .

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ ثلاثا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرين على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ .

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإتيان مرة بعد أخرى .

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ أي: يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويخفف لكم السيئات .

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفه عين ولا أقل من ذلك . [وقوله] ﴿ثلاثا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرين على شيء من فضل الله﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وأمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(٣) بأنهم لا يقدرين على شيء من فضل الله أي: لا يجبرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لئن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب، وليلعلموا ﴿أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ من اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [الذي لا يقادر قدره] .

تم تفسير سورة الحديد،
والله الحمد والمنة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور﴾ الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل

الكتاب علم .

(١) في ب: طاعة رسله .

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِالْأَيْمَانِ وَأَرْسَلْنَا مَعَهُ الْقَصَصَ
وَالْمَوَازِينَ لِيُقِيمَ الْبَالُ بِالْقِسْطِ وَأَرْسَلْنَا هُودًا بِآيَاتِهِ
سَكِينَةً وَنُوحًا بِالنَّوَارِ وَرِيسًا اللَّهُ مِنْ صَمُودَ وَرِيسًا لِقَيْسِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنُوحًا بِعَمْرٍوسَ وَالْقَصَصَ أَرْسَلْنَا حُوسًا بِآيَاتِهِ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَةَ فَهَمَّهُمْ مُهْتَبِوسٌ
وَسَكِينَةً فِيهِمْ فَاقْبَرُوا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ فَاحْضَرُوا يَوْمَنا
وَقَفَّيْنَا عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَبَعَثْنَا فِي الْأَرْضِ الْأَمْثِلَ
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا رِيسًا لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا نَبَّأَهُمْ بِآيَاتِنَا فَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ
حَدِيدًا وَأَلْهَمْنَا الْيَهُودَ الْكُفْرَ وَجَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
فِي دِينِهِمْ كِتَابًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ نَبِيًّا وَقَدَّرْنَا لَهُمْ نَحْوَهُ
بِرَسُولِهِ وَنُوحًا وَقَدَّرْنَا لَهُمْ نَحْوَهُ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ
رِيسًا لِيُقِيمُوا وَجْهَهُمْ لِلدِّينِ وَقَدَّرْنَا لَهُمْ نَحْوَهُ وَقَدَّرْنَا
لَهُمْ الْقِسْطَ بِالْأَمْثِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَلَهُمْ
الْقِسْطُ بِالْأَمْثِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَلَهُمْ الْقِسْطُ بِالْأَمْثِلِ

ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة كف نفسه عنه، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

﴿فمن لم يجد﴾ رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿ف﴾ عليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴿فمن لم يستطع﴾ الصيام ﴿فإطعام ستين نسكينا﴾ إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مديراً أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم، ووضحناه لكم ﴿لنؤمنوا بالله ورسوله﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به، فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، [بل هي المقصودة] وما يزيد به الإيمان^(١) ويكمل وينمو.

﴿وتلك حدود الله﴾ التي تمنع من

﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم﴾ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم^(٢) أنه لا حقيقة له، فيسيهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾ أي: قولاً شنيعاً، ﴿وزوراً﴾ أي: كذباً.

﴿وان الله لعفو غفور﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها^(٣) تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين ﴿ف﴾ إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تحرير رقبة﴾ مؤمنة كما قيدت في آية أخرى^(٤)، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة^(٥) بالعمل.

﴿من قبل أن يتماسا﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر بقرعة.

﴿ذلكم﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم، ﴿توعظون به﴾ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الرعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظاهر، إذا

رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴿ نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكت زوجته [إلى الله، وجادلته]^(٦) إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ أي: تحاطبكما فيما بينكما، ﴿إن الله سميع﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات.

﴿بصير﴾ يبصر ديب النملة السوداء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمر الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكاواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها^(٧) على وجه العموم، فقال: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم﴾. المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: «أنت علي كظهر أمي»، أو غيرها من محارمه، أو: «أنت علي حرام»، وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهاراً» فقال:

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره.

(٣) في ب: يعلمون.

(٤) كذا في ب، وفي أ: أن.

(٥) في ب: آية القتال.

(٦) في ب: الضارة.

(٧) في ب: ويزداد به الإيمان.



الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وللكافرين عذاب اليم﴾

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسأهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تحب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علّقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن يتنادى زوجته ويسميتها^(١) باسم محارمه،

كقوله: «يا أمي»، «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تحب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجرى في كفارة الرقية، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٢) كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدهى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿إطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿إن الذين يجادون الله ورسوله كذبوا كما كذب الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين﴾ مخادة الله ورسوله: مخالفتها ومعصيتها خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمخادة الله ورسوله بالكفر، ومعادة أولياء الله.

وقوله: ﴿كذبوا كما كذب الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البيّنات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم. ﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً

فينبئهم بما علموا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعمهم ولا خفية إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق جميعاً فيقومون من أجدانهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر^(٣) والسرائر، والخبائيا والخبائيا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خفية إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨-٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحبك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبي جهنم يصلونها فبئس المصير * يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجى بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(٣) في ب: على الظواهر.

(٢) في ب: إذا.

(١) في ب: ويدعوها.

وقيام بحق الله ولعباده^(١)، والتقوى، وهي [هنا]: اسم جامع لترك جميع المحارم والمأثم، فالؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا يجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالتناقفين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حِيُوكَ بِمَا لَمْ يَحِيكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يسيئون الأدب معك في محبتهم لك، ويقولون في أنفسهم: ﴿أي: يسرون في أنفسهم﴾ ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لولا يعدبنا الله بما نقول﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يمهل: ﴿حَسِبْهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا فَبئس المصير﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم]، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فبئس المصير﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً^(٢)، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي ﷺ، قالوا: «السلام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِالْإِذْنِ مِنْ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا

النجوى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وليس بضرارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا، فإن ضرر ذلك^(٤) عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: ليعتمدوا^(٥) عليه ويتقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه^(٦).

﴿١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْضَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تأديب^(٧) من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفصح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضرار للمجالس^(٨) شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض،



﴿فانشُرُوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بأدابه والعمل بمقتضاه.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ صِدْقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿أَشْفَقْتُمْ أَن تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ صِدْقَاتٍ فإذ لم تفعلوا وثاب الله عليكم فأتيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما

(١) في ب: بحق الله وحق عباده.

(٢) في ب: يسرون فيها.

(٣) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيراً.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن ضررهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.

(٦) في ب: وكفاه أمر دينه ودنياه.

(٧) في ب: هذا أدب.

(٨) في ب: للفاسح.



تعملون ﴿١﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تاديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأظهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جلتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيّق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو

(١) في ب: حدود الشرع.

(٢) في ب: والحال.

الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فإذ لم تفعلوا﴾ أي: لم يبن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وتاب الله عليكم﴾ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، [ولهذا قال بعده: ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامرها واجتباب نواهيها، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله^(١).

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤ - ١٩﴾ ﴿لم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تفني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون *

(٣) كذا في ب، وفي أ: ينسخه.

(٤) في ب: أي لا تدفع.

استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(٢) أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله^(٣)، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذاب مهين﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لأياته، أهانهم بالعذاب السمدي، الذي لا يفتر عنهم ساعة ولا هم يُنظرون، ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ فلا تدفع^(٤) عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الشواب، ﴿أولئك أصحاب النار﴾ الملامزمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾. ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، وإنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم وديارهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿إن السذجين يهادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾ كتب الله لأغلبنا أنا ورسلي إن الله قوي عزيز، هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره.

ووعد لمن آمن به ورسله، وأتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد ولا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريد.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

عنه أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون﴾ يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان^(١) ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

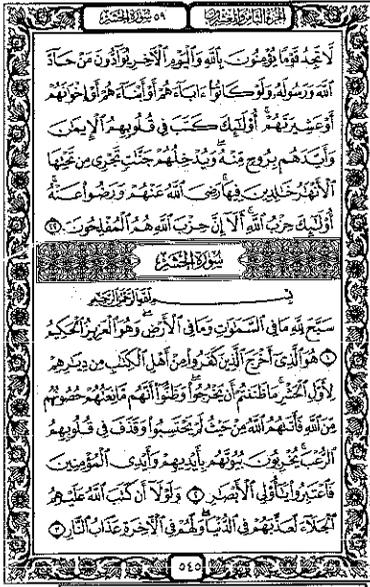
وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك:

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية^(٢).

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُؤَادٍ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بدله من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله، بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً



تفسير سورة العنكبوت [وهي مدنية]

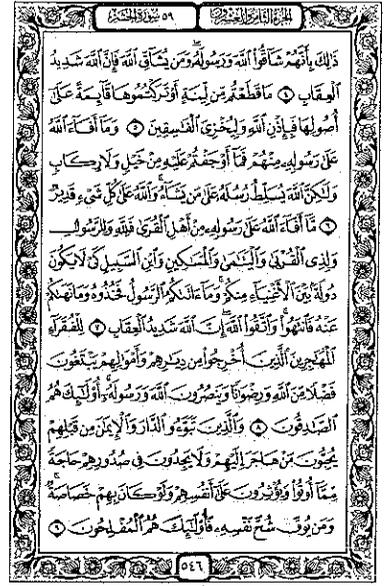
﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [لوقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

(٣) في ب: لمن نبد.

(٢) في ب: ولا وراه.

(١) في ب: إيمانه.



وسؤل لهم الشيطان الذي كتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أياكم يأخذ هذه الرحي فيصعد فليقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك، فأخبرهم بما همتم به. وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تسانكوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدتم بعد ذلك بها ضربت عنقه». فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي لبيس سلولاً: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتتصرم قريظة وحلفاؤكم من غطفان». وطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إننا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه،

ونهبوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء. فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرايعهم، وأن لهم ما حلت إليهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حبي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قستهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالأخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمدها، وتترزه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي^(٢)، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ

من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، فأخرج بقيتهم منها.

﴿ما ظننتم﴾ أيها المسلمون ﴿أن يخرجوا﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزمهم فيها.

﴿وظنوا أنهم ما منعتمهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وغرتم، وحسبوا أنهم لا يتألون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿قذف في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عُدُد ولا عُدة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، وأطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤)، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصرير، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حلت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيمهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي: البصائر السافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.
(٤) في ب: كان وبالأ عليه.

(١) في ب: لعظمته.
(٢) في ب: عير.

عزيتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ^(١) لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكير فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد^(٢) العقل، وتتصور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يحظر بالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأظم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوا لها وجاربوها وسعوا في معصيتها، وهذه عادته وسنته فيمن شاقه^(٣) «ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب».

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك^(٤) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى، وأمره «وليخزي الفاسقين» حيث

وَالَّذِينَ سَاءُوا مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْتُوا مَتَاعًا يُخْتَارُونَ مِنَ الْفَرِيقِ وَلَا يَخْرُجُوا مِنْهَا وَالَّذِينَ سَبُّوا بِالْإِيمَانِ وَلَا يَجْعَلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ عَدْلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ رَدَّ كَيْفِ رَبِّهِمْ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا بُرُوقَهُمْ لِإِحْسَائِهِمُ الْوَيْلَ لِمَنْ كَذَّبَ عَنْ آيَاتِ الْكَرِيمِ ﴿٥١﴾ قُلْ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ كَمَا أُبْدِيَ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّهُ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ لَظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ كَمَا أُبْدِيَ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّهُ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ لَظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ كَمَا أُبْدِيَ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّهُ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ لَظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ ﴿٥٤﴾ قُلْ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ كَمَا أُبْدِيَ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّهُ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ لَظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ ﴿٥٥﴾ قُلْ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ كَمَا أُبْدِيَ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّهُ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ لَظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أُوذِيَ اللَّهُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِهِمْ كَمَا أُبْدِيَ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّهُ يُصَلِّئُ عَنْ ظُلْمِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ لَظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ ﴿٥٧﴾

في^(٥) قوله: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل».

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامة]، وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوى [فيه] بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم^(٦)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمسة لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ، وخمسة للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء

«فلله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال،

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى.

(٢) في ب: يكمل العقل.

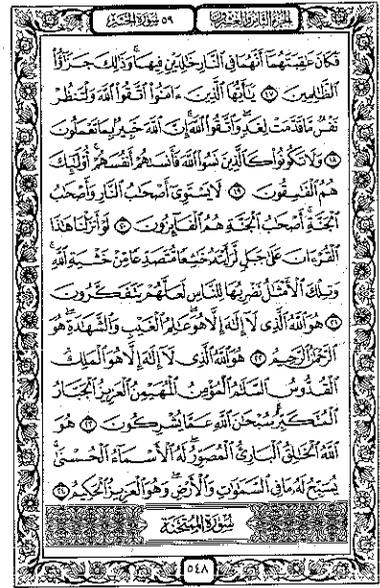
(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

(٤) في ب: عليه.

(٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته.

(٦) في ب: وهي.

(٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقدت على هجرهم قريش وعداوتهم.



المقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر
الضيء في هؤلاء المعينين له كـ ﴿كي
لا يكون دولة﴾ أي: مدوالة
واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه
لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء منه
ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه
شيء، وفي ذلك من الفساد ما
لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع
أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل
تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة
الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما
أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين
وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء
به الرسول يتعين على العباد الأخذ به
واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص
الرسول على حكم الشيء كنص الله
تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له
في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد
على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة
القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]،
وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم،
وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب
السرمدى، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله
شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى،
وآثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

والهجرة.

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو
كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف
الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا
بها على من سواهم، الإيثار، وهو
أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار
بمحاب النفس من الأموال وغيرها،
وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع
الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون
إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى
مقدمة على محبة شهوات النفس
ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري
الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه
بطعامه وطعام أهله وأولاده وبناتوا
جياً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار
محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من
خصال البخل والشح، ومن رزق
الإيثار فقد وقى شح نفسه ﴿ومن يؤق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾
ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها
الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى
العبد شح نفسه، سمحت نفسه
بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً
مقتاداً، منشراحاً بها صدره، وسمحت
نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان
محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه،
وسمحت نفسه ببذل الأموال في
سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك
يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم
يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير،
الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان^(١)
الصفان الفاضلان الزكيان هم
الصحابة الكرام والأئمة الأعلام،
الذين حازوا من السوابق والفضائل
والمناقب ما سبقوا به من بعدهم،
وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان
المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات
المتقين^(٢).

وحسب من بعدهم من الفضل أن
يسير خلفهم، ويأتهم بهداهم، ولهذا
ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم
وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا
من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال
الضيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون
بالإعانة، مستحقون لأن يجعل لهم،
وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا
المحوبات والمألوفات، من الديار
والأوطان والأحباب والخلان
والأموال، رغبة في الله ونصرة
لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء
هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى
إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم
الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من
ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهد
والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين
أنصار وهم الأوس والخزرج الذين
آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة
واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ،
ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا
دار الهجرة والإيمان حتى صارت
موتلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون،
ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه
المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان
حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار
الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر
الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً
فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا
القلوب بالعلم والإيمان والقرآن،
والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة
أنهم ﴿محببون من هاجر إليهم﴾ وهذا
لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه،
وأحبوا من نصر دينه.

﴿ولا يجلدون في صدورهم حاجة
مما أوتوا﴾ أي: لا يجلدون المهاجرين
على ما آتاهم الله من فضله وخصمهم به
من الفضائل والمناقب التي هم أهلها،
وهذا يدل على سلامة صدورهم،
وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل
من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر،
وأخبر أن الأنصار لا يجلدون في
صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على
أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار
ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك^(١)، أنكم - أيها المؤمنون - «أشد رهبة في صدورهم من الله» فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والنعاء والمنع.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾

مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ لا يقاتلونكم جميعاً﴾

أي: في حال الاجتماع «إلا في قري محصنة أو من وراء جدر» أي: لا يشنون لقتالكم^(٢) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القري، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، «بأسهم بينهم شديد» أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: «تحسبهم جميعاً» حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قلوبهم شتى﴾ أي:

متباغضة متفرقة مشتتة.

﴿ذلك﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم

بما ذكر «بأنهم قوم لا يعقلون» أي:

لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم ومواليتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: «لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً» أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعدلنا أو يخوننا، «وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون» في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: «لئن أخرجوا» من ديارهم جلاء ونفياً «لا يخرجون معهم» لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم فائتهم بوعدهم^(٣).

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ بل

يستولي عليهم الجين، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿ولئن نصرهم﴾ على الفرض

والتقدير^(٤) «لئولن الأدبار ثم

لا ينصرون» أي: ليحصل منهم

والأنصار «يقولون» على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان»

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين^(٥)، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره^(٦)، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالات والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: «سبقونا بالإيمان» دليل على المشاركة في الإيمان^(٧)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحمد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم يتجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والغيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعبادة ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحشم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواضع القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

خالدين فيها ﴿ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وذلك جزاء الظالمين ﴿ الذين اشتكروا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم ونحل عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجب الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سراً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضع لديه ولا يملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعونة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه [وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون]﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم يتفقهوا ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بذراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغفر عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهما﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأسررها على الأبدان، خالية من التكلف^(١) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجّد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرسوله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿العزیز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الجبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويعني الفقير، ﴿المتكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ويحاسب الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أتفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبدعية البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه^(٢) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، ويعموم رحمة التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس

(١) كذا في ب وفي أ: وأقلها تكلفاً.

(٢) في ب: غيره.



ولا يكون شيئاً إلا للحكمة ومصالحة.

تم تفسير سورة الحشر،
فله الحمد على ذلك،
والثقة والإحسان

تفسير سورة الممتحنة
[وهي] مدنية

﴿١ - ٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وأستنتهم بالسوء ودوا لو تكفروا * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون،



﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أي المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما عرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمت به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأثي دين، وأثي مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله^(٣)، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله^(٤)، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتبعون به رضاه.

﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيت وما أعلنتم﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: موالة الكافرين بعدما حذرهم الله منها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تبيجاً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إن يتفقوكم﴾ أي: يجدوكم، وتسنع لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم

النيبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعدد قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومنافض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وعدوكم أولياء تلتقون إليهم بالمودة﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعها النصره والموالة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يزيد به الخير، ويأمره به، ويحث عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقفة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق^(٢)، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبتنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون * ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش^(١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يبدأ عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطراب.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، ﴿الحميد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(٢) الإيمانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمة، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتنطوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعاها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملء إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنستعبد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١)، ﴿ربنا لا نجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإتهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فيعزتك^(٣) وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه

أعداء﴾ ظاهرين ﴿وبيسطوا إليكم أيديهم﴾ بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿والستهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفروا﴾ فإن هذا غاية ما يزيدون منكم.

فإن احتججتهم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم مواليتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أسوة حسنة﴾ أي: قدوة صالحة وأتمام ينفعكم، ﴿في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملء إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين وما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرنا بكم وبلاد﴾ أي: ظهر وبان ﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أبدأ﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانتقلت مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ آزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لا أستغفرن لك﴾ والخال أي لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾ لكنني أدعو ربي عسى أن لا أكون

(٢) في ب: والمودة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

(١) في ب: ما يزلنا إليك.

المقسطين ﴿١﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة^(١)، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدتهما مسلماً: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولن قام به، ﴿وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾ نهاكم الله ﴿أن تولوهم﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس يتول للمشركين، فلم ينهاكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الأدميين، وغيرهم.

﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً، صار^(٢) ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجموهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم

حكيم ﴿٣﴾ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فما قبتم فأتوا الذين ذهبتم أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴿٤﴾ ما كان صلح الحديدية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من إيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعهن إلى الكفار، ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهم ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عرضاً عنهن، ولا جناح خيتذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، وكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ وإذا نهى عن الإمساك

بعصمها^(٣)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿واسألوا ما أنفقتم﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم^(٤) إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم^(٥)، ﴿والله عليم حكيم﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٦).

وقوله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ بأن ذهبتم مرتدات ﴿فما قبتم فأتوا الذين ذهبتم أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهب زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنمة بدل ما أنفق^(٧).

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام. ﴿١٢﴾ ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «بايعة النساء» اللاتي [كن] يبأعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنمة بدل ما أنفق.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعصمها.

(٤) في ب: زوجاتهم.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي فهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتاكم منه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع (٨) في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاقد وإرهاب العدو وتشطيت بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يشسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرما من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم (٥)، فاحرموا خير الآخرة كما حرما.

[وقوله: ﴿كما يشس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر (٦)، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يشسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مسأخذ الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يشس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة المحتنة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذلل جميع الخلق (٧) له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السموات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثّل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبابعنه، والترنن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير (١)، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن (٢) يفرذن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري نساء الجاهلية الجلاء.

﴿ولا يزنين﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن (٣)، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمرعوف، ومن ذلك طاعتهن [لك] في النهي عن النباحة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء (٤) الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمين بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطيباً لحواظرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يشسوا من الآخرة كما يشس الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: بل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أبتين من شمس النهار، يجعل ساحراً بيتاً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له ببراهينه وبيئاته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراحتهم كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عين

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، وما يدل على صدقي، كوني ﴿مصداقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصداقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٤)، يصدق بالنبي السابق، ويمبشرون باللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بالبينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي:] ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذونني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الأكرام والإعظام، والانتقاد^(١) بأزامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجرأة والزيف عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدتهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زينهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يلبق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا^(٢) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظمناً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(٣) والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٦-٩﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

الشمس بفيه^(١) ليظفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال، **«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق»** أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

«ودين الحق» أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهي سلامة من الشر والفساد^(٢) فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

«ليظفئه على الدين كله» أي:

ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلججه ويلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم يتفعهم

ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وأخرهم.

﴿١٠-١٤﴾ **«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين * يا أيها الذين آمنوا كونوا**

أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال **«تؤمنون بالله ورسوله»**

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٣)، فلهذا قال: **«وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم»** بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقوا ما تيسر من

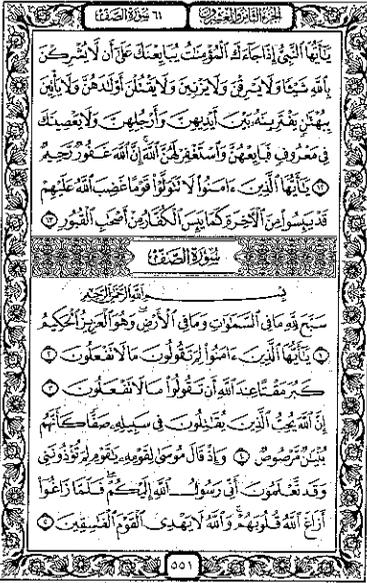
(١) في ب: ومثلهم كمثل من يفتح عين الشمس.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطبها سبب الشر والفساد.

(٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله.

(٤) في ب: وإن كان.

(٥) في ب: والخير الأخرى بالفوز.



أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو^(٤) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه **«خير لكم إن كنتم تعلمون»** فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر واتسراحه.

وفي الآخرة الفوز^(٥) بشواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: **«يغفر لكم ذنوبكم»** وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

«ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار» أي: من تحت مساكنها [أو قصورها] وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، **«ومسكن طيبة في جنات عدن»** أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل

في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعددها الله للمجاهدين في سبيله»^(٥)

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [أي: بالاقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته]^(٦) تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده ونايذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]. ثم هيج الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً^(٧)، من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَأَمَّنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فلم يتقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قويناهم ونصرناهم عليهم.

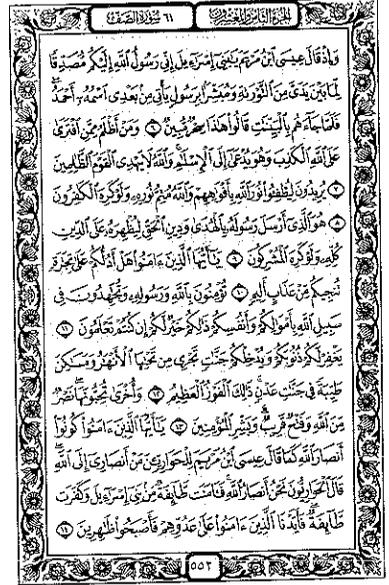
﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم قاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد

الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من حملتها، أن الله لو رأى الخلائق الجنة حين خلقها^(٨)، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنامهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وسرورها^(٩) بترجها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَى مَحْبُوتَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى محبوتها، وهي: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد]^(١٠) فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ



علين، يترء أهم أهل الجنة كما يترء الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يندر كوه حتى يتروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه وفوق ما يشي عليه عباده^(١١)، وتبارك

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

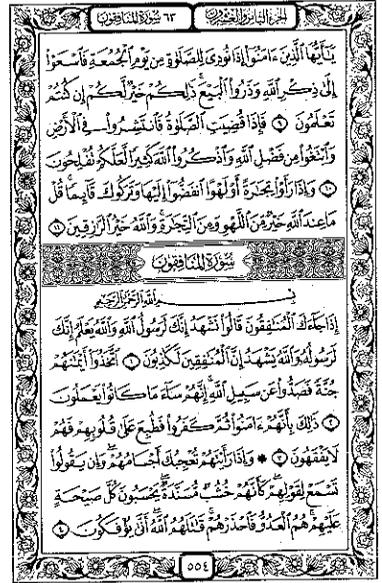
(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسلاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعددها عليّ يا رسول الله، فأعددها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منياً.



من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود^(١)، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحججة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: لا يرشدكم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله: ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن آمنوه، وكذبهم^(٢) إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون بطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون^(٣) منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقىهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الأجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿٩ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ يأمر تعالى عبادة المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العُدُو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿وذروا البيع﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على

الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، وتركوك قائماً﴾ تحطّب الناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يحطّب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يحطّب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، ﴿قل ما عند الله﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت خير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة: منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها. ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان^(٤) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له. ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به. ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين^(١) يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإصابت لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،
ولله الحمد والثناء^(٢)

تفسير سورة المنافقين^(٣)
مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكْ أَجْسَامَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْهَبْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصَلُّونَ وَهُمْ سَكَتٌ بِرُءُوسِهِمْ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ يُنْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة، واعتز

الإسلام بها^(٤)، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرن الإيمان ويبطنون الكفر، ليقتي جاههم، وتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يجذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ على وجه الكذب: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿بِهِ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ﴾ لا يثبتون على الإيمان.

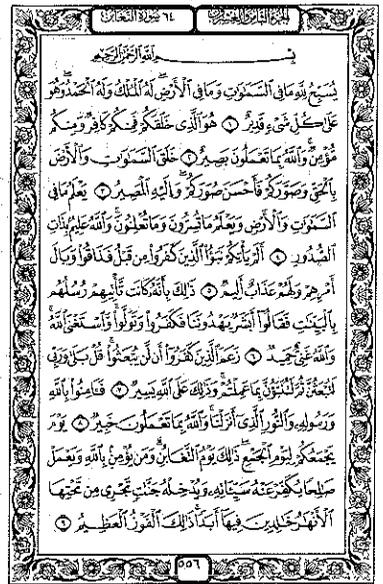
﴿بِل﴾ آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ﴿بِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبداً، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعرود بمصالحهم، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكْ أَجْسَامَهُمْ﴾ من رواتها ونضارتها، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: من حسن منطقهم تستدل لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح، شيء، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ



صيحة عليهم﴾. وذلك لجنبتهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم^(٥) يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء ﴿هُمُ الْعُدُو﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، ﴿فَاذْهَبْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبينت أدلته واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ يُصَلُّونَ﴾ عن الحق بغضاً له ﴿وَهُمْ سَكَتٌ بِرُءُوسِهِمْ﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.
(٢) في ب: بسم الله وعونه والحمد لله رب العالمين.
(٣) كذا في النسخين.
(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.
(٥) وفي ب: وضعف قلوبهم وريبها.



خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور^(١)، ولهذا قال الله رداً لقولهم: ﴿وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ﴿وَلَكِنِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم.

﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كندر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم^(٢) وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: «غذ كلبك يأكلك»^(٣).

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعززون، وأن رسول الله ومن معه^(٤) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهمذا قال [تعالى]: «والله العزة ولرسوله وللمؤمنين» فهم الأعداء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. ﴿وَلَكِنِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعداء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩-١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وأنفقوا من ما رزقتاكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير

بما تعملون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وبنهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن حبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على حبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والتعيم القيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات^(٥)، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء^(٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم^(٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي بحال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لأندارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصْدُقُ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتحمي، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ المحتوم لها ﴿وَاللَّهُ

سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

﴿٧-٨﴾ ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُسُوا لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وإئتلافهم، ومساواعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد:

﴿لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُسُوا﴾ فأنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجائب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على

(٧) في ب، مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه.....

(٤) في ب: ومن اتبعه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.

(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

(١) في ب: بالحقائق.

(٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.

(٣) في ب: سنن كلبك.

خبير بما تعملون ﴿ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،
ولله الحمد

تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْبَحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرَوْنَ وَمَا تَعْلَنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسييح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسده من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريد، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فأيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خلق السماوات

والأرض﴾ أي: أجمعهما، [وجمع] ما فيهما فأحسن خلقهما، ﴿بالحق﴾ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً. ﴿وإليه المصير﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه^(١)، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبائيا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥-٦﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وِبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَغْنَىٰ هُمِذًا لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مِنْ أَوْصَافِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، مَا بِهِ يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ، وَيَبْذُلُ الْجُهِدَ فِي مَرْضَاتِهِ، وَتُجْتَنَّبُ مَسَاحَطُهُ، أَخْبِرَ بِمَا فَعَلَ بِالْأُمَّمِ السَّابِقِينَ، وَالْقُرُونِ الْمَاضِينَ، الَّذِينَ لَمْ تَزَلْ أُنْبَأُوْهُمْ يَتَحَدَّثُ بِهَا الْمُتَأَخَّرُونَ، وَيُخْبِرُ بِهَا الصَّادِقُونَ، وَأَنْتُمْ حِينَ جَاءَتْكُمْ الرُّسُلُ^(٢) بِالْحَقِّ، كَذَّبْتُمْ وَعَانَدْتُمْ، فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ وِبَالَ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَخْرَاهُمْ فِيهَا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فِي [الدَّارِ] الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ السَّبَبَ فِي هَذِهِ الْعَقُوبَةِ، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ﴾ النِّكَالَ وَالرُّوْبَالَ، الَّذِي أَحْلَلْنَاهُ بِهِمْ

بأنهم ﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالآيات الواضحات، الذالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: ﴿أبشر يهدوننا﴾ أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي: شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلا للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها ﴿فكفروا﴾ بالله ﴿وتولوا﴾ عن طاعة الله، ﴿واستغنى الله﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً، ﴿والله غني حميد﴾ أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وذالك على الله يسير﴾ فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت^(٣) على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

﴿٨﴾ ﴿فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

(٢) في ب: رسلهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا.

(١) في ب: أولاكم.

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه^(١)، وسماء الله نوراً، فإن النور^(٢) ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي^(٣)، «والله بما تعملون خبير» فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿٩ - ١٠﴾ «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها ويئس المصير» يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينتقم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرُفَعُ أقوامٌ إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوامٌ إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلموه أيام حياتهم، ولهذا قال: «ذلك يوم التغابن».

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغيب المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،

وأهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: «ومن يؤمن بالله» [أي: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ويعمل صالحاً] من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار» فيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، «خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» والذين كفروا وكذبوا بآياتنا» أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها ويئس المصير﴾ لأنها جمعت كل بؤس وشدّة، وشقاء وعذاب.

﴿١١ - ١٣﴾ «ما أصاب من مصيبة إلا ياذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم فإنما على رسولنا البلاغ المبين * الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون» يقول تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا ياذن الله» وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد في قضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله

قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن^(٤) لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٥) والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب^(٦)، كما قال تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يتخذ، ويكلمه الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قيل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من^(٧) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام ببلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٨)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمن ينبتهم الله^(٩) في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: «يبث الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: «وأطيعوا الله وأطيعوا

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يبث المؤمنين.

(٤) في ب: ممن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

(١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وكتابه.

(٢) في ب: لأن النور.

(٣) في ب: النواهي.

الرسول ﷺ أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح، ﴿فإن توليتهم﴾ [أي] عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح وتقوم ^(١) به عليكم الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: فليعتمدوا ^(٢) عليه في كل أمر ناهم، وفيما يزيدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك ^(٣) إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويشق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل ^(٤).

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا تغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴿هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاعتراض بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر عن هذا وصفه ^(٥)، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانتقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي ^(٦)، ورجعهم في امتثال أوامره، وتقديم

مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالخذر منهم، والصفح عنهم والعتو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا تغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ لأن الجزء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يجب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ إن تقررنا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾ يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد ^(٧) ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله: ﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرع لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿وأطيعوا﴾ الله ورسوله في جميع

وَأُولَئِكَ كَفَرُوا لِكَلِمَاتِكُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ الَّذِينَ كَانُوا يُوقِنُونَ بِالنَّبِيِّ الَّذِي هُوَ عَلِيمٌ بِالْغُيُوبِ وَاللَّهُ أَطِيعُوا الرَّسُولَ إِن قَرَّبْتُمْ إِلَيْهِ شَيْئاً فَذَرُوهُ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ لَا تَجْعَلُوا أَسْبَابَ الْكَفَرِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾

سورة الطلاق
٥٥٧

أمروركم، ﴿وأنفقوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشحة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مريض الله

(٦) في ب: التي فيها محذور شرعي.
(٧) في ب: وقيد.

(٤) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً.
(٥) في ب: هذه صفته.

(١) في ب: بلاغاً بيناً واضحاً فتقوم.
(٢) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.
(٣) كذا في ب، وفي أ: لذلك.

للفتقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، ﴿وتلك حدود الله﴾ [أي:] التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمتها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرجعة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

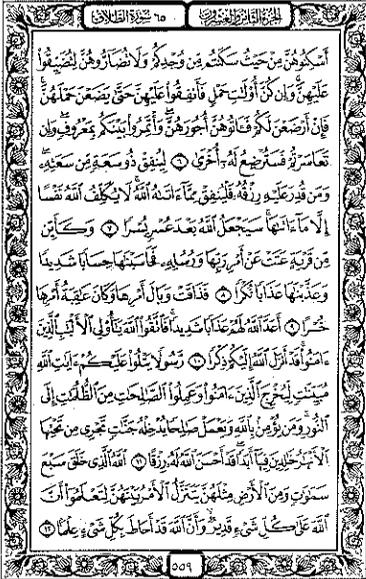
﴿الشهادة لله﴾ أي: انتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده^(١)، ولا تراعوا بها قريباً لقرابته، ولا صاحباً لمحبته، ﴿ذلكم﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿بوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لأخوته من الأعمال الصالحة ما تمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن^(٢) من اتقاه في الطلاق وغيره، فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة زوجها من زوجها. وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفرق. ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ أي: على وجه المعاشرة [الخشنة]، والصحة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والخبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ أي: فراراً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه^(٤)، فإنه لا يضيئ عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٥)، إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

﴿وأشهدوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذوي عدل منكم﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه. ﴿وأقيموا﴾ أيها الشهداء

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والأصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه



المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يمكنه استدارتها^(٦) والخروج منها.

وقوله: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: في أمر دينه ودينه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويشق به في تسهيل ذلك ﴿فهو حسبه﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزیز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلماذا قال تعالى: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿٤٥ - ٥﴾ ﴿واللاني يثن من المحيض من نساكنم إن ارتبتم فعدتمن

- (١) في ب: وجه الله تعالى.
- (٢) في ب: فإن الإيمان بالله، واليوم الآخر يوجب لصاحبه.
- (٣) في ب: ووعد من.
- (٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه.
- (٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح.
- (٦) في ب: لا يتمكن من استدارتها.



ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف، **﴿وإن كن﴾** أي: المطلقات **﴿أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن﴾** وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضمن حملهن^(٣)، فإذا وضع حملهن، فيما أن يرضعن أولادهن أو لا، **﴿فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن﴾** المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل، **﴿واتمروا بينكم بمعروف﴾** أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرها الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصالحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه^(٤) من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، وما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما^(٥) ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير^(٦).

﴿٦ - ٧﴾ **﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾** لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً^(٧) تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان^(٨) بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره، **﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾** أي: لا تضاروهن عند سكاتهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكاتهن، على وجه لا يحصل عليهن

أجلهن^(٩) أي: عدتهن **﴿أن يضمن حملهن﴾** أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حيثئذ بالأشهر ولا غيرها، **﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾** أي: من اتقى الله تعالى، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير. **﴿ذلك﴾** أي: [الحكم الذي بينه الله لكم] **﴿أمر الله أنزله إليكم﴾** لتمشوا عليه، [وتأتمروا] وتقوموا به وتعظموه.

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿٦ - ٧﴾ **﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾** لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً^(٧) تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان^(٨) بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره، **﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾** أي: لا تضاروهن عند سكاتهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكاتهن، على وجه لا يحصل عليهن

ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضمن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً * لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يُرج رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿واللاتي لم يحضن﴾ أي: الصغار اللاتي لم يأتهن الحيض بعد، والبالغات^(١) اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللاتي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾**. [وقوله]: **﴿وأولات الأحمال**

(١) في ب: أو البالغات.

(٢) في ب: إسكانهن.

(٣) في ب: إلى وضع الحمل.

(٤) في ب: فيها.

(٥) في ب: بينهما.

(٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.

(٧) في ب: والمنازعة.

(٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.

(٩) في ب: فترضه له أخرى.

ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه^(١)، عيّن تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن^(٢) أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته، ثم قدر تعالى النفقة، بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لينفق ذو سعة من سمته﴾ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيق عليه ﴿فلينفق بما آتاه الله﴾ من الرزق. ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً.

﴿٨-١١﴾ ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً﴾ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً * يخبر تعالى عن إهلاك الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم^(٣) شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من

العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به]، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ من الواجبات والمستحبات. ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

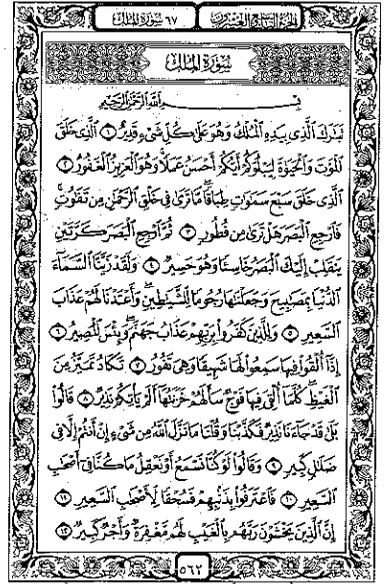
﴿١٢﴾ ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد وعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبرها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبادته وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون [ثم تفسيرها والحمد لله]

بِأَيِّهَا الرَّبِّ آمَنُوا سَوَاءً أَلَمَّ اللَّهُ تَوْبَةً صَوْحًا عَسَىٰ رَبُّكَ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ نُورًا مِّن سَمَاءٍ وَبَدَّلَ لَكُمْ جَنَّتَ جَنَّتَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالرَّبُّ لَآتٍ بِمَا كُنْتُمْ كُفِرْتُمْ فَمَا تَعْبَهُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَئِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَتَحِبُّوا إِلَيْهِ فَتَمُنُّوا بِمَا آتَىٰكُمْ فَذَلِكَ سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَالرَّبُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠﴾

تفسير سورة التحريم [وهي] مدنية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْمِلَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَيَّنَّاتُ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَن أُنْبِئَكَ هَذَا قَالَ نَبِيُّ الْعَلِيمِ الْخَبِيرُ * إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سرية «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لحاظ بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات [يا أيها النبي] أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة [لم تحرم ما أحل الله لك] من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

(١) في ب: لا خروج له منه. (٢) في ب: يتمكن. (٣) في ب: تنعن عنهم.



﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه^(٥)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوته مخذول^(٦)، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يرضق^(٧) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقى^(٨)، ويبدله الله أزواجاً خيراً منك، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تائبات﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﴿بعضهن﴾ فيما يحب، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا

أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومزيبكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿وهو المعلم الحكيم﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جمع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله: ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تحبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرّفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كراماً منه ﷺ وحلماً، ف ﴿قالت﴾ له: ﴿من أنبأك هذا﴾ الخبر الذي لم يخرج من؟ ﴿قال نبأني المعلم الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله: ﴿إن تعوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما^(٩) قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تعاونا^(١٠) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن،

﴿تبتغي﴾ بذلك التحريم ﴿مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾^(١١) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة^(١٢) بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿كفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلقتن﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف ميمناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث

(١) في ب: فقال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين.

(٢) في ب: وما به تتكفر.

(٣) في ب: أن قلوبكما.

(٤) في ب: تتعاون.

(٥) في ب: أنصاره.

(٦) في ب: وغيره أن يناوته فهو مخذول.

(٧) في ب: لا يرضق.

(٨) في ب: سيجد.

ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و] على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ * وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ * هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، لبيان لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا﴾ * أي: المرأتان ﴿تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ * وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فخانتاهما﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والقراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

لا تعتذروا اليوم إنما تحزون ما كنتم تعملون﴾ * أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه].

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا﴾ إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يحزني الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسمى بين أيديهم وبأييمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ * قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسمى المؤمنون يوم القيامة بتور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي تعطى المنافقين، ويسألون الله، أن يتم ﴿١﴾ لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما ﴿٢﴾ معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه ﴿٨﴾ والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ * يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحججة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة ﴿٩﴾، وإبطال

الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نساته المذكورات معه دل على أنه خير النساء وأكملهن.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ * أي: يا من آمن بالله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

﴿٧﴾ ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بالزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، وتهيئة اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد]، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل ﴿١﴾ تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ * كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعدون من دون الله﴾ * حصب جهنم أنتم لها واردون. ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ * أي: غليظة أخلاقهم، عظيم ﴿٢﴾ انتهارهم، يفرعون بأصواتهم، ويخيفون ﴿٣﴾ بمرأهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون ﴿٤﴾ فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب ﴿٥﴾ وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ * وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، واتقياهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يا أيها الذين كفروا﴾

(١) في ب: وفيمن يدخل.

(٢) في ب: شديد.

(٣) في ب: ويزعجون.

(٤) في ب: ويفذون.

(٥) في ب: بالعذاب.

(٦) في ب: يتم.

(٧) في ب: بما.

(٨) في ب: إلا وجه الله.

(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحججة

والموعظة الحسنة.

ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لوها وهيتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أركانها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعده إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال:

﴿١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴿

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، عل اختلافها في النور والضياء، فإنه لو لا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

هي كمال العلم والعمل.

تمت والله الحمد

تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يهيئهم ثم يميتهم؛ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن^(١) الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيتقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن اتقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وابتدأ له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنبأوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت

بنياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن امرأتهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران؛ وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله:] ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكامل ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿نفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم [عليه السلام]، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: الطيبين لله، المداومين على طاعته^(١) بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال الحمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصدقية:

(١) في ب: أي المداومين على

نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان تكبير ﴿٢٠﴾ هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنعكس وحلول العقوبة، فقال: ﴿أمنتم من في السماء﴾ وهو الله تعالى، العلي على خلقه.

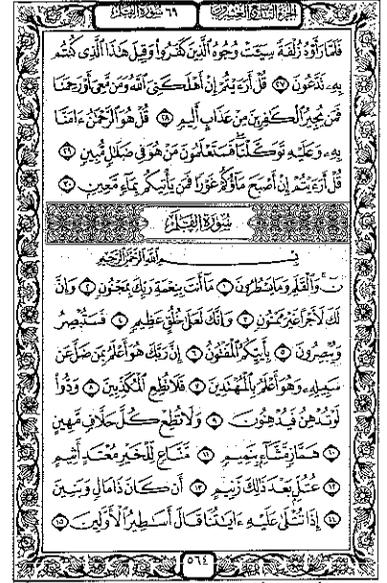
﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور﴾ يقول تعالى للعتاة التافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر العز المدل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبده، لم يتفعوه مثقال ذرة، على أي عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفه.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدر على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازي المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لجوا﴾ أي: استمروا ﴿في عتو﴾ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿ونفور﴾ أي: شرود عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انكسر قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ قل هو



وأخفى ﴿ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبدته ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذلّلها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغت يبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف

(١) في ب: حتى تهلكوا وتلفوا.

(٢) في ب: الأمد.

(٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.



براءة نبيه محمد ﷺ عما نسب إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون^(١)، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقسام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعاده في الآخرة، فقال: ﴿وإن لك لأجرًا﴾ أي: عظيمًا، كما يفيد التنكير، ﴿غير ممنون﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿وإنك لعلل خلق عظيم﴾ أي: عالياً به، مستعلياً بخلقك الذي منّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرت به أم المؤمنين [عائشة - رضي الله عنها -] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾، فيما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم

الأخلاق، و [الآيات] الحائثات على الخلق العظيم^(٢)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لنا، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعه، قاضياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سأله، لا يجرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يواخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿فستبصر وبيصرون﴾ أي: بكم المفتون﴾ وقد تبين أنه أهلى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس]^(٣) للنباس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلواهم عن سبيله، وكفى يعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨-١٦﴾ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ ولا تطع كل حلافٍ مهين﴾ هـماز مشاء بنميم﴾ مناع للخير معتد أثيم﴾ عتل بعد ذلك زنيماً﴾ أن كان ذا مال وينين﴾ إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير

الاولين﴾ سنسمة على الخرطوم﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مُقَدِّمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿ودوا﴾ أي: المشركون ﴿لو تدهن﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فيدهنون﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يصاده، وعيب ما يناقضه، ﴿ولا تطع كل حلافٍ﴾ أي: كثير الخلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو ﴿مهين﴾ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له همة^(٤) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة. ﴿هـماز﴾ أي: كثير العيب [للناس] والظعن فيهم^(٥)، بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿مشاء بنميم﴾ أي: يمشي بين الناس بالتمنيمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصص الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿مناع للخير﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿معتد﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض^(٦) ﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عتل بعد ذلك﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زنيماً﴾ أي: دعي، ليس له أصل و [لا] مادة

(٦) في ب: يظلمهم في دمائهم

(٤) في ب: ليس له رغبة.

(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.

(١) في ب: عنه ذلك.

(٢) في ب: على كل خلق جميل.

(٣) زيادة من هاشم ب.

فلولا استثنيتم فقلتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا: ﴿سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينعمهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتسلاومون﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي:

متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه مؤلّه.

قال تعالى مبيناً^(٤) ما وقع: ﴿كذلك العذاب﴾ [أي: [الدينوري لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أخرج ما يكون إليه.

﴿وللعذاب الآخرة أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٥).

﴿٣٤ - ٤١﴾ ﴿إن للمؤمنين عند ربهم جنات النعيم﴾ * أفنجد المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه ما تحيرون * أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم ما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم * أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين للكفر والمعاصي، من أنواع

اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأبغمت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعه منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ فأبادهما وأتلفها ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثكم إن كنتم صابرين﴾ فانطلقوا قاصدين له^(٣) ﴿وهم يتخافتون﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: ﴿لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي: يكرروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. ﴿وغدوا﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿على حرث قادرين﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، ﴿فلما رأوها﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قالوا﴾ من الحيرة والانزعاج. ﴿إننا لضالون﴾ [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ منها، فعرفوا حيثذ أنه عقوبة، ف ﴿قال أوسطهم﴾ أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: ﴿لم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقيح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زمة أي: علامة في الشر يعرف بها. وحاصل هذا، أن الله تعالى نبى عن طاعة كل خلاف كذاب، خسيس النفس، سييء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والظعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿أن كان ذا مال وبين * إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي: لأجل كثرة مثاله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وأخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم تواعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطوم^(١) في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿إننا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ إلى آخر القصة يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلتهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون^(٢)، فاغترارهم بذلك نظير

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب

ويحرم الثواب.

التعظيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكيمته تعال لا تقتضي أن يجعل المسلمين^(١) القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بأياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه^(٢) فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتحيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: أئيم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها^(٣).

﴿٤٣ - ٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون* أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من الغلاقل [والزلازل] والأهوال ما لا يدخل تحت الرهق، وأتى البارز لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيث يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون لیسجدوا فلا يقدرّون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ - ٥٢﴾ ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * وأملی لهم إن كيدي متين * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمه من ربه لنيذ بالعراء وهو مذموم * فاجتبه ربه فجعله من الصالحين * وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين * أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ فتمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ^(٤).

﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يتقل عليهم.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والخزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والالتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحسار في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أئيم يلقون لكي تخف بهم، فوعدت القرعة عليه، فالتقته الحوت وهو مليح، [وقوله] ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾.

فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركه نعمه من ربه لنيذ

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

صرعى ﴿أى: هلكنى موتى﴾، ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿أى: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿٩-١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ ﴿فمصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ ﴿إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية﴾ ﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ ﴿أى: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البيئات، ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿والمؤتفكات﴾ ﴿أى: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا﴾ ﴿بالخاطئة﴾ ﴿أى: بالفعلة الطاغية، وهي الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٨) والفسوق، ﴿فمصوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أى: كل من هؤلاء كذب (٩) الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع ﴿أخذة رابية﴾ ﴿أى: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى الماء على وجه الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتنن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحدوا الله واشكروا الذي نجاهم

خاوية ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿الحاققة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كثره من قوله: ﴿الحاققة﴾ ﴿ما الحاققة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاققة﴾ فإن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] (٣)، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٤) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأحوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحدته]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر (٥) به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العجل (٦). ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ ﴿أى: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ [أى: عتت على خزائنا، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾ ﴿أى: نخسنا وشرأ فظيماً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فترى القوم فيها

بالعراء﴾ ﴿أى: لطرخ في العراء، وهي الأرض الخالية وهو مذموم﴾ ولكن الله (١) تخمذه برحمته، فنبذ وهو مدح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتنباه ربه﴾ ﴿أى: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعل من الصالحين﴾ ﴿أى: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة﴾ ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أى: يصيبوه (٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقنهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ ﴿أى: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم وديانهم. تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاققة وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحاققة﴾ ﴿ما الحاققة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاققة﴾ ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أى: يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(٧) في ب: هو.

(٨) في ب: المعاصي.

(٩) في ب: كذبوا.

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومجة أن يطعم الخلق على ما مَنَّ اللهُ عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ أي: دونكم كتابي فاقرووه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما مَنَّ اللهُ به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومكتئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهوي، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منقصر.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة^(١) - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحب، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لتنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ - ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه * خذوه فغلوه * ثم

واضحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتبي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذلك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهأها وأضعفها.

﴿والمملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم^(٢)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً عُراةً عُراً، في أرض مستوية، يسمعونهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيامهم، تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيدهِ، ولهذا قال: ﴿لنجعلها﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكرة﴾ تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من أمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكر بأصله.

وقوله: ﴿وتعينا أذن واعي﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله^(٣).

﴿١٣ - ١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وحلت الأرض والجال فذكرنا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ لما ذكر ما فعله تعالى بالكاذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجال فذكرنا دكة واحدة﴾ أي: فتنتت الجبال

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك. في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حيم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون * هؤلاء أهل الشقاء، يُعْطَوْنَ كتب أعمالهم السيئة^(١) بشمالهم تمييزاً لهم وخزيًا، وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من لهم والغم والحزى^(٢): ﴿يا ليتني لم أوت كتابي﴾ لأنه يبشر بدخول النار، والخسارة الأبدية، ﴿ولم أدر ما حسابي﴾ أي: ليتني كنت نسياً منسياً، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ أي: يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله^(٣)، فيقول: ﴿ما أغنى عني مالي﴾ أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

﴿هلك عني سلطاني﴾ أي: ذهب واضمححل، فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة^(٤)، ولا الجناه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفانت بسببته المشاجر والأرباح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خذوه فقلوه﴾ أي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أي: قلبوه على جرها ولهبها، ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فاسلكوه﴾ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال

يعذب هذا العذاب الفظيع، فيثن العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾ بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، راداً ما جاؤوا به من الحق، ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق، بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا، ﴿فليس له اليوم ها هنا﴾ أي: يوم القيامة ﴿حميم﴾ أي: قريب أو صديق يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ﴿ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع﴾.

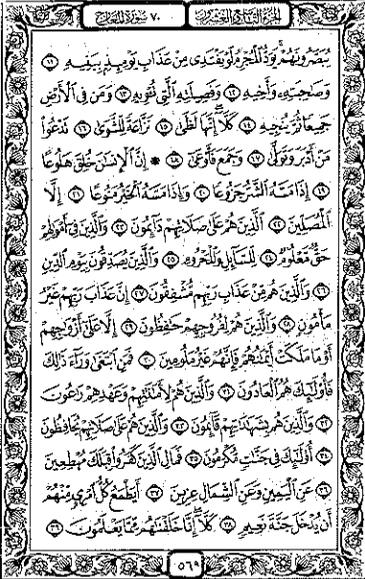
وليس له طعام إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، وتتن الريح، وقبح الطعم ومرارته لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿الإخشاظون﴾ الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم^(٥)، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿٣٨-٥٢﴾ ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من

وَجَاءَ يُعِزُّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُنزِلُ السَّلْطَانَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ السَّلْطَانَ إِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّمَا طَلَّقَ اللَّهُ تَحْتَهُ فِي الْحَاوِيَةِ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤١﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمَا تَرَكُوا فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ آلِهِمْ مِيرَاثَهُمْ وَمَا يَسْتَفِئُونَ فِيهَا مِن غَرَسَاتٍ وَأَشِيتٍ وَبُنْيَانٍ أَكِيْفٍ ﴿٤٧﴾

رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فإنه لئذ لذكره للممتقين * وإننا لتعلم أن منكم مكذبين * وإنه لخرسة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * نسيح باسم ربك العظيم﴾ أقسم تعال بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل^(١) في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعال، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك، أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول

(١) في ب: كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة.
 (٢) في ب: الحزن.
 (٣) في ب: ولا ينفعه لو اقتدى به من العذاب.
 (٤) في ب: فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العدد.
 (٥) في ب: وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم.
 (٦) في ب: بل دخل.



إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فثَّحِّي رِها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الشاء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح^(١)، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والحنفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها، ما حُدِّ لها، وما تنتهي إليه من الملا الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتبديره، العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمة وبره ورزقه^(٢)، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدره حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وأدوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يُظهر لعباده في يوم القيامة، من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة،

بالتدابير الإلهية، والشؤون في الخليفة^(٣). في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً، **إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً** الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقرة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً، لأنه رقيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب. ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿٨ - ١٨﴾ **يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه * وصاحبه وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميماً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى**

أي: **يوم** القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ **تكون السماء كالمهل** وهو الرصاص المذاب، من تشققها، وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿٩﴾ **وتكون الجبال كالعهن** وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباءً منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد

الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقاً، أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: **ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم** أي: يشاهد الحميم، وهو

القريب حيمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حيمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا ييمه إلا نفسه، **يود المجرم** الذي حق عليه العذاب **لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه * وصاحبه * أي: زوجته * وأخيه * وفصيلته** أي: قرابته **التي تؤويه** أي: التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم يتخلى به ينفعه ذلك.

﴿كلا﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون^(٤)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

(١) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٢) في ب: وإحسانه.

(٣) في ب: والشؤون الربانية.

(٤) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك.

إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم﴾ أي: سرياتهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرث، ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله، ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿والذين هم بشهاداتهم قانمون﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها^(٣) وجه الله.

قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾.

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ بمداومتها على أكمل وجوهها، ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿في جنات مكرمون﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والتعظيم المقيم ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

مكرمون﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع. وفسر الهلوع بأنه: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء. ﴿إلا المصلين﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

وقوله: [في وصفهم] ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص. ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ من زكاة وصدقة ﴿للسائل﴾ الذي يتعرض للسؤال، ﴿والمحروم﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يظن له، فيتصدق عليه.

﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين، يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقرهم من عذاب الله. ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي: هو العذاب الذي يجشى ويحذر.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ فلا يظؤون بها وطأ محرماً، من زنى، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر



﴿إنها لظى﴾ نزاعة للشوى﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(١).

﴿تدعو﴾ إليها^(٢) ﴿من أدبر وتولى﴾ وجمع فأوعى﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأرعاها، فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب.

﴿١٩ - ٣٥﴾ ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قانمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات

(٢) في ب: تدعو إلى نفسها.

(٣) في ب: القصد بإقامتها.

(١) في ب: أي: النار التي تلتظي تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة.

تعالى أنه أرسله^(٥) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً، فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: **«يا قوم إني لكم نذير مبين»** أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به^(٦)، فقال: **«أن اعبدوا الله واتقوه»** وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالشواب، **«ويؤخركم إلى أجل مسمى»** أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر [البقاء في الدنيا] بقضاء الله وقدره [إلى وقت محدود]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: **«إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون»** لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا اتقوا لأمره، فقال شاكياً لربه: **«رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائي إلا فراراً»** أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، **«وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم»** أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا، غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق، **«جعلوا أصابعهم في آذانهم»** حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، **«واستغشوا ثيابهم»** أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له، **«وأصروا»** على كفرهم وشركهم، **«واستكبروا»** على

والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: **«وننشكهم فيما لا تعلمون»** **«وما نحن بمسبوقين»** أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله **«فذرهم يخوضوا ويلعبوا»** أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا **«حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون»** فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٣) الذي يوعدون، فقال: **«يوم يخرجون من الأجداث»** أي: القبور، **«سراعاً»** مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها **«كأنهم إلى نصب يوفضون»** أي: [كأنهم إلى علم] يؤمنون ويسرعون^(٤) أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام، بين يدي رب العالمين. **«خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة»** وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل، هو يومهم **«الذي كانوا يوعدون»** ولا بد من الوفاء بوعد الله [تمت والحمد لله].

تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

﴿١ - ٢٨﴾ **«بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك»** إلى آخر السورة لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، فأخبر

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم^(١)، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

﴿٣٦ - ٣٩﴾ **«فمال الذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين * أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم * كلا إنا خلقناهم مما يعلمون»** يقول تعالى، مبيناً اغترار الكافرين: **«فمال الذين كفروا قبلك مهطعين»** أي: مسرعين **«عن اليمين وعن الشمال عزين»** أي: قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة^(٢)، كل منهم بما لديه فرح.

«أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم» بأي: سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجحود برب العالمين، ولهذا قال: **«كلا»** [أي:] ليس الأمر بأمانيتهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم.

«إنا خلقناهم مما يعلمون» أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٤٠ - ٤٤﴾ **«فلا أقسم برب المشارق والمغرب إنا لقادرون * على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين * فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون * يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون»** هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغرب، للشمس والقمر

(١) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٢) في ب: متنوعة.

(٣) في ب: اليوم.

(٤) في ب: ويقصدون.

(٥) في ب: أنه أرسل نوحاً.

(٦) في ب: وأمرهم بأصل ذلك.

الحق **﴿استكباراً﴾** فشرّهم ازداد، وخيرهم بُعد.

﴿ثم إن دعوتهم جهاراً﴾ أي: بسمع منهم كلهم، **﴿ثم إن أعلنت لهم وأسرت لهم إسراراً﴾** كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود^(١)، **﴿فقلت استغفروا ربكم﴾** أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إنه كان غفاراً﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبتهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب، واندفاع العقاب.

ورغبتهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: **﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** أي: مطراً متتابعاً، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، **﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿مال لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: لا تخافون الله عظمة، وليس الله عندكم قدر، **﴿وقد خلقكم أطواراً﴾**

أي: خلقاً [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق^(٢)، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضاً عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: **﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾** أي:

كل سماء فوق الأخرى، **﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾** لأهل الأرض **﴿وجعل الشمس سراجاً﴾**.

فيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى، **﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾** حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، **﴿ثم يعيدكم فيها﴾** عند الموت **﴿ويخرجكم إخراجاً﴾** للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور، **﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾** أي: مسبوطة مهيأة للانتفاع بها، **﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾** فولوا أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

﴿قال نوح﴾ شاكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد: **﴿إنهم عصوني﴾** فيما أمرتهم به **﴿واتبعوا من لم يزيده ماله وولده إلا خساراً﴾** أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملام والأشراف الذين لم تزدتهم أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً أي: هلاكاً وتفويتاً للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! **﴿ومكروا مكراً كُبّاراً﴾** أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

﴿وقالوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: **﴿لا تذرنا آلهتكم﴾** فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم، فقالوا: **﴿ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾** وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا

رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة^(٣).

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق، **﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾** أي: لو كان ضلالهم عند دعوتهم إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ في اليم الذي أحاط بهم **﴿فأدخلوا ناراً﴾** فذهبت أجسادهم في الغرق، وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويحذرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، **﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾** ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك، فقال: **﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾** أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته^(٤)، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿رب اغفر لي ولوالدي ولن أدخل

(١) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

(٢) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٣) في ب: هذه الأصنام.

(٤) في ب: فلهذا استجاب الله له دعوته.

بيتي مؤمناً^(١) خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: **«وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَلَا تَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا»** أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

تفسير سورة قل أوحى إلي [وهي] مكية

﴿١ - ٢﴾ **«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً * يهدي إلى الرشد فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً»** أي: **«قل»** يا أيها الرسول للناس **«أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن»** صرفهم الله [إلى رسوله] لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذراً^(١) لقومهم.

وأمر الله رسوله، أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، **«فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً»** أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿٢﴾ **«يهدي إلى الرشد»** والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، **«فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً»** فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، [المتضمنة لترك الشر] وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد

واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، الثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والالف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعيواض الكثيرة، **«وأنه تعالى جد ربنا»** أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، **«ما اتخذ صاحبة ولا ولداً»** فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً، لأن له العظمة الكمال^(٢) في كل صفة كمال، واتخاذ صاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى.

«وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً» أي: قولاً جبانراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهوه وضعف عقله، وإلا فلو كان رزياً مطمئناً لعرف كيف يقول.

﴿٥﴾ **«وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً»** أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة^(٣) والرؤساء من الجن والإنس، فأحسننا بهم الظن، وظنناهم^(٤) لا يتجرؤون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(٥)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٦) يعارض الهدى.

﴿٦﴾ **«وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً»** أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزع^(٧)، فزاد الإنس الجن رهقاً أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس

(١) في ب: منذرين لقومهم.

(٢) في ب: والجلال.

(٣) في ب: عزتنا السادة والرؤساء.

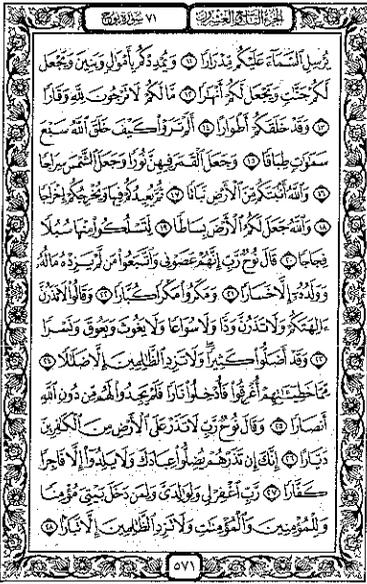
(٤) في ب: وحبناهم.

(٥) في ب: سلكتنا طريقه.

(٦) في ب: من الخلق.

(٧) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع، ويعبدونهم.

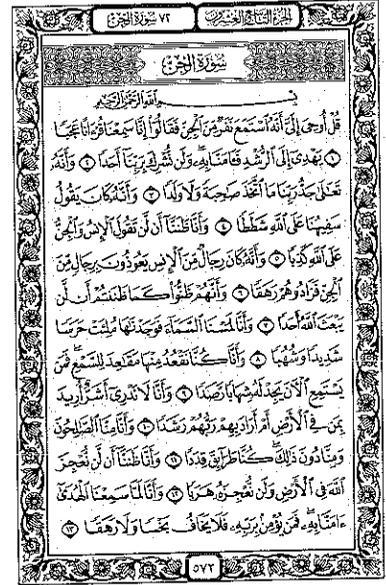
(٨) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن.



يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو^(٨) أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتحرفاً لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

«وأهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً» أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان. **«وأنا لسنا السماء»** أي: أتيناها واختبرناها، **«فوجدناها ملئت حرساً شديداً»** عن الرصول إلى أرجائها [والدنن منها]، **«وشهباً»** يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خير السماء.

«وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع» فتتلف من أخبار السماء ما شاء الله، **«فمن يستمع الآن يجد له شهاباً**



رصداء أي: مرصداً له، معدداً لإتلافه وإحراقه أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من خير أو شر، فلهذا قالوا: «وأننا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بظننتهم، أن هذا الأمر يريد به الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تادباً مع الله.

«وأننا منا الصالحون ومنا دون ذلك» أي: فساق وفجار وكفار، «كنا طرائق قداماً» أي: فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

«وأننا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً» أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه، «وأننا لما سمعنا الهدى» وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم،

وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا ف «أمنابه».

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: «فمن يؤمن بربه» إيماناً صادقاً «فلا يخاف بخساً ولا رهقاً» أي: لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه^(١)، وإذا سلم من الشر حصل له الخير، فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير وانتفاء كل شر.

«وأننا منا المسلمون ومنا القاسطون» أي: الجاثرون، العادلون عن الصراط المستقيم.

«فمن أسلم فالوئك تحمروا رشداً»

أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها، «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً» وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم «لو استقاموا على الطريقة» المثل «لأسقيناهم ماء غدقاً» أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعه ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم. «لنفتنهم فيه» أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم، ليظهر الصادق من الكاذب.

«ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً» أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه ويتقده، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذاباً صعباً أي: شديداً بليغاً.

«وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً» أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته، «وأنه لما قام عبد الله يدعوه» أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه لبيداً أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

«قل» لهم يا أيها الرسول، مبيناً حقيقة ما تدعو إليه:

«إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحداً» أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

«قل إنى لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً» فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

«٢٢» «قل إنى لن يجيرني من الله أحد» أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله [شيثاً] إن أراد به سوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، «ولن أجد من دونه ملجأً ومنتصراً» أي: ملجأً ومنتصراً «إلا بلاغاً من الله ورسالاته» أي: ليس لي منزلة على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا^(٢) تقوم الحججة على الناس.

«ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً» وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدها النصوص الأخر المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

«حتى إذا رأوا ما يوعدون» أي: شاهده عياناً، وجزموا أنه واقع بهم، «فسيعلمون» في ذلك الوقت حقيقة المعرفة «من أضعف ناصراً وأقل عدداً» حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذا يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة، «قل» لهم إن سألوكم [فقالوا] «متى هذا الوعد؟» «إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً» أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله، «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً» من الخلق، بل انفراد بعلم الضمائر والأسرار والغيب، «إلا

(١) في ب: فقالوا: «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً» أي: من آمن به إيماناً صادقاً فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

(٢) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.



له القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاستماع الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأن الرسول محمداً ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط (٣) اتخاذ من هذا وصفه إلهاً [آخر] مع الله.

من ارتضى من رسول ﷺ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا (١) يزيديا فيه أو يفتروا، ولهذا قال: «فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» أي: يحفظونه بأمر الله؛ «ليعلم» بذلك «أن قد أبلغوا رسالات ربهم» بما جعله لهم من الأسباب، «وأحاط بما لديهم» أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه، «وأحصى كل شيء عدداً».

وفي هذه السورة فوائد كثيرة:

ومنها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو ضريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس (٢)، فإن الله صرف نفي الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومه.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشداً، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما يتجهج

ومنها: أن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه (٤) بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي، والله الحمد (٥)

تفسير سورة المزمل
[وهي] مكية

﴿١١-١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً * إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً * إن لك في النهار سحاً طويلاً * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً * وذريه والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً * المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر، وهذا

الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال الوحيه بإرسال جبريل إليه، فرأى أمراً لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك (٦) انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائضه، ثم جاءه جبريل، فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئ»، فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ، ثملقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين.

فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه (٧)، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وسيأكد الأوقات

(١) في ب: من غير أن تقر به الشياطين فلا.

(٢) في ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس.

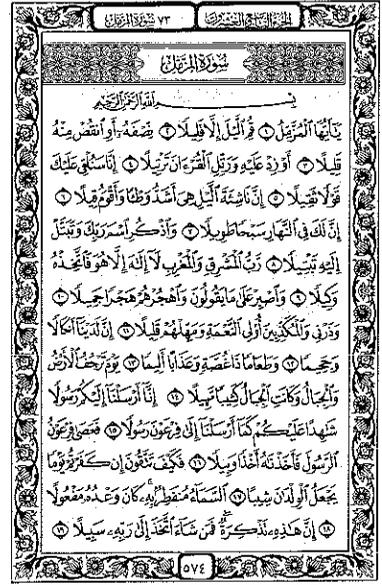
(٣) في ب: من الخطأ والظلم.

(٤) في ب: واختصه.

(٥) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٦) في ب: فاعتراه عند ذلك.

(٧) في ب: على أذية قومه.



وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿ثم الليل إلا قليلاً﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نصفه أو انقص منه﴾ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أو زد عليه﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إننا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتعبأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إن ناشئة الليل، فيه بعد النوم﴾ هي أشد وطأ وأقوم قيلاً﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن^(١) القلب واللسان، وتقل الشواغل،

ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٢)، ولهذا قال: ﴿إن لك في النهار سبحة طويلاً﴾ أي: تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه التفرغ التام، ﴿واذكر اسم ربك﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وتبئل إليه تبتيلاً﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رب المشرق والمغرب﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب لكلهما، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فاتخذه وكيلاً﴾ أي: حافظاً ومدبراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عمومياً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونهم، ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصد عنه صاد، ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجرأ جيلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿وذري والمكذبين﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أهملتهم فلا أهلهم، وقوله: ﴿أولي النعمة﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ * أن رآه استغنى﴾ ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿إن لدينا أنكالا وجحيماً﴾ * وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي: إن عندنا ﴿أنكالا﴾ أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب^(٦). ﴿وجحيماً﴾ أي: ناراً حامية ووطعاماً ذا غصة﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنين، ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي: موجعاً مفظعاً، وذلك ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ من الهول العظيم، ﴿وكانت الجبال الراسيات الصم الصلاب﴾ كثيباً مهيلاً﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المشور.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿إننا أرسلنا إليك رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ * فصصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ يقول تعالى: أحمداً وربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.

(٢) في ب: عليه.

(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٤) في ب: وفعل المشق.

(٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.

فأخذته الله أخذاً وبيلاً أي: شديدتاً
معه من المؤمنين .

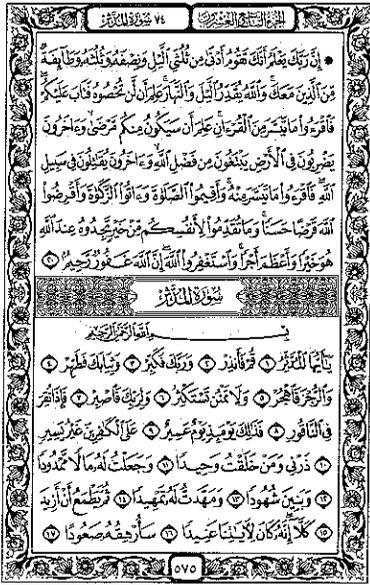
﴿١٧- ١٨﴾ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منقطره بـ كان وعده مفعولاً * أي: فكيف يحصل لكم الفكك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره^(١)، الذي شيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتتقطر به السماء وتنتثر به نجومها * كان وعده مفعولاً * أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه .

﴿١٩﴾ [إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً] [أي: إن هذه الموعظة التي نبا الله بها من أحوال يوم القيامة وأهواله^(٢)، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينجز بها المؤمنون، * فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً * أي: طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكتمهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل .

﴿٢٠﴾ [إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فاقروا] ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم * ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في

هذا الموضوع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين .
ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: * والله يقدر الليل والنهار * أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى .
﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهاً وعناء زائداً أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص، * فاقروا ما تيسر من القرآن * أي: عما تعرفون وما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نرس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة .

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: * علم أن سيكون منكم مرضى * يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه^(٣)، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها أوله أجر ما كان يعمل صحيحاً . * وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله * أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكفوا عن الناس^(٤) أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبج له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية .
وكذلك * آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه * فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه



الأول .
وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك^(٥)، فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين^(٦) من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم وديانهم .
ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال: * وأقيموا الصلاة * بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، * وأقرضوا الله قرضاً حسناً * أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتشبهاً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: * وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً * الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة .

(٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين .

(١) في ب: خطره .
(٢) في ب: وأهوالها .
(٣) في ب: ما يسهل عليه .
(٤) في ب: ويتكفوا عنهم .
(٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره .

المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿والرجز فاهجر﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها وبما نسب إليها من قول أو عمل. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(٤)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتكثر^(٥) بتلك المنة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿ولربك فاصبر﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٦) من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس - بعد منة الله - من غير أن يطلب منهم

بتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل^(٧)

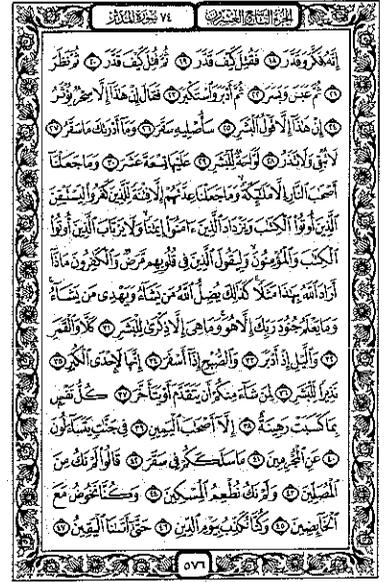
تفسير سورة المدثر [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٨)، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قم﴾ [أي] بجِد ونشاط ﴿فأنذر﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، ﴿وربك فكبر﴾ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وثيابك فطهر﴾ يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن الميطلات والمفاسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب



وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، ووا حسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، ووا غوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(٩).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وربك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.

(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

(٤) في ب: صغارها وكبارها.

(٥) في ب: فتستكثر.

(٦) في ب: وهجر كل ما يبعد من دون الله وما يبعد منه.



على ذلك^(١) جزاء ولا شكوراً، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٢)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿٨- ١٠﴾ **﴿فإذا نقر في الناقر * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾** أي: فإذا فزع في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٣) للبعث والنشور. **﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾** لكثرة أهواله وشدائده **﴿على الكافرين غير يسير﴾** لأنهم قد أيسوا من كل خيزر، وأيقنوا بالهلاك والبراز.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: **﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾**.

﴿١١ - ٣١﴾ **﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبينت شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة * وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من**

عيس وبسر﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له، **﴿ثم أدبر﴾** أي: تولى **﴿واستكبر﴾** نتيجة سعيه الفكري والعملي والقولي، أن قال: **﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾** إن هذا إلا قول البشر **﴿بشر﴾** أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأختيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار، فتباً له، ما أبعد من الصواب، وأحراه بالحضارة والتبأ!! كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين!^(٤) أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد^(٥).

فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى:

﴿سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر﴾ أي:

ووجهه، ويستنصر بهم. **﴿ومهدت له تمهيداً﴾** أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٦) ما يشتهي ويريد، **﴿ثم﴾** مع هذه النعم والإمدادات **﴿يطمع أن أزيد﴾** أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. **﴿كلا﴾** أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك لأنه **﴿كان لآياتنا عنيداً﴾** أي: معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم يتقبلها ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه:

﴿إنه فكر﴾ [أي: في نفسه، **﴿وقدر﴾** ما فكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

﴿فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر﴾ لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتَسَوَّرَ على ما لا يناله هو و [لا أمثاله، **﴿ثم نظر﴾** ما يقول، **﴿ثم**

(١) في ب: أن يطلب عليهم بذلك.
 (٢) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة.
 (٣) في ب: الخلائق.
 (٤) في ب: لم يذم به غيره.
 (٥) في ب: أريبه، وأعطيه.
 (٦) في ب: وحصل له.
 (٧) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى.

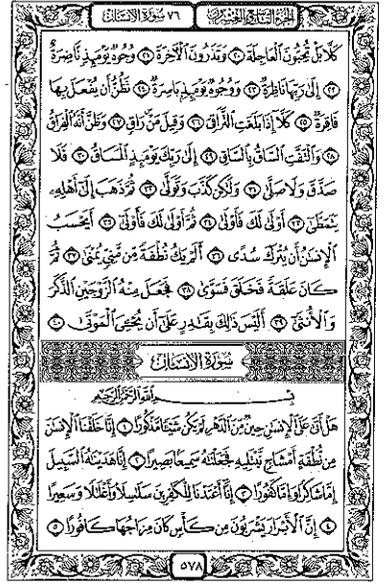
كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد^(١) الجليلة، ومميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هداية الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، وما هي إلا ذكوى للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكير مقصوداً به العيب واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه.

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشدة قوتهم. ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعدابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة تكاليفهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ [ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بعده في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعنى بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

﴿كل نفس بما كسبت﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رهينة﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبته، واستوجبت به العذاب، ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم لم يرتبوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطوياًتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟ ف﴿قالوا لم نك من



لا تبقي من الشدة، ولا على المذب شيئاً إلا وبلغته، ﴿لؤلؤة للبشر﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها.

﴿عليها تسعة عشر﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشدة قوتهم.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعدابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة تكاليفهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ [ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بعده في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعنى بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

(١) في ب: المقاصد.

المصلين * ولم نك نطعم المسكين * فلا إخلاص للعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وكننا نخوض مع الخائفين﴾ أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، ﴿وكننا نكذب بيوم الدين﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد^(١) ﴿حتى أتانا اليقين﴾ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حيثئذ عليهم الحيل، وأتسذ في وجوههم باب الأمل، ﴿فما تفعمهم شفاعة الشافعين﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب مما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أي: صادقين غافلين عنها.

﴿كأنهم﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿همز مستنفرة﴾ أي: كأنهم هم وحش نفرت فنفر بعضها بعضاً، فزاد عدوها، ﴿فرت من تسورة﴾ أي: من صائد ورام يريد لها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون دعاوى الكبار. في ﴿يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشورة﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كلا إنه تذكرة﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، ﴿فمن شاء ذكره﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل.

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئته^(٤) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،
ولله الحمد^(٥)

تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه * بل قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة﴾ ليست «لا» [ها] هنا نافية،

[ولا زائدة] وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم ووقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «لوامة» لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت^(٦)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفریط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب^(٧) بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

(١) في ب: الباطل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.

(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.

(٤) في ب: فإن مشيئة الله.

(٥) في ب: تمت والله الحمد والمنة.

(٦) في ب: على ما فعلت.

(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

﴿٧-١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر﴾

وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيره * ولو ألقى معاذيره.

أي : إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهبطين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وخسف القمر * أي : ذهب نوره وسلطانه، وجمع الشمس والقمر * وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يذفان في النار، ليرى العباد أهمما عبدان مسخران، ليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات : ﴿أين المفر؟﴾ أي : أين الخلاص والفرار مما طرقتنا وأصابنا^(١)؟

﴿كلا لا وزر﴾ أي : لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله، ولهذا قال : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي : بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وأخره، ونبأ بخبر لا ينكره، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي : شاهدا ومحاسباً، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٢)، فَيَقْرُبه، كما قال تعالى :

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره يفيدانه شيئاً، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعبابه قد ذهب وقته وزال نفعه : ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿١٦-١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك﴾

لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه * كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وأهله﴾.

وقال هنا : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقراه، ويجمعه الله في صدره، فقال : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك، فلا موجب لذلك.

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي : إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٣) إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه. ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي : بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من^(٤) المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا

كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه.

وفيها : أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿٢٠-٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون﴾

العاجلة * وتذرون الآخرة * وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولى بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركنموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكان هذه الدار هي دار القرار، التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آتاء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل.

فلو أترتم الآخرة على الدنيا، ونظرتهم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتهم، وربحتهم ربحاً لا خسارة معه، وفرتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

ثم ذكر ما يدعو إلى إظهار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤمنين للآخرة على الدنيا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي : حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي : تنظر إلى ربها^(٥) على حسب مراتبهم : منهم

(١) في ب : والفكك مما طرقتنا وألم بنا.

(٢) في ب : بل يقرر بعمله.

(٣) في ب : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك.

(٤) في ب : أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم.

(٥) في ب : أي ينظرون إلى ربهم.

خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ بل إنه على كل شيء قدير .

تم تفسير سورة القيامة ، والله الحمد والمنة ، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤^(٧) .

المجلد التاسع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين .

تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل ، وهو الذي قبل وجوده ، وهو معدوم بل ليس مذكوراً .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه ، خلق [أباه] آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفة أمشاج﴾ أي : ماء مهين مستقدر ﴿نبتليه﴾ بذلك ، لتعلم هل يرى حاله الأولى ، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ؟

فأنشأه الله ، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء ، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهداه الطريق الموصلة

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء فلا مرد له ، ﴿وظن أنه الفراق﴾ للدنيا .

﴿والتفت الساق بالساق﴾ أي : اجتمعت الشدائد والتفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن^(٤) ولم تزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، حتى يجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر ، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها .

ولكن المعاند الذي^(٥) لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده .

﴿فلا صدق﴾ أي : لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿ولا صلي﴾ ولكن كذب ﴿بالحق في مقابلة التصديق﴾ ، ﴿وتولى﴾ عن الأمر والنهي ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه ، بل يذهب ﴿إلى أهله يتمطى﴾ أي : ليس على باله شيء ، توعده بقوله : ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿وهذه كلمات وعيد ، كررها لتكرير وعيده ، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول ، فقال : ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي : معطلاً^(٦) ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُثاب ولا يُعاقب؟ هذا حسان باطل ، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته .

﴿ألم يك نطفة من مني يمى﴾ ثم كان ﴿بعد المنى﴾ علقة ﴿أي : دمًا ، ﴿فخلق﴾ الله منها الحيوان وسواه أي : أتقنه وأحكمه ، ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ ليس ذلك الذي

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة ، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذي ليس كمثل شيء ، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من التعيم ، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، وازدادوا جمالاً إلى جمالهم ، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة : ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ أي : معبسة ومكدرة^(١) ، خاشعة ذليلة ﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم وعيست .

﴿٢٦ - ٤٠﴾ ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ وقيل من راق * ﴿وظن أنه الفراق﴾ والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق * فلا صدق ولا صلي * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى * أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ يعظ تعالى عباده ، بذكر حال المحتضر عند السياق^(٢) ، وأنه إذا بلغت روحه التراقي ، وهي العظام المكتنفة لشجرة النجر ، فحينئذ يشتد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ، ولهذا قال : ﴿وقيل من راق﴾ أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطعتم آمالهم من الأسباب العادية ، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية^(٣) .

(١) في ب : كدرة .

(٢) في ب : بذكر المحتضر حال السياق .

(٣) في ب : فتعلقوا بالأسباب الإلهية .

(٤) في ب : أن تخرج الروح من البدن الذي ألفت .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : التي .

(٦) في ب : أي مهملاً .

(٧) في ب : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم .

إلى الله^(١)، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكتها، وابتلاء بذلك، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه، قاتم بما حملة الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤ - ٢٢﴾ **﴿إنا أعددنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾** * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً إلى آخر الثواب أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتحزأ على المعاصي **﴿سلاسل﴾** في نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾**.

﴿وأغلالاً﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وسعيراً﴾ أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب﴾** وهذا العذاب دائم لهم أبداً، مخلدون فيه سرمداً.

وأما **﴿الأبرار﴾** وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم^(٢)، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم **﴿يشربون من كأس﴾** أي: شراب لذيذ من خمز قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا،

فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أيها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة^(٣).

كما قال تعالى: **﴿في سدر مخضود وطلح منضود﴾** وأزواج مطهرة **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾** وفيها ما تشتهيhe الأنفس وتلذ الأعين.

﴿عينا يشرب بها عباد الله﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شأوا، وكيف أرادوا، فإن شأوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمسكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات المونتقات.

وقد ذكر^(٤) جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: **﴿يوفون بالنذر﴾** أي: بما أزموا به أنفسهم الله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب^(٥) عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، **﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾** أي: منتشراً فاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، **﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾** أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، **﴿مسكيناً وييتماً وأسيراً﴾**.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾** لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً^(٦) أي:

لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً.

﴿إننا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾ أي: شديد الجهمة والشر **﴿قمطيراً﴾** أي: ضنكاً ضيقاً، **﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾** فلا يجزئهم الفزع الأكبر، وتلتقاهم الملائكة [هنا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿ولقاهم﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم **﴿نصرة﴾** في وجوههم **﴿وسوروا﴾** في قلوبهم، فجمع لهم بين نعم الظاهر والباطن، **﴿وجزاهم بما صبروا﴾** على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلة، فلم يتسخطوها، **﴿جنة﴾** جامعة لكل نعم، سالمة من كل مكدر ومنغص، **﴿وحريراً﴾** كما قال [تعالى]: **﴿ولباسهم فيها حريراً﴾** ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿مكتسبين فيها على الأرائك﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، **﴿لا يرون فيها﴾** أي: في الجنة **﴿شمساً﴾** يضرهم حرها، **﴿ولا زمهرياً﴾** أي: بزداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تألم من حر ولا برد.

﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(٧) **﴿بأنية من فضة وأكواب كانت قواريراً﴾** قوارير من فضة، أي: مادتها من فضة،

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.

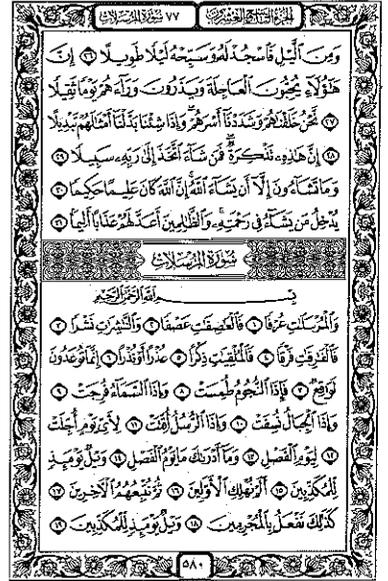
(٢) في ب: أعمالهم.

(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.

(٤) في ب: ثم ذكر.

(٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(٦) في ب: **﴿ويطاف عليهم﴾** أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.



على الهدى ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾
[بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،
ولله الحمد والمنة^(٤)

تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١٥-١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والمرسلات عرفاً * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشرأ * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع * فإذا التجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأى: يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال^(٥)، بالمرسلات عرفاً، وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية ووجهه إلى رسله.

و﴿عرفاً﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي [أيضاً] الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها، ﴿والناشرات نشرأ﴾ يحتمل أنها الملائكة^(٦)، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها، ﴿فالملقيات ذكراً﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

﴿٢٨﴾ ثم استدلل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشددنا أسرهم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يلقى به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

﴿بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها المؤمن، فيتفجع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موثقاً إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٣)، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء

المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة^(١).

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يأ أيها المزمل﴾ قم الليل إلا قليلاً الآية^(٢): [وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يقد فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويظمنون إليها، ﴿ويدرون﴾ أي: يتركون العمل ويمهلون ﴿وراءهم﴾ أي: أمامهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

فكانهم ما خلقوا إلا للدينا والإقامة فيها.

(١) في ب: وذلك متضمنٌ لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات «نصفه» أو انقص منه قليلاً أو زد عليه.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.

يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، تلقية إلى الرسل، **﴿عذراً أو نذراً﴾** أي: إعداراً وإنذاراً للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم (١)، فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿إنما توعدون﴾ من البعث والجزاء على الأعمال **﴿لواقع﴾** أي: متحتم وقوعه، من غير شك ولا اربتياب.

إذا وقع حصل من التغيير للعالم والأهوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشتد له الكروب، فتطمس النجوم أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

﴿لأي: يوم أُجِلت﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتحويل.

ثم أجاب بقوله: **﴿ليوم الفصل﴾** [أي: بين الخلائق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم مفرداً، ثم توعد المكذب بهذا اليوم، فقال: **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا (٢) العقوبة البليغة.

﴿١٦-١٩﴾ **﴿ألم يهلك الأولين﴾** ثم تتبعهم الآخرين كذلك تفعل بالمجرمين **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما أهلكننا المكذبين السابقين، ثم تتبعهم ياهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه (٣)، فلم لا تعتبرون بما ترون

وتسمعون؟ **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** بعدما شاهدوا من الآيات البيّنات، والعقوبات والثلاث.

﴿٢٠-٢٤﴾ **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾** فجعلناه في قرار مكين **﴿إلى قدر معلوم﴾** فقدرنا نعم القادرون **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما خلقناكم أيها الأدميون **﴿من ماء مهين﴾** أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله **﴿في قرار مكين﴾** وهو الرحم، به يستقر وينمو **﴿إلى قدر معلوم﴾** ووقت مقدر، **﴿فقدرنا﴾** أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فنعم القادرون﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً للحكمة، موافقاً للحمد (٤).

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيّنات.

﴿٢٥-٢٨﴾ **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾** **﴿أحياء وأمواتاً﴾** وجعلنا فيها **﴿رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾** **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما امتننا (٥) عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها **﴿كفاتاً﴾** لكم، **﴿أحياء﴾** في الدور، **﴿ وأمواتاً﴾** في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنتها، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وستراً لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وجعلنا فيها رواسي﴾ أي: جبالاً

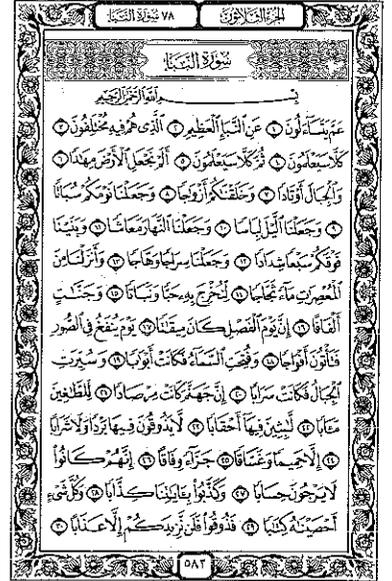
التي تختلف كون قلوبهم فيها، فحاشا في قرار مكين **﴿إلى قدر معلوم﴾** فقدرنا نعم القادرون **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** **﴿الآن جعلنا الأرض كفاتاً﴾** **﴿أحياء وأمواتاً﴾** وجعلنا فيها **﴿رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾** **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** **﴿أنطقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** لا ظليل ولا يغني من اللهب **﴿إنها ترمي بشرراً كالقصر﴾** كأنه جبل صفر **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** **﴿هذان من الويل الذي أعد للمجرمين﴾** [للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** ثم فسر ذلك بقوله: **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** أي: إلى ظل نار جهنم، التي تمتاز في

ترسي الأرض، لثلاث تمديد بأهلها، فبئسها الله بالجبال الراسيات الشامخات أي: الطوال العراض، **﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾** أي: عذباً زلالاً، قال تعالى: **﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾** **﴿أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾** لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ مع ما أراهم الله من النعم، التي انفراد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالكذب.

﴿٢٩-٣٣﴾ **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** لا ظليل ولا يغني من اللهب **﴿إنها ترمي بشرراً كالقصر﴾** كأنه جمالة صفر **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** هذا من الويل الذي أعد للمجرمين [للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** ثم فسر ذلك بقوله: **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** أي: إلى ظل نار جهنم، التي تمتاز في

(١) في ب: أعدارهم.
 (٢) في ب: فذلك استحقوا.
 (٣) في ب: عقابه.
 (٤) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.
 (٥) في ب: أمامتنا.



خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار
أي: تتعاوره وتتأوبه وتجتمع به.

﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي:
لا راحة فيه ولا طمأنينة،
﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من
الذهب﴾ بل اللهب قد أحاط به، يمته
ويسرة ومن كل جانب، كما قال
تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار
ومن تحتهم ظلل﴾.

﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم
غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾.

ثم ذكر عظم شر النار، الدال على
عظمتها وفضاعتها وسوء منظرها،
فقال:

﴿إنها ترمي بشرير كالقصر﴾ كأنه
جمالة صفر ﴿وهي السود التي تضرب
إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن
النار مظلمة، لهبها وجرحها وشرورها،
وأنها سوداء، كريمة المرأى^(١)، شديدة
الحرارة، نسأل الله العافية منها [من
الأعمال المقربة منها].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٣٥ - ٤٠﴾ هذا يوم
لا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم
فيعتذرون﴾ ويل يومئذ للمكذبين *

(١) في ب: كريمة المنظر.

(٢) في ب: ثواب.

هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين *
فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل
يومئذ للمكذبين * أي: هذا اليوم
العظيم الشديد على المكذبين،
لا ينطقون فيه من الخوف والوجل
الشديد، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾
أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا:
﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا
معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم
والأولين﴾ لفصل بينكم، ونحكم بين
الخالق، ﴿فإن كان لكم كيد﴾
تقدرون على الخروج من ملكي،
وتنجون به من عذابي، ﴿فكيدون﴾
أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما
قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن
استطعتم أن تنفذوا من أقطار
السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون
إلا بسلطان﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل
الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم،
ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم
كذبهم في تكذيبهم ﴿ويل يومئذ
للمكذبين﴾

﴿٤١ - ٤٥﴾ ﴿إن المتقين في ظلال
وعيون﴾ وفواكه مما يشتهون * كلوا
واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إننا
كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ
للمكذبين ﴿لما ذكر عقوبة المكذبين،
ذكر ثواب^(٢) المحسنين، فقال: ﴿إن
المتقين﴾ [أي: للتكذيب، المتصفين
بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم
وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا
بأدائهم الواجبات، وتركهم
المحرمات].

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار
المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿وعيون﴾
جارية من السلسبيل، والرحيق
وغيرهما، ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي:
من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم:
﴿كلوا واشربوا﴾ من المأكول الشهية،

والأشربة اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: من
غير منغص ولا مكدر، ولا يتم
هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب
من كل آفة ونقص، وحتى يميزوا أنه
غير منقطع ولا زائل، ﴿بما كنتم
تعملون﴾ فأعمالكم هي السبب
الموصل لكم إلى هذا النعيم^(٣) المقيم،
وهكذا كل من أحسن في عبادة الله
وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إننا
كذلك نجزي المحسنين﴾ * ويل يومئذ
للمكذبين ﴿ولو لم يكن لهم من هذا
الويل إلا قوات هذا النعيم، لكفى به
حرماناً وخسراناً^(٤)﴾.

﴿٤٦ - ٥٠﴾ ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً
إنكم مجرمون﴾ ويل يومئذ
للمكذبين * وإذ قيل لهم اركعوا
لا يركعون * ويل يومئذ للمكذبين *
فبأي: حديث بعده يؤمنون ﴿هذا
تهديد ووعد للمكذبين، أنهم وإن
أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا
باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم
مجرمون، يستحقون ما يستحقه
المجرمون، فستقطع عنهم اللذات،
وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم
أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف
العبادات، وقيل لهم: ﴿اركعوا﴾
امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب
يزيد على هذا؟!!

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ومن
الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب
التوفيق، ويجرمون كل خير، فإنهم إذا
كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو
أعلى مراتب الصدق واليقين على
الإطلاق.

﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾
أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم
عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام
كل مشرك كذاب أفالك مين؟

فليس بعد النور المبين إلا دياجي

(٤) في ب: حرماناً.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.

الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين^(١)، الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فتبأ لهم، ما أعماهم! وويحاً لهم، ما أخسرهم وأشقاهم!

نسأل الله العفو والعافية [إنه جواد كريم. تمت].

**تفسير سورة عم
وهي مكية**

﴿١-٥﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** عم يتساءلون * عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون * كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون * أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه، فقال: **عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون** * أي: عن الخبر العظيم، الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بقاء رهيم لا يؤمنون، ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: **﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾** أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون، حين يدعون إلى نار جهنم دغا، ويقال لهم: **﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾**.

ثم بين^(٢) تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت^(٣) به الرسل، فقال:

﴿٦-١٦﴾ **﴿ألم نجعل الأرض**

مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً * وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهار معاشاً * وبينا فوقكم سباعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً * وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً * لنخرج به حياً ونباتاً * وجنات ألفافاً * أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم **﴿الأرض مهاداً﴾ أي: مهيأة^(٤) لكم ولصالحكم، من الحشود والمسكن والسبل. **﴿والجبال أوتاداً﴾** وتميد، **﴿وخلقناكم أزواجاً﴾** أي: ذكوراً وإناثاً من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون^(٥) المادة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة المنكح.**

﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي: راحة لكم، وقطعاً لأشغالكم، التي متى تبادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتنتقطع^(٦) حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وبينا فوقكم سباعاً شداداً﴾ أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفاً للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: **﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾** نيه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح^(٧).

﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ أي: السحاب **﴿ماءً ثجاجاً﴾** أي: كثيراً جداً.

(١) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين.

(٢) في ب: ثم ذكر.

(٣) في ب: على ما جاءت به الرسل.

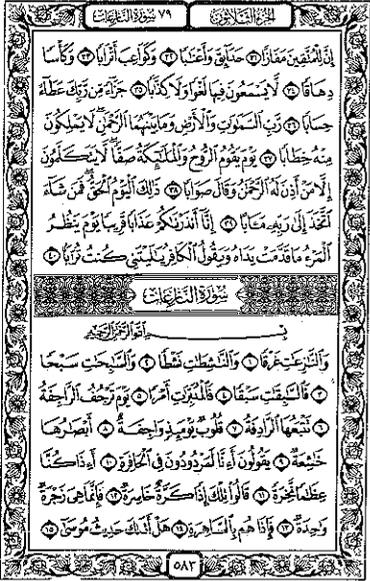
(٤) في ب: مذلة.

(٥) في ب: فتكون.

(٦) في ب: لتسكن.

(٧) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج وهي: حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع.

(٨) في ب: الجليلة.

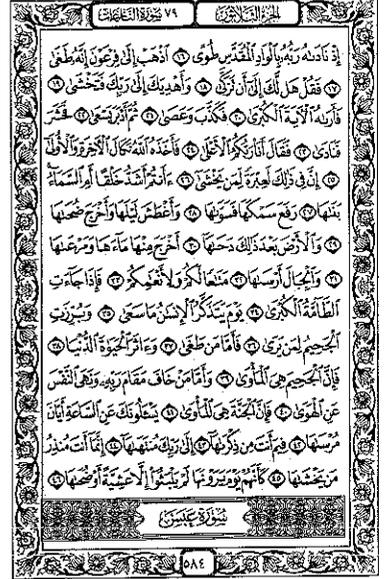


﴿لنخرج به حياً﴾ من بُرٍ وشعير، وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الادميون.

﴿ونباتاً﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتاً لمواشيهم، **﴿وجنات ألفافاً﴾** أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة^(٨)، التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عدها، كيف [تكفرون به من البعث والنشور؟] أم كيف تستعيتون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟!!

﴿١٧ - ٣٠﴾ **﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً * يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا * وفتحت السماء فكانت أبواباً * وسيرت الجبال فكانت سراباً * إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآباً * لا تبئنها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا**



﴿٣١-٣٦﴾ **﴿إِنْ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَأَسْأَدَهَا قًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا * جِزَاءَ مَنْ رِبِكَ عِطَاءَ حَسَابًا﴾** لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾** أي ^(٤): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه ^(٥) فلهم مفاز ومنجى، وبعُد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم **﴿حَدَائِقَ﴾** وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكشرفته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس **﴿كوَاعِبَ﴾**: وهي: النواهد اللاتي لم تتكسر ثديين من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهم ^(٦).

﴿وَالْأَثْرَابَ﴾: اللاتي على سن واحد مقارب، ومن عادة الأثراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب ^(٧).

﴿وَأَسْأَدَهَا قًا﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾** أي: كلاماً لا فائدة فيه **﴿وَلَا كِدَابًا﴾** أي: إثمًا.

كما قال تعالى: **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾** إلا قليلاً سلاماً سلاماً.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] **﴿جِزَاءَ مَنْ رِبِكَ﴾** لهم **﴿عِطَاءَ حَسَابًا﴾** أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها ^(٨).

جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم. **﴿إِلَّا هَيْمًا﴾** أي: ماء حاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، **﴿وَعَسَاقًا﴾** وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليهم، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾** أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وَكَذَبُوا بآيَاتِنَا كَذَابًا﴾ أي: كذبوا بها تكديباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر **﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾** أي: كتبناه ^(٩) في اللوح المحفوظ، فلا يحشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: **﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلَمُ رِبِكَ أَحَدًا﴾**.

﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم **﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾** وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجازنا الله منها].

حيماً وعساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذباً * وكل شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً * ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله **﴿مِيقَاتًا﴾** للخلق **﴿يَنْفِخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾** ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتزعج له القلوب، فتفسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشقق ^(١٠) السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجوز، وتوقد نار جهنم التي أرسدها الله وأعددها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآباً، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و **﴿الحقْب﴾** على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها ^(١١) **﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾** أي: لا ما يبرد

(١) في ب: وتنشق.

(٢) في ب: فإذا وردوها.

(٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.

(٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها.

(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.

(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.

تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ الآيات .

فإن وجد خيراً فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم .

سأل الله أن يعافينا من الكفر والشركه، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة عم،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النازعات وهي مكية

﴿٣٧ - ٤٠﴾ ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً * يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً * ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً * إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يده ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم ﴿رب السماوات والأرض﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿الرحمن﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا .

ثم ذكر عظمته وملكوته العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكتون لا يتكلمون، و﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صواباً، لأن ﴿ذلك اليوم﴾ هو ﴿الحق﴾ الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب، وفي ذلك اليوم يقوم الروح ﴿وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أشرف الملائكة﴾، ﴿والملائكة﴾ أيضاً يقوم الجميع ﴿صفاً﴾ خاضعين لله ﴿لا يتكلمون﴾ إلا بما أذن لهم الله به ﴿٢﴾ فلما رعب ورهب، وبشر وأنذر، قال:

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي: عملاً، وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة .
﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ لأنه قد أرف مقبلاً، وكل ما هو آت فهو قريب .
﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يده﴾ أي: هذا الذي يمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه ﴿٣﴾ كما قال

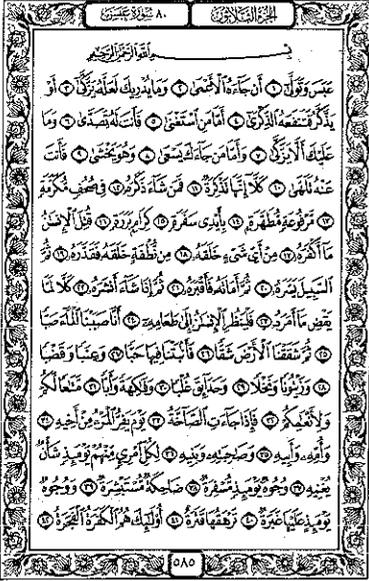
(١) في ب: أفضل الملائكة .

(٢) في ب: إلا بإذنه .

(٣) في ب: فلينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار .

(٤) في ب: لثلاث استترقه .

(٥) في ب: الذين جعلهم الله يدبرون كثيراً من أمور العالم .



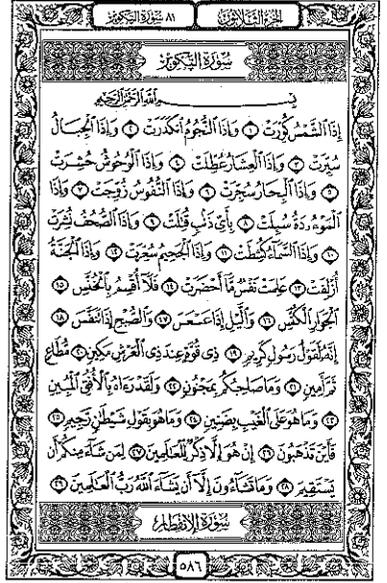
﴿والناشاطات نشطاً﴾ : وهم الملائكة أيضاً، تحتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النزاع يكون لأرواح المؤمنين، والنشط لأرواح الكفار .

﴿والسباحات﴾ أي: الترددات في الهواء صعوداً ونزولاً ﴿سبحاً﴾ ﴿فالسباحات﴾ لغبرها ﴿سبحاً﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله حتى لا تسترقه ﴿٥﴾ .

﴿فالمدبرات أمراً﴾ الملائكة، الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيراً من أمور العالم العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار [وغير ذلك] ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ وهي قيام الساعة، ﴿تبعها الراجفة﴾ أي: الرجفة الأخرى التي تردفها وتأتي تلوها، ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ أي: موجفة ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع .

﴿أبصارها خاشعة﴾ أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الحرف،

﴿١ - ١٤﴾ ﴿يسم الله الرحمن الرحيم والنازعات غرقاً * والناشاطات نشطاً * والسباحات سبحاً * فالسباحات سبحاً * فالمدبرات أمراً * يوم ترجف الراجفة * تبعها الراجفة * قلوب يومئذ واجفة * أبصارها خاشعة * يقولون أننا لمردون في الحافرة * إذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة * فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾ هذه الأقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبلة وبعده، فقال: ﴿والنازعات غرقاً﴾ : وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازي بعملها .



والأولى * إن في ذلك لعمبرة لمن يخشى ﴿ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

أي: هل أتاك حديث ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء^(١) فقال له: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: فانه عن طغيانه وشركه وعصيانه، يقول لين، وخطاب لطيف، لعله ﴿يتذكر أو يخشى﴾

﴿فقل﴾ له: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ أي: هل لك في خصلة حميدة، وعمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكى نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه. ﴿فتخشى﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. ﴿فكذب﴾ بالحق ﴿وعصى﴾ الأمر، ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربتة، ﴿فحشر﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿فنادى﴾ فقال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فأذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم، ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي: صارت عقوبته^(٢) دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، ﴿إن في ذلك لعمبرة لمن يخشى﴾ فإن من

يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿أنتم﴾ أيها البشر ﴿أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴿ يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لنكروى البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد:

﴿أتنتم﴾ أيها البشر ﴿أشد خلقاً أم السماء﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بناها﴾ الله، ﴿رفع سمكها﴾ أي: جرمها وصورتها، ﴿فسواها﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، ﴿وأغطش ليلها﴾ أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد^(٣) الناس في مصالح دينهم وديانهم.

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾ أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾ أي: ثبتها في الأرض.

فدخى الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قل﴾ أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴿إلى أن قال﴾: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا

وأدخل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿أإذا كنا عظاماً نخرة﴾ أي: بالية فتانا.

﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: استبعدوا أن يعنهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتمرؤاً عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم ﴿بالساهرة﴾ أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويميزهم.

﴿١٥ - ٢٦﴾ ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة

(١) في ب: وابتعته بالوحي واجتباه.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانتشر.

طائعين»^(١).

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أسوأ فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزء^(٢)، فقال:

﴿٣٤ - ٤١﴾ **﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾** * يوم يتذكر الإنسان ما سمي * وبرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طفئ * وأثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى * أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحيتئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل يحب عن حبيبه]. و **﴿يتذكر الإنسان ما سعى﴾** في الدنيا، من خير وشر، فيمتنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويميزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة **﴿ربحه﴾** وخسرانه ما سعه في الدنيا، ويتقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت^(٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فأما من طفئ﴾ أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وأثر الحياة الدنيا﴾ على الآخرة،

فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ [له] أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله، **﴿وأما من خاف مقام ربه﴾** أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها^(٤) عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصاذين عن الخير، **﴿فإن الجنة﴾** [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] **﴿هي المأوى﴾** لمن هذا وصفه.

﴿٤٢ - ٤٦﴾ **﴿يسألونك عن الساعة﴾** أيان مرساها * قيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها * أي: يسألك المعتنون المكذبون بالبعث **﴿عن الساعة﴾** متى وقوعها و **﴿أيان مرساها﴾** فأجابهم الله بقوله: **﴿قيم أنت من ذكراها﴾** أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال: **﴿إلى ربك منتهاها﴾** أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: **﴿يسألونك عن الساعة﴾** أيان مرساها قل إنما علمها عند رب لا يعلمها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغته يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(٥) **﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾** أي:

إنما نذراتك [نفعها] لمن يخشى محيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا يتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه **﴿تمت﴾** [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١ - ١٠﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: **﴿عبس﴾** [أي: في وجهه **﴿وتولى﴾** في بدنه، لأجل محيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: **﴿وما يدريك لعله﴾** أي: الأعمى **﴿يزكى﴾**؟ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أو يدكر فتنفعه الذكرى﴾؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل^(٦) بتلك الذكرى.

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال **﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾** وصواب ذلك ما أثبت.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزء.

(٣) في ب: هيئت.

(٤) في ب: الذي يصدها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتتمتها.

(٦) في ب: فينتفع.

الأشجار الكثيرة المتنفة، ﴿وفاكهة وأباً﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب ووخ ورمان، وغير ذلك.

والأب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإجابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣ - ٤٢﴾ ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحيته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قفرة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع، وتزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال، ﴿يفر المرء﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، ﴿من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحيته﴾ أي: زوجته وبنيه * وذلك لأنه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكائها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فوجههم [يومئذ] ﴿مسفرة﴾ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، ﴿ضاحكة مستبشرة * ووجوه﴾ الأشقياء ﴿يومئذ عليها غبرة * ترهقها﴾ أي: تغشاها ﴿قفرة﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خيزر، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أولئك﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هم الكفرة الفجرة﴾ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجروؤا على محارمه.

﴿بأيدي سفرة﴾: وهم الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين عباده، ﴿كرام﴾ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بررة﴾ قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثم السبيل يسره﴾ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، [وبينه] وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي: بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه هذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له، فقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ أنا صبينا للماء صبياً﴾ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة، ﴿ثم شققنا الأرض﴾ للنبات ﴿شقاً﴾ فأنبتنا فيها، أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية ﴿حياً﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿وعنباً وقضبياً﴾ وهو القث، ﴿وزيتوناً ونخللاً﴾ وخض هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها. ﴿وحداثق غلباً﴾ أي: بساتين فيها

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكورين، فأقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك^(١)، هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿١١ - ٣٢﴾ ﴿كلا إنها تذكرة﴾ فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة * قتل الإنسان ما أكفره * من أي: شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلا لما يقض ما أمره * فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صبينا للماء صبياً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حياً * وعنباً وقضبياً * وزيتوناً ونخللاً * وحداثق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ يقول تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: عمل به، كقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمتها ورفع قدرها، فقال: ﴿في صحف مكرمة * مرفوعة﴾ القدر والرتبة ﴿مطهرة﴾ [من الأفاق] عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي

(١) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.



لها سيران:

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك^(١)، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم^(٢) الكواكب السيارة وغيرها.

﴿والليل إذا عسعس﴾ أي: أدبر، وقيل: أقبل، ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي: بانت^(٣) علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن^(٤) وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وإنه لسنزِيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه،

وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، ﴿ذي قوة﴾ على ما أمره الله به.

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

﴿عند ذي العرش﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مكين﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مطاع ثم﴾ أي: جبريل مطاع في الملائكة الأعلى، لديه^(٥) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رآيه، ﴿أمين﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُد له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة. والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهام، وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وما صاحبكم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بمجنون﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المنتقلون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يطفؤوا بها ما شاءوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم

يزيد فيه أو يقتص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشخ بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاره أن يكون من تلاميذهم.

﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ لما ذكر جلاله كتابه^(٦) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأنشئ الله عليهما بما أنشئ، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه، ﴿فأين تذهبون﴾ أي: كيف يحظر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأرذل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ بعدما

(١) في ب: مع سائر الكواكب والفلك.

(٢) في ب: الكواكب.

(٣) في ب: بدت.

(٤) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.

(٥) في ب: لأنه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: جلالته.



تفسير سورة المطففين وهي مكية (١)

﴿٦-٦﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**
 ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على
 الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو
 وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك
 أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم
 يقوم الناس لرب العالمين ﴿١﴾ **ويل**
 كلمة عذاب، ووعيد (٢) **للمطففين**
 وفسر الله المطففين بقوله (٣) **«الذين إذا
 اكتالوا على الناس»** أي: أخذوا منهم
 وفاء عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه
 كاملاً من غير نقص.
«وإذا كالوهم أو وزنوهم» أي:
 إذا أعطوا الناس حقهم، الذي
 للناس (٤) عليهم بكيل أو وزن،
«يخسرون» أي: ينقصونهم ذلك، إما
 بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء
 المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا
 سرقة [لأموال] الناس (٥)، وعدم
 إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد (٦) على الذين
 يبخسون الناس بالمكيال والميزان،
 فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة،

- (١) في ب: وهي مدنية.
- (٢) في ب: وعقاب.
- (٣) في ب: بأنهم.
- (٤) في ب: لهم.
- (٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.

أولى بهذا الوعيد من المطففين.
 ودلت الآية الكريمة، على أن
 الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له،
 يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من
 الأموال والمعاملات، بل يدخل في
 [عموم هذا] (٧) الحجج والمقاتلات، فإنه
 كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن
 كل واحد [منهما] يحرص على ما له من
 الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما
 لخصمه من الحجج (٨) [التي
 لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه
 كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا
 الموضع يعرف إنصاف الإنسان من
 تعصبه واعتسائه، وتواضعه من كبره،
 وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق
 لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب
 من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه،
 فقال: **«ألا يظن أولئك أنهم
 مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم
 الناس لرب العالمين»** فالذي جزأهم
 على التطفيف عدم إيمانهم باليوم
 الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم
 يقومون بين يدي الله، يحاسبهم (٩) على
 القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك
 وتابوا منه.

﴿٧-١٧﴾ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ**
لَفِي سَجِينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ *
كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
لِلْمَكْذِبِينَ * الَّذِي يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ
الدين * وما يكذب به إلا كل معتد
أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير
الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما
كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم
يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا
الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به
تكذبون» يقول تعالى: **«كلا إن كتاب**
الفجار» [وهذا شامل لكل فاجر] من
 أنواع الكفرة والمنافقين، والفاستقين

«لفي سجين» ثم فسّر ذلك بقوله:
«وما أدراك ما سجين * كتاب
مرقوم» أي: كتاب مذكور فيه
 أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل
 الضيق الضنك، و«سجين» ضد
«عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار،
 كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل
 الأرض السابعة، مأوى الفجار
 ومستقرهم في معادهم.

«ويل يومئذ للمكذبين» ثم بين
 المكذبين بأنهم (١٠) **«الذين يكذبون**
بيوم الدين» أي: يوم الجزاء، يوم
 يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

«وما يكذب به إلا كل معتد» على
 محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

«أثيم» أي: كثير الإثم، فهذا
 الذي يحمله عدوانه على التكذيب،
 ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب
 له] كبره رد الحق، ولهذا **«إذا تتلى عليه**
آياتنا» الدالة على الحق، و [على]
 صدق ما جاءت به رسله، كذبا
 وعاندها، **«وقال»**: هذا **«أساطير**
الأولين» أي: من ترهات المتقدمين،
 وأخبار الأمم الغابرين، ليس من
 عند الله تكبراً وعناداً.

وأما من أنصف، وكان مقصوده
 الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم
 الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة
 القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله
 حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل
 الشمس للأبصار (١١)، بخلاف من ران
 على قلبه كسبه، وغطته مغاضيه، فإنه
 محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على
 ذلك، بأن حجب عن الله، كما
 حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله،
«ثم إنهم» مع هذه العقوبة البليغة
«لصالوا الجحيم» ثم يقال لهم توبيخاً

- (٦) في ب: وعيناً.
- (٧) في ب: يدخل في ذلك.
- (٨) في ب: الحجة.
- (٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله يحاسبهم.
- (١٠) في ب: ثم بينهم بقوله.
- (١١) في ب: وصار لباصارهم بمنزلة الشمس للأبصار.

وجزاء المؤمنين^(٤)، و [ذكر] ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهنزون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، اختقاراً لهم وازدراءً، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم، **﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾** صباحاً أو مساءً **﴿انقلبوا فكهين﴾** أي: مسرورين مغتبتين^(٥)، وهذا من أعظم^(٦) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٧) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجراً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: **﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾** أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على ريمهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: **﴿فاليوم﴾** أي: يوم القيامة، **﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾** حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة **﴿على الأرائك﴾** وهي السرر المزينة، **﴿ينظرون﴾** إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأهم^(٨) في العذاب والتكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، **﴿تعرف﴾** أيها الناظر إليهم **﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾** أي: بهاء النعيم^(٩) ونضارته ورويقه، فإن توالي اللذة والسرور^(١٠)، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والأذها، **﴿مختوم﴾** ذلك الشراب، **﴿ختامه مسك﴾** يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق خثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه براق، يكون في الجنة بهذه المثابة، **﴿وفي ذلك﴾** النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، **﴿فليتنافس المتنافسون﴾** أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تراجمت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين **﴿يشرب بها المقربون﴾** صزفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩ - ٣٦﴾ إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون * لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

وتقريباً: **﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾** فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغويه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض^(١١) عقوبات الذنوب.

﴿١٨ - ٢٧﴾ كلاً إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأكنة وأضيقتها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأسنحها وأن كتابهم المرقوم **﴿يشهده المقربون﴾** من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويُنوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و «عليون» اسم لأهل الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، **﴿على الأرائك﴾** أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من

(١) في ب: من أعظم.

(٢) في ب: أي بهاء.

(٣) في ب: فإن توالي اللذات

والمسرات والأفراح.

(٤) في ب: المحسنين.

(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.

(٦) في ب: وهذا أشد.

(٧) في ب: مع الأمن.

(٨) في ب: حين رأوهم.

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١٥-١٥﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثوراً * ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيراً * يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقت﴾ أي: انقطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وحسفت بشمسها وقمرها.

﴿وأذنت لربها﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاحت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومددها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثيرهم، فتصير قاعاً صافئاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً.

﴿وألقت ما فيها﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وتخلت﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجهه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون

على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً^(١). ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ **فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَاباً** يسيراً * وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى]: له: ﴿إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا سترتها لك اليوم﴾.

﴿وينقلب إلى أهله﴾ في الجنة ﴿مسروراً﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالشواب، ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فسوف يدعو ثوراً﴾ من الحزري والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا كان في أهله مسروراً لا يحظر البعث على باله، وقد أساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿١٦-٢٥﴾ **فَلَا أُنسَمِ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقِ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقِ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقِ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابِ أَلِيمٍ * إِلَّا**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون﴾ أنسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وسق﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿والقمر إذا اتسق﴾ أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لتركبن﴾ [أي]: أيها الناس ﴿طبقاً عن طبق﴾ أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطقة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم مميزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويمجأزى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي: لا يخضعون للقرآن، ولا يتقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سراً، فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرية سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيماً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.

مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

تم تفسير السورة ولله الحمد

تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١ - ٢٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُعُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنْ بَطِشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٍ * إِنَّهُ هُوَ بِيَدِيهِ وَيَعْبُدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ * فَعَلَمَا يَرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ * بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * أَي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي

لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿وشاهد ومشهود﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مُبْصِرٌ ومُبْصَرٌ، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوماً كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فرادوهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدوداً [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النار ذات الوقود﴾ إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إقتائهم فيها، والحال أنهم ما تقموا من المؤمنين إلا خصلة^(٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له

(١) في ب: على الدخول.

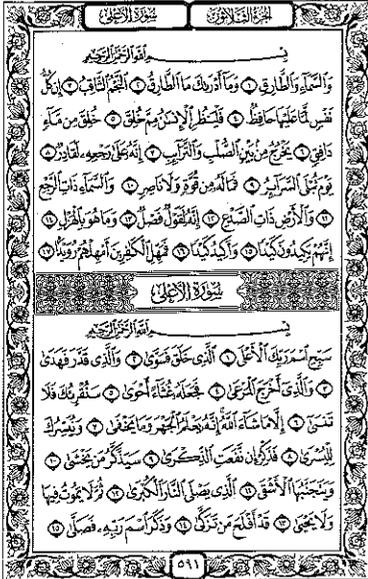
(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتطردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم مماليك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.



العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حيد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٣)، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتطردون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله^(٤)، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم^(٥)؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٦) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه

والله لا معاون لإرادته، ولا مانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين، ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات، ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ فيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره. ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي: وسع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم، ﴿في لوح محفوظ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، و محفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

تفسير سورة الطارق وهي مكية

﴿١٧-١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعة لقادر * يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر * والسماء ذات الرجوع * والأرض ذات الصدع * إنه لقول فصل * وما هو بالهزل * إنهم يَكِيدُونَ كَيْدًا * وأكيد كيدًا * فمهل الكافرين أمهلهم وريداً﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾.

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النجم

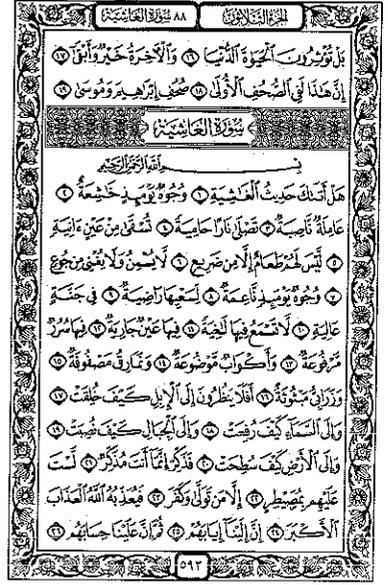
ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود، الودء لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يحببهم ويحبونه﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأصلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأعززه إحسانه، وأوسع امتنانه! ﴿ذو العرش المجيد﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون «المجيد» نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن «المجيد» نعتٌ لله^(١)، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فعال لما يريد﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون ومانع،



وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة. ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ الذي حصل به الفوز^(١) برضا الله ودار كرامته.

﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [لقوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك^(٢)، ﴿وهو الغفور﴾ الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿الودود﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب،

(١) في ب: حصل لهم الفوز.

(٢) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٣) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.

الثاقب ﴿أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [يفنذ حتى يرى في الأرض]، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثاقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع ويفنذ فيها^(١)، فيرى منها.

وسمي طارقاً، لأنه يطرق ليلاً، والمقسم عليه قوله: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها، ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق ﴿من ماء دافق﴾ وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب. يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها.

ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، هو والذي يجس [به] ويشاهد دفته، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى، لقال: «من بين الصلب والثديين»، ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزء]، وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجوع الماء المندفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المصنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ففي الدنيا، تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة، فيظهر بر الأبرار، وفجور الفجار،

وتصير الأمور علانية، ﴿فمأله من قوة﴾ يدفع بها عن نفسه^(٢)، ﴿ولا ناصر﴾ خارجي^(٣) ينتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿والسماوات ذات الراجع﴾ والسماوات ذات الراجع ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الأدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقمار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إنه﴾ أي: القرآن ﴿لقول فصل﴾ أي: حق وصدق، بين واضح.

﴿وما هو بالهزل﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفضل بين الطوائف والمقاتلات، وتنفصل به الخصومات.

﴿إنهم﴾ أي: المكذابين للرسول ﷺ، وللقرآن ﴿يكيدون كيدا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، ﴿وأكيد كيدا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الأدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيد، ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبح وهي مكية

﴿١- ١٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى﴾ الذي خلق فسوى ﴿والذي قدر فهدى﴾ والذي أخرج المرعى ﴿فجعله غثاء أحوى﴾ ستقرئك فلا تنسى ﴿إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾

(٣) في ب: من خارج.

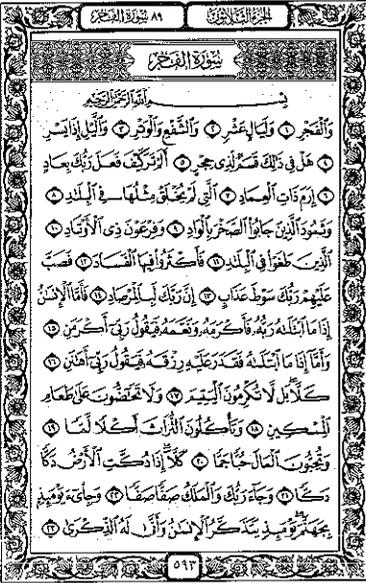
(١) في ب: ويفنذها.

(٢) في ب: أي من نفسه يدفع بها

(٤) في ب: بمعناها العظيم الجليل.

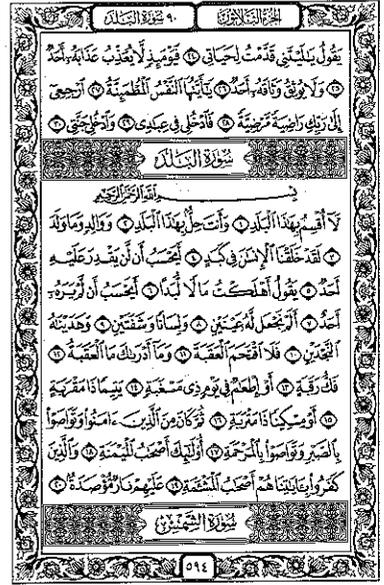
(٥) في ب: أصناف.

(٦) في ب: وجميع الحيوانات.



وتيسرك لليسرى * فذكر إن نعمت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذي يصل النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى * قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصل * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى * يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم^(٤)، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، ﴿والذي قدر﴾ تقديراً، تتبعه جميع المقدرات ﴿فهدى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي: أنزل من السماء ماء فأنبث به أنواع^(٥) النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان^(٦)، ثم بعد أن



المنغص المكدر الزائل على الآخرة، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ [وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة، وإن هذا المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿لفي الصحف الأولى﴾

صحف إبراهيم وموسى اللذين هما أشرف المرسلين، سوى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان. تم تفسير سورة سح، والله الحمد

صلى الله عليه وسلم.

تفسير سورة الغاشية وهي مكية

﴿١٦-١٧﴾ باسم الله الرحمن الرحيم هل أتاك حديث الغاشية * وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آتية * ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغمى من جوع * وجوه يومئذ ناعمة * لسمعها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة * يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهيّاً عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله: ﴿سيدذكر من يخشى﴾ الله تعالى، فإن خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه على أعماله^(٥)، توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي^(٦) والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله: ﴿وتبجنبها الأشقى﴾ الذي يصلى النار الكبرى، وهي النار الموقدة، التي تطلع على الأفتدة، ثم لا يموت فيها ولا يحيى، أي: يعذب عذاباً أليماً، من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عنهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي: قد فاز وريح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، وذكر اسم ربه فصلي، أي: انصف بذكر الله، وانصغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة، وأما من فسر قوله: ﴿تزكى﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصلي، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿بل تؤثر الحياة الدنيا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها

استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، ووضوح عشب، فجمعه غشاء أحوى، أي: أسود أي: جعله هشياً ريمماً، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتن الله بأصلها ومنشأها^(١)، وهو القرآن، فقال: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿إلا ما شاء الله﴾ عما اقتضت حكمته أن ينسيك لمصلحة بالغة، ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما يريد^(٢)، ﴿ونيسرك لليسرى﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة^(٣)، أن الله يسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسراً^(٤).

﴿فذكر﴾ بشرع الله وآياته ﴿إن نفعت الذكرى﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء

- (١) في ب: ومادتها.
- (٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد.
- (٣) في ب: أخرى.
- (٤) كذا في ب، وفي أ: يسيراً.
- (٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال.
- (٦) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.
- (٧) في ب: بعد.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ من الذل والنضيجة والخزي.

﴿عاملة ناصبة﴾ أي: تابعة في العذاب، تُجرُّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ عاملة ناصبة في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(١)؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان العاصية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تسقى من عين أتية﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ فهذا شراهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ لا يسمن ولا يغني من جوع، وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسنة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم

القيامة ﴿ناعمة﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿راضية﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿في جنة﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿تطوفها دانية﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة تناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لا تسمع فيها﴾ أي: الجنة ﴿لاغية﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [عل] الآداب المستحسنة^(٢) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فيها عين جارية﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنى أرادوا.

﴿فيها سرر مرفوعة﴾ و «السرر» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطنية.

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: أوإن ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم،

يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والالتكاء عليها، وقد أربحوا عن أن يضعوها، ويصفوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿وزرأي مبثوثة﴾ والزرابي [هي]: البسط الحسان، مبثوثة أي:

مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ - ٢٦﴾ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ لست عليهم بمضيطر ﴿إلا من تولى وكفر﴾ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ثم إن علينا حسابهم ﴿يقول تعالى حقاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكلها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ بيئته باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٣) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي: مدت مدأً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق^(٤) على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنينان فيها، وسلوك الطرق الموصلة^(٥) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحسنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر^(١) الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقررة للبعيد، فإن التسطيع إنما يتأفي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة^(٢)، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأندرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

وقوله: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فيعذب الله العذاب الأكبر﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي: رجوع الخلقية^(٣) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفجر وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسم لذي حجر * الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مُهتماً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل

واقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر^(٤) لجمع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما زئى الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿والليل إذا يسر﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هل في ذلك﴾ المذكور ﴿قسم لذي حجر﴾ أي: [لذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٦-١٤﴾ ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعباد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إرم﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذات العماد﴾ أي: القوة

الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿التي لم يخلق مثلها﴾ أي: مثل عاد ﴿في البلاد﴾ أي: في جميع البلدان [في القرية والشدة]، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما ثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمرود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال:

﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ لمن عصاه^(٥) يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿١٥-٢٠﴾ ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلاً لما * وتحبون المال حباً جماً * يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

(٥) في ب: لمن يعصيه.

(٣) في ب: الخلائق.

(١) في ب: كثير.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

(٢) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

له، فرد الله عليه هذا الحسبان: بقوله ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نَعَّمْتُهُ في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليري من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فيقله إلى العذاب الوبيل.

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحض بعضهم بعضاً على إطعام المحايوج من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكَلًا لَّمًّا﴾ أي: ذريعاً، لا تقون على شيء منه.

﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً شديداً، وهذا كقولته تعالى: ﴿بَلْ تَوَثَّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿٢١ - ٣٠﴾ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وحيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدمت حياتي * فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد * يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في

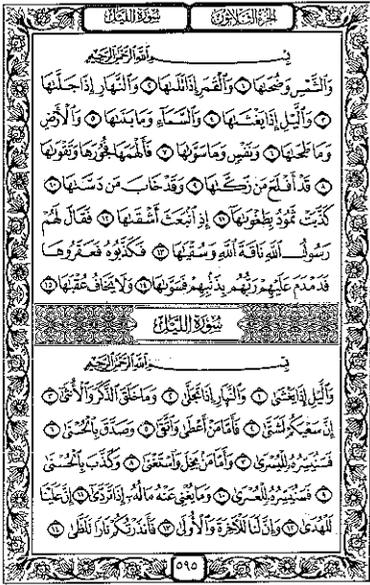
عبادي * وادخلي جنتي ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعاً صافصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم، صفاً صفاً أي: صفاً بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفاً، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ تفردوا الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور ف ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذُّكْرَىٰ﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها، يقول متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يا ليتني قدمت حياتي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً، كما قال تعالى: ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا بلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها^(١)، وفي تميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء، ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين، وأما من اطمأن إلى الله وأمن به وصدق رسله، فيقال له: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله. ﴿ارجعي إلى ربك﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من



أوليائه وأحبابه ﴿راضية مرضية﴾ أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾ وهذا مخاطب به الروح يوم القيامة، ومخاطب به في حال الموت^(٢) [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد^(٣) مكية

﴿١ - ٢٠﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد * والليد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * ألمحسب أن لن ينقلب عرشه أحد * يقول أهلكت ما لا ليبدأ * ألمحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه التنجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة * أولئك أصحاب اليمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم ناز مؤصدة ﴿بهذا البلد﴾

(٣) في ب: سورة البلد.

(٢) في ب: وقت السياق والموت.

(١) في ب: السعي في كمالها

فكها من الرق، بعثتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكأن الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أور إطعام في يوم ذي مسغبة﴾

أي: جماعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي: جامعاً بين كونه يتيماً، فقيراً ذا قرابة، ﴿أو مسكيناً ذا مقربة﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ﴿ثم كان من الذين تاجر مع الله، وبيع أضعاف أصعاف ما أنفق﴾^(٥) أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات

بجوارحهم من كل قول^(٦) وفعل واجب أو مستحب، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلدة بأن يبحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك، والأتيان به كاملاً منتشرحاً به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وتواصوا بالرحمة﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقترام هذه العقبة ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحاً، ولا رحموا عباد الله، ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ عليهم نار مؤصدة ﴿أي: مغلقة، في عمد ممددة،

أن لن يقدر عليه أحد﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، ذ ﴿يقول أهلكت ما لألبدا﴾ أي: كثيراً، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعال الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وبيع أضعاف أصعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفترخ بما أنفق في الشهوات: ﴿أحسب أن لم يره أحد﴾ أي: أحسب^(٧) في فعله هذا، أن الله لا يراه ومحاسبه على الصغير والكبير؟

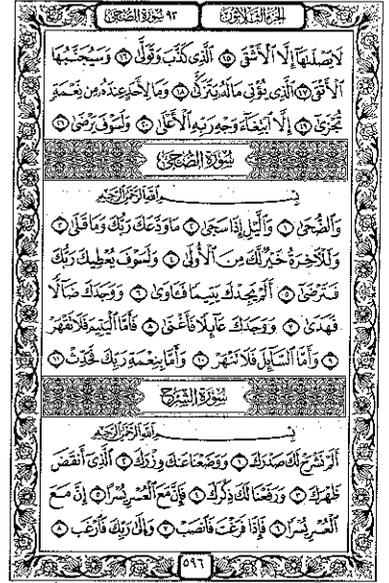
بل قدره الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿الم نجعل له عينين﴾ ولساناً وشفقتين ﴿للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿وهديناه بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي﴾.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه^(٨)، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿١١﴾ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبِع لشهواته^(٩).

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة بقوله: ﴿فك رقبة﴾ أي:



الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالد وما ولد﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الانسان في كبد﴾، يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريجه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبداً الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، مقدر^(١٠) على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتحبّر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿أحسب

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أبطن.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأقيمت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.

قدمت من ورائها، لثلاث تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية

﴿١٥-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا تَلَاها * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاها * وَالْقَمَرِ
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاها * وَالسَّمَاءِ وَمَا
بَنَّاها * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاها * وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّاها * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ
خَاب مَن دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بَطْغَوَاهَا * إِذِ انبَعَث أَشْقَاهَا * فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا *
فكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم ربهم
بذنبهم فسواها * وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا *
أَقْسَمَ تَعَالَى بِهذه الآيات العظيمة، على
النفس المفلحة، وغيرها من النفوس
الفاجرة، فقال:

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونفعا الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام^(١) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه قاطل.

﴿والسما وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبنائها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنائها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مداها ووسعها، فتمكن

الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه^(٢) الانتفاع.

﴿ونفس وما سواها﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

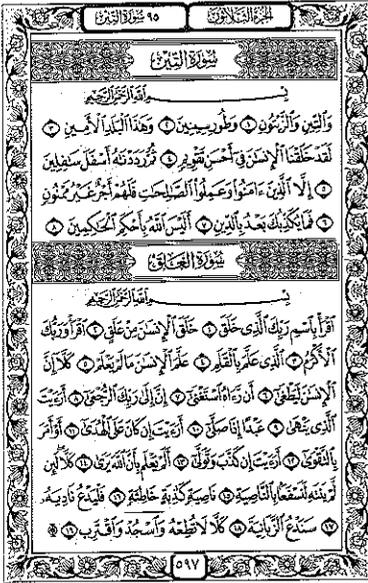
وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها^(٣)، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصود، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه^(٤) آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قد أفلح من زكاهها﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالردائل، والذنوب من العيوب والافتقار للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسها.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله^(٥)، ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأقر لهم.

﴿فقال لهم رسول الله﴾ صالح عليه السلام محذراً: «ناقاة الله وسقياها» أي: احذروا عقر ناقاة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً ﴿فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من



فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جائمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا نجياً.

﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة^(٦) ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: تبعتها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت لله الحمد

تفسير سورة الليل وهي مكية

﴿٢١-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنْ سَمِعْتُمْ لِسْتَى * فَمَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ * فَنَسِيْرَهُ لِلْيَسْرِ * وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلُ وَاسْتَفْتَى * وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى * فَنَسِيْرَهُ لِلْعُسْرِ * وَمَا يَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنْ عَلَيْنَا لِلْهَدَى * وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى * فَاَنْذَرْتُمْ نَاراً تَلْظَى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ

(٥) في ب: على رسولهم.

(٦) في ب: في العقوبة.

(٣) في ب: يحق الإقسام بها.

(٤) في ب: على ما هي عليه.

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.

(٢) في ب: أوجه.

العقائد الحسنة، ﴿فستيسره للعسرى﴾ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وما يغني عنه ماله﴾ الذي أطغاه واستغنى به، وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح^(٤).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالا عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويدين من رضاه، وأما الضلال، فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين، ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ أي: تستعر وتتوقد، ﴿لا يصلاحها إلا الأشتى﴾ الذي كذب ﴿بالخبر﴾ وتولى ﴿عن الأمر﴾.

﴿وسيجنبها الأتقى﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴿بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب^(٥)، قاصداً به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأها،

بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ يبقی السعي له^(٦) ببقائه، ويتنفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي بطلانها، ويضمحل باضمحلها؟

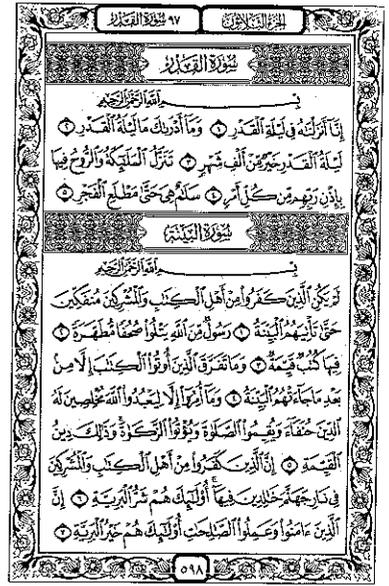
وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا فضل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فأما من أعطى﴾ [أي] ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات، والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما.

والركبة منهما، كالخج والعصرة، [ونحوهما] ﴿واتقى﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فستيسره للعسرى﴾ أي: سهّل عليه أمره، ونجعله ميسراً له^(٣) كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿واستغنى﴾ عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من



وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى * هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: يجم] الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه^(١) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية، كان قسماً بخلقها للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك

(١) في ب: بكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي يسر له أمره، ونجعله سهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأدناس..

وربما بقي له الفضل والمئة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رفيق إحسانه وحده، وأما من بقي^(١) عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن لله ورسوله النمة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إلا ابتغاء وجهه ربه الأعلى﴾ * ولسوف يرضى ﴿ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الضحى وهي مكية

﴿١- ١١﴾ * ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والضحى﴾ * والليل إذا سجي * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدهك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴿ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجي وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ

ربك ورعاك، بل لم يزل يربك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وما قلا﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج^(٢) الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبل، فقال: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج^(٣) المعالي، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل^(٤) إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرّة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله^(٥) [الخاصة] فقال: ﴿ألم يجدهك يتيماً فأوى﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالؤمنين.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

(١) في ب: بقيت.

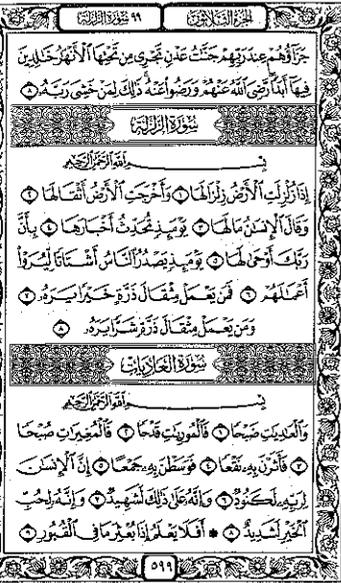
(٢) في ب: درجات.

(٣) في ب: درجات.

(٤) في ب: ما وصل.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.

(٦) في ب: فأعناك الله بما فتح عليك.



﴿ووجدك عائلاً﴾ أي: فقيراً ﴿فأغنى﴾ بما فتح الله عليك^(٦) من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعظه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام^(٧) يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعظه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمعلم، والسائل للمعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

(٧) في ب: لا يصدر منك كلام

السائل.

فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك .

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت والله الحمد .

تفسير سورة التين وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلِمُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَلَدِينَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام .

﴿وطور سينين﴾ أي : طور سيناء، محل نبوة موسى ﷺ، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات^(١) وأشرفها .

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي : تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قدرضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفاسف الأخلاق، فردداهم الله في أسفل سافلين أي : أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فليهم﴾

﴿الذي أنقض﴾ أي : أثقل ﴿ظهيرك﴾ كما قال تعالى : ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ . ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي : أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالی، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته .

وقوله : ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً ﴿بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجنه، كما قال تعالى : ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ : ﴿وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً﴾ .

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين .

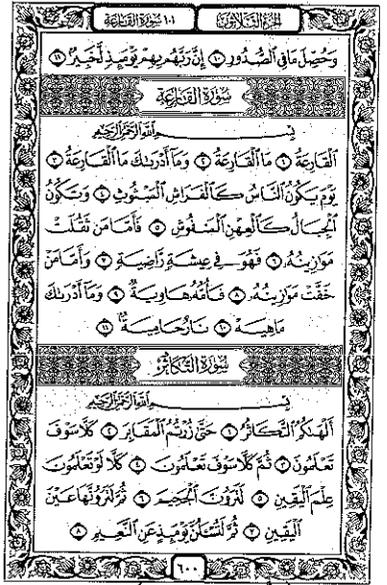
وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستخراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له .

ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال : ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي : إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء .

﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي : أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك^(٢) .

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين .

وقد قيل : إن معنى قوله : فإذا



﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فحدث﴾ أي : أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة .

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن .

تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك [وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب﴾ يقول تعالى - مختصاً على رسوله - : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي : توسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجاً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطاً .

﴿ووضعنا عنك ويزرك﴾ أي : ذنبك

(٢) في ب : أفضل الأنبياء وأشرفهم .

(١) في ب : دعواتك .



﴿أرأيت إن كذب﴾ الناهي بالحق، ﴿وتولى﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ألم يعلم بأن الله يرى؟ ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: ﴿كلا لئن لم ينته﴾ عما يقول ويفعل ﴿لنسفنم بالناصية﴾ أي: لتأخذن بناصيته، أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿فليدع﴾ هذا الذي حرق عليه العقاب^(٥) ﴿ناديه﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينه على ما نزل به، ﴿سندعوا الزبانية﴾ أي: خزنة جهنم، لأخذة وعقوبته، فليُنظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعده به من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنتهيه، فقال: ﴿كلا لا تطعه﴾ [أي:] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة السدارين، ﴿واسجد﴾ لربك ﴿واقترب﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدني من رضاه وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي

(٥) في ب: العذاب.

بذلك المنازل العالية، و﴿أجر غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبدا لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها، ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفري شيء مما أخبرك به، ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يشابون ولا يعاقبون؟

ثم قال: ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم^(٤). و﴿علم بالقلم﴾ علم الإنسان ما لم يعلم فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والنفوس، وسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينتهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرد العاقب: ﴿أرأيت﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿إن كان﴾ العبد المصلي ﴿على الهدى﴾ العلم بالحق والعمل به، ﴿أو أسر﴾ غيره ﴿بالتقوى﴾.

فهل يحسن أن ينتهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحاذة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمنون. تمت والله الحمد.

تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١-١٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ خلق الإنسان من علق ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ الذي علم بالقلم ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ كلا إن الإنسان ليطغى ﴿أن رآه استغنى﴾ إن إلى ربك الرجعى ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ أو أمر بالتقوى ﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾ ألم يعلم بأن الله يرى ﴿كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية﴾ ناصية كاذبة خاطئة ﴿فليدع ناديه﴾ سندع الزبانية ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ،

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه * يقول تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ أي: [من اليهود والنصارى والمشركون] من سائر أصناف الأمم.

﴿منفكين﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين^(٥) إلا كفراً.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿رسول من الله﴾ أي: أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويتركبهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿يتلو صحفاً مطهرة﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فيها﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كتب قيمة﴾ أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك بيدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿الله مخلصين له الدين﴾ أي:

﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها]، وهذا مما تتحير فيه^(٣) الألباب، وتندبش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي: يكثرون نزولهم فيها ﴿من كل أمر﴾ سلام هي ﴿أي: سائلة من كل أفة وشر، وذلك لكثرة خيرها،﴾ حتى مطلع الفجر ﴿أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر﴾^(٤)

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة.

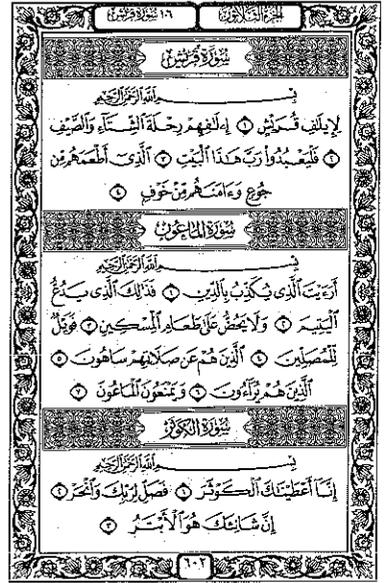
ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلة القدر [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن وهي مدنية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منافكين حتى تأتيهم البينة﴾ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك

(٤) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

(٥) في ب: الأوقات.



عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبت به^(١) وآذاه. تمت والله الحمد

تفسير سورة القدر وهي [مكية]

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وذلك أن الله [تعالى]، ابتداءً بإنزاله^(٢) في رمضان [في] ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكرياً.

وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة.

ثم فحّم شأنها، وعظّم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي: فإن شأنها جنلي، وخطرها عظيم،

(١) في ب: وعذبه.

(٢) في ب: ابتداءً بإنزال القرآن.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يوم تحد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ [ووجدوا ما عملوا حاضراً].

وهذه الآية فيها غاية الترهيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١١ - ١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ صَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا * فَأَنْرَنَّ بِهِ نَقْعًا * فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ * بَعَثْنَا فِي الْقِيَامَةِ * وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ * أَقْسَمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْحَلِيلِ، لَمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ، وَنِعْمَ الظَّاهِرَةُ، مَا هُوَ مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ صَبْحًا﴾ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً، يصدر عنه الضحك، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو^(٥). ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ أي:

تقدح^(٦) النار من صلابة حوافرهن [وقوتهن] إذا عدون، ﴿فَالْمَغِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صَبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فَأَنْرَنَّ بِهِ﴾ أي: بعدوهن وغارتهن ﴿نَقْعًا﴾ أي: غباراً، ﴿فَوْسَطْنَ بِهِ﴾ أي: براكينهن ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي

تفسير سورة إذا زلزلت^(١) وهي مدنية

﴿٨ - ١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * يَغِيْرُ تَعَالَىٰ عَمَّا يُكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ تَنْزَلُ وَتَرْجَفُ وَتَرْتَجُ، حَتَّىٰ يَسْقُطَ مَا عَلَيْهَا مِنْ بِنَاءٍ وَعَلْمٍ^(٢).

فتندك جبالها، وتُسَوَّى تلالها، وتكون قاعاً صافصفاً لا عوج فيه ولا أمّ.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكنوز، ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا؟ أَي: أَيُّ شَيْءٍ عَرَضَ لَهَا؟﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ الْأَرْضُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [أي] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره^(٤).

﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقاً متفاوتين. ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليربهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويربهم جزاءه موفراً.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر

قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حنفاء﴾ أي: معرضين [مائثلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿وَيُنِ الْقِيَمَةَ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون، ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١).

[تمت والحمد لله]

(٥) في ب: عدوها.

(٦) في ب: تنقدح.

(٢) في ب: ومثلّم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا ستعصي.

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فأما هابوية﴾ أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسماؤها الهابوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إن عذابها كان غراماً﴾.

وقيل: إن معنى ذلك، فأم دماغه هابوية في النار أي: يلقي في النار على رأسه.

﴿وما أدراك ما هي﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نار حامية﴾ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

تفسير سورة الهالك المتكاثر وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الهالك المتكاثر﴾ حتى زرتم المقابر ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ثم كلا سوف تعلمون ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ لترون الحميم ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴿يقول تعالى موبخاً عباده عن وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: ﴿الهالك﴾ عن ذلك المذكور ﴿التكاثر﴾ ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى^(٥).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] حتى زرتم المقابر ﴿فانكشف لكم حيثئذ الغطاء، ولكن

بذلك، الجزء بالأعمال^(٤)، الناشئة عن علم الله وإطلاعه.

تفسير سورة القارعة وهي مكية

﴿١١-١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم القارعة﴾ ما القارعة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ فأما من ثقلت موازينه ﴿فهو في عيشة راضية﴾ وأما من خفت موازينه ﴿فأما هابوية﴾ وما أدراك ما هي ﴿نار حامية﴾ ﴿القارعة﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تفرغ الناس وترزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿القارعة﴾ ما القارعة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس ﴿من شدة الفزع والهول، كالفراش المبثوث﴾ أي: كالجراد المنتشر، الذي يمجج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يمجج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون ﴿كالعهن المنفوش﴾ أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ربح، قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ثم بعد ذلك تكون هباء منسوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فهو في عيشة راضية﴾ في جنات النعيم. ﴿وأما من خفت موازينه﴾ بأن لم

عليه لربه^(١) فطبيعة [الإنسان] وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق، ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يحجده ولا ينكره، لأن ذلك أمرٌ بين واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وإنه﴾ أي: الإنسان ﴿الحب الخبير﴾ أي: المال ﴿لشديد﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٢) ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حائلاً على خوف يوم الوعيد:

﴿أفلا يعلم﴾ أي: هلاً يعلم هذا المغتر ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

﴿وحصّل ما في الصدور﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها] ما استتر في الصدور من كمان الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إن ربهم بهم يومئذ خبير﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره^(٣) بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد

(١) في ب: الله عليه.

(٢) في ب: على رضا ربه.

(٣) في ب: خبرهم.

(٤) في ب: المراد بهذا الجزء على الأعمال.

(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

في عميدٍ ممددة ﴿ويل﴾ أي: وعيد، وويلان، وشدة عذاب ﴿لكل همزة لمزة﴾ الذي يهزم الناس بفعله، ويلمزمهم بقوله، فالهماز: الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعيهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز للماز، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك، ﴿يحسب﴾ بجعله ﴿أن ماله أخلده﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار، ويحرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كلا لينبذن﴾ أي: ليطرحن ﴿في الحطمة﴾ وما أدراك ما الحطمة ﴿تعظيم لها، وتهويل لشأنها.

ثم فسرها بقوله: ﴿نار الله الموقدة﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿التي من شدتها﴾ تطلع على الأفتدة ﴿أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي: مغلقة، ﴿في عميد﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾.

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية].

تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ فجعلهم

بالصبر ﴿أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الربح.

والخاسر مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خساراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده^(٢)، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلدة.

فبالأميرين الأولين يكمل الإنسان^(٤) نفسه، وبالأميرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح [العظيم].

تفسير سورة الهمزة وهي مكية

﴿١٦-٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ويل لكل همزة لمزة ﴿الذي جمع مالا وعدده﴾ ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ ﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾ ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ ﴿نار الله الموقدة﴾ ﴿التي تطلع على الأفتدة﴾ ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾

بعدها تعذر عليكم استثنائه.

ودل قوله: ﴿حتى زرم المقابر﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية^(١)، لأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين.

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال^(٢)، في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ثم كلا سوف تعلمون ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي، صبركم إلى ما ترون، ﴿لترون الجحيم﴾ أي: لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي: رؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾.

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه، فيعصمكم نعيماً أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله، فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ الآية.

تفسير سورة العصر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والعصر﴾ ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

(١) في ب: الآخرة.

(٢) في ب: على الأعمال.

(٣) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده.

(٤) في ب: العبد.

الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ

ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاؤُونَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رثاء الناس.

﴿٧﴾ ﴿وَيَمْتَعُونَ بِالْمَاعُونَ﴾ أي:

يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإئناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به^(٧).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الحث على إكرام^(٨) اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] وفي جميع الأعمال. والحث على [فعل] المعروف و[بذل] الأمور الخفيفة، كعمارة الإئناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عمتاً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض^(٩).

طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آتيته كنجوم^(١٠) السماء في

ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليوحده ويخلصوا له العبادة، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخض الله بالربوبية البيت^(١١)، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدّة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى^(١٢) عقاباً.

﴿وَلَا يَحْضُ﴾ غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ومن باب أول أنه بنفسه لا يطعم المسكين، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الملتزمون^(١٣) لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها^(١٤)، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم^(١٥)، وأما السهو في

كعصف مأكول﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا يقبل للعرب به، من الخيشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة حممة من سجيل، فرمتهم بها، وتبعث قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة] وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهابات دعوته، ومقدمات^(١٦) رسالته، فله الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِيلَافٍ قَرِيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى أحترمهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا،

(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض

الذي يقال له: الكوثر.

(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

(٥) في ب: مخلون بأركانها.

(٦) في ب: الذم والوعيد.

(٧) في ب: يبذله والسماح به.

(٨) في ب: إطعام.

(١) في ب: أدلة.

(٢) في ب: الربوبية بالبيت.

(٣) في ب: يخاف.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.

دين ﴿ كما قال تعالى ﴾: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ .

كثرتها واستارتها ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً .

ولما ذكر منته عليه ، أمره بشكرها فقال : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر ، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات .

تفسير سورة النصر وهي مدنية (٢)

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ في هذه السورة الكريمة ، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها ، وإشارة وتبئيه على ما يترتب على ذلك .

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله ، ونقلها في أنواع العبودية ، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر ، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به .

﴿ إن شانئك ﴾ أي : مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿ هو الأبر ﴾ أي : المقتطوع من كل خير ، مقطوع العمل ، مقطوع الذكر .

وأما محمد ﷺ ، فهو الكامل حقاً ، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق ، من رفع الذكر ، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ .

تفسير سورة الكافرون

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين ﴾ أي : قل للكافرين معلنا ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي : تبرا مما كانوا يعبدون من دون الله ، ظاهراً وباطناً .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته (١) ، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة ، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل ، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً .

ولهذا ميز بين الفريقين ، وفصل بين الطائفتين ، فقال : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ في هذه السورة الكريمة ، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها ، وإشارة وتبئيه على ما يترتب على ذلك .

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله ، وفتحه مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره ، بعد أن كانوا من أعدائه ، وقد وقع هذا المبشر به ، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح ، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك ، ويسبح بحمده ويستغفره ، وأما الإشارة ، فإن في ذلك إشارتين : إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين (٣) ، ويزداد عند حصول التسيح بحمد الله واستغفاره من رسوله ، فإن هذا من الشكر ، والله يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمراً ، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان ، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره ، حتى حدثت من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدثت ، فابتلاههم الله (٤) بتفريق الكلمة ، وتشتت الأمر ، فحصل ما حصل .

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين ﴾ أي : قل للكافرين معلنا ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي : تبرا مما كانوا يعبدون من دون الله ، ظاهراً وباطناً .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته (١) ، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة ، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل ، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً .

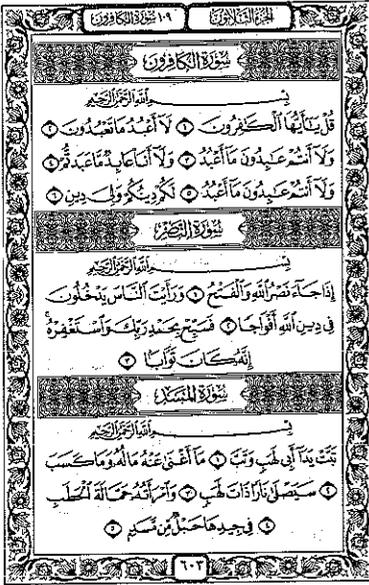
ولهذا ميز بين الفريقين ، وفصل بين الطائفتين ، فقال : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ .

(١) في ب : إخلاصكم في عبادتكم لله .

(٢) في ب : وهي مكة .

(٣) في ب : إشارة أن النصر يستمر للدين .

(٤) في ب : فابتلوا .



يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال .

وأما الإشارة الثانية ، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا ، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به .

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تحتم بالاستغفار ، كالصلاة والحج ، وغير ذلك .

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال ، إشارة إلى أن أجله قد انتهى ، فليستعد وينتهي للقاء ربه ، ويختم عمره بأفضل ما يجيده صلوات الله وسلامه عليه .

فكان ﷺ يتأول القرآن ، ويقول ذلك في صلاته ، يكثُر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي » .

تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تبت بدا أي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾

زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من ممد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامراته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا يبد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: ﴿قل﴾ قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿هو الله أحد﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له

الصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿الله الصمد﴾ أي: المقصود في جميع الخواتج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الخليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿لم يلد ولم يولد﴾ لكمال

غناه، ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق [وهي] مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكٍ * الْقَدِيمِ * الرَّحْمَنِ * الرَّحِيمِ * إِلَهِنَا * إِلَهُ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة

برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وما داتها، الذي من فتنته وشره، أنه



ناراً ذات لهب * وامراته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد * أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حية للقرابة - قبحه الله - فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزى عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي: خسرت يداه، وشقي ﴿وتب﴾ فلم يربح، ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، ﴿سيسيل ناراً ذات لهب﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وامراته حمالة الحطب﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً * ﴿من مسد﴾ أي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الحطب على

يقنط من رحته إلا القوم الضالون .
وصلى الله وسلم على رسوله محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة
وسلاماً دائمين متواصلين أبد
الأوقات ، والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصلوات .

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن
توفيقه ، على يد جامعته وكتابه ،
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
المعروف بابن سعدي ، غفر الله له
ولوآلديه وجميع المسلمين ، وذلك في
غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين
وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ^(١)

وبينها ، ويريد أن يجعلهم من حزبه
ليكونوا من أصحاب السعير ،
والوسواس كما يكون من الجن يكون
من الإنس ، ولهذا قال : ﴿ من الجنة
والناس ﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً
وأخراً ، وظاهراً وباطناً .

ونسأله تعالى أن يتم نعمته ، وأن
يعفو عنا ذنوباً لنا حالت^(١) بيننا وبين
كثير من بركاته ، وخطايا وشهوات
ذهبت بقلوبنا عن تدبير آياته .

ونرجوه ونأمل منه أن لا يجرنا خير
ما عنده بشر ما عندنا ، فإنه لا يأس
من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا

يوسوس في صدور الناس ، فيحسن
[لهم] الشر ، ويريمهم إياه في صورة
حسنة ، وينشط إراداتهم لفعله ، ويقبح
لهم الخيز ويشبطهم عنه ، ويريمهم إياه في
صورة غير صورته ، وهو دائماً بهذه
الحال يوسوس ويخنس أي : يتأخر إذا
ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه .

فينبغي له أن [يستعين و] يستعيد
ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم داخلون تحت
الربوبية والملك ، فكل دابة هو أخذ
بناصيتها .

وبالوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا
تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي
يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم

(١) في ب : ذنوبنا التي حالت .

(٢) في ب : ووقع الثقل في شعبان ١٣٤٥ رينا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم .

الملاحق

١- أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان.

17

18

19

أصول وكليات

من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المُفسر للقرآن^(١)

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعمُّ، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولاتعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب». وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لاتزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لاتصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيز وحقق وُجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلَّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لاتتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخير إلا به،

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة لللائقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والفريضة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يصاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضع الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المشمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والشأن على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المتشفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع^(١)].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة. والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد. والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمايتهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك. حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تمعدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي .
 والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة .
 المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه .
 الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام .
 مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة .
 النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي .
 القرآن، كله مُحكمٌ، وأُحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق،
 وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابه، من جهة اتفاه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال
 اتفاهه .

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني . ومحكمه،
 واضح مبين صريح في معناه، إذا رُذ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه .
 معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا .
 ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللفظ، والتأييد .
 الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله .
 ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار .
 الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب
 والمكاسب . والخبيث ضد ذلك .

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
 كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) .

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة
 المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير .

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة .
 وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدنيوية، مع
 الثقة به في حصول ذلك .

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات . هو: الذي يفهم، ويعقل
 الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حَجْرٌ، ولَبٌّ، ونُهْيٌ، لأنه
 يحجر صاحبه وينهاه عما يضره .

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي
 تهدي إليها .

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل .
 لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب . ويراد به «المدة»،

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيَنقُصَ عَنْكُمْ مِنْ جِهَاتٍ كَذَلِكَ يَضِلُّ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يَدِينُونَ﴾ .
 تمنصوا فيه واعلموا أن الله غني حميد .

ويراد به «الدين» و«الملة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّيَ بِ«عَلَى» كان معناه العلو والارتفاع، «ثم استوى على العرش».

وإن عُذِّيَ بِ«إِلَى» فمعناه قصد، كقوله: «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات».

وإن لم يُعَدَّ بِشيء، فمعناه «كَمُلَ»، كقوله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى».

«التوبة» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسييح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

«الرب»: هو الربوبي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«الله»: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

«الملك، المالك»: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«الواحد، الأحد»: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفردته بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«الضمد»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضروراتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«المعلم، الخبير»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

«الحكيم»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتزليها منازلها.

«الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«السميع» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفتن الحاجات.

«البصير» الذي يُبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويُبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«الحميد» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«المجيد، الكبير، العظيم، الجليل» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«العفو، الغفور، الغفار» الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾.

«التواب» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«القدوس، السلام» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنزه عن جميع العيوب، والمنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿ليس كمثله شيء﴾ ولم يكن له كفواً أحد ﴿هل تعلم له سمياً﴾ ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾.

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتهى ثبت الكمال كله.

«العلي الأعلى» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

«العزیز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليفة وخضعت لعظمته.

«القوي، المتين» هو في معنى العزيز.

«الجبار» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه ولجأ إليه.

«المتكبر» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«المخالق، البارئ، المصور» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

«المؤمن» الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

«المهيمن»: المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«القدير» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«اللطيف» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا واليوطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

«الحسيب» هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

«الرقيب» المطلع على ما أكتنه الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجرها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«الحفيظ» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزأها.

«المحيط» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«القهار» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

«المُقيت» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

«الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أوليائه، فيسرههم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

«ذو الجلال والإكرام» أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجلود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجعلونه ويعظمونه ويحبونه.

«الودود» الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودأ وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«الفتاح» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي يتلون بها خير الدنيا والآخرة ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

«الرزاق» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البرّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«الحكم، العدل» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره «إن ربي على صراط مستقيم».

«جامع الناس» ليوم لاريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكامل قدرته، وسعة علمه.

«الحي القيوم» كامل الحياة والقائم بنفسه. القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، «الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم» الجامع لصفات الأفعال.

«النور» نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدأته، وهو الذي أثار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«بديع السموات والأرض» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«القباض الباسط» يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«المعطي، المانع» لمانع لما أعطى، ولامعطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمتنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«الشهيد» أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«المبدئ، المعيد» قال تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده»، ابتداء خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإنساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«الفعال لما يريد» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريدُه يفعلُه بلامانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عون، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، لإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«المغني، المقتني» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنياً عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«الحليم» الذي يدُرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة ذلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«الشاكر، الشكور» الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«القريب، المجيب» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائله، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسليده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإجابة^(١) للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشروعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاءً وخوفاً.

«الكافي» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

«الواسع» الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يُخصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

«الهادي، الرشيد» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيية إليه منقادة لأمره. وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«الحق» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإجابة) والله أعلم.

Handwritten paragraph of text, starting with a capital letter.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

Handwritten section header or sub-heading.

Handwritten paragraph of text.

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ فإن ختمتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمتتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿على الصلوات﴾ عموماً، وعلى ﴿الصلوة الوسطى﴾ وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، أي: ذليبين مخلصين خائبين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع،

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿فإن ختمتم﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصولاً، ﴿وجالاً﴾ ما شين على أرجلكم.

﴿أو ركبانا﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فإذا أمتتم فاذكروا الله﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سب لتعليم علوم أحر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾.

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، وأن الأمر

كان على الزوجة، أن تربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحريم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يتقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخطاها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يتوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا خرج عليها، ولهذا قال: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾، أي: من النجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ لما بين في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويغطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، وإنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره. وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾، والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أتى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقته للمعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وقهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوفاء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فراراً من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضلته وإحسانه، وهو لا زال فضلته على الناس، وذلك موجب لشكرهم. نعم الله بالاعتراف بها وصرافها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلت متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجبناً عن لقاءهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

﴿٢٤٤-٢٤٥﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه، بيان يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه يعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا يد أن يمددهم بمعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مناً ولا أذى؛ ولا مطلاً ومنقصاً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا يتكلموا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يظلموا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم

الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ وأنه عين لهم نبيهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً.

فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والتجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقتناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكية من ربكم ببقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحيث سلموا واتفقوا.

﴿٢٤٩﴾ فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والههم، ما يحتاج إلى تمييز الضاير من الناكل، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمررون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، ووفور جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به تكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بمعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقتل داود﴾ و﴿جالوت﴾ وحصل بذلك الفتح والتصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود ﴿الملك والحكمة﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ثم بين تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفساد، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراخوا قليلاً، فإنهم سيعتوبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيش،

أن يتفقدتها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور الناس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكص أكثرهم، وشبهه هذا قوله ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي.

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الوسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصَّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبده صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله بيزى الأكمة والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، وكلم الناس في

المهد صبياً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيداه الله بإعاناته ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخير عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والالتقاد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى؛ يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيتته منافع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعض؛ فهذا مما يدعوههم إلى الإنفاق.

ومما يدعوههم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تفيد

فيه المعاوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنتفع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسوق، والمعيان، فلم يتقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالهوية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿القيوم﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته .
ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وأمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً، ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفضن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخصوع المتضرعين .

﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكتنه الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازى كل أحد بحسب ما يعلمه، من نيته وعمله .

﴿٢٥٧﴾ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة .

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافية، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذف فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم ليسرى، ويجنبهم العسرى .

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم وأشقّوهم، وحرّموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرّموهم السعادة، وصارت النار مشواهم، خالدين فيها مخلدين .

اللهم تولنا فيمن توليت .

﴿٢٥٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقص الله علينا من آباء الرسل والسالفين، ما به تبيين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد .

وذلت له الرقاب .
﴿العظيم﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والسجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم .

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متديراً متفهماً، أن يستلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان .

﴿٢٥٦﴾ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فللكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده .

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين .

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البرز والفساجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي .

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقولها ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نهى عليه .

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح،

﴿لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ﴾، أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان للذي العظمة والكبرياء والجلال .

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله ممالئك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إِنْ كَلَّمْنَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾، فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يشفع عنده﴾ أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فكل الوجهاء والشعفاء عبيد له ممالئك، لا يقدمون على شفاعته حتى يأذن لهم. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، له ملك السماوات والأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يَأْذَنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْفَعَ إِلَّا فِيمَنْ ارْتَضَىٰ﴾، ولا يرتضى إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعه نصيب .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ .

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ .

ثم أخبر عن عظيمته وجلاله، وأن كبريه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات .

ومع ذلك ف ﴿لَا يُؤْودُهُ﴾، أي: يشقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه .

﴿وهو العلي﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب،

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود^(١) البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطناه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد ﷺ.

فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباحثاً: ﴿أنا أحيي وأميت﴾، وعنى بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستحيي من أردت استيقاه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل موهماً تمويهياً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم - ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾، أي: وقف، وانقطعت حججه، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراد الخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكروه إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿٢٥٩-٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عرشها قال أئني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

هذان دليان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحداً أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مرّ على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أئني يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبثت مائة عام﴾، والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -

فأى آية وبرهان، يرجع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرّب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فلما تبين له﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٦٠﴾ وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أولم تؤمن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿بلى﴾ يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنتك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

(١) كذا في الأصل وسأيتي بعد قليل تسميته بـ (نمرود).

أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال: فخذ أربعة من الطير﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فصرهن إليك﴾ أي: ضمنهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن، يأتيك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

فجعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حولها، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخضن الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجنن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله.

﴿٢٦٦-٢٦٢﴾ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

وبلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة

دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومضالح متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه مئاً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية.

فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تتاله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفس عنهم المكروه الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق مئاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتبار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطى، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرأ.

فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤدي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحقم والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم يبارزون له بالمعاصي.

﴿٢٦٤-٢٦٦﴾ ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مئاً ولا أذى، وللمن أتبعها مئاً وأذى، وللمراتي.

﴿٢٦٥﴾ فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها عزيز.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل ظل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا ﴿آتت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مئاً وأذى، أو عمل عملاً، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إعصار﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار فاحترقت﴾، وله ذرية ضعفاء، وهو

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أظفح الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أيود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستسهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإنتاج ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراني الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أثبت كما تثبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوبال الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المراني، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة. ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿٢٦٧-٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واحصلوا أن الله غني حميد﴾ * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض،

من الحبوب والشمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها، المعدة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والشمار، ويدخل في عمومها القرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممتنع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزى عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المنتدوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المتفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومخض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشهه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإسناك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والأجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإسناك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهيات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوقفه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المتفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم، ﴿إلا أولو الألباب﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضرار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس».

﴿٢٧٠-٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ * إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المتفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويُرَبِّي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأنزبنا بخراب أموالكم لا تتظلمون ولا تنظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم، إلى يوم بعثهم ونشورهم * إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس * أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وحزني وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فجمعوا - بجزائهم - بين ما أحل الله، وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فإله لا يضع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص. وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٣-٢٧٤﴾ ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم * الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني أنه ينبغي أن تنحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رأهم الجاهل ظن أنهم أغنياء * لا يسألون الناس إلحافاً﴾، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما انصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحابيح حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلمهم بظلم يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: ﴿إن العبد ليتصدق بالتمره من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم﴾.

﴿٢٧٥-٢٨١﴾ ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمتعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصاف، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧٦﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: ﴿من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه﴾.

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، وهن أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً، لحصول الآسوة والافتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والشواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلاً بعمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٧﴾ ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا ينفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقون من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وجزهم عن الشر، وأما الهداية، فييد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعهم إلى ذلك، فهنا خير وتركية للمؤمنين،

عليهم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتنموا الشهادة وامن يكتنمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليماً.

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المدائيات وخلو الإجازات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون.

وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى، والأوقاف، والكلاء، والأمناء، وقد يقارب التوجب، كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد، فقد يقوى التوجب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات: المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقربة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً عدلاً عند الناس رصياً، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلها بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

الناس بأخذ الربا ﴿ولا تظلمون﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سائلة، فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

﴿٢٨٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾، أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظرة إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على العبد، التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

﴿٢٨١﴾ ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون﴾.

﴿٢٨٢-٢٨٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، كغيرها من آيات الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مقال حبة خرد من الإيمان، من النار. ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار، إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين، ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامثال أمره.

فالمجتريء على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده، وهذا مشاهد بالتجزئة، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾.

﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾، وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء، تائباً من المآثم والذنوب.

﴿٢٧٧﴾ ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم.

﴿٢٧٨﴾ ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويلدروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصّر عليه، محارباً لله ورسوله.

﴿٢٧٩﴾ ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾ يعني من المعاملات الربوية.

﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكتاب، ولا بالشهيد، بأن يدعى في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضاً نهى للكتاب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكتاب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، ف «هل جزء الإحسان إلا الإحسان؟»

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجه الله على الكتاب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: «ذللكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا»، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكتاب بقوله: «كما علمه الله»، ومع هذا: «فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب، فسوق بالإنسان، فإن السوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتععض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: «فإنه

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المديونات، فتحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما يتنافى ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فياب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الذنوبية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى»، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعبرة في كل معاملة بحسبها، والمعرف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابه حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: «ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله».

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصفه، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنتته في معاملة، وفوضته فيها، فقله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخص الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباطنين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

منها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتبها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه «عليم» بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

فسوق بكم﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمته أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم وديانهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل برأ أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فإن آمن بعضكم بعضاً، فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمن معاملته، فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامثالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه «إنه كان للأوابين غفوراً».

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿امن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا ربنا وإليك المصير﴾ * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وافرغ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ثبت عنه ﷺ

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿امن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا ربنا وإليك المصير﴾ * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وافرغ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ثبت عنه ﷺ

غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة.

فيردون المشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: ﴿أماناً به كل من عند ربنا وما يذكر﴾ للأمر النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إلا أولوا الألباب﴾، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على ﴿إلا الله﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾، أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة﴾، تصلح بها أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾، أي: كثير الفضل والهيأت.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه، عقوبة له على زيغ، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأثارة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ هذا

﴿٥﴾ ومن تمام قيوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦﴾ فهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، منتقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتبين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿٧﴾ ﴿إله إلا هو العزيز﴾ الذي بهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو يتعنت بدم ﴿الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

﴿٨ - ٧﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أماناً به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وأرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى. وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه المثم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإلتفاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد. ثم تفسير سورة البقرة، والله الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ﴿من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ ﴿الم﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢ - ٣﴾ فأخير تعالى أنه ﴿الحي﴾ كامل الحياة، ﴿القيوم﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصديق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿أنزل التوراة والإنجيل﴾. ﴿٤﴾ ﴿من قبل﴾ هذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الحجيم، فالذين آمنوا به واهدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والشواب العاجل والأجل.

﴿إن الذين كفروا بآيات الله التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله﴾ لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴿ممن عصاه﴾.

من تتمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿لما ذكر يوم القيامة﴾ ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم، لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ وعجل لهم العقوبات الدنيوية، متصلة بالعقوبات الآخروية.

﴿والله شديد العقاب﴾، فليأكم أن تستهينوا بعقابه، فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ قد كان لكم آية في فتنين التقتا فنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿وهذا خبر ويشري للمؤمنين، وتخويف للكافرين، أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فنتان، فئة المؤمنين لا يلبثون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان -

بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس. ﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿زَيْنَ لِّلنَّاسِ حِجْبِ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ قل أوثبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إثارة الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل، منقضى في مدة يسيرة.

فهذا ﴿متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات، والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل أفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿والله بصير بالعباد﴾ فيسير كل منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فيسيرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمثنون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَابِ أَي: هؤلاء

الراسخون في العلم، أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمَرْضَاتِهِ، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالإستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراجه بالعبودية، والاعتراف بانفراجه، بصفات العظمة والكبرياء، والمنجد، والعز، والقُدرة، والجلال، ونبهت الجود، والبِر، والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكمال المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الشئ عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسئبة، كله قسط وعدل.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله﴾، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات - : ﴿ذَلِكَ يَخُوفُ إِلَهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عَبْدًا فَاتَّقُونَ﴾، فرأته ورحمته، سهّلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورأته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلاية محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى منجته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجزاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكانه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتهما؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ بِامْتِنَالِ الْأَمْرِ، واجتناب النهي، وتصديق الخير، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى آخر القصة.

الله تعالى من عباده أصفاء، يصطفهم ويختارهم، ويخبر عنهم بالفضائل العالية، والتعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمال الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذريتهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا

تبعه النصرة. يخرج المضادات، بعضها من بعض، وقد اتفقت له جميع العناصر^(١).

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيهم، وإليه يرجعون وسيصبرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاه، على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَوَّءُوا عِلْمَهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إزادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صابرون إليه، وأعمالهم - حينئذ، من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يخطب أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، ويحشر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساج إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلاقي سميه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدته نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته، أنه خوف العباد،

فالحير والشر، كله داخل في القضاء والقدرة، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: «بيدك الخير والشر»، بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق، إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحتها.

﴿٢٨﴾ ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ التولي، ﴿فليس من الله في شيء﴾، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾.

وقوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلکم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد آثرت إبقائه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

وأخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين، ولسانه منطلق بذكر الله، وتسيبته، آية أخرى.

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالشايات والأبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران، على زكريا، فإن ما من الله به عليها، من ذلك الرزق الهنيئ، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهينجه على التصريح والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يجه، ليرفع الله قدره، ويعظم أجره.

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة والكمال، مبلغة عظيماً، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك، أي: اختارك، ووهب لك من الصفات الجليلية، والأخلاق الجميلة.

﴿وطهرتك﴾ من الأخلاق الرذيلة، ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾، ولهذا قال ﷺ: ﴿كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام﴾.

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك، لتغيب بنعم الله، وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يا مريم انتقي لريك﴾، أي: أكثري من الطاعة، والخشوع والخشوع لريك، وأديمي ذلك ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾، أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت، وفاقته في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا يتعلم من الناس - قال تعالى -: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾، حيث جاءت بها أمها،

حساب﴾.

فلما رأى زكريا هذه الحال، والير واللطف من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد، على حين اليأس منه، فقال: ﴿رب هب لي من لذنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله، اسمه أي: الكلمة التي من الله عيسى ابن مريم.

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم، تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة. فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾.

وقوله: ﴿وسيداً وحصوراً﴾، أي: هذا المبشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: «والحضور»، قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين.

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

﴿٤٠﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامراتي عاقر؟!، فهذا مانعان، فمن أي طريق - يا رب - يحصل لي ذلك، مع ما يتنافى ذلك؟!.

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاضى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت.

﴿٤١﴾ قال رب اجعل لي آية﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت - يا رب - متيقناً ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف.

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة ﴿اذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾، أول النهار

من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه. ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران، قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته -: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾، أي: خادماً لبيت العبادة، المشحون بالمتعبدين.

﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل، أي: اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مشراً للخير والثواب، ﴿إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾.

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرنا بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة والأنثى بخلاف ذلك، فحسب الله قلبها، وتقبل الله نذرنا، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً﴾، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً.

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين. ﴿٣٧ - ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها، ﴿وجد عندها رزقاً﴾، هنيئاً معداً.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير

الظالمين. اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعه من أن يقر.

وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة.

ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخت رسالته، الرسالات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نبأ الأولين والآخريين، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله المبينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿٥٩-٦٢﴾ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * لما ذكر قصة مريم وعيسى وبأههما الحق، وأنه عبد نعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل دعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباشلة، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيرونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيروه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم - إن باهلوه - هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فضالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المواعدة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يحرجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباشلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾، الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسموات.

ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١).

﴿٦٤﴾ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴿ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله﴾، الآية.

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبنية على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

﴿٦٥﴾ إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجونني فيما ليس لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿ كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾، فكلما قوي إيمان العبد، تولاها الله بلطفه، ويسره ليسرى، وجنبه العسرى.

﴿٦٩-٧٤﴾ ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام النجار بإضافة تفسيرها من عنده.

ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغيبهم.

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿ها كان ليشر أن يؤتبه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴿أي: يمنع ويستحيل كل الاستحالة ليشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!﴾

هذا من الممتنع، لأن حاله وما هو عليه، وما ينه الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين تهادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أئماننا يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١-٨٢﴾ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقضي للقيام التام، بحق الله وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقوا وتناهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: ﴿بلى﴾، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه ﴿من أوفى بعهده وأتقى﴾، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقى، والله يحبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمقته، وسيجازهبه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحظاظ القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، والعهود المنكوبة، فهؤلاء ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم﴾، أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه، وحرماً ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظام.

﴿٧٨﴾ ﴿وإن عندهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب﴾، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخروه لعلهم يرجعون﴾ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخيرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة.

فقال طائفة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾، أي: أوله، وأرجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، وإذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزد صاحبها - على طول السدى - إلا إيماناً و يقيناً.

ولم تزد شبهه، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث من به عليه.

وقولهم: ﴿أن يوتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة، الحسد والبغى، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿ورد كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾، الآية.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين ﴿يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة أمناة، بحيث لو أمنته على قناطير من القود، وهي المال

الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليم.

وسيجزي كل متفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالتعمير الأجل.

﴿٩٣-٩٤﴾ «كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون» من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنسبة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

نكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة جرمها إسرائيل، وهو: يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلالاً قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم - إن أنكروا ذلك - «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للنسخ، فهو الواجب، وإن أبي ولم ينقد بعد هذا البيان، تبين كذبه واقتراؤه، وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حيناً وما كان من المشركين» أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قبلاً وحديثاً، وقد بين في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالية محمد ﷺ، وبراهين دعوته، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا برسوليه ورددوا دعوتيه، فيقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك، ببراهين وحجج، تتصدع لها الجبال، وتخضع لها الرجال.

أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكسين ناكثين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فكرهه، والباطل فأثره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء «عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» خالدين في اللعنة والعذاب «لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عصرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، الثائنين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم، فإن الله يغفر لهم ما قدموه، ويغفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ «ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملاء الأرض ذهباً ليفتدوا به، لم ينفعهم شيئاً، فعياًد بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» يعني: لن تنالوا وتدركو البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورفقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عبياد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذته الله عليهم، وأقروا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحججة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿٨٣-٨٥﴾ «أغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل أنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسل، وأنها هي الفرض السوجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأجار والرهبان والصليبان، أو إلى التخطيط لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

﴿٨٦-٩١﴾ «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين * أولئك جزأؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم * إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملاء الأرض ذهباً ولو افتدى به

عظيم ﴿ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقزموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله النسب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأخرى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصلوا منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يدعون إلى الخير ﴾ وهو الذين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهامهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبيئات، المرجب لقيامهم به، واجتماعهم، ففترقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - ويخ المعاندين منهم بكفرهم: بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأرفاه.

﴿ ١٠٠ - ١٠١ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴿ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاعتزاز بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يا معشر المؤمنين - بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومنافعه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأئفدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿ فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ ١٠٢ - ١٠٥ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب

فتعين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتقلباته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد بيزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ ٩٨ - ٩٩ ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدقوا عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴿ لما أقام فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمين وقد غيرت الكلمة في المطبع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

ضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سييء، وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة. ومن سواه من المخلوقات، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ثم بيّن متى يكون هذا العذاب العظيم، ويسمى هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يوليوكم الأديبار ثم لا ينصرون﴾. هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحاً، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمرأ بالمعروف، ونهيأ عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، وإلقيام بحقوق الإيمان.

يخبر تعالى، بتفاوت المخلوق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتلوا أمره، واجتنبوا نهييه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنة ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون.

﴿وباؤوا بغضب من الله﴾، أي: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغى وعناد.

﴿وإسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه. والله عليهم بالمتقين. لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يويخون، فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾. والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾. يشني تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الشواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وذر غيره.

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه. والله عليهم بالمتقين. لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف﴾، وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين، ولوا الأديبار، ونصر الله المسلمين عليهم.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان، فقال: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

﴿وإسارعون في الخيرات﴾ والمسارعة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

﴿١١٢﴾ ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعاً بين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدورية والأحكام الشرعية،

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه، من خير قليل أو كثير، فإن الله تعالى سيقبله، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فلن يكفروه﴾، يعني: لن يتكرا ما عملوه، ولن يهدر.

أو ﴿يحبل من الناس﴾، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا الموضوع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية بين القوسين المركبتين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لنقص رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿١١٦-١١٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثّل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿بَيَّنَّ تَعَالَى: أَنَّ الْكُفْرَانَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَبُوا رِسْلَهُ، أَنَّهُ لَا يَنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مُنْقِذٌ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ نَافِعٌ، وَلَا يَنْصِفُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَافِعٌ، وَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، الَّتِي كَانُوا يَعِدُونَهَا لِلشُّدَّانِ وَالْمَكَارِهِ، لَا تَفِيدُهُمْ شَيْئاً، وَأَنَّ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي الدُّنْيَا، لَنْصُرَ بِأَمْوَالِهِمْ، سَتَضْمَحَلُّ.

وَأَنَّ مِثْلَهَا ﴿كَمِثْلٍ﴾ حَرِثَ أَصَابَتَهُ ﴿رِيحٍ﴾ شَدِيدَةٍ ﴿فِيهَا صَرَ﴾، أَي: بَرَدٌ شَدِيدٌ، أَوْ نَارٌ مَحْرَقَةٌ، فَأَهْلَكَتْ ذَلِكَ الْحَرِثَ، وَذَلِكَ بِظُلْمِهِمْ فَلَمْ يَظْلَمَهُمُ اللَّهُ وَيَعَاقِبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

وهذه كقولته تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدَوَا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْإِنَّمَالَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسُوكُمْ وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَنِ الْوَالِيَةِ الْكُفْرَانِ، وَاتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً، أَوْ خَصِيصَةً وَأَصْدِقَاءً، يَسْرُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَفْضُونَ لَهُمْ بِأَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَضَحَ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، الْأُمُورَ الْمَوْجِبَةَ لِلْبِرَاءَةِ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً بِأَنَّهُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً، أَي: هُمْ حَرِيصُونَ غَيْرَ مُقْصِرِينَ، فِي إِصْطَالِ الضَّرْرِ بِكُمْ، وَقَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ كَلَامِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ، مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ، أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ لَكُمْ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

فإن كانت لكم فهومٌ وعقول، فقد وضح الله لكم أمرهم.

وأيضاً، فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تذلون لهم من الشفقة والمحبة، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم، وهم لا يحبونكم، وهم يداهونكم ويناقونكم، فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم، عضوا عليكم الأنامل، من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، أَي: سْتَرُونَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَذَلَّ الْكُفْرَ مَا يَسُوءُكُمْ، وَتَمُوتُونَ بِغَيْظِكُمْ، فَلَنْ تَدْرِكُوا شَفَاءَ ذَلِكَ بِمَا تَقْصِدُونَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فَلِذَلِكَ يَبَيِّنُ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَطْوِي عَلَيْهِ صُدُورُ أَعْدَاءِ الدِّينِ مِنَ الْكُفْرَانِ وَالْمَنَافِقِينَ.

﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً﴾ عِزٌّ وَنَصْرٌ وَعَاقِبَةٌ وَخَيْرٌ ﴿تَسُوكُمْ﴾، وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً مِنْ إِدَالَةِ الْعَدُوِّ، أَوْ حَصُولِ بَعْضِ الْمَصَائِبِ الْاَلْتِنَبِيُوتِيَّةِ ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾، وَهَذَا وَصَفَ الْعَدُوِّ الشَّدِيدِ عِدَاوَتَهُ.

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى شِدَّةَ عِدَاوَتِهِمْ، وَشَرَحَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَبِيثَةِ، أَمَرَ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ، وَلِزُومِ التَّقْوَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِذَلِكَ، فَلَنْ يَضْرِبَهُمْ كَيْدُ أَعْدَائِهِمْ شَيْئاً، فَإِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِمْ وَبِأَعْمَالِهِمْ وَبِمَكَانِدِهِمْ، الَّتِي يَكِيدُونَكُمْ فِيهَا.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى، أنهم لا يضرونكم شيئاً، فلا تشكروا في حصول ذلك.

﴿١٢١-١٢٢﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَذَلِكَ يَوْمَ «أَحَدٍ» حِينَ خَرَجَ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ، حِينَ وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ - بِجَمْعِهِمْ - إِلَى قَرِيبٍ مِنَ «أَحَدٍ». فَتَرَّلَهُمْ ﷺ سَائِلِينَ، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَقَاعِدِهِمْ، وَنَظَّمَهُمْ تَنْظِيماً عَجِيباً، يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ رَأْيِهِ وَبِرَاعَتِهِ الْكَامِلَةِ فِي فَنُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ، كَمَا كَانَ كَامِلاً فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ.

﴿والله سميع عليم﴾، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿إذ همت طافتان منكم أن تفشلا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة، لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه، كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم، في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكله، والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه، ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره، ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربهم، وليخفف هذا هذا، فقال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ في عددكم وعددكم، فكانوا ثلاثمائة، وبضعة عشر، في قلة ظهر، ورثائة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف، في كمال العدة والسلاح.

﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿إذ تقول﴾ مبشراً ﴿للمؤمنين﴾ ميثاً لجنتانهم: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، أَي: مِنْ حَمَلَتِهِمْ هَذِهِ بِهَذَا الْوَجْهِ.

﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، أَي: مَعْلَمِينَ عِلَامَةَ الشُّجْعَانِ.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة، مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها، فيها طمأنينة للقلوب، وثبات على الخير.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾، أَي: نَصَرَ اللَّهُ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ قِطْعاً لَطَرْفِ

فهرس أسماء السور

٦٩٢	تفسير سورة يس	٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٧٠٠	تفسير سورة الصافات	٤٠	تفسير سورة البقرة
٧٠٩	تفسير سورة ص	١٢١	تفسير سورة آل عمران
٧١٧	تفسير سورة الزمر	١٦٣	تفسير سورة النساء
٧٣١	تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢١٨	تفسير سورة المائدة
٧٤٤	تفسير سورة فصلت	٢٥٠	تفسير سورة الأنعام
٧٥٢	تفسير سورة الشورى	٢٨٣	تفسير سورة الأعراف
٧٦٢	تفسير سورة الزخرف	٣١٥	تفسير سورة الأنفال
٧٧١	تفسير سورة الدخان	٣٢٨	تفسير سورة براءة (التوبة)
٧٧٥	تفسير سورة الجاثية	٣٥٧	تفسير سورة يونس
٧٧٩	تفسير سورة الأحقاف	٣٧٦	تفسير سورة هود
٧٨٤	تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٣٩٣	تفسير سورة يوسف
٧٩١	تفسير سورة الفتح	٤١٢	تفسير سورة الرعد
٧٩٩	تفسير سورة الحجرات	٤٢١	تفسير سورة إبراهيم
٨٠٣	تفسير سورة ق	٤٢٩	تفسير سورة الحجر
٨٠٨	تفسير سورة الذاريات	٤٣٥	تفسير سورة النحل
٨١٣	تفسير سورة الطور	٤٥٣	تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٨١٨	تفسير سورة النجم	٤٦٩	تفسير سورة الكهف
٨٢٣	تفسير سورة اقترت (الانشقاق)	٤٨٩	تفسير سورة مريم
٨٢٨	تفسير سورة الرحمن	٥٠١	تفسير سورة طه
٨٣٢	تفسير سورة الواقعة	٥١٨	تفسير سورة الأنبياء
٨٣٧	تفسير سورة الحديد	٥٣٢	تفسير سورة الحج
٨٤٣	تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٥٤٧	تفسير سورة المؤمنون
٨٤٨	تفسير سورة الحشر	٥٦١	تفسير سورة النور
٨٥٤	تفسير سورة الممتحنة	٥٧٧	تفسير سورة الفرقان
٨٥٨	تفسير سورة الصف	٥٨٩	تفسير سورة الشعراء
٨٦٢	تفسير سورة الجمعة	٦٠٠	تفسير سورة النمل
٨٦٤	تفسير سورة المنافقون	٦١١	تفسير سورة القصص
٨٦٦	تفسير سورة التغابن	٦٢٦	تفسير سورة العنكبوت
٨٦٩	تفسير سورة الطلاق	٦٣٦	تفسير سورة الروم
٨٧٢	تفسير سورة التحريم	٦٤٦	تفسير سورة لقمان
٨٧٥	تفسير سورة الملك (تبارك)	٦٥٣	تفسير سورة السجدة
٨٧٨	تفسير سورة ن (القلم)	٦٥٧	تفسير سورة الأحزاب
٨٨٢	تفسير سورة الحاقة	٦٧٤	تفسير سورة سبأ
٨٨٥	تفسير سورة سأل سائل (المعارج)	٦٨٤	تفسير سورة فاطر

- ٩٢٩ . . . تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح)
- ٩٢٩ . . . تفسير سورة التين
- ٩٣٠ . . . تفسير سورة اقرأ (العلق)
- ٩٣١ . . . تفسير سورة القدر
- ٩٣١ . . . تفسير سورة لم يكن (البينة)
- ٩٣٢ . . . تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة)
- ٩٣٢ . . . تفسير سورة العاديات
- ٩٣٣ . . . تفسير سورة القارعة
- ٩٣٣ . . . تفسير سورة الهاكم الكاثر (الكاثر)
- ٩٣٤ . . . تفسير سورة العصر
- ٩٣٤ . . . تفسير سورة الهمزة
- ٩٣٤ . . . تفسير سورة الفيل
- ٩٣٥ . . . تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش)
- ٩٣٥ . . . تفسير سورة الماعون
- ٩٣٥ . . . تفسير سورة الكوثر
- ٩٣٦ . . . تفسير سورة الكافرون
- ٩٣٦ . . . تفسير سورة النصر
- ٩٣٦ . . . تفسير سورة تبت (الذهب)
- ٩٣٧ . . . تفسير سورة الإخلاص
- ٩٣٧ . . . تفسير سورة الفلق
- ٩٣٧ . . . تفسير سورة الناس
- ٨٨٨ . . . تفسير سورة نوح
- ٨٩٠ . . . تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن)
- ٨٩٢ . . . تفسير سورة المزمل
- ٨٩٥ . . . تفسير سورة المدثر
- ٨٩٨ . . . تفسير سورة القيامة
- ٩٠٠ . . . تفسير سورة الإنسان (الدهر)
- ٩٠٣ . . . تفسير سورة المرسلات
- ٩٠٦ . . . تفسير سورة عم (النبا)
- ٩٠٨ . . . تفسير سورة عبس
- ٩١٠ . . . تفسير سورة التكوير
- ٩١٢ . . . تفسير سورة الانفطار
- ٩١٤ . . . تفسير سورة المعطفين
- ٩١٥ . . . تفسير سورة الانشقاق
- ٩١٨ . . . تفسير سورة البروج
- ٩١٩ . . . تفسير سورة الطارق
- ٩٢٠ . . . تفسير سورة سبح (الأعلى)
- ٩٢١ . . . تفسير سورة الغاشية
- ٩٢٣ . . . تفسير سورة الفجر
- ٩٢٤ . . . تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد)
- ٩٢٦ . . . تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس)
- ٩٢٦ . . . تفسير سورة الليل
- ٩٢٨ . . . تفسير سورة الضحى